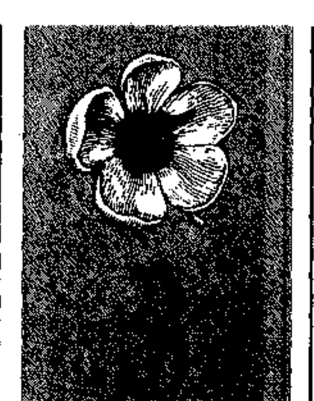
ترجمة : إلياس بديوي



مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود

جانب منازل غرمانت

« البحث عن الزمن المفقود »
مغامرة كائن رائع الذكاء ،
مريض الإحساس ، ينطلق
من طفولته في البحث عن
السعادة المطلقة ، فلا يلقاها
في الأسرة ولا في الحب ولا في
العالم . ويرى نفسه منساقاً
إلى البحث عن مطلق خارج
الزمان ، شأن المتصوفين من
الرهبان ، فيلقاه في الفن ، مما
يؤدي إلى اختلاط الرواية
بحياة الروائي ، وإلى انتهاء
الكتاب لحظة يستطيع
الراوي ، بعدما استعاد
الزمان ، أن يبدأ كتابه ؛
فتنقلب بذلك الحيّة الطويلة
على نفسها لتغلق الحلقة
العملاقة .
رواية تقارب المليون كلمة ،
بأشخاص تبلغ المائتين ،
أشبه ما تكون بالتمثال
الروحي الذي يصُمدُ
كالصخر في وجه العاديات .
إنها مرثاةٌ للدمار الذي
يصنعه الزمن بالأشياء
والناس إن غَفِلَت .



دار شرقيات للنشر والتوزيع


MOHAMED KHATAB


MOHAMED KHATAB

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي



البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروست

ترجمة: الياس بديوي

A la recherche du temps temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

الجزء الثالث:

جانب منازل غرمانت

Le côté de Guermants

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق - القاهرة.

ت: ٣٩٠٢٩١٢ س . ت: ٢٦٩١٩٨

الغلاف الأخير: الصفحة الأخيرة من مخطوطة هذا العمل بقلم مارسيل بروست

تصميم الغلاف: **محيي الدين اللباد**

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة



رقم الايداع ١٩٩٥/١٠٧٣٠

الترقيم الدولي ISBN 977 - 5406 - 89 - 7

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

3

جانب منازل غرمانت

دار شرقيات للنشر والتوزيع


MOHAMED KHATAB



إلى «ليون دوديه»،

إلى مؤلف «رحلة شكسبير» و«اقتسام الطفل»

و«الكوكب الأسود» و«أشباح وأحياء» و«عالم الصور»،

وروائع ما أكثرها.

إلى الصديق الذي لامثيل له،

عربون إقرار بالفضل وإعجاب.

م. پ



القسم الأول


MOHAMED KHATAB



بدت زقزقة العصافير الصباحية تافهة في نظر «فرانسواز».

كانت تنتفض لكل كلمة يقولها «الخدّام»، وتسائل النفس حولهم إذ تزعجم جميع خطاهم، فقد كنّا أخلينا بيتنا. وما كان الخدم بالتأكيد أقل حركة في «السادس» من مسكننا السابق، ولكنها كانت تعرفهم وقد جعلت من غدوهم ورواحهم أموراً يطبعها الودّ.

والآن تولي الصمت نفسه انتباها أليما. ولما كان يبدو حيّنا الجديد هادئاً بقدر صخب الشارع الذي كنّا حتى ذاك نطلّ عليه فإن أغنية رجل يعبر الطريق (وتميزها حتى من بعيد، آن هي ضعيفة كفكرة موسيقية ترددها أوركسترا) كانت تملأ بالدمع عيني «فرانسواز» في منفاها. ولئن سبق لي أن سخرت منها هي التي، إذ حزّ في نفسها أن وقع عليها هجر مبنى يسمى إليك فيه أحسن التقدير من كل صوب، حزمت أمتعتها باكية، حسب طقوس «كومبريه»، ومعلنة أن ما كان بيتنا يفوق جميع البيوت الممكنة، فقد تقرّبت في مقابل ذلك، أنا الذي كان يتمثل الأشياء الجديدة بصعوبة تساوي اليسر الذي أهجر به القديمة، تقرّبت من خادمتنا العجوز حينما رأيت أن الاقامة في بيت لم يحطها فيه البواب الذي لم يكن بعد يعرفنا بعلامات الاعتبار الضروري لحسن غذائها الروحي قد أغرقتها في حالة قريبة من السقم. وحدها كانت تستطيع أن تفهمني، وما كان خادمها بالتأكيد من يفعل ذلك، فالانتقال إلى بيت جديد والسكنى في حي آخر كانت بالنسبة إليه، هو الذي يبدو أقل ما يمكن من «كومبريه»، كمثل أن تنعم بعطلة توليك جدّة الاشياء فيها ما يوليك السفر من راحة.

كان يحسب نفسه في الريف ؛ لقد أولاه زكام ألمّ به، كمثل «لفحة هواء» تصيبك في عربة قطار لايطبق زجاجها بإحكام، انطباعاً لذيذاً بأنه طوّف في البلاد، فلقد كان يغتبط لدى كل عطسة أن لقي محلاً أنيقاً إلى هذا الحد إذ رغب على الدوام موالي كثيري الأسفار، لذلك اتجهت رأساً إلى «فرانسواز» دون أن أفكر فيه. ولما كنت قد ضحكت من دموعها في رحيل خلّف في نفسي اللامبالاة فقد أبدت فتوراً شديداً إزاء حزني لأنها كانت تشاطرني إياه. فإن أنانية العصبيين تكبر مع حساسيتهم المزعومة، ذلك أنهم لايطيقون لدى الآخرين إبراز ضيق يعيرونه هم انتباها متزايداً.

و«فرانسواز» التي ما كانت تغفل أقل ما ينتابها من ضيق كانت تدير رأسها إن أنا تألمت كي لايغبطني أن أرى ألمي موضع رثاء وحتى مثار اهتمام. كذلك فعلت حالما أردت أن أحدثها عن بيتنا الجديد. ولما اضطرّت «فرانسواز» على أي حال أن تذهب بعد انقضاء يومين لتجلب ملابس منسية في البيت الذي غادرناه منذ قليل فقد عادت، فيما كنت لا أزال عقب انتقالنا إلى البيت الجديد «محموماً» وأحس بي تحدّبا في النفس مجهداً من جراء صندوق طويل كانت عيناي تحاولان «ابتلاعه» كمثل ثعبان ضخم أقدم على ابتلاع ثور، عادت تقول، تطبعها خيانة النساء، إنها أوشكت تختنق في شارعنا السابق وإنها رأت نفسها وقد ضلت طريقها تماماً في سعيها للذهاب إلى هناك وانها لم تبصر قط أدراجاً صعبة إلى هذا الحدّ وإنها لن تعود للسكنى هناك «مقابل امبراطورية» ولو وهبوها الملايين – وهي افتراضات مجانية- وان كل شيء (وتعني ما يخص المطبخ والممرات) أفضل ترتيباً في بيتنا الجديد. ولقد آن لنا أن نقول أن بيتنا هذا – وقد جئنا للسكنى فيه لأن جدتي كانت على غير ما يرام من الصحة، وهو سبب حرصنا ألا نذكره لها فكانت بحاجة إلى هواء أكثر نقاء– كان شقة تابعة لفندق آل «غير مانت».

وفي العصر الذي تضطرنا فيه الأسماء، إذ تقدم لنا صور المجهول الذي سكبناه فيها في اللحظة نفسها التي تشير فيها كذلك في نظرنا إلى مكان حقيقي، إلى المماثلة بين هذا وذاك إلى حد أننا نمضي في البحث في مدينة ما عن روح لايمكن أن تضمها ولكنه لم يعد بمقدورنا أن نقصيها عن اسمها، فإن هذه الأسماء لاتضفي شخصية على المدن والأنهار فحسب مثلما تفعل الرسوم الرمزية، وهي لاتلون العالم المادي فحسب بمواطن الاختلاف وتعمره بالخوارق، بل العالم الاجتماعي كذلك: وإذ ذاك يضحي لكل حصن ولكل فندق أو قصر مشهور سيدته أو جنيته مثلما للغابات جنياتها وللمياه آلهاتها. وتتحول الجنية أحياناً، وقد اختبأت في أعماق اسمها، حسبما تقضي حياة مخيلتنا التي تمدها بالغذاء، وعلى هذا النحو شرع الجو الذي كانت السيدة «دو غيرمانت» تعيش فيه في داخلي، بعدما ظل على مدى سنوات محض ومضة زجاج فانوس سحري أو زجاج كنيسة ملون، شرع يخمد ألوانه حينما ملأته أحلام مغايرة تماماً بزبد السيول الندي.

بيد أن الجنية تتلاشى إن اقتربنا من الشخص الحقيقي الذي يقابله اسمها، فذلك الشخص إنما يأخذ الاسم حينذاك يعكس صورته ولا يتضمن من الجنية شيئاً ؛ ويمكن أن تولد الجنية ثانية إن ابتعدنا عن الشخص، أما اذا ظللنا بالقرب منه فإن الجنية تموت موتاً نهائياً ويموت الاسم معها، كمثل أسرة «لوزينيان» التي كانت ستنطفئ يوم تختفي الجنية «ميلوزين» وإذ ذاك يضحي الاسم الذي ربما أمكن في النهاية أن نلقى تحت طبقاته اللونية المتعاقبة، أن نلقى في الأصل الرسم الجميل لغريبة لم نعرفها في يوم، يضحي ذلك الاسم محض بطاقة هوية فوتوغرافية نعود إليها لنعلم إن كنا نعرف شخصاً يعبر طريقه وإن كان علينا أن نحييه أم لا. فإن سمح شعور يعود إلى سنة سابقة – شأن آلات الموسيقى المسجلة التي تحتفظ برنة الفنانين المختلفين الذين عزفوا عليها وبأسلوبهم – إن سمح لذاكرتنا أن تسمعنا ذاك الاسم بالنغمة الخاصة التي كان يحملها آنذاك بالنسبة إلى أذننا فإننا نحس، والاسم لم يتبدل في الظاهر، بالمسافة التي تفصل الواحد عن الآخر الأحلام التي عنتها على التوالي في نظرنا مقاطعه المتماثلة ونستطيع للحظة أن نستخلص من النغمة العائدة التي كانت نغمته في ذاك الربيع الغابر، شأننا من الأنابيب الصغيرة التي تستخدم في الرسم، اللون الصحيح المنسي الخفي الندي للأيام التي خلنا فيما مضى أننا نتذكرها حينما كنا نضفي على كامل ماضينا المنشور على اللوحة الواحدة، كمثل الرديئين من الرسامين، ألوان الذاكرة الإرادية المبتذلة المتشابهة جميعها. ولكن كل واحدة من اللحظات التي شكلته كانت تستخدم على العكس، في سبيل إبداع أصيل وفي تناغم فريد، ألوان ذاك الحين، تلك التي، لا نعرفها من بعد والتي لاتزال، على سبيل المثال، تخلب لبي فجأة أن عاد اسم «غيرمانت»، بفضل صدفة ما، يتخذ لحظة بعد هذه السنوات الطويلة، الرنة الشديدة الاختلاف عن رنة اليوم والتي كانت رنته بالنسبة إليّ يوم زواج الآنسة «بيرسبييه»، فيعيد إليّ هذا اللون الخبّازي الشديد النعومة البالغ اللمعان المفرط في جدّته الذي تَرقُّ به ربطة عنق الدوقة الشابة المنفخة وعيناها اللتان تشرق فيهما ابتسامة زرقاء مثل عناقية يستحيل قطافها وقد أزهرت من جديد. وان اسم «غيرمانت» الأمس لهو أيضاً كأحد تلك النفّاخات الصغيرة التي احتبس فيها الاوكسجين أو أي غاز آخر فاني حينما أفلح في شقه وإخراج ما يحتويه أتنشق هواء «كومبريه» لذلك العام، لذلك اليوم، تمتزج فيه رائحة زعرور أبيض حركتها ريح الزاوية في الساحة، الريح التي تنذر بالمطر والتي كانت تطرد الشمس تارة وطوراً تفسح لها أن تستلقي على سجادة الصوف الحمراء في السكرستيا وتكسوها بلون الجيرانيوم الزهري اللماع الذي يقرب أن يكون وردياً وبهذه العذوبة في الابتهاج، وتخالها «فاغنيرية»، التي

تغمر الاحتفال بهذا القدر من النبل. ولئن كانت الأسماء، حتى خارج الدقائق القليلة الشبيهة بتلك والتي نحس فيها فجأة بالكيان الأصلي يختلج ويستعيد شكله وخط نقوشه داخل المقاطع الميتة في يومنا هذا، لئن كانت قد فقدت كل لون في زوبعة الحياة اليومية المدوخة التي لم يظل لها سوى استخدام عملي تماماً، كمثل خذروف موشوري يدور بسرعة مفرطة فيبدو رمادياً، فإننا في مقابل ذلك حينما نفكر في طور أحلامنا، حينما نحاول كيما نعود إلى الماضي أن نبطئ الحركة الدائمة التي تذهب بنا وان نوقفها فإننا نعود فنرى الألوان التي توالي بها الاسم الواحد لناظرينا تبرز شيئاً فشيئا متجاورة ولكنما يتميز بعضها عن بعض تميزاً كلياً.

وإني دون شك لا أدري أي شكل كان يبرز لعيني في اسم «غيرمانت» هذا حينما كانت مربيتي تهدهدني بهذه الأغنية القديمة– وهي تجهل دونما شك، شأني اليوم، على شرف من تم تأليفها: «العزّة لمركيزة غيرمانت»، أو حينما كان الماريشال «دو غيرمانت» العجوز، بعد بضع سنوات، يتوقف في «الشانز يليزيه» ليقول، وتمتلئ خادمتي بذلك اعتزازا: «ياللطفل الجميل!» ويخرج من علبة «سكاكر» من جيبه قرصاً من الشوكولاته. إن سني طفولتي الأولى تلك لم تعد في داخلي، إنها في خارجي ولست استطيع أن أعلم شيئاً منها إلاّ بفضل حكايات الآخرين، كما هو أمر ما جرى قبل مولدنا. بيد أني ألقى فيما بعد على التوالي، في دوام هذا الاسم نفسه في داخلي، سبعة أو ثمانية وجوه مختلفة. كانت الأولى منها هي الأجمل: ثم يأخذ حلمي شيئاً فشيئا، وقد اضطره الواقع أن يهجر موقعاً لا يمكن الدفاع عنه، بالتحصن ثانية دونه بقليل حتى يضطر إلى التراجع مرة أخرى. وفي الحين نفسه الذي تتبدل فيه السيدة «غيرمانت» كان يتبدل منزلها المستخلص هو الآخر من ذاك الاسم الذي يخصبه سنة بعد سنة هذا القول أو ذاك أسمعه فيبدل أحلامي: كان ذلك المنزل يعكسها في حجارته ذاتها وقد أضحت عاكسة كسطح سحابة أو بحيرة. فهذا برج لاسماكة له، وهو محض شريط من الضوء البرتقالي كان السيد وعقيلته يبتان من عليائه أمر حياة أتباعهما وموتهم، قد أفسح المكان– في أقصى «جانب غيرمانت» هذا الذي كنت أحاذي فيه مجرى نهر الـ«فيفون» بصحبة والديّ في الكثير من فترات العصر الجميلة– لهذه الأرض الكثيرة السيول التي كانت الدوقة تعلمني فيها صيد سمك «التروتة» واسم الزهور ذات العناقيد البنفسجية والضاربة إلى الحمرة التي تزين الجدران الواطية للاسياج المحيطة ؛ ثم كانت تلك الأرض المتوارثة والأملاك الشاعرية التي أخذت سلالة «دو غيرمانت» الأبية مذ ذاك تشمخ فيها، مثل برج مصفر ومزخرف بنقش الزهر يخترق العصور، فوق فرنسه في حين كانت السماء لاتزال خالية حيث ستنبثق فيما بعد كنيسة «نوتردام» في باريس وكنيسة «نوتردام» في «شارتر»، وفي حين لم يقم على قمة رابية «لان» صحن الكاتدرائية مثل سفينة الطوفان على قمة جبل أرارات وقد غصت بالآباء [(١)] والصالحين يطلون قلقين من نوافذها ليبصروا إن كان غضب الله قد هدأ وحملت معها اصناف النباتات التي ستكاثر على الأرض وفاضت بالحيوانات التي تنطلق حتى من الأبراج حيث تجول ثيران بهدوء على السطح وتنظر من علٍ إلى سهول «شامبانيه» ؛ وفي حين لايرى المسافر بعد، وهو يغادر مدينة «بوفيه» في آخر النهار، أجنحة الكاتدرائية السوداء المتفرعة المبسوطة على شاشة الغروب الذهبية تتبعه محوّمة. كانت «غيرمانت» تلك، شأن إطار روائي، منظراً خيالياً كنت أجد مشقة في تمثله ورغبة تتزايد بذلك في اكتشافه، تكتنفه أراض وطرق

---

(١) آباء الكنيسة هم رؤساؤها وكبار معلميها.

حقيقية تتشرب فجأة خصائص شعارية، على بعد فرسخين من إحدى المحطات ؛ كنت أتذكر أسماء الأماكن المجاورة كما لو وقعت على حضيض جبل الـ«بارناس» أو «الهيليكون» [١] وكانت تبدو لي ثمينة شأن الشروط المادية-في علم الطوبوغرافية- في انتاج ظاهرة خفية. لقد عدت أرى الشعارات المرسومة على قواعد زجاج «كومبريه» الملون الذي امتلأت أقسامه قرناً بعد قرن بجميع البيوتات العريقة التي اجتذبها إليه ذلك البيت الشهير من سائر أركان ألمانية وايطالية وفرنسة بالزواج أو الشراء: فأراض شاسعة في الشمال ومدن قوية في الجنوب جاءت تلتقي وتتألف حول اسم «غيرمانت» وترسم بالرمز، بعدما فقدت ماديتها، برجها الذي من لون أخضر أو قصرها الذي من فضة في نطاقه اللازوردي. لقد سبق أن سمعت عن سجاد «غيرمانت» وأراها وسيطية زرقاء على شيء من السماكة تبرز كسحابة على الاسم الأرجواني الخملي الأسطوري على حضيض الغابة العتيقة التي كثيراً ما اصطاد فيها «شيلدبير» وكان يبدو لي أنني ربما ولجت أسرار هذه الأراضي القصية الخفية وهذه القرون السحيقة، مثلما يتفق لي في رحلة، بمحض اقترابي لحظة في باريس من السيدة «غيرمانت» والية المكان وسيدة البحيرة كما لو أبتغي أن يمتلك محياها وأقوالها سحر الغابات والضفاف المحلي والخصائص البالغة القدم نفسها التي تملكها مجموعة الأعراف القديمة في محفوظاتها. ولكنني كنت إذ ذاك قد عرفت «سان لو» وقد أخبرني أن القصر لم يدع «غير مانت» إلاّ منذ القرن السابع عشر يوم اشترته أسرته. لقد أقامت حتى ذاك في الجوار ولم يأتها لقبها من تلك المنطقة. فلقد أخذت قرية «غيرمانت» اسمها من القصر الذي بنيت بعده وقد نظمت تدابير قاسية ظلت سارية المفعول مخطط الشوارع وحددت ارتفاع المنازل كي لاتقضي على مناظره. أما الطنافس فكانت من أعمال «بوشيه» وقد اشتراها هاوٍ من آل «غيرمانت» في القرن التاسع عشر ووضعت في صالة شديدة القبح مغطاة بقماش قطني أحمر وآخر طويل الخملة إلى جانب لوحات صيد ضحلة المستوى رسمها بنفسه. لقد أدخل «سان لو» على القصر بهذه التصريحات عناصر غريبة عن اسم «غيرمانت» لم تسمح لي من بعد بموالاة استخلاص حجارة المباني من رنّة المقاطع فحسب. حينئذ امحى في أعماق ذاك الاسم القصر الذي يتعكس في بحيرته ؛ أما مد بدا لي من حول السيدة «دو غيرمانت» على أنّه مسكنها فقد كان فندقها في باريس، فندق «غيرمانت»، وهو صاف صفاء اسمها إذ لم يقم ثمة أي عنصر مادي عاتم يوقف شفافيته ويقضي عليها. وكما أن الكنيسة لاتعني المعبد فحسب بل جمهور المؤمنين كذلك، كان فندق «غيرمانت» هذا يضم جميع الذين يشاطرون الدوقة حياتها، بيد أن هؤلاء الألأف الذين ما رأيتهم قط إنما كانوا في نظري محض أسماء مشهورة وشاعرية وهم إذ لا يعرفون سوى أشخاص هم بدورهم محض أسماء إنما كانوا يزيدون من سر الدوقة الخفي ويحمونه إذ يمدّون من حولها هالة واسعة أقصى ما يصيبها أن تتبهت ألوانها شيئاً فشيئاً.

ولما كنت لا أتخيل، في الاحتفالات التي كانت تقيمها، أي جسد للمدعوّين وأي شارب وأي حذاء وأية جملة منطوقة تبدو تافهة أو حتى مبتكرة على نحو إنساني ومطابق للعقل، فقد كانت زوبعة الأسماء تلك التي تحمل من الملموس أقل مما يتوافر لوليمة أشباح أو لحفلة أطياف راقصة حول هذا التمثال الذي من بورسلين «ساكس» والذي تمثله السيدة «دو غيرمانت»، كانت تحتفظ لفندقها الزجاجي بشفافية الواجهات

(١) Le Parnasse et l'Hélicon من جبال اليونان واشتهرا بتكريم ربات الشعر، والتكريم ربما أفضى إلى مسابقات شعرية.

الزجاجية. ثم اضحى فندق «غيرمانت» ، بعدما قص عليّ «سان لو» نوادر عن كاهن الكنيسة وبستانيي ابنة عمه، أضحى – شأن ما أمكن أن يكون عليه بالأمس مبنى «اللوفر» – ضرباً من القصور تحيط به، في وسط باريس نفسها، أراضيه التي تمت ملكيتها بالوراثة بموجب حق قديم مستمر على نحو غريب والتي لاتزال تمارس عليها امتيازات إقطاعية. على أن هذا المنزل الأخير قد تلاشى بدوره حينما جئنا للسكنى بالقرب من السيدة «دو فيلباريزيس» في إحدى الشقق المجاورة لشقة السيدة «دو غيرمانت» في أحد أجنحة فندقها. لقد كان واحدا من تلك المساكن القديمة على غرار تلك التي لعلها لاتزال قائمة والتي غالباً ما تملك فيها باحة الشرف على جوانبها مستودعات دكاكين ومشاغل وحتى دكان حذاء أو خياط– وهي إما طمي حملته مياه الديمقراطية الصاعدة وإما تراث من أزمنة أكثر اغراقاً في الماضي كانت مختلف المهن تجتمع فيها حول السيد – كتلك التي تراها تستند إلى جنبات الكاتدرائيات التي لم تبرزها يد المهندسين المجمّلة، وبواب حذاء يربي الدجاج ويزرع الزهور– وفي أقصاها، في المسكن «الذي له هيئة الفندق»، هناك «كونتيسه» كانت توزّع دونما تمييز لدى خروجها في عربتها القديمة التي يجرها حصانان وتبرز فوق قبعتها بعض من أزاهير الجرجير تبدو وكأنها هربت من حديقة المقصورة (وإلى جانب حوذيها خادم ينزل ليوزع بطاقات في كل فندق ارستقراطي في الحي)، توزع دون تمييز بينهم بسمات وتلويحات تحية باليد لأولاد البواب والمستأجرين البورجوازيين في المبنى الذين يعبرون في تلك اللحظة والذين تخلط بينهم في أنسها المستعلي ونزعة المساواة المستكبرة لديها.

وفي المنزل الذي جئنا للسكنى فيه كانت السيدة الكبيرة التي في أقصى الباحة «دوقة»، وهي أنيقة ولا تزال شابة بعد وكانت السيدة «دوغيرمانت»، وقد توافرت لدي معلومات حول الفندق في مدة قصيرة بفضل «فرانسواز». ذلك أن عائلة «غيرمانت» (وغالبا ما تشير إليهم «فرانسواز» بكلمتي «في الأسفل» و«تحت») كانت تؤلف شغلها الشاغل منذ الصباح الذي ألقت فيه، فيما كانت تسرّح والدتي، نظرة محظورة خفية لا تقاوم إلى الباحة، وكانت تقول: «عجباً، تلكم راهبتان ؛ أنهما ذاهبتان بالتأكيد إلى أسفل أو: «آه! ما أجملها تدارج في نافذة المطبخ، ولا حاجة أن نسأل من أين جاءت، فالدوق لابد ذهب إلى الصيد»، وحتى المساء حيث تستخلص، إن هي سمعت، فيما تعطيني حوائجي الليلية، ضجة «بيانو» أو أصداء أغنية: «لديهم جماعة » في الاسفل» والجو يميل إلى المرح» ؛ حينئذ كانت بسمة من شبابها زاخرة بالحيوية والحشمة تضع لحظة واحدة كلا من ملامحها في مكانه وتطابق بينها في نظام معدّ ودقيق كما هي الحال قبل رقصة جماعية.

بيد أن اللحظة التي كانت تثير اهتمام «فرانسواز» أشد ما تثير في حياة آل «غيرمانت» وتخلف لديها أشد أشد الرضى وتشق عليها كذلك كثيراً إنما كانت بالضبط تلك التي تنفتح فيها البوابة الرئيسية على مصراعيها وتصعد الدوقة إلى عربتها. كان ذلك يجري عادة بعدما ينتهي خدّامنا بوقت قصير من الاحتفال بهذا الفصح المهيب الذي ينبغي ألا يقطعه أحد والمدعو غداءهم والذي كان من «المحرمات» إلى حد لا يأذن فيه حتى والذي لنفسه أن يستدعيهم في أثنائه وهو يعلم على أية حال أن لن يكلف أحد نفسه المجيء في دقة الجرس الخامسة أكثر مما يفعل في الأولى وأنه إنما يأتي على هذا النحو عملاً غير لائق لا يجديه نفعاً فيما لن يتم دونما اضرار به. ذلك أنه ما كان ليفوت «فرانسواز» (التي كانت تتخذ لنفسها في كل لحظة، منذ أصبحت امرأة عجوزاً، ما يسمى بالسحنة المناسبة) أن تبرز إليه طوال النهار بوجه تغطيه علامات صغيرة مسمارية وحمراء

تنتشر بها في الخارج، ولكن على نحو قلما يمكن فك رموزه، مذكرة شكاواها الطويلة وأسباب استيائها العميقة. كانت تجود بها على أية حال على حدة ولكن دون أن يمكننا تمييز الكلمات بوضوح. وكانت تسمي ذلك- وتظنه مكدراً بالنسبة إلينا ومؤلماً ومزعجاً- التحدث إلينا طوال النهار القدسي بصوت خفيض.

وبعد إنجاز الطقوس الأخيرة كانت «فرانسواز»، وهي في آن واحد، كما هي الحال في الكنيسة الأولى، الكاهن الذي يقيم القداس وواحد من المؤمنين، كانت تسكب لنفسها كأساً أخيراً من النبيذ وتنزع فوطتها عن رقبتها وتطويها وهي تمسح عن شفتيها بقية ماء تخالطه حمرة وقهوة وتضعها في حلقة وتشكر بنظرة شاكية خادمها الذي يقول لها مبالغة في الحماس: «هيا ياسيدتي. دونك أيضاً قليلاً من العنب، إنه لذيذ»، ويمضي في الحال لـفتح النافذة بحجة أن الحر شديد جداً «في هذا المطبخ التعيس». وكانت إذ تلقي نظرة سريعة متجردة إلى أقصى الباحة، فيما تدير في الآن نفسه قبضة النافذة وتستنشق الهواء، كانت تختلس منها اليقين بأن الدوقة لم تكن جاهزة بعد وتغمر مدى لحظة بنظرات ازدراء وشغف العربة المسرجة خيولها وبعدما تصرف عيناها لحظة الانتباه هذه الأمور الدنيا كانت ترفعها إلى السماء التي سبق أن استشفّت صفاءها إذ أحست بلطافة الهواء ودفء الشمس. كان تنظر في زاوية السطح إلى المكان الذي كانت تقبل إليه كل ربيع حمامات تبني عشها فوق موقد غرفتي بالتمام شبيهة بتلك التي كانت تهدل في مطبخها في «كومبريه».

وكانت تصرخ قائلة: «آه، كومبريه، ياكومبريه». (ولعل اللهجة المرتلة تقريباً التي كانت تلقي بها ذاك الدعاء كان يمكن أن تثير، فيما يخص «فرانسواز»، شكوكاً بمنشأ جنوبي، بقدر ما يفعل نقاء ملامح وجهها «الأرليزي»[1]، وبأن الوطن المفقود الذي تبكيه لايعدو كونه وطناً بالتبني. ولكن ربما كان المرءعلى ضلال إذ يبدو أن ليس من مقاطعة إلا ولها «جنوبها»، فكم من «سافواردي» و«بريتاني»[2] تلقى ممن تعثر لديهم على جميع صنوف التنقيل العذب ما بين مقاطع طويلة وقصيرة تطبع سكان الجنوب!) «آه! ياكومبريه، متى أعود فألقاك أيتها الأرض المسكينة! متى أستطيع قضاء النهار القدسي بطوله تحت أزاهير زعرورك وليلكنا المسكين وأنا أصغي إلى الحساسين وإلى نهر «فيفون» الذي يصدر كأنما همس من يسرّ إليك بسر عوضاً عن أن أسمع جرس معلمنا الشاب التعيس الذي لايبقى نصف ساعة البتة دون أن يحملني على الجري على طول هذا الممر الشيطاني. والأنكى أنه يرى أني لا أمضي بسرعة كافية كأنما ينبغي أن تسمع قبلما يدق، وإن تأخرت دقيقة انتابته صنوف من الغضب مريعة. أواه يا «كومبريه»؛ قد لا أعود أراك إلاّ ميتة حينما يرمونني رمية الحجر في حفر القبر. وإذ ذاك لن أشمها من بعد أزاهير زعرورك الناصعة البياض. ولكني أظن أني سأظل أسمع في رقدة الموت دقات الجرس الثلاث التي سبق أن قادتني إلى التهلكة في حياتي».

ولكنما نداءات صانع الصداري في الباحة كانت تقاطعها، ذاك الذي راق جدتي فيما مضى إلى حد بعيد يوم ذهبت للقاء السيدة «دوفيلباريزيس» ولم يكن يشغل منزلة أدنى في مودّة «فرانسواز». وكان قد رفع رأسه إذ سمع من يفتح نافذتنا وقدكان يحاول منذ فترة أن يسترعي انتباه جارته كي يقرئها التحية. وإذ ذاك

(١) نسبة إلي مدينة Arles في جنوب فرنسة.

(٢) نسبة إلي مقاطعتي Bretagne, Savoie في فرنسة

كان غنج الفتاة التي سبق أن كانتها «فرانسواز» يضفي في نظر السيد «جوبيان»رقة على الوجه المتأفف الذي لطاهيتنا العجوز التي ثقلت من جراء السنين والمزاج المتكدر وحرارة الموقد وكانت ترسل لصانع الصداري بمزيج رائع من الحيطة والألفة والاحتشام تحية رقيقة ولكن دون أن تجيبه بصوتها لأنها إن كانت تخالف توصيات والدتي إذ تنظر إلى الباحة فما كانت لتجرؤ على تحديها إلى حد التحدث من النافذة، الأمر الذي كان من مزاياه، حسبما ترى «فرانسواز»، أن يسمعها «فصلاً كاملاً» على لسان السيدة. كانت تدله على العربة المسرجة وكأنما تقول: «جياد عظيمة، هيه!» ولكنما تهمس في الوقت نفسه: «ياللعجوز الشمطاء!»، ولاسيما أنها تعلم أنه سيجيبها وهو يضع يده أمام فمه كيما يمكن سماعه فيما يتكلم بصوت منخفض: «وأنتم أيضاً تستطيعون اقتناء مثلها لو شئتم وربما أكثر منهم ولكنكم لاتحبون كل هذا».

وكانت «فرانسواز»، بعد أشارة متواضعة متهربة مفتونة تعني على وجه التقريب: «لكل طريقته، والاتجاه هنا إلى البساطة»، كانت تغلق النافذة مخافة أن تصل أمي. أما الـ «أنتم» الذين كان بامكانهم اقتناء خيول أكثر من آل «غيرمانت» فنحن، ولكن «جوبيان» كان محقاً بقوله «أنتم» لأن «فرانسواز»، فيما عدا بعض متع الاعتزاز بالنفس الشخصية المحضة (كأن تزعم، حينما كانت تسعل دونما توقف حتى ليخشى البيت بكامله أن يصاب بزكامها، تزعم بتهانف يغيظك أنها غير مصابة بالزكام)، مثلها مثل تلك النباتات التي يغذيها حيوان اتحدت به اتحاداً كلياً بالأغذية التي يلتقطها ويأكلها ويهضمها من أجلها ويقدمها لها عبر فضلاته الأخيرة القابلة للتمثل تماماً، كانت تعيش في اتحاد كلي معنا. فنحن من كان عليهم واجب أن يضعوا بفضائلهم وثروتهم ونمط معيشتهم المسرات الصغيرات الصغيرة التي ترضي اعتزازها بنفسها والتي يتألف منها هذا القسم من الارتياح النفسي الذي لاغنى عنه لحياتها- مضافاً إليه الحق المعترف به في ممارسة طقوس الغداء ممارسة حرة وفق العرف القديم الذي يتضمن نشقة الهواء أمام النافذة بعدما ينتهي وتسكع في الشارع وهي تمضي لشراء حاجاتها ونزهة يوم الأحد لتذهب لزيارة ابنة أخيها.

واننا ندرك لذلك أن استطاعت «فرانسواز» أن تهزل في الأيام الأولى وقد وقعت- في بيت لم تكن جميع ألقاب والدي الفخرية معروفة فيه بعد- فريسه داء كانت تدعوه هي نفسها السأم، السأم بالمعنى القوي الذي يكتسبه لدى «كورنيي» أو بريشة الجنود الذين ينتحرون في نهاية المطاف لانهم «يسأمون» أشد السأم حنيناً إلى خطيبتهم وقريتهم. أما سأم «فرانسواز» فسرعان ماتم شفاؤه وعلى يد «جوبيان» بالضبط لأنه أمدها في الحال بمتعة في مثل شدة تلك التي كانت تتوافرت لها، لو صممنا على اقتناء عربة، واكثر رهافة. عائلة «جوليان» (إذ يطيب لـ «فرانسواز» أن تماثل بين المفردات الجديدة وتلك التي تعرفها من قبل)- يانعم الناس، إنهم جماعة طيبون، ذلك باد على وجوههم.» وقد عرف «جوبيان» بالفعل كيف يدرك ويعلّم الجميع أننا أن لم نقتن فريق خدم فلأننا لانبغي ذلك.

وصديق «فرانسواز» هذا قليلاً ما كان يعيش في منزله إذ حصل على وظيفة مستخدم في إحدى الوزارات. كان بادئ الأمر يضع الصداري مع «البنيّة» التي حسبتها جدتي ابنته فلم تعد لديه أية فائدة في ممارسة الصنعة حينما اتجهت الصغيرة التي كانت تجيد مذ ذاك، ولاتزال بعد طفلة تقريباً، خياطة التنانير حينما ذهبت جدتي فيما مضى في زيارة للسيدة «دوفيلباريزيس»، وجهة الخياطة للسيدات وأصبحت خياطة تنانير.

كانت بادئ الأمر صانعة صغيرة لدى خياطة يعهد إليها بدرزة وخياطة كشكش و«تركيب» زر أو كباس وإحكام خصر بوساطة بكل، وسرعان ما انتقلت إلى مركز المساعدة الثانية ثم الأولى، وإذ اتخذت زبائن من سيدات أرقى المجتمعات أخذت تعمل في منزلها، يعني في ساحة دارنا، وفي الغالب مع واحدة أو اثنتين من رفيقاتها الصغيرات في المشغل تستخدمهما بمثابة متدربتين. ومنذ ذاك أصبح وجود «جوبيان» أقل فائدة. ما من شك أن الصغيرة، وقد أضحت كبيرة، كانت لاتزال تضطر أن تصنع الصداري. ولكنها بمساعدة صديقتيها لم تكن تحتاج أحداً. ولذلك التمس عمها «جوبيان» عملاً. كان بادئ الأمر حراً في العودة ظهراً وبعدما حلّ نهائياً محل من كان يساعده فحسب لم يعد يفعل قبل ساعة العشاء. ولم يتم تثبيته لحسن الحظ إلاّ بضعة أسابيع بعد سكنانا، الأمر الذي أمكن معه أن يعمل لطف «جوبيان» فترة تكفي لمساعدة «فرانسواز» على اجتياز الأوقات الأولى البالغة الصعوبة دونما فرط عذاب. بيد أنه يجدر بي الإقرار بأن «جوبيان لم يرقني كثيراً لاول وهلة دون أن أتجاهل الفائدة التي نالتها «فرانسواز» منه بوصفه «دواء انتقاليا». كانت عيناه على مسافة خطوات تنقضان تماماً الأثر الذي ربما خلفته لولاهما وجنتاه السمينتان ولونه الموّرد، عيناها اللتان تفيض منهما نظرة مشفقة حزينة حالمة وتحملان على الظن بأنه شديد المرض أو أنه ألمّ به حزن كبير. ولم يكن من ذلك شيء بل كان يبدو بالأحرى، ساعة يتحدث، أحسن الحديث على أية حال، مجافياً ساخراً. وكان ينتج عن هذا التعارض بين نظرته وحديثه شيء من الزيف لم يكن مستحباً وكان يبدو هو نفسه من جرائه وكأنما يحس بمثل ضيق مدعو باللباس العادي في سهرة يرتدي فيها الجميع اللباس الرسمي أو واحد يقع عليه أن يجيب أحد أصحاب السمو فلا يعلم بالضبط كيف يحدثه ويتخطى الصعوبة بخفض حجم جمله إلى لاشيء تقريباً. أما جمل «جوبيان» – والأمر مقارنة بحتة – فقد كانت على العكس رائعة. فسرعان ما تبينت لديه بالفعل، بما وافق اغراق العينين للوجه (وهو أمر لم يعد يسترعي الانتباه بعدما تعرفه)، ذكاء نادراً ومن أكثر ما تيسرت لي معرفته اتساماً بالطابع الأدبي العفوي بمعنى أنه اكتسب أو تمثل، دونما ثقافة على الأرجح، وبمحض قراءة عجلى لبعض الكتب، أكثر قوالب اللغة براعة. ولما كان أكثر الناس مواهب ممن سبقت لي معرفتهم قد قضوا نحبهم في مقتبل العمر فقد كنت على يقين بأن حياته سوف تنقضي بسرعة. كان قلبه عامراً بالطيبة والشفقة وأكثر المشاعر رقة وكرماً.

وسرعان ما كف دوره في حياة «فرانسواز» عن كونه ضرورياً. فقد تعلمت كيف تتخطاه. كانت «فرانسواز»، حتى حينما يجيء بائع أو خادم يحمل إلينا رزمة، أي رزمة، كانت تستغل، فيما تبدو وكأنها لاتهتم به وتشير فحسب بمظهر اللامبالي إلى كرسي وهي توالي عملها، اللحظات القليلة التي يقضيها في المطبخ في انتظار جواب أمي، على نحو حاذق حتى ليندر أن يعود دون أن يكون قد انغرس في نفسه على نحو لا يمّحي اليقين بأنه «إن لم يتوافر لدينا فلأننا لانريد». ولئن كانت شديدة التمسك من جهة أخرى بأن يعلم الناس أننا نملك «من المال»، (إذ كانت تجهل ما يدعوه «سان لو» غير المعرّف وتقول «اقتنى من المال» و«جلب من الماء») فليس يعني ذاك أن الغنى فحسب، الغنى المجرد عن الفضيلة، هو الخير الأسمى في نظر «فرانسواز»، ولكن الفضيلة دون الثروة لم تكن هي الأخرى مثلها الأعلى. لقد كان الغنى بالنسبة إليها بمثابة شرط لازم تبدو الفضيلة بدونه مجردة من القيمة والفتنة. كانت تفصل بينهما قليلاً جداً إلى حد أنها كانت تضفي في النهاية على كل منهما مزايا الآخر وتطالب ببعض الرفاه في الفضيلة وتتعرف شيئاً من الصلاح في

الغنى.

وما أن يتم إغلاق النافذة، وذلك بالسرعة الكافية (والا حكت لها أمي)، فيما يبدو، «جميع ما يمكن تصوره من شتائم»)، حتى تشرع «فرانسواز» متنهدة في ترتيب طاولة المطبخ.

ويقول الخادم: «ثمة جماعة من آل «غيرمانت» لازالت في شارع «دو لاشيز» وكان لي صديق عمل هناك واستخدم بمثابة حوذي معاون. واني أعرف أحدهم، لا رفيقي إذ ذاك، بل صهره وكان قد أمضى خدمته في الجيش برفقة ذوّاق خمرة لدى البارون «غيرمانت». ويضيف الخادم: «عليك به على كل حال، فليس والدي!» وقد تعود أن يزرع أقواله بالمزحات الجديدة مثلما يدمدم أغنيات العام.

وتبينت «فرانسواز» بعينيها المتعبتين، عيني المرأة التي تقدم بها السن، وكانتا تبصران على أية حال كل شيء في «كومبريه»، تبينت في البعيد المبهم لا المزاح الذي تضمنته هذه الكلمات بل إنها لابد تتضمن مزاحاً لأنها لاتمت بصلة إلى تتمة الحديث وقد انطلقت قوية على لسان واحد تعلم أنه ممزاح. ولذلك ابتسمت ابتسامة العطف والاعجاب الشديد وكأنها تقول: «فيكتور هذا لايتغير!» على أنها كانت سعيدة لأنها تعلم أن سماع نكات من هذا القبيل إنما يرتبط من بعيد بتلك المتع الاجتماعية النظيفة التي يسارع المرء في طبقات المجتمع كافة إلى التبرج لها ويعرض نفسه للبرد. ثم انها تعتقد أن الخادم الخاص صديق لها فهو لا ينفك يندد أمامها حانقاً بالإجراءات الرهيبة التي تزمع «الجمهورية» اتخاذها بحق الاكليروس[1]. و«فرانسواز» لم تكن بعد أدركت أن أشد خصومنا قسوة ليسوا أولئك الذين يخالفوننا القول ويحاولون اقناعنا بل الذين يضخمون أو يبتدعون الأخبار التي يمكن أن تغمّنا فيما يحترسون تماماً من أن يضفوا عليها صبغة تبريرية قد تقلل من غمنا وربما خلفت لدينا تقديرا طفيفاً لفريق يهمهم أن يبرزوه لنا فظيعاً ومظفراً في آن معاً في سبيل عذاب نُسامه كاملاً.

وقالت «فرانسواز» وهي تستعيد الحديث من جماعة آل «غيرمانت» الذين في شارع «لاشيز» مثلما تستعاد مقطوعة موسيقية بدءا من «الاندانتيه»[2]: «لابد للدوقة علاقات مصاهرة مع هذا النفر كله. ولست أعلم من قال لي أن أحدهم زوّج الدوق واحدة من بنات عمه. والكل من «الطينة» نفسها على أية حال.» وتضيف باحترام: «إنها لأسرة عظيمة أسرة آل «غيرمانت»! وهي تبني عظمة تلك الأسرة على عدد أعضائها وبريق شهرتها مثلما يبني «باسكال» حقيقة الدين على العقل وسلطان الكتب المقدسة. فقد كان يبدو لها، وهي لاتملك سوى كلمة «عظيم» للتعبير عن الأمرين، أنهما إنما يؤلفان أمراً واحداً إذ يعتور مفرداتها على هذا النحو، شأن بعض الحجارة الكريمة، عيب في ناحية منها يلقي غموضاً حتى في فكر «فرانسواز».

– «اتساءل إن لم يكونوا هم الذين يقوم قصرهم في «غيرمانت» على عشرة فراسخ من «كومبريه»، ولا

(١) رجال الدين.

(٢) Andante تعني ببطء معتدل، وهي من العلامات التي تسهل قراءة النص الموسيقي او عزفه.

بد إذ ذاك من قرابة أيضاً بينهم وبين ابنة عمهم في «ألجيه»[1]. (وتساءلنا طويلاً أنا وأمي من يمكن أن تكون ابنة العم في «ألجيه» ولكننا أدركنا أخيراً أن «فرانسواز» كانت تعني باسم «ألجيه» مدينة «أنجيه». فما كان بعيداً يمكن أن يكون معروفاً لدينا أكثر مما هو قريب. و«فرانسواز» التي كانت تعرف اسم «ألجيه» بسبب تمور شنيعة تصلنا في رأس السنة كان تجهل اسم «أنجيه». كانت لغتها ترصعها الأخطاء على غرار اللغة الفرنسية نفسها ولا سيما أسماء البلدان فيها.) «كنت أود أن أحدث رئيس خدمهم في ذلك». وتوقفت كمن يطرح على نفسه سؤالاً في أصول التشريفات: «كيف يدعونه ياترى؟» وأجابت نفسها قائلة: «أجل، يدعونه أنطوان»: كما لو كان «أنطوان» لقباً. «كان باستطاعته هو أن يروي لي عن ذلك، ولكنه سيد حقيقي ومتحذلق كبير، لكأنما قص لسانه أو هو نسي أن يتعلم الكلام.» وتضيف «فرانسواز»: «أنه حتى لا يجود بجواب حينما تكلمه»، وتقول «جاد بالجواب» مثل السيدة «دو سيفينييه». وأضافت دونما صدق: «ولكن، ما دمت أعلم ما ينضج في قدري فلا أهتم بقدور الآخرين. وكل ذلك ليس من الاستقامة في شيء على أي حال. ثم إنه ليس بالرجل الشجاع (وربما أمكن أن يحمل هذا التقدير على الظن بأن «فرانسواز» غيرت رأيها في البسالة التي تحط الرجال، حسبما كانت ترى في «كومبريه»، في مراتب الوحوش المفترسة، وما كان شيء من ذلك، فلفظة شجاع إنما كانت تعني المجدّ فحسب). ويقول كذلك إنه لص كطائر العقعق، ولكن ينبغي ألا نصدق الشائعات دوماً فجميع المستخدمين يمضون هنا، فيما يخص المحفل، والبوابون حساد يثيرون حفيظة الدوقة. إلاّ أنه يمكن القول إن «أنطوان» هذا عنوان الكسل وليست «انطوانيته» أفضل منه»، تضيف «فرانسواز» التي لابد كانت تحفظ، بغية العثور لاسم «انطوان» على مؤنث يدل على امرأة رئيس الخدام، ذكرى لاواعية لخوري وخورية في ابتداعها القواعدي. وما كانت مخطئة في ما تقول فلا يزال ثمة بالقرب من كنيسة «نوتردام» شارع يسمى شارع الخورية، وهو اسم أطلقه عليه (إذ لم يكن يسكنه سوى الخوارنة) فرنسيو الأمس، وكانت «فرانسواز» تعاصرهم في الواقع. ثم يأتيك في الحال فضلاً عن ذلك مثال جديد على هذه الطريقة في صياغة أشكال المؤنث إذ تضيف «فرانسواز» قولها: «الأكيد الأكيد أن قصر «غيرمانت» للدوقة. فهي التي تشغل في المنطقة مركز السيدة «المختارية»». وهو أمر ذو بال».

ويقول الخادم قول المتيقن إذ لم يكشف السخرية: «بالطبع الأمر ذو بال».

—«أتظن يابني أن الأمر ذو بال؟ ولكن المختار و«المختارية» في نظر جماعة مثلهم لايساويان فلساً واحداً. ولو كان قصر «غيرمانت» ملك يدي لما أبصرني الناس كثيراً في باريس. أفينبغي مع ذلك أن يجتمع لأسياد، لأشخاص يملكون كفايتهم مثل السيد والسيدة، أفكار غريبة كي يظلوا في هذه المدينة الحقيرة بدلاً من أن يذهبوا إلى «كومبريه» بما أنهم أحرار أن يفعلوا ولا يمنعهم أحد. ما عساهم ينتظرون الاحالة على التقاعد بما انه لاينقصهم شيء؛ أن يطويهم الموت؟ آه! لو توافر لدي خبز جاف آكله وحطب أستدفئ به في الشتاء لكنت من زمان بعيد في منطقتي في بيت أخي البائس في «كومبريه». هناك يحس المرء على الأقل أنه يعيش، فليس أمامك كل هذه الدور والضجيج قليل إلى حد أنك تسمع الضفادع ليلاً وهي تغني من مسافة تزيد على الفرسخين».

(١) Alger أي الجزائر.

«ويصرخ الخادم الشاب بحماسة كما لو كانت هذه الميزة الأخيرة لاصقة بـ «كومبريه» بقدر ما تميز الحياة في مراكب الغندول البندقية: «لابد أن ذلك جميل حقاً ياسيدتي».

ولما كان فضلاً عن ذلك أقرب عهداً في المنزل من الخادم الخاص فقد كان يكلم «فرانسواز» في موضوعات يمكن أن تثير اهتمامها هي وليس اهتمامه. و«فرانسواز» التي كانت تبدي اشمئزازاً حينما يضعونها موضع الطاهية كانت تحيط الخادم بالعطف الخاص الذي يبديه بعض أمراء الدرجة الثانية إزاء الشبان السليمي الطوِّية الذين يكيلون لهم لقب المعالي.

-« أنت تعرف على الأقل ما تفعل وفي أي فصل تعيش، فليس الأمر مثله ههنا حيث لاينبت زر ذهبي بائس واحد في الفصح المقدس أكثر مما ينبت في البلاد ولا أميز حتى ناقوس صلاة خفيف حينما أرفع هيكلي العظمي الهرم. أما هناك فتسمع دقات كل ساعة ؛ إنه جرس بائس فحسب ولكنما تقول في نفسك: «هو ذا أخي يعود من الحقل» ، وترى نور النهار يتناقص ويقرع الناقوس من أجل خيرات الأرض وتجد متسعاً من الوقت لتلتفت ورائك قبلما تضيء مصباحك. أما هنا فيطلع النهار ويحل الليل وتذهب إلى فراشك ولاتستطيع حتى أن تقول، أكثر مما تفعل الحيوانات، ما الذي فعلت.»

ويقاطعها الخادم الشاب الذي اتخذ الحديث حسب رأيه مجرى على شيء من الغموض والذي كان يذكر اتفاقاً أنه سمعنا نتحدث على المائدة عن «ميز يكليز» «يبدو ياسيدتي أن ميزيكليز أيضا جميلة جداً.

وتقول «فرانسواز»: «آه! ميزيكليز»، بالابتسامة العريضة التي ترتسم أبداً على شفتيها حينما ينطقون بأسماء «ميزيكليز» و «كومبريه» و«تانسونفيل». فقد كانت تؤلف جزءا من حياتها الخاصة إلى حد انها كانت تحس إذ تصادفها في الخارج وتسمعها في حديث بجذل يكاد يقارب ذاك الذي يبعثه أستاذ في صفه إذ يلمح إلى شخصية معاصرة لم يحسب تلاميذه أن اسمها يمكن أن ينطلق في يوم من أعالي المنبر. وتأتيها متعتها كذلك من الإحساس بأن هذه المناطق بالنسبة إليها غير ما هي بالنسبة إلى الآخرين وأنها من أصحاب قدامى أقمنا معهم الكثير من الحفلات، فكانت تبتسم لها كما لو تلفي لديها روحا لأنها تلقى فيها الكثير من ذاتها.

وتعود تقول وهي تضحك ضحكة ناعمة: «أجل، تستطيع أن تقول ذلك يابني، إن «ميزيكليز» على قسط من الجمال، ولكن كيف اتفق لك أنت أن تسمع من يتحدث عن «ميزيكليز» ؟.

ويجيب بانعدام إجرامي في الدقة يتصف به ناقلو الأخبار الذين لايدعون لنا في كل مرة نحاول فيها أن نتبين بموضوعية الأهمية التي يمكن أن يكتسبها في نظر الآخرين أمر يتعلق بنا، امكانية الإفلاح في ذلك: «كيف سمعت من يتحدث عن «ميزيكليز» ؟ ولكن الأمر معروف تماماً لقد حدثوني عنها، بل حدثوني مراراً عديدة».

- «آه! أقول لك إن الحياة أفضل ههنا تحت أشجار الكرز منها بالقرب من موقد المطبخ».

كانت تروي لهم حتى عن «أولالي» وكأنما عن شخصية طيبة. ذلك لأن «فرانسواز» نسيت تماماً منذ أن توفيت «أولالي» أنها قليلاً ما أحبتها في حياتها مثلما لاتحب أي شخص لا يملك ما يأكله في بيته

ويموت جوعاً ثم هو يجيء بعدها، شأن من لا يصلح لأمر، يتصنع في سلوكه بفضل طيبة الأغنياء. ولم يعد يؤلمها أن عرفت «أولالي» حق المعرفة كيف تأخذ في كل أسبوع قطعة نقودها من عمتي.

أما فيما يخص هذه الأخيرة فلم تكن تكف «فرانسواز» عن انشاد فضائلها.

ويسأل الخادم الشاب قائلاً: «أفي كومبريه» نفسها كنت حينذاك لدى إحدى بنات عم السيدة» ؟.

- «أجل لدى السيدة «أوكتاف». آه! يالها من امرأة قديسة يا أولادي المساكين، وكان لديها على الدوام ما يكفي وما لذ وطاب، امرأة طيبة، ذلك ما يمكن أن تقولوه، ولم تكن تشتكي الحجال، ولا التدراج ولا أي شيء وكان يمكن الحضور إلى العشاء بصحبة خمسة أو ستة ولم يكن اللحم ما يفتقد ومن النوع الأول، والنبيذ الأبيض والنبيذ الأحمر وكل ما تحتاج إليه. (كانت «فرانسواز» تستخدم الفعل «اشتكي» بالمعنى الذي يستخدمه فيه «لابرويير».) كان كل شيء على نفقتها دوماً وإن مكثت الأسرة شهوراً وسنوات. (ولم يكن في تلك الفكرة ما يسيء إلينا لأن «فرانسواز» كانت تنتمي إلى زمن لم تكن «النفقة» فيه مقصورة على اللغة القضائية وكانت تعني الانفاق فحسب.) آه! أؤكد لك أنك ما كنت تمضي من هناك وبك جوع. ومثلما أبرز لنا السيد الكاهن مرات عديدة، إن كان ثمة امرأة يمكن أن تأمل في السكنى بجوار ربها فانما هي بالتأكيد. مسكينة سيدتي، لا أزال أسمعها تقول لي بصوتها الضعيف: «تدرين يا «فرانسواز»، أنا لا آكل، ولكني أريد أن يجيء الطعام في مثل جودته بالنسبة إلى الجميع كما لو كنت آكل.) بالتأكيد لم يكن الطعام من أجلها. لو رأيتها، لم تكن تزن أكثر من صندوق كرز، كأنما لا وجود لها. ولا تريد أن تصدقني ولاشاءت في يوم أن تذهب إلى الطبيب، آه! ما كان المرء هناك ليأكل شيئاً على جناح السرعة. وتريد أن يكون خدمها حسني التغذية. أما ههنا فلم يتوافر لنا في هذا الصباح كذلك مجرد الوقت للافطار، وكل شيء يتم على عجل.»

كان يثير حنقها على وجه الخصوص قطع الخبز المحمص الذي يأكله والدي، وكانت على يقين أنه يستخدمها بغية التصنع وكيما يشغلها. ويصادق الخادم الشاب قائلاً: «يمكنني القول أني لم أر ذلك في يوم!» كان يقول وكأنما رأى كل شيء وامتدت في داخله جذور تجربة سحيقة إلى جميع البلدان وإلى عاداتها ولا تبرز ضمنها البتة عادة الخبز المحمص.» ويغمغم رئيس الخدم قائلاً: «أجل، أجل ولكن كل ذلك يمكن أن يتبدل فالعمال يزمعون القيام باضراب في كندا وقد قال الوزير في ذلك المساء لسيدي انه قبض في هذا السبيل مائتي ألف فرنك.» وما أبعد أن يذمه رئيس الخدم لذلك، لا لأن هذا الأخير لم يكن شريفاً تماماً، ولكنما يحسب جميع رجال السياسة غير شرفاء فتبدو له جريمة الرشوة أقل وزناً من أدنى جرم سرقة. ما كان حتى يتساءل إن هو أحسن سماع هذه العبارة التاريخية ولاتدهشه استحالة أن يكون المذنب نفسه قد قالها لوالدي دون أن يطرده. ولكن فلسفة «كومبريه» كانت تحول دون أن تستطيع «فرانسواز» توقع أثر لاضرابات كندا على استعمال الخبز المحمص. كانت تقول: «ترى، ما دام العالم عالما فسيكون ثمة أسياد يحملوننا على الجري وخدم لتنفيذ نزواتهم.» وعلى الرغم من نظرية الجري المستمر هذا فقد أخذت أمي تقول منذ ربع ساعة، وما كانت على الأرجح تستخدم ما تستخدمه «فرانسواز» من وحدات قياس لتخمين طول غداء هذه الأخيرة:

«ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا، لقد انقضى أكثر من ساعتين وهم على مائدة الطعام». وتقرع الجرس قرع المتهيّب ثلاث مرات أو أربعا. كانت «فرانسواز» تسمع وخادمها ورئيس الخدم ضربات الجرس الصغير لابمثابة دعوة ودون التفكير بالمجيء ولكن بمثابة النغمات الأولى للآلات التي تتوافق حينما تزمع حفلة موسيقية على معاودة البدء وتحس أن لن يكون من بعد أكثر من بضع دقائق للاستراحة. ولذلك كان خدمنا، حينما تشرع الضربات في التواتر وتضحي أكثر ألحاحاً، كانوا يأخذون في التنبه لها وإذ يقدرون أنه لم يعد أمامهم الكثير من الوقت وأن معاودة العمل أضحت قريبة كانوا يطلقون زفرة لدى قرع الجرس الصغير قرعاً أشد رنيناً من سواه ويحزمون أمرهم وينزل الخادم الخاص لتدخين سيكارة أمام الباب، وتصعد «فرانسواز»، بعد بضع ملاحظات حولنا من مثل «لم يعودوا بالتأكيد يستطيعون المكوث في مكانهم» لترتب حوائجها في طابقها السادس ويبادر رئيس الخدم بعدما مضى لجلب ورق للمراسلات في غرفتي إلى الإسراع في إرسال مكاتباته الخاصة.

وقد استطاعت «فرنسواز» أن تطلعني، منذ الأيام الأولى، أن آل «غير مانت» على الرغم من هيبة رئيس خدمهم المتغطرسة ما كانوا يسكنون فندقهم بموجب حق يعود إلى أقدم العهود، بل بموجب إيجار قريب العهد وأن الحديقة التي يطل عليها من الجانب الذي لم أكن أعرفه، على قدر من الضيق وتشبه جميع الحدائق الملاصقة. وعلمت أخيراً أنك لاتبصر فيها لامشنقة سيدية ولاطاحونة محصنّة، ولا ترساً بشعار ولابرج حمام على أعمدة ولافرناً اقطاعياً ولاهريا يتوسطه صحن ولاحصنا صغيراً ولاجسوراً ثابتة أو متحركة ولاحتى معابر ولا ممرات مأجورة ولا مسلات ولاصكوكاً جدارية أو رجوماً تذكارية. ولكن مثلما أعاد «أيلستير» دفعة واحدة إلى خليج «بالبيك»، حينما فقد سره الدفين فأضحى في نظري جزءا، أي جزء يمكن أن يستبدل به آخر سواه، من كميات المياه المالحة الكائنة على سطح الكرة، شخصية متفردة إذ قال لي إنه خليج «ويستلر» ذو اللون اللبني في تناسق ألوانه التي من زرقة الفضة. كذلك شهد اسم «غير مانت» آخر منزل تحدرّ منه يلفظ أنفاسه تحت ضربات «فرانسواز» حينما قال لنا ذات يوم صديق قديم لوالدي وهو يتحدث عن الدوقة: «إنها تتمتع بأعظم منزلة في حي «سان جيرمان» وتملك أول بيت في حي «سان جيرمان». شيء يسير جداً في مقابل المنازل الأخرى التي حلمت بها على التوالي. ولكن هذا البيت أيضاً، ولابد أنه الأخير، كان يملك أمراً يؤلف، مهما بلغ من الاتضاع، سمة متميزة تتجاوز مادته الخاصة.

وكانت ضرورة إمكان البحث في منتدى السيدة «دو غيرمانت» وبين أصدقائها عن سر اسمها تتزايد بقدر ما كنت لا أجده في شخصها حينما كنت أبصرها تخرج سيراً على الأقدام في الصباح وبعد الظهر في عربتها. صحيح أنه سبق في كنيسة «كومبريه» أن بدت لي، في ومضة استحالة، بوجنتين لايمكن ردّهما، لا يمكن نفاذهما إلى ألوان اسم «غيرمانت» والعشيات على ضفاف نهر «فيفون»، بدت بدلاً من حلمي المحطم، بمثابة تمّ أو صفصافة تحوّل بهما إله أو حورية وسوف ينساب مذ ذاك، وقد أخضعته قوانين الطبيعة، على الماء أو تهزها الريح. بيد أني ما كدت أهجرها حتى عادت تلك الومضات المتلاشية تتشكل مثلما التماعات الشمس الغاربة الوردية والخضراء خلف المجذاف الذي بددها وسرعان ما تم للاسم في وحشة فكري أن يتملك ذكرى الوجه. ولكني غالباً ما كنت أراها الآن إلى نافذتها وفي الباحة وفي الشارع ؛ ولئن كنت لا أفلح أنا في

دمج اسم «غيرمانت» في شخصها وفي التفكير بأنها السيدة «دو غيرمانت» فقد كنت أتهم بذلك عجز فكري عن المضي حتى نهاية الفعل الذي كنت أطلبه منه. أما هي، وأقصد جارتنا، فقد كان يبدو أنها ترتكب الخطأ نفسه، وأنها أكثر من ذلك ترتكبه دونما ارتباك وبدون أي من مخاوفي وحتى دون أن يخامرها شك بأن ثمة خطأ. من ذلك أن السيدة «دو غيرمانت» كانت تبدي في فساطينها الاهتمام نفسه في مجاراة الزي السائد كما لو حسبت أنها أضحت امرأة كالاخريات فَصَبَتْ إلى هذه الاناقة في اللباس التي تستطيع نساء، أي نساء، أن يساوينها فيها وربما أن يتفوقن عليها. فقد رأيتها في الشارع تنظر باعجاب إلى ممثلة حسنة اللباس، وفي الصباح كنت أستطيع أن أراها، لحظة تزمع الخروج سيراً على الأقدام، تقف أمام المرآة، كما لو أمكن أن يكون رأي المارة الذين كانت تبرز سوقيتهم إذ تنقل ببساطة بينهم حياتها المغلقة دونهم مجلس قضاء بالنسبة إليها فتؤدي دور المرأة الأنيقة هذا الذي يقع دون مستواها بكثير باقتناع خلو من ازدواج الشخصية والسخرية، بشغف ونزق واعتزاز كملكة قبلت تمثيل دور الوصيفة في ملهاة كتبت للبلاط ؛ وفي إغفال أساطيري لعظمتها الفطرية كانت تنظر إن كان برقعها مالساً تماماً وتبسط كميها وتسوي معطفها مثلما يصنع التمّ السماوي سائر حركات بني جنسه الحيواني ويحتفظ بعينيه المرسومتين على جانبي منقاره دون أن يحملها نظرات ويرتمي فجأة على زر أو شمسية ارتماء تم دون أن يذكر أنه إله. ولكن مثلما يقول المسافر في نفسه، وقد خيب أمله أول مشهد للمدينة، أنه ربما نفذ إلى سحرها بزيارة متاحفها وبالتعرف إلى شعبها وبالعمل في المكتبات، كنت أقول في نفسي أنه إن تم استقبالي في منزل السيدة «دو غيرمانت» وكنت من أصدقائها ونفذت إلى حياتها فسأعلم ما الذي يتضمنه اسمها حقيقة وموضوعياً في نظر الآخرين تحت غلافه البرتقالي اللماع إذ سبق أن قال صديق والدي إن وسط آل «غيرمانت» نسيج وحده في حي «سان جيرمان».

كانت الحياة التي افترض أنهم يعيشونها فيه مستمدة من مصدر شديد الاختلاف عن التجربة ويبدو لي أنها لابد خاصة إلى الحد الذي ما كنت لأتصور معه وجود أشخاص سبق أن ترددت عليهم فيما مضى. أشخاص حقيقيين في أمسيات الدوقة. فلعلهم إذ لا يستطيعون أن يبدلوا في طبيعتهم تبديلاً فجائياً كانوا سيتفوهون هناك بأقوال شبيهة بتلك التي كنت أعرفها، وربما تواضع رفقاؤهم فأجابوهم باللغة البشرية نفسها، وكان ثمة في أثناء أمسية في أول منتدى من حي «سان جيرمان» لحظات مماثلة للحظات سبق أن عشتها، ولأمر مستحيل. صحيح أن فكري كان مربكاً من جراء بعض الصعوبات وما كان حضور جسد يسوع المسيح في القربان المقدس ليبدو لي سراً أكثر غموضاً من المنتدى الأول في الحي الواقع على الضفة اليمنى والذي كان يمكنني سماع نفض أثاثه في الصباح من غرفتي، ولكن الخط الفاصل الذي كان يفصل بيني وبين حي «سان جيرمان» ما كان ليبدو لي، مع أنه خياليّ فحسب، إلاّ أكثر حقيقة. كنت أحس أن ممسحة آل «غيرمانت» الممدودة في الجانب الآخر من خط الاستواء ذاك والتي تجرأت والدتي، بعدما لمحتها مثلي، أن تقول في يوم كان بابهم فيه مفتوحاً إنها في حالة سيئة جداً، كنت أحس تماماً أنها طلائع الحيّ. وكيف لايبدو لي على أية حال أن قاعة طعامهم وصالتهم المظلمة بأثاثها الذي من قماش أحمر طويل الخملة والذي كنت أستطيع مشاهدته أحياناً من نافذة مطبخنا، كيف لايبدو لي أنهما يملكان السحر الخفي الكامن في حي «سان جيرمان» وأنهما يؤلفان جزءا أساسياً فيه ويتخذان موقعهما الجغرافي فيه بما أن استقبال المرء في قاعة الطعام هذه إنما يساوي الذهاب إلى حي «سان جيرمان» واستنشاق هوائه إذ إن الذين كانوا يجلسون إلى جانب

السيدة «دو غير مانت» على الأريكة الجلدية في الصالة قبل الذهاب إلى مائدة الطعام إنما كانوا جميعاً من حي «سان جيرمان» ؟ وما من شك أنه كان يمكن أن ترى أحياناً في غير هذا الحي وفي بعض الأمسيات أحد هؤلاء الرجال يتربع وسط دهماء من عامة الأنيقين، هؤلاء الرجال الذين هم محض أسماء ويتخذون، حينما يحاول المرء تمثلهم، شكل مباراة تارة وطوراً شكل غابة مُقطعة. أما هنا وفي المنتدى الأول في حي «سان جيرمان»، في الصالة المظلمة، فليس ثمة سواهم. لقد كانوا الأعمدة التي تحمل المعبد ومن مادة ثمينة. وما كانت السيدة «دو غيرمانت» تستطيع اختيار مدعويها حتى في اجتماعات الآلاف إلا من بينهم، وكانوا يشبهون في حفلات العشاء التي تضم اثني عشر شخصاً، وقد تحلقوا حول المائدة الممدودة، تماثيل الرسل الذهبية في «الكنيسة الصغرى»، وهم أعمدة رمزية وقدسية، أمام المائدة المقدسة. وكيف لا أحسب، فيما يخص الحديقة الصغيرة التي كانت تمتد بين أسوار عالية خلف الفندق وحيث كانت السيدة «دو غيرمانت» صيفاً تأمر بعد العشاء بتقديم المشروبات الروحية وشراب البرتقال، أن الجلوس ما بين التاسعة والحادية عشرة مساء على كراسيها الحديدية- التي تتمتع بسلطان في مثل قوة الأريكة الجلدية- دون استنشاق الأنسام الخاصة بحي «سان جيرمان» في الوقت نفسه في مثل استحالة القيلولة في واحة «فيقيق» [1]دون أن تكون لذلك في أفريقية؟ ليس سوى الخيال والظن بمقدورهما أن يميزا عن الأمور الأخرى بعض الأشياء وبعض الكائنات وينشئا جواً. وربما لم يتأتّ لي في يوم، وا أسفي، أن أضع قدمي بين هذه المواقع البديعة والعوارض الطبيعية والغرائب المحلية والقطع الفنية في حي «سان جيرمان». فكنت أكتفي بالرعشة وأنا ألمح من عرض البحر (دونما أمل في بلوغ الشاطئ يوماً) ممسحة الشاطئ البالية وكأني بها مئذنة متقدمة، وكأنما نخلة أولى، وبداية الصناعة أو النباتات الغريبة.

ولئن كانت حدود فندق «غيرمانت» تبدأ، فيما يخصني، عند باب ردهته، فلا بد أن ملحقاته كانت تمتد إلى أبعد بكثير حسبما يرى الدوق الذي كان يعد جميع المستأجرين مزارعين وقرويين ومتملكين على أراضٍ للدولة ممن لا يحسب لرأيهم حساب فكان يحلق ذقنه في الصباح أمام نافذته وهو في قميص النوم وينزل إلى الباحة حسبما ينال منه الحر كثيراً أو قليلاً بالقميص أو البيجاما أو سترة سكوتلندية نادرة الألوان طويلة الزغب أو بمعاطف صغيرة فاتحة أقصر من سترته فيما يُركض أحد سوّاسه أمامه حصاناً جديداً سبق أن ابتاعه وهو يقبض على مقوده. وبلغ بالحصان أكثر من مرة أن أتلف واجهة «جوبيان» الذي أثار حفيظة الدوق إذ طالب بالتعويض. كان السيد «دو غيرمانت» يقول: «لئن لم نأخذ في حسابنا غير ما تفعل السيدة الدوقة من خير في الدار وفي الرعية فإنه من الخزي أن يطالبنا هذا المجهول بشيء.» ولكن «جوبيان» صمد وبدا كمن لايعرف إطلاقاً أي «خير» صنعته الدوقة في يوم. بيد أنها كانت تفعل الخير، ولكن بما أنه لايتسنى للمرء أن يشمل به كل الناس فإن ذكر إغداقه على هذا سبب في حجبه عن ذاك الأمر الذي يثير لديه قدراً متزايداً من الاستياء. وما كان الحي يبدو للدوق على أية حال، من وجهات نظر غير وجهة عمل الخير، سوى امتداد لباحته وحلبة أكثر اتساعاً لجياده- وذلك إلى مسافات كبيرة- فبعدما كان يشهد كيف يجري جواد جديد وحده كان يأمر بشدّه إلى عربة وبأن يجتاز جميع الشوارع المجاورة فيما السائس يجري بجوار العربة وهو يمسك

(١) Figuig من مدن المغرب.

بالعنان ويمر به، ويعيد الكرة، أمام الدوق الذي توقف على الرصيف منتصب القامة عملاقاً ضخماً بثياب فاتحة وفي فمه سيكار، شارد الرأس فضولي النظرة حتى اللحظة التي كان يقفز فيها إلى المقعد ويقود الجواد بنفسه ليجربه ويذهب في العربة الجديدة لملاقاة عشيقته في مجلة «الشانزيليزيه». كان السيد «دو غيرمانت» يحيي في الباحة أسرتين اثنتين لاصقتين إلى حد ما بعالمه: فأسرة من أبناء عمّ له لا تمكث قط في المنزل، شأن أسر العمال، للاهتمام بالاطفال لأن الزوجة كانت تمضي منذ الصباح إلى «المدرسة» لتتعلم الطباق الموسيقي وتقنية التتابع ويمضي الزوج إلى مشغله ليقوم بالحفر على الخشب وبضع الجلود النافرة. ثم البارون «دو نوربوا» والبارونة اللذان كانا يخرجان عدة مرات في اليوم للذهاب إلى الكنيسة، وهما أبدا في ثياب سوداء، الزوجة بأثواب مؤجرة الكراسي والزوج بأثواب دافني الموتى. كانا من أبناء أشقاء السفير السابق الذي كنا نعرفه والذي سبق أن التقى به والدي تحت قنطرة الدرج ولكن دون أن يفهم من أين جاء. ذلك أن والدي كان يحسب أن شخصاً في مثل رفعة شأنه كان على علاقة مع أكثر رجال أوروبة شهرة ولا يبالي على الأرجح بالامتيازات الارستقراطية الفارغة ما كان ربما يتردد على هؤلاء النبلاء المغمورين المناصرين للاكليروس المحدودين. كانا يسكنان البيت منذ وقت قليل. وكان «جوبيان» قد جاء ليقول كلمة في الباحة للزوج وهو يحيي السيد «دو غيرمانت»، فدعاه «السيد نوربوا» لأنه لايعلم بالضبط اسمه.

وصاح السيد «دو غيرمانت» وهو يلتفت صوب البارون: «آه! السيد «نوربوا»! تلك لقية بالحقيقة! صبرك! عما قليل يدعوك هذا الفرد المواطن «نوربوا»! «كان بمقدوره أخيراً أن يصب جام غضبه على «جوبيان» الذي كان يقول له «ياسيد»، لا «ياسيدي الدوق».

وفي يوم كان السيد «دو غيرمانت» فيه بحاجة إلى معلومات تتعلق بمهنة والدي قدم نفسه بنفسه بكثير من الظرف. وكثيراً ما أتفق له منذ ذاك أن تكون لديه خدمة حسن جوار يطلبها منه، وما أن يبصره الدوق نازلاً على الدرج، وهو يفكر بعمل ما ويرغب في تجنب أي لقاء حتى يترك القائمين على اسطبلاته ويقبل على والدي في الباحة ويرتب ياقة معطفه وبه هذا الاندفاع إلى خدمة الآخرين الذي يتسم به خدام الملك السالفون، ويأخذ يده فيحتفظ بها في يده، بل يداعبها كي يبرهن له بقلة حياء الخلائل أنه لا يبخل عليه بملامسة لحمه الثمين ويصحبه مخفورا، وهو مرتبك إلى حد بعيد ولا يفكر إلاّ في النجاة، إلى ما بعد الباب الكبير. وكان قد حيانا تحيات واسعة في يوم التقى بنا فيه لحظة كان خارجاً في العربة بصحبة زوجته. لا بد أنه قال لها اسمي، ولكن أي احتمال كان ثمة أن تكون تذكرته أو تذكرت وجهي؟ ثم ما أبخسها توصية أن يشار إليّ فقط على أني واحد من مستأجريه! ولعل ما كان يفوقه أهمية أن التقي بالدوقة في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» التي اتفق أن طلبت إليّ بلسان جدتي أن أذهب للقائها وقد أضافت، إذ علمت أنني كنت قد اعتزمت ممارسة الأدب، أنني سوف التقي في منزلها بكتاب. إلا أن والدي كان يرى أني لاأزال حديث، السنّ لارتياد المجتمع، ولما كانت حالتي الصحية لاتزال تقلقه فلم يك مهتما في توفير فرص غير ذات جدوى لنزهات جديدة.

ولما كان أحد خدم السيدة «دو غيرمانت» يتحدث كثيراً إلى «فرانسواز» فقد سمعت أسماء بعض المنتديات التي كانت تذهب إليها ولكنني كنت لا أتمثلها: أفلم تكن تستعصي على التصور بما أنها تؤلف جزءا من حياتها، حياتها التي ما كنت أراها إلامن خلال اسمها؟.

كان الخادم يقول: «تقام هذا المساء أمسية كبيرة لاخيلة الظل في منزل أميرة «بارما»، ولكننا لن نذهب لأن سيدتي تستقل في الساعة الخامسة قطار «شانتيي» لتذهب لقضاء يومين لدى دوق «أومال»، بل تذهب الوصيفة والوصيف. أما أنا فأبقى هنا. لن يسر ذلك أميرة «بارما»، فقد كتبت أكثرمن أربع مرات إلى سيدتي الدوقة.»

– «ولن تذهبوا من بعد إذن إلى قصر «غيرمانت» في هذا العام؟»

– «إنها المرة الأولى التي لن تكون فيها هناك: فقد منع الدكتور أن نعود إلى هناك قبل أن تتوافر تدفئة بسبب مايعاني سيدي الدوق من آلام رئوية، ولكننا قبل ذلك كنّا نقيم هناك في كل عام حتى كانون الثاني. وإن لم تجهز التدفئة فربما ذهبت سيدتي بضعة أيام إلى «كان» إلى منزل الدوقة «دوغيز»، ولكن الأمر ليس مؤكداً بعد».

– «والمسرح هل تذهبون إليه؟».

– «نذهب مرات إلى الأوبرا، ومرات إلى أمسيات اشتراك أميرة «بارما»، وتقع كل ثمانية أيام. ويبدو أن ما يشاهد غاية في الأناقة: فهناك مسرحيات وأوبرا وما شئت. لم تشأ سيدتي الدوقة أن تشترك، ولكننا نذهب إلى هناك مع ذلك، مرة في مقصورة صديقة لسيدتي، وثانية في مقصورة أخرى وغالباً في مقصورة أميرة «غيرمانت» الخاصة، وهي زوجة ابن عم سيدي الدوق. إنها شقيقة دوق «بافيير».. ثم يقول الخادم الذي كان يحمل عن «الموالي» بعامة مفهوماً سياسياً يسمح له بمعاملة «فرانسواز»، على الرغم من أنه صار مثيل آل «غيرمانت»، بمثل الاحترام الذي يعاملها به لو أنها في خدمة دوقة،: «وتصعدين على هذا النحو إلى البيت، إنك تتمتعين بصحة جيدة ياسيدتي».

– «آه! لولا هاتان الساقان اللعينتان! وفي السهل لايزال الأمر على ما يرام (والسهل كان يعني الباحة، الشوارع التي لاتكره «فرانسواز» التنزه فيها، الأرض المنبسطة باختصار القول) ولكنها تلك الأدراج الشيطانية. إلى اللقاء ياسيد، ربما أمكن أن نراك أيضاً هذا المساء.»

كان يزيد من رغبتها في التحدث أيضاً إلى الخادم أنه أعلمها أن أبناء الدوقة غالباً ما يحملون لقب أمير يحتفظون به إلى حين وفاة والدهم. وما من شك أن التعلق بطبقة النبلاء الذي يمتزج بشيء من روح الثورة ضدها وينسجم معها لابد، وهو مستمد بالوراثة من أراضي فرنسه، أن يكون قوياً في نفس شعبها. ذلك أن «فرانسواز» التي كان يمكن أن تحدثها عن نبوغ نابليون أو اللاسلكي دون أن تفلح في لفت انتباهها ودون أن تبطئ لحظة واحدة الحركات التي تستخرج بها الرماد من الموقد أو تعد المائدة، كانت تصرخ قائلة، إن أحيطت علماً فحسب بهذه الخصائص وبأن ابن دوق «غيرمانت» الأصغر كان يدعى بعامة أمير «أوليرون»: «ذلك جميل!» وتظل مفتونة وكأنما أمام زجاج ملون.

وقد عرفت «فرانسواز» أيضاً على لسان وصيف أمير «أغريجانت» الذي ربطته بها أواصر الصداقة من جراء مجيئه المتكرر ليحمل رسائل إلى منزل الدوقة أنه كثيراً ما سمعهم بالفعل يتحدثون في المجتمعات عن

زواج المركيز «سان لو» من الآنسة «داميروساك» وأن الأمر يكاد يكون مقرراً.

ما كانت تبدو لي تلك الدارة وتلك المقصورة اللتان تنقل السيدة «دو غيرمانت» حياتها إلى داخلهما أماكن أقل روعة من جناحها. كانت أسماء «بارما» و«غيرمانت بافيير» و«غيز» تميز عن كل ما عداها أماكن الاصطياف التي تقصدها الدوقة والاحتفالات اليومية التي تربط فندقها بخط سير عربتها. ولئن كانت تنقل إليّ أن حياة السيدة «دو غرمانت» إنما تتكون على التوالي من أماكن الاصطياف تلك، وتلك الاحتفالات فلم تكن تحمل إليّ أي أيضاح حولها. كان كل واحد يضفي على حياة الدوقة تحديداً مختلفاً ولكنه يقتصر على تبديل سرّها دون أن يسمح بتسريب شيء منه فيبدل من مكانه فحسب وقد احتمى خلف حاجز واحتبس داخل إناء وسط أمواج حياة سائر الناس. كان بمقدور الدوقة أن تتناول طعام الغداء أمام البحر المتوسط في فترة الكرنفال، ولكن في دارة السيدة «دو غيز» حيث تستحيل ملكة المجتمع الباريسي بفسطانها الذي من قماش مدرّبل أبيض، وسط العديد من الأميرات، محض مدعوة شبيهة بالأخريات، وهي بذلك أشد تأثيراً في نفسي وألصق بذاتها لما تتجدد كنجمة رقص تقبل، في طرافة خطوة، لتحتل على التوالي مكان كل من الراقصات أخواتها. كان بمقدورها أن تشاهد أخيلة الظل ولكن في أمسية لأميرة «بارما»، وأن تشهد المأساة أو الأوبرا، ولكن في مقصورة أميرة «غيرمانت».

ومثلما نحدد في جسم شخص ما موقع جميع احتمالات حياته وذكر الأشخاص الذين يعرفهم والذين فارقهم منذ قليل أو يزمع اللحاق بهم، كنت، إن بلغني على لسان «فرانسواز» أن السيدة «دو غيرمانت» ستذهب سيراً على الأقدام للغداء في منزل أميرة «بارما» ورأيتها قرابة الظهر تنحدر من منزلها بفسطانها الذي من الساتين الزهري الفاتح ووجهها الذي من فوقه يماثل لونه، كسحابة في الشمس الغاربة، كنت أبصر جميع مباهج حي «سان جيرمان» تجتمع أمامي داخل هذا الحجم الصغير، وكأنما داخل محارة، بين هذين المصراعين اللامعين اللذين بلون الصدف الوردي.

كان لوالدي صديق في الوزارة يدعى «أ. ج. مورو» حرص أبداً، بغية التميز عن سواه من آل «مورو»، أن يسبق اسمه هذان الحرفان البدئيان حتى كان يدعى اختصارا «أ.ج» ولست أدري كيف اتفق لـ «أ. ج» هذا أن يحوز مقعداً لأمسية احتفالية في الأوبرا ؛ وقد بعث به إلى والدي، ولما كانت «لابيرما» التي لم أرها تمثل منذ خيبة أملي الأولى تزمع تمثيل فصل من رواية «فيدر»، فقد أفلحت جدتي في أن يعطيني والدي ذلك المقعد.

كنت والحق يقال لا أولي أي اهتمام امكانية سماع «لابيرما»، هذه التي أثارت في نفسي منذ بضع سنوات خلت الكثير من الاضطراب. ولم ألاحظ لامبالاتي بما سبق أن فضلته بالأمس على الصحة والراحة دونما اكتئاب. وليس يعني ذلك أن رغبتي في استطاعة تأمل عن كثب لأجزاء صغيرة ثمينة من الواقع الذي كان يستشفه خيالي كانت أقل حماسة منها بالأمس. ولكن خيالي لم يعد يضعها الآن في إلقاء ممثلة كبيرة. فلقد صببت، منذ زياراتي إلى منزل «ايلستير»، على بعض صنوف السجاد، على بعض اللوحات الحديثة، الثقة الداخلية التي محضتها بالأمس هذا التمثيل وهذا الفن لدى «لابيرما». وإذ أضحى إيماني، إذ أضحى اشتياقي لايحيط إلقاء «لابيرما» ووقفاتها من بعد بالإجلال المتصل فقد أخذ «الصنو» الذي كنت أحمله عنها داخل

فؤادي يهزل شيئا فشيئا كتلك «الأصناء» الأخرى لأموات مصر القديمة التي كان ينبغي أن تغذى باستمرار للحفاظ على حياتها. لقد أصبح ذلك الفن زهيداً وهزيلاً وما من روح باتت تسكن أعماقه من بعد.

في اللحظة التي كنت أصعد فيها درج الأوبرا الكبير مفيداً من البطاقة التي تسلمها والدي، لمحت أمامي رجلاً حسبته بادئ الأمر السيد «دو شارلوس»، وكان له مظهره. وحينما أدار رأسه ليستوضح أحد المستخدمين أدركت أنني أخطأت ولكنني لم أتردد مع ذلك في وضع المجهول في الطبقة الاجتماعية نفسها لا استناداً إلى الطريقة التي يكتسي بها فحسب، بل كذلك إلى الطريقة التي كان يكلم بها المراقب والعاملات اللواتي يطلبن إليه الانتظار. ذلك لأنه كان لايزال ثمة في ذلك الزمن فارق واضح تماماً، على الرغم من الخصائص الفردية، بين أي رجل أنيق وغني من هذا القسم من الارستقراطيين وبين أي رجل أنيق وغني من دنيا المال أو الصناعة الكبرى. فحيثما ظن أحد هؤلاء أنه يؤكد أناقته بلهجة قاطعة مستكبرة إزاء من كان أدنى منه بدا السيد الكبير الدمث البشوش وكأنما يعتبر، كأنما يتعاطى اصطناع التواضع وطول الأناة والتظاهر بأنه واحد، أي واحد، من النظارة على أنها امتياز لجودة تربيته. ومن المرجح أن الكثير من أبناء أصحاب المصارف الموسيرين لو دخلوا المسرح في تلك اللحظة لعدوا هذا السيد الكبير، إذ يرونه يخفي على هذا النحو خلف ابتسامة تنضح بالبساطة العتبة المحرمة للعالم الخاص الصغير الذي يحمله في داخله، رجلاً هيناً لو لم يلفوا لديه شبهاً مدهشاً بالرسم الذي نشرته الصحف المصورة منذ فترة قريبة لابن شقيق الامبراطور النمسا هو أمير «ساكس»، وكان في باريس في ذلك الوقت بالضبط. كنت أعلم أنه صديق كبير لآل «غيرمانت». ولما وصلت بنفسي بالقرب من المراقب سمعت أمير «ساكس». أو من يُفترض أنه كذلك، سمعته يقول مبتسما: «لست أعرف رقم المقصورة وإنها ابنة عمي التي قالت لي إنه لايقع عليّ سوى السؤال عن مقصورتها.»

ربما كان أمير «ساكس» ؛ وربما كانت دوقة «غيرمانت» (وقد أستطيع في هذه الحالة مشاهدتها وهي تعيش إحدى لحظات حياتها التي تمتنع على الخيال في مقصورة ابنة عمها) من كانت عيناه تبصران بالفكر حينما يقول: «ابنة عمي التي قالت لي إنه لايقع عليّ سوى السؤال عن مقصورتها»، حتى أن هذه النظرة الباشة الخاصة وتلك الكلمات البسيطة أشد البساطة كانت تدغدغ فؤادي (أكثر بكثير مما قد يفعل احتلام مجرد) بهوائيات تتناول مابين سعادة ممكنة وجاه غير مؤكد. ولكنما كان على الأقل، إذ يقول تلك الجملة للمراقب، يصل بين أمسية عادية في حياتي اليومية وعبور ممكن إلى عالم جديد. كان الممر الذي دلوه عليه، بعدما لفظ كلمة «مقصورة»، والذي مضى فيه، كان رطباً مصدعاً يبدو وكأنما يقود إلى مغائر بحرية، إلى مملكة جنيات المياه الأساطيرية. لم يكن أمامي سوى سيد بلباس رسمي آخذ في الابتعاد، ولكنني كنت أنقل بالقرب منه، وكأنما بكاشف ضوئي غير حاذق ودون أن أفلح في تركيزه عليه بدقة، الفكرة القائلة بأنه أمير «ساكس» وهو في طريقة للقاء دوقة «غيرمانت». ومع أنه كان وحده فقد كانت تلك الفكرة الخارجة عنه اللاملموسة الشاسعة المتقطعة كرشق أضواء تبدو وكأنما تتقدمه وتقوده كتلك الآلهة اللامرئية بالنسبة إلى بقية البشر والتي تقف بالقرب من المحارب اليوناني.

اتجهت إلى مقعدي وأنا أحاول العثور على بيت من مسرحية «فيدر» لم أكن أتذكره بدقة. ما كان يحوي، على نحو ما أنشده لنفسي، عدد المقاطع المطلوب، بيد أنه كان يبدو لي، وأنا لا أحاول عدها، أن ليس

بين اختلال وزنه والبيت الكلاسيكي من سبيل إلى المقارنة. وما كان ليدهشني أن ينبغي طرح أكثر من ستة مقاطع من هذه الجملة الشوهاء كيما تؤلف منها بيتاً باثني عشر مقطعاً. ولكني ذكرته فجأة فزالت كفعل السحر جميع مواطن الوعورة اللامتآلفة من عالم غير إنساني، وملأت مقاطع البيت في الحال مقاس البحر الاسكندري[1] وانقشع ما كان زائداً منه بمثل السهولة والمرونة اللتين تنقشع بهما فقاعة هواء تقبل لتضمحل على صفحة الماء. وبالفعل لم تكن الفظاعة التي كافحت ضدها سوى مقطع واحد فحسب.

كان عدد من مقاعد الصالة قد بيع في المكتب فابتاعه متحذلقون أو فضوليون يبغون مشاهدة أناس ربما ما توافرت لهم فرصة أخرى لرؤيتهم عن كثب. والحقيقة أن ما كان يمكن مشاهدته على رؤوس الأشهاد إنما كان بعضاً من حياتهم الاجتماعية الحقة، ذلك لأن أميرة «بارم» وضعت بنفسها ما بين أصدقائها المقصورات والشرفات والمقصورات الخاصة فأضحت القاعة وكأنها صالة يغير كل فيها مقعده ويمضي للجلوس هنها أو هناك بالقرب من إحدى الصديقات.

وكان إلى جانبي أناس من العامة شاؤوا، وهم لايعرفون المشتركين، أن يظهروا أنهم قادرون على التعرف إليهم فأخذوا يجهرون باسمائهم. ويضيفون أن هؤلاء المشتركين إنما يجيئون هنا وكأنما إلى صالتهم ومرادهم أن يقولوا بذلك أنهم لايعيرون المسرحيات المعروضة انتباها. وإنما العكس ما كان يجري. فالطالب العبقري الذي شغل مقعداً ليسمع «لابيرما» لايفكر إلا في ألاّ يوسخ قفازيه وألا يزعج وأن يخطب ود الجار الذي وهبته إياه المصادفة وأن يلاحق بابتسامة متقطعة النظرة العابرة، أن يتجنب بمظهر وقح النظرة الملتقاة لشخص من معارفه اكتشفه في الصالة وقرر بعد فيض من الحيرة أن يذهب لتحيته آن تضطره الضربات الثلاث، إذ تدوي قبل أن يصل إليه، أن يولي الأدبار كالعبرانيين في البحر الأحمر بين أمواج النظارة الهائجة من رجال وسيدات دفعهم إلى القيام وهو يمزق الفساطين ويطحن الأحذية. ولأن رجال المجتمعات الراقية كانوا على العكس في مقصوراتهم (خلف الشرفة المدّرجة) وكأنما في صالات صغيرة معلقة أزيل أحد حواجزها، أو في مقاه صغيرة ترتادها لتناول حليب ساخن بالشوكولاته دون أن تتهيب المرايا المؤطرة بالذهب ومقاعد الدار الحمراء التي من طراز نابولي – ولأنهم كانوا يضعون يداً لامبالية على قواعد الأعمدة المذهبة التي تحمل الفن الغنائي هذا،– ولانهم ماكانوا يتأثرون بصنوف التكريم المفرط التي تبدو وكأنما تحيطهم بها صورتان منقوشتان تمدان صوب المقصورات سعف النخل وأوراق الغار فقد كانوا وحدهم من يتوافر لهم فكر خالٍ لسماع الرواية لو اتفق لهم فكر.

لم يسد بادئ الأمر سوى عتمة مبهمة تلقى فيها فجأة بريق عينين شهيرتين وكأنما التماعة حجر كريم لاتراه أو كأنما ميدالية لـ «هنري الرابع» تبرز على خلفية سوداء صورة دوق «أومال» الجانبية وهو ينحني وتصيح به سيدة محتجبة: «ليأذن لي سيدي أن أنزع معطفه»، فيما يجيب الأمير قائلاً: «يالك، ما هذا ياسيدة «دامبرساك»». وكانت تفعل على الرغم من ذلك التمنع غير الصريح فيحسدها الجميع من جراء مثل ذلك الشرف.

(١) يتألف هذا البحر من ١٢ مقطعاً ويقابل البحر الطويل في الشعر العربي.

أما في المقصورات الخاصة الأخرى فقد كانت الآلهات البيضاء التي حلت في تلك المنازل المظلمة قابعة في كل مكان تقريباً بمحاذاة الجدران العاتمة وظلت محتجبة. إلا أن أشكالها البشرية الغامضة أخذت، كلما تقدم العرض، تبرز بلطف، الواحد تلو الآخر، من أعماق الليل الذي كانت تغطي جنباته، وتدع بارتفاعها وجهة الضوء لأجسامها نصف العارية أن تطفو وتقبل لتتوقف على الحد العامودي والمساحة المبهمة حيث تظهر وجوهها الملتمعة خلف تدفق ريش مراوحها الضاحك الراغي الرقيق وتحت شعورها الأرجوانية المشبكة باللآلىء التي تبدو وكأنما لواها تموج سيل الشعور. وبعدها تبدأ مقاعد الصالة، مقام الفانين المفصول إلى الأبد عن المملكة العاتمة الشفيفة التي تقيم لها عيون آلهات المياه الصافية العاكسة حدوداً على سطوحها المائمة المستوية. ذلك أن مقاعد الشاطئ الجانبية وأشكال الكائنات الخرافية في الصالة كانت ترتسم في تلك العيون تبعاً لقوانين الضوء وحدها ووفقاً لزاوية سقوطه كما هي الحال بالنسبة إلى هذين القسمين من الواقع الخارجي اللذين قد نحكم على أنفسنا بالجنون إن خصصناهما بابتسامة أو نظرة إذ نعلم أنهما لايملكان نفساً شبيهة بنفسنا، مهما كانت بدائية، عنيت المعادن والأشخاص الذين لاتربطنا بهم علاقات. ولكن بنات البحر المشرقات كن، في الجانب الواقع قبل حدود موطنهن، يلتفتن على العكسِ فيِ كل لحظة باسمات صوب سمادل ملتحية قابعة في تجاويف الغمر أو صوب نصف إله مائي جمجمته حصبة مصقولة رد عليها الماء أشنة ملساء، وعينه أسطوانة من الكريستال الصخري. كن ينحنين صوبهم ويقدمن لهم السكاكر ؛ وتنشق اللجة أحياناً أمام جنية مائية جديدة جاءت متخلفة باسمة خجلى تتفتح من أعماق العتمة. ثم تغوص الشقيقات المختلفات دفعة واحدة ويتوارين في الظلام بعد انتهاء المشهد إذ لا أمل لهن من بعد في سماع ضوضاء الأرض الرخيم الذي قد اجتذبهن إلى السطح. بيد أن أكثر جميع تلك المعتزلات التي كان الاهتمام الطفيف بمشاهدة أعمال البشر يقود إلى الالهات الفضوليات اللواتي لا يسمحن بالاقتراب منهن، إن أكثرها شهرة كان كتلة نصف العتمة المعروفة باسم مقصورة أميرة «غيرمانت» الخاصة.

وكمثل إلهة عظيمة تشرف من بعيد على ألعاب الآلهة الدنيا ظلت الأميرة عمداً في ركن قصي بعض الشيء على أريكة جانبية حمراء كصخرة مرجانية بالقرب من توهج زجاجي واسع هو مرآة على الأرجح وكان يذكر بمقطع اقتطعه شعاع في بلور المياه المفتون عامودياً غامضاً رجراجاً. وكان ثمة زهرة بيضاء كبيرة هي ريشة وتويج في آن معا، كما هي حال بعض الأزهار البحرية، تنحدر، ناعمة الزغب مثلما الجناح من جبين الأميرة على امتداد إحدى وجنتيها وترافق انحناءتها بمرونة مغناجة عاشقة زاخرة بالحياة وتبدو وكأنما تحتبس نصفها شأن بيضة وردية في دفء عش طائر الألسيون. وعلى شعر الأميرة تمتد شبكة صغيرة تنحدر حتى الحاجبين ثم تعود من جديد لتتشكل على مستوى الصدر، شبكة صنعت من تلك الأصداف البيضاء التي تلتقط في بعض البحار الجنوبية والتي تمازجها بعض اللآلىء في فسيفساء بحيرة تكاد لاتخرج من الأمواج حتى تعود لتغوص بين الحين والحين في الظلام وفي أعماقه يتكشف حتى حينذاك حضور بشري تبرزه حركة عيني الأميرة الملتمعتين. ولم يكن الجمال الذي يضع هذه الأخيرة في مرتبة تفوق بها كثيراً بنات العتمة الخرافيات الأخريات منقوشاً بكليته في قفا عنقها وفي المنكبين والذراعين والقامة. بيد أن خطها العذب غير المكتمل كان نقطة الانطلاق الأكيدة والبداية المحتمة لخطوط خفية لاتقوى العين إلا أن تمتد بها رائعة تتشكل حول المرأة كطيف صورة خيالية ترتسم على صفحة الظلام.

وقالت جارتي للسيد الذي كان برفقتها: «إنها أميرة «غيرمانت»، وقد حرصت أن تضيف عدة ياءات إلى كلمة أميرة مشيرة بذلك إلى أن هذه التسمية مضحكة، «ولم توفر لآلئها. يبدو لي أنه لو تيسر لي مقدارها لما عرضتها على الملأ على هذا النحو، فلست أرى في ذلك وجه لياقة.»

غير أن جميع الذين كانوا يحاولون أن يعلموا من كان في القاعة كانوا يحسون، إذ يتعرفون الأميرة، بعرش الجمال الشرعي يرتفع في فؤادهم. ذلك أن ما كان يسمح، فيما يخص دوقة «لوكسمبور» والسيدة «دو مورينفال» والسيدة «دو سانت أوفيرت» وغيرهن كثيرات، بتعرف وجههن إنما كان الترابط بين أنف أحمر كبير وشفة مشرومة أو بين خدين جعدين وشارب دقيق. كانت تلك الملامح كافية على أي حال لتفتن بما أنها تسمح، إذ لا تملك سوى القيمة الاصطلاحية التي للكتابة، بقراءة اسم مشهور يفرض الاحترام، ولكنها تخلف إلى ذلك في نهاية الأمر الفكرة التي مفادها أن للقبح مسحة ارستقراطية وأن ليس مهماً أن يكون وجه السيدة الراقية جميلاً إن كان متميزاً. ولكن مثلما يضع بعض الفنانين في أسفل لوحتهم، عوضاً عن حروف اسمهم، شكلاً جميلاً في حد ذاته، كفراشة أو حرذون أو زهرة، كذلك كانت الأميرة إنما تضع في زاوية مقصورتها شكل جسم ومحيا بديعين فتبرز بذلك أن الجمال يمكن أن يكون أسمى أنواع التوقيع. ذلك لأن حضور السيدة «دو غيرمانت» التي كانت لا تصطحب إلى المسرح سوى أشخاص يؤلفون في الأوقات الأخرى جزءا من جماعة المقربين إليها كان في نظر هواة الارستقراطية أفضل شهادة على أصالة اللوحة التي تقدمها مقصورتها الخاصة وهي ضرب من تمثيل مشهد من حياة الأميرة المألوفة الخاصة في قصورها في ميونيخ وباريس.

ولما كان خيالنا شبيهاً بأرغن شعبي مختلّ يؤدي أبداً غير اللحن المعلن فقد شرع ذكر بعض أعمال القرن السادس عشر الفنية يتعالى أناشيد في صدري في كل مرة سمعت فيها من يتحدث عن أميرة «غيرمانت-بافيير» كان لابد أن أجردها منه وأنا أراها الآن تقدم سكاكر ملبسة لسيد بدين بلباس رسمي. ما كان أبعدني بالتأكيد عن أن استخلص من ذلك أنها ومدعويها أناس يماثلون الآخرين. كنت أدرك تماماً أن ما يقولون به لايعدو كونه تمثيلاً وأنهم بغية التمهيد لأعمال حياتهم الحقيقية (التي ما كانوا يقضون هنا دونما شك الجزء المهم منها) كانوا يتفقون، بموجب طقوس مجهولة لدي، بل يتظاهرون بتقديم سكاكر وبرفضها، وهي حركة مجردة من دلالتها وقد نظمت سلفاً على غرار خطوات راقصة ترتفع تارة على أطراف قدميها وتدور أخرى حول منديل. ومن ذا يعلم؟ فربما كانت الآلهة لحظة تقدم سكاكرها تقول بلهجة السخرية تلك (إذ كنت أراها تبتسم): «هل لك في بعض السكاكر؟» وما همني؟ فلعلني وجدت من قبيل التأنق الرائع الجفاء المقصود على طريقة «ميريميه» أو طريقة «ميلاك» في تلك الكلمات التي توجهها إلهة إلى نصف إله كان يعلم، فيما يخصه، ما كانت الأفكار السامية التي يختصرها كلاهما لحظة يعاودان ولا شك حياتهما الحقيقية، ويجيب، وقد أخذ بتلك اللعبة، يجيب بالمكر الغامض نفسه: «أجل، إني أرغب في كرزة». وربما أصغيت إلى ذاك الحوار بالنهم نفسه الذي أسمع به هذا المشهد أو ذاك من «زوج المبتدئة» حيث يبدو لي غياب الشعر والأفكار العظيمة، وهي أمور جدّ مألوفة لديّ وأفترض أن «ميلاك» كان ألف مرة قادراً على زجها فيها، يبدو بمفرده أناقة، أناقة مصطنعة وتزداد من جراء ذلك أسراراً ومعلومات.

وقال جاري بلهجة العارف وكان قد أساء سماع الاسم المهموس به خلفه: «البدين هذا هو مركيز «غانتسيه» .

كان المركيز «دو بالانسي» ينتقل الهوينى، ممدود العنق مائل الوجه وعينه الكبيرة المستديرة تلتصق بزجاج نظارته، كان ينتقل في العتمة الشفافة ويبدو وكأنه لايبصر جهور الصالة أكثر مما تفعل سمكة تمر غير عابئة بجمهور الزوار الفضوليين، خلف حاجز الحوض الزجاجي. ويتوقف بين الحين والحين وقوراً لاهثاً مرغياً وما كان بمقدور النظارة أن يقولوا إن كان يتألم أو ينام أو يسبح أو يبيض أو يتنفس فحسب. ولم يكن أحد يثير في نفسي مقدار الحسد الذي يفعل من جراء تعوّد هذه المقصورة، التعوّد الذي يبدو أنه اكتسبه واللامبالاة التي يدع للأميرة بها أن تمد السكاكر إليه. كانت تلقي عليه إذ ذاك نظرة من عينيها الجميلتين اللتين قدّتا في ماسة يبدو الذكاء والوداد في تلك اللحظات وكأنما يميّعانها ولكنهما حينما تهدآن وتقتصران على جمالهما المادي المحض والتماعهما المعدني وحده كانتا إن حركها أقل منعكس حركة خفيفة تلهبان أعماق القاعة بأضوائهما القاسية الأفقية البديعة. وبما أن فصل مسرحية «فيدر» الذي تمثله «لابيرما» كان يزمع أن يبدأ فقد جاءت الأميرة إلى مقدمة المقصورة. وإذ ذاك رأيت لون حليها بل مادتها تتغير في المنطقة المختلفة الأضواء التي اجتازتها كأنما هي نفسها شبح يتراءى في المسرح. وفي المقصورة المجففة التي برزت على الصفحة ولم تعد من عالم المياه ظهرت الأميرة، وقد كفت عن كونها جنية بحار، تعتمر عمامة بيضاء وزرقاء وكأنما ممثلة رائعة لبست أثواب «زائير» أو ربما «أوروسمان». وبعدما جلست في الصف الأول، رأيت أن عش الالسيون الدافئ الذي يحمي برفق لؤلؤ وجنتيها الورديتين كان طائراً شاسعاً من الجنة، ناعماً لماعاً مخملياً.

بيد أن نظراتي تحولت عن مقصورة أميرة «غيرمانت» بفعل امرأة قصيرة رديئة الملبس قبيحة العينين جاءت يتبعها شابان لتجلس على بضعة مقاعد مني. ثم رفع الستار. ولم يكن بمقدوري أن ألاحظ دونما اكتئاب أنه لم يظل في النفس شيء من الميل الذي كان لي بالأمس إزاء الفن الدرامي و«لابيرما» آن كنت، بغية ألا يفوتني شيء من الظاهرة الخارقة التي لعلني كنت أذهب إلى أقاصي العالم لاكحل العين بها، احتفظ بفكري جاهزا كتلك الصفائح الحساسة التي يمضي الفلكيون فيقيمونها في افريقية وجزر الانتيل في سبيل ملاحظة دقيقة لمذنب أو لكسوف ؛ آن كنت أرتعد أن تحول سحابة (سوء حالة الفنان النفسية أو حادث في الجمهور) دون أن يجري العرض بأقصى درجات الزخم، آن اعتقد أنني لا أحضره بأفضل الشروط إن كنت لم أقصد المسرح ذاته المكرس لها على غرار مذبح وحيث يبدو لي أن المراقبين ذوي الفلة البيضاء الذين تسميهم بنفسها وقاعدة صحن المسرح فوق قاعة الجمهور الزاخرة بأناس رديئي الملبس والعاملات اللواتي يبعن برنامجاً يحمل صورتها وأشجار الكستناء في الحديقة وجميع رفاق انطباعاتي آنذاك وأنجيتي الذين يبدون لي وكأنهم لا ينفصلون عنها، يبدو أنهم لايزالون يؤلفون إذ ذاك جزءا من ظهورها تحت الستارة الحمراء الصغيرة وإن يكن ثانوياً. فقد كانت مسرحية «فيدر» و«مشهد البوح» و«لابيرما» تحمل في نظري ضرباً من الوجود المطلق. كان وجودها ينبعث من ذاتها إذ هي واقعة خارج حدود عالم التجربة المألوفة وكان عليّ أن أذهب إليها فقد أدرك منها ما أستطيع وقد ارتشف منها كذلك القليل القليل إن أنا فتحت عيني ونفسي قدر وسعها. ولكن ما أمتع ما كانت تبدو لي الحياة! وما كان لتفاهة تلك التي أقضيها أية أهمية، شأنها في ذلك شأن الأوقات التي ترتدي فيها ملابسك وتستعد فيها للخروج بما أنه يقوم خلف حدودها على نحو مطلق تلك الحقائق الأكثر صلابة، عنينا «فيدر» وطريقة إلقاء «لابيرما» وهي أمور يصعب الاقتراب منها ويستحيل تملكها بكليتها. ولما

كنت مشبعاً بتلك الأوهام حول الكمال في الفن المسرحي والتي كان من الممكن أن تستخلص منها كمية هامة لو تم في تلك الأوقات تحليل فكري في أية دقيقة من النهار وربما من الليل، فكنت على غرار بطارية تنتج كهرباءها. وقد بلغ بي أن كان ينبغي لي المبادرة لسماع «لابيرما» وأنا عليل حتى لو حسبتني أموت من جراء ذلك. أما الآن فكرابية تبدو في البعيد مجبولة من زرقة السماء وتعود عن قرب فتدخل في إطار رؤيتنا العادية للأشياء كان كل ذلك قد هجر عالم المطلق ولم يعد من بعد سوى أمر شبيه بالأمور الأخرى التي كنت أطلع عليها لأنني كنت في المكان، والفنانون كانوا أناسا من جوهر من كنت أعرفهم يحاولون أن ينشدوا بأفضل طريقة ممكنة أبيات مسرحية «فيدر» تلك التي لم تعد تؤلف جوهراً سامياً فردياً مفصولاً عن كل شيء، بل أبيات يحالفها النجاح في كثير أو قليل وهي جاهزة للانخراط في مادة الأبيات الفرنسية الشاسعة التي تختلط بها. وكنت أحس من جراء ذلك بفتور في العزيمة يزداد عمقاً بقدر ما تستمر، إن تلاشي موضوع شوقي العنيد الناشط، الميول ذاتها إلى وهم ثابت يتبدل من عام إلى عام ولكنه يقودني إلى نزوة مفاجئة لاتعبأ بالمخاطر فعشية أنطلق فيها، مريضاً، للذهاب إلى أحد القصور أبغي مشاهدة لوحة لـ «ايسلتير» وسجادة قوطية كانت تشبه إلى حد بعيد اليوم الذي اضطررت فيه أن أذهب إلى البندقية وذاك الذي ذهبت فيه لسماع «لابيرما» أو انطلقت فيه إلى «بالبيك» حتى لاحس سلفاً أن موضوع تضحيتي الحاضر سوف يخلف فيّ اللامبالاة بعد وقت قليل وقد أستطيع إذ ذاك المرور قريباً جداً منه دون أن أذهب لمشاهدة تلك اللوحة وذلك السجاد الذي لعلني كنت واجهت في سبيله في هذه اللحظة الكثير من ليالي الأرق والعديد من النوبات المؤلمة. كنت أحس من جراء تقلب موضوع جهودي بلا جدوى تلك الجهود وفي الوقت نفسه بضخامتها التي لم أصدّقها شأن المصابين بالوهن العصبي الذين نضاعف تعبهم إذ نلفت انتباههم إلى أنهم متعبون. وبانتظار ذلك كان وهمي يضفي مهابة على كل ما يمكن أن يرتبط به. وربما أمكنني حتى في أشد رغباتي الجنسية الموجهة أبدا وجهة معينة، المركزة حول حلم واحد، أن أتعرف بمثابة محرك أول فكرة، فكرة لعلني كنت أضحي بحياتي في سبيلها، وتقوم في النقطة الأكثر مركزية فيها، كما هي الحال في أحلامي في أثناء قراءات ما بعد الظهر في حديقة «كومبريه»، فكرة الكمال.

لم يعد لدي التسامح نفسه الذي كنت أحس به بالأمس إزاء مقاصد الحنان أو الغضب الحقه التي لاحظتها آنذاك في إلقاء «أريسي» و«إيسمين» و«هيبوليت» وتمثيلهم. وليس يعني ذلك أن هؤلاء الممثلين- ولم يتبدلوا- لا يحاولون على الدوام بالذكاء نفسه أن يضفوا في هذا المكان على صوتهم لهجة رقيقة أو لبساً مدبراً وفي ذاك على حركاتهم اتساعا مأسويا أو وتوسلاً يقطر ألماً. كانت نبراتهم تأمر هذا الصوت قائلة: «كن عذباً وأنشد كالعندليب ودغدغ» أو على العكس «كن حانقاً»، وتنقض إذ ذاك عليه تحاول أن تجرفه في جنونها. أما هو، المتمرد الغريب عن إلقائهم، فكان يظل صوتهم الطبيعي لايتحول، بعيوبه أو مواطن سحره المادي، بعاميته أو تصنعه اليوميين، وينشر على هذا النحو مجموعة من الظاهرات الصوتية أو الاجتماعية التي لم يفسدها الشعور بالأبيات التي أنشدوها.

وكذلك كانت تقول حركة هؤلاء الفنانين لسواعدهم ولردائهم أن «كوني مهيبة» ولكن الأعضاء العاصية كانت تدع عضلة الساعد التي لاتعلم شيئاً عن الدور تتبختر بين الكتف والمرفق. كانت تستمر في التعبير عن تفاهة الحياة اليومية وإبراز ترابطات عضلية بدلاً من ألوان شعر «راسين» وكان الجوخ الذي ترفعه

يعود فيهوي وفق خط شاقولي لاتنازع فيه قوانين سقوط الأجسام سوى مرونة تافهة نسيجية. وفي تلك اللحظة صاحت السيدة الصغيرة التي كانت بالقرب مني:

– «لاتصفيق البتة! ويا لاثواب ترتديها! ولكنها طاعنة في السن ولاحول لها من بعد، وفي هذه الأحوال يتخلى المرء.»

وحاول الشابان اللذان كانا برفقتها أن يحملاها على التزام الهدوء إزاء مطالبة من كانوا بجوارها بالصمت ولم يعد غضبها يتفجر إلا في عينيها. ولم يكن بوسع ذلك الغضب أن ينصب بأية حال إلا على النجاح والمجد لأن «لابيرما» التي سبق أن كسبت الكثير من المال لم يظل لها سوى الديون. كانت تضرب على الدوام مواعيد ترتبط بالاعمال أو الصداقة ولا تستطيع الذهاب إليها فكان لها في كل الشوارع خدم يسارعون لالغاء مواعيدها، وفي كل الفنادق شقق يتم حجزها سلفاً ولاتجيء قط لتشغلها، وبحور من العطور لغسل كلباتها وغرامات نكول تدفعها لسائر المديرين. ولئن كانت أقل تبذيرا لئن كانت أقل انصرافا إلى اللذة من «كليوباترة»، فلعلها لقيت وسيلة في تبديد أقاليم وممالك في عجالات وفي سيارات عائدة لشركة نقل المدينة. ولكن السيدة الصغيرة كانت ممثلة لم يحالفها الحظ فأضمرت لـ«لابيرما» بغضاً قاتلاً. كانت هذه الأخيرة قد اعتلت خشبة المسرح. ويا للمعجزة حينذاك، فأنه على غرار تلك الدروس التي استنفدنا قوانا دونما جدوى في تعلمها مساء والتي نلقاها في صدورنا وقد عرفناها عن ظهر القلب بعد أن قد نمنا، وعلى غرار وجوه الأموات تلك التي تلاحقها جهود ذاكرتنا الحثيثة دون أن نلقاها والتي نراها أمام أعيننا، حين لانفكر فيها من بعد، وبها شبه الحياة، أخذت موهبة «لابيرما» التي هربت مني حينما كنت أحاول باندفاع كبير أن أدرك كنهها، أخذت الآن بعد سنوات النسيان وفي ساعة اللامبالاة هذه تفرض نفسها على اعجابي بقوة البداهة. كنت فيما مضى، في محاولة لفرز تلك الموهبة، أسقط إلى حد ما مما أسمع الدور نفسه، الدور، هذا القسم المشترك بينها وبين جميع الممثلات اللواتي يؤدين دور «فيدر» والذي سبق أن درسته سلفاً لأتمكن من طرحه جانباً وألا أجمع بمثابة بقية باقية سوى موهبة السيدة «لابيرما». بيد أن تلك الموهبة التي كنت أحاول تبينها خارج الدور انما كانت تؤلف كلاً واحداً معه. ذلك هو شأن الموسيقي العظيم (وهي حال «فانتوي» فيما يبدو حين كان يعزف على البيانو) فأن عزفه عزف ضارب على البيانو عظيم حتى لاتعلم من بعد البتة إن كان هذا الفنان عازف بيانو، لان هذا العزف (إذ لايضع بينك وبينه كل هذا الحشد من جهد الأصابع الذي تتوّجه ههنا وهناك لمحات رائعة، وكل هذا التناثر في النوطات الذي يظن السامع، ذاك الذي لايعلم كيف تساس الامور على الأقل، انه واجد فيه الموهبة في حقيقتها المادية الملموسة) قد أضحى شفافاً يفيض مما يترجمه إلى حد أنك لاتحس به من بعد وقد أصبح محض نافذة تطل على رائعة فنية واذا كانت المقاصد تحيط كمثل حاشية فخمة أو ناعمة لصوت «آريسي» و«ايسمين» و«هيبوليت» وايماءاتهم فقد استطعت تمييزها، أما «فيدر» فكانت قد استبطنتها ولم يفلح فكري في أن ينتزع من الإلقاء والوقفات. وأن يضع يده في شح بساطة مساحاتها المستوية على تلك اللقيات، على تلك اللمحات التي لاتبرز عنها لشدة ما انغرست فيها بعمق وما كان صوت «لابيرما» الذي لم يظل به نفاية واحدة من مادة جامدة تستعصي على الفكر، ما كان يدع لك أن تميز من حوله هذا الفائض من الدمع الذي تراه يسيل فوق مرمر صوت «آريسي» أو «ايسمين» لأنه لم يستطع التغلغل فيه، بل كان قد تم تليينه بلطف في أصغر خلاياه على غرار آلة عازف كمان كبير مراد المرء، حينما يقول إن له رنة جميلة، لا أن يمتدح صفة مادية مميزة فيه بل تفوقاً في الروح. ومثلما هي الحال في المناظر الطبيعية

القديمة حيث يحل ينبوع لاحياة فيه محل حوروية توارت فقد استحال فيه مقصد واضح ومحسوس صفة في النبرة ذات صفاء غريب مناسب لاحرارة فيه. وذراعا «لابيرما» اللذان تبدو الأبيات نفسها وكأنها ترفعهما فوق صدرها بالنفثة نفسها التي تطلق بها صوتها من بين شفتيها كتلك الأغصان التي يزيحها الماء في انطلاقه ؛ ووقفتها على خشبة المسرح التي شكلتها شيئاً فشيئا وربما بدلت فيها أيضا والتي تتألف من محاكمات عقلية تختلف عمقاً عن تلك التي كنت تلمح أثرها في حركات رفاقها، ولكنها محاكمات فقدت منشأها الارادي وقد انصهرت في ضرب من الإشعاع فتحيط شخصية «فيدرا» بعناصر غنية ومعقدة تخفق من حولها ولكن المشاهد المفتون كان يعدها لابمثابة نجاح يحققه الفنان بل بمثابة أحد معطيات الحياة ؛ وتلك الاستار البيضاء نفسها التي كانت تبدو، مضناة أمينة، وكأنها مادة حية قد غزلها العذاب الذي نصفه وثنية والنصف «يانسينية»[1]، العذاب الذي تتقلص من حوله كشرنقة هشة مقرورة ؛ فالصوت والمواقف والحركات والأستار، لم يكن كل ذلك من حول جسد الفكرة هذا الذي هو بيت الشعر (وليس هذا الجسد بخلاف الأجساد البشرية حاجزاً لاينفذ النور بل كساء مطهر روحاني) سوى غلف إضافية كانت تعبر تعبيراً أوفر روعة عن النفس التي سبق أن تمثلتها وانتشرت فيها بدلاً من أن تحجبها، سوى حمم من مواد مختلفة اصبحت شفافة ولايفضي تراكمها إلا إلى أن يعكس على نحو أوفر بهاء الشعاع المركزي الحبيس الذي يخترقها وأن يزيد في اتساع المادة المشبعة باللهب التي تحيط به كالغمد وفي كرم معدنها وجمالها. كذلك كان تمثيل «لابيرما» إنما يؤلف من حول العمل الفني عملاً فنياً ثانياً تبعث العبقرية فيه الحياة أيضاً.

ولم يكن انطباعي، وهو والحق يقال أكثر امتاعاً منه بالأمس، مختلفاً عنه. بيد أني لم أعد أضع قبالته فكرة مسبقة مجردة زائفة عن النبوغ المسرحي وأخذت أدرك أن النبوغ المسرحي إنما هو ذاك بالضبط. كنت أفكرمنذ قليل أني لم أستمتع أول مرة سمعت فيها «لابيرما» فلأني، شأني بالأمس حينما كنت ألتقي بـ «جيلبيرت» في «الشانزيليزيه»، كنت أجيء إليها وبي شوق مفرط. ربما لم يكن الخيبتين وجه الشبه هذا فحسب بل آخر كذلك أكثر عمقاً. إن الانطباع الذي يخلفه فينا شخص وعمل فني (أو تمثيل دور) متميزان إلى حدّ بعيد إنما يتسم بطابع خاص. لقد جلبنا معنا أفكار «الجمال» و«رحابة الأسلوب» و«المأساوية» التي ربما توهمنا أننا نتعرفها في تفاهة موهبة ووجه مقبولين، ولكن فكرنا المتنبّة يرى أمامه إلحاح شكل لا يملك له مقابلاً فكرياً وينبغي له استخلاص المجهول منه. إنه يسمع صوتاً حاداً ونبرة استفهامية غريبة ويسائل النفس قائلاً: «أجميل هذا؟ أمن الإعجاب ما أحسّ به؟ وهل ذاك غني الألوان والسمو والقوة؟» أما ما يجيبه من جديد فصوت حاد ولهجة تسائل مساءلة غريبة، إنه الانطباع المستبد الذي يثيره فيك كائن لاتعرفه، وهو مادي كله ولم تترك فيه أية مساحة فارغة لـ «رحابة التمثيل». وإنما الأعمال الجميلة حقاً هي التي لابد لها بسبب ذلك، ان تم سماعها بصدق، أن تخيب آمالنا أكثر ما تخيب لأنه ليس في مجموعة أفكارنا فكرة واحدة توافق انطباعاً فردياً.

ذلك بالضبط ما كان يكشفه لي تمثيل «لابيرما» ؛ والنبل والذكاء في الالقاء كانا ذلك بالتمام. لقد أخذت أتبين الآن مزايا التمثيل الذي يمتاز بالرحابة والشاعرية والقوة، أو ذلك بالأحرى ما اتفق أن يمنح تلك

(١) حركة دينية مسيحية متزمتة ظهرت في فرنسافي القرن السابع عشر على يد اللاهوتي الهولندي «يانسن» (١٥٨٥ – ١٦٣٨).

الألقاب ولكن على نحوما يطلق اسم المريخ والزهرة وزحل على نجوم لاتملك شيئاً من دنيا الميثولوجيا. إننا نشعر في عالم ونفكر ونسمي في عالم آخر، ويمكننا إقامة توافق ما بين الاثنين لاردم المسافة الفاصلة. تلك كانت إلى حد ما المسافة، الثغرة التي وقع عليّ اجتيازها حينما لقيت في أول يوم ذهبت فيه لمشاهدة تمثيل «لابيرما»، وبعدما صرفت إليها كامل انتباهي، بعض المشقة في اللحاق بأفكاري عن «سمو التمثيل» و«الأصالة» ولم أنبر أصفق بحرارة إلابعد لحظة فراغ وكما لو ينطلق التصفيق لامن انطباعي نفسه، بل كما لو كنت أربطه بأفكاري المسبقة، بالمتعة التي أحس بها في أن أقول في نفسي: «ها إني أخيراً أسمع لابيرما». وان الفارق الكائن بين شخص وعمل فني بارز الفردية وفكرة الجمال إنما هو كائن بالمقدار ذاته بين ما تولينا هذه من مشاعر وأفكار الحب والإعجاب. ونحن لذلك لانتعرفها. فانني لم أصب متعة في سماع «لابيرما» (كما لم أصب متعة في رؤية «جيلبيرت» حينما كنت أحبها). وقلت في نفسي: «إني غير معجب بها إذن». ولكني ما كنت أفكر آنذاك الا في تعميق تمثيل الممثلة، ولايشغلني إلا ذاك الأمر فأجهد في فتح فكري على أرحب نحو ممكن لأتزود بكل ما يتضمنه؛ وإني لأدرك الآن أن الإعجاب إنما كان ذلك.

وتلك العبقرية التي لم يكن تمثيل «لابيرما» سوى كشف لها فحسب، أكانت عبقرية «راسين» وحدة؟.

لقد ظننت ذلك أول المطاف، وكان لابد أن أعود عن ضلالي بعدما انتهى فصل مسرحية «فيدر» وبعد إلحاح الجمهور طلباً لعودة الممثلين التي انتصبت جارتي القديمة الحانقة في أثنائها بقامتها الصغيرة جداً ووضعت جسمها بالورب وجمدت عضلات وجهها وصالبت ذراعيها على صدرها لتبدي أنها لاتشارك الآخرين تصفيقهم ولتبرز على نحو أوضح احتجاجاً حكمت أنه شديد الوقع ولكنما لم يشعر به أحد. كانت المسرحية التالية واحداً من الأعمال الجديدة التي كان يبدو لي بالأمس أنها لابد ستبدو هزيلة وخاصة بما أنها لا وجود لها خارج الدور الذي تؤدى به. ولكني إلى ذلك لم تتملكني الخيبة أن أبصر خلود العمل الفني لايمتد إلاّ امتداد خشبة المسرح والإ مدة دوام العرض الذي يؤديه على نحو ما يؤدي مسرحية مناسبات. ثم إني كنت أضيف إلى كل مقطع أحس أن الجمهور أحبه وقد يضحي ذات يوم شهيراً، كنت أضيف، بدلاً من الشهرة التي لم يتسن لها أن تحوزها فيما مضى، تلك التي ستحوزها في المستقبل بجهد فكري معاكس للجهد الذي قوامه تمثل روائع فنية في زمن صدورها الهزيل حين لم يكن يبدو أن عنوانها الذي لم يطرق الأسماع بعد سوف يتم وضعه فيما بعد بجانب عناوين مؤلفات الكاتب الأخرى وسوف تختلط في الضياء نفسه. وربما أدرج هذا الدور ذات يوم في لائحة أجمل أدوراها إلى جانب دور «فيدر». وليس يعني ذلك أنه لم يكن في حدّ ذته خلوا من أية قيمة أدبية ولكن «لابيرما» سمت فيه سموها في «فيدر». وأدركت حينذاك أن مؤلف الكاتب لم يكن بالنسبة إلى الممثلة سوى مادة غير ذات بال تقريبا في حد ذاتها من أجل ابداع رائعتها في التتمثيل، مثلما سبق لـ «ايلستير» الفنان الكبير الذي عرفته في «بالبيك» أن وجد موضوع لوحتين تتساويان قيمة في بناء مدرسي لاطابع له وكاتدرائية هي في حد ذاتها رائعة فنية. ومثلما يذيب الرسام البيت وعربة النقل والشخوص في دفقة ضياء كبيرة تجعلها متجانسة كذلك كانت «لابيرما» تمد طبقات واسعة من الرعب، من الرقة على الكلمات التي انصهرت بالتساوي فاستوت كلها أو سمت، ولعل الفنانة الضحلة كانت تبرزها الواحدة تلو الاخرى. وليس من شك أنه كان لكل منها نبرة خاصة وما كان إلقاء «لابيرما» يحول دون

أن يتبين المرء بيت الشعر. أفليس ثمة عنصر أول من التعقيد المنظم والجمال حينما يحس المرء، إذ يسمع قافية، يعني أمراً هو في الآن نفسه مثيل ومغاير للقافية السابقة التي تجد علتها فيها ولكنها تدخل فيها تغير فكرة جديدة، بمنظومتين تتناضلان، إحداهما على صعيد الفكر والأخرى على صعيد الوزن الشعري؟ بيد أن «لابيرما» كانت تدخل حتى الأبيات، وحتى المقاطع في مجموعات أرحب منها يفتنك أن تراها مضطرة للتوقف والانقطاع على حدودها ؛ كذلك يستمتع شاعر في أن تتردد لحظة في القافية الكلمة التي توشك الانطلاق، وموسيقي في خلط كلمات الكتيب المختلفة في ايقاع واحد يعاكسها ويجتذبها. وهكذا كانت تعرف «لابيرما» كيف تدخل في جمل كاتب الدراما الحديث وأشعار «راسين» على حد سواء هذه الصور الرحبة من الألم والنبل والهوى التي تؤلف روائعها هي وحيث كان يتم تعرّفها مثلما يتعرف الرسام في رسوم شخصية نقلها عن نماذج مختلفة.

ما كنت لأتمنى من بعد، شأني بالأمس، أن استطيع تجميد وقفات «لابيرما» ومسحة اللون الجميلة التي كانت تخلفها مقدار لحظة فحسب في ضوء سرعان ما يتلاشى ولا يتشكل من جديد، ولا أن أحملها على أن تكرّر مئة مرة بيتا من الشعر. فقد أخذت أدرك أن رغبتي القديمة كانت أكثر تطلباً من مشيئة الشاعر والممثلة والفنان الكبير مهندس المناظر، وهو مخرجها، وأن هذا السحر المسفوح خطفاً على بيت من الشعر، وهذه الحركات غير الثابتة التي تبدل باستمرار وهذه اللوحات المتعاقبة إنما كانت النتيجة السريعة الزوال والهدف الوقتي والرائعة الفنية المتموجة التي يهدف إليها الفن المسرحي والتي قد يقضي عليها انتباه مستمع شديد الافتتان في سعيه إلى تثبيتها. بل إني لم أعد أهتم بالمجيء يوما آخر لأسمع «لابيرما» ثانية، فقد كنت مكفيّ النفس منها. ذلك أني حينما كنت معجباً أشد الاعجاب إلى الحد الذي لايخيب ظني موضوع إعجابي، سواء أكان ذلك الموضوع «جيليبرت» أو «لابيرما» إنما كنت إذ ذاك أطلب سلفاً من انطباع الغد المتعة التي حجبها عني انطباع البارحة. ودون أن أحاول تعميق البهجة التي داخلتني من قليل والتي لعلني كنت استطيع استخدامها استخداماً أوفر خصباً كنت أقول في نفسي شأن واحد من رفاق المدرسة فيما مضى: «إنما «لابيرما» بالحقيقة من أضع في المقدمة»، فيما ينتابني شعور غامض بأن عبقرية «لابيرما» ربما لم يترجمها أدق الترجمة هذا التوكيد لإيثاري لها وللمكان «الأول» الذي امنحها إياه أيا كان الهدوء الذي يجلبانه لي.

آن بدأت تلك المسرحية الثانية نظرت إلى جانب السيدة «دو غيرمانت» وكانت هذه الأميرة قد أدارت رأسها. بحركة ولدّت خطاً عذباً كان فكري يتابعه في الفراغ، باتجاه الركن القصي في مقصورتها. كان المدعوون وقوفاً يلتفتون بدورهم نحو الباب وبين الصفين اللذين يؤلفونهما دخلت، تلفها تماماً أثواب الموسلين البيضاء، دوقة «غيرمانت» ،دخلت وسط ثقتها الظافرة وعظمة الآلهة لديها، ولكنما بها عذوبة مجهولة ناجمة عن الخجل الذي يمتزج التصنّع فيه بالبسمات من جراء وصولها متأخرة إلى هذا الحد وحملها الجميع على القيام في أثناء العرض. وذهبت رأساً إلى ابنة عمها وحيّت بانحناءة واسعة شاباً أشقر كان يجلس في الصف الأول واستدارت صوب الكائنات الخرافية البحرية المقدسة التي تموج في ركن المغارة القصي وحيّت أنصاف آلهة نادي الفروسية - الذين ألفوا في ذلك الوقت منّ لعلني فضلت أكثر ما أفضل أن أحل محلهم، ولاسيما منهم السيد«دو بالانسي» - تحية ألفة من صديقة قديمة تشير إلى اليومي من علاقاتها بهم منذ خمسة عشر

عاما. كنت أحس ولكن لا أستطيع أن أستجلي سرّ هذه النظرة المشرقة التي تخص بها أصدقاءها في البريق الأزرق الذي تلتمع به فيما تدع يدها لهؤلاء وأولئك، هذه النظرة التي لعلها كانت تكشف لي، لو تيسر لي أن أحلل ألوان موشورها وتبلوراته، ماهية الحياة المجهولة التي كانت تبرز فيها في ذلك الحين. وكان دوق «غيرمانت» يتبع زوجته، فيما تنفرج بانعكاسات نظارته الجذلى وضحكة أسنانه وبياض قرنفلته أو صداره المتثنّي حاجباه وشفتاه وسترته الرسمية لتوسع مكاناً لضيائها. وأشار بحركة من يده الممدودة التي انحدر بها، منتصب القامة لايحرك الرأس، إلى أكتافهم، أشار إلى السمادل الأدنى مرتبة الذين كانوا يوسعون له المكان بالجلوس وانحنى انحناء كبيراً أمام الشاب الأشقر. وربّما خيّل لك أن الدوقة حزرت أن ابنة عمّها، وكانت تسخر، فيما يقال، ممّا تدعوه غلواء هذه الأخيرة (والغلواء هي الاسم الذي سرعان ما يتخذه الشعر والحماسة الجرمانيان من وجهة نظرها الفرنسية الذكية المعتدلة) ستكون هذا المساء في واحد من تلك الأثواب التي ترى الدوقة أنها متنكرة فيها وأنها أرادت أن تلقنها درساً في الذوق. فبدلاً من الريش الناعم الذي كان يتحدّر من رأس الأميرة حتى عنقها، وبدلاً من خمارها الذي من أصداف ولآلئ لم تكن الدوقة تضع في شعرها سوى خصلة ريش بسيطة تبدو فيما تعلو أنفها المعقوف وعينيها غير البارزتين وكأنها خصلة ريش على رأس طير. كان عنقها ومنكباها تطلع جميعا من سيل ثلجي من الموسلين تخفق فوقه مروحة من ريش التم، ولكن الفسطان الذي لا يزين صداره سوى شذرات لاتحصى إما من معدن على شكل عصيات وحبات وإما من ماسات كان يقولب جسمها بدقة بريطانية تامّة ولكن مهما اختلفت ملابس الاثنتين بعضها عن بعضها الآخر فقد شوهدتا، بعدما قدمت الأميرة لابنة عمها الكرسي الذي كانت تشغله حتى ذاك، تستديران الواحدة نحو الأخرى لتتبادلا نظرات الإعجاب.

وبما علت ابتسامة ثغر السيدة «دو غيرمانت» في الغد حينما تتحدث عن تسريحة الأميرة الشديدة التعقيد إلى حدّما، ولكنها سوف تعلن بالتأكيد أن تلك التسريحة لم تكن لذلك أقل روعة وترتيباً بديعاً. أما الأميرة التي كانت تجد بعض الفتور وبعض الجفاف وبعض الصنعة في الطريقة التي تكتسي بها ابنة عمها فسوف تكتشف في هذه البساطة الصارمة تأنقاً مستعذباً. أضف أن الانسجام بينهما والجاذبية الشاملة المسبقة لتربيتهما كانا يبطلان وجوه التعارض لافي ترتيب الملبس فحسب بل في المواقف. فعلى أقدام هذه الخطوط اللامرئية الممغنطة التي كانت أناقة السلوك تمدها ما بينهما كان طبع الأميرة الصريح يلفظ أنفاسه فيما تنجذب باتجاهها استقامة الدوقة وتلتوي وتصبح عذوبة وسحراً. ومثلما لم يكن علينا، في المسرحية التي يتم تمثيلها، كيما ندرك مدى ما تبعث «لابيرما» من شاعرية شخصية، سوى أن نكلف بالدور الذي كانت تمثله، والذي تستطيع وحدها تمثيله، أية ممثلة أخرى، فإن المشاهد الذي لو رفع عينيه إلى شرفة المسرح لرأى في مقصورتين طريقة في اللباس تضفي على بارونة «مورينفال»، وكانت تحسب أنها تذكر بطريقة أميرة «غيرمانت»، محض هيئة شاذة متكلفة سيئة التهذيب، وجهداً متأنيا باهظ التكاليف في سبيل محاكاة أثواب دوقة «غيرمانت» وأناقتها ييسر للسيدة «دو كامبرمير» محض شبه بتلميذة داخلية ريفية سُدّت على سلك من الحديد منتصبة القامة جافة حادة الهيئة وفي شعرها تنتصب عمودياً ريشة عربة موتى. ربما لم يكن مكان هذه الأخيرة في قاعة كانت تشكّل فيها المقصورات (وحتى مقصورات أعلى الطوابق التي تبدو من الأسفل وكأنها سلال ضخمة زرعت بالزهور البشرية وعلقت بقوس القاعة بالسيور الحمراء التي لحواجزها المخملية) من ألمع

نساء العام فحسب منظراً عابراً سوف يبدل فيه عما قليل الأموات والفضائح والأدواء والخلافات ولكنما يثبّته في هذه اللحظة الاهتمام والحر والدوار والغبار والأناقة والسأم في ما يشبه اللحظة الخالدة المأساوية لحظة الانتظار اللاواعي والخدَر الهادئ التي تبدو بعد فوات الأوان وكأنها سبقت انفجار قنبلة أو اللهب الأول في حريق.

فأما السبب الذي من أجله كانت السيدة «دو كامبر مير» هناك فقوامه أن أميرة «بارم»، وهي بعيدة عن السنوبية كأكثر صاحبات السمو الحقيقيات، ولكنما تتأكلها في المقابل الكبرياء والتوق إلى التصدق الذي يساوي لديها الميل إلى ما تحسبه الفنون، كانت قد تخلت ههنا وهناك عن بعض المقصورات لنساء من طراز السيدة «دو كامبر مير» لا ينتمين إلى المجتمع الارستقراطي الراقي ولكنها كانت على علاقة بهن لغرض أعمالها الخيرية. لم تكن السيدة «دو كامبرمير» ترفع نظرها عن الدوقة وعن أميرة «دو غيرمانت»، الأمر الذي يزيد من يسره لديها أنه لايمكن أن تبدو وكأنها تلتمس تحية منهما لأنها لم تكن على علاقات حقيقية بهما. مع أن الهدف الذي كانت تلاحقه منذ عشرة أعوام بصبر لايعرف الكلل إنما كان أن يتم استقبالها لدى هاتين السيدتين الكبيرتين. لقد قدرت أنها لاشك ستفلح في ذلك في مدى خمسة أعوام. ولكنها تخشى، وقد أصابها داء لايرحم تحسب أنها، إذ تباهي بمعلومات طبية تعرف طبيعته الحتمية، كانت تخشى ألا تستطيع العيش حتى ذاك. بيد أنها كانت سعيدة في ذلك المساء أن تفكر بأن جميع أولئك النساء اللواتي لا تعرفهن سوف يشاهدن بالقرب منها رجلاً من أصدقائهن وهو المركيز الشاب «دو بوسيرجان» شقيق السيدة «دارجنكور» الذي كان يتردد بالتساوي على المجتمعين والذي كانت نساء المجتمع الثاني يملن كثيراً إلى التباهي بحضوره إلى جانبهن أمام أنظار نساء الأول. وكان قد جلس خلف السيدة «دو كامبرمير» على كرسي وضع بالعرض ليستطيع استراق النظر إلى المقصورات الأخرى. كان يعرف الجميع فيها وكان بغية التحية يرفع، إلى جانب الأناقة الساحرة التي لشكله الجميل المقوس ولرأسه الناعم ذي الشعر الأشقر، كان يرفع نصف رفعة جسمه المنتصب وفي عينيه الزرقاوين تشرف ابتسامة وبه مزيج من الأجلال والوقاحة فينقش على هذا النحو نقشاً دقيقاً في مستطيل المستوى المائل الذي يجلس فيه كأنما واحدة من تلك الصور المطبوعة القديمة التي تمثل سيداً كبيراً متعالياً متزلفاً. كان غالباً ما يرتضي الذهاب على هذا النحو إلى المسرح برفقة السيدة «دو كامبرمير». وكان يظل ببساطة بالقرب منها في القاعة وفي الردهة لدى الخروج، وسط جمهور الصديقات الأكثر شهرة اللواتي كن هناك واللواتي كان يتجنب التحدث إليهن إذ لا يبغي إزعاجهن وكأنما هو بصحبة سوء. فإن مرّت آنذاك أميرة «غيرمانت» في جمال «ديانا» ورشاقتها، تجر وراءها معطفاً لامثيل له وتستلفت سائر الرؤوس وتتبعها جميع العيون (وعينا السيدة «دو كامبرمير» أكثر من كلّ ماعداهما)، كان السيد «دو بوسيرجان» يستغرق في حديث مع جارته ولا يستجيب لابتسامة الأميرة الودود الفاتنة إلا مرغماً مضطراً وبالتحفظ المهذب والجفاء المتسامح الذي يبديه امرؤ يمكن أن يكون لطفه قد أضحى إلى حين مصدر إزعاج.

ولو لم تعلم السيدة «دو كامبرمير» أن المقصورة الخاصة إنما تعود للأميرة لعرفت مع ذلك أن السيدة «دو غيرمانت» كانت المدعوة وذلك لما تظهر من اهتمام أكبر بمنظر المسرح والقاعة كي تبدو لطيفة إزاء مضيفتها. بيد أن قوة معاكسة تزامن هذه القوة النابذة وتنميها رغبة التودد نفسها كانت تردّ انتباه الدوقة باتجاه ملابسها الخاصة إلى ريش قبعتها وعقدها وصدارها وباتجاه ملابس الأميرة نفسها كذلك، الأميرة التي تبدو ابنة عمها وكأنما تعلن أنها من أتباعها وعبدة لها جاءت إلى هنا لمحض لقائها. وهي مستعدة أن تتبعها إلى مكان

آخر لو خطر لصاحبة المقصورة أن تذهب، ولا تنظر إلى باقي القاعة إلا على أنها مؤلفة من غرباء يدهشك منظرهم مع أنها تضم العديد من الأصدقاء الذين كانت في مقصورتهم في أسابيع أخرى والذين ما كان يفوتها أن تبدي إزاءهم الولاء الحصري والنسبي والأسبوعي نفسه. كان يدهش السيدة «دو كامبرمير» أن ترى الدوقة هذا المساء. فقد كانت تعلم أن هذه الأخيرة تظل في «غيرمانت» إلى وقت متأخر جداً وتفترض أنها لاتزال هناك. ولكنما نُميَ إليها أن السيدة «دو غيرمانت» كانت تأمر، بعدما تتناول الشاي مباشرة مع الخدم، بتجهيز احدى عرباتها حينما يتوافر في باريس عرض تحكم أنه شيق وتنطلق مسرعة لدى غروب الشمس عبر الغابة التي يلونها الشفق ثم على الطريق لتستقل القطار في «كومبريه» فتكون مساء في باريس. وتفكر السيدة «دو كامبرمير» يهزها الاعجاب: «ربما جاءت من «غيرمانت» عمدا لتسمع «لابيرما». وكانت تذكر أنها سمعت «سوان» يقول بهذه اللغة الخاصة الملتبسة التي يشاركه فيها السيد «دو شارلوس»: «إن الدوقة من أكثر الناس سموّ خلق في باريس ومن الصفوة الأكثر رهافة ذوق والأوفر رقيا.» أما بالنسبة إليّ، أنا الذي كان يشتق من اسم «غيرمانت» واسم «بافيير» واسم «كونديه» حياة ابنتي العم وفكرهما (ولا يسعني ذلك من بعد فيما يخص وجهيهما بما أنه أتفق لي أن رأيتهما) فلعلي كنت أفضل معرفة رأيهما في «فيدر» على رأي أعظم ناقد في العالم. لانني ما كنت لأجد في رأيه سوى الذكاء، ذكاء يفوق ما اجتمع لي، ولكنه من الطينة ذاتها. فأما ما كانت تفكر فيه دوقة «غيرمانت» وأميرة «غيرمانت» والذي زوّدني بوثيقة لاتقدر بثمن حول طبيعة هاتين المخلوقتين الشاعريتين فقد كنت أتصوره بوساطة اسميهما وافترض فيهما سحراً غير معقول، وإنما سحر عشيات الصيف التي تنزّهت أثناءها إلى جانب «غيرمانت» ما كنت أطلب، بظمأ المحموم وحنينه، أن يردّه إليّ رأيهما في «فيدر».

كانت السيدة «دو كامبرمير» تحاول تمييز نوع الملابس التي ترتديها ابنتا العم. أما فيما يخصني فما كنت أشك أن تلك الملابس خاصة بهما، لابمعنى أن الحلة ذات الياقة الحمراء أو الثنية الزرقاء كانت تخص حصراً فيما مضى آل «غيرمانت» وآل «كونديه» فحسب، بل كما هو بالأحرى بالنسبة إلى الطير أمر الريش الذي لايقتصر على أنه حلة جماله ولكنه امتداد لجسمه. كانت ملابس هاتين المرأتين تبدو لي بمثابة تجسيد ثلجي أو مزركش لنشاطهما الداخلي، وكما هو شأن الحركات التي سبق أن رأيت أميرة «غيرمانت» تقوم بها والتي ما شككت أنها توافق فكرة خفية، فقد كان يبدو الريش الذي يتحدّر من جبين الأميرة وصدار ابنة عمها الباهر البراق وكأنما لهما دلالتهما، وكأنما يؤلفان بالنسبة إلى كل من المرأتين ميزة تنطبق عليها وحدها وكنت أرغب معرفة دلالتها: فقد كان طائر الجنة يبدو وكأنما لايمكن فصله عن الواحدة مثلما الطاووس عن «يونون»،[1] وما كنت أحسب بمقدور أية امرأة أن تغتصب صدار الأخرى البراق أكثر مما تفعل بترس «مينيرفا»،[2] اللامع ذي الحواشي. وحينما كنت أوجه ناظريّ صوب تلك المقصورة فكأنما تيسر لي أن أبصر، أكثر ما يتفق لي في سقف المسرح حيث رسمت صور رموز جافة، بفضل تمزق السحب المألوفة العجائبي، مجلس الآلهة وهو يتأمل منظر الناس تحت ستارة حمراء في فرجة مضيئة بين اثنين من أعمدة السماء. كنت أتأمل هذا الظهور الإلهي المؤقت باضطراب يمزج به الشعور بأني مجهول لدى جماعة الخالدين

---

(١) Junon إلهة رومانية ترمز إلى الحب الشرعي.

(٢) Minerve إلهة الحرب عند الرومان وينسبون إليها حماية الفنون والعلوم.

طمأنينة. لقد سبق للدوقة أن رأتني مرة مع زوجها بيد أنها لابد لا تذكر ذلك بالتأكيد، وما كان يؤلمني أن يتفق لها من جرّاء المكان الذيّ تشغله في المقصورة الخاصة أن تنظر إلى تشابك المرجانيات المفغلة المشتركة في جمهور الصالة لأنني كنت أشعر شعور السعادة بكياني يذوب فيما بينهم حينما أبصرت، لحظة أقبل يرتسم ولاشك، بفضل قوانين الانكسار الضوئي، في مجرى العينين الزرقاوين الهادئ الشكل المبهم لوحيد الخلية المجرد من الوجود الفردي الذي كنته، أبصرت ضياء يشرق فيهما: فقد رفعت الدوقة، وقد انقلبت من إلهة امرأة وبدت لي فجأة بذلك ألف مرة أكثر جمالاً، رفعت نحوي يدها التي لفها قفاز أبيض، وكانت تستند بها على حافة المقصورة، وحركتها عربونا للصداقة، وأحسّت نظراتي بالتوهج غير المقصود والبرق المنبعثين من عيني الأميرة يلتقيان بها، وقد ألهبتهما الأميرة دونما علم منها بمحض تحريكهما لمحاولة أن ترى من حيث ابنة عمها، وقد أمطرتني هذه الأخيرة، بعدما تعرفتني، بوابل من بروق ابتسامتها السماوية.

كنت أمضي الآن كل صباح، قبل ساعة خروجها بكثير، لأقف بعد عطفة في زاوية الشارع الذي تنحدر فيه عادة وحينما كان يبدو لي أن لحظة مرورها أضحت قريبة كنت أعود بهيئة شاردة أنظر في اتجاه معاكس وأرفع عينيّ إليها حالما أصل بمحاذاتها ولكن كما لو لم أتوقع البتة رؤيتها. وقد بلغ بي في الأيام الأولى أن انتظر أمام بيتها كي أكون أكثر يقينا من أني لن أخطئها. وفي كل مرة ينفتح فيها الباب الرئيسي (ليسمح بمرور العديد من الاشخاص على التوالي ممن ليسوا من انتظر) كانت حركته تتوالى في فؤادي اهتزازات تستمر فترة طويلة لتهدأ. ذلك أنه ليس من متحمس لممثلة كبيرة لايعرفها ويمضي في انتظار طويل أمام مخرج الفنانين، ليس من جمهور ساخط أو متعشق اجتمع ليشتم أو يحمل على الأكتاف المحكوم أو الرجل العظيم الذي يخيل إليهم أنه وشيك المرور كلما تناهت إلى الاسماع ضجة من داخل السجن أو القصر، ليس منهم البتة من كان بمثل اضطرابي وأنا أنتظر رحيل هذه السيدة الكبيرة التي كانت بأثوابها البسيطة تدرك، بفضل رشاقة مسيرتها (التي تختلف كلياً عن المشية التي تتخذها حينما تدخل إلى صالة أو إلى مقصورة)، كيف تصنع من نزهتها الصباحية- وليس في نظري من يتنزه في العالم سواها- قصيدة كاملة من الأناقة وأرق أنواع الزينة وأطرف أزاهير السماء الصاحية. ولكنني مضيت بعد ثلاثة أيام إلى أبعد من ذلك بكثير وحتى نقطة ما من خط سير الدوقة المعهود كي لايستطيع البواب أن ينتبه لحيلتي. غالباً ما كنت أقوم على هذا النحو، قبل هذه الأمسية في المسرح، بنزهات قصيرة قبل الغداء حينما يكون الطقس صحواً. فإن سبق أن هطل المطر كنت أنحدر للسير بضع خطوات فألمح فجأة طالبة داخلية تتبعها معلمتها أو بائعة حليب بأكمامها البيضاء تتقدم على الرصيف الذي لايزال مبتلاً وقد استحال بفعل الضياء لكاً ذهبياً في اشراقة مفترق طرق يعصف به ضباب تدبغه الشمس وتشقره، فأظلّ لاحراك بيْ أضع يداً على قلبي الذي انطلق مذ ذاك نحو حياة غريبة، وكنت أجهد في تذكر الشارع والساعة والباب الذي اختفت خلفه البنيّة (التي كنت أتبعها أحيانا) دون أن تعاود الخروج. كانت سرعة زوال تلك الصور التي أداعبها والتي أمني النفس بمحاولة رؤيتها من جديد، كانت تحول لحسن الحظ دون أن تنغرس بشدة في ذاكرتي. وماهمّ، لقد كنت أقل حزنا أن أكون مريضا وأنني لم تخالفني الشجاعة بعد في يوم للشروع في العمل ومباشرة كتاب، وتبدو الأرض في عيني أمتع للسكنى وقضاء الحياة أبعث على الاهتمام منذ أخذت أرى أن شوارع باريس، شأن طرقات «بالبيك» تزدان بتلك الحسان المجهولات اللواتي ما أكثر ما حاولت أن يطلعن من أحراج «ميزيكليز» واللواتي كانت كل منهن

تثير رغبة واشتهاء تبدو وحدها قادرة على اشباعهما.

كنت قد أضفت للغد، لدى عودتي من دار الأوبرا، إلى الصور التي كنت اتمنى لقياها ثانية منذ بضعة أيام، صورة السيدة «دو غيرمانت» بقامتها المديدة وتسريحة شعرها الاشقر اللطيف العالية ووعود الحنان هي الابتسامة التي وجهتها إليّ من مقصورة ابنة عمها. سوف أتبع الدرب الذي روت لي «فرانسواز» أن الدوقة تسلكه وسوف أجهد مع ذلك أن لا تفوتني ساعة الانصراف من درس ومن تعليم مسيحي بغية أن أعود فألتقي بفتاتين كنت رأيتهما قبل البارحة. إلا أن ابتسامة السيدة «دو غيرمانت» المتلألئة والاحساس بالعذوبة الذي خلفته فيّ كانا يعودان إليّ في تلك الأثناء بين حين وآخر. ودون أن أعلم بالتمام ما كنت أفعله، كنت أحاول وضعهما (مثلما تنظر امرأة إلى الاثر الذي قد يخلفه على أحد الفساطين نوع معين من أزرار أحجار كريمة جيئت بهامنذ قليل) إلى جانب الافكار الخيالية التي كنت أحملها منذ فترة طويلة والتي أطلقها من عقالها فتور «ألبيرتين» ورحيل «جيزيل» المبكر ومن قبلهما الانفصال المتعمد والمطوّل جدا عن «جيلبيرت» (كأن تحبني امرأة على سبيل المثال وأن تكون لي حياة مشتركة معها). ثم كنت أقرّب من تلك الافكار صور هذه أو تلك من الفتاتين وأجهد بعدها في الحال في مواءمة ذكرى الدوقة معها. كانت ذكرى السيدة «دو غيرمانت» في الأوبرا أمراً هيناً جداً بالمقارنة مع تلك الأفكار، وما يشبه النجمة الصغيرة بالقرب من الذيل الطويل الذي لمذنبها الملتهب. ثم إني إلى ذلك كنت أعرف هذه الأفكار تمام المعرفة قبل تعرّفي بالسيدة «دو غيرمانت» بفترة طويلة، أما الذكرى فقد كنت على العكس أملكها على نحو غير تام، وكانت تغيب عني بين الحين والحين. كان عليّ في أثناء الساعات التي انتقلت فيها شيئاً فشيئا من شكل غير ثابت في نفسي على غرار نساء أخريات جميلات إلى ترابط وحيد ونهائي – يستبعد أية صورة انثوية أخرى– مع أفكاري الخيالية التي سبقتها بكثير، كان عليّ في أثناء بضع الساعات هذه التي كنت اتذكرها فيها أفضل الذكرى أن انتبه لأعرف بدقة أية ذكرى كانت ؛ على أني ما كنت أعلم آنذاك الأهمية التي كانت تزمع أن تتخذها بالنسبة إليّ ؛ ولكنها عذبةً كانت كموعد أول للسيدة «دو غيرمانت» في داخلي، لقد كانت الصورة الأولى، الحقيقية وحدها والتي صنعت وحدها نقلاً عن الحياة والوحيدة التي كانت حقا السيدة «دو غيرمانت» وطوال الساعات القليلة التي أسعدني أن تكون فيها ملك يدي دون أن أعرف كيف أصرف انتباهي اليها كان لابد أن تكون، وأقصد تلك الذكرى، شديدة الروعة مع ذلك بما أن أفكاري في الحب كانت تعود أبداً إليها، ولاتزال تفعل بملء الحرية في ذلك الحين دونما عجلة ولاكلل ودون أن يداخلها شيء من الضرورة أو الضيق. ثم هي اكتسبت من تلك الأفكار، كلما رسختها هذه الأخيرة ترسيخاً نهائياً متزايداً، قوة أعظم ولكنها أضحت أشد إبهاما، ولم يعد قليل أن أعود فألقاها، وما من شك أنني كنت أشوهها تماما في أحلام يقظتي فقد كنت في كل مرة أبصر فيها السيدة «دو غيرمانت» ألاحظ فارقاً، دائم الاختلاف على أية حال، بين ما سبق أن تخيلت وما كنت أشاهد. كنت لا أزال أبصر الآن في كل يوم بالتأكيد، لحظة تطلع السيدة «دو غيرمانت» في أعلى الشارع، قامتها المديدة وذاك المحيا ذا النظرة الصافية تحت شعر خفيف، هذه الأشياء كلها التي من أجلها كنت هناك. ولكنني بالمقابل، وبعد مرور بضع ثوان حينما كنت أرفع ناظري، بعدما أشحت بهما في اتجاه آخر كي أبدو وكأني لا أتوقع ذلك اللقاء الذي جئت أبحث عنه، إلى الدوقة في الوقت الذي كنت أبلغ فيه ما بلغت من سوية الشارع فإن ما كنت أراه آنذاك إنما كان علامات حمراء، لا أعلم إن كان مردها الهواء الطلق أو

تبقع الجلد، تكسو وجها متجهماً يرد باشارة شديدة الجفاء وبعيدة جداً عن لطافة آمسية مسرحية «فيدر» على تلك التحية التي كنت أتوجه بها إليها في كل يوم بمظهر الدهشة الذي ما كان يبدو أنه يسرّها بيد أنه بعد انقضاء بضعة أيام كافحت في أثنائها ذكرى الفتاتين على نحو غير متكافئ في سبيل السيطرة على أفكار العشق لديّ ضد ذكرى السيدة «دو غيرمانت» كان أن عادت هذه الأخيرة في لنهاية أكثر المرّات وكأنما من تلقاء ذاتها فيما أخذت منافستاها في الزوال. وكان أن نقلت في النهاية كامل خواطري في الحب إليها ولا أزال أفعل باختصارالقول بملء إرادتي وكأنما باختياري ولمسرّتي. لم أعد أفكر ببنيّات التعليم المسيحي ولا ببائعة حليب معينة، مع أنه لم يعد بي أمل أن ألقى ثانية في الشارع ما كنت جئت أبحث عنه ولا الحنان الموعود في المسرح عبر ابتسامة ولا القوام وصفاء المحيا تحت الشعر الأشقر وما كانا كذلك إلا من بعيد. فما كنت حتى أستطيع الآن أن أقول كيف كانت السيدة «دو غيرمانت» ولابما أتعرّفها لأن الوجه في كل يوم وفي مجمل شخصيتها كان مختلفاً شأن الفسطان والقبعة.

فلماذا كنت أعلم ذات يوم، إذ أرى وجهاً عذباً أملس يتقدم مواجهة تحت معطف خبّازيّ وقد وُزِّعَتْ مواطن الفتنة فيه بالتناظر حول عينين زرقاوين وبدا فيه خط الأنف غائراً، لماذا كنت أعلم من جراء انفعال جذلان أنني لن أعود دون أن تتم لي رؤية السيدة «دو غيرمانت»؟ لماذا كنت أحس بالاضطراب نفسه، وأصطنع اللامبالاة نفسها وأشيح بعينيّ بطريقة شرود البارحة نفسها لدى الظهور الجانبي في طريق مختصرة وتحت قلنسوة نيلية لأنف على شكل منقار الطير على صفحة جنة حمراء تعترضها عين ثاقبة وكأنما إلهة من آلهة مصر؟ وذات مرة لم أبصر امرأة بأنف كمنقار الطير فحسب بل أبصرت كأنما طائرا: كان فسطان السيدة «دو غيرمانت» وحتى قلنسوتها من الفراء فتبدو بهما إذ لا يسمحان برؤية أي قماش وكأنها مغطاة بفرو طبيعي كبعض النسور التي يبدو ريشها الكثيف الأملس الأصهب الناعم وكأنه ضرب من الفرو. وفي وسط هذا الفرو الطبيعي كان الرأس الصغير يعقف أنفه الذي كمنقار الطائر وكانت العينان البارزتان ثاقبتين زرقاوين.

وفي بعض الأيام كنت أفرغ من ذرع الشارع جيئة ورواحاً على مدى ساعات دون أن ألمح السيدة «دو غيرمانت» حينما يبرز فجأة في أقصى دكان لبان تختبئ بين فندقين في هذا الحي الارستقراطي والشعبي الوجه المبهم والجديد لامرأة أنيقة تستعرض «جبنة بيضاء» عليها، وقبل أن يتسع لي الوقت لتمييزها كانت نظرة الدوقة تنطلق فتصيبني وكأنما برق استغرق للوصول إلي زمناً أقل من بقية الصورة. وكنت أدرك في مرة أخرى، إذ لم التق بها وسمعت الساعة تدق الثانية عشرة ظهراً، أن لاداعي من بعد لأن أظل انتظر فكنت أعود أدراجي حزينا إلي لبيت ؛ ثم أدرك فجأة، وأنا مستغرق في خيبة أملي أنظر إلى عربة تبتعد دون أن أراها، أن حركة الرأس التي قامت بها سيدة من الباب كانت موجهة إليّ وأن تلك السيدة التي تؤلف ملامحها المفككة الشاحبة أو المشدودة الزاهية على العكس في ظل قبعة مستديرة أو في أسفل خصلة ريش عالية وجه غريبة خلتني لا أعرفها إنما كانت السيدة «دو غيرمانت» التي لم لم لي أن تحييني دون أن أرد حتى تحيتها. وأحيانا كنت ألقاها، وأنا عائد، في زاوية المقصورة حيث كان البواب المقيت الذي كنت أكره نظراته المتحرية يحييها تحيات واسعة ويقدم لها دون شك أيضا «تقاريره». ذلك أن مستخدمي آل «غيرمانت» كافة، كانوا يترصدون وهم يختفون خلف ستائر النوافذ، يترصدون بخوف الحوار الذي لا يسمعونه والذي لم يكن يفوت الدوقة على إثره أن تحرم هذا الخادم أو ذاك، وقد وشى به البواب، نزهاته.

ولم يكُ حبي، بسبب جميع الأشكال المتعاقبة للوجوه المختلفة التي كانت تبرزها السيدة «دو غيرمانت»، وهي وجوه كانت تشغل مساحة نسبية ومختلفة تضيق تارة وتتسع طوراً في مجمل زينتها، لم يك متعلقاً بهذا الجزء أو ذاك من أجزاء الجسم والقماش، هذه المتغيرة التي كانت تحل حسب الأيام محل الأخرى والتي كان بوسعها أن تبدل فيها وتجددها ما يقارب التجديد التام دون أن تنال من اضطرابي لأنني كنت أحس عبرها، عبر الياقة الجديدة والوجنة المجهولة بأنها أبداً السيدة «دو غيرمانت». فإن ما كنت أحبه إنما الشخصية الخفية التي تبعث الحركة في كل ذلك والتي يغمني عداؤها ويهزني قربها والتي أردت لو أشد إليّ حياتها وأطرد أصدقاءها. كان بوسعها أن تضع ريشة زرقاء أو تبرز لوناً نارياً دون أن تفقد أعمالها من أهميتها بالنسبة إلي.

ولو لم أشعر بنفسي أن السيدة «دو غيرمانت» قد عيل صبرها من جراء التقائي بها كل يوم لعلمت ذلك على نحو غير مباشر من الوجه الذي يفيض جفاء واستنكاراً واشفاقاً والذي تتخذه «فرانسواز» حينما تعينني في الاستعداد لهذه النزهة الصباحية. فما أن أطلب منها حوائجي حتى أحس بريح مضادة تهب في ملامح وجهها المنقبضة المتعبة. وما كنت أحاول حتى كسب ثقة «فرانسواز» لشعوري بأنني لن أفلح في ذلك. فقد كانت تملك سلطة ظلت طبيعتها غامضة أبدا عليّ تعلم بها في الحال كل ما يمكن أن يقع لوالدي ولي من أمر مكدّر. ربما لم تكن خارقة لطبيعة وأمكن تفسيرها بوسائل اعلام كانت خاصة بها. من ذلك أن أقواماً متوحشة تستقي بعض الأخبار عدة أيام قبل أن ينقلها البريد إلى المستوطنين الأوروبيين وقد نقلتْ إليهم في الواقع لا بالتخاطر بل من تلة إلى أخرى بوساطة نيران مُشعلَة. وهكذا ربما سبق لخدم السيدة «دو غيرمانت»، في الحالة الخاصة المتعلقة بنزهاتي، أن سمعوا مولاتهم تعبر عن سأمها من أنها تلقاني دون مناص على دربها ورددوا هذه الأقوال لـ «فرانسواز». كان بمقدور والديّ بالحقيقة أن يلحقا بخدمتي آخر غير «فرانسواز» وما كنت لأكسب في ذلك، فقد كانت «فرانسواز» في بعض الوجوه أقل «خادمية» من الآخرين. فقد كانت في طريقة إحساسها وظهورها طيبة ومشفقة، وقاسية ومستكبرة، ومرهفة ومحدودة وفي امتلاكها بشرة بيضاء ويدين حمراوين، كانت آنسة القرية النبيلة التي كان أهلها «من أصل مؤكد» ولكنهم اضطروا، وقد ضاعت أموالهم، أن يزجوها في دنيا التخديم. وإنما كان وجودها في بيتنا جوّ الريف والحياة الاجتماعية في المزارع منذ خمسين عاماً وقد نُقلا إلى بيتنا بفضل ضرب من الرحلة المقلوبة يسعى فيها مركز الاصطياف إلى المسافر. ومثلما تزدان الواجهةَ الزجاجية في متحف إقليمي بهذه القطع الغريبة التي لاتزال الفلاحات ينفذّنها ويزينها بالشرائط في بعض المقاطعات كانت شقتنا تزدان بأقوال لـ «فرانسواز» مستلهمة من وجهة نظر موروثة ومحلية وتخضع لقواعد مغرقة في القدم. وكانت تعلم كيف تعيد فيها، كأنما بخيوط ملونة، رسم أشجار الكرز والطيور في طفولتها والسرير الذي ماتت فيه والدتها والذي لاتزال تراه. بيد أنها على الرغم من كل ذلك أخذت، حالما بدأت تعمل لدينا في باريس، تشاطر الخدم في الطوابق الأخرى أفكارهم وأحكام تفسيرهم – ولعل أية واحدة أخرى كانت من باب أولى تفعل ذلك محلها – وتعوض الإجلال الذي تضطر أن تبديه لنا بأن تردد على مسامعنا ما كانت تقوله طاهية الطابق الرابع من بذيء القول عن مولاتها وتفعل بارتياح الخادم الذي بلغ حداً أخذنا نقول معه، وقد أحسسنا للمرة الأولى في حياتنا بضرب من التضامن مع مستأجرة الطابقْ الرابع المقيتة، أننا ربما كنا بالحقيقة أسياداً. وربما كان هذا الفساد في طباع «فرانسواز» محتما. فبعض ضروب الحياة شاذة إلى الحد الذي لابد أن تورث معه حتماً بعض العيوب، كالحياة التي كان يقضيها الملك في قصر فرساي بين

رجال بلاطه، وهي في مثل غرابة حياة فرعون أو دوج، وأكثر من حياة الملك حياة رجال البلاط. على أن حياة الخدم هي دونما شك من غرابة أكثر فظاعة وإنما تحجبها عنا العادة وحدها. على أنني حتى لو صرفت «فرانسواز» لكان محتوما عليّ أن أحتفظ بالخادم نفسه حتى ضمن حدود تفاصيل أكثر خصوصية. ذلك أن آخرين عدة استطاعوا فيما بعد أن يعملوا في خدمتي، ومع أنهم كانوا يحملون من قبل العيوب العامة التي تطبع الخدم فما كان ذلك يحول دون أن يلمّ بهم لديّ تحول سريع. وبما أن قوانين الهجوم تحكم قوانين الرد فقد كان الجميع، لكي لاتنال منهم مواطن النتوءات في طباعي، يجعلون في طباعهم مواضع غائرة متماثلة وفي المكان نفسه، وكانوا في مقابل ذلك يفيدون من الثغرات لديّ ليقيموا فيها مراكز متقدمة. تلك الثغرات ما كنت أعرفها. ولا النتوءات التي تسببها فرجاتها، لأنها بالضبط ثغرات. إلا أن خدمي أطلعوني عليها من جراء فسادهم التدريجي. فلقد عرفت عيوبي الطبيعية اللا متغيرة من جراء عيوبهم المكتسبة على نحو لايتبدل، وزودتني طباعهم بضرب من الصورة السالبة عن طباعي. لقد سبق أن سخرنا كثيراً فيما مضى، أنا وأمي، من السيدة «سازرا» التي كانت تقول في حديثها عن الخدم: «هذه الطائفة وهذا الصنف». إلا أنه لابد لي أن أقول إن السبب الذي من أجله لم يكن من داع لأتمنى استبدال أي شخص آخر بـ «فرانسواز» أن هذا الآخر إنما سيكون بالمقدار نفسه وعلى نحو محتم من طائفة الخدم العامة ومن صنف خدمي الخاص.

ثم إني فيما يخص «فرانسواز»، لم أعان في حياتي قط ذلا إلا لقيت له سلفاً على وجه «فرانسواز» تعازي جاهزة تماماً. وحينما كنت أحاول، عبر سخطي من أنها ترثي لحالي، الزعم بأنني حققت بالعكس نجاحاً كانت أكاذيبي تتحطم دون جدوى على جدار تشككها الذي يفيض احتراماً ولكنه ظاهر للعيان وعلى الشعور الذي بها بمعصوميتها. ذلك أنها كانت تعرف الحقيقة، وكانت تكتمها وتقوم بمحض حركة صغيرة بشفتيها كأنما لايزال فمها ملآن وتأتي على آخر قطعة طيبة. أو كانت تكتمها؟ لقد اعتقدت ذلك طويلاً على الاقل لأنني كنت لا أزال أتصور في تلك الفترة أن الحقيقة يتم نقلها إلى الآخرين بوساطة الكلمات. فحتى الكلمات التي يقولونها لي كانت تلقي في فكري الحساس مدلولها الذي لايتغير لدرجة أني ما كنت أعتقد بإمكان أن لايحبني واحد سبق أن قال لي إنه يحبني أكثر مما تستطيع «فرانسواز» نفسها أن تشك بأن يتمكن كاهن، أو أي رجل آخر، بعدما تم لها أن تقرأ ذلك على صفحة جريدة، أن يبعث إلينا بالمجان، في مقابل طلب تم إرساله بالبريد، بدواء ناجع ضد جميع الأمراض أو بوسيلة لمضاعفة دخولنا مئة مرة. (أما إذا أعطاها طبيبنا، بالمقابل، أبسط المراهم ضد الزكام فقد كانت تئن، هي الصلبة في وجه أقسى العذابات، مما انبغى لها أن تتنشقه مؤكدة أن ذلك كان «ينتف أنفها» وأن المرء لايعلم من بعد أين يعيش.) ولكن «فرانسواز» أعطتني، أول من أعطى، المثال (الذي لن يقدّر لي إدراكه إلا فيما بعد حينما زودني به ثانية وعلى نحو أشد إيلاما، مثلما سنرى في المجلدات الأخيرة من هذا الكتاب، شخص أغلى عليّ) بأن الحقيقة لاحاجة بها أن تقال لتبرز للعيان أننا ربما استطعنا التقاطها على نحو أوثق، دون أن ننتظر الكلمات وحتى دون أن نأخذها في حسابنا، في ألف من العلامات الخارجية وحتى في بعض الظاهرات غير المرئية الشبيهة في عالم الطباع بما هي عليه التقلبات الجوية في الطبيعة المادية. ولعله كان بمقدوري الشك في الامر إذ كثيرا ما كان يتفق لي حينئذ أن أقول أمورا لاتداخلها أية حقيقة في حين كنت أبرزها في الكثير من النجاوى اللامقصودة الصادرة عن جسمي وأفعالي (التي كانت تفسر أحسن التفسير على يد «فرانسواز» ؛ لعله كان بمقدوري الشك في الأمر،

إلا أنه كان ينبغي لذلك أن أعلم أنني كنت آنذاك كذاباً ومخادعاً في بعض الأحيان. ولكن الكذب والمخادعة كانت تحكمها لدي، كما هي الحال لدى جميع الناس، تحكمها على نحو مباشر وعارض، وفي سبيل أن يدافع فكري عن نفسه، مصلحة خاصة إلى حد أن فكري المنصبّ على مثل أعلى نبيل كان يدع لطباعي أن تنفّذ في الظلام تلك الأعمال الملحة والهزيلة ولا يلتفت إليها ليراها.

وحينما كانت «فرانسواز» لطيفة معي في المساء وكانت تستأذنني في الجلوس في غرفتي كان يخيل إليّ أن وجهها أضحى شفافاً وأنني ألمح فيها الطيبة والصراحة. ولكن «جوبيان» الذي كانت له أدوار في إفشاء الأسرار لم أعرفها إلا فيما بعد كشف مذ ذاك أنها كانت تقول إني لا أساوي الحبل الذي أشنق به وانني حاولت أن الحق بها كل ما أمكن من أذى وأخرجت أقوال «جوبيان» هذه أمامي في الحال وفي لون مجهول لديّ صورة عن صلاتي بـ «فرانسواز» مختلفة عن تلك التي كان كثيرا ما يطيب لي أن أحط بنظراتي عليها والتي كانت «فرانسواز» دون أدنى تردّد تعبدني فيها ولا تضيع فرصة في الاشادة بي إلى حدّ أني أدركت أن العالم المادي لا يختلف وحده عن المظهر الذي نشاهده فيه، وأن كل حقيقة ربما كانت في مثل اختلافه عن تلك التي نحسب أننا ندركها مباشرة والتي نكوّنها بوساطة أفكار لاتبرز للعيان ولكنها ناشطة، مثلما لن تبدو الأشجار والشمس والسماء على مثلما تبصرها لو عرفتها كائنات لها عيون كونت تكوينا مغايراً لعيوننا أو هي تملك من أجل هذا العمل أعضاء غير العيون تزودنا عن الأشجار والسماء والشمس بمقابلات لها ولكنها غير بصرية. وقد روعتني هذه الفرجة المفاجئة، على النحو الذي تمت به هذه الفرجة التي فتحها ذات مرة «جوبيان» أمامي على العالم الحقيقي، مع أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بـ «فرانسواز» التي قلما كنت أهتم بها. فهل كان الأمر كذلك في سائر العلاقات الاجتماعية؟ وإلى أي يأس يمكن أن يقودني ذلك ذات يوم إن كان الأمر واحداً في الحب؟ كان ذلك سرّ المستقبل. أما آنذاك فكان الأمر يدور حول «فرانسواز» وحدها. فهل كانت تعتقد اعتقاداً صادقاً بما قالت لـ «جوبيان»؟ وهل قالته لمحض أن تخلف بين «جوبيان» وبيني، وربما كي لايتم استخدام ابنة «جوبيان» لتحل محلها؟ ومهما يكن من أمر فقد أدركت استحالة أن أعلم على نحو مباشر وأكيد إن كانت «فرانسواز» تحبني أو تمقتني. وهكذا كانت أول من زودني بالفكرة التي مفادها أن الشخص، أي شخص، ليس واضحاً وثابتاً أمامنا بصفاته وعيوبه ومشروعاته ومقاصده إزاءنا، كما سبق أن ظننت، (شأن حديقة تنظر إليها بجميع أحواضها عبر سياج) بل هو ظلّ لا نستطيع البتة النفاذ إليه وليس من معرفة مباشرة به وننشيء من حوله فيما يخصه ظنوناً عديدة بوساطة أقوال وحتى أفعال، ولا تزودنا هذه وتلك إلا بمعلومات غير كافية ومتناقضة على أي حال، ظلّ يمكن أن نتصور على التوالي وبمقدار الاحتمال نفسه أن الكراهية والحب يلتمعان فيه.

كنت أحب السيدة «دو غيرمانت» حقا. ولعل أعظم سعادة كان يمكن أن أطلبها من الله كانت أن يصب عليها الفواجع كافة وأن تقبل عليّ بعدما تفقد كل مالها واعتبارها وتنزع منها جميع الامتيازات التي تفصلني عنها، ولا بيت لها من بعد تسكنه ولا جماعة يقبلون أن يحيوها، أن تقبل عليّ لتسألني المأوى. كنت اتخيلها تفعل ذلك. وحتى في العشيات التي كان يجلب فيها تبدل ما في الجو أو في صحتي لفيفة منسية إلى ساحة وعيي، وقد سجلت عليها انطباعاتي بالأمس، كنت أفضل بدلاً من الإفادة من قوى التجديد

التي ولدت منذ قليل في داخلي، وبدلاً من استخدامها لأستجلي في صدري أفكاراً كانت تخفى عليّ عادة، وبدلاً من مباشرة العمل، أن أتكلم بصوت مرتفع وأفكر بطريقة مضطربة خارجية ما كانت سوى قول وحركة يدين لاجدوى منهما ورواية كاملة من مغامرات محضة عقيمة لا حقيقة لها تقبل فيها الدوقة وقد حل بها البؤس لتتوسل إليّ أنا الذي أصبح بفعل ظروف معكوسة غنياً ومقتدراً. وبعدما أقضي ساعات على هذا النحو أتخيل ظروفاً وانطق بجمل سوف أقولها للدوقة وأنا استقبلها تحت سقفي كان الوضع يظل على حاله. فقد اخترت في الواقع، وأأسفي، اخترت بالضبط من أجل أن أحبها المرأة التي ربما جمعت أكبر قسط من الحسنات المختلفة والتي ما كان لي من جراء ذلك أن أتوقع حيازة أية مكانة في عينيها، فقد كانت بمثل ثراء من كان أوفر الناس ثروة دون أن يكون من النبلاء ؛ ولا يدخل في الحساب ذلك السحر الشخصي الذي يفرض زيها الخاص ويجعل منها من بينهن جميعاً ما يشبه الملكة.

كنت أحس أنني لا أروقها أذ أمضي كل صباح للقائها. ولكن حتى لو توافرت لي الشجاعة لأظل يومين أو ثلاثة دون أن آتي ذلك، فربما لم تلاحظ السيدة «دو غيرمانت» هذا الامتناع الذي يمثل في نظري تضحية ذات بال، أو ربما ردّته إلى حائل لادخل لإرادتي فيه. وما كان بالفعل باستطاعتي أن أفلح في التوقف عن الذهاب على طريقها إلا إذا تدبرت أمري ليستحيل عليّ إتيانِ ذلك، لأن الحاجة المتجددة دوماً إلى لقائها وإلى أن أكون مقدار لحظة موضع اهتمامها والشخص الذي يوجه إليه سلامها، تلك الحاجة التي كانت أقوى من همي من أن أسوء في عينيها. كان ينبغي أن أبتعد إلى حين، وما كنت أجرؤ على ذلك. كنت أفكر في الأمر بين الحين والحين، وأقول لـ «فرانسواز» إذ ذاك أن ترتب حقائبي، ثم أن تفرغها بعد ذلك في الحال[1]. وما كانت تحب ذلك وتقول إني «أترجّح» أبداً، إذ كانت تستخدم حين لاتبغي منافسة المحدثين لغة «سان سيمون» ذاتها. وصحيح أنه كان يروقها أقل من ذلك أيضاً حينما كنت أتحدث بلهجة الأسياد. كانت تعلم أن الأمر غير طبيعي لديّ ولا يلائمني، وهو ما كانت تعبّر عنه بقولها «إن الارادي لايماشي شخصيتي». وما كانت لتتوافر لي الجرأة في الذهاب إلا في اتجاه يقربني من السيدة «دو غيرمانت». ولم يكن ذلك بمستحيل. أفليس يعني بالفعل أنني أكثر قرباً منها مما كنت صباحاً في الشارع وأنا وحيد مُذلّ أشعر أن ليس تصلها في يوم فكرة واحدة من الأفكار التي أردت لو أبعث بها إليها، وفي هذه المراوحة في المكان نفسه التي تتم بها تزهاتي التي قد تدوم إلى مالا حدود دون أن تجديني نفعاً، — إن أنا ذهبت على بعد فراسخ عديدة من السيدة «دو غيرمانت»، ولكن إلى منزل شخص تعرفه وتعلم أنه متصعب في انتقاء معارفه وهو يقدرني حق قدري ويستطيع أن يحدثها عني وإن لم يحصل منها على ما أريد فأن يعلمها على الأقل بذلك، شخص أضفي بفضله على أحلام يقظتي المتوحدّة البكماء شكلاً جديداً منطوقاً ناشطاً يبدو لي تقدماً ومايقرب أن يكون انجازاً بمحض أن أنظر معه إن كان يستطيع أو لايستطيع أن يأخذ على عاتقه إبلاغها هذه الرسالة أو تلك؟ وما كانت تفعله في أثناء الحياة الغامضة التي تقضيها سليلة آل «غيرمانت»، ذاك الذي كان يؤلف موضوع تفكيري الحالم المستمر، أليس التدخل فيه، وإن على نحو غير مباشر وكأنما بعتلة، وذلك بتحريك شخص لايحظر عليه دخول فندق الدوقة وأمسياتها والحديث المستفيض معها، أليس ذلك اتصالاً أكثر بعداً ولكنه أوفر حقيقة من

(١) وبما أن شيطان التقليد والامتناع عن الظهور بمظهر من ولت أيامه يفسد الشكل الأقرب إلى الطبيعة والأوفر ثقة بذاته فقد كانت «فرانسواز» تقول إني «هبول» وتقتبس هذا التعبير من مفردات ابنتها(وردت الحاشية في متن النص).

تأملي لها كل صباح في الشارع؟

كان يبدو لي أنني لم أكن أهلاً للصداقة والاعجاب اللذين يكنهما لي «سان لو» وظلا لايثيران اهتمامي.

وفجأة أوليتهما أهمية ووددت لو يكشف عنهما للسيدة «دو غيرمانت» ولعلني كنت قادراً أن أطلب إليه القيام بالأمر. ذلك أن المرء يبغي حالما يعشق أن يكون بمقدورة إذاعة سر جميع الامتيازات الصغيرة المجهولة التي يملكها على المرأة التي يحبها مثلما يفعل في الحياة المحرومون والثقلاء. ويعذبنا أنها تجهلها ونحاول أن نعزي النفس بقولنا إنها ربما تضيف إلى الفكرة التيّ تحملها عنك، بما أن هذه الامتيازات لاتظهر قط للعيان، هذا الاحتمال لميزات لايعلمها المرء.

كان «سان لو» لايستطيع منذ فترة طويلة المجيء إلى باريس إما بسبب متطلبات مهنته، حسبما كان يقول، وإما بالأحرى بسبب صنوف غم كانت تسببها له عشيقته التي أوشك مرتين أن يقطع علاقاته بها. لقد سبق أن قال لي مراراً عن المتعة التي أوفرها له إن ذهبتُ لرؤيته في تلك الحامية التي بعث اسمها في نفسي، بعد غد اليوم الذي غادر فيه «بالبيك»، الكثير من السرور حينما قرأته على مغلف أول رسالة وصلتني من صديقي. كانت، وهي أقل بعداً عن «بالبيك» مما قد يوهمك المشهد الأرضي كلياً، كانت واحدة من تلك المدن الصغيرة الارستقراطية العسكرية المحاطة بحقول واسعة كثيراً ما يخفق فوقها أيام الصحو في البعيد ضرب من البخار الرنان المتقطع الذي يكشف – مثلما يرسم حاجز من شجر الحور بتعرجاته مجرى نهر لاتبصره – تبدلات مطارح كتيبة في مناورة حتى ليبلغ الأمر بجوّ الجادات والشوارع والساحات أن يكتسب نوعا من الاهتزاز الموسيقي والحربي وأن تتردد فيه الضجة الأكثر فظاظة المنبعثة من عربة نقل أو من حافلة نداءات بوق غامضة يرددها السكون إلى مالا نهاية في الاسماع الواهمة. لم تكن بعيدة عن باريس إلى الحد الذي لا استطيع معه إذ انزل من القطار أن أعود وألقى أمي وجدتي وأنام في سريري. وحالما أدركت ذلك هزتني رغبة مؤلمة وتجمع لديّ القليل جداً من الارادة كيما أقرر الامتناع عن الرجوع إلى باريس والبقاء في المدينة. ولكنما القليل جداً كذلك لامنع مستخدماً أن يحمل حقيبتي إلى عربة وكي لا أتخذ وأنا أسير وراءه النفس الخالية التي لمسافر يراقب حوائجه ولاتنتظره أية جدة، ولا أصعد إلى العربة بطلاقة من يبدو، بعدما كف عن التفكير بما يريد، وكأنه يعلم ما يريد، ولا لاأزوّد الحوذي بعنوان حي الفرسان. كنت أحسب أن «سان لو» سوف يجيء لينام تلك الليلة في الفندق الذي سأحل فيه كي أجعل أول اتصال بهذه المدينة المجهولة أقل إقلاقا لي. ومضى رجل من الحرس في طلبه وانتظرته على باب الحلة أمام هذه السفينة التي تدوّي بريح تشرين والتي كان يخرج منها في كل لحظة، إذ كانت الساعة تبلغ السادسة مساء، يخرج رجال إلى الشارع أزواجا يترنحون كما لو ينزلون إلى اليابسة في مرفأ غريب توقفوا فيه مؤقتاً.

ووصل «سان لو» وهو يتحرك في كل جهة ونظارته تطير أمامه. ولم أكن أعربت عن اسمي وكنت أتلهف إلى الاستمتاع بدهشته وغبطته.

وصاح إذ أبصرني فجأة فأحمر حتى أذنيه: «آه ياللمشكلة، لقد حصلت على إجازتي الأسبوعية منذ

قليل ولن يمكنني الخروج قبل ثمانية أيام!»

وإذ شغلته فكرة أن يراني أقضي هذه الليلة الأولى وحدي، لأنه يعرف أفضل من أي إنسان ما يعتريني من صنوف ضيق في المساء وكثيراً ما لاحظها وهوّن منها في «بالبيك»، فقد كان يقطع شكاواه ليلتفت إليّ ويوجه إليّ بسمات صغيرة ونظرات رقيقة غير متساوية يأتي بعضها من عينه مباشرة وبعضها الآخر عبر نظارته، وكلها تشير إلى الانفعال الذي يهزه من جراء لقيايي كما تشير إلى هذا الأمر الهام الذي ما كنت بعد ادركه ولكنه أضحى يهمني الآن، عنيت صداقتنا.

– «ياإلهي! وأين تزمع أن تنام؟ حقا إني لا أشير عليك بالفندق الذي تنزل فيه فهو إلى جانب المعرض حيث تزمع أن تبدأ الاحتفالات وسيكون ثمة جمهور ضخم. لا، الأفضل لك فندق «فلاندر» فهو قصر صغير قديم من القرن الثامن عشر بمفروشات قديمة، و «يلبس» إلى حدّ ما «لبوس النزل التاريخي القديم».

كان «سان لو» يستخدم في كل مناسبة عبارة «يلبس لبوس كذا» بدلاً من «يبدو» لان اللغة المحكية، شأن اللغة المكتوبة، تحس بين الحين والحين بحاجة هذه التغييرات في معاني الالفاظ وصنوف التأنق في التعبير. ومثلما يجهل الصحفيون في الغالب إلى أية مدرسة أدبية تعود «وجوه الأناقة» التي يلجؤون اليها، كذلك كانت مفردات «سان لو» وإلقاؤه نفسه مصنوعة من محاكاة ثلاث نزعات جمالية مختلفة لامعرفة له بأي منها ولكنه تشرّب صيغها الكلامية على نحو غير مباشر. واختتم كلامه قائلاً: «إن هذا الفندق على أية حال يوافق إلى حدّ ما فرط حساسيتك السمعية، فلن يكون لك جيران. إني أعترف أن تلك مزية ضئيلة، فبما أنه يمكن أن يصل مسافر آخر في الغد فليس من داع لاختيار هذا الفندق في سبيل نتائج غير ثابتة. لا، إنما أوصيك به بسبب المظهر. فالغرف قريبة إلى القلب إلى حدّ ما والأثاث كله قديم ومريح مما يوحي بالاطمئنان.» أما بالنسبة إليّ أنا الأقل ولعاً بالفن من «سان لو» فقد كانت المتعة التي يمكن أن يوليها منزل جميل سطحية وتكاد تكون معدومة ولا يمكن أن تهدئ تباشير قلقي، وهو شاق كالذي كان بي بالأمس في «كومبريه» حينما لاتجيء والدتي لتقول لي ليلة سعيدة أو ذاك الذي ألم بي يوم وصولي إلى «بالبيك» في الغرفة المفرطة الارتفاع التي تنبعث منها رائحة «طيب العرب». وأدرك «سان لو» ذلك من نظرتي الثابتة.

– «ولكنك لاتبالي البتة ياصغيري المسكين بهذا القصر الجميل، وأنك شديد الشحوب. وأحدثك أنا حديث البهيم عن أثاث لن يطاوعك الفؤاد حتى في النظر إليه. إني أعرف الغرفة التي قد يخصونك بها، وإني شخصياً أجدها بهيجة ولكني أتبين تماماً أن الأمر بالنسبة إليك وبالنظر إلى حساسيتك مختلف. لا تحسب أني لا أفهمك، أنا لا أحس الأحساس نفسه ولكني أضع نفسي مكانك.».

وابتسم ضابط صف كان يجرب حصاناً في الباحة وهو شديد الاهتمام بحمله على الوثب ولا يستجيب لتحيات الجنود بل يصب وابلاً من الشتائم على رأس الذين كانوا يقفون في دربه، ابتسم في تلك اللحظة لـ«سان لو» وحيّى إذ لاحظ آنذاك أن ثمة صديقا معه. ولكن حصانه انتصب بكامل قامته وهو يزبد. وارتمى «سان لو» على رأسه وأخذه بمقوده وأفلح في تهدئته وعاد إليّ وقال لي:

«أجل، أؤكد لك أنني أتبين ماتعانيه وأتألم من جرائه». وأضاف يقول، وهو يضع يده بحنان على

كتفي: «يتعسني أن أفكر أنني لو استطعت البقاء بالقرب منك فربما أمكنني بالتحدث إليك حتى الصباح أن أزيل عنك قليلاً من حزنك. وكنت أعرتك كتباً ولكنك لن تستطيع القراءة إن كنت على هذا النحو. ولن يتسنى من يحل محلي هنا، فقد أقدمت على الأمر مرتين على التوالي لان صغيرتي كانت قد جاءت.»

وكان يقطب حاجبيه بسبب انزعاجه وبسبب جهده في البحث، شأن الطبيب، في أي دواء يمكن أن يستعمل في دائي. وقال لجندي يعبر طريقه:

«أسرع وأشعل نارا في غرفتي. هيا أسرعَ من ذلك، استعجل».

ثم يلتفت إليّ من جديد وكانت النظارة والنظرة القصيرة تشيران إلى صداقتنا العظيمة.

«لا، فأنت ههنا في الحي الذي كثيراً ما فكرت فيه بك: لا أستطيع أن أصدق عيني وأحسبني أحلم. والصحة، في نهاية المطاف، هل هي بالأحرى في تحسن؟ سوف تروي لي عن كل ذلك بعد قليل. سوف نصعد إلى غرفتي ويحسن ألا نمكث كثيراً في الباحة فالهواء يهب قوياً هناك، أما أنا فكدت لا أحس به من بعد، ولكنما أخاف بالنسبة إليك، أنت الذي لم يتعوده، أن يصيبك البرد. والشغل هل باشرته؟ لا؟ ياما أغربك! لو اتفقت لي مواهبك ظنتني أكتب من الصباح إلى المساء. إنك تجد تسلية أكبر في ألا تفعل شيئا. وأية مصيبة أن يكون الضحال أمثالي من هم أبدا على استعداد لعمل ولا يريد من يستطيعون! ولكني لم أسالك حتى عن أخبار السيدة جدتك. إن كتابها عن «برودون» لايفارقني.»

وطلع من أحد الأدراج ضابط مديد القامة جميل مهيب يمشي بخطى وئيدة جليلة، وحياه «سان لو» وجمّد تقلقل جسمه المستمر ما يكفي ليرفع يده إلى جانب قبعته بحركة بالغة السرعة وتركها تسقط حال انتهاء التحية بحركة مفاجئة وهويبدل جميع مواقع الكتف والساق والنظارة حتى بدت تلك اللحظة أقل جمودا منها توترا عنيفا تتعادل فيه الحركات المبالغ فيها التي جرت منذ قليل وتلك تزمع أن تبدأ. أما الضابط فقد رفع هو الآخر يده إلى قبعته العسكرية ولكن دونما استعجال ودون أن يقترب فبدا هادئا لطيفا رزينا امبراطوري المظهر يمثل باختصار القول نقيض «سان لو» تماما. وهمس «سان لو» في أذني قائلا:

- «يجب أن أقول كلمة للنقيب، فكن لطيفاً وامضِ فانتظرني في غرفتي، إنها الثانية إلى اليمين في الطابق الثالث وسألحق بك بعد لحظة.»

وانطلق مهرولاً تسبقه نظارته التي كانت تطير في كل اتجاه ومشى رأسا إلى النقيب الرزين الوئيد الحركة الذي كان يُقاد إليه حصانه في تلك اللحظة والذي كان يصدر قبل استعداده لامتطاء صهوته بعض الأوامر بنبل في الحركات مدروس كأنما في بعض اللوحات التاريخية وكأنما هو ذاهب ينشد معركة زمن الامبراطورية الأولى في حين كان عائداً إلى منزله فحسب في البيت الذي استأجره للفترة التي سيمكث فيها في «دونسيير» والذي كان يقع على ساحة سميت، وكأنما بفعل سخرية سابقة لأوانها إزاء هذا النابليوني النزعة، ساحة الجمهور. وتقدمت في الدرج وأنا أكاد أتزحلق لدى كل خطوة على تلك الدرجات المزروعة بالمسامير وأبصر

غرفاً عارية الجدران بصف أسرتها المزدوج وأمتعتها. ودلوني على غرفة «سان لو» فظللت فترة أمام الباب المغلق إذ كنت أسمع من يتحرك، كانوا يحركون شيئاً ويدعون آخر يسقط. كنت أحس أن الغرفة غير خالية وأن ثمة أحداً. ولم يكن ثمة سوى النار المشتعلة تحترق. لم تكن تستطيع الهدوء وكانت تبدل مواضع الحطبات تبديلاً أبعد ما يكون عن البراعة. فدخلت وتركت واحدة منها تتهاوى وجعلت أخرى يتعالى دخانها. وحتى حينما لاتبدي حراكاً، فقد كانت تسمعك في كل حين، شأن السوقة من الناس، أصواتاً كانت تظهر أمامي، بما انني أشاهد اللهب يرتفع، على أنها أصوات تطلقها النار، إلا أني لو كنت في الجانب الآخر من الجدار لخلتها تنطلق من شخص ينفّ ويمشي. وأخيرا جلست في الغرفة. كانت هنالك ستائر من قماش «الليبرتي» وأقمشة ألمانية من القرن الثامن عشر تحميها من الرائحة التي تنبعث من باقي البناء غليظة تفهة متفسخة كرائحة الخبز الأسمر. ولعلني كنت هنا، في هذه الغرفة، تناولت عشائي ونمت بسعادة وهدوء. كان «سان لو» يبدو وكأنه حاضر تقريباً فيها بفضل كتب العمل التي كانت على طاولته إلى جانب صور شمسية عرفت من بينها صورتي وصورة السيدة «دوغيرمانت» وذلك بفضل النار التي تعودت، في نهاية المطاف، الموقد فأخذت، شأن حيوان يرقد في انتظار حار وصامت ووفيّ، تدع بين الحين والحين فحسب لجمرة أن تسقط فتنفرط أو تلعق جانب الموقد بلهبها. كنت أسمع تكتكة ساعة «سان لو»، ولابد أنها لم تكن بعيدة عني. كانت تلك التكتكة تبدل في كل لحظة موقعها لأنني لم أكن أبصر الساعة. كان يبدو لي أنها تجيء من خلفي، عن يميني، عن يساري وتتلاشى أحياناً كأنما هي بعيدة جداً. وفجأة اكتشفت الساعة على الطاولة. حينئذ سمعت التكتكة في مكان ثابت لم تتزحزح عنه بعد ذاك. كنت أحسب أني أسمعها في ذلك المكان، وما كنت أسمعها هناك بل آراها إذ ليس للأصوات مكان. بيد أننا نقرنها على الأقل بحركات وهي بذلك تفيدنا في اتقائها وفي أنها تبدو وكأنها تجعلها ضرورية وطبيعية. ويتفق أحياناً بالطبع ألا يسمع من بعد مريض سدت أذناه سداً محكماً صوت نار شبيهة بالتي كانت تردد أصواتها في هذه اللحظة في موقد «سان لو» فيما تعمل على صنع جمرات ورماد تسمح لها فيما بعد بالسقوط في سلتها، وأن لا يسمع كذلك مرور الحافلات التي كانت تنطلق موسيقاها، على فترات منتظمة، في ساحة «دونسيير» الكبرى. وليَقرأ المريض حينذاك فإذا الصفحات تقلب دونما ضجة وكأنما يقلبها إله. وتخف الضجة المتناقلة المنبعثة من حمّام يتم اعداده وتلطف وتبتعد كزقزقة سماوية. إن تراجع الضجة وخفتها تجردها من كل قدرة عدائية إزاءنا. بعدما جننا منذ قليل من جراء ضربات مطرقة كانت تبدو وكأنها تزلزل السقف على رأسنا يروقنا الآن أن نجمعها خفيفة رقيقة بعيدة كهمس الأوراق تلهو مع الأنسام على الطريق. إننا نحرز نجاحات بورق لعب لا نسمعه إلى حد أننا نظن أننا لم نحركه وأنه يتحرك من تلقاء نفسه واستبق رغبتنا في اللعب معه فشرع يلعب معنا. ويمكن بهذا الصدد أن نتساءل إن كان لايجدر بنا بشأن «الحب» (نضيف إلى «الحب» أيضا حب الحياة وحب المجد بما أن ثمة فيما يبدو أناسا يعرفون هاتين العاطفتين الأخيرتين) أن نفعل ما يفعله هؤلاء الذين يسدون آذانهم دون الضجة عوضاً عن أن يلتمسوا توقفها، وأن نصرف انتباهنا وحالتنا الدفاعية، شأنهم، إلى داخل ذاتنا وأن نعطيهما لا الكائن الخارجي الذي نحبه بل قدرتنا على التألم من جرائه وذلك بمثابة حاجة يخضعانها.

وإما عدنا إلى الصوت، فلنزد من سماكة الكرات التي تسد القناة السمعية فاذا هي تضطر الفتاة التي كانت تعزف فوق رأسنا لحناً صاخباً للتخفيف التام. ولنطْلِ واحدة من تلك الكرات بمادة دهنية وفي الحال يخضع البيت كله لاستبدادها وتمتد قوانينها نفسها إلى الخارج، فالتخفيف التام ليس كافياً من بعد بل تقوم

الكرة على الفور بإغلاق المضارب ويختتم درس الموسيقى على نحو مفاجئ، والسيد الذي كان يسير فوق رأسنا يوقف طوافه دفعة واحدة، وينقطع سير العربات والحافلات كما لو يتم انتظار رئيس دولة. وإن تقليص الأصوات ليبعث أحياناً في النوم الاضطراب عوضاً عن أن يحميه. فالضجيج المتواصل كان لايزال البارحة يحمل إلينا النوم في النهاية، شأن كتاب ممل، إذ يصف لنا على نحو لا ينقطع التحركات في الشارع وفي البيت. أما اليوم فتفلح صدمة أشد من الأخريات في أن تبلغ الأسماع، خفيفة كما الزفرة، لايربطها رباط بأي صوت آخر، زاخرة بالأسرار، على صفحة الصمت الممتد فوق نومنا، ويبدو الاستفسار الذي تبعثه كافياً لإيقاظنا. ولننزع على العكس، مدى لحظة، قطع القطن المراكمة فوق غشاء طبلة المريض. يطلع فجأة ضياء الصوت، بل شمسه الساطعة، تعمي الابصار وتنبعث من جديد في الكون. ويعود جمهور الضجيج المنفي بأقصى السرعة، ونشهد انبعاث الأصوات من الموت كما لو رتلها ملائكة موسيقيون. وتمتلئ الشوارع الخالية مدى لحظة بأجنحة الحافلات المنشدة، أجنحتها السريعة المتعاقبة. وها أن المريض قد أبدع في الغرفة نفسها لا النار، شأن «بروميثيوس»، بل صوت النار. وإن نحن زدنا من قطع القطن، إن نحن أطلقناها فكأنما نحرك بالتناوب هذه وتلك من الدوّاستين اللتين تمت إضافتهما إلى دوي العالم الخارجي.

بيد أن ثمة أيضاً إزالات للضجة ليست مؤقتة. فالذي أضحى كليّ الصمم لايستطيع حتى تسخين زجاجة حليب على مقربة منه دون أن يضطر أن يرقب بعينيه على الغطاء المفتوح الوهج الأبيض الذي من أقاصي الشمال والشبيه بوهج عاصفة ثلجية وهو العلامة المنبئة التي يبدو من التعقل الانصياع لها بسحب المآخذ الكهربائية مثلما الرب يوقف الأمواج. ذلك أن الشكل البيضوي الصاعد المتقبض للحليب الذي يغلي إنما يتم مذ ذاك فيضانه في بضعة من التموجات المائلة وينفخ بضعة أشرعة نصف منقلبة سبق أن غضنتها القشدة، ويدوّرها ويقذف منها في العاصفة شراعاً صدفياً، وإن تمّ تفادي العاصفة الكهربائية في الوقت المناسب، فإنما يجعلها انقطاع التيارات تدور جميعها على نفسها ثم يقذف بها إلى التهلكة وقد انقلبت تويجات «مانيوليا». ولو لم يتخذ المريض الاحتياطات اللازمة بالسرعة الكافية لاضطر، إذ تكاد كتبه وساعته الغارقة لاتبرز بعد قليل على صفحة بحر أبيض، بعد هذا التيار المعاكس من الحليب، أن يستغيث بخادمته العجوز التي سوف تقول له، وإن كان رجلا سياسياً شهيراً أو كاتباً كبيراً، إنه ليس أكثر تعقلاً من ابن خمس سنوات. وأحيانا أخرى يطلع شخص لم يكن هنا منذ قليل في الغرفة المسحورة أمام الباب الموصد، إنّه زائر لم يتم سماع دخوله ويقوم بإشارات فحسب كما هي الحال في واحد من مسارح العرائس الصغيرة المريحة إلى حد بعيد بالنسبة إلى أولئك الذين كرهوا لغة الكلام. وبما أن فقدان أحد الحواس، بالنسبة إلى هذا الأصم الكلي، إنما يضيف إلى العالم مقداراً من الجمال يساوي ما يفعله اكتسابه، فهو يتنزه الآن مستمتعاً على أرض قاربت أن تكون من جنات عدن ولم يتم بعد فيها خلق الصوت. إن أكثر الشلالات ارتفاعاً تبسط لعينيه وحدهما صفحتها البلورية وهي« أشد هدوءا من البحر الساكن وفي صفاء شلالات الجنة. وبما أن الضجة حركة كانت تؤلف بالنسبة إليه قبل صممه الشكل المحسوس الذي يرتديه سبب حركة ما فإن الحاجات التي يتم تحريكها دون ضجة تبدو وكأنما تم لها ذلك دون سبب، وهي تظهر بعدما خلت من أية ميزة صوتية نشاطاً تلقائياً وتبدو وكأنما تدب الحياة فيها ؛ إنها تتحرك وتسكن وتشتعل من تلقاء ذاتها. ومن تلقاء ذاتها تطير شأن وحوش ما قبل التاريخ الخرافية المجنحة. والخدمة التي كانت تبدي، قبل أن تكتمل العاهة، في منزل الأصم المنعزل الذي لاجيران له، حذراً أكبر منذ ذلك الحين وتتم في صمت، إنما تتم الآن بشيء من الخلسة على

يد بُكم مثلما يتفق ذلك لملك من عالم الغرائب. وكما هي الحال على خشبة المسرح أيضاً لايعدو البناء الذي يبصره الأصم من نافذته – أثكنة كان أم كنيسة أم دار مختار – كونه محض زينة. فإن اتفق أن ينهار ذات يوم فيمكن أن يبعث سحابة من الغبار ويخلف أنقاضاً مرئية، ولكنه يتهاوى، وهو أقل كثافة حتى من قصر مسرحي لايملك مع ذلك رقته، يتهاوى في العالم المسحور دون أن يلوث تهاوي حجارته المنحوتة الثقيلة نقاء السكون بتفاهة أية ضجة.

فأما السكون الذي يفوقه نسبية بكثير والذي كان يسود الغرفة العسكرية الصغيرة التي كنت فيها منذ حين فقد تحطم. لقد انفتح الباب ودخل «سان لو» مسرعاً وقد ترك نظارته تهوي. وقلت له:

– «آه! يا «روبير» كم يشعر المرء بالراحة لديك، وما أجمل أن يُسمح بالعشاء والنوم ههنا!»

وأية راحة لايشوبها غم كنت تذوقتها بالفعل، لو لم يكن الأمر ممنوعاً، يحميني هذا الجو الذي قوامه الاطمئنان واليقظة والمرح تغذيها جميعها ألف مشيئة منظمة لاقلق فيها وألف فكر غير مبال في هذه الجماعة الكبيرة التي هي الثكنة حيث اتخذ الزمان شكل العمل فحلت محل ناقوس الساعات الحزين الجوقة المفرحة نفسها المؤلفة من تلك النداءات التي كانت ذكراها الداوية معلقة باستمرار فوق رصيف المدينة، مفتتة مطحونة – هذا الصوت المتيقن من بلوغ الأسماع والموسيقى لأنه لم يكن أمر السلطة للطاعة فحسب، بل أمر الحكمة للسعادة!

وقال لي «سان لو» وهو يضحك: «آه! لعلك تفضل النوم ههنا بالقرب مني على الذهاب وحدك إلى الفندق».

فقلت له: «ويحك يا «روبير»، إنك قاسي القلب في حملك الأمر محمل السخرية بما أنك تعلم أنه مستحيل وأنني سوف أقاسي الكثير هناك.»

فقال: «بالك! إنك ترضي كبريائي فقد خطرت لي هذه الفكرة تلقائياً، فكرة أنك ربما فضلت البقاء ههنا هذا المساء، وذلك بالضبط ما ذهبت أطلبه من النقيب.»

وصحت قائلاً: «وهل أذن» ؟

– «دون أية صعوبة»

– «آه! إني أعبده»!

– «لا، تلك مغالاة». وأضاف قوله، فيما كنت أستدير لأخفي دموعي: «والآن دعني أنادي حاجبي كي يهتم بأمر عشائنا».

ودخل عدة مرات هذا أو ذاك من رفاق «سان لو» فكان يلقي بهم خارجاً.

– هيا، ارحل من هنا».

وكنت أطلب إليه أن يسمح لهم بالبقاء.

– لا، لا! فقد يرهقونك: فإنهم قوم غير مثقفين على الاطلاق ولا يستطيعون التحدث إلاّ عن سباقات الخيول، إن لم يتحدثوا عن حسِّ الدواب. ثم انهم حتى فيما يخصني قد يفسدون عليّ هذه اللحظات الثمينة جدا التي شد ما تقت إليها. ولاحظ أني إن أتحدث عن ضحالة رفاقي فليس يعني أن كل عسكرياً يفتقر إلى الفكر، وما أبعد أن يكون ذلك. إن لدينا رائداً هو رجل رائع. فقد ألقى دروساً عولج فيها التاريخ العسكري بمثابة برهان، بمثابة نوع من الجبر، وإن ذلك ليبلغ حتى على الصعيد الجمالي روعة استقرائية تارة وطوراً استنتاجية ولن تظل بارد الشعور إزاءها.

– «أفليس النقيب الذي سمح لي بالبقاء هنا؟»

– «لا، والحمد لله، لان الرجل الذي «تعبده» لامر زهيد إنما هو أكبر معتوه حملته الأرض في يوم. إنه لاعيب فيه للاهتمام بالاطعام وبلباس رجاله، إذ يقضي ساعات برفقة الرقيب الأول ورئيس الخياطين، تلك عقليته. وهو شديد الازدراء على أية حال، شأن جميع الناس، للرائد الرائع الذي أحدثك عنه. وليس من يتردد على ذاك الأخير لأنه ماسوني ولا يبادر إلى كرسي الاعتراف. ولعل أمير «بوروديو» لا يستقبل البتة لديه هذا البورجوازي الصغير. بيد أنها وقاحة لاتدانيها وقاحة من رجل كان أبو جده مزارعاً صغيراً ولعله ظل على الأرجح مزارعاً لولا حروب نابليون. وإنه ليتبين قليلاً على أية حال الوضع الذي «لاهو خل ولاخردل»، وضعه في المجتمع. ويكاد هذا الأمير المزعوم لايذهب إلى نادي سباق الخيل لشدة ما يشعر فيه بالضيق»، يضيف «روبير» الذي كان يجمع، وقد قادته روح المحاكاة إلى تبني نظريات أسياده الاجتماعية ومزاعم والديه المجتمعية، يجمع دون أن ينتبه للأمر إلى حب الديمقراطية ازدراء نبلاء الامبراطورية.

كنت انظر إلى صورة عمته وزادت الفكرة التي قوامها أن «سان لو» ربما استطاع، إذ يملك هذه الصورة، أن يعطيني إياها، من محبتي له وتمنياتي أن أردّ له ألفا من الخدمات التي كانت تبدو لي من زهيد الأمور في مقابلها. ذلك أن تلك الصورة الضوئية إنما كانت بمثابة لقاء آخر يضاف إلى اللقاءات التي سبق أن تمت لي بالسيدة «دو غيرمانت»، بل وأفضل من ذلك لقاء مطول كما لو توقفت بالقرب مني، بفعل تقدم مفاجئ في علاقاتنا، وعلى رأسها قبعة حدائق، وأتاحت لي لأول مرة أن أنظر غير معجل إلى سمين وجنتها وعطفة عنقها وزاوية حاجبيها (هذه التي حجبتها عني حتى ذاك سرعة مرورها ودوار انطباعاتي ولا تماسك الذكرى لدي) ؛ وكان تأملها بمثابة اكتشاف لذيذ ومنة بالنسبة إليّ بقدر ما هو تأمل الصدر والذراعين لدى امرأة ما رأيتها قط إلا في فسطان عالي القبة. وهذه الخطوط التي كان يبدو لي النظر إليها محظوراً تقريباً سوف يمكنني دراستها هنا وكأنما في بحث للهندسة الوحيدة التي تحمل قيمة في نظري. وتبينت فيما بعد وأنا أنظر إلى «روبير» أنه يبدو هو الآخر إلى حد ما وكأنه صورة لعمته، وفي جو من الاسرار يقارب أن يحمل إليّ الانفعال نفسه بما أن وجهيهما يشتركان في أصل واحد وإن لم ينتج وجهها هي وجهه على نحو مباشر. إن ملامح دوقة «غيرمانت» التي كانت مثبتة في الصورة التي أحملها عن «كومبريه»، الأنف الذي كمنقار الصقر والعينين الثاقبتين. كانت تبدو وكأنها أفادت كذلك– في نسخة أخرى مماثلة ودقيقة من بشرة مفرطة الرقة – في تحديد صورة «روبير» التي تطابق تقريباً صورة عمته. كنت أنظر نظرة حاسدة إلى هذه الملامح المميزة لآل «غير مانت»، لهذه السلالة التي ظلت متميزة إلى حد بعيد وسط العالم الذي لا تضيع فيه والذي

تظل منفردة فيه في أمجادها الرائعة التي من عالم الطير إذ تبدو وكأنها انحدرت إبان عصور الميثولوجيه من اقتران الهة بطائر.

لقد اهتزت مشاعر «روبير» من جراء تأثري دون أن يعرف أسبابه. وكان ينضاف إلى هذا التأثر من جهة أخرى الارتياح الذي يسببه دفء النار وخمرة «شامبانيا» التي كانت ترصع في آن معا جبيني بقطرات العرق وعيني بالدموع. كانت تسقي فراخ حجال وكنت آكلها بدهشة غير المطلع أيا كان حينما يلقى في عيشة لم يكن يعرفها ما ظن أنه يتنافي وإياها (كدهشة الملحد يصيب عشاء لذيذاً في بيت كاهن رعية). وفي صباح الغد بادرت حينما استيقظت إلى القاء نظرة من نافذة «سان لو» التي كانت بموقعها الشديد الارتفاع تشرف على كامل المنطقة، نظرة فضول للتعرف بالسهل جاري الذي لم أتمكن من مشاهدته بالأمس لانني وصلت في ساعة متأخرة جدا آن كان يغفي في الظلام. ولكني لم أره، مهما بكر في استيقاظه، لم أره وأنا أفتح النافذة إلا مثلما يرى من نافذة قصر الغدير، إلا وهو يدثر بعد ثوبه الصباحي الناعم الأبيض الذي من ضباب ويكاد لايتيح لي أن أميز شيئا. ولكني كنت أعلم أنه سيكون قد خلعه قبل أن ينهي الجنود الذين يهتمون بالخيل في الباحة عملية حسها. وما كنت أستطيع أن أبصر بانتظار ذلك سوى تلة قليلة الخصب ترفع بجانب الحي تماما ظهرها الهزيل الخشن الذي خلع الظلام عنه ؛ ولا كنت أرفع ناظري من خلال الستائر التي يخرّمها الصقيع عن هذه الغريبة التي كانت تنظر إليّ لأول مرة. ولكن حينما تعودت المجيء إلى الحي فقد أفضى الشعور بأن التلة كانت هناك وأكثر حقيقة بالتالي، حتى حين لا أراها، من فندق «بالبيك» ومن بيتنا في باريس اللذين كنت أفكر فيهما وكأنما في غياب، كأنما في موتي، أي دون أن أعتقد بوجودهما من بعد، أفضى إلى أن ارتسم شكلها المنعكس باستمرار، حتى دون أن أنتبه للأمر، على أدنى الانطباعات التي وقعت لي في «دونسيير»، ولئن بدأت بهذا الصباح فعلى الانطباع الطيب بالدفء خلفته في الشوكولاته التي أعدها حاجب «سان لو» في هذه الغرفة المريحة التي وكأنها مركز بصري لمشاهدة التلة (إذ أن فكرة القيام بغير النظر إليها كفكرة التنزه عليها مستحيلة من جراء هذا الضباب نفسه الذي يغطيها). وأقبل هذا الضباب الذي يبلل شكل التلة ويقترن بطعم الشوكولاته وبكامل أرضية أفكاري آنذاك. أقبل دون أن أمحضه أقل فكرة يبلل كل أفكاري في ذلك الحين كما سبق أن ظل ذاك الذهب الخالص الذي لايفسد يقترن بانطباعاتي عن «بالبيك» أوكما كان يضفي وجود صخور رملية سوداء بجوار الأدراج الخارجية بعض الرمدة على انطباعاتي عن «كومبريه». على أنه لم يستمر حتى وقت متأخر في الصباح فقد بدأت الشمس فاستخدمت ضده دون جدوى بعض سهام زينته بشرائط ماسشية ثم أحرزت الغلبة عليه. واستطاعت التلة أن تعرض أردافها الشهباء لاشعة الشمس التي كانت تضفي على حمرة أوراق الاشجار وعلى حمرة اللصائق الانتخابية الموضوعة على الجدران وزرقتها حماسة تهزني بدوري وتجعلني أذرع وأنا أغني الطريق الذي أتمالك نفسي فيه كي لا أقفز من الفرح.

بيد أنه انبغى لي منذ اليوم الثاني أن أمضي لأنام في الفندق. وكنت أعلم سلفاً أنني أزمع حتماً أن ألقى فيه الكآبة. كانت بمثابة أريج خانق تنشة بالنسبة إليّ منذ مولدي كل غرفة جديدة وأعني كل غرفة: ففي تلك التي أسكنها عادة لم أكن حاضراً إذ كان فكري يمكث في مكان أخر ويبعث مكانه بالعادة فحسب. غير أنه لم يكن بمقدوري تكليف هذه الخادمة الهينة الإحساس الاهتمام بأموري في بلد جديد كنت أسبقها فيه وأصل إليه وحدي وينبغي لي فيه أن أقيم الاتصال بين الأشياء وهذه «الأنا» التي ما كنت ألقاها إلا قبل

سنوات خلت ولكنها واحدة لاتتبدل على الدوام ولم تكبر منذ «كومبريه»، من قدومي الأول إلى «بالبيك» أبكي، دون أن يمكن مواساتي، على زاوية حقيبة مفتوحة.

بيد أني كنت مخطئاً، فلم يتسع لي الوقت للكآبة إذ لم أظل وحدي لحظة واحدة. ذلك أنه بقي من القصر القديم فائض من البذخ لا يستفاد منه في فندق حديث وقد دب فيه في بطالته بعدما جرّد من أي تخصيص عملي نوع من الحياة: فممرات تعود أدراجها ونلتقي في كل لحظة بغدوها ورواحها اللذين لاهدف لهما، وردهات طويلة كمماش ومزخرفة على غرار صالات وتبدو وكأنها تسكن هناك أكثر من أنها تؤلف جزءا من المسكن، ولم يسع أحدا أن يُدخلها إلى أية شقة ولكنها كانت تطوف حول شقتي وأقبلت في الحال تعرض عليّ صحبتها — وهي من هؤلاء الجيران البطالين ولكنهم غير صاخبين، ومن أطياف الماضي الثانوية التي أذنَ لها بالبقاء دون صخب على باب الحجرات المؤجرة والتي كانت تبدي لي في كل مرة ألقاها فيها على دربي تودّدا صامتا. وقصارى القول أن فكرة المسكن، أي ما يحتوي فحسب حياتنا الراهنة ويقينا البرد فقط وعيون الغير، لم تكن تنطبق البته على هذا المسكن وهو مجموعة من الحجرات حقيقية حقيقة جمهرة من الأشخاص تحيا بالحقيقة حياة صمت ولكنما يضطر المرء أن يلاقيها ويتجنبها ويرحب بها ساعة يعود. ويحاول الامتناع عن الازعاج ولا يستطيع أن ينظر بغيرما إجلال إلى الصالة الكبيرة التي تعودت منذ القرن الثامن عشر أن تمتد ما بين دعائمها التي من ذهب عتيق وتحت سحب سقفها المرسوم. وكان يأخذك فضول أكثر الفة إزاء الحجرات الصغيرة التي تجري من حولها دونما اهتمام البتة بالتناظر، عديدة لاتحصى ذاهلة تهرب في فوضى حتى الحديقة حيث تنحدر بيسر كبير بثلاث درجات مثلمة.

وان شئت الخروج أو الدخول دون أن أسفل المصعد ودون أن يشاهدني أحد على الدرج الكبير كان ثمة درج أصغر خاص لم يعد يصلح للاستخدام، كان يقدم لي درجاته التي رصفتَ بمهارة كبيرة الواحدة بملاصقة الأخرى حتى ليبدو أن في تدرجها تناسباً تاماً من نوع ذاك الذي في الألوان والعطور والطعوم والتي غالباً ما تحرك فينا شهوات خاصة. على أن الشهوة الكامنة في الصعود والنزول كان لابد لي أن أجيء إلى هنا لاعرفها، كحالي بالأمس في محطة جبلية لأعلم أن فعل التنفس الذي لا نلاحظه عادة يمكن أن يكون لذة مستمرة. وتم منحي هذا الإعفاء من الجهود الذي تهبنا إياه وحدها الأشياء التي يطول استخدامنا لها وذلك حينما وضعت قدمي أول مرة على تلك الدرجات المألوفة قبل أن تُعرف كما لو امتلكت العذوبة لعادات لم أكتسبها بعد ولايمكن حتى إلا أن تضعف عندما تضحي عاداتي أنا، تلك العذوبة التي ربما وضعها بل دمجها فيها أساتذة الماضي الذين كانت تستقبلهم كل يوم. وفتحت غرفة فانغلق الباب المزدوج من ورائي وأدخلت ثنيات الستائر سكوناً أحسست لنفسي عليه ضرباً من الملكية المسكرة. وكان موقد من المرمر مزين بقطع من النحاس المنقوش يوقد لي ناراً إذ من الخطأ الظن بأنه لا يفلح إلاّ في تمثيل فن «حقبة المديرين»، وساعدني مقعد صغير قصير الأرجل على الاستدفاء استدفاء مريحاً كما لو كنت جالساً على السجادة. كانت الجدران تحتضن الغرفة فتفصلها عن بقية العالم، ثم تتباعد، كيما تدخل فيها، كيما تحتبس فيها ما يضفي عليها التمام، تباعد أمام المكتبة وتخلي جانبا تغور السرير، وعلى جانبيه أعمدة تحمل برشاقة سقف المخدع المعلّى. وكانت الغرفة تستطيل في اتجاه العمق بفعل حجرتين بمثل عرضها تعلّق الأخيرة على جدارها لتعطر الخشوع

الذي نبحث عنه فيها مسبحة شهية من حبات قزحية. والأبواب إما تركتُها مفتوحة بينما كنت اختلي في هذا المعتزل الأخير، ما كانت الأبواب تكتفي بتثليثه دون أن يكف عن كونه متناسقاً ولاتسمح لنظراتي بتذوق متعة الاتساع بعد لذة التركيز فحسب بل تضيف كذلك إلى متعة عزلتي، التي تظل لاتشوبها شائبة وتكف عن كونها محتجزة، الشعور بالحرية. كانت هذه الخلوة تطل على باحة، على متوحدة جميلة سعدت بأن تكون جارتي حينما اكتشفتها صباح الغد سجينة بين أسوارها العالية التي لاتمدها بالنور أية نافذة ولا تملك سوى شجرتين مصفرتين كانتا تكفيان لإضفاء عذوبة بنفسجية على السماء الصافية.

وأردت قبل النوم أن أخرج من غرفتي لاستكشاف كامل مملكتي الساحرة وسرت وأنا أتبع رواقاً طويلاً كرّمني على التوالي بكل ما يسعه أن يقدمه لي إن لم أشعر بالنعاس، فمقعد يقبع في زاوية ومعزف قيثاري، وفوق طاولة جدارية وعاء من الخزف الأزرق مليء بالنباتات التزيينية، وفي إطار قديم طيف سيدة من الماضي ذات شعور معفرة بالمساحيق تخالطها أزاهير زرق وتمسك بيدها طاقة من زهر القرنفل. ولما وصلت آخر الرواق قال لي جداره المُصمَت الذي خلا من أي باب، قال بسذاجة: «الآن ينبغي أن تعود أدراجك ولكن أنت في بيتك، كما ترى»، فيما تضيف السجادة الوثيرة كي لاتؤخذ بالقصور أنني أستطيع إن لم أنم هذه الليلة أن أجيء حافي القدمين، وتؤكد لي النوافذ التي لامصاريع لها والتي كانت تتأمل السهول أنّها سوف تقضي ليلة بيضاء وأنني إن جئت في الساعة التي أريدها فليس لي أن أخشى إيقاظ أحد. على أني فاجأت ستارة حجرة صغيرة استوقفها الجدار ولم تستطع الهرب فاختبأت هنا خجلى تنظر إليّ بهلع من كوّتها التي انقلبت إلى زرقة من جراء ضياء القمر. وآويت إلى فراشي ولكن وجود اللحاف والاعمدة الصغيرة والموقد الصغير حال، إذ وضع اهتمامي في درجة لم يكن فيها في باريس، دون أن أصرف نفسي إلى رتابة أحلامي المعتادة. ولما كانت حالة الاهتمام الخاصة هذه هي التي تغلف النوم وتؤثر فيه وتبدله وتضعه على سوية واحدة مع هذه السلسلة أو تلك من ذكرياتنا فإن الصور التي ملأت أحلامي في هذه الليلة الأولى قد استمدت من ذاكرة مختلفة اختلافاً كلياً عن تلك التي كان يستعين نومي بها. ولو أغراني أثناء النوم أن أسمح لنفسي بالانجذاب باتجاه ذاكرتي المألوفة فان السرير الذي لم أتعوده والاهتمام الرقيق الذي اضطرّ أن أصرفه إلى أوضاع جسمي حين كنت أتقلب كانا كافيين لتقويم مجرى أحلامي الجديد أو للحفاظ عليه. فالنوم أمره كأمر إدراك العالم الخارجي ؛ يكفيك تبدّل في عاداتنا كي ينقلب شاعرياً، يكفي أن نكون أثناء خلع ملابسنا قد أغفينا على سريرنا دون أن نبغي ذلك حتى تتغير أبعاد النوم ويتم الإحساس بجماله. ونستفيق ونرى أنها الساعة الرابعة في ساعتنا ؛ إنها محض الرابعة صباحاً ولكننا نظن أن النهار كله انقضى لشدة ما بدت لنا هذه الاغفاءة التي امتدت بضع دقائق والتي لم نسع إليها وكأنها انحدرت من السماء بموجب حق إلهي ضخمة ملآنة مثل كرة امبراطور ذهبية. وإذ أزعجني في الصباح أن أحسب أن جدي كان جاهزاً وأنهم ينتظرونني للذهاب من جهة «ميزيكليز» فقد أيقظتني موسيقى كتيبة ظلت تمر كل يوم تحت نافذتي. ولكن النوم الواقع بيني وبينها أبدى مرتين أو ثلاث مرات – وأقول ذلك لأن المرء لايستطيع وصف حياة الناس وصفاً صحيحاً إن لم يغمسها في النوم الذي يغوص فيه والذي يلتف من حولها ليلة إثر ليلة مثلما الجزيرة يحيط بها البحر – من المقاومة ما يكفي ليحتمل صدمة الموسيقى ولم أسمع شيئاً. وفي الأيام الأخرى تراجع لحظة ولكن وعيي، ولا يزال يغطيه مخمل النوم كتلك

الأعضاء التي سبق تخديرها والتي لاتحس بكيّ، ظلّ بادئ الأمر خارج الإحساس، إلا في أقصى نهايته وبمثابة حرق طفيف، لكن وعيي لم تمسه إلا مساً رقيقاً نغمات الناي الحادة التي كانت تداعبه بزقزقة صباحية مبهمة وندية. وبعد هذا الانقطاع الطفيف الذي استحال السكون فيه موسيقى كان يعود فيغشاني مع النوم حتى قبل أن يكون الخيالة قد أنهوا عبورهم فيختلس مني الحزم الأخيرة المتفتحة للباقة المتدفقة الرنانة. وكانت منطقة وعيي التي لامستها تلك السوق المتدفقة لمساً رقيقاً ضيقة ويلفها النوم إلى الحد الذي لم أكن متيقناً معه فيما بعد، حينما سألني «سان لو» إن كمنت سمعت موسيقى، إن لم يكن صوت الموسيقى وهمياً قدر ذاك الذي كنت اسمعه يرتفع في النهار على إثر أقل ضجة فوق بلاط المدينة. فلعلني ما سمعته إلا في حلم وخشية أن أستيقظ أو لا أستيقظ على العكس فلا أشاهد العرض. ذلك أني حينما كنت أظل نائماً في الفترة التي ظننت فيها على العكس أن الضجة لابد أيقظتني، كثيراً ما كنت أعتقد ذلك على مدى ساعة فيما أوالي النوم وأمثل لنفسي بظلال رقيقة على شاشة نومي المشاهد المختلفة التي كانت تحول دون مشاهدتي لها ولكني أتوهم أني أشهدها.

فما لعلنا كنا فعلنا في النهار إنما يتفق بالفعل إذ يحل النوم أن لا نقوم به في الحلم، يعني بعد عطفة النعاس، بسلوك درب غير الذي قد نسلكه في اليقظة. فالقصة نفسها تدور ولها نهاية مختلفة. وعلى الرغم من كل شيء فإن العالم الذي نعيش فيه في أثناء النوم مختلف إلى حد أن الذين يصادفون مشقة في الإغفاء إنما يحاولون قبل كل شيء الخروج من عالمنا. فبعدما يقلبّون على نحو يائس وعلى مدى ساعات، والعيون مغمضة، أفكاراً شبيهة بتلك التي ربما ساورتهم وعيونهم مفتوحة إذا بهم يستعيدون عزيمتهم إن تبينوا أن الدقيقة السابقة قد أثقلتها تماماً محاكمة تتناقض تناقضاً صريحاً مع قوانين المنطق وبداهة الحاضر إذ يعني هذا «الغياب» القصير أن الباب مفتوح ذاك الذي ربما كان بمقدورهم أن يفلتوا منه في الحال من إدراك الواقع وأن يبادروا إلى استراحة بعيداً عنه في كثير أو قليل، الأمر الذي سيمنحهم نوماً عميقاً إلى حد ما. ولكننا يتم انجاز خطوة كبيرة حينما نولي الواقع ظهرنا وحينما نبلغ الكهوف الأولى التي تعد «الايحاءات الذاتية» فيها، شأن الساحرات، «الطبخة» الجهنمية للأمراض الوهمية أو لتفاقم الأمراض العصبية، وترصد الساعة التي تنطلق فيها النوبات المُراكمةُ في أثناء النوم اللاواعي بما يكفي من القوة لإيقافه.

وعلى مسافة غير بعيدة تقع الحديقة المخصصة التي تنمو فيها كزهور مجهولة أصناف النوم الشديدة الاختلاف بعضها عن بعضها الآخر، فنوم الداتوره الشائكة والقنب الهندي وخلاصات الأثير العديدة، ونوم حشيشة «ست الحسن» والأفيون والناردين، تلك الزهور التي تظل مطبقة حتى اليوم الذي يجيء فيه المجهول المصطفى منذ الأزل ليلمسها ويفتّح أكمامها ويبعث على مدى ساعات طويلة شذا أحلامها الخاصة في كائن ذاهل مفتون. وفي أقصى الحديقة الدير ذو النوافذ المفتوحة حيث يوافي الأسماع ترداد الدروس المتعلمة قبل النوم والتي لن نعرفها إلا لدى الاستيقاظ، فيما يردد صوت تكتكته ذاك المنبه الداخلي، وهو نذير الاستيقاظ، المنبّه الذي احسن اهتمامنا ضبطه إلى حد أن خادمة المنزل سوف تلقانا على أتم استعداد عندما تجيء لتقول لنا: إنها السابعة. وعلى الجوانب المظلمة لهذه الغرفة التي تنفتح على الأحلام والتي يعمل فيها دون انقطاع نسيان غموم الحب ذاك الذي ينقطع فيه أحياناً ويفكك بفعل حلم مزعج مليء بالذكريات عمله الذي سرعان ما تتم معاودته، على جوانبها تتدلى حتى بعدما نستفيق ذكريات الأحلام ولكنها مظلمة إلى حد أننا غالباً مالا

نلمحها للمرة الأولى إلا في تمام فترة ما بعد الظهر حينما يقبل شعاع فكرة مشابهة إلى إضاءتها على نحو مفاجئ، وبعضها متناسق الوضوح في أثناء نومنا ولكنما يضحي مجهول المعالم إلى حد أنه لايسمعنا بعد أن لم نتعرفه إلا أن نسارع ونرده إلى الأرض كما هو شأن أموات تفسخوا بسرعة كبيرة أو تحف دبّ فيها التلف إلى حدّ خطير وقاربت أن تنقلب ترابا حتى لا يستطيع أمهر المرممين أن يعيد إليها الشكل أو يستخرج منها شيئا.

وبالقرب من السياج يقع المقلع الذي تبادر صنوف النوم العميق إلى البحث فيه عن المواد التي تغطي الرأس بطلاءات قاسية إلى حد أن إرادة النائم نفسها تضطرّ في سعيها لايقاظه، حتى في صباح ذهبيّ، أن تضرب بالفأس ضربات قوية على غرار «سيغفريد» شاب. وثمّة فيما وراءها الأحلام المزعجة كذلك التي يزعم الأطباء بغباء أنها متعبة أكثر من الأرق فيما تسمح للنائم على العكس أن يهرب من الانتباه، الأحلام المزعجة بمجموعات صورها الطريقة التي يقع لوالدينا الميتين فيها حادث خطير لايتنافى وشفاء قريباً. وإننا بانتظاره نبقيهم في قفص صغير للفئران هم فيه أصغر من الفئران البيضاء ويوجهون إلينا، وقد غطتهم بثور حمراء كبيرة وانتصبت ريشة فوق كل منهم، خطابات شيشرونية. وعلى مقربة من كتاب الصور هذا تقوم اسطوانة المنبّة الدوراة التي نعاني لحين بفضلها متعبة التزام الدخول عما قليل إلى بيت هدم منذ خمسين عاماً وتمّحي صورته، كلما ابتعد النوم، بفعل أخرى كثيرة قبل أن نصل إلى البيت الذي لايبرز إلا بعدما توقف الأسطوانة ويطابق ذاك الذي سنراه بعينينا المفتوحتين.

ولم أكن قد سمعت شيئاً في بعض الأحيان وقد غرقت في واحد من صنوف النوم هذه التي يهوي فيها المرء وكأنما في حفرة يسعده أشد السعادة أن يرفع منها بعد قليل ثقيلاً متخماً يهضم كل ما جاءتنا به، على غرار الحوريات اللائي كن يغذين «هيركوليس»، هذه القوى المبهمة الرشيقة التي يتضاعف نشاطها في أثناء نومنا.

ذلك يدعى نوماً ثقيلاً كالرصاص، ويبدو أن المرء ينقلب حتى على مدى بضع لحظات بعد توقف مثل هذه الاغفاءة محض دمية من الرصاص. وليس المرء من بعد أحداً. فكيف يعود في النهاية فليقى «أناه» الخاصة أكثر من أي سواها وهو يبحث عن فكره وشخصيته مثلما يجري البحث عن غرض مفقود؟ وحينما نعاود التفكير، لمَ لا يكون ثمة شخصية أخرى غير السابقة تتجسد فينا؟ فليس يبصر المرء ما يملي عليه الخيار ولماذا يضع يده بالضبط، من بين ملايين الكائنات الإنسانية التي يمكن أن يكونها، على ذاك الذي كانه البارحة. وما الذي يقودنا حينما كان ثمة انقطاع حقاً (إما لأن النوم كان تاماً أو الأحلام مختلفة أتم الاختلاف عنا)؟ لقد وقع ثمة موت بالحقيقة كما هي الحال حينما يكف القلب عن الخفقان وترد إلينا الحياة عمليات شد منتظمة للسان. ليس من شك أن الغرفة إنما توقظ، وإن لم نرها سوى مرة واحدة، ذكريات علقت بها أخرى أكثر تقادماً، أو أن بعضاً منها كان ينام في داخلنا فوعيناه. والقيامة لدى الاستيقاظ- بعد نوبة الاستلاب العقلي المفيدة هذه التي هي النوم- ينبغي أن تشبه في الأساس ما يجري حينما نعود فنعثر على اسم وبيت شعر ولازمة منسية. وربما أمكن أدراك قيامة النفس بعد الموت بمثابة ظاهرة تذكر.

وبعدما انتهي من النوم كنت أرفع رأسي وأمد عنقي فيما أبقي جسمي نصف مخبأ داخل الأغطية، وقد

اجتذبتني السماء المشمسة ولكنما تمسك بي برودة تلك الصبيحات الأخيرة الشديدة الإشراق الشديدة البرودة التي يبدأ فيها الشتاء، كيما أنظر إلى الأشجار التي لم يعد يشير إلى الأوراق فيها سوى لمسة أو لمستين ذهبيتين أو ورديتين تبدوان وكأنهما ظلتا في الهواء في لحة خفية. وكمثل خادرة في طور التحول كنت مخلوقاً مزدوجاً لا يوافق مختلف أجزائه الوسط نفسه. فلعيني يكفي اللون دون الحرارة. أما صدري فكان يهتم على العكس بالحرارة لا باللون. وما كنت أنهض إلا حينما يتم إشعال ناري وكنت أنظر إلى اللوحة الشفافة الشديدة العذوبة التي تؤلفها الصبيحة الخبّازية المذهبة التي أضفت إليها اصطناعاً منذ قليل أجزاء الدفء التي كانت تفتقر إليها وأنا أحرك ناري التي تشتعل وتنفث الدخان على غرار غليون لذيذ وتوليني، كما لعله فعل، متعة تجمع الغلاظة لأنها تقوم على ارتياح مادي إلى الرقة إذ يحتجب خلفها محض خيال. كانت جدران حجرة ملابسي مكسوة بورق من حمرة فاقعة تنتثر فوقه أزهار سود وبيض كان ينبغي لي فيما يبدو أن أعاني بعض المشقة لتعودها. على أنها اقتصرت على أن تبدو لي جديدة وعلى أن تضطرني إلى الدخول لا في نزاع معها بل في صلات بها، وعلى تبديل مرحي وأناشيدي لدى استيقاظي، واقتصرت على وضعي عنوة في صميم نوع من الخشخاش الأحمر كيما أنظر إلى العالم الذي كنت أراه يختلف أشد الاختلاف عنه في باريس من هذا الساتر البهيج هو هذا البيت الجديد الذي يختلف اتجاها عن بيت والديّ والذي يتدفق فيه هواء نقي. وكان يهزني في بعض الأيام الشوق للقاء جدتي أو الخوف من أن تكون متوعكة الصحة، أو هو استذكار مسألة ظلت في طور التنفيذ في باريس وتتعثر، وإلى ذلك أحياناً بعض صعاب لقيت السبيل إليها حتى ههنا. لقد حال هذا الهم أو ذاك دون أن أنام وكنت لاحول لي في مواجهة حزني الذي كان يملأ في نظري كامل الوجود في مدى لحظة. حينئذ كنت أرسل أحدهم من الفندق إلى الثكنة أحمله كلمة لـ «سان لو»: كنت أقول له أن يتكرم بالمرور حينا إن كان ذلك ممكناً من الناحية العملية- وأنا أعلم أن الأمر بالغ الصعوبة. ويصل بعد انقضاء ساعة فأحس أنني أُنقذت من شواغلي أن أسمع صوت الجرس. كنت أعلم أنها إن كانت أقوى مني فقد كان هو أقوى منها فكان اهتمامي ينفصل عنها ويتجه إليه هو الذي كان عليه أن يقرر. وما أن دخل حتى أشاع من حولي الجو الطلق الذي كان يبذل فيه الكثير من النشاط منذ الصباح، هذا الوسط الحيوي الشديد الاختلاف عن غرفتي والذي كنت اتكيف معه في الحال بردود فعل مناسبة.

- «آمل أنك غير حاقد عليّ لازعاجك، فإن لدي شيئاً يعذبني ولابد أنك حزرته.»

- «لا، لا، حسبت فقط أنك راغب في لقياي ورأيت أن ذلك لطيف جداً. لقد أبهجني أنك أرسلت في طلبي. ولكن ماذا؟ أليست الأمور إذن على مايرام؟ وما عساي أن أفعل في خدمتك؟»

وكان يصغي لشروحي ويجيبني بدقة. بيد أنه كان قد جعلني شبيهاً به حتى قبل أن يحدثني، فإلى جانب المشاغل الهامة التي كانت تظهره شديد العجلة كثير النشاط بالغ السرور أخذت الغموم التي كانت تحول منذ قليل دون بقائي لحظة واحدة دون عذاب تبدو لي، كما تبدو له، غير ذات بال. وكنت كرجل لايستطيع أن يفتح عينيه منذ عدة أيام فيستدعي طبيباً يباعد جفنه بمهارة ولطف وينزع له حبة رمل ويريه إياها، فإذا بالمريض يشفى ويطمئن. كانت جميع متاعبي تلاقي حلها في برقية يأخذ «سان لو» على نفسه أن يبعث بها. وتبدو لي الحياة شديدة الاختلاف شديدة الجمال ويغمرني فيض من القوة عظيم إلى حد أن أبغي التحرك.

فكنت أقول لـ «سان لو»:

– «ماذا تفعل الآن؟»

– «سأتركك، لانهم يذهبون سيراً على الأقدام بعد ثلاثة أرباع الساعة وهم بحاجة إليّ.»

– «أفأزعجك المجيء إذن إزعاجاً كبيراً؟»

– «لا، لم يزعجني ذلك، لقد كان النقيب لطيفاً جداً وقال إنه ينبغي لي أن آتي بما أن الأمر يتعلق بك، ولكن لست أريد أن أبدو وكأني استغل الموقف.»

– «ولكني لو نهضت بسرعة وذهبت بدوري إلى المكان الذي ستناورون فيه فسوف يستهويني الأمر كثيراً وربما استطعت التحدث إليك في أثناء فترات الاستراحة.»

– «ليست أشور عليك بذلك، فقد ظللتَ مستيقظاً وامتلأت هماً من أجل أمر بالتأكيد غير ذي شأن البتّة فأما وأنه لا يشغلكِ من بعد فانقلب على وسادتك ونم، الأمر الذي سيكون رائعاً لمحاربة نقص المعادن في خلاياك العصبية. ولا تغفِ سريعاً لأن موسيقانا اللعينة ستمر تحت نوافذك. بيد أني أظن أنك ستنعم بالسكينة بعدها في لحال ونعود فنلتقي هذا المساء على العشاء.»

ولكنني كثيراً ماذهبت بعد ذلك بفترة وجيزة لأرى الكتيبة تؤدي خدمتها في السهل حينما شرعت أهتم بالنظريات العسكرية التي كان أصدقاء «سان لو» يشرحونها على مائدة العشاء وأصبح يؤلف الأمر شوق نهاري في أن أرى رؤساءهم المختلفين عن كثب، شأن من يجعل من الموسيقى دراسته الرئيسية ويعيش في جو الحفلات الموسيقية فيسره أن يختلف إلى المقاهي حيث يهتم المرء بحياة عازفي الاوركسترا. وكان لابد لي كيما أبلغ أرض المناورات من القيام بمسيرات طويلة. وفي المساء كانت الرغبة في النوم تهوي برأسي بين الحين والحين بعد العشاء وكأنها دوار. وكنت أفطن في الغد إلى أني لم أسمع الجوقة الموسيقية أكثر مما سمعت الحفلة الموسيقية على الشاطئ في «بالبيك» غداة العشيات التي اصطحبني فيها «سان لو» للعشاء في «ريفبيل». ولحظة أبغي النهوض كنت أحس إحساساً لذيذاً بعجزي عن ذلك. كنت أحسني موثقاً إلى أرض خفيّة وعميقة بمفاصل يجعلها التعب محسوسة لدي، مفاصل من جذيرات قوية العضلات مغذية. كنت أحسني ملآن بالقوة وكانت الحياة تمتد أمامي وهي أوفر طولاً. ذلك أنني تراجعت حتى متاعب طفولتي الكبيرة في «كومبريه» في اليوم التالي للأيام التي كنا قد تنزهنا فيها في جانب «غيرمانت» والشعراء يزعمون أننا نعود فنلقى حينا ما سبق أن كنّاه بالأمس ونحن ندخل إلى هذا البيت أو ذاك، إلى هذه الحديقة أو تلك حيث عشنا أحداثنا. وتلك صنوف من الحج تنطوي على مخاطر كثيرة نعدّ على إثرها من خيبات الأمل ما يوازي وجوه النجاح. إن الأماكن الثابتة التي تعاصر سنوات مختلفة نما يجدر بنا أن نلقاها بالأحرى داخل ذواتنا. وذلك ما يمكن أن يجلبه لنا من فائدة إلى حد ما تعب عظيم تليه ليلة مريحة. وكيما ينحدر بنا هذان الأخيران إلى دهاليز النوم الأكثر عمقاً حيث لاينير أي شعاع من البارحة وأية ومضة ذاكرة من بعد المناجاة الداخلية، إن اتفق لهذه المناجاة نفسها أن لا تتوقف فيها، فانهما يقلبان أرض جسدنا وأعماقها إلى حد أنهما

يعيناننا على العثور، حيث تنغمس عضلاتنا وتجدل تفرعاتها وتمتص الحياة الجديدة، على الحديقة لتي ذهبنا إليها أطفالاً. ولاحاجة بنا إلى السفر لنراها ثانية وانما ينبغي الانحدار للعثور عليها من جديد. إن ماغطى الأرض لم يعد فوقها بل تحت صفحتها فالرحلة لاتكفي لزيارة المدينة الدارسة، والحفريات ضرورية لذلك. ولكننا سوف نرى إلى أي مدى تردنا بعض الانطباعات السريعة الزوال والمفاجئة على نحو أفضل إلى الماضي وبدقة أشد وجناح أكثر خفة وأوفر شفافية وأكثر سرعة وأبعد عن الخطأ وأقرب إلى الخلود من تلك التفككات العضوية.

ويتجاوز تعبي أحياناً ذاك الحد: فلقد تابعت المناورات على مدى بضعة أيام دون أن يمكنني النوم. ما أكثر ما كانت العودة إلى الفندق مباركة آنئذ! كان يبدو لي وأنا أندس في فراشي أنني أفلتّ أخيراً من أيدي سحار من أولئك الذين يعمرون روايات قرننا السابع عشر المحبوبة. وتضحي اغفاءتي ونومي حتى ضحى اليوم الثاني محض رواية جنيات فاتنة، فاتنة وربما مفيدة أيضاً. كنت أقول في نفسي إن لأسوأ العذاب مكانا يأوي إليه واننا نستطيع على الدوام إن نلقى الراحة ان لم نلق خيراً منها، وكانت تلك الأفكار تقودني إلى مكان بعيد جداً.

وكنت أمضي كثيراً في الأيام التي خصصت للراحة، ولايستطيع «سان لو» مع ذلك الخروج فيها، لمشاهدته في الثكنة. كان المكان بعيداً وكان لابد من مغادرة المدينة واجتياز الجسر فوق الوادي وعلى جانبيه يمتد أمامي منظر شاسع. كان ثمة نسيم قوي يهب على الدوام تقريباً فوق تلك الأماكن العالية ويملأ العمارات المبنية على جوانب ثلاثة من الباحة، عمارات تهدر دون انقطاع وكأنها عرين رياح. وفيما كنت أنتظر «روبير» في حين تشغله خدمة ما، أمام باب غرفته أو في قاعة الطعام وأنا أتحدث إلى بعض من أصدقاء له سبق أن عرفني بهم (وقد جئت أحيانا فيما بعد لمشاهدتهم حتى حين لم يكن بالتأكيد هناك) وأشاهد من النافذة على مئة متر تحتي السهل الأجرد، ولكنما ههنا وهناك مزروعات جديدة، ولايزال المطر في الغالب يبللها والشمس تمنحها النور، تضع فيه شرائط خضراء لها التماع المينا وصفاؤها الشفاف، كان يتفق لي أن أسمع من يتحدث عنه. وسرعان ما أمكنني أن أتبين إلى أي حد كان محبوباً وشعبياً، وكان التعاطف الذي يثيره لدى الكثير من المجندين التابعين لكتائب ثانية من بورجوازيين شباب أغنياء لايشاهدون الطبقة الارستقراطية الراقية إلا من الخارج ودون أن ينفذوا إليها، التعاطف الذي يثيره لديهم ما يعلمون من طباع «سان لو» إنما تبطنه المهابة التي يمتلكها في نظرهم الشاب الذي كثيراً ما رأوه مساء السبت، حينما يجيئون في إذن إلى باريس، يتناول طعام العشاء في قهوة «السلام» مع دوق «أوزيس» وأمير «أورليان» وقد أدخلوا لذلك في محياة الجميل وفي طريقته المفككة في السير والتحية وفي قذفة نظرته الدائمة وفي غرابة قبعاته المفرطة في علوها وسراويله التي من قماش بالغ النعومة مفرط في لونه الوردي مفهوماً للأناقة يؤكدون افتقار أكثر الضباط تأنقا في الكتيبة إليه وحتى النقيب المهيب الذي سبق أن دنت له بنومي في الثكنة، وكان يبدو، إذا ما قورن به، مفرط الأبهة ويكاد أن يكون عامياً.

كان أحدهم يقول إن النقيب ابتاع جواداً جديداً، فيجيب الآخر قائلا: «يستطيع ابتياع جميع ما يشاء من جياد. لقد التقيت «سان لو» صبيحة الأحد في ممر الأكاسيا وانه يمتطي الجياد بأناقة مختلفة!» ويقول قول العارف لان هؤلاء الشباب كان ينتسبون إلى طبقة لاتختلف بفضل المال وأوقات الفراغ عن الارستقراطية في

خبرة جميع صنوف الأناقة التي يمكن شراؤها. وإن لم تتردد على جماعة الطبقة الراقية نفسها. وأكثر ما هنالك أن أناقتهم كانت تتسم، فيما يخص الملابس على سبيل المثال، بما كان أكثر اجتهاداً وأكثر خلواً من العيوب من أناقة «سان لو» الطليقة اللامبالية تلك التي كانت تروق جدتي أكثر ما تروق. كان يداخل أبناء أصحاب المصارف الكبيرة أو الصيارفة، فيما يتناولون أصناف المحار بعد المسرح، اضطراب طفيف لما يبصرون ضابط الصف «سان لو» إلى طاولة بجوار طاولتهم. وما أكثر القصص التي تقص في الثكنة نهار الاثنين لدى العودة من المأذونية على لسان واحد منهم كان من كتيبة «سان لو» وقد حياه هذا الأخير «بلطف شديد» وعلى لسان آخر لم يكن من الكتيبة نفسها ولكنه يعتقد تماما أن «سان لو» قد عرفه على الرغم من ذلك فقد سدد نظارته باتجاهه مرتين أو ثلاث مرات!

– «أجل، لقد لمحه شقيقي في قهوة «السلام»، يقول آخر أمضى نهاره لدى عشيقته، «ويبدو أنه كان يرتدي بزة فضفاضة ولاتناسبه تماما.»

– «وكيف كانت صدريته»؟

– «لم يكن يرتدي صدرية بيضاء، بل خبازية وبها أنواع من السعف، مذهل!»

أما بالنسبة إلى القدامى (وهم من عامة الشعب يجهلون نادي السبق ويضعون «سان لو» في فئة ضباط الصف الأغنياء جداً فحسب، وفيها يدخلون جميع الذين يعيشون حياة من مستوى معين، سواء أفقدوا أموالهم أم لا، ويملكون رقماً عالياً إلى حد ما من العائدات أو الديون وهم كرماء بحق جنودهم) فإن نظارة «سان لو» وسراويله وقبعاته ما كانت لتبدو، وإن لم يبصروا فيها أية سمة ارستقراطية، أقل إثارة ودلالة مع ذلك. لقد كانوا يتعرفون في هذه الصفات المميزة السمة والنمط اللذين خصوا بهما نهائياً هذا الأكثر شعبية بين أصحاب الرتب في الكتيبة، من تصرفات لاتشبه تصرف أحد وازدراء لما يمكن أن يدور في خلد الرؤساء وما يبدو لهم بمثابة النتيجة الطبيعية لعطفه على الجنود. وكانت تبدو قهوة الصباح في حجرة النوم أو الاستراحة على الأسرة أثناء فترة ما بعد الظهر فضل منها حينما يطلع أحد القدامى على الجماعة النهمة الكسلى بأحد التفاصيل الطريفة قبّعة كانت لـ «سان لو».

– «في مثل ارتفاع رزمتي».

ويقاطعه مجاز شاب في الآداب قائلاً: «ويحك ياعم، تريد أن «تقطعها» في رقابنا، لا يمكن أن تكون بمثل ارتفاع رزمتك»، يحاول باستخدام هذه اللهجة ألا يظهر بمظهر الغِرّ وليحمله بتجرئه على هذه المعارضة على أن يثبت له أمراً كان يمتعه.

– «ليست بمثل ارتفاع رزمتي؟ لعلك قستها. أقول لك إن المقدم كان يحدق إليه كما لو أراد أن يودعه السجن. وينبغي ألا نحسب أن «سان لو» المحترم كان يتباهى، فقد كان يروح ويجيء ويخفض رأسه ويرفعه إلى جانب قذفة النظارة تلك على الدوام. لابد أن نرى ما سيقوله النقيب. آه! من الممكن أن لايقول شيئاً ولكن الأمر لن يسره بالتأكيد. والقبعة هذه ليس فيها ما يدهش. ويبدو أنه يملك في منزله في المدينة أكثر

من ثلاثين» .

ويسأل الشاب متحذلقاً: «كيف تعلم ذلك أنت ياعم، على لسان عريفنا اللعين؟» ، وهو يعرض الأشكال القواعدية الجديدة التي لم يتعلمها إلا منذ عهد قريب والتي كان يفخر أن يزين حديثه بها.

– «كيف أعلم ذلك؟ على لسان مرافقه، ويحك!»

– عندي أنه ينبغي ألا يكون أمثاله تعساء!»

– «معلوم! والأكيد أنه أوفر مالاً مني! وهو يعطيه إلى ذلك كل حوائجه، كل شيء. لم يكن ينال كفايته في الندوة، فاذا «سان لو» يقبل وقد سمع «العشي» منه: «أريد أن تحسنوا تغذيته، وليبلغ الثمن ما بلغ».

وكان المتقدم يستعيض عن تفاهة الأقوال باللهجة الحازمة في تقليد ضعيف كان يصيب أكبر قسط من النجاح.

كنت أقوم بجولة لدى خروجي من الثكنة ثم أتوجه بانتظار الوقت الذي أذهب فيه يومياً لتناول طعام العشاء مع «سان لو» في الفندق الذي اتخذه واصدقاءه لنومهم وطعامهم، أتوجه إلى فندقي فور غياب الشمس كي تتوافر لي ساعتان للراحة والقراءة. وفي الساحة كان المساء يضع على سطوح القصر التي على هيئة مخزن بارود سحباً صغيرة وردية تنسجم مع لون القرميد ويكمل التوافق بتلطيف هذا الأخير بنور منعكس وكان يتدفق في أعصابي تيار من الحياة قوي حتى لتعجز أي من حركاتي عن استنفاده ؛ كل خطوة من خطاي كانت تعود فتثب بعدما تلامس واحدة من بلاط الساحة فيبدو في عقبيّ جناحا رسول الآلهة. كان أحد الينبوعين مليئا بوهج أحمر وفي الثاني يحيل ضوء القمر الماء إلى لون اللبن. وبين الاثنين يلعب صبية صغار ويطلقون صيحات ويرسمون دوائر يخضعون في ذلك لضرورة الساعة على غرار الخطف أو طيور الوطواط. وإلى جانب الفندق كانت القصور الوطنية القديمة ومبنى «الاورانجري» للويس السادس عشر الذي حل فيه الآن صندوق التوفير وكتيبة الجيش، كانت تضيئها من الداخل مصابيح الغاز الشاحبة المذهبة التي أضيئت منذ ذاك والتيّ كانت تنسجم والنهار لم يولّ بعد وتلك النوافذ العالية الواسعة التي من طراز القرن الثامن عشر والتي لم يمّحِ فيها آخر انعكاس للشمس الغاربة، كما لعله كان شأن زينة من قشرة شقراء على رأس تلهبها الحمرة، ويقنعني بالذهاب للقاء ناري ومصباحي الذي كان يكافح وحده في واجهة الفندق الذي أسكن فيه أنوار الشفق، مصباحي الذي كنت أعود من أجله، قبلما يكتمل الليل، بداعي السرور مثلما يفعل المرء بالنسبة إلى العصرونية. وكنت أحتفظ في مسكني بتمام الإحساس نفسه الذي تملكني في الخارج فقد كان يقوّس مساحات ظاهرة تبدو لنا في الأغلب مسطحة خاوية: فلهب النار الأصفر وصحيفة السماء الشديدة الزرقة التي سوّد عليها المساء. شأن تلميذ مدرسة، لوالب خطوطه الوردية وغطاء الطاولة المستديرة ذو الرسوم الفريدة والذي كان ينتظرني فوقه ماعون من ورق التلامذة ومحبرة بالإضافة إلى رواية لـ «بيرغوت» ، يقوّسها على نحو استمرت معه هذه الأشياء مذ ذاك تبدو غنية بنوع خاص من الوجود يخيل إليّ أنني أستطيع استخلاصه منها لو قدر لي أن ألقاها ثانية. كنت أفكر بابتهاج بهذه الثكنة التي غادرتها منذ قليل والتي تنطلق دوّارة الريح فيها مع جميع الرياح. وكمثل غطاس يتنفس في أنبوب يرتفع فوق سطح الماء كان احساسي بهذه الثكنة بمثابة نقطة

ارتباط لي، هذا المرقب العالي المطل على السهل الذي تخترقه أقنية من المينا الخضراء، الذي كنت أعدّ إمكان الذهاب ساعة أشاء تحت عنابره وداخل أبنيته، وأنا متيقن أبداً من حسن الاستقبال، بمثابة امتياز ثمين أتمنّى ديمومته، كان ذلك بالنسبة إليّ بمثابة ارتباط بالحياة الصحية وبالهواء الطلق.

كنت أرتدي ثيابي في السابعة وأخرج ثانية من أجل أن أذهب للعشاء مع «سان لو» في الفندق الذي اتخذه للسكن والطعام. كنت أحب أن أمضي إلى هناك سيراً على الأقدام ؛ كان الظلام حالكاً ومن اليوم الثالث شرعت تهب فور حلول الليل ريح باردة جداً تبدو وكأنها تبشر بالثلج. ولعله كان عليّ فيما كنت أسير ألا أكف عن التفكير في السيدة «دو غيرمانت»، وانما جئت إلى ثكنة «روبير» لأجهد في الاقتراب منها. ولكن الذكرى، والغم، أي غم، متحركان. فثمة أيام يمضيان فيها بعيداً حتى نكاد لانبصرهما ونظنهما وليّا، وإذ ذاك نصرف انتباهنا إلى أمور أخرى. وشوارع هذه المدينة لم تكن بعد في نظري، شأن المكان الذي تعودنا العيش فيه، محض وسائل للذهاب من مكان إلى آخر فقد كان يبدو لي أن الحياة التي يقضيها سكان هذا العالم المجهول لابد أن تكون رائعة وغالباً ما كان الزجاج المضاء في منزل، أي منزل، يسمّرني طويلاً في الظلام إذ يضع نصب عينيّ المشاهد الحقيقية الزاخرة بالأسرار لحيوات لا أنفذ إليها. فههنا يريني جني النار في لوحة بلون الأرجوان مقهى بائع كستنا يلعب فيه ضابطا صف بالورق، وقد وضعا نطاقيهما على كراسي، دون أن يرتابا بأن ساحراً كان يبرزهما من الليل، كما هو أمر ظهور في المسرح، ويحدد خطوطهما كما كانا بالفعل في تلك الدقيقة نفسها لعينّي عابر سبيل متوقف لا يستطيعان أن يبصراه. وفي مخزن صغير لسقط المتاع كانت ترسل شمعة نصف ذائبة نورها الأحمر على صورة مطبوعة فتحيلها بلون المغرة فيما يكافح ضوء المصباح الكبير الظلام فيلون بالسمرة قطعة من الجلد ويرصع خنجراً بشذرات سوداء لامعة ويخلف فوق لوحات إن هي الا نسخ رديئة طلاء ذهبياً ثميناً كالقشرة التي يخلفها الزمان أو كلمعة أساتذة الفن فتجعل من هذا الكوخ في النهاية حيث لاشيء سوى «التنك» والقشور لوحة لـ«رامبرانت» لاتقدر بثمن. وكنت أرفع عيني أحياناً إلى شقة قديمة لم تغلق مصاريعها يعود فيها رجال ونسوة برمائيون إلى التكيف من جديد في كل مساء مع العيش في وسط غير وسط النهار، ويسبحون ببطء في السائل اللزج الذي ينبع دونما انقطاع لدى حلول الليل من مستودع المصابيح ليملأ الحجرات حتى حافة جدارنها التي من حجر وزجاج، وينشرون فيه بتنقيل أجسامهم تموجات ناعمة مذهبة. وكنت أعاود السير وكثيراً ما يستوقفني عنف شهوتي في الجادة المظلمة التي تمر أمام الكاتدرائية، كما كانت حالي بالأمس في طريق «ميزيكليز» ؛ كان يخيل إليّ أن امرأة سوف تطلع فجأة لتشبعها ؛ وان أحسست فجأة في الظلام فسطاناً يمر فإن عنف اللذة التي أحس بها كان يحول دون اعتقادي بأن هذه الملامسة الخفيفة كانت عارضة فأحاول أن أحتبس بين ذراعي عابرة سبيل مذعورة. كانت تلك الجادة القوطية تبدو في نظري حقيقية إلى حد أني لو لحقت بامرأة فيها وامتلكتها لاستحال عليّ ألا أخال أنها اللذة العتيقة التي تزمع أن تجمع بيننا، وان كانت المرأة محض مومس تقف هناك كل مساء ولكنما أضفى عليها الشتاء وأضفت الغربة والظلمة والعصر الوسيط جو أسرارها. وأخذت أفكر في المستقبل: كانت تبدو لي محاولة نسيان السيدة «دو غيرمانت» أمراً فظيعاً ولكنه معقول وللمرة الأولى ممكن بل ربما سهل. وكنت أسمع من أمامي في هدوء هذا الحي المطلق أقوالاً وضحكات لابد تردني من متنزهين نصف مخمورين يعودون إلى منازلهم. فكنت أتوقف لأراهم وأنظر إلى الجانب الذي سمعت الضجة منه. بيد أنه كان لزاماً عليّ أن أنتظر

طويلاً لأن السكون المحيط كان عميقاً إلى حد أن سمح بانتقال ضجيج لايزال بعيداً بأقصى الوضوح والقوة. ويصل المتنزهون في نهاية المطاف لامن أمامي كما سبق أن ظننت بل بعيداً جداً من الخلف. لقد أخطأت الظن في المسافة والاتجاه على حد سواء، إما لأن تقاطع الشوارع وتواسط المنازل قد أحدثا هذا الخطأ السمعي بسبب ظاهرة الانكسار، وإما لأنه من العسير جداً تحديد موقع صوت مجهول المطرح لدينا.

وتأخذ الريح تتعاظم. لقد كانت تتقبض وتقشعرّ من إثلاج قريب، فكنت أعود إلى الشارع الكبير وأقفز إلى الحافلة الكهربائية الصغيرة حيث يرد ضابط من أرضية الوقوف تحيات جنود يبدو وكأنه لايراهم، جنود ثقال يمرون على الرصيف وقد ألقى البرد لطخ ألوان على وجوههم ؛ وانها لتذكرك، في هذه المدينة التي تبدو وكأنما دفعتها وثبة الخريف المفاجئة داخل بداية الشتاء هذه قدما إلى الشمال، بالوجوه الحمراء التي يعطيها «بروغيل» لفلاحيه المتهللين المولمين المصقعين.

وكان ثمة بالضبط في الفندق الذي كنت فيه على موعد مع «سان لو» وأصدقائه وحيث تجتذب الاحتفالات، وهي في بداياتها، كثيراً من الناس من الجوار ومن الأجانب، كان ثمة، فيما كنت أجتاز مباشرة الباحة التي تطل على مطابخ بلون الجمر تدور فيها فراريج على أسياخ وتشوى خنازير وتلقى صنوف من سرطان البحر في ما كان يدعوه الفندقي «بالنار الأبدية»، كان ازدحام خليق بما كان من قبيل لوحة «التعداد أمام بيت لحم» من مثل ما كان يرسم أرباب الفن الفلامنديون القدامى) لوافدين يجتمعون زمراً في الباحة يسائلون صاحب الفندق أو أحد أعوانه (فيفضلان أن يشيرا عليهم بمسكن في المدينة حينما لايجدان أن لهم مظهراً حسنا) إن كان يمكن أن يقدَّم لهم الطعام والمسكن بينما يمر خادم وهو يمسك بيده عنق طير يتخبط. وفي قاعة الطعام الكبيرة التي اجتزتها في اليوم الأول، وقبل أن أبلغ الحجرة الصغيرة التي كان ينتظرني فيها صديقي، إنما كان يذكرني عدد الأسماك والفراخ المسمنة وديوك الغابات ودجاج الأرض والحمائم التي جاء بها مزينة يتصاعد بخارها ندل فقدوا أنفاسهم يتزلقون على الأرضية الخشبية كيما يزيدوا من سرعتهم ويضعونها على الطاولة الجدارية الفسيحة حيث يتم في الحال تقطيعها وحيث تتكدس مع ذلك غير مستخدمة– إذكان الكثير من وجبات الطعام يشارف على الانتهاء حينما وصلت –إنما كان يذكرني كذلك بمأدبة في الانجيل مثلت بسذاجة الزمن الغابر ومغالاة بلاد الـ «فلاندر»، فكما لو أن الكثرة المسرفة فيها وتعجل الذين يحملونها إنما يستجيبان لاحترام النصوص المقدسة التي تتم مجاراة حرفها بدقة كبيرة، ولكنما يتم توضيحها توضيحاً ساذجاً بتفاصيل حقيقية مستقاة من الحياة المحلية، وللاهتمام الجمالي والديني الرامي إلى ابراز رونق الاحتفال للعيان بفيض الأطعمة وعجلة الخدم أكثر مما يستجيبان لطلبات المتعشين. وكان واحد بينهم يحلم في أقصى القاعة وقد وقف لايبدي حراكاً قرب خزانة آنية ؛ وكيما استعلم هذا الأخير، وكان يبدو وحده على شيء من الهدوء كي يجيبني، في أية حجرة أعدت مائدتنا مضيت رأساً، وأنا أتقدم بين السخّانات الصغيرة الموقدة ههنا وهناك لتحول دون أن تبرد قصعات المتخلفين (الأمر الذي ما كان يحول دون أن تمسك الحلوى في وسط القاعة يدا دمية ضخمة يحملها أحياناً جناحا بطة من البلور فيما يبدو ولكنهما في الواقع من مثلجات ينمقها كل يوم بالحديد المحميّ طاه نحات وفق ذوق «فلامندي» تماما). مضيت، وأنا عرضة لأن يطرحني الآخرون أرضاً، إلى هذا الخادم الذي حسبتني أتعرف فيه شخصية تماشي التقليد في هذه الموضوعات المقدسة، شخصية كان يعيد بدقة رسم وجهها المطفح الساذج الرديء الخطوط وملامحها الحالمة التي ربما

أدركت مذ ذاك سلفا معجزة حضور إلهي لم يرتب الآخرون بأمره بعد. ونضيف إلى أنه أضيف، بداعي الأعياد المقبلة دونما شك، إلى هؤلاء الممثلين ملحق سماوي جرى انتقاؤه بأسره في فئة من «الشيروبيم» و«السيرافيم»[1] وكان ثمة ملاك موسيقي شاب له شعر أشقر يظلل وجه ابن أربعة عشر ربيعاً، وما كان يعزف بالحقيقة على أية آلة بل يحلم أمام صنج أو كومة صحون فيما يسرع ملائكة أقل طفولة عبر مسافات القاعة المترامية وهم يحركون هواءها بارتعاش لا يتوقف للفوط التي تنحدر على طول أجسامهم على أشكال أجنحة لرسامين قدامى حادة الأطراف. وشققت لنفسي درباً، وأنا أتجنب هذه المناطق غير المحددة تماماً والتي يحجبها ستار من ورق النخيل يبدو فيها الخدّام السماويون من البعيد وكأنهم يجيئون من الجنة، حتى القاعة الصغيرة التي كانت مائدة «سان لو» معدة فيها. ولقيت فيها بعضاً من أصدقائه الذين كانوا يتناولون طعام العشاء باستمرار معه، وهم نبلاء فيما عدا واحداً أو اثنين من طبقة العامة اشتم فيهما النبلاء منذ المدرسة الاعدادية رائحة الأصدقاء وصادقوهما راضين فبرهنوا بذلك أنهم لايعادون البورجوازيين مبدئياً ولو كانوا جمهوريين بشرط أن يكونوا نظيفي اليد وأن يترددوا إلى القداس. ومنذ المرة الأولى وقبل أن نجلس إلى المائدة انتحيت بـ «سان لو» في زاوية من قاعة الطعام وقلت له أمام الآخرين جميعهم، وما كانوا يسمعوننا:

– «روبير، لم أحسن اختيار الزمان والمكان لأقول لك ذلك، ولكن الأمر لن يدوم سوى ثانية. يفوتني دوماً أن أسالك ذلك في الثكنة: أليست السيدة «دو غيرمانت» هذه التي تملك صورتها على طاولتك؟».

– «بلى إنها عمتي الطيبة».

–«ذلك صحيح، ويحي، وأني لمجنون، لقد عرفت ذلك فيما مضى ولم أفكر فيه في يوم. يا الهي، لابد أن اصدقاءك عيلوا صبراً، فلنتحدث بسرعة فهم ينظرون إلينا، أو فليكن ذلك في مرة ثانية فليس للأمر أي أهمية».

–«بلى، بلى، امض في حديثك، فإنهم هنا لينتظروا».

– «لا، يهمني أن أكون مهذباً فإنهم لطاف جداً، وتعلم على أية حال أن الأمر لايهمني أكثر من ذلك.»

– «وتعرفها، هذه الطيبّة «أوريان»؟

وما كانت عبارة «هذه الطيبة أوريان»، كما لعله كان قال «هذه المسكينة «أوريان». لتعني بأن «سان لو» كان يعد السيدة «دو غيرمانت» طيبة على نحو خاص. فالصفات «طيبة» و«رائعة» و«لطيفة» إن هي إلا محض عناصر تعزيز «لهذه» وتشير إلى شخص يعرفه كلانا، ولكنك لا تعلم تماما ما الذي تقوله لمن ليس من الأفك. إن «طيبة» تستخدم بمثابة مقبلات وتتيح لنا التريث لحظة ريثما يتسنّى لنا أن نجد عبارة: «هل تراها كثيرا؟» أو «لقد انقضت شهور دون أن أراها» أو «سألقاها يوم الثلاثاء» أو «لابد أنها لم تعد في أول شبابها».

(١) من فئات الملائكة في السماء.

- «لا أستطيع أن أقول لك إلى أي مدى يسرني أن تكون هذه صورتها لأننا نسكن الآن في بيتها وقد بلغني عنها أمور لاتصدق (وربما أصابني الكثير من الحرج في أن أقول أية أمور كانت) تجعلني أهتم بها كثيراً. من وجهة نظر أدبية بالطبع، ما عساني أقول. من وجهة نظر «بلزاكية» إنك تدرك ذلك بالتلميح أنت الذكي جداً. ولكن هيا ننته بسرعة فما عسى يقول أصدقاؤك بتربيتي!»

- ولكنهم لا يفكرون بشيء على الإطلاق، لقد قلت لهم إنك رائع وهم أكثر توجساً منك».

- «إنك بالغ اللطف، ولكن هاك بالضبط: إن السيدة «غيرمانت» لاترتاب في أنّي أعرفك، أليس الأمر كذلك؟»

- «دعني أقول لك، لقد أكدوا لي أنها تحسبني معتوها تماماً.»

- «هذا مالا أعتقده: فليست «اوريان» عبقرية ولكنها ليست غبية مع ذلك.».

- «تدري أني لا أهتم على الاطلاق بعامة أن تذيع المشاعر الطيبة التي تكنها لي لأني لست على شيء من الاعتزاز بالذات. ويؤسفني لذلك أنك نقلت عني أشياء لطيفة إلى أصدقاءك (الذين سنلحق بهم بعد ثانيتين). بيد أنه لو وسعك، فيما يخص السيدة «دو غيرمانت»، أن تنقل إليها، ولو بشيء من المغالاة، ما تعتقدة بشأني فسوف تسرني أعظم السرور.»

- بكل طيبة خاطر، وإن لم يكن لديك ما تسألني إياه سوى هذا فليس الأمر بالغ الصعوبة ولكن أية أهمية يمكن أن يرتديها ما تستطيع أن تحمله عنك؟ لديّ أنك لاتبالي بالأمر إطلاقاً. ومهما تكن الحال فباستطاعتنا، إن اقتصر الأمر على ذلك، أن نتحدث فيه أمام الجميع أو حينما نكون بمفردنا لانني أخشى أن يصيبك التعب في التحدث واقفاً وعلى نحو غير مريح إلى هذا الحد في حين نملك فرصاً عديدة للقاءات منفردة.»

وإنما كان ذاك الوضع غير المريح بالضبط مازودني بالجرأة للتحدث إلى «روبير» فقد ألف حضور الآخرين بالنسبة إليّ حجة خولتني أن أضفي على أقوالي طابعاً مقتضباً غير مترابط أستطيع بفضله أن أختفي على نحو أيسر الكذبة التي افتعلها إذ أقول لصديقي إني نسيت قرابته من الدوقة وكي لا أتيح له الوقت ليطرح عليّ، حول دواعي رغبتي في أن تعلم السيدة «دو غيرمانت» أنني صديق له، وأني ذكي... الخ، اسئلة ربما بعثت لدي مزيدا من الاضطراب بساوي عجزي عن الإجابة عنها.

- «روبير»، يدهشني، بالنسبة إلى من كان بوافر ذكائك، ألاّ تدرك أنه ينبغي ألا نناقش ما يسر الأصدقاء بل أن نفعله. أما أنا، فإن سألتني أمراً أيا كان، وإني لاهتم كثيراً أن تسألني أمراً ما، فاني أوكد لك أنني لن أسالك إيضاحات. إنّي أتجاوز ما أرغب فيه فليس يهمني أن أعرف السيدة «دو غيرمانت» لكنما كان يجدر بي أن أقول لك. بغية امتحانك، إنني أرغب في تناول العشاء مع السيدة «دو غيرمانت» وأعلم أنك ما كنت لتفعل.»

– «لعلني كنت فعلت ؛ وليس ذلك فحسب، بل سوف أفعل».

– «ومتى»؟

– حالما أجيء إلى باريس، بعد ثلاثة أسابيع دونما شك.»

– «سوف نرى»، ولكنها لن تقبل على أي حال. لا أستطيع أن أقول لك إلى أيّ مدى أشكرك.»

– «لا، لا، ليس ما يستحق الشكر.»

– «لا تقل ذلك، فالأمر هائل لأنني أرى الآن أي صديق أنت. فسواء أكان ما أسالك هاماً أم لا، مزعجاً أم لا، وسواء أهمني في الواقع أم كان لمحض تجربتك، فالأمر قليل الأهمية ؛ تقول إنك ستفعل ذلك، وتبرهن به على رهافة ذكائك ورقة قلبك. أمّا الصديق الغبي فربما ناقش.»

كان ذلك ما أقدم على فعله بالضبط. ولكني ربما أردت أن أوقعه في شرك الاعتزاز بالذات، وربما كنت إلى ذلك صادقاً إذ يبدو أن محكّ الفضل الوحيد انما هو الفائدة التي يمكن أن تقدم لي فيما يخص الأمر الوحيد الذي كان يبدو لي هاماً، عنيت حبي، ثم أضفت، إما رياء وإما لفرط حنان حقيقي بعثه الامتنان والمصلحة وكلما سبق أن وضعته الطبيعة من ملامح السيدة «دو غيرمانت» نفسها في ابن أخيها «روبير»:

– «ولكن، ها انه ينبغي أن نلحق بالآخرين ولم أسالك سوى واحد من الأمرين، وهو أقلهما. أما الآخر فأكثر أهمية في نظري، ولكني أخشى أن ترفضه، فهل يزعجك أن نرفع الكلفة بيننا؟»

– «كيف يزعجني، ويحك! «أيها الفرح! يادموع الفرح! أيتها السعادة المجهولة!»

– «كم أنا شاكر لك. حينما تكون قد بدأت! إن ذلك ليفرحني إلى حد أنك تستطيع ألا تفعل شيئاً فيما يخص السيدة «دو غيرمانت» إن شئت، فرفع الكلفة يكفيني.»

– «سنقوم بالأمرين معاً.»

وقلت لـ «سان لو» كذلك في أثناء العشاء: «آه! اسمع يا «روبير»! آه! إنها لمضحكة هذه المحادثة المتقطعة، ولستُ أعلم لماذا، على أي حال– تعلم، السيدة التي حدثتك عنها منذ قليل؟»

– «أجل»!

– «تعلم تماماً من أقصد؟»

– «ويحك، تعدّني غبياً من منطقة الـ«فاليه». ومتخلفاً.»

– «ألا تتكرم باعطائي صورتها؟»

كنت أنوي أن أسأله إعارتي إياها فحسب. ولكني أحسست لحظة الكلام ببعض الوجل ورأيت أن

مطلبي بعيد عن التحفظ فصغته، كي لا أبدي من ذلك شيئاً، صياغة أكثر فظاظة وزدت فضخمته كما لو كان طبيعياً تماماً.

وأجابني قائلاً: «لا، فلابد أن أستأذنها أولاً».

وكست الحمرة وجهه في الحال ؛ وأدركت أن لديه مقصداً خفياً وأنه يعزو إليّ آخر وأنه لن يمد يد العون لحبي إلا إلى حد مع مراعاة بعض مبادئ أخلاقية وكرهته.

ولكنما كان يوثر في معذلك أن أرى إلى أيّ حد كان «سان لو» يبدو مختلفا إزائي منذ أن لم أعد وحدي معه وأن أصبح أصدقاؤه طرفاً ثالثاً. ولعل لطفه المتزايد كان سيخلف اللامبالاة في نفسي لو ظننت أنه مقصود، ولكني كنت أحسه غير مقصود لا يؤلفه سوى ما كان لابد قائله بشأني حينما أكون غائباً ويكتمه حينما أكون وحيداً معه. كنت بالتأكيد أخمن المتعة التي كان يصيبها في التحدث إليّ في جلساتنا المنفردة، ولكن تلك المتعة كانت تظل حبيسة الصدر على الدوام تقريباً. والأقوال نفسها التي كان يتذوقها بالعادة دون أن يظهر ذلك، كان الآن يرقب من طرف عينه إن كانت تثير لدى اصدقائه الأثر الذي توقعه والذي كان ينبغي أن يوافق ما سبق أن أخبرهم به. وليست تركز أمّ إحدى المبتدئات انتباهها على ردود ابنتها وعلى موقف الجمهور أكثر مما يفعل. وكان يخشى، إن قلت كلمة ما كان ليمحضها أمامي وحدي سوى ابتسامة، أن لا يكون تم إدراكها على أحسن وجه فيقول لي: «كيف، كيف؟» كي يحملني على التكرار وكي يحمل على الانتباه. ويلتفت في الحال إلى الآخرين ويجعل من نفسه، غير قاصد، فيما ينظر إليهم بضحكة عريضة، الدافع إلى ضحكهم فيقدم لي للمرة الأولى الفكرة التي يحملها عني والتي لابد أنه كثيراً ما أفصح لهم عنها. إلى حد أني كنت أبصر نفسي فجأة من الخارج كمثل من يقرأ اسمه في الجريدة أو يرى نفسه في مرآة.

واتفق لي في إحدى تلك العشيات أن رغبت في رواية قصة مضحكة إلى حد ما عن السيدة «بلانديه»، ولكني توقفت في الحال إذ ذكرت أن «سان لو» يعرفها وأنه قاطعني يوم ابتغيت أن أقولها له في اليوم التالي لوصولي، قاطعني بقوله: «لقد سبق أن رويتها لي في بالبيك.» لقد أدهشني إذن أن أراه يحثني على المتابعة وهو يؤكد لي أنه لايعرف هذه القصة وأنها سوف تسره كثيراً. وقلت له: «إنك تعاني من لحظة نسيان، ولكنك سوف تتعرفها عما قليل.» «لا، لا، أقسم لك أنك تخلط، فما قلتها لي في يوم، هيا.» وظل طوال القصة كلها يحدق بنظرات محمومة مفتونة إليّ طوراً وإلى رفاقي تارة أخرى. وأدركت بعدما انتهيت فقط وسط ضحكات الجميع أنه فكر أنها ستزوّد رفاقي بفكرة رفيعة عن ذكائي وأنه تظاهر لذلك بأنه لايعرفها، تلكم هي الصداقة.

وفي العشية الثالثة تحدث إليه أحد أصدقائه طويلاً جداً ولم يسبق أن سنحت لي الفرصة للتحدث إليه في المرتين الأوليين. وكنت أسمعه يروي لـ «سان لو» بصوت منخفض عن المتعة التي يلقاها في الحديث. وتحدثنا بالفعل معاً طوال الأمسية تقريبا أمام أقداح نبيذ «سوتيرن» التي لانفرغها وقد عزلنا عن الآخرين وحمانا منهم واحد من ضروب التعاطف تلك التي تتسم وحدها بالإبهام التام حينما لاتقوم على أساس المجاذب الجسدي. هكذا سبق أن بدت لي في «بالبيك» تلك العاطفة الغامضة في طبيعتها التي كان «سان لو» يكنها

لي والتي ما كانت تختلط بمتعة أحاديثنا وقد انفصلت عن أي رباط مادي، خفية غير ملموسة، ولكنما كان يحس بوجودها في داخله كضرب من اللهب الكامن، من الغاز وعلى قدر كاف ليتحدث عنها وهو يبتسم. وربما اتفق ما كان أكثر إدهاشاً بعد في هذا التعاطف الذي ولد ههنا في عشية واحدة كمثل زهرة تفتحت في مدى بضع دقائق في دفء هذه الحجرة الصغيرة. ولم أتمالك نفسي أن أسأل «روبير»، فيما يحدثني عن «بالبيك»، إن كان قد تقرر حقاً أن يتزوج الآنسة «دامبرساك». فأقر لي بأن الأمر لم يتقرر، وليس ذلك فحسب بل هو لم يكن البتة موضوع بحث وانه لم يرها قط ولا يعلم من عساها تكون. ولو اتفق أن رأيت في تلك اللحظة بعض أفراد المجتمع الراقي الذين أعلنوا عن هذا الزواج لأعلموني عن زواج الآنسة «دامبرساك» بواحد لم يكن «سان لو» وزواج «سان لو» بواحدة لم تكن الآنسة «دامبرساك». ولعلني كنت ادهشهم كثيراً بتذكيرهم بتكهناتهم المغايرة والتي لاتزال قريبة جداً. وكيما يمكن أن تستمر هذه اللعبة الصغيرة وأن تكثر الأخبار الكاذبة بأن تراكم على التوالي أكبر عدد ممكن منها على كل اسم، فقد زودت الطبيعة هذا الصنف من اللاعبين بذاكرة يتزايد قصرها بقدر ما تتعاظم سرعة تصديقهم.

وكان «سان لو» قد حدثني عن آخر من رفاقه كان هنالك أيضاً وكان يتفق وإياه على أحسن وجه إذ كانا وحدهما في هذا الوسط يناصران إعادة النظر في دعوى «دريفوس».

وقال لي صديقي الجديد: «إنه ليس على غرار «سان لو»، فهو متهوّس وليس حتى سليم النية. كان بادئ الأمر يقول: «ماعلينا الا أن ننتظر، فثمة رجل أعرفه تمام المعرفة يفيض رقة وطيبة، إنه اللواء «بواديفر»، ويمكن أن نقبل برأيه دونما تردد.» ولكن حينما علم أن «بواديفر» كان ينادي بتجريم «دريفوس» أصبح «بواديفر» لايساوي شيئا من بعد. كانت النزعة الاكليروسية وآراء قيادة الأركان المتحيزة تحول دون أن يحكم بصدق مع أنه ليس من كان يبدي اتجاهاً اكليروسياً مثل صديقنا قبل قضية«دريفوس» وقد قال لنا حينذاك إن الحقيقة سوف تعرف لأن القضية سوف يتم وضعها بين يدي «دو سوسييّه» وأن هذا الأخير، وهو جندي جمهوري(وصديقنا من أسرة تغالي في مناصرة الملكية)، رجل فولاذي ووجدان لايلين. ولكنه حينما أعلن «دو سوسييه» براءة «ديسترهازي» وجد لهذا الحكم تفسيرات جديدة لافي غير صالح دريفوس، بل في غير صالح اللواء «سوسيّيه»، فالروح العسكرية إنما تعمي «سوسييه» (ولاحظ أنه هو الآخر عسكري النزعة بقدر ما هو اكليروسيًها أو بقدر ما كانه على الاقل لاني لم أعد أعلم ما أعتقد بشأنه) وان أسرته شديدة الاغتمام إذ تراه بهذه الأفكار.

وقلت وأنا ألتفت نصف التفاتة صوب «سان لو» كي لا يبدو أنني انتحي جانبا وصوب رفيقه كذلك كي أحمله على المشاركة في الحديث «ترى، ذلك أن التأثير الذي يعزونه إلى البيئة إنّما يصدق على وجه الخصوص فيما يخص الوسط الفكري. فانما الرجل نتاج فكرته، وثمة أفكار أقل بكثير من عدد الرجال. وهكذا يتماثل جميع رجال الفكرة الواحدة. وبما أن الفكرة لاتتسم بأي سمة مادية فان الرجال الذين لايحيطون برجل الفكرة الا ماديا لايبدّلون فيها شيئا».

وفي هذه اللحظة قاطعني «سان لو» لان أحد الجنود الشبان دله عليّ وهو يقول مبتسما: «ديروك، إنه

بالتمام ديروك.» وما كنت أدري ما يعني ذلك ولكني كنت أحس أن تعابير الوجه الذي تملكته الخشية كانت تنم عما هو أكثر من العطف(*) فحينما كنت أتحدث كانت موافقة الآخرين لاتزال تبدو نافلة في نشر «سان لو» وكان يطالب بالسكوت. ومثلما يستوقف قائد أوركسترا موسيقية وهو يضرب بقوسه لأن أحدهم أثار ضجة، فقد أنب المشوش وقال: «جيبيرغ، ينبغي أن تصمت حينما يتحدث الناس، وتقول ذلك فيما بعد». وقال لي: «هيا، تابع!».

وتنفست الصعداء إذ خشيت أن يحملني على إعادة كل شيء. وأضفت قائلاً: «ولما كانت الفكرة أمراً لايستطيع المشاركة في المصالح البشرية ولا يمكن أن يحظى بمكاسبها فإن رجال فكرة ما لا يتأثرون بالمصلحة.»

وبعدما أتيت على آخر كلامي استعجب «سان لو» الذي كان لاحقني بنظراته بالعطف القلق نفسه كما لو أنني سرت على الحبال، استعجب قائلاً: «هيا قولوا يا أولادي، إن ذلك يزيد من معلوماتكم. ما الذي كنت تبغي قوله يا «جيبيرغ» ؟

– «كنت أقول إن السيد يذكرني كثيراً بالرائد «ديروك». حسبتني أسمعه.»

وأجاب «سان لو» : «لقد فكرت في ذلك كثيراً، فثمة الكثير من أوجه الشبه، ولكنك سترى أنه يتحلى بألف من الأمور لايتحلى بها «ديروك».

ومثلما كان لايفكر شقيق لصديق «سان لو» هذا طالب في «المعهد الموسيقي» بصدد أي عمل موسيقي جديد على نحو ما يفكر أبوه وأمه وأبناء أعمامه ورفاقه في النادي، بل يفعل بالضبط مثل جميع طلاب المعهد الآخرين، كذلك كان لصف الضابط هذا (الذي كوّن «بلوك» عنه فكرة خارقة حينما حدثته عنه إذ أثر في نفسه أن يعلم أنه من حزبه نفسه ولكنه أخذ يتصوره مع ذلك بسبب منشئه الارستقراطي وتربيته الدينية والعسكرية يختلف عنه أشد الاختلاف ويزدان بالسحر نفسه الذي يحيط بأحد مواليد منطقة قصية) «ذهنية». حسبما أخذ الناس يقولون، مماثلة لذهنية جميع مناصري «دريفوس» بعامة و«بلوك» بخاصة ولا يمكن لتقاليد

(*) لم يكتف «سان لو» بهذه المقارنة، فقد أخذ في سورة من الفرح كان يضاعف منها دونما شك الفرح الذي يحسه من جراء إتاحة الفرصة لي للتألق أمام أصدقائه، أخذ يردد لي بذلاقة عظيمة وهو يداعبني على غرار حصان كان أول الواصلين إلى خشبة الحاجز: «تدري، أنت أذكى من أعرف من الرجال». واستدرك وأضاف: «إلى جانب «إيلستير»، ليس يغضبك الأمر، أليس كذلك؟ مسألة دقة كما تعلم. هذه مقارنة: أقول ذلك كما ربما قيل لـ «بلزاك»: إنك أعظم روائي في هذا القرن، إلى جانب «ستاندال». فرط دقة كما تعلم، وفي الأساس إعجاب لامحدود. «لا؟ لا توافق فيما يخص «ستاندال»/ يضيف قوله وبه ثقة ساذجة بما أحكم به ترجمها ابتسامة متسائلة ساحرة وتكاد تكون طفولية في عينيه الخضراوين. «حسن! أرى أنك من رأيي. أن «بلوك» يكره «ستاندال»، وفي رأيي أن الأمر غبي فيما يخصه. مع أن رواية «الشارتروز» شيء ضخم. ويسرني أن ترى ما أرى.» ثم يملي علي باندفاع الشباب: «ما الذي تفضله في رواية «الشارتروز»؟ أجب»، وتضفي قوته البدنية ما يقرب أن يكون مرعباً على سؤاله. «ألهو موسكا»؟ أمو فابريس؟» وكنت أجيب باستحياء بأن لدى «موسكا» بعض ما في السيد «دونوربوا»، فاذا عاصفة من الضحك يطلقها «زيغفريد سان لو» الشاب. وما أن انتهي من إضافة قولي: «ولكن «موسكا» أشد ذكاء بكثير وأقل حذلقة حتى أسمع «روبير» يصيح قائلاً: مرحى، وهو يصفق بالفعل ويضحك حتى ليختنق ويصرخ قائلاً: «بالصحة! التعبير ممتاز، إنك لامثيل لك».

أسرته ومصالح عمله أن يكون لها أي تأثير عليها. من ذلك أن إبن عم لـ «سان لو» تزوج أميرة شابة من الشرق كانت تنظم فيما يقولون أشعاراً في مثل جمال شعر «فيكتور هوغو» أو «ألفريد دو فيني» ويفرضون لها على الرغم من ذلك روحاً غير ما يمكن أن يتصور المرء، روح أميرة من الشرق حبيسة في أحد قصور ألف ليلة وليلة وقد خص الكتاب الذين حظوا بالاقتراب منها بخيبة الامل أو بالأحرى بالمسرة لسماع حديث يخلف لديهم لافكرة عن «شهرزاد» بل فكرة عن إنسان عبقري من نوع «ألفريد دو فيني» أو «فيكتور هوغو».

كان يسرني على وجه الخصوص أن أتحدث إلى هذا الشاب وإلى أصدقاء «روبير» الآخرين أيضاً وإلى «روبير» نفسه عن الثكنة وضباط الثكنة والجيش بعامة. وكنت قد باشرت، بفضل هذا المقياس المضخم إلى ما لاحدود والذي نرى به الأشياء التي نأكل وسطها ونتحدث ونعيش حياتنا، مهما صغرت تلك الأشياء، وبفضل هذه الزيادة الضخمة التي تقع لها والتي تؤدي إلى أن البقية لايمكنها، وقد غابت عن العالم، أن تنافسها وهي تتخذ إزاءها لاتماسك الحلم، باشرت أهتم بمختلف شخصيات الثكنة والضباط الذين كنت ألمحهم في الباحة حينما أذهب للقاء «سان لو» أو حينما كانت الكتيبة تمر تحت نوافذي إن كنت مستيقظاً. ووددت لو تتيسر لي تفاصيل حول الرائد الذي كان «سان لو» ينظر إليه باعجاب، وحول مقرر التاريخ العسكري الذي كان سيفتنني - حتى على الصعيد الجمالي». كنت أعلم أن لدى «روبير» نزعة لفظية هي في الأغلب فارغة بعض الشيء ولكنها كانت تعني في مرات أخرى تمثل أفكار عميقة كان قادراً تماماً على إدراكها. بيد أن «روبير» لسوء الحظ كان، فيما يخص الجيش، مهتماً كل اهتمام في هذه الفترة بقضية «دريفوس». كان قليل الحديث عنها لأنه الوحيد بين جلسائه من مناصري «دريفوس» فالآخرون يناهضون بعنف اعادة النظر، فيما عدا جاري على المائدة، وهو صديقي الجديد الذي كانت تبدو آراؤه على شيء من التردد. فقد سبق أن بلغ جاري، وهو معجب أكيد بالعقيد الذي كانوا يعدونه ضابطاً مرموقاً وقد ندد بالفتنة التي وقعت ضد الجيش في أوامر يومية مختلفة عدّوه بها بمثابة مناهض لـ «دريفوس»، بلغه أن آمره أطلق بعض التأكيدات التي حملت على الظن بأنه كان يشك في تجريم «دريفوس» ويحتفظ بتقديره لـ «بيكار». على أن شائعة وقوف العقيد النسبي إلى جانب «دريفوس» كانت فيما يخص هذه النقطة الأخيرة دون أساس متين في جميع الأحوال شأن جميع الشائعات التي تنطلق من حيث لا نعلم والتي تتشكل من حول أية مسألة كبرى. ذلك أن هذا العقيد كان قد كلّف بعد ذلك بقليل التحقيق مع رئيس مكتب الاستخبارات الأسبق فعامله بوحشية وزراية لم يبلغهما بعد أحد في يوم. ومهما يكن من أمر ومع أن جاري ما كان ليسمح لنفسه بالاستعلام مباشرة لدى العقيد فقد تلطف وقال لـ «سان لو»- باللهجة التي تصرح بها سيدة كاثوليكية لسيدة يهودية أن خوري رعيتها يندّد بمذابح اليهود في روسيا وينظر باعجاب إلى أريحية بعض الاسرائيليين [1]- إن العقيد لم يكن بالنسبة إلى متاصري «دريفوس» «-بالنسبة إلى اتجاه معين على الأقل بين مناصري «دريفوس» -الخصم المتعصب الضيق الأفق الذي صوّروه.

وقال «سان لو»: «لست أعجب لذلك، فإنه رجل ذكي. ولكنما تعميه مع ذلك المواقف المنشئية المتحيزة ولاسيما النزعة الاكليروسية.» ثم أردف يقول لي: آه االرائد «ديروك»، أستاذ التاريخ العسكري الذي حدثتك

(١) بالمعنى الديني واللفظة ترجمة لـ israélites

عنه، هاك واحدا يماشي أفكارنا إلى أقصى حد فيما يبدو. ولعل العكس كان يدهشني على أية حال لأنه ليس رائع الذكاء فحسب، بلهو اشتراكي راديكالي وماسوني.»

وسألت جاري، بداعي التأدب إزاء أصدقاء «سان لو» الذين كانت تشق عليهم تصريحاته العلنية في مناصرة «دريفوس» ولأن الأمور الباقية كانت أكثر أثارة لاهتمامي، إن كان صحيحاً أن هذا الرائد يحيل التاريخ العسكري براهين ذات مسحة جمالية حقيقية.»

- «صحيح بوجه الاطلاق.»

- «ولكن ما عساك تعني بذلك؟»

- «خذ، على سبيل المثال، إن كل ما تقرؤه، افتراضاً، في رواية أحد الرواة العسكريين، أصغر الوقائع وأصغر الأحداث إن هي إلا علامات فكرة ينبغي استخلاصها وهي في الغالب تغطي غيرها كما هي الحال في الطروس، وبذلت تتكون لديك مجموعة فكرية بقدر أي علم أو أي فن وتبدو مرضية للعقل.»

- «هات أمثلة، إن لم أثقل عليك.»

وقاطعني «سان لو» قائلاً: «من الصعب أن أقول لك هكذا. أنت تقرأ على سبيل المثال أن هذه القطعة العسكرية حاولت.... وقبل المضي إلى أبعد من ذلك فليس اسم القطعة وتأليفها خاليين من الدلالة. فإن لم تكن المرة الأولى التي تتم فيها محاولة العملية وإن رأينا قطعة أخرى تبرز على الساحة من أجل العملية نفسها فربما أشار ذلك إلى أن القطعات السابقة قد أبيدت أو ألحقت بها العملية المذكورة أضراراً بالغة وانها لم تعد قادرة على انجاحها. ولابد أن نتقصى من كانت تلك القطعة التي أبيدت اليوم، فإن كانت فرق صدام احتفظوا بها بمثابة احتياط لعمليات اقتحام ضخمة فإن قطعة أدنى تملك حظاً أقل في الإفلاح حيث أخفقت تلك. وإن لم يتم الأمر، إلى ذلك، في بدء حملة عسكرية فان هذه القطعة الجديدة نفسها يمكن أن تتألف من عناصر مشتتة، الامر الذي يمكن أن يزودنا بشأن القوات التي لاتزال في حوزة المتحاربين وبشأن قرب اللحظة التي ستضحي فيها أدنى سوية من قوات الخصم، بمعلومات تضفي على العملية نفسها التي ستقدم عليها تلك القطعة مدلولاً مختلفاً لأنها إن لم تعد قادرة أن تعوض عن خسائرها فإن انتصاراتها نفسها لن تقودها حسابياً إلا إلى الإبادة النهائية. وليس بأقل دلالة من ناحية أخرى الرقم الذي يتضمن خصائص القطعة التي تتصدى لها. فإن كانت على سبيل المثال وحدة أضعف بكثير وسبق أن قضت على وحدات هامة للخصم فإن العملية نفسها تتبدل في طبيعتها، ذلك أنها وأن أنتهت بخسارةالموقع الذي كان المدافع يسيطر عليه فأن سيطر عليه إلى حين يمكن أن يشكّل انتصاراً كبيراً إن كَفَتَ الاستعانة بقوات ضئيلة جداً للقضاء على قوات كبيرة جداً لدى الخصم. ويمكنك أن تدرك أننا إن لقينا هكذا أموراً هامة في تحليل القطعات المزجوجة في المعركة فإن دراسة الموقع نفسه والطرق والسكك الحديدية التي تتحكم بها وصنوف التموين التي يحميها أوفر أهميّة» وأضاف ضاحكاً: «ولابد من دراسة ما أدعوه بكامل الظروف الجغرافية المحيطة.» (وقد سر بالفعل لهذه العبارة إلى حدّ أنّ الضحكة نفسها وافته على الدوام في كل مرة استخدمها فيها حتى عقب شهور من ذلك.) فان أنت قرأت، أثناء ما يتم الإعداد للعملية على يد أحد الأطراف المتحاربة، أن احدى دورياته قد أبيدت في جوار

موقع على يد الطرف الآخر فإن أحد الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها هو أن الأول كان يحاول تبين الأعمال الدفاعية التي ينوي الثاني بها تفشيل هجومه، ويمكن لعملية عنيفة على نحو خاص في نقطة معينة أن تشير إلى الرغبة في الاستيلاء عليها، وكذلك إلى الرغبة في إيقاف الخصم هناك والامتناع عن الرد عليه حيث هاجم، أو حتى أن لا تكون سوى خدعة وأن تخفي خلف مضاعفة العنف هذه عمليات سحب قوات من ذلك المكان. (وإنها لخدعة تقليدية في حروب نابليون.) وليس غير ذي بال، من أجل إدراك دلالة مناورة معينة وهدفها المحتمل وأية مناورات بالتالي سوف ترافقها أو تليها، أن تستطلع ما تصرح بها القيادة عنها، مما يمكن أن يكون معداً لتضليل الخصم واخفاء فشل ممكن، أقل بكثير مما نستطلع أنظمة البلاد العسكرية. إذ ينبغي الافتراض أبداً بأن المناورة التي ابتغى أحد الجيوش تنفيذها إنما هي تلك التي ينص عليها النظام المطبق في الظروف المشابهة. فإن نص النظام على سبيل المثال على مرافقة هجوم تصادمي بهجوم جانبي وإن فشل هذا الهجوم الثاني فزعمت القيادة أن لا علاقة تربطه بالأول وأنه محض عملية إلهاء فالمحتمل أنه يجدر البحث عن الحقيقة في النظام لا في تقوّلات القيادة. وليس ثمة الأنظمة الخاصة بكل جيش فحسب، بل ثمة تقاليدهم وعاداتهم مذاهبهم. ويجدر كذلك ألا نهمل دراسة العمل الدبيلوماسي وهو على الدوام في حالة مستمرة من الفعل أو رد الفعل العسكري. فسوف توضح لك حوادث غير ذات شأن في ظاهرها ولم يتم فهمها في زمانها أن العدو الذي اتكل على معونة كشفت هذه الحوادث أنه حرمها لم ينفذ في الواقع سوى جزء من عمله الاستراتيجي. وهكذا فإن ما كان رواية مبهمة في نظر عامة القراء أضحى بالنسبة إليك، إن عرفت كيف تقرأ التاريخ، ترابطاً في مثل معقولية لوحة بالنسبة إلى الهاوي الذي يعرف كيف ينظر إلى ما يرتدي الشخص من ملابس وما يمسك بين يديه فيما زائر المتاحف الذاهل الدوار والصداع من جراء ألوان غامضة. ولكن هذه العمليات العسكرية، كما هو شأن بعض اللوحات التي لايكفي معها أن نلاحظ أن الشخص يمسك فيها بكأس بل ينبغي أن نعلم لماذا وضع المصور بين يديه كأساً وما الذي يرمز إليه بذلك. منسوخة بالعادة، حتى خارج هدفها المباشر، في ذهن اللواء الي يقود الحملة عن معارك أكثر قدماً هي، إن شئت، بمثابة ماضي المعارك الجديدة، بمثابة مكتبتها وعلمها الواسع وأصولها وارستقراطيتها. ولاحظ أني لا أتكلم في هذه اللحظة عن الهوية المحلية للمعارك، ما عساي أقول، الهوية المكانية. وإنها لقائمة أيضاً. إن ميدان معركة ما لم يكن ولن يكون عبر القرون ميدان معركة واحدة. ولئن كان ميدان معركة فلأنه كان يجمع بعض شروط في الموقع الجغرافي والطبيعة الجيولوجية وحتى العيوب التي من شأنها إعاقة الخصم (كنهر على سبيل المثال يقطعه قسمين) جعلت منه ميدان معركة يفي بالغرض. لقد كان كذلك إذن وسوف يظل. لست تقيم مشغل رسم باللجوء إلى أية غرفة، ولست تصنع ميدان معركة باللجوء إلى أي مكان. فهناك أمكنة مصطفاة سلفاً. ولكني، وأقولها ثانية، ما كنت أتحدث عن ذلك، بل عن طراز المعركة التي تتم محاكاتها، عن نوع من النسيج الإستراتيجي، من المحاكاة التكتيكية إن شئت: كمعركة «أولم» و«لودي» و«لاييزيغ» و«كان». لست أدري إن كانت ستقع حروب أيضاً ولا بين أية شعوب ؛ أما اذا وقعت فتأكد أن ستكون ثمة (وعلى نحو مقصود فيما يخص القائد) معركة «كان» ومعركة «أوسترليتز» و«روزباخ» و«واترلو»، ناهيك عن الأخريات. ولايشعر بعضهم بالحرج في قول ذلك، فقد أعد المشير «فون شليفن» واللواء «دو فالكنهاوزن» سلفاً ضد فرنسة ما يشبه معركة «كان» من طراز هنيبعل يرافقها تثبيت الخصم على سائر الجبهة والتقدم بطريق الجناحين ولاسيما الميمنة في بلجيكا، في حين يفضل «برنهاردي» نظام «فريدريك» الأول المائل، بفضل «لوتين» على «كان» ويعرض

آخرون آراءهم عرضاً أقل فجاجة، ولكني أؤكد لك تماماً ياصاح أن «بوكونيسي» قائد السرايا الذي قدمتك إليه ذاك اليوم، وهو ضابط ينتظره مستقبل باهر، قد درس بجد هجومه الصغير على «براتزن» ويعرف خبايا زواياه ويضعها في جعبة احتياطه، فإن سنحت له في اليوم فرصة تنفيذه لم يتوان وقدمه إلينا في أوفى خطوطه. لسوف يعاد اختراق الوسط إن ظل ثمة حروب، فليس ذلك أقدم عهداً من الإلياذة. وأضيف أنه مقضي علينا تقريباً باللجوء إلى الهجوم التصادمي لأننا لا نود أن نرتكب ثانية خطيئة عام السبعين بل نود القيام بالهجوم ولاشيء سوى الهجوم. والأمر الوحيد الذي يقلقني أني كنت لا أبصر سوى عقول متخلفة تقاوم هذا المذهب الرائع فإن أحد أحدث أساتذتي سنا، وهو رجل عبقري يدعى «مانجان»، يود أن يحتفظ للدفاع بمكانه، مكان مؤقت بالطبع. وتلفي نفسك محرجاً بالرد عليه حينما يستشهد بـ «أوسترليتز» حيث لايعدو الدفاع أن يكون فاتحة الهجوم والنصر.»

كانت نظريات «سان لو» هذه تبعث فيَّ السعادة ؛ فقد كانت تحمل إليّ الأمل بأنني ربما لم أكن، في حياتي في «دونسيير»، إزاء أولئك الضباط الذين كان يوافيني الحديث عنهم وأنا أحتسي خمور «سوتيرن» التي تعكس عليهم أثرها الساحر، لم أكن ضحية ذاك التضخيم نفسه الذي ضخم في عيني طوال إقامتي في «بالبيك» ملك أوقيانيا وملكتها وجماعة الذواقة الأربعة الصغيرة واللاعب الشاب وشقيق زوجة «لوغراندان» وقد تقلصوا الآن في ناظري حتى ليخيل إليّ أنهم غير موجودين فربما لم يصبح ما كان يروقني اليوم غير ذي بال في نظري غدا مثلما وقع لي على الدوام حتى الآن. وربما لم يكن محكوماً على الكائن الذي لا أزال أؤلفه في تلك الفترة بافناء قريب لأن «سان لو» كان يضيف إلى الغرام الملتهب والسريع الزوال الذي كنت أبديه في تلك الأماسي القليلة لكل ما يتعلق بالحياة العسكرية من جراء ما قاله مما يخص فن الحرب، كان يضيف أساساً فكرياً يتصف بالاستمرار ويستطيع أن يشدني إليه بما يكفي من القوة ليمكنني الاعتقاد، دون محاولة مني لخداع نفسي، بأنني سأوالي بعدما أرحل الاهتمام بأشغال أصدقائي في «دونسيير» ولن يطول بي الأمر حتى أعود فيما بينهم. وكيما أزداد مع ذلك ثقة بأن فن الحرب هذا فن أكيد بمعنى اللفظة الفكري قلت لـ «سان لو»:

– «تثيرون» اهتمامي، عفوك، تثير اهتمامي إلى حد بعيد، ولكن قل لي، ثمة نقطة تقلقني. أحس أنه يمكنني التوله بالفن العسكري، بيد أنه ينبغي لذلك أن لا أحسبه مختلفا إلى هذا الحد عن الفنون الأخرى وأن لاتمثل القاعدة المتعلمة كل شيء فيه. تقول لي إنه يتّم نسخ معارك، وانني أرى الأمر بالفعل جميلاً، حسبما كنت تقول أن يبصر المرء خلف معركة حديثة معركة أكثر قدماً، ولا يسعني أن أقول لك إلى أي حد تروقني هذه الفكرة. ولكن أتراه لايساوي شيئاً نبوغ القائد حينذاك؟؟ أو لايقوم بالحقيقة الا بتطبيق القواعد؟ أم أن هنالك، بتساوي العلم، قواداً عظاماً مثلما هنالك جراحون عظام يحسون، فيما العناصر التي تزودهم بها حالتان مرضيتان واحدة على الصعيد الجسمي، يحسون انطلاقاً من أمر زهيد ربما صنعته تجربتهم ولكنما تم تفسيره أنه يقع عليهم في هذه الحالة أن يفعلوا بالأحرى هذا الأمر وفي تلك أن يفعلوا بالأحرى ذاك، وأنه حريٌ بهم أن يجروا العملية في هذه الحالة وأن يمتنعوا في تلك؟»

– ذلك بالتمام ما اعتقد! سوف ترى نابليون لايهاجم حينما كانت القواعد جميعها تفرض أن يهاجم،

ولكن تكهناً غامضاً كان ينهيه عن ذلك. هاك «أوسترليتز» مثلاً أو تعليماته عام ١٨٠٦ إلى «لان» ولكنك سترى قادة يقلدون تقليداً مدرسياً هذه المناورة أو تلك لنابليون ويصلون إلى نقيض نتيجته تماماً. ثمة عشرة أمثلة من هذا القبيل في عام ١٨٧٠. ولكن، حتى على صعيد تفسير ما يمكن أن يفعله الخصم، ليس مايفعله سوى ظاهرة يمكن أن تعني الكثير من الأمور المختلفة. ولكل من هذه الأمور مقدار الحظ نفسه في أن يكون هو الصحيح إن اقتصرنا على المحاكمة العقلية وعلى العلم، مثلما لاتكفي علوم العالم الطبية بكاملها في بعض الحالات المعقدة لتقرير ما إذا كان الورم الخفي ليفياً أم لا وإن كان ينبغي إجراء العملية أم لا. إنها حاسة الشم، إنه التكهن على طريقة السيدة «دو تيب» (أنت تفهمني) الذي يحكم بالأمر لدى القائد الكبير والطبيب الكبير على حد سواء. من ذلك أني قلت لك، لأضرب لك مثلاً، ما يمكن أن يعنيه الاستطلاع في بدء إحدى المعارك. بيد أنه يمكن أن يعني عشرة أمور أخرى، كأن تحمل العدو مثلاً على الاعتقاد بأنك تزمع المهاجمة في نقطة معينة في حين تبغي الهجوم في نقطة أخرى، أو ترخي ستاراً يحجب عنه رؤية الاستعدادات للعملية الحقيقية، أو تضطره إلى جلب القطعات وتثبيتها وتجميدها في غير المكان الذي هي ضرورية فيه، أو تتبين القوات التي بحوزته وتتلمسه وتضطره إلى كشف أوراقه. وحتى أمر زج قطعات ضخمة لعدد في عملية ما ليس البرهان أحياناً على أن هذه العملية هي الحقيقية، إذ يمكن تنفيذها جدياً مع أنها محض خدعة كي يتجمع لهذه الخدعة فرص أكثر في التضليل. ولو اتسع لي الوقت لاروي لك حروب نابليون من وجهة النظر هذه فاني أؤكد أن هذه الحركات الكلاسيكية البسيطة التي ندرسها والتي سترانا نقوم بها أثناء الخدمة في الحقول، لمحض متعة النزهة أيها الخنزير اللعين (لا، أعلم أنك مريض، عفوك!)، حسن، حينما نحس خلفها في إحدى الحروب يقظة القيادة العليا ومحاكمتها وبحوثها العميقة فإنما تهتز مشاعرنا أمامها شأنها أمام مجرد أضواء منارة وهي نور مادي ولكنها صادرة عن الفكر وتجوب فسيح المكان لتنبه السفن إلى الخطر. وربما كنت حتى على ضلال في أن أحدثك بلغة أدب الحرب فحسب. فمثلما يشير تكوين الأرض واتجاه الريح والضوء إلى الجهة التي ستنمو الشجرة فيها تحكم الشروط التي تتم فيها حملة ما ومميزات المنطقة التي تم المناورة فيها، تحكم في الواقع نوعاً ما الخطط التي يستطيع القائد أن يختار من بينها وتحد منها. حتى ليمكنك التنبؤ بمسيرة الجيوش، بما يقارب صفة الضرورة والجمال الرائع في منهارات الثلوج، على سفوح الجبال وفي مجموعة من الوديان وفي هذه السهول أو تلك.»

– «انك تنكر عليّ الآن الحرية لدى القائد والتكهن لدى الخصم الذي يود تبين خططه، وكنت وهبتني إياهما منذ قليل.»

– «لا، بوجه الإطلاق! تذكر كتاب الفلسفة ذاك الذي كنا نقرؤه سوية في «بالبيك»، والوفرة في عالم الممكنات بالنسبة إلى العالم الحقيقي. حسن! إن الأمر لكذلك في فن الحروب. ففي حالة معينة ثمة أربع خطط تفرض نفسها واستطاع القائد أن يختار من بينها، مثلما يمكن أن يتبع مرض خطوط سير مختلفة يجدر بالطبيب أن يتوقعها. وههنا أيضا يبدو ضعف الإنسان وعظمته بمثابة أسباب جديدة للحيرة. فلنفرض أن أسبابا طارئة (كأهداف ثانوية بلوغها أو الوقت الضيق أو العدد القليل في قواته وسوء تموينها) تحمل القائد على أن يفضل من بين هذه الخطط الأربع الخطة الأولى، وهي أقل كمالاً ولكن تنفيذها أقل كلفة وأوفر سرعة وتمتد ساحتها على منطقة أوفر غنى لإطعام جيشه. وقد يتفق له، بعدما يشرع بهذه الخطة الأولى التي سيتبينها العدو

عما قليل بعدما حار بادئ الأمر فيها، أن لا يستطيع النجاح فيها بسبب عقبات كبيرة جداً- الأمر الذي أدعوه بالاحتمال الصادر عن الضعف الإنساني - وان يهجرها ويحاول في الخطة الثانية أو الثالثة أو الرابعة. بيد أنه يمكن كذلك ألا يكون أجرى محاولة- وهذا أدعوه بالعظمة الإنسانية- إلاّ بداعي الخدعة ولتثبيت الخصم على نحو تفاجئه فيه حيث ما كان يحسب أنه سيُهاجَم. من ذلك أن «ماك» الذي كان ينتظر العدو في «أولم» من الغرب قد تم تطويقه من الشمال حيث كان يحسب أنه في أتم الطمأنينة. وليس مثالي موفقاً جداً على أية حال. و«أولم» نمط أفضل في معارك الالتفاف سوف نراه يستعاد في المستقبل لأنه ليس مثالاً كلاسيكياً سوف يستلهمه القادة فحسب بل صيغة ضرورية إلى حد ما (ضرورية بين صيغ أخرى الأمر الذي يوفر الخيار والتنوع) كمثل نمط من التبلور. ولكن ذلك كله لاطائل تحته لأن هذه الأطر مصطنعة على الرغم من كل شيء. أعود إلى كتابنا الفلسفي، الأمر يشبه المبادئ العقلية أو القوانين العلمية والواقع ينطبق عليها تقريباً، ولكن عد بالذاكرة إلى الرياضي العظيم «بوانكاريه»، فليس أكيداً أن الرياضيات صحيحة كل الصحة. فأما الأنظمة نفسها التي حدثتك عنها فهي بإجمال القول ثانوية في أهميتها ويتم تبديلها على أية حال بين الحين والحين. من ذلك أننا نعيش، نحن الفرسان على نظام التدريب الحي لعام ١٨٩٥ الذي بوسعنا القول إنه تقادم عهده بما أنه يرتكز على المذهب القديم البالي القائل بأن قتال الفرسان لايملك سوى أثر معنوي تقريباً بالذعر الذي تبعثه غارة الخيالة في الخصم. ولكن أكثر رؤسائنا ذكاء، وهم أفضل من في الفرسان ولاسيما الرائد الذي كنت أحدثك عنه ؛ يرون على العكس أن الحسم يتم بلوغه في اشتباك حقيقي يتم فيه القتال بالسيف والرمح وينتصر فيه من كان أوفر صلابة لاعلى صعيد محض معنوي وبتأثير الذعر بل على صعيد مادي.»

وقال جاري: «إن «سان لو» على حق والأرجح أن نظام التدريب الحي المقبل سوف يحمل أثر هذا التطور.»

وقال«سان لو» ضاحكاً: «لست غاضباً من جراء موافقتك إذ يبدو أن آراءك أكثر تأثيراً في صديقي من آرائي»، إما لأن هذه المودة الوليدة بين رفيقه وبيني كانت تزعجه بعض الشيء وإما لأنه رأى من اللطف أن يكرسها بإثباتها رسمياً. «ثم إني ربما قللت من أهمية الأنظمة. إنه يتم تغييرها، ذلك أمر أكيد، ولكنها حتى ذاك تحكم الوضع العسكري وخطط المعارك وحشد القوات. فإن عكست تصوراً استراتيجياً خاطئاً أمكن أن تكون المصدر الأولي للهزيمة.» ثم قال لي: «كل ذلك على شيء من التقنية بالنسبة إليك. فاعلم أن أكثر ما يسرّع تطور فن الحرب إنما هو في الأساس الحروب نفسها. فأنت ترى أحد المتحاربين في أثناء حملة ما، إن هي طالت قليلاً، يفيد من الدروس التي تلقنه إياها نجاحات الخصم وأخطاؤه ويحسّن طرائق هذا الأخير الذي يغالي فيها بدوره. على أن ذلك أضحى من الماضي. فسوف تصبح حروب المستقبل. إن ظل ثمة حروب، بفضل تقدم المدفعية المخيف، قصيرة جداً حتى ليتم السلام قبل أن يفكر المرء في الإفادة من الدرس الملقن.»

وقلت لـ «سان لو»: «لاتك شديد الحساسية، فقد أصغيت إليك بقدر من النهم كاف»، وأنا أرد بذلك على ما سبق أن قال قبل هذه االأقوال الأخيرة.

وأضاف صديق «سان لو» يقول: إن تفضلت فلم تغضب دونما سبب وسمحت بذلك فسوف أضيف

إلى ما قلته منذ قليل أن المعارك إن هي تمت محاكاتها وتطابقت فما الأمر بسبب نباهة القائد فحسب. فقد يتفق للقائد أن يسوقه أحد أخطائه (كتقدير غير كاف لقيمة الخصم على سبيل المثال) إلى مطالبة قواته بتضحيات مفرطة، تضحيات تنفذها بعض الوحدات بتجرد رفيع إلى حد أن دورها يضحى بذلك شبيهاً بدور هذه الوحدة أو تلك في أي معركة أخرى وسوف يذكرها التاريخ على أنها أمثلة قابلة للمبادلة فيما بينها: فإن اكتفينا بعام ١٨٧٠، فالحرس البروسي في «سان لو» و«التركو»[١] في «فروشفيلر» وفي «فيسنبورغ».

وقال «سان لو»: «قابلة للمبادلة فيما بينها! هذا صحيح تماما! ممتاز! وبانعمّ الذكاء

وما كنت لامبالياً بهذه الأمثلة الأخيرة شأني في كل مرة يبرزون لي العام فيها خلف الخاص. على أن عبقرية القائد، ذلكم ما كان يثير اهتمامي، فقد كنت أود تبين ما تقوم عليه وكيف يتصرف في ظرف معين لايستطيع القائد غير العبقري الصمود فيه أمام الخصم، كيف يتصرف القائد العبقري ليعيد لصالحه المعركة التي مالت كفتها، وهو أمر ممكن تماماً، حسبما يقول «سان لو»، وقد تحقق مرات عدة على يد نابليون. وكيما أفهم أي شيء هي القيمة العسكرية، كنت أطالبهم بمقارنات بين القادة الذين كنت أعرف أسماءهم، من منهم يملك قدراً أكبر من طبيعة القائد، ومواهب المخططّ الحربيّ وإن بلغ بي أن أزعج أصدقائي الجدد الذين ما كانوا يبدون من ذلك شيئا وكانوا يجيبونني بلطف لايعرف الكلل.

كنت أحسني مفصولاً لا عن الليل الكبير الجليدي الذي يمتد في البعيد فحسب، والذي كنا نسمع فيه بين الحين والحين صفارة قطار كانت تزيد فحسب من متعة أن تكون هنا، أو رنات ساعة لاتزال لحسن الحظ بعيدة عن تلك التي ينبغي لهؤلاء الشبان أن يستعيدوا سيوفهم فيها ويعودون– بل عن جميع الشواغل الخارجية كذلك، ولولا القليل، وعن ذكرى السيدة «دو غير مانت»، من جراء لطف «سان لو» الذي يضفي عليه كأنما كثافة أكثر لطف أصدقائه الذي ينضاف إليه، وكذلك من جراء الحر في قاعة الطعام الصغيرة هذه، ومن جراء الأطباق الفاخرة التي تقدم لنا فيها. لقد كانت تولي خيالي من المتعة ما تولي نهمي. فقد كانت رقعة الطبيعة الصغيرة التي استخرجت منها، جرن المحار الخشن الذي بقيت فيه بعض قطرات من الماء المالح، أو غصن كرمة أعقد وأوراق اصفرت حول عنقود عنب، كانت لاتزال تحيط بها أحيانا غير صالحة للأكل شاعرية بعيدة كمثل منظر طبيعي تتعاقب بها في أثناء العشاء إيحاءات بقيلولة في ظل كرمة وبنزهة في البحر. وكان يتم إبراز خاصية الأطباق الفريدة هذه في عشيات أخرى على يد الطاهي وحده، وكان يقدمها في إطارها الطبيعي على غرار عمل فني ؛ فسمكة مطهوة بالمرق الأبيض تجلب في قصعة طويلة من الفخار وتبدو فيها، إذ تبرز فوق نثارات من أعشاب ضاربة إلى الزرقة، متماسكة ولكنها لاتزال تلتوي من جراء أن ألقيت حية في الماء الغالي تحيط بها دائرة من الاصداف، من حيوانات تدور في فلكها كالسراطين والقرادس وبلح البحر، تبدو فيها وكأنها تظهر في قطعة خزفية من أعمال «بيرنار باليسي».

وقال لي «سان لو» نصف هازل ونصف هازل ونصف جاد وهو يشير إلى الاحاديث الجانبية التي لا تنتهي والتي كانت بيني وبين صديقه إنني أغار، وأنا حانق! فهل تراه أوفر ذكاء مني؟ وهل تحبه أكثر مني؟

(١) فرق من الجنود الجزائريين.

وليس والحالة هذه من أمر إلا وتخصه به؟ (إن الرجال الذين يحبون امرأة حباً جماً ويعيشون في مجتمع رجال ميالين إلى النساء يسمحون لانفسهم بمزحات لايجرؤ عليها آخرون ربما أبصروا فيها قدرا من البراءة أقل.)

كانوا يتجنبون، حالما يضحي الحديث عاماً، التحدث عن «دريفوس» مخافة أن يجرحوا شعور «سان لو» بيد أن اثنين من رفاقه أبديا بعد أسبوع كم يبدو غريباً أن يكون من مناصري «دريفوس» بهذا المقدار ويكاد يناهض الروح العسكرية وهو يعيش في بيئة عسكرية إلى هذا الحد، فقلت ومرادي ألا أدخل في التفاصيل: «ذلك لأن تأثير البيئة لايملك ما نظن من أهمية...» كنت أنوي بالتأكيد الوقوف عند هذا الحد وألا أعود إلى الأفكار التي سبق أن عرضتها لـ «سان لو» قبل بضعة أيام. وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أزمع، إذ سبق أن قلت له هذه الكلمات على الأقل بما يقرب أن يكون حرفياً، الاعتذار عن ذلك بأن أضيف: «وهو بالضبط ما كنت في ذلك اليوم...» ولكنني لم آخذ في حسابي الوجه الآخر الذي يملكه اعجاب «روبير» اللطيف بي وببعض الأشخاص الآخرين. فقد كان هذا الإعجاب يكتمل بتمثل تام لأفكارهم إلى حد ينسى معه بعد انقضاء ثمان وأربعين ساعة أن تلك الأفكار لاتصدر عنه. ولذلك حسب «سان لو» من واجبه، فيما يخص طرحي المتواضع وكأنما بالتمام أقام على الدوام في دماغه، وكأني إنما أطوف في مملكته، أن يهنئني بسلامة الوصول تهنئة حارة وأن يقرّني في ما قلت:

- «بالطبع! البيئة لا أهمية لها.»

وأضاف كما لو خشي أن أقاطعه أو ألا أفهمه وبالقوة نفسها:

- «التأثير الحقيقي هو تأثير الوسط الفكري، فالإنسان نتاج فكرته!» وتوقف لحظة وبه ابتسامة من هضم تمام الهضم وترك نظارته تهوي وثبت كالمثقب نظرته عليّ، وقال لي بلهجة متحدية:

- «جميع رجال الفكرة الواحدة متشابهون». ولم يكن يتذكر دونما شك أنني قلت له قبل أيام ما تذكره على العكس تماماً.

لم أكن أصل كل مساء إلى مطعم «سان لو» وأنا في الحالة النفسية ذاتها. فلئن أمكن لذكرى وأمكن لغم أن يهجرانا حتى لا نراهما من بعد فانهما يعودان كذلك ولا يتركاننا أحيانا على مدى فترة طويلة. فثمة عشيات كنت أتاسف فيها على السيدة «دوغيرمانت»، وأنا أجتاز المدينة لأمضي باتجاه المطعم إلى حد يشق عليّ معه التنفس لكأن جزءاً من صدري قد تم بتره على يد مشرّح ماهر ونزع واستبدل به جزء مساو له من العذاب اللامادي وما يقابله من حنين وحب. وعبثاً خيطت القطب على أحسن وجه فأنت يشق عليك العيش حينما يحل الأسف على شخص محل الأحشاء إذ يبدو وكأنه يحتل أكثر مما تحتل من مكان فتحس به أبداً، ثم أي لبس ذلك أن تضطر إلى «تفكير» جزء من جسمك! على أنه يبدو أنك تساوي أكثر من ذلك. فلأقل نسمة تزفر من ضيق، بل من تباريح الهوى. أيضاً كنت أنظر إلى السماء، فإن كانت صافية قلت في نفسي: «ربما كانت خارج المدينة تنظر إلى النجوم عينها، ومن يدري إن كان «روبير» لن يقول لي وهو يدخل إلى المطعم: «ثمة خبر سار، لقد كتبت إليّ عمتي لتوها، إنها تود لقاءك وستأتي عما قليل إلى هنا.» وما كنت أضع في القبة الزرقاء وحدها فكرة السيدة «دو غيرمانت»، فهبة هواء على شيء من العذوبة تمر تبدو وكأنها تحمل إليّ رسالة منها كما بالأمس من «جيلبيرت» في أقماح «ميزيكليز»: فالمرء لا يتبدل بل يقحم في الشعور

الذي يرده إلى كائن ما الكثير من العناصر الغافية التي يوقظها ولكنها غريبة عنه. ثمّ ان شيئا في داخلنا يجهد أبدا في إضفاء حقيقة أكبر على هذه المشاعر الخاصة، أعني في حملها على الاقتران بشعور أكثر عمومية تشارك فيه الإنسانية جمعاء ويبدو به الأفراد والغموم التي يسبّبونها لنا محض فرصة للاتحاد فيه: إنّ ما كان يمزج بعض المتعة بغمي أنني أعلم أنها جزء صغير من الحب الشامل. ما كنت أخلص، دونما شك، مما كنت أحسب أني أتعرفه من الأحزان التي سبق أن أحسست بها بشأن «جيلبيرت»، أو حينما لاتمكث أمي مساء في«كومبريه» في غرفتي وكذلك تذكر بعض صفحات لدى «بيرغوت»، داخلَ العذاب الذي كنت أعانيه والذي لم تكن ترتبط به السيدة «دو غيرمانت» وجفاؤها وغيابها ارتباطاً واضحاً مثلما العلة بالأثر في ذهن العالم، ما كنت أخلص إلى أن السيدة «دو غيرمانت» لم تكن تلك العلة. أفليس ثمة ألم جسدي منتشر يمتد اشعاعاً إلى مناطق خارج القسم المريض ولكنه يهجرها ليتبدد كلياً إن لمس طبيب النقطة المحددة التي يصدر عنها؟ مع أن امتداده قبل ذلك كان يوليه بالنسبة إلينا طابعاً من الإبهام والحتمية إلى حد ظننا معه وقد عجزنا عن تفسيره وحتى عن تحديد مكانه أنه يستحيل شفاؤه. وكنت أقول في نفسي فيما أنا سائر إلى مطعم: «لقد انقضى أربعة عشر يوماً ولم أشاهد السيدة «دو غيرمانت»» (أربعة عشر يوماً، الأمر الذي ما كان يبدو شيئاً هائلاً إلاّ في عيني أنا الذي كان يعد بالدقائق إن تعلق الأمر بالسيدة «دو غيرمانت»). وما كانت تتخذ النجوم وحدها والنسيم في نظري شيئاً من الألم والشاعرية بل تبلغ مبلغها حتى تقسيمات الزمن الحسابية. لكأنما أصبح كل يوم الآن الذروة المتحركة لتلة غير ثابتة المعالم: فأحس من جانب أنني استطيع الانحدار صوب النسيان، وتحملني من الآخر حاجة لقاء الدوقة. وكنت حينا أكثر قربا من هذا أو ذاك لا أملك توازناً مستقراً. وقلت ذات يوم في نفسي: «ربما كان ثمة رسالة هذا المساء». وتجرأت وأنا أقبل للعشاء فسألت«سان لو» قائلاً:

— «ترى، ألا أخبار لديك من باريس؟»

فأجابني متجهم الوجه: «بلى، وإنها لسيئة».

وتنفست الصعداء وقد أدركت أن به وحده غماً وأن الأخبار أخبار عشيقته. ولكني أبصرت بعد قليل أنّ من نتائجها أن تحول فترة طويلة دون أن يصطحبني «روبير» لدى عمته.

لقد علمت أن شجاراً وقع بينه وبين عشيقته إما بالرسائل أو هي جاءت ذات صباح لتلقاه بين موعد قطارين. كانت الشجارات التي وقعت بينهما حتى الآن، حتى تلك الأقل خطورة، كانت تبدو أبداً وكأنما ينبغي أن تظل دون حل. ذلك أنها كانت معكرة المزاج تخبط الأرض بقدميها وتبكي لأسباب متعذرة الفهم شأن الاطفال الذين يعتصمون داخل غرفة مظلمة ولا يحضرون للعشاء ويرفضون أي استفسار ويزدادون انتحاباً فحسب حينما يضربون بعد أن أعيت الحيلة.

وتألم «سان لو» ألما فظيعاً من جراء ذلك الخلاف، على أن هذه طريقة في رواية الأمر بسيطة جداً وهي تفسد بذلك الفكرة التي يجدر أن يكوّنها المرء عن ذاك الألم. فحينما ألفى نفسه وحيداً لايملك من بعد سوى التفكير بعشيقته التي مضت تحمل معها الاحترام الذي أحست به إذ رأته حازماً إلى هذا الحد انتهت صنوف القلق التي انتابته في الساعات الأولى إزاء مالا يمكن تداركه، وإن توقف قلق ما أمر عذب إلى حد أن الخلاف

اتخذ في نظره، بعدما تأكد، شيئاً من ذات نوع السحر الذي قد تكسبه المصالحة. فأما ما أخذ يعذبه بعد ذلك بقليل فألم وعارض ثانويات كان دفقهما باستمرار من ذاته لدى لتفكير بأنها ربما كانت تود التقارب وأن ليس يستحيل أنها تنتظر كلمة منه وأنها بانتظار ذلك ربما فعلت بغية الثأر لنفسها هذا الشيء أو ذاك في إحدى العشيات وفي مكان أي مكان، وأنه يقع عليه محض الإبراق إليها بأنه قادم حتى لايتم الأمر، وأن آخرين ربما كانوا يفيدون من الوقت الذي يسمح بضياعه وأنه قد يفوت الاوان بعد بضعة أيام كيما يلقاها ثانية إذ قد تكون ملك سواه. إنه لايعرف من كل تلك الاحتمالات شيئاً فعشيقته تلتزم صمتاً بلغ مبلغاً جن به ألمه حتى انتهى به إلى التساؤل إن لم تكن تختبئ في «دو نسيير» أو هي ذهبت إلى الهند.

لقد قيل إن الصمت قوّة، وإنه لقوّة رهيبة في يد المعشوقين، بمعنى يختلف تمام الاختلاف. فهي تزيد من قلق الذي ينتظر. ليس ما يدعو إلى الاقتراب من شخص كمثل ما يفصلك عنه، وأي حاجز أكثر امتناعاً من الصمت؟ لقد قيل أيضاً إن الصمت عذاب وهو قادر أن يذهب بعقل مَنْ كان يُفترَض عليه في السجون. ولكن أي عذاب ذاك– وهو أشد من التزام الصمت– أن تكابده على يد من تحبّ! كان «روبير» يقول في نفسه: «ماعساها تفعل حتى تصمت هذا الصمت؟ لاشك هي تخونني مع آخرين؟» وكان يقول في نفسه أيضاً: «ماعساني فعلت حتى تصمت هذا الصمت؟ لعلها تكرهني، وإلى الأبد.» فكان يتهم نفسه. وهكذا كان الصمت يفقده صوابه من جرّاء الغيرة ومن جرّاء تأنيب الضمير والصمت هذا على أية حال أشدّ قسوة من صمت السجون فهو سجن في حدّ ذاته. وإنها لسور لاماديّ دون شك، ولكنه منيع. شريحة الأجواء الفارغة تلك القائمة إزاء المرء، ولكن أشعة بصر الذي تمّ هجره لاتقوى على اجتيازها. هل ثمة إثارة أشدّ رهبة من الصمت الذي لايرينا غائبة بل ألفاً تنصرف كل واحدة منهنّ إلى خيانة أخرى؟ وأحيانا يظنّ «روبير» في انفراج مفاجئ أنّ هذا الصمت سوف يتوقف في الحال وأنّ الرسالة المترقبة سوف تصل. كان يبصرها، إنها قادمة، ويترصّد كلّ ضجة، لقد ارتوى، ويهمس قائلاً: «الرسالة! الرسالة!» وبعدما يلمح على هذا النحو واحة خياليّة من الحنان كان يلفي نفسه يراوح في صحراء الصمت الحقيقية التي لاحدّ لها.

كان يعاني سلفاً جميع آلام قطيعة يظنّ في فترات أخرى أنه يستطيع تجنبها، دون أن يفوته صنف من تلك الآلام، شأن الذين يرتبون أمورهم جميعها بقصد هجرة لن تتمّ فيما يضطرب فكرهم مؤقتاً وهو لايعلم من بعد على أيّ موقع سيقيم في الغد وينفصل عنهم شبيها بذلك القلب الذي ينتزع من صدر مريض ويستمرّ في الخفقان وقد انفصل عن باقي الجسم. وعلى أيّ حال كان ذاك الأمل بأن عشيقته سوف تعود يزوّده بالشجاعة في موالاة القطيعة مثلما الاعتقاد بامكان الرجوع حياً من القتال يساعد على مواجهة الموت. وبما أن العادة أقلّ النباتات البشرية جميعها حاجة إلى أرض مغذّية كيما تعيش وهي أوّل ما يبرز على الصخر الأكثر إقفاراً في الظاهر، فربّما انتهى به الأمر إن لجأ بادئ ذي بدء مخادعاً إلى القطيعة أن يتعوّدها تعوداً صادقاً. بيد أن الحيرة كانت تخلف لديه حالة اقترنت بذكرى تلك المرأة فشابهت الحب. ولكنه كان يرغم نفسه على الإحجام عن الكتابة إليها (ظناً منه بأن العذاب ربّما كان أقل قسوة في العيش بدون عشيقته منه إلى جانبها ضمن بعض الشروط أو أن انتظار اعتذارها بعد الطريقة التي افترقا بها ضروري كيما تحفظ ما كان يحسب أنها تكنّه له إن لم يكن من حبّ فأقله من تقدير واحترام). كان يكتفي بالذهاب إلى الهاتف الذي أقيم منذ قليل في «دونسيير» وباستقاء أخبار من وصيفة أقامها بالقرب من صديقته أو باصدار تعلمياته إليها. كانت تلك الاتصالات معقدة على أية حال وتكلفه وقتاً أكثر لأن عشيقة «روبير» استأجرت لتوّها عقاراً صغيراً في ضواحي

«فيرساي» طبقاً لآراء أصدقائها من الأدباء فيما يخصّ قباحة العاصمة وعلى وجه الخصوص نظراً لحيواناتها، لكلابها وقردها ونغزانها وببغائها وقد كفّ مؤجّرها في باريس عن احتمال أصواتها المستمرة. ولكنه لم يعد ينام بدوره لحظة واحدة أثناء الليل في «دونسيير». وذات مرّة أغفى لديه قليلاً وقد غلبه التعب. ولكنه أخذ يتكلم فجأة، كان يبغي الجري والحؤول دون أمر ما ويقول: «إني أسمعها، ألست...» واستيقظ. قال لي إنه وافاه في الحلم أنه خارج المدينة لدى الرقيب الأول. لقد حاول هذا الأخير أن يقصيه عن قسم من المنزل. وأدرك «سان لو» أن في منزل الرقيب ملازماً شديد الثراء كثير الفسق يعرف أنّه يشتهي صديقته إلى حدّ بعيد. وسمع فجأة في الحلم وعلى نحو واضح الصرخات المتقطعة المنتظمة التي تعوّدت عشيقته أن تطلقها في لحظات اللذّة. وأراد إرغام الرقيب على اصطحابه إلى الغرفة، وكان هذا يمسك به ليمنعه من الذهاب إليها فيما يبدي استياء لهذا القدر من التطفل، استياء قال «روبير» إنّه لن يقوى البتّة على نسيانه.

وأضاف يقول، ولايزال متقطع الأنفاس: «إن حلمي لسخيف».

ولكنّي أبصرت تماماً أنه أوشك عدّة مرّات في أثناء الساعة التي تلت ذلك أن يتصل هاتفياً بعشيقته ليسألها المصالحة. كان والدي قد حصل على الهاتف منذ وقت قريب، ولكني لا أدري إن كان «سان لو» سيفيد كثيراً من ذلك. وما كان يبدو لي لائقاً جداً على أي حال أن أكلّف والدي بل حتى جهازاً موضوعاً في منزلهم فحسب النهوض بدور الوسيط هذا بين «سان لو» وعشيقته مهما استطاعت هذه الأخيرة أن تبلغ من التهذيب ونبل المشاعر. وزال الحلم المزعج الذي وافى «سان لو»، زال قليلاً من ذهنه. وجاء شارد النظرة ثابتها، ليلقاني طوال جميع هذه الأيام الفظيعة التي رسمت بالنسبة إليّ في تعاقبها كأنما المنحنى الرائع لحاجز شقّت صنعته ما انفك «روبير» يتساءل من وراء أي قرار ستتخذه صديقته.

وأخيراً سألته إن كان يرضى بأن يصفح. وما أن أدرك أن القطيعة تم تجنبها حتى رأى مساوئ التقارب كافة. لقد أخذ يتألم مذ ذاك أقل من ذي قبل على أيّة حال وكاد يقبل بألم ينبغي له، ربما بعد بضعة شهور، أن يلقى من جديد لسعته إن بدأت علاقته ثانية. ولم يتردّد طويلاً، ولعلّه لم يتردّد إلا لانّه أيقن أخيراً أنّه يستطيع استعادة عشيقته، أنّه يستطيع، وأنه فاعل إذن. ولكنّها كانت تطالبه كيما تعود إلى هدوئها ألا يعود إلى باريس في الأول من كانون الثاني. بيد أنّه لم يكن يملك الشجاعة في الذهاب إلى باريس دون أن يراها. ثم إنها ارتضت أن تسافر معه، ولكنماكان ينبغي أن يتوافر له في سبيل ذلك عطلة حقيقية لايريد النقيب «دو بورودنيو» أن يمنحه إياها.

– «يزعجني ذلك بسبب الزيارة التي سنقوم بها لعمتي والتي ستؤجل. سوف أعود دونما شك في الفصح إلى باريس.»

– «لن نستطيع الذهاب إلى منزل السيدة «دو غيرمانت» في تلك الفترة لانني سأكون قبل ذاك في «بالبيك». ولكن لا أهمية لذلك على الأطلاق.»

– في «بالبيك»؟ ولكنك لم تذهب إلى هناك إلا في شهر آب»

– «أجل، ولكنهم سيرسلونني هذا العام قبل الأوان بسبب صحتي.»

كان كلّ خوفه أن أسيء الظنّ بعشيقته بعد ما سبق أن رواه لي. «إنها عنيفة لمجرّد أنها بالغة الصراحة كثيرة الصلابة في عواطفها. ولكنها كائن رائع. لست تستطيع تخيّل الرقة الشاعرية التي بها، إنّها تمضي في كل عام لقضاء يوم الأموات في «بروج». أليس ذلك حسنا؟ إن قدرّ لك أن تعرفها في يوم فسوف ترى، إن لديها سمواً...» ولمّا كان مشبعاً بلغة معينة كان يتم التحدث بها من حول تلك المرأة في أوساط أدبية: «إن بها شيئاً عجيبا بل نبوّيا، أنت تدرك ما أبغي قوله، الشاعر الذي كاد يكون كاهنا.»

وبحثت طوال العشاء عن ذريعة تسمح لـ «سان لو» أن يطالب عمته باستقبالي دون أن تنتظر مجيئه إلى باريس. وقد وفرّت لي تلك الذريعة الرغبة التي بي في أن أرى ثانية لوحات لـ «ايلستير»، الفنان الكبير الذي عرفته أنا و«سان لو» في بالبيك. وفي الذريعة على كل حال شيء من الحقيقة لانني إن كنت طالبت فنّ ايلستير في الرسم أن يقودني، أثناء زياراتي له، إلى إدراك أمور أفضل منه وإلى حب ما كان أفضل منه، كذوبان ثلج حقيقي وساحة أصيلة في الريف ونسوة ينبضن بالحياة على الشاطئ (ولعلني كنت طلبت إليه على الأكثر رسم وجوه الواقع التي لم أفلح في تعميقها، كدرب أزاهير الزعرور، لا ليحتفظ لي بجمالها بل ليكشفه لي)، أما الآن فقد كان الابتكار والفتنة في تلك الرسوم، على العكس، ما يثير اشتياقي، وإنما ما كنت أودّ على وجه الخصوص مشاهدته لوحات أخرى لـ «ايلستير».

كان يبدو لي من ناحية أخرى أن أقلّ لوحاته شيء يغاير روائع رسامين حتى أعظم منه. لكأنما أعماله مملكة مغلقة منيعة الحدود ومن مادّة لاثاني لها. وإذ كنت أجمع بنهم المجلات النادرة التي نشرت فيها دراسات حوله، فقد علمت فيها أنه لم يشرع إلا منذ عهد قريب في رسم مناظر ولوحات طبيعة جامدة. ولكنه بدأ بلوحات ميثولوجية (وقد سبق أن رأيت صور اثنتين منها في مشغله) ثم تأثر فترة طويلة بالفن الياباني.

كان بعض أكثر ما يميز أساليبه المختلفة من أعماله في الريف. وهذا البيت أو ذاك في «أندليس» الذي يحوي أحد أجمل مناظره كان يبدو لي قيماً ويبعث فيّ توقاً إلى السفر شديداً بقدر ما تفعل قرية من منطقة «شارتر» نزلت في حجارتها الصوّانية لوحة زجاجية مجيدة. وكنت أحسني مدفوعاً نحو مالك هذه الرائعة الفنية، نحو هذا الرجل الذي يقبع في ركن قصيّ من منزله الوضيع المطل على الطريق وقد احتبس داخله شأن منجّم يسائل واحدة من مرايا هذا العالم التي تشكلها لوحة لـ«ايلستير» ربّما ابتاعها لقاء عدة آلاف من الفرنكات، أحسني مدفوعاً بذاك التواجد الذي يوحد حتى قلوب أولئك الذين يفكرون بالطريقة نفسها التي نفكر بها بصدد موضوع جوهري وحتى طباعهم. وكان قد أشير في إحدى تلك المجلات إلى ثلاثة أعمال فنية هامة لرسامي المفضل على أنها تخص السيدة «دو غيرمانت» فكان إذن أن استطعت باختصار القول، في المساء الذي أعلمني «سان لو» فيه بسفر صديقته من «بروج»، أن ألقي إليه بصدق في أثناء العشاء وفي حضرة أصدقائه وكأنما على نحو مفاجيء:

— «إسمع، تسمح؟ حديث أخير بشأن السيدة التي تحدثنا عنها. أتذكر «ايلستير»، الفنان الذي عرفته في «بالبيك»؟

— «ويحك، بالطبع».

- «أوتذكر إعجابي به؟»

- «تماماً، والرسالة التي قمنا بتسليمه إياها.»

- «حسن، إن واحداً من الأسباب، وليس من أهمها، بل سبب ثانوي أرغب من جرائه التعرف إلى السيدة المذكورة، لازلت تعلم تماماً من هي؟»

- «أجل، أجل! ما أكثر المعترضات!»

- «ذلك أنها تملك، لديها على الأقل لوحة جميلة جداً لـ«ايلستير».

- «عجباً، ماكنت أعرف.»

- «سوف يكون «ايلستير» في الفصح دون شك في «بالبيك»، وأنت تعلم أنه يقضي الآن السنة بكاملها تقريباً على هذا الشاطئ. كنت أودّ كثيراً أن أكون قد رأيت هذه اللوحة قبل رحيلي. لست أعلم إن كنت على صلة وثيقة إلى حد ما بعمتك: أفلا تستطيع أن تطلب إليها، إذ ترفع من قدري في عينيها بحذاقة تحول دون أن ترفض، أن تسمح لي بالذهاب لمشاهدة اللوحة بدونك بما أنك لن تكون هناك؟»

- «اتفقنا، إني أقوم مقامها وسآخذ الأمر على عاتقي.»

- «كم أحبك يا «روبير»!

- «لطيف منك أن تحبني، ولكنك ستبدي اللطف نفسه لو «رفعت التكليف» بيننا مثلما سبق أن وعدت وبدأت تفعل.»

وقال لي أحد أصدقاء «روبير»: آمل ألايكون رحيلك ما تدبران. تدري، إن رحل «سان لو» في إجازة فينبغي ألا يبدّل الامر شيئاً فنحن هنا. ربما تناقصت التسلية إليك ولكننا سنكلف أنفسنا الكثير من العناء لنحاول أن ننسيك غيابه!»

لقد وافاهم بالفعل منذ قليل، فيما كانوا يحسبون أن صديقة «روبير» سوف تذهب بمفردها إلى «بروج»، أن النقيب «دو بورودينو» قد أذن، وكان حتى ذاك؛ من رأي مخالف، بمنح ضابط الصف «سان لو» إجازة طويلة إلى «بروج». وهاك ما حصل. كان الأمير، وهو شديد الاعتزاز بشعره الغزير، زبوناً مواظباً لدى أعظم حلاق في المدينة كان فيما مضى صانع الحلاق الأسبق لنابليون الثالث. وكان النقيب «دو بورودينو» على أحسن علاقة بهذا الحلاق فقد كان بسيطاً مع صغار القوم على الرغم من مسلكه الذي يتصف بالأبّهة. ولكن الحلاق الذي كان للأمير لديه قائمة حساب مضى عليها مالا يقل عن خمس سنوات وتزيدها قوارير «البرتغال» و«ماء الملوك» ومكاوي الشعر والأمواس والجلود بقدرما تفعل مستحضرات غسل الشعر والقصّات، الخ، كان يضع «سان لو» في مكانة أرفع إذ هو يدفع في الحال ويملك عدّة عربات وجياد ركوب. ولما بلغه أسف «سان لو» ألا يستطيع الذهاب مع عشيقته روى عن ذلك بحرارة للأمير المقيد داخل قميص أبيض وفي

اللحظة التي كان الحلاق يمسك فيها برأسه مشدودة إلى الخلف ويهدد عنقه. وانتزعت رواية هذه المغامرات الغرامية لأحد الشبان من شفتي النقيب الأمير ابتسامة تسامح بونابرتية. ومن غير المرجح أنه فكر في قائمة حسابه غير المدفوعة، ولكن توصية الحلاق كانت تشيع السرور في نفسه بقدر ما تعكر مزاجه توصية دوق. كان الصابون لايزال يغطي ذقنه حينما وعد بالإجازة وقد تم توقيعها في المساء نفسه. أما الحلاق الذي من عادته أن يتباهى باستمرار وأن يخص نفسه كيما يستطيع ذلك بصنوف من الجاه مبتدعة كلياً وذلك بقدرة على الكذب خارقة فإنه في المرة التي أدى فيها خدمة مرموقة لـ «سان لو» لم يقم بنشر فضائلها، وليس ذلك فحسب بل هو لم يعد البتة إلى الحديث عن ذلك أمام «روبير» وكأنما الغرور بحاجة إلى الكذب فإن لم يكن مجال لافتعاله تخلى عن مكانه للتواضع.

قال لي جميع أصدقاء «روبير» أنه مهما طالت فترة مكوثي في «دونسيير» أو في أية فترة عدت إليها فإن عرباتهم وجيادهم وبيوتهم وساعات فراغهم ستخصص لي إن لم يكن هنالك فكنت أحس أن هؤلاء الشبان كانوا يضعون ترفهم وشبابهم وقوتهم في خدمة ضعفي.

وأضاف أصدقاء «سان لو» يقولون بعدما ألحوا عليّ بالبقاء: «ولمَ لاتعود في كل عام؟ فأنت ترى أن هذه الحياة البسيطة تروقك! وإنك حتى لتهتم بكل ما يجري في الكتيبة شأن المتقدمين.»

ذلك أني ظللت أسألهم بتلهف أن يصنفوا مختلف الضباط الذين كنت أعرف أسماءهم حسبما يبدو لهم أنهم يستحقون من اعجاب كثير أو قليل، مثلما كنت بالأمس أطالب رفاقي أن يفعلوا بشأن ممثلي المسرح الفرنسي. فإن قال أحد أصدقاء «سان لو» بدلا من أحد الألوية الذين كنت أسمع ذكر اسمهم أبداً على رأس جميع الآخرين، من أمثال «غاليفيه» أو نيغربيه»: «ولكن نيغربيه ضابط قائد من أكثرهم ضحالة» وألقى باسم «بو» أو «جيسلان دو بورغونيي» جديداً ناصعاً طريفاً كنت أشعر بالدهشة السعيدة نفسها التي كنت أحس بها فيما مضى حينما يفضي النجاح المفاجىء لاسم «آموري» غير المألوف أسماء «تيرون» أو «فيفر» المستنفدة. «يفوق حتى نيغربيه؟ ولكن بمَ يفوقه؟ هات مثلا.» كنت أريد أن تكون ثمة فوارق عميقة حتى بين ضباط الكتيبة الأعوان وآمل إدراك جوهر ما يؤلف التفوق العسكري في علة هذه الفوارق. ولعل من بين من كان يهمني أكثر ما يهمني سماع من يتحدث عنهم إنما كان الأمير «دو بوروردينو» لأنه هو من سبق أن أبصرت أكثر ما أبصرت. ولئن كان «سان لو» وأصدقاؤه ينصفون فيه الضابط الجميل الذي يضمن لكتيبته مظهرا لايضاهى إلا أنهم ما كانوا يحبون الرجل لا هو ولا أصدقاؤه. لم يكن يبدو أنهم يضعون السيد سدو بوروردينو»، دون أن يتحدثوا عنه بالطبع بذات اللهجة التي يستخدمونها بحق بعض ضباط ترفعوا بالقِدَم وهم ماسونيون لايخالطون الآخرين ويحتفظون إلى جانبهم بمظهر مساعدين مخيف، لم يكن يبدو أنهم يضعونه في عداد باقي الضباط النبلاء الذين كان والحق يقال يختلف كثيراً عنهم في موقفه حتى إزاء «سان لو». أما هم فكانوا يستغلون كون «روبير» مجرد ضابط صف وأن أسرته المقتدرة تستطيع أن تسعد والحالة هذه أن تتم دعوته لدى رؤساء لعلها لولا ذاك احتقرتهم، فلا يضيعون فرصة يستقبلونه فيها على مائدتهم حينما يكون ثمة واحد من كبار القوم قادر أن يفيد رقيباً شاباً. وحده النقيب «دو بوروردينو» كانت له مع «روبير» علاقات ناجمة عن الوظيفة فحسب، وكانت ممتازة على أيّ حال. ذلك لأن الأمير الذي أصبح مشيراً ودوقاً أميراً على يد

«الامبراطور» والذي صاهر أسرة هذا الأخير بعد ذلك بزواجه ثم تزوج والده ابنة عم لنابليون الثالث وأصبح مرّتين وزيراً بعد الانقلاب، ذلك لأنه كان يحس أنّه على الرغم من ذلك ما كان يساوي الكثير في نظر«سان لو» ومجتمع آل «غير مانت» الذين كانوا لا يساوون شيئاً على وجه التقريب في نظره بما أنّه لم يكن ينظر من وجهة نظرهم. كان يشك أنه– هوْ قريب أسرة «هوهنزوليرن» بالمصاهرة– لم يكن في نظر «سان لو» نبيلاً حقيقياً بل حفيد مزارع. ولكنه كان يعدّ «سان لو» بالمقابل بمثابة ابن رجل تمّ تثبيت إقطاعه الكونتي على يد «الامبراطور»– كانوا يسمون ذلك في حي «سان جيرمان» بالكونتات المجدّدين– وقد التمس منه منصب محافظ ثم منصباً آخر هيناً جداً يأتمر بأمر معالي الأمير «دو بورودنيو» وهو وزير دولة كان يكتب إليه بلقب «صاحب السيادة» وكان ابن شقيق الملك.

وربّما كان أكثر من ابن شقيق. فأميرة «بورودنيو» الأولى اشتهرت بأنها أبدت صنوفاً من اللطف لنابليون الأول الذي لحقت به إلى جزيرة «ايلبا»، والثانية لنابليون الثالث. ولئن كنت تلقى في وجه النقيب الهادئ على الأقل جلال قناع نابليون الاول المدروس إن لم تلق ملامح الوجه الطبيعيّة، فقد كان لدى الضابط، ولاسيّما في النظرة الكئيبة الطيّبة وفي الشارب المتهدّل، ما يذكر بنابليون الثالث. وذلك على نحو ملفت إلى حدّ أنه إذ طلب بعد معركة «سودان» أن يؤذن له باللحاق بالامبراطور وإذ صرفه «بيسمارك» الذي جيء به إليه ورفع هذا الأخير عينيه مصادفة إلى وجه الشاب الذي كان يتأهّب للمغادرة تولته الدهشة فجأة إزاء هذا التشابه فاستدرك واستدعاه ومنحه الإذن الذي حجبه عنه منذ قليل شأنه مع الجميع.

وإن لم يشأ «بورودنيو» أن يحاول التقرّب من «سان لو» ومن أفراد حيّ «سان جيرمان» الآخرين الذين ضمتهم الكتيبة «في حين كان كثير الدعوة لملازمين أوّلين من طبقة العوام وكانا رجلين ممتعين» فلأنه كان يقيم إذ ينظر إليهم جميعاً من عالي عظمته الامبراطورية، بين هؤلاء الأدنى مرتبة هذا الفارق الذي قوامه أن بعضهم كانوا من الأدنين الذين يعرفون أنهم كذلك والذين يفتنه أن يقيم صلات معهم إذ هو خلف مظاهر الجلال بسيط المزاج مرحه، والبعض لآخر من الأدنين الذين يحسبون أنهم أرقى مستوى، الأمر الذي لم يكن يقبل به. وفي حين كان جميع ضباط الكتيبة يرحبون بـ «سان لو» فقد اكتفى أمير «بورودنيو»، وكان المشير «س» قد أوصاه به، بأن يكون لطيفاً معه في أثناء الخدمة التي كان «سان لو» مثالياً فيها على أيّ حال، ولكنه لم يستقبله قطّ في بيته إلا في مناسبة خاصة اضطر فيها إلى حدّ ما أن يدعوه وقد طلب إليه، إذ وقعت في أثناء اقامتي، أن يصطحبني. وأمكنني في ذلك المساء وأنا أشاهد «سان لو» إلى مائدة النقيب، أن أميز بيسر حتّى في سلوك كلّ منهما وأناقته الفارق الكائن بين الارستقراطيتين: طبقة النبلاء القديمة ونبلاء عصر الامبراطورية. كان «سان لو» سليل طبقة سرت معايبها، وإن رفضها بكامل عقله، في دمه ولاترى، بعدما كفّت عن ممارسة سلطة حقيقية منذ مالا يقلّ عن قرن، لاترى من بعد في اللطف الحاني الذي يؤلف جزءا من التربية إلى تنشأ عليها سوى تمرين كركوب الخيل أو لعبة الشيش يمارس دونما هدف جدّيّ وبداعي التسلية خلافاً للبورجوازيين الذين تزدريهم طبقة النبلاء هذه بما يكفي لتحسب أنّ ألفتها ترضي غرورهم وأنّ تماديها قد يشرفهم، كان يأخذ على نحو ودّي يديّ بورجوازي تُمدّ إليه، ولعله لم يسبق له أن سمع باسمه، ويدعوه في حديثه إليه «ياعزيزي» (دون أن يكفّ عن مصالبة ساقية وفكهما وهو ينقلب إلى الوراء لاييالي ورجله في يده). وعلى العكس من ذلك كان الأمير «دو بورودنيو»، وهو من طبقة أشراف لاتزال ألقابها تحتفظ

بمدلولها إذ ظلت تزخر بإقطاعات غنية جاءت جزاء خدمات مجيدة وتعيد إلى الأذهان ذكرى وظائف رفيعة يبسط فيها سلطته على العديد من الناس ويجدر به فيها أن يعرف الناس، كان يعدّ مكانته- إن لم يكن على نحو واضح وفي صفاء وعيه الشخصي فعلى الأقلّ في جسمه الذي كان يكشف عن ذلك بمظهره ومسلكه- بمثابة امتياز فهليّ. لقد كان يتحدّث إلى هؤلاء العوام أنفسهم، الذين ربما ربت «سان لو» على كتفهم وأخذ ذراعهم، بلطف يتسم بالمهابة ويلطِّف من بشاشة الطيبة الطبيعية لديه تحفظ يفيض بالعظمة، وذاك بلهجة بطبعها العطف الصادق والترفّع المقصود في آن معا. كان مردّ ذلك دونما شك أنه كان أقلّ بعداً عن السفارات الكبرى وعن البلاط الذي سبق أن اضطلع فيه والده بأرفع المناصب وحيث قد لايقلى تصرّف «سان لو» ومرفقه على الطاولة ورجله في يده أيّ ترحيب ؛ على أن مردّ ذلك على وجه الخصوص أنّ تلك البورجوازية إنّما كان أقلّ ازدراء لها وأنها كانت الخزّان الكبير الذي استقى الامبراطور الأول منه مشيريه وأشرافه ووجد الثاني فيه أمثال «فولد» و«روهيه».

وليس من شكّ أن اهتمامات والد السيد «دو بورودينو» وجدّه ماكانت لتستطيع البقاء حقاً داخل فكره لغياب الأشياء التي تنصبّ عليها، فهو ابن امبراطور أو حفيد له لم يبق له من أمر غير بسط سلطته على سريّة، ولكن مثلما تظلّ روح الفنان تكيف التمثال الذي نحته على مدى سنوات كثيرة بعدما تنطفىء جذوته، كانت تلك الاهتمامات قد تكونت في داخله واتخذت شكلاً مادياً وتجسدت فهي ما كان يعكسه وجهه. فبحيويّة الامبراطور الأول في صوته كان ينحي باللائمة على أحد العرفاء، وبكآبة الثاني الحالمة كان ينفث دخان لفافة. وحينما كان يمرّ في شوارع «دونسيير» بثياب مدنية ينطلق بريق في عينيه من تحت القبّعة يتألق به من حول النقيب حضور ملكيّ متخفّ، وبرتجف القوم حينما يدخل مكتب الرقيب الأول يتبعه المساعد وضابط الإطعام وكأني بهما «بيرتييه» و«ماسّينا»[1]. وحينما كان يختار قماش بنطال لسريّته كان يثبت على العريف الخياط نظرة قادرة أن تفسد خطط «تاليران» وتخدع «الكسندر». ويتوقف أحياناً وهو يستعرض إقامة إنشاءات ويسلم للأحلام عينيه الزرقاوين الرائعتين ويفتل شاربه فكأني به يبني «بروسيا» و«ايطاليا» جديدتين. ولكنّه يلفت الانتباه في الحال، وقد انقلب نابليون الأول، إلى أنّ المتاع لم يكن ملمّعاً وأنّه يريد تذوّق طعام الجنود. وكان يأمر في بيته وفي حياته الخاصة بأن تقدّم لنساء ضباط بورجوازيين (شرط ألاّ يكونوا ماسونيين) لا آنية طعام من خزف «سيفر» الأزرق الملكي فحسب ممّا يليق بالسفراء (وهي هبة نابليون لوالده وكانت تبدو أوفر قيمة في المنزل الريفي الذي كان يسكنه في المنتزه العام، شأن ذلك الخزف الصيني ذي القطع النادرة التي يتأملها السيّاح بمتعة أكبر داخل الخزانة القروية لقصر ريفيّ قديم تمّ تحويله مزرعة كثيرة الزوّار مزدهرة) بل هدايا أخرى كذلك قدّمها الامبراطور: تلك التصرّفات الكريمة الرائعة التي ربما أتت بالعجب في هذه الممثلية أو تلك، لو لم يكن«كرم المحتد» في نظر البعض إنما يعني أن يحكم على المرء مدى حياته كلّها بأشدّ صنوف الإبعاد ظلماً، والحركات الأليفة والطيبة والظرف والذخيرة الزاخرة بالأسرار المشعة التي لاتزال حيّة. ذخيرة العين التي تحتبس خلف مينا زرقاء ملكية هي الأخرى صوراً مجيدة.

أمّا بصدد العلاقات البورجوازية التي كان يقيمها الأمير في «دونسيير» فيجدر أن نقول مايلي: كان

(١) من ضباط نابليون بونابرت الاول.

العقيد يعزف على البيانو عزفاً رائعاً وزوجة رئيس الأطباء تغني وكأنها نالت جائزة أولى في المعهد الموسيقي. كان هذان الزوجان الأخيران يتناولان طعام العشاء كلّ أسبوع في منزل السيد «دو بورودنيو» شأن العقيد وزوجته كان ذلك يرضي غرورهم بالتأكيد إذ يعلمون أنّ الأمير إنمّا يتناول طعام العشاء في منزل السيدة «دو بورتاليس» وفي منزل آل «مورا» الخ، حينما يذهب في إجازة إلى باريس. ولكنّهم كانوا يسرّون فيما بينهم: «إنّه مجرّد نقيب وهو شديد السعادة من أننا نجيء إلى منزله، وإنّه على أي حال صديق حقيقي لنا.» ولكن حينما عيّن السيد «دو بورودينو» في مدينة «بوفيه»، وكان يقوم منذ فترة طويلة بمساع للاقتراب من باريس، قام بنقل أثاث بيته ونسي الزوجين الموسيقيّين نسياناً تاماً مثلما نسي مسرح «دونسيير» والمطعم الصغير الذي كثيرا ما كان يطلب منه إحضار غدائه، ولم يبلغ العقيد ولارئيس الأطبّاء اللذين كثيرأما تناولا على مائدته طعام العشاء، لم يبلغهما طوال حياتهما شيء من أخباره، مما أثار حفيظتهما.

وذات صباح أقرّ لي «سان لو» أنه كتب إلى جدتي ليزوّدها بأخباري ويوحي إليها بفكرة التحدّث إليّ بما أنّ الخدمة الهاتفيّة أخذت تعمل بين «دونسيير» وباريس. وقصارى القول انها عزمت أن تطلبني على الهاتف في اليوم نفسه فأشار عليّ بالحضور إلى البريد في حوالي الرابعة إلاّ ربعاً.

ولم يكن استعمال الهاتف في تلك الحقبة قد شاع بعد شيوعه اليوم ومع ذلك فإنّ العادة تستغرق وقتاً قصيراً جداً لتجريد القوى المقدّسة التي يتم اتصالنا بها من أسرارها إلى حدّ أنّ الفكرة الوحيدة التي راودتني، حين لم أحصل على الاتصال في الحال. هي أنّ الأمر تطاول كثيراً ويبلغ من الازعاج حداً وكاد يخطر لي أن أتقدّم بشكوى: فما كنت أجد، شأننا كلنا الآن، على ما أشتهي من سرعة في تغيراتها المفاجئة هذه الفتنة الرائعة التي تكفيها بضع لحظات حتىّ يظهر بالقرب منّا الشخص الذي كنّا نبغي التحدّث إليه، خفياً ولكنه هنا، الشخص الذي نراه فجأة ينقل مئات الفراسخ (هو وكامل الأجواء التي يظلّ مغموسا فيها) بالقرب من أذننا لحظة قضت نزواتنا بذلك، وهو باقٍ إلى طاولته في المدينة التي يسكنها (وهي باريس فيما يخصّ جدّتي) تحت سماء تختلف عن سمائنا وفي طقس ليس واحداً بالضرورة وسط ظروف واهتمامات نجهلها ويزمع هذا الشخص أن ينقلها إلينا. وإننا لنشبه رجل الحكاية الذي تبدي ساحرة لعينيه، بناءً على الأمنية التي صدرت عنه، وفي ضياء خارق. جدّته أو خطيبته وهي تقلبّ صفحات كتاب وتسكب دموعاً وتقطف زهوراً على مقربة من المشاهد مع أنها بعيدة جداً وفي المكان الذي تقيم فيه بالحقيقة. ولايقع علينا، كيما تتمّ هذه الأعجوبة، إلاّ أن ندني شفتينا من اللوحة السحرية الصغيرة ونناديـ ويطول الأمر كثيراً في بعض الأحيان، إنيّ مقرّ بذلك - «بالعذارى اليقظات» اللواتي نسمع صوتهنّ كل يوم ولا نرى وجههنّ في يوم وهنّ ملائكتنا الحرّاس في الظلمات المدوّخة التي يراقبن أبوابها مراقبة الغيارى، المقتدرات اللواتي يطلع بهنّ الغيّاب إلى جانبنا دون أن تتاح رؤيتهم، بنات الخفاء اللواتي لايفتأن يفرغن أجاجين الأصوات ويملأنها ويتناقلنها، إلهات الثأر الساخرات اللواتي يصحن بنا قاسيات، لحظة نهمس بسرّ في أذن صديقة آملين أن ليس من يسمعنا: «إنني مصغية»، خادمات «السرّ» الغاضبات أبداً، كاهنات اللامرئيّ المحاذرات، آنسات الهاتف!

وما أن يدوّي نداؤنا في الليل المليء بالأشباح الذي تنفتح آذاننا وحدها عليه حتى تبرز ضجّة طفيفة- ضجّة غامضة - وهي ضجّة المسافات المقهورة ويحدّثنا صوت الحبيب.

هذا هو، هذا صوته يحدّثنا، إنه ههنا. ولكن ما أبعده عنا! وكم مرّة لم استطع الاصغاء إليه دونما قلق كما لو كان بي، إزاء استحالة أن أرى قبل ساعات طويلة من السفر تلك التي كان صوتها قريباً جداً من أذني، إحساس أفضل بما في ظاهر التقارب الأكثر عذوبة من خيبة أمل وأيّة مسافة يمكن أن تفصلنا عن الأحباء لحظة يبدو أنه يكفينا أن نمدّ يدنا كيما نمسك بهم. وإنّه لحضور حقيقي ذلك الصوت القريب جداً- داخل الفراق الفعلي! ولكنه إلى ذلك استباق لفراق أبديّ! فكثيراً ما بدا لي وأنا أصغي على هذا النحو دون أن أشاهد من كانت تحدّثني من البعيد البعيد أن ذلك الصوت يهتف من الأعماق التي لايعود المرء منها، وعرفت القلق الذي سيعتريني ذات يوم حينما يعود صوت على هذا النحو (وحيداً لايرتبط من بعد بجسد لن يتأتى لي أن أراه ثانية في يوم) فيهمس في أذني كلمات وددت لو أقبلها لدى مرورها بين شفتين استحالتا تراباً إلى الأبد.

ولم تقع المعجزة للأسف في «دونسيير» في ذلك اليوم. فحينما بلغت مكتب البريد كانت جدّتي قد طلبتني ودخلت إلى غرفة الهاتف وكان الخط مشغولاً إذ كان ثمّة أحدهم يتكلم ولايدري دونما ريب أن ليس هناك من يجيبه، فقد أخَذْتُ قطعةَ الخشب تلك حينما جذبت إليّ السمّاعة تتكلمّ كما يفعل كراكوز، وأسكتها مثلما يتّم الأمر في مسرح العرائس باعادتها إلى مكانها، ولكنّها كانت تعاود ثرثرتها ما أن أعيدها بالقرب منّي. وانتهى بي الأمر بعد استنفاد كل الوسائل إلى اعادة السمّاعة نهائياً فقضيت بذلك على اختلاجات هذا القسم الرنّان الذي ثرثر حتى الثانية الأخيرة. ومضيت فجئت بالمستخدم الذي قال لي أن انتظر لحظة ؛ ثم تكلّم، وبعد بضع لحظات صمت سمعت فجأة ذاك الصوت الذي حسبت خطأً أنّني أعرفه تمام المعرفة لأن ما كانت تقوله لي جدّتي حتى ذاك كلّ مرّة تحدّثت فيها إليّ تابعته على الدوام على أنغام وجهها المفتوحة حيث تشغل العينان مكاناً كبيراً. أما صوتها نفسه فقد كنت أسمعه اليوم للمرّة الأولى. واكتشفت إلى أيّ حدّ كان ذلك الصوت عذباً لأن ذلك الصوت كان يبدو لي وقد تغيّر في أحجامه منذ اللحظة التي أضحى فيها كلاً واحداً وأخذ يبلغ مسامعي وحده ودون مرافقة ملامح الوجه. ولعلّه لم يكن عذباً إلى هذا الحدّ في يوم لأن جدتي ظنّت، وقد أحست أنيّ بعيد وتعيس، أنها تستطيع الاستسلام لتدفق حنان كانت تكتمه وتخفيه بالعادة بداعي مبادئ تربوية. كان عذباً، ولكن كم كان حزيناً كذلك بسبب عذوبته نفسها بادئ الأمر وقد تخلص أكثر مما أمكن أن يتم ذلك للقليل من الأصوات البشرية من كلّ خشونة ومن كل عنصر مقاومة للآخرين وكل أنانية! كان يبدو في كل لحظة، هو الهش لفرط رقته، أنه على شفا أن ينكسر ويفيض دفقة صافية من الدمع. ثم إنني. لاحظت فيه للمرّة الأولى، وقد أضحى وحيداً بالقرب منّي أراه دون قناع الوجه، الغموم التي صدّعته في بحر حياتها.

وعلى أيّ حال هل كان الصوت بمفرده ما كان يشيع فيّ هذا الانطباع الجديد الذي يمزقني، لأنه كان وحيداً؟ لا، بل بالأحرى لأن عزلة الصوت هذه كانت بمثابة رمز، بمثابة استذكار، وأثر مباشر لعزلة أخرى، عزلة جدّتي التي انفصلت عنّي للمرّة الأولى. إن ضروب الأمر أو النهي التي كانت توجهها إليّ في كل لحظة في الحياة العادية، وسأم الطاعة أو حمى التمرّد وكلاهما كان يشلّ الحنان الذي أحس به نحوها، قد زالت في هذه اللحظة بل ربّما أمكن أن تزول في المستقبل (بما أن جدّتي لم تعد تصرّ على الاحتفاظ بي إلى جانبها وتحت سيطرتها وكانت تنقل إليّ أملها في أن أبقى نهائياً في «دونسيير» أو أن أطيل إقامتي فيها في جميع الأحوال أطول فترة ممكنة إذ يمكن أن يحسّن ذلك من صحتي وعملي) ؛ ولذلك فإن ما كان تحت

هذا الجرس الصغير الذي أقرّبه من أذني إنما كان مودّتنا المتبادلة وقد زالت عنها ضغوط متعارضة كانت في كل يوم توازنها فاذا هي مذ ذاك لاتقاوم وتدفعني بكليّتي. لقد بعثت بي جدّتي إذ أشارت عليّ بالبقاء حاجة متلهفة مجنونة بأن أعود. لقد بدت لي تلك الحرية التي تدعها لي مذ ذاك والتي لم يراودني في يوم أنّها تستطيع القبول بها، بدت لي فجأة في مثل ما يمكن أن تكون عليه حريتي من أسى بعد موتها (يوم أظل على حبها وتكون قد تخلت عني إلى الأبد). وصرخت قائلاً: «جدّتي، ياجدتي» ووددت لو أقبلها، بيد أنه لم يكن بالقرب مني سوى ذاك الصوت، ذاك الطيف المتهرّب تهرب الطيف، الذي ربما عاد يزورني بعدما تكون جدّتي قد ماتت. «حدّثيني» ؛ ولكنّما حدث إذ ذاك أن كففت فجأة عن سماع ذاك الصوت وقد تركني أكثر وحدة من ذي قبل. لم تعد تسمعني جدّتي، لم تعد على اتصال بي، لقد توقف قيامنا الواحد قبالة الآخر، وأن يظل واحدنا يسمع الآخر، وواليت النداء وأنا أتلمس الليل وأحسّ أن نداءات لها كان ينبغي أن تضيع هي الأخرى. وكان يهزّني القلق نفسه الذي أحسست به بالأمس في يوم كنت فيه طفلاً وفقدتها داخل الجمهور، والقلق من ألاّ أجدها أقلّ من الأحساس بأنها تبحث عني، والإحساس بأنها كانت تقول لنفسها إنّي أبحث عنها. قلق يشبه إلى حدّ ما القلق الذي سينتابني يوم يتحدّث المرء إلى من لا يستطيعون الاجابة من بعد وعمّن يودّ على الأقلّ كثيراً أن يسمعهم كلّ مالم يقله لهم والتأكيد بأنه لايتعذّب. كان يخيل إليّ أنّه مذ ذاك طيف حبيب سمحت منذ قليل أن يضيع بين الأطياف وأني وحدي أمام الجهاز أو آليّ الترداد دونما جدوى: «جدّتي، ياجدتي» مثلما يردّد «أورفيوس»، وقد بقي وحده اسم الميتة. وقرّرت مغادرة البريد والذهاب لملاقاة «روبير» في مطعمه كي أقول له إني ربّما كنت على وشك تسلمّ برقية قد تضطرّني للعودة وأودّ لذلك معرفة مواعيد القطارات تحسباً لكلّ طارئ. ومع ذلك فقد وددت قبل اتخاذ ها القرار أن أضرع مرّة أخيرة إلى بنات الليل ورسولات الكلمة والآلهات اللواتي لا وجه لهنّ. ولكنّ الحارسات المتقلّبات الطباع لم يشأن يفتحن لي الأبواب المسحورة أو هنّ لم يستطعن ذلك دون شك؛ وعبثاً ضرعن دونما كلل حسب عادتهنّ إلى مخترع الطباعة الجليل والأمير الشاب هاوي الرسم الانطباعي والسائق معاً (وكان ابن أخ للنقيب «بورودينو») فقد ترك «غوتنبرغ» و«فاغرام» توسلاتهنّ دون جواب ومضيت وأنا أحس بأنّ اللامنظور المبتهل إليه سوف يظلّ أصمّ.

ولدى وصولي بالقرب من «روبير» وأصدقائه لم أقرّ لهم بأنّ فؤادي لم يعد معهم وأنّ رحيلي قد تقرّر قراراً لا رجعة فيه. وبدا أنّ «سان لو» يصدقني، ولكني علمت مذ ذاك أنه أدرك منذ الدقيقة الأولى أنّ حيرتي متصنعة وأنّه لن يلقاني في الغد. وفيما كان أصدقاؤه يبحثون معه في لوحة الدليل، ويدعون أصناف الطعام تبرد إلى جانبهم، عن القطار الذي يمكن أن استقله للعودة إلى باريس. وتتناهى إلى الاسماع في الليل المنجم البارد صفارات القاطرات، لم أعد بالتأكيد أحس بالطمأنينة نفسها التي سبق أن أولتني إيّاها ههنا على مدى العديد من الأمسيات صداقة هؤلاء ومرور تلك في البعيد. مع أنها لم تقل عددا هذا المساء وقد اتخذت شكلاً آخر في هذه الغرفة نفسها. لقد أضحى رحيلي أقل إرهاقاً لي حين لم أعد مضطراً إلى التفكير به وحدي وحين شعرت أنه يستخدم في تحقيق ما يجري النشاط الأوفر طبعيّة والأكثر سلامة، نشاط أصدقائي الحازمين رفاق «روبير» وتلك الكائنات القوية الأخرى، عنيت القطارات التي كان غدوها ورواحها صبح مساء من «دونسيير» إلى باريس يفتتان، باتجاه الماضي، ما كان في انفصالي الطويل عن جدّتي من كثافة شديدة لاتطاق، إمكانات عودة يومية.

وقال لي «سان لو»ضاحكا: «لست أشكّ في صحة كلامك وأنك لاتعتزم الرحيل بعد، ولكن تصرّف كما لو أنك ترحل وتعال فودّعني صباح غد في ساعة مبكرة، وإلاّ تعرّضتُ لخطر أنْ لا أراك. إني أتناول طعام الغداء في المدينة فقد صرّح لي النقيب بذلك، وينبغي أن أكون عدت إلى الثكنة في الساعة الثانية لأننا سنذهب في مسيرة طوال النهار. وليس من شك في أنّ السيد الذي أتغدّى في منزله على بعد ثلاثة كيلومترات عن هنا سوف يعيدني في الوقت المناسب لأكون الساعة الثانية في الثكنة.»

وما أن قال هذه الكلمات حتّى جاؤوا يطلبونني من فندقي. لقد أرسلوا في طلبي من البريد إلى الهاتف. وأسرعت إلى هناك إذ كان يزمع أغلاق أبوابه. كانت لفظة «الهاتف الخارجي» تتردّد دون انقطاع في الأجوبة التي تأتيني على لسان المستخدمين. كنت في قمّة الاضطراب لأن جدّتي هي التي أرسلت في طلبي. كان المكتب يزمع إغلاق أبوابه. وأخيراً تمّ لي الاتصال «أهذه أنت ياجدّتي؟» وأجابني صوت امرأة بلكنة انكليزية ظاهرة: «أجل، ولكنني لا أتعرف صوتك» ولم يتم لي أكثر منها تعرّف صوت من كان يحدثنّي، ثم إن جدتي لم تكن تخاطبني بالجمع. وأخيراً أتضح كلّ شيء.ذلك أن الشاب الذي أرسلت جدّتة تطلبه إلى الهاتف كان يحمل اسما يكاد يماثل اسمي وكان يقطن في أحد ملاحق الفندق. وإذ نادت عليّ في اليوم نفسه الذي ابتغيت فيه الاتصال تلفونياً بجدّتي فإني لم أشكّ لحظة واحدة أنها هي التي طلبتني، وكان أن أرتكب البريد والفندق معاً خطأ مزدوجاً من جراء المصادفة المحضة.

وفي صبيحة الغد تأخرّت ولم ألق «سان لو» الذي كان قد ذهب لتناول طعام الغداء في هذا القصر المجاور. وفي نحو الساعة الواحدة والنصف كنت استعدّ للذهاب إلى الثكنة على سبيل الاحتياط لأكون هناك حال وصوله حينما رأيت وأنا أجتاز أحد الشوارع الكبيرة المؤدّية إليها وفي ذات الاتجاه الذي كنت ماضياً فيه عربة اضطرتني لدى مرورها بالقرب مني إلى التنحي عن الطريق. كان يقودها ضابط صف فوق عينه نظارة،فإذا هو «سان لو» كان إلى جانبه الصديق الذي تناول طعام الغداء فبيته والذي سبق أن التقيته ذات مرّة في الفندق حيث كان «روبير» يتعشى. ولم أجرؤ على مناداة «روبير» إذ لم يكن وحيداً، إلا أني أردت أن يتوقف ليحملني معه فلفتُّ انتباهه بتحية واسعة يفترض أن الدافع إليها وجود مجهول. كنت أعرف «روبير» قصير النظر، على أني ظننت أنّه لو يراني فلن يفوته أن يتعرّفني. ولكنه أبصر التحية وبادلني إيّاها ولكن دون أن يتوقف . وابتعد بأقصى سرعة دون أن يبتسم ابتسامة واحدة ودون أن تهتزّ عضلة في وجهه، واكتفى بأن تظلّ يده مرفوعة على رفرف قبّعته مدّة دقيقتين كما لو أنّه يجيب جندياً لم يعرفه. وجريت حتى الثكنة، ولكنها كانت لاتزال بعيدة ، وحينما وصلت كانت الكتيبة تتشكل في الباحة فلم يسمح لي بالبقاء فيها، وقد غمني أن لم أتمكّن من وداع «سان لو». وصعدت إلى غرفته فلم يكن فيها، واستطعت أن استعلم عنه جماعة من الجنود المرضى ومجندّين تمّ إعفاؤهم من السير، حامل البكالوريا الشاب وأحد المتقدّمين وكانوا ينظرون إلى الكتيبة في تشكلها.

وسألت قائلاً:

— «ألم تروا الرقيب «سان لو» ؟

فقال المتقدّم: «لقد نزل ياسيدي»

وقال حامل البكالوريا: «لم أره».

وقال المتقدّم دون أن يعيرني من بعد انتباها: «لم تره. لم تر «سان لو» الشهير، ما آنقه ببزّته الجديدة! وحينما تقع عين النقيب على ذلك، إنّه قماش ضباط!»

– «آه! إنك حلو النكتة، قماش ضباط»، يقول حامل البكالوريا الشاب الذي لم يكن يشارك في تدريبات السير، وهو مريض يلازم غرفته، وكان يحاول، ولا تخلو المحاولة من بعض القلق، أن يبدي جرأة مع المتقدمين، «قماش الضباط هذا قماش عاديّ».

وسأل المتقدّم الذي تحدّث عن البزّة غاضباً: «ياسيد؟»

لقد أثار سخطه أن شكّ حامل البكارلويا أن تكون البزّة من قماش الضباط، ولكنه، وهو البريتانيّ المولود في قرية تدعى «بانغيرن ستيريدن» والذي تعلّم الفرنسية بصعوبة من كان انكليزياً أو ألمانيّا، حينما كان يحس أنّه تحت وطأة انفعال ما، كان يقول مرتين أو ثلاثاً «ياسيد» كي يدع لنفسه وقتاً يلقى به كلماته، ثم يستسلم بعد هذه التهيئة لبلاغته مكتفياً بترداد بضع كلمات يعرفها أكثر من سواها. ولكن دون عجلة وباتخاذ الاحتياطات إزاء قلة اعتياده في اللفظ.

عاد يقول بغضب كانت تتنامي به شيئاً فشيئا شدة إلقائه وبطئه معاً: «آه! إنه قماش عادي؟ آه! إنه قماش عاديّ! حينما أقول لك إنه قماش ضباط، حينما أقو – ل ذ – لك، بما أني أقو – ل ذ – لك فمعناه أني عالم به، فيما أرى. ولسنا ممن يقال لهم كلام معسول بجوز الهند.»

وقال حامل البكالوريا وقد غلبته هذه الحجج: «آه! إن كان الأمر كذلك».

– «ويحك، هذا هو النقيب يمرّ. لا، انظر قليلاً إلى«سان لو»، وهذه الطريقة في قذف ساقه ؛ هاك رأسه. أتراه ضابط صف؟ والنظارة، إنها تنطلق في كل مكان تقريباً!»

وطلبت إلى هؤلاء الجنود الذين لم يكن حضوري ليثير اضطرابهم أن اتطلع بدوري من النافذة. فلم يمنعوني عن ذلك ولم يكلفوا أنفسهم عناء. ورأيت النقيب «بورودنيو» يمرّ بجلال وهو يحمل جواده على الخبب ويبدو وكأنه يتوهمّ أنّه يمعركة «أوستيرليتز». وكان بعض المارّة مجتمعين أمام حاجز الثكنة المشبك ليشاهدوا الكتيبة خارجة. كان لا بدّ أن يكون الأمير، وهو منتصب القامة على ظهر جواده والوجه على شيء من السمنة والوجنتان ممتلئتان على نحو امبراطوري والعين ثاقبة، كان لابدّ أن يكون ضحية هلوسة ما كما كانت حالي في كلّ مرّة كان يبدو لي، بعد مرور الحافلة الكهربائية، أن السكون الذي يلي جلجلته يسري فيه ويخدّده خفقان موسيقيّ مبهم. لقد غمني أن لم أودّع «سان لو» ولكنّي رحلت مع ذلك لأن همي الوحيد كان العودة بالقرب من جدّتي: فحينما كنت أفكر حتى ذلك النهار وفي تلك المدينة الصغيرة بما كانت تفعله جدتي وحدها، كنت أتمثلها مثلما كانت معي تماماً ولكنّي أحذف نفسي من الصورة دون أن أضع في الحسبان آثار هذا الحذف عليها. وكان عليّ الآن أن أتخلص بأسرع ما يمكن، وأنا بين ذراعيها، من الشبح الذي لم أرتب بوجوده حتى ذاك والذي يوحي به صوتها على نحو مفاجيء، شبح جدّة افترقت عنّي افتراقاً

حقيقياً وسلّمت بالأمر، وبدت معمّرة، الأمر الذي لم أكن بعد عرفته، وقد تسلمت رسالة منّي في الشقة الخالية التي سبق أن تخيلت أمي فيها حينما رحلت إلى «بالبيك».

كان ذلك الشبح، وأسفي، هو الذي أبصرته حينما دخلت إلى الصالة دون أن تكون جدّتي قد أخطرت بعودتي فوجدتها تقرأ. كنت هناك، أو لم أكن بعد هناك بالأحرى بما أنها ما كانت تعلم بالأمر، وكما هي حال امرأة نفاجئها وهي آخذة في انجاز شغل سوف تخفيه إن نحن دخلنا، كانت مستسلمة لأفكار لم يسبق أن كشفت عنها البتّة أمامي. ولم يكن منّي هناك - بفضل هذا الامتياز الذي لايدوم والذي نتوافر لنا فيه، في أثناء اللحظة القصيرة التي تتمّ فيها العودة، القدرة على أن نشهد فجأة غيابنا الخاص -سوى الشاهد، سوى المراقب بقبعته ومعطف السفر. الغريب الذي من غير أهل البيت، المصوّر الذي جاء يلتقط صورة للأماكن التي لن نراها من بعد، فما تمّ آلياً في تلك اللحظة في عينيّ حينما أبصرت جدّتي إنّما كان صورة فوتوغرافية. نحن لا نرى أحبّاءنا البتّة إلاّ داخل المنظومة الحية والحركة الدائمة التي تطبع حناننا المستمرّ الذي يحمل في زوبعته الصور التي يزوّدنا بها محيّاهم قبل أن يسمح لها بالدخول إلينا ويردّها إلى الفكرة التي نكوّنها عنهم على الدوام ويحملها على الالتصاق بها ومطابقتها. فكيف لاأغفل، بما أن جبين جدّتي ووجنتيها إنّما كنت أحمّلها ما كان الأكثر رقة والأوفر استمراراً في روحها، كيف لا أغفل بما أن كل نظرة معتادة استنباء أموات، وكل وجه نحبه مرآة الماضي. كيف لا أغفل فيها كلّ ما أمكن أن يتثاقل لديها ويتغير، في حين تهمل عيننا، إن يثقلها الفكر، حتى في أقلّ مشاهد الحياة إثارة لاهتمامنا، تهمل، مثلما قد تفعل مأساة كلاسيكية، جميع الصور التي لاتسهم في سير الحوادث ولا تحتفظ إلاّ بالتي تساعد على جعل هدفها في متناول الإدراك؟ فإن تكن نظرة عدسة محض مادية وصفيحة فوتوغرافية بدلاً من عيننا فإنّ ماسوف نرى آنذاك في باحة المعهد مثلاً بدلاً من خروج أحد أعضاء المجمع اللغويّ يريد استدعاء عربة إنّما هو ترنّحة وصنوف احترازه كي لايهوي إلى الخلف ومسار سقوطه كما لو كان ثملاً أو كانت الأرض مغطّاة بالجليد. والأمر واحد حينما تحوّل خدعة قاسية للصدفة دون أن تبادر مودّتنا الذكية البارّة في الوقت المناسب لتخفي عن أبصارنا ما ينبغي ألاّ تتأمل فيه البتّة حينما تسبقها عيوننا التي تعمل، بعدما تصل المكان على رأس القادمين وتتصرفّ على هواها، تعمل آلياً على نحو ما تعمل الأفلام وترينا، بدلاً من المحبوب الذي لم يعد موجوداً منذ فترة طويلة ولكنها لم تشأ في يوم أن يكشف لنا عن موته، الكائن الجديد الذي كانت تضفي عليه مئة مرّة في اليوم شبّهاً عزيزاً كاذباً. ومثلما المريض الذي لم ينظر إلى نفسه منذ فترة طويلة ويؤلف في كل لحظة الوجه الذي لايراه وفقاً للصورة المثالية التي يحملها عن ذاته في فكره، مثلما يتراجع إذ يبصر في مرآة وسط وجه جاف مقفر الارتفاع المائل الورديّ لأنف عملاق كأحد أهرام مصر - كذلك أبصرت أنا الذي كانت جدّته بالنسبة إليه لاتزال وكأنها ذاته، أنا الذي لم يرها قطّ إلاّ في نفسه وعلى الدوام في الموضع عينه من الماضي عبر شفافية الذكريات المتلاصقة المتراكبة، أبصرت في صالتنا التي أصبحت جزءاً من عالم جديد، عالم الزمن الذي يعيش فيه الغرباء الذي نقول عنهم «إنّه بادي الشيخوخة»، أبصرت، للمرّة الأولى وعلى مدى لحظة فحسب، إذ سرعان ما اختفت، على أريكة تحت مصباح الضوء امرأة عجوزاً متهالكة ما كنت أعرفها، محمرّة متثاقلة عاميّة المظهر مريضة حالمة تنقل فوق كتاب عينين يطلّ منهما بعض الجنون.

كان «سان لو» قد قال لي لدى طلبي الذهاب لرؤية لوحات «ايلستير» التي تملكها السيدة «دو

غيرمانت»: «إنني أقوم مقامها.» وكان للأسف وحده بالنسبة إليها الذي استجاب. فإننا ننوب بيسر عن الآخرين حينما نرتب في خاطرنا الصورة الصغيرة التي تمثلهم فنحركّها على ما نشتهي. وليس من شكّ أننا نأخذ في حسباننا حتى في تلك اللحظة الصعوبات الناجمة عن طبيعة كل واحد، وهي مختلفة عن طبيعتنا، ولايفوتنا أن نلجأ إلى هذه الوسيلة أو تلك في التأثير القويّ عليها، من اهتمام أو اقناع أو انفعال يبطل مفعول الميول المعاكسة. ولكن تلك الاختلافات عن طبيعتنا إنّما تتخيلها طبيعتنا نفسها، وتلك الصعوبات إنّما نرفعها نحن، وتلك الدوافع الفعالة إنّما نعايرها نحن، وتلك الحركات التي حملنا الشخص الآخر في فكرنا على تردادها والتي تجعله يتصرّف على هوانا إن نحن ابتغينا حمله على تنفيذها في الحياة تبدّل كلّ شيء واصطدمنا بصنوف من المقاومة غير متوقعة ويمكن ألاّ نتغلبّ عليها. وإنّ من أكثرها قوةً دونما شكٍّ تلك التي يمكن أن ينميّها لدى امرأة لاتحبّ القرف النتن الذي لايقاوم والذي يوحي به إليها الرجل الذي يحبّها: فلم تطلب إليّ عمّته، في أثناء الأسابيع الطويلة التي ظلّ فيها «سان لو» لايجيء إلى باريس، لم تطلب إليّ مرّة المجيء إلى منزلها لمشاهدة لوحات «ايلستير»، وما شككت أنّه كتب يتوسلّ إليها أن تفعل.

ولاقيت بعض مظاهر الجفاء على يد شخص آخر في الدار. كان ذلك على يد «جوبيان». فهل كان يرى أنّه يجدر بي الدخول لتحيتّه لدى عودتي من «دونسيير» حتّى قبلما أصعد إلى منزلي؟ لقد أجابت والدتي بالنفي وأنّه ينبغي ألاّ ندهش للأمر. فقد سبق أن قالت لها «فرانسواز» إنّه هكذا، تنتابه نوبات غضب مفاجئة ودونما سبب. ويزول ذلك على الدوام بعد وقت قليل.

كان الشتاء في تلك الأثناء يقترب من نهايته. وذات صباح سمعت في موقدي، بعد بضعة أسابيع من وابل المطر والعواصف، سمعت – بدلاً من الريح الفاقدة الشكل المطّاطة القاتمة التي تبعث فيّ الرغبة في الذهاب إلى شاطئ البحر – هديل الحمام الذي كان يعشش في الجدار: متقزحاً غير متوقّع كحدقيّة أولى تمزق بلطف قلبها المغذّي كي تنبثق منه زهرتها الرنّانة، خبّازية صقيلة، تدفع، شأن نافذة مفتوحة، إلى غرفتي، ولا تزال مغلقة سوداء، الدفء والذهول والتعب في أوّل يوم صاحٍ. ولقيتني فجأة في ذلك الصباح أدمدم لحن مقاه نسيته منذ السنة التي اضطررت فيها إلى الذهاب إلى «فلورنسه» والبندقية، إذ الجوّ حسب الأيّام يؤثر تأثيراً عميقاً في جسمنا ويستخرج الألحان المسجلة التي لم تكشفها ذاكرتنا من المستودعات المظلمة التي نسيناها فيها. وبعد قليل صاحَبَ حالم أشدّ وعياً ذاك الموسيقيّ الذي كنت أصغي إليه في داخلي حتى دون أن أكون قد تعرفت في الحال ما كان يعزفه.

كنت أحس تماماً بأنّ الأسباب لم تكن خاصة بـ «بالبيك» تلك التي لم أعد من جرّائها ألقى لكنيستها بعدما وصلت إليها السحر الذي يطبعها في نظري قبلما أعرفها ؛ وأن خيالي لن يفلح في الحلول محلّ عيني في «فلورنسه» أو «بارما» أو البندقية لينظر إليها. كنت أحس بهذا وقد اكتشفت كذلك ذات مساء في الأولّ من كانون الثاني لدى حلول الليل، اكتشفت أمام عامود للإعلانات الوهم الكامن في الاعتقاد بأن بعض أيّام الأعياد تختلف اختلافاً جوهرياً عن الأيام الأخرى. بيد أنه لم يكن بمقدوري الحؤول دون أن يستمرّ ذكر الزمن الذي خيل إليّ في أثنائه أنّي أقضي أسبوع الآلام [1] في «فلورنسه» في أن يجعل منها ما يشبه

(١) الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح لدى المسيحيين

أجواء مدينة الزهور وأن يضفي على يوم الفصح شيئاً من الطابع الفلورنسي وعلى «فلورنسه» شيئاً من أجواء الفصح في الآن نفسه. كان أسبوع الفصح لايزال بعيداً، ولكن أسبوع الآلام كان يبرز في سلسلة الأيّام التي تمتدّ أمامي أكثر جلاءً في آخر الأيّام الفاصلة. كان يعلق بها شعاع، شأن بعض منازل قرية تشاهدها في البعيد في جوّ من الظلام والضياء، فتحتجز فوقها الشمس كلّها.

كان الطقس قد أضحى أكثر دفئاً وكان أهلي أنفسهم يوفّرون لي إذ يشيرون عليّ بالخروج إلى النزهة الحجة لمتابعة نزهاتي الصباحية. وقد سبق أن ابتغيت الكفّ عنها لأنني كنت ألتقي فيها بالسيدة «دو غيرمانت». والاّ أنّي لهذا السبب عينه كنت أفكر الوقت كله بتلك النزهات، الأمر الذي كان يوجد لي في كل لحظة سبباً للقيام بها لاصلة له إطلاقاً بالسيدة «دو غيرمانت» سبباً يقنعني بأنه ما كان ليفوتني الخروج في نزهة في تلك الساعة نفسها حتى ولو لم تكن موجودة.

ولئن كان سواء عندي لقاء أي شخص غيرها فقد كنت أحس واأسفي أنّ لقاء أيّ شخص باستثنائي أنا مُتَحَمَّل بالنسبة إليها. كان يتفق لها في نزهاتها الصباحية أن تتقبل تحية الكثير من البلهاء، وهي تحكم أنّهم كذلك. ولكنّها كانت تعدّ ظهورهم من قبيل المصادفة على الأقلّ إن لم يكن وعداً بالمتعة. كانت تستوقفهم أحياناً، فثمّة فترات يحتاج فيها المرء أن يخرج من ذاته وأن يقبل ضيافة نفس الآخرين شرط أن تكون تلك النفس، مهما بلغت من الاتضاع والقبح، نفساً غريبة، فيما تحس بحنق أنّ ما قد تلاقية في فؤادي إنّما هو شخصها. فكنت ارتجف شأن المذنب ساعة مرورها حتّى حينما يدعوني إلى اتخاذ الدرب نفسه غير سبب لقائها ؛ وكنت أحياناً، بغية إبطال ما قد تتسم به مبادراتي من مغالاة، أكاد لا أستجيب لتحيتّها، أو أحدّق إليها دون أن أحيّيها ودون أن أفلح إلاّ في زيادة غضبها وفي حملها فضلاً عن ذلك، على الشروع في اعتباري وقحاً وسيئ التهذيب.

كأن ترتدي الآن فساطين أكثر رقة أو أزهى لوناً على الاقلّ وتنحدر في الشارع حيث كانت ستائر قد أرخيت اتقاءً للشمس، وكأنما الوقت ربيع، أمام الدكاكين الضيقة المحشورة بين الواجهات الفسيحة التي للفنادق الارستقراطية القديمة وعلى إفريز بائعة الزبدة والفواكه والخضار. كنت أقول في نفسي إن المرأة التي كنت أشاهدها من البعيد تسير وتفتح شمسيتها وتجتاز الشارع هي حسبما يرى العارفون بالأمور اعظم فنانة حاضرة في فنّ القيام بتلك الحركات وأن تجعل منها أمراً رائعاً. كانت تتقدّم إذ ذاك: وكان جسمها الجاهل بتلك الشهرة المتناثرة، كان جسمها الضيق المتمرّد الذي لم يتشرّب شيئاً منها ينحني على نحو مائل تحت شال من الحرير الهندي البنفسجي اللون. وكانت عيناها المختمتّان الصافيتان تنظران ساهيتين أمامها وربّما لمحتاني. كانت تعضّ طرف شفتها، وأراها ترفع فروة يديها وتتصدقّ على فقير وتشتري باقة بنفسج من إحدى البائعات بالفضول نفسه الذي ربّما عصف بي في النظر إلى رسام كبير يرسم خطوطاً بريشته. وحينما كانت تصل بمحاذاتي فتخصني بتحيّة تنضاف إليها ابتسامة طفيفة فكأنما تنفذ من أجلي مائية هي رائعة فنية وتضيف إليها إهداء. كان يبدو لي كلّ فسطان من فساطينها بمثابة جوّ طبيعيّ ولازم وبمثابة إسقاط لمظهر خاصّ من نفسها. وفي إحدى صبيحات الصيّام ، وكانت ذاهبة للغداء في المدينة، صادفتها ترتدي فساطاً من المخمل الأحمر الفاتح وكان هيّن التقويرة حول العنق. كان وجه السيدة «دو غيرمانت» يبدو حالماً تحت شعرها الأشقر،

وكنت أقلّ اغتماماً من المعتاد لأنّ كآبة ملامحها وما يشبه العزلة التي يقيمها اللون الصارخ بينها وبين باقي البشر كانا يضفيان عليها شيئاً من التعاسة والعزلة يبعث فيّ الطمأنينة. لكأنما يجسدّ ذاك الفسطان من حولها أشعة قرمزية تنبعث من قلب ما كنت أعهده لديها وربما استطعت مؤاساته. كانت تذكرني،وقد هربت داخل النور الخفيّ المنبعث من القماش ذي الثنيات اللطيفة، بقدّيسة من العصور المسيحيّة الأولى. ويعتريني الخجل إذ ذاك من أن تبعث رؤيتي الأسى في قلب تلك الشهيدة. «ولكن الشارع على كلّ حال ملك لجميع الناس.»

وأعيد الكرّة فأقول: «الشارع ملك لجميع الناس، وأنا أضفي على هذه الكلمات معنى مختلفاً وأستعجب أن تمزج السيدة «دو غير مانت» بالفعل في الشارع المزدحم الذي غالباً ما يبلله المطر فيضحى رائعاً كما هي حال الشارع أحياناً في مدن إيطاليا القديمة. أن تمزج بالحياة العامّة فترات من حياتها الخفيّة فتبدو على هذا النحو في عين كلّ واحد محفوفة بالأسرار، يمرّ الجميع بجانبها، وبها المجانيّة الرائعة التي لكبريات الروائع الفنية. ولمّا كنت أخرج في الصباح بعدما أظلّ مستيقظاً الليل كلّه فقد كان يقول لي والداي بأن أستلقي قليلاً وأبحث عن النوم. ولا حاجة للكثير من التفكير لامكان العثور عليه ولكنّ العادة مفيدة جدّاً في ذلك وحتى غياب التفكير. بيد أني كنت أفتقر إلى كليهما في تلك الساعات. كنت قبلما أنام أفكر تفكيراً طويلاً إلى الحدّ الذي لا أستطيع معه التفكير ويظلّ لي معه قليل من الفكر حتى أثناء نومي. كان ذلك محض بصيص وسط ما يقارب الظلام التامّ ولكنّه كان كافياً كي تنعكس به في نومي أوّل الأمر الفكرة التي مفادها أنني لن أقوى على النوم، ثمّ آتي، وهو انعكاس لذاك الانعكاس. إنما وافتني أثناء النوم فكرة أنني لم أكن نائماً، ثم استيقاظي، من جراء انعكاس جديد...، في نوم جديد كنت أبغي فيه أن أروي لأصدقاء دخلوا غرفتي أنني ظننت منذ لحظة في أثناء نومي أنني لم أكن نائماً. كانت تلك الأشباح صعبة التمييز، ولعلّه كان ينبغي لإدراكها رهافة في الإحساس كبيرة وعقيمة إلى حدّ بعيد. فقد رأيت على هذا النحو فيما بعد في البندقيّة، وبعد مغيب الشمس بفترة طويلة، حينما يخيّل إليك أن الليل قد حلّ تماماً، رأيت، بفضل الصدى، مع أنّه غير مرئيّ، المنبعث من رنّة نور أخيرة تتردّد إلى مالا نهاية فوق الأقنية وكأنما بفعل دوّامة ضوئية ظلال القصور تنتشر وكأنمّا إلى الأبد مخملاً أشدّ سواداً على رمدة المياه الغسقية. كان أحد أحلامي ائتلاف ما سعت مخيّلتي كثيراً إلى تمثله في اليقظة بين منظر بحريّ معيّن وماضيه في العصر الوسيط. كنت أبصر في نومي مدينة قوطية وسط بحر جمدت مياهه كأنما على زجاج ملوّن، والمدينة يشطرها شطرين خليج ضيّق، والماء الأخضر يمتدّ تحت قدميّ، ويحيط بكنيسة شرقية على الضفة المقابلة، ثم بمنازل كانت لاتزال قائمة في القرن الرابع عشر حتى ليعني الذهاب إليها الصعود في مجرى العصور، كان يبدو لي أنّ هذا الحلم قد وافاني كثيراً، ذاك الذي تعلمّت الطبيعة فيه الفنّ والذي أضحى البحر فيه قوطياً، ذاك الحلم الذي كنت أتوق فيه إلى بلوغ شاطئ المستحيل ويخيّل إليّ ذلك. وبما أنّ من شأن ما يتخيله المرء في أثناء النوم أن يتضاعف في الماضي وأن يبدو مألوفا مع أنه جديد، فقد ظننت أنني أخطأت. وتبين على العكس أني غالباً ما كنت أحلم ذاك الحلم.

كانت الانتقاصات نفسها التي تطبع النوم تنعكس في نومي ولكن على نحو رمزيّ: فما كنت أقوى في الظلام على تمييز وجوه أصدقائي الحاضرين لأنّ المرء ينام مغمض العينين ؛ وكنت أحس، أنا الذي كان يردّد لنفسه في الحلم إلى مالا نهاية حججاً كلاميّة، أنّ الصوت يتوقف في حنجرتي ما أن أبغي التحدّث إلى هؤلاء

الأصدقاء لأن المرء لا يتحدّث بوضوح في نومه ؛وكنت أودّ الذهاب إليهم ولا أقوى على نقل ساقيّ إذ المرء لا يمشي فيه كذلك، وفجأة يعتريني الخجل من الظهور أمامهم لأنّ المرء ينام بدون ثيابه. هكذا كانت تبدو هيئة النوم التي يسقطها نومي نفسه فاقدة العينين، ملصقة الشفتين، مربوطة الساقين، عارية الجسم. تبدو وكأنّها من تلك الوجوه الرمزيّة الكبيرة التي مثل فيها «جوتو» الحسد وفي فمه حيّة، وكان «سوان» قد أعطاني اياها.

جاء «سان لو» إلى باريس لبضع ساعات فقط. وقال لي، وهو يؤكد أنّ الفرصة لم تسنح له ليحدّث ابنة عمّه، ويفضح نفسه بسذاجة: «أوريان غير لطيفة على الاطلاق. لم تعد «أوريان» الأمس، لقد تبدّلت. أؤكد لك أنّها ليست جديرة باهتمامك. إنك تمحضها الكثير من التكرمة. ألست تريد أن أقدّمك لابنة عمي «بواكتييه»؟ يضيف قوله دون أن يتبين أنّ الأمر لا يمكن أن يوليني أيّة مسرّة. «فتلك امرأة شابة ذكية وقد تحسن في عينيك لقد تزوّجت ابن عمي دوق «بواكتييه» وهو رجل طيب ولكنه على شيء من البساطة بالنسبة إليها. لقد حدّثتها عنك وسألتني أن أصطحبك. إنها أجمل من «أوريان» وأصغر سناً. إنها لطيفة، لو تدري وتحسن في العين.» كانت تلك عبارات تبناها «روبير» حديثاً – مما يزيد في اندفاعه – وتعني أنّ الشخص يملك طبيعة مرهفة. «لا أقول لك إنّها من مناصري «دريفوس»، فلا بد كذلك من أخذ بيئتها في الحسبان، ولكنّها تقول: «إن كان بريئاً، فما أبشع أن يكون في جزيرة الشيطان!» هل تدرك ذلك؟ ثم إنّها أخيراً تفعل الكثير من أجل معلّماتها السابقات، فقد حظرت أن يشار إليهنّ بالصعود من درج الخدم. أؤكد لك إنها شيء يروق جداً. و«أوريان» لاتحبها في الاساس لأنّها تحسها أشدّ ذكاءً.»

لقد حزّ في نفس «فرانسواز»، مع أنّها كانت تشغلها الشفقة التي يثيرها لديها أحد خدم آل «غيرمانت»–وما كان يستطيع المبادرة إلى لقاء خطيبته حتى بعدما تخرج الدوقة إذ يتمّ نقل الأمر في الحال على لسان الحفل – حزّ في نفسها أن لم تكن حاضرة حين قام «سان لو» بزيارته، وذلك لأنّها كانت تخرج الآن بدورها. كانت تخرج حتماً في الأيام التي أكون فيها بحاجة إليها. كان ذلك على الدوام كيما تذهب لرؤية أخيها وابنة أخيها ولاسيما ابنتها التي وصلت منذ قليل إلى باريس. كانت الطبيعة العائليّة لتلك الزيارات التي تقوم بها «فرانسواز» تزيد من تبرّمي لحرماني من خدماتها إذ كنت أتوقع أنّها سوف تحدّثني عن كلّ واحدة وكأنّما عن واحد من تلك الأشياء التي لا يمكن أن تكون في غنى عنها بحسب القوانين التي تمّ تعليمها في «سانت أندريه دي شان». لذلك لم أكن قطّ استمع إلى اعذارها دون تكدّر شديد الاجحاف يدفعه إلى أقصى درجاته الطريقة التي تقولها بها «فرانسواز» فلا تقول: «ذهبت لرؤية أخي، ذهبت لرؤية ابنة أختي»، بل تقول: «ذهبت لرؤية الأخ، دخلت «راكضة» اقرئ ابنة الأخ السلام (أو ابنة أختي اللحامة)». أمّابشأن ابنتها، فقد ودّت «فرانسواز» لو تراها تعود إلى «كومبريه». ولكنّها هي كانت تقول، وتستخدم، شأن الأنيقات، كلمات مختصرة بيد أنّها عامية، إن الأسبوع الذي يقع عليها فيه الذهاب لقضائه في «كومبريه» سوف يبدو لها طويلاً جداً دون أن يتوافر لها حتى جريدة «المتشدّد». وكانت تبدي رغبة أقلّ في الذهاب لدى شقيقة «فرانسواز» التي تقطن في محافظة جبليّة «لأنّ الجبال أمر غير مفيد تقريباً»، تقول ابنة «فرانسواز» وهي تحمّل لفظة «مفيد» معنى قبيحاً وجديداً. ما كانت تستطيع أن تحمل نفسها على العودة إلى «ميزيكليز» حيث الناس بلهاء إلى حدّ بعيد، وحيث قد تكتشف «الخالات» في السوق صلة قرابة بها ويقلن: «ويحك، أليست هذه ابنة المرحوم بازيرو؟» لعلّها تفضل الموت على العودة للسكنى هناك «الآن قد ذاقت طعم الحياة في باريس»،

و«فرانسواز» المتمسكة بالتقاليد كانت تبتسم بلطف مع ذلك إزاء روح التجديد الذي تجسّده «الباريسية» الجديدة حينما تقول: «حسن يا أمّي، إن لم تحصلي على يوم عطلتك فما عليك إلاّ أن تبعثي إليّ ببرقية».

كان الطقس قد عاد فأصبح بارداً. وكانت «فرانسواز» تقول، وهي تفضل المكوث في المنزل في أثناء الأسبوع الذي ذهبت فيه ابنتها والشقيق واللحّامة لقضائه في «كومبريه»: «أخرج؟ لماذا؟ ليدركني الموت». وكانت «فرانسواز» تضيف قولها في حديثها عن هذا الطقس الذي في غير أوانه، وهي على أيّ حال آخر نصيرة ظلّت تعيش في صدرها على نحو غامض عقيدة عمّتي «ليوني» فيما يخصّ الفيزياء: «إنه بقية غضب الله!» وما كنت أجيب على شكاواها إلاّ بابتسامة يملؤها الوهن ويزيد من لامبالاتي بتلك التنبؤات أن الطقس سوف يكون صاحياً بالنسبة إليّ في جميع الأحوال. فقد كنت أبصر مذ ذاك شمس الصباح تشرق فوق تلّة «فيزيول» واتدفأ بأشعتّها، وكانت قوّتها تضطرّني إلى فتح جفني واغماضهما نصف اغماضة فيما ابتسم فيمتلئان بضياء ورديّ شأن مصباحين من المرمر. ما كانت الأجراس وحدها تعود من إيطاليه فقد جاءت إيطاليه معها. وسوف لن تخلو يداي المخلصتان من الزهور لأكرّم ذكرى الرحلة التي وقع عليّ أن أقوم بها في الماضي، فمنذ أن عاد الطقس فأصبح بارداً في باريس، على نحو ما كانت الحال في عام آخر حين كنّا نعدّ للسفر في آخر الصيام، أخذت أشجار الدلب في الشوارع والشجرة التي في باحة منزلنا تفتح أوراقها في الهواء اللزج القارس الذي يغمر أشجار الكستناء، كما في كوب من الماء الصافي أزاهير النرجس والجنكيل والشقائق على «الجسر القديم».

كان والدي قد روى لنا أنه يعلم الآن على لسان أ. ج. أين كان يذهب السيد «دو نوربوا» حينما كان يصادفه في المنزل.

— «إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس»، إنّه يعرفها تماماً وما كنت أعلم شيئاً من ذلك. ويبدو أنّها شخصية جذّابة وامرأة متفوّقة.» وقال لي: «يجدر بك أن تبادر إلى لقائها. لقد دهشت أشدّ الدهشة على أيّ حال. لقد حدّثني عن السيد «دو غيرمانت» وكأنما عن رجل أنيق تماماً وكنت قد حسبته دوماً انساناً متوحشاً. ويبدو أنّه يعرف أموراً لاتحصى ويتمتّع بذوق رفيع، إلاّ أنه فخور جدّاً باسمه وبأنسابه. ولكن وضعه المالي من جهة ثانية، على حدّ قول «نوربوا»، متين جدّاً، لاههنا فحسب، بل إنّه كان في أوروبا. لقد قال لي العمّ «نوربوا» إن السيدة «دو فيلباريزس» تحبك كثيراً وإنك سوف تتعرّف في منتداها إلى شخصيات ذات بال. وقد أثنى عليك ثناء كبيراً في حضرتي وسوف تلتقي به في منزلها ويمكن أن يسدي إليك أحسن النصح حتى إن انبغى أن تتعاطى الكتابة، فإني أرى أنّك لن تفعل غير ذلك. يمكن عدّها مهنة جميلة، أمّا أنا فليس ذلك ما كنت أشتهي لك، ولكنّك ستضحي رجلاً عمّا قريب ولن نكون على الدوام إلى جانبك وينبغي ألاّ نحول بينك وبين اتباع ميولك.»

ليتني استطعت على الأقلّ أن أباشر الكتابة! ولكن، أيّة كانت الشروط التي أتناول فيها ذلك المشروع (كما هو للأسف أمر ألاّ أتناول الكحول من بعد وأن آوي إلى فراشي في ساعة مبكرة وأن أنام وأن أتمتع بصحة جيّدة)، أكان ذلك باندفاع، بمنهجيّة، بلذّة، بالامتناع عن نزهة، بإرجائها وادّخارها بمثابة مكافأة، بالإفادة من ساعة أتمتّع فيها العافية، باستخدام البطالة القسرية في يوم من أيّام المرض، فإنّ ما كان ينتج أبداً في

نهاية المطاف عن جهودي إنّما كان صفحة بيضاء لاتدنّسها أيّة كتابة، محتمة كتلك الورقة التي لا مفرّ من سحبها في النهاية في بعض أدوار اللعب أيّة كانت الطريقة التي تمّ بها سلفاً «خلط» الورق. فلم أكن سوى أداة لعادات في الامتناع عن الشغل والاستلقاء في سريري والنوم، عادات كان لابدّ أن تتحقق أيّا كان الثمن. فإن لم أقاومها، وإن رضيت بالعذر الذي كانت تتخذه من أوّل ظرف طارئ يوفرّة لها ذلك اليوم كيما أدعها تعمل على هواها كنت أنجو بنفسي دونما ضرر كبير وأستريح بضع ساعات مع ذلك في آخر الليل وأقرأ قليلاً ولا أسرف إلى حدّ بعيد. أمّا إذا شئت مقاومتها، وإن عزمت أن آوي إلى فراشي في ساعة مبكرّة وألاّ أشرب سوى الماء وأن أعمل فقد كانت تغتاظ وتلجأ إلى أعظم الوسائل وتحمل إليّ المرض الأكيد فأراني مضطراً إلى مضاعفة كميّة الكحول ولا آوي إلى الفراش طوال يومين ولا أقوى حتى على القراءة من بعد وأعد النفس في مرّة أخرى أن أكون أكثر تعقلاً، وأعني أقلّ حكمة كضحية تقبل بأن تسرق مخافة أن تذبح إن هي قاومت.

سبق لوالدي أن التقى مرّة أو مرتين بالسيد «دو غيرمانت» في هذه الأثناء، أمّا الآن وقد نقل إليه السيد «دو نوربوا» أنّ الدوق رجل مرموق فقد أخذ يعير أقواله انتباهاً أكبر. واتفق أن تحدّثا في الباحة عن السيدة «دوفيلباريزيس». «قال لي إنها عمّته، ويلفظها «فيباريزي». لقد قال لي إنّها خارقة الذكاء، وبلغ به أن أضاف أنّها تدير «مكتباً فكرياً»، يضيف والدي ،وقد أثر فيه غموض هذه العبارة التي قرأها بالحقيقة مرّة أو مرّتين في مذكرات إلاّ أنّه لم يكن يعيرها معنى دقيقاً. وكانت والدتي تكنّ له من الاحترام ما حكمت معه، وقد رأت أنّه لايجد غير ذي شأن أن تدير السيدة «دو فيلباريزيس» مكتباً فكرياً. أن الأمر على شيء من الأهمية. ومع أنّها عرفت على الدوام على لسان جدّتي ما تساوي المركيزة بالضبط، فقد كوّنت عنها في الحال فكرة مشرّفة. أما جدّتي التي كانت متوعكة بعض الشيء فلم تقف بادئ الأمر إلى جانب الزيارة ثمّ لم تعبأ بها بعد ذلك. فمنذ أن سكنّا في شقتنا الجديدة طلبت إليها السيدة «دوفيلباريزس» عدّة مرّات أن تأتي لزيارتها. وقد أجابت جدّتي على الدوام أنّها لم تكن تخرج في هذه الآونة في واحدة من تلك الرسائل التي لم تعد، من جراء عادة جديدة لم نكن نفهمها، تلصقها بنفسها وتدع لـ «فرانسواز» مهمّة إغلاقها. أمّا أنا فما كان ليدهشني كثيراً، وإن كنت لا أتصوّر تماماً هذا «المكتب الفكريَ»، أن أجد السيدة العجوز التي من «بالبيك» مستقرة أمام أحد «المكاتب»، الأمر الذي وقع على أيّة حال.

ودّ والدي، علاوة على ذلك، أن يعلم إن كان دعم السفير سوف يكسبه الكثير من الأصوات في المجمع الذي كان يعتزم التقدّم إليه بصفة عضو حرّ. ومع أنّه لم يكن يجرؤ على الشكّ بدعم السيد «دو نوربوا»، إلاّ أنّه، والحقّ يقال، لم يكن مع ذلك على يقين. وقد حسب أنّه يواجه بعض ألسنة السوء حينما قيل له في الوزارة إن السيد «دو نوربوا»، رغبة منه في أن يمثل وحده المجمع، سوف يقيم جميع العراقيل الممكنة في وجه ترشيح قد يزعجه من ناحية ثانية على نحو خاص في هذه الفترة التي كان يساند فيها ترشيحاً آخر. على أنّه تأثر، حينما أشار عليه «لوروا بوليو» بالتقدم وقام بتخمين فرص نجاحه، أن يرى أنّ الاقتصاديّ اللامع لم يذكر السيد «دو نوربوا» في عداد الزملاء الذين يمكنه الاعتماد عليهم في هذا الظروف. ولم يكن والدي يجرؤ على طرح السؤال مباشرة على السفير السابق ولكنّه كان يأمل أنني سأعود من منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وقد تمّ انتخابه. كانت تلك الزيارة وشيكة الحدوث. وكانت دعاوة السيد «دو نوربوا» القادر فعلاً على ضمان ثلثي المجمع لوالدي، كانت تبدو له من ناحية أخرى محتملة يزيد من احتمالها أنّ لطف السفير كان مضرب

الأمثال، إذ يعترف الناس الذين يكنون له أقلّ الحبّ أن ليس من يحبّ اسداء الخدمات بقدر ما يفعل. وكان من جهة أخرى يبسط في الوزارة حمايته على والدي على نحو أكثر بروزاً منه على أيّ موظف آخر.

وقد تم لوالدي لقاء آخر ولكن هذا اللقاء أحدث لديه دهشة بالغة أعقبها سخط بالغ. لقد مرّفي الشارع قرب السيدة «سازرا» التي كان فقرها النسبي يقصر حياتها في باريس على إقامات قليلة لدى احدى الصديقات. وما من أحد كان يزعج والدي بقدر ما تفعل السيدة «سازرا» إلى حدّ أنّ والدتي كانت تضطرّ مرة في العام أن تقول له بصوت ناعم ومتوسل: «ياصديقي، لابدّ لي أن أدعو السيدة «سازرا» ذات مرّة، ولن تمكث حتى ساعة متأخرة»، بل وتقول: «اسمع ياصديقي، سوف أطلب منك تضحية كبيرة، هيّا قم بزيارة قصيرة للسيدة «سازرا». أنت تعلم أنّي لا أحبّ ازعاجك، ولكن كم سيكون الأمر لطيفاً فيما يخصّك فكان يضحك ويغضب قليلا ويبادر إلى القيام بتلك الزيارة. على الرغم إذن من أن السيدة «سازرا» لم تكن تسليه فقد أقبل عليها، إذ التقى بها، وهو يكشف عن رأسه، ولكن السيدة «سازرا» اكتفت، لدهشته العميقة، بتحيّة جافة يضطرّك إليها التأدّب إزاء شخص متهم بفعلة شائنة أو حكم عليه أن يعيش مذ ذاك في نصف آخر من الكرة. وعاد والدي غاضباً مذهولاً. وفي الغد التقت والدتي بالسيدة «سازرا» في أحد المنتديات فلم تمدّ هذه الأخيرة يدها وابتسمت لها بهيئة غامضة حزينة وكأنّما لامرأة لعبت معها في طفولتك ولكنك قطعت مذ ذاك جميع علاقاتك بها لأنها عاشت حياة خليعة وتزوّجت محكوما بالأشغال الشاقة أو رجلاً مطلقاً، وذلك أدهى. ولكنّ والديّ كانا على مدى الأيام يمحضان السيدة «سازرا» أعمق التقدير ويوحيان به إليها. بيد أنّ السيدة «سازرا» (وهو أمر كانت تجهله والدتي) كانت وحدها من بنات جنسها في «كومبريه» مناصرة لـ «دريفوس». أما والدي، وهو صديق السيد «ملين»، فقد كان مقتنعاً بذنب «دريفوس» وقد سبق أن طرد بغضب زملاء طلبوا إليه التوقيع على لائحة تطالب بإعادة الدعوى. ولم يعد إلى التكلّم معي طوال ثمانية أيام حينما علم أني سلكت خط سير مختلفاً. كانت آراؤه معروفة وما كان يستبعد أن يؤخذ مأخذ الوطنيّ. أمّا فيما يخصّ جدّتي التي كان يبدو أن الشك المتسامح لابدّ أن يلهب عواطفها وحدها في الأسرة، فقد كانت تهزّ رأسها في كل مرّة يحدثونها فيها عن براءة «دريفوس» المحتملة هزّة لم نكن نفهم معناها آنذاك وتشبه مايقوم به شخص تأتي لإزعاجه في غمرة أفكار أكثر جدّية. أما والدتي التي كان يتنازعها حبّها لوالدي وأملها في أن أكون ذكياً فقد كانت تلوذ بحيرة تترجمها بالصمت. وما كان جدّي أخيراً، وهو يعبد الجيش (مع أنّ التزاماته كحرس وطنّي كانت هاجسه في سنّ النضج) ماكان يبصر قطّ في «كومبريه» كتيبة تمرّ أمام السياج دون أن يكشف عن رأسه لدى مرور العقيد والعلم. كان كل ذلك كافيا كيما تبادر السيدة «سازرا» التي كانت تعرف تمام المعرفة حياة التجرّد والشرف التي قضاها والدي وجدّي إلى اعتبارهما بمثابة محرّضين على «الظلم». والمرء يصفح عن الجرائم الفردية لا عن المشاركة في جريمة جماعيّة. فما أن عرفت أنّه من مناهضي «دريفوس» حتى جعلت بينها وبينه قارات وقروناً. والأمر يوضح أن تكون تحيّتها قد بدت لوالدي من مثل تلك المسافة في الزمان والمكان غير ملحوظة بالعين وأنّها لم تفكّر في مصافحة وأقوال لعلها لاتقوى على اجتياز العوالم التي تفصل بينهما.

لمّا كان «سان لو» يزمع المجيء إلى باريس فقد سبق أن وعدني باصطحابي إلى منزل السيدة «دو فيلباريزس» حيث كنت آمل، دون أن أكون صرحت له بذلك، إمكان التقاء السيدة «دو غيرمانت». وطلب

إليّ أن أتغدّى في المطعم برفقة عشيقته التي سنصحبها فيما بعد إلى تجربة مسرحية. كان علينا أن نذهب في طلبها صباحاً في ضواحي باريس حيث كانت تقطن.

وكنت قد سألت «سان لو» أن يكون المطعم الذي سنتناول طعام الغداء فيه (والمطعم في حياة النبلاء الشباب الذين ينفقون المال يقوم بدور في مثل أهميّة صناديق القماش في الحكايات العربية)أن يكون بالأحرى المطعم الذي أعلمني «إيميه» أنّه يزمع الدخول فيه بمثابة رئيس خدم بانتظار موسم «بالبيك». كانت بهجة كبيرة بالنسبة إليّ أنا الذي كان يحلم بالكثير من الرحلات ويقوم بالقليل القليل منها أن أعود فألقى شخصاً هو أكثر من جزء من ذكرياتي في «بالبيك»، إنه جزء من «بالبيك» نفسها، شخصاً يذهب إليها في كلّ عام ويظل ينظر، حينما يضطرّني التعب أو دروسي إلى البقاء في باريس، أثناء أواخر عشيات تموز الطويلة وبانتظار أن يفد الزبائن للعشاء، إلى الشمس تنحدر وتغيب في البحر، عبر ألواح زجاج قاعة الطعام الكبرى، ومن خلفها، ساعة تنطفيء، تبدو الأجنحة الساكنة للمراكب البعيدة الضاربة إلى الزرقة وكأنها فراشات غريبة ليليّة في واجهة زجاجية. وإذ تمغنط رئيس الخدم هذا نفسه من جرّاء تماسة مع مغناطيس «بالبيك» القوي فقد أضحى بدوره مغناطيساً بالنسبة إليّ. فكنت آمل في حديثي معه أن أكون مذ ذاك في تواصل مع «بالبيك» فأحقق دون أن أبرح مكاني بعضاً من روعة السفر.

غادرت البيت منذ الصباح وتركت «فرانسواز» تتأوّه فيه لأن الخادم الخطيب لم يستطع مرّة أخرى مساء البارحة أن يذهب لرؤية خطيبته. لقد وجدته «فرانسواز» باكيا ؛ وقد أوشك أن يبادر فيصفع البوّاب ولكنّه تمالك نفسه لأنّه كان متمسكاً بمركزه.

وقبلما أصل إلى منزل «سان لو» الذي سينتظرني على عتبة بابه صادفت «لوغراندان» الذي غاب عن أبصارنا منذ «كومبريه» والذي احتفظ رغم تشيبه بمظهره الفتيّ الساذج. فوقف وقال لي:

– «آه! هذا أنت، رجل أنيق وبالسترة الرسميّة أيضاً! ذلك لباس قد لا يناسب طبعي الاستقلاليّ. صحيح أنك لابدّ رجل مجتمع وأنك تقوم بزيارات! وليست ربطة عنقي وسترتي في غير محلهما كيما أمضي وأحلم مثلما أفعل حيال قبر نصف مهدّم. أنت تعلم أنّي أقدّر جودة نوعية قلبك، وإنما أعني بذلك إلى أيّ حدّ يؤسفني أن تذهب فتنكرها بين الوثنيين. وإنك لتصدر ضدّ مستقبلك حكم النبيّ، بل لعنته إذ تستطيع البقاء لحظة في جوّ الصالات النتن الذي لا يطاق في نظري. إني أبصر الأمور من هنا، أنت تتردّد على ذوي الأفئدة الخفيفة ومجتمع القصور ؛ ذلك هو عيب البورجوازية المعاصرة. باللاستقراطيين! لقد كان ذنب «عصر الإرهاب» عظيماً إن لم يضرب رقابهم جميعاً. إنهّم جميعهم فسق مشؤومون، هذا إن لم يكونوا محض بلهاء مقيتين. فأما أن كان ذلك يسليك ياولدي المسكين!، وبينما تذهب أنت إلى حفلة شاي الخامسة يكون صديقك القديم أسعد منك لأنه سوف يشاهد وحيداً في حيّ شعبي طلوع القمر الوردي في السماء البنفسجية. والحقيقة أنّي لست البتة من هذه الأرض التي أحسني منفياً فيها، ولا بدّ من كامل قوّة قانون الجاذبية كي تمسك بي فيها ولا أفرّ إلى كرة أخرى. إنني من كوكب آخر، الوداع، ولا تأخذ على محمل السوء صراحة فلاح الـ«فيفون» العتيق الذي ظلّ إلى ذلك فلاّح «الدانوب». وكيما أبرهن أنّي أقدرك حقّ قدرك سوف أبعث إليك بروايتي الأخيرة. ولكنها لن تروقك فليست على قدر كاف من التميّع ومن روح

أواخر القرن بالنسبة إليك، إنّها مفرطة الصراحة، مفرطة الاستقامة ؛ أما أنت فإنك بحاجة إلى طراز «بيرغوت»، وقد أقررت بالأمر، إلى أشياء متخمرّة تصلح لحلوق متبلّدة لدى أرباب المتع المتأنقين. لابدّ أنّهم يعدّونني في جماعتك عسكرياً عتيقاً. ذنبي أنّني أغلف ما أكتب بالعاطفة ولم يعد ذلك محتملاً ؛ ثم إن حياة الشعب ليست على قدر من الأناقة كافٍ لتثير اهتمام متحذلقاتك. هيّا، حاول أن تتذكّر بين الحين والحين قول المسيح: «أصنعوا هذا فتحيوا.» إلى اللقاء أيها الصديق.»

لم أفارق السيد «لوغراندان» وأنا شديد التكدّر منه. فإن بعض الذكريات شبيه بالأصدقاء المشتركين يعرف كيف يقوم بالمصالحات. فقد كان الجسر الخشبيّ الصغير المرميّ وسط الحقول المغطاة بالأزرار الذهبية والتي تتكدس فيها خرائب اقطاعيّة، كان يجمعنا أنا و«لوغراندان» كما يجمع ضفتي نهر الـ«فيفون».

بعدما غادرتُ بصحبة «سان لو» باريس حيث كادت أشجار الشوارع على الرغم من بدايات الربيع لاتغطيّها أوراقها الأولى، وحينما توقف بنا القطار المحيطيّ في قرية الضاحية التي تقطن فيها عشيقته أخذتنا الدهشة أن نرى كل حديقة صغيرة تزدان بالهياكل البيضاء الفسيحة التي تؤلفها أشجار الفاكهة المزهرة. لكأنما ذلك واحد من تلك الاحتفالات الفريدة الشاعرية العابرة المحليّة التي تجيء من البعيد لتشاهدها في فترات محدّدة، ولكن الاحتفال هذا تقيمه الطبيعة. فترى أزهار أشجار الكرز تلتصق بالأغصان التصاقاً وثيقاً على هيئة راب أبيض حتى ليمكنك الظنّ أنك تبصر من الأشجار التي تكاد تخلو من الأزهار والأوراق وفي هذا النهار المشمس الذي لايزال قارس البرد، ثلجاً ذاب هناك وظلّ هنا خلف الشجيرات. ولكن أشجار الإجاص الكبيرة تغمر كلّ بيت وكلّ باحة متواضعة ببياض أكثر اتساعاً وأكثر توحد لون وأشد التماعاً كأن المساكن جميعها وأسيجة القرية جميعها تقيم في التاريخ نفسه حفلة مناولتها الأولى.

ولاتزال قرى ضواحي باريس هذه تحتفظ على أبوابها برياض من القرنين السابع عشر والثامن عشر هام بها وكلاء البيوتات والمحظيات. وقد استخدم جنائنيّ واحداً منها كائناً إلى سفح الطريق من أجل زراعة الأشجار المثمرة (أو ربّما احتفظ فقط بتصميم بستان فسيح يعود إلى ذلك العهد). كانت أشجار الإجّاص هذه التي زرعت على شكل مخمسّات أكثر تباعداً فيما بينها وأقل اقتراباً من تلك التي رأيتها، كانت تشكل رباعيات أضلاع من الزهر الأبيض، تفصل بينها جدران خفيضة، وعلى ضلع كلّ منها يقبل الضوء فيرتسم ألواناً مختلفة حتى لتبدو كلّ تلك الحجرات غير المسقوفة في الهواء الطلق وكأنها حجرات «قصر الشمس» على نحو ما قد يمكن العثور عليه في جزيرة «كريت». كانت تذكر كذلك بحجرات خزّان أو ببعض أجزاء من البحر يقسّمها الإنسان من أجل صيدٍ أو تربية محار حينما كنت ترى الضوء يقبل، حسب تعرّضها للشمس، فيتراقص على خطوط الأشجار، مثلما يفعل على صفحة المياه الربيعية، وتتدفق به ههنا وهناك الرغوة المبيضة لزهرة منوّرة راغية تلتمع بين شبك الأغصان المفرّغ الذي تملؤه زرقة السماء.

كانت قرية قديمة ببلديتها العتيقة المشويّة المحمرة التي ترتفع أمامها بمثابة صوارٍ للحفلات وبيارق ثلاث شجرات إجّاص ازدانت بالساتين الأبيض الأنيق وكأنما لاحتفال وطني محليّ.

لم يحدثني «روبير» في يوم عن صديقته بلهجة أكثر رقة مما فعل في أثناء ذلك المشوار. كنت أحس أنّ

لها وحدها جذوراً في فؤاده ؛ فمستقبله في الجيش ومركزه الدنيوي وأسرته، كلّ ذلك لم يكن بالتأكيد غير ذي شأن لديه ولكنّه لايساوي شيئاً إزاء أقلّ الأمور التي تتعلق بعشيقته. ذلك وحده يتمتع بمهابة في نظره، بمهابة أكبر بما لايقاس من آل «غير مانت» وملوك الأرض كافة. ولست أدري إن كان هو يعرب لنفسه عن أنها من جوهر يسمو على كلّ شيء، ولكنه لم يكن يبدي إجلالاً واهتماماً إلاّ لكلّ ما يتعلق بها. كان بها قادراً أن يتعذّب ويسعد وربما أن يقتل. وما كان أمر يثير اهتمامه بالحقيقة ويستهويه إلاّ ما تبغيه عشيقته وما قد تفعله، وإلاّ ما كان يجري في المساحة الضيقة التي تؤلف وجهها وخلف جبينها المحظوظ، وكان يستبين بالأكثر بأمارات عابرة وكان يتطلع إلى فكرة زواج رفيع، هو البالغ الرقة في كلّ ما عداه لمجرّد أن يستطيع متابعة الإنفاق عليها والاحتفاظ بها. ولئن تساءل المرء بأيّ ثمن كان يقدرها فاني أعتقد أنه لا يمكننا في يوم تصوّر ثمن مرتفع إلى حدّ كاف. وإن كان لايتزوّجها فلأن غريزة عمليّة كانت تشعره أنّها سوف تهجره أو تعيش على الأقلّ على هواها منذ اللحظة التي لن يظل لها فيها ما تنتظره منه، وأنّه لابدّ من شدّها إليه بعملية انتظار الغد هذه. فقد كان يفترض أنّها قد لا تكون على حبّه. وليس من شكّ أنّ المرض العام المسّمى بالحبّ كان لابد يضطرّه – مثلما يفعل بجميع الرجال– إلى الظنّ بين الحين والحين بأنها تحبّه. بيد أنّه كان يحس عملياً بأن ذلك الحبّ الذي تكنّه له ما كان يحول دون أن تظلّ معه بسبب ماله فحسب وأنّها سوف تسارع إلى هجرانه يوم لن يبقى لها ما تنتظره منه (وقد وقعت ضحية نظريات أصدقائه في عالم الآداب وفيما تظلّ على حبّه حسبما يعتقد)، وقال لي:

– «سوف أقدّم لها اليوم، إن كانت لطيفة، هدية تدخل السرور على نفسها. إنه عقد رأته لدى «بوشرون». ثلاثون ألف فرنك. ذلك باهظ الثمن إلى حدّ ما بالنسبة إليّ في هذه الفترة. ولكنّ المسكينة لاتلاقي الكثير من المسرّة في الحياة. سوف تفرح أشدّ الفرح، فقد سبق أن حدّثتني عنه وقالت لي إنها تعرف واحداً ربما وهبها إيّاه. لا أحسب الأمر صحيحاً ولكني تحسباً مني لكل طارئ اتفقت مع «بوشرون»، وهو مورّد أسرتي، كي يحتفظ لي به. أنا سعيد إذ أفكر أنك ستراها عمّا قليل. ليست خارقة على صعيد الوجه، تدري (ورأيت تماماً أنه يفكر عكس ذلك ولايقول ما يقول إلاّ ليزداد إعجابي)، فهي تمتاز على وجه الخصوص بفهم رائع ؛ ربّما لم تجرؤ أمامك على التحدّث كثيراً، ولكني أبتهج سلفاً مما ستقوله لي عنك فيما بعد. تدري. إنها تقول أشياء يمكن التعمق فيها إلى مالا حدود، إن لديها بالحقيقة شيئاً من العرافة!».

كنا نسير بمحاذاة حدائق صغيرة لنصل إلى البيت الذي تسكنه، وما كنت أقوى على الامتناع عن التوقف لأنّها كانت تخلب الأبصار بزهو أشجار الكرز والإجّاص المزهرة. كانت بالأمس لاشكّ خالية بعد وخاوية مثل عقار لم يتّم تأجيره فإذا بتلك الوافدات الجديدات اللواتي، وصلن البارحة واللواتي كنا نلمح من خلال الأسيجة فساطينها البيضاء الجميلة في زوايا الممرّات تعمرها فجأة وتزينها.

وقال لي «روبير»: «اسمع، بما أني أرى أنك تودّ النظر إلى كل هذا وأن تتصرف كالشعراء فلا تتحرك من هنا، إن صديقتي تقطن قريباً جداً وسأمضي لإحضارها».

وقمت ببضع خطوات بانتظاره، وكنت أمرّ أمام حدائق متواضعة. كنت أبصر أحياناً، إن أنا رفعت رأسي، فتيات في النوافذ، بيد أنّه كان ههنا وهناك حتى في الهواء الطلق وعلى سوية طابق صغير طاقات من

الليلك الفتيّ طيعة رشيقة في أثوابها النديّة الخبازيّة معلقة بين الأوراق تدع للنسيم أن يرجحها دون أن تهتم بعابر السبيل الذي يرتفع بعينيه حتى سوية طابقها الأخضر. لقد تعرّفت فيها الفصائل البنفسجية المصفوفة على مدخل حديقة السيد «سوان» في عشيات الربيع الدافئة من أجل مطرّزة ريفية رائعة. وسلكت درباً يفضي إلى مرج. كان يهبّ فيه هواء بارد وقارس كما في «كومبريه» وفي وسط التربة الطينية الرطبة الريفية التي كان يمكن أن تكون على ضفة نهر «فيفون» انبثقت فجأة، لا تخلف بالموعد المضروب كسائر زمرة رفيقاتها، شجرة إجاص كبيرة بيضاء تحرّك باسمة وتعرّض للشمس أزهارها التي يقبضها النسيم ولكنما تصقلها أشعة الشمس وتلمعها بلون الفضة، وكأنها ستارة من نور أضحت محسوسة ملموسة.

وفجأة طلع «سان لو» تصحبه عشيقته، وإذ ذاك عرفت في الحال في تلك المرأة التي كانت كلّ الحب بالنسبة إليه وكلّ الحلاوات الممكنة في الحياة، والتي تمثل شخصيتها المخبأة على نحو خفيّ وكأنما داخل بيت قربان الموضوع الذي تنشط دون انقطاع من حوله مخيلة صديقي، والتي يحس أنه لن يعرفها في يوم ويتساءل عما تكون في حدّ ذاتها خلف حجاب النظرات والجسد، - عرفت فيها «راحيل حينما الربّ»، تلك التي كانت تقول للقوّادة منذ سنين خلت (والنساء سرعان ما يبدّلن من وضعهنّ في هذه الفترة، أن هنّ بدّلن) : «في الغد مساء اذن إن كنت بحاجة إليّ من أجل أحدهم فابعثي في طلبي.»

وبعدما «يأتون في طلبها» وتجد نفسها وحدها في الغرفة مع هذا «الأحد» كانت تعلم تمام العلم ماينبغي منها حتى أنها كانت تشرع، بعدما أغلقت الباب بالمفتاح من جرّاء حيطة تتخذها المرأة الحذرة أو من جرّاءحركة طقسية، في خلع سريع لجميع ألبستها كما يفعل المرء أمام الطبيب الذي يزمع أن يفحصك، ولا تتوقف في تلك الأثناء إلاّ إذا قال لها ذلك «الأحد»، وهو لايحبّ العري، إنها تستطيع الاحتفاظ بقميصها، مثلما يفعل الأطباء الذين يتمتعون بأذن مرهفة إلى حدّ بعيد ويخشون أن يصيب البرد مريضهم فيكتفون بالاصغاء إلى التنفس وخفق القلب من خلال القماش. لقد انصبّ قلق «سان لو» وعذابه وحبه على تلك المرأة التي كانت حياتها كلّها وجميع أفكارها وكل ماضيها وسائر الرجال الذين أمكن أن يمتلكوها أمراً غير ذي بال بالنسبة إليّ إلى حدّ أنني ما كنت أصغيت إليها، لو روت لي عن ذلك، إلاّ تأدباً وما كدت سمعتها، حتى جعلت، مما كان بالنسبة إليّ دمية آلية، موضوع عذابات لاتنتهي يساوي مانساوي الحياة. وإذ كنت أرى هذين العنصرين منفصلين (لانني كنت قد عرفت «راحيل حينما الربّ» في أحد بيوت الدعارة) فقد كنت أدرك أن العديد من النساء اللواتي يعيش الرجال من أجلهنّ ويتعذّبون ويقتلون أنفسهم يمكن أن يكنّ في ذاتهنّ أو بالنسبة إلى الآخرين ما كانت «راحيل» بالنسبة إليّ. كان يذهلني أن يعاني المرء من فضول مؤلم حيال حياتها. وكان بوسعي أن أعلم «روبير» بالكثير من خلواتها الغرامية التي تبدو لي أقلّ أمور الدنيا أهمية. وكم لعلّها كانت تغمه! وما أكثر ما أعطى ليعرفها دون أن يفلح!

كنت أتبين كلّ ما يمكن أن تضعه مخيلة بشريّة خلف قطعة وجه صغيرة على نحو ما كان عليه وجه هذه المرأة إن كانت المخيلة أول من عرفها، وإلى أي عناصر مادية بائسة خالية من أية قيمة كان يمكن على العكس أن يتفكك ما كان هدف الكثير الكثير من الأحلام لو تمّ إدراكه على نحو معاكس بأكثر أنواع المعرفة إسفافاً. كنت أدرك أن مابدا لي لايساوي عشرين فرنكاً حينما قدم لي مقابل عشرين فرنكاً في بيت الدعارة

حيث كان في نظري محض امرأة تتوق إلى كسب عشرين فرنكاً يمكن أن يساوي أكثر من مليون ومن جميع الاحوال المشتهاة وأكثر حتى من صنوف حنان الأسرة إن بدأنا بتخيل كائن خفيّ فيها تشوقنا معرفته ويصعب القبض عليه والاحتفاظ به. ليس من شكّ أننا كنا نبصر أنا و«روبير» الوجه النحيف الضيق ذاته، بيد أننا بلغناه بطريقين متعاكسين لن يتصلا في يوم ولن نبصر البتة منهما الصفحة نفسها. ذلك الوجه عرفته أنا بنظراته وبسماته وحركات فمه من الخارج على أنّه وجه امرأة، أيّ امرأة، قد تفعل كلّ ما أبغي مقابل عشرين فرنكاً. ولذلك بدت لي النظرات والبسمات وحركات الفم دالة على أفعال عامة فحسب دون أيّ شيء فرديّ، وما كان الفضول ليدفعني إلى البحث عن شخص خلفها. بيد أن ما قدّم لي، إن صحّ القول، في البداية، ذلك لوجه المرتضي، إنما كان في نظر «روبير» نقطة الوصول التي اتجه وجهتها عبر آمال وشكوك وريبات وأحلام ما كثرها! أجل، لقد وهب أكثر من مليون كي يحصل على ماسبق أن قدم لي ولكلّ واحد على حدّ سواء، مقابل عشرين فرنكاً، وكي لايكون لآخرين سواه. فلأي سبب لم يحصل عليها بذاك الثمن، ذلك أمر يمكن ردّه إلى لحظة صدفة، لحظة تتهرّب من كانت تبدو على أهبة تسليم نفسها لأن لديها موعداً محتملاً، أوسبباً، يّ سبب، يجعلها أكثر عسراً في ذلك اليوم. فإن كان أمره مع أحد العاطفيين، حتى لو لم تتبين ذلك، بل على وجه الخصوص إن تبينته، بدأت لعبة رهيبة. وإذ يعجز عن التغلب على خيبة أمله وأن يكون في غنى عن لك المرأة فإنه يلحق بها فتهرب منه فإذا الابتسامة التي لم يعد يجرؤ على توقعها تساوي ألف مرّة ما كان ينبغي أن تساوي المنن الأخيرة. وربما اتفق في هذه الحالة أحياناً، حينما يصيب الجنون المرء، من جرّاء سذاجة ي الادراك تمتزج بتخاذل أمام العذاب، فيجعل من الفتاة صنماً عزيز المنال، أن لا ينال البتة تلك المنن لأخيرة، أو لاينال حتى القبلة الأولى ولايجرؤ حتى على المطالبة بها من بعد كي لايكذب تأكيدات تقول حبّ أفلاطوني. وإنه لعذاب عظيم آنذاك أن تفارق الحياة دون أن تكون علمت في يوم ما يمكن أن تكون بلة المرأة التي أحببتها أكثر ما أحببت. أما منن «راحيل» فقد سبق أن أفلح «سان لو» لحسن الحظ في نيلها جميعها. صحيح أنّه لو علم الآن أنّها عرضت على جميع الناس مقابل ليرة ذهبية لتألم دونما شكّ أشدّ الألم لكنّه ما كان ليحجم عن إعطاء هذا المليون للاحتفاظ بها، فما كان كلّ ما علمه قادراً على إخراجه –إذ لا مكن أن يحدث ما كان مهماً لدى الإنسان إلاّ رغم أنفه وبفعل قانون طبيعي عام – من الدرب الذي كان ه والذي لايمكن أن يتبدّى له هذا الوجه منه إلاّ من خلال الأحلام التي سبق أن كوّنها. كان جمود ذاك وجه النحيف يبدو لي، شأن جمود طلحية من الورق تتعرّض للضغوط الهائلة المنبثقة من جوّين اثنين، وكأنما وازنه لانهايتان تفضيان إليه دون أن تتلاقيا إذ هو يفصل بينهما. كنا ننظر إليها كلانا، أنا و«روبير»، فلا نراها ن جهة السرّ الخفيّ نفسها.

وليست «راحيل حينما الربّ» التي كانت تبدو لي قليلة الشأن، وإنما قوّة المخيلة البشرية والوهم الذي تكز عليه صنوف عذاب الحبّ ما كنت أجده عظيماً. ورأى «روبير» أنني بادي التأثر ؛ فأشحت بوجهي إلى شجار الإجاص والكرز في الحديقة المقابلة كي يحسب أن جمالها هو الذي يؤثر في نفسي. لقد كان يؤثر في ى حدّ ما بالطريقة نفسها. إذ كان يضع كذلك بالقرب مني أشياء لايبصرها المرء بعينيه فحسب وإنما يحس ا في قلبه. فتلك الشجيرات التي رأيتها في الحديقة أما أخطأت، إذ احتسبتها آلهة غريبة، شأن المجدلية حينما صرت في حديقة أخرى في يوم تزمع ذكراه أن تحلّ عما قريب شكلاً بشرياً «فظننت أنه البستاني»؟

والمخلوقات البيضاء الضخمة بانحناءتها الرائعة فوق الظلّ المؤاتي للقيلولة والصيد والقراءة، حارسة ذكريات العصر الذهبي، الضامنة للوعد بأن الواقع ليس ما نحسب وأن روعة الشعر وبريق البراءة العجيب يمكن أن يتألقا فيها وقد يؤلفان المكافأة التي سنجهد في استحقاقها، تلك المخلوقات أماكانت الملائكة بالأحرى؟ وتبادلت بضع كلمات مع عشيقة «سان لو». ومررنا في القرية. كانت بيوتها قذرة بيد أن مسافراً من عالم الأسرار، مسافراً توقف يوماً واحداً في البلدة الملعونة، ملاكاً متألقاً كان ينتصب بالقرب من أكثرها بؤساً، تلك التي تبدو وكأنما أحرقها مطر من ملح البارود، يبسط فوقها ألق جناحيه البريئين: إنّها شجرة إجاص مزهرة. وخطا «سان لو» بضع خطوات إلى الأمام برفقتي:

- «كان بودّي لو نستطيع الانتظار سوية أنا وأنت. ولعليّ كنت أكثر سروراً في تناول طعام الغداء وحيداً معك أن نظلّ وحدنا حتى لحظة الذهاب إلى منزل عمتي. بيد أن طفلتي المسكينة يسرّها الأمر كثيراً وهي شديدة اللطف بحقّي، تدري، فما استطعت أن أحرمها ذلك. على أنّها ستروقك بأيّ حال. فميولها أدبية وهي مرهفة الأحاسيس، ثمّ ما ألطف أن تتناول طعام الغداء معها في المطعم فهي ممتعة وبسيطة إلى حد بعيد ودائمة الرضى عن كلّ شيء»

وأظنّ مع ذلك أنّ «روبير» قد هرب في ذلك الصباح بالضبط. وللمرّة الوحيدة على الأرجح، خارج المرأة التي سبق أن ألفها على مهل حناناً تلو حنان ولمح فجأة على مسافة منه «راحيل» أخرى، لمح صنواً لها ولكنه يختلف عنها تمام الاختلاف ويمثل مجرّد بلهاء صغيرة. كنا، وقد غادرنا البستان الجميل، في طريقنا لنستقلّ القطار بغية العودة إلى باريس حينما تم التعرّف في المحطّة على «راحيل» التي كانت تسير على بعد خطوات منا وصاحب بها «ساقطات» مبتذلات، كما كانت حالها، وصرخن وقد ظننها وحدها بادئ الأمر: «ويحك، يا راحيل، هل تصعدين؟ إن «لوسيين» و«جيرمين» في العربة ولايزال ثمّة مكان ؛ تعالي، ونذهب سوية إلى التزلج.» كنّ يتأهبن لتعريفها بمستخدمين، هما عشيقاهما، وكانا يرافقانهما حينما رفعتا أعينهما باستغراب إلى أبعد بقليل إزاء ما بدا من ضيق طفيف على «راحيل» فأبصرتانا واعتذرتا واستودعتاها وجاءهما منها تحيّة وداع كذلك، تحيّة وديّة ولكنّما بها بعض الاضطراب. كانتا اثنتين مسكينتين من بنات الهوى بياقتين من فراء ثعالب الماء الزائفة تبدوان على وجه التقريب بالمظهر الذي بدت به «راحيل» حينما لقيها «سان لو» أوّل مرّ. وما كان يعرفهما ولايعرف اسمهما ولما رأى أنّهما تبدوان على أوثق الصلات بصديقته خطر له أن هذه الأخيرة ربّما كان لها مكانها، ولعلّها لاتزال، في حياة لم يرتّب بها شديدة الاختلاف عن تلك التي يقضيها معها، حياة تتوافر فيها النساء للمرء مقابل ليرة ذهبيّة. ولم تتراء له تلك الحياة فحسب، بل تراءت كذلك وسطها «راحيل» مختلفة تماماً عن تلك التي يعرفها، «راحيل» شبيهة بهاتين «الساقطتين» الصغيرتين، «راحيل» تساوي عشرين فرنكاً. قد أصبح لـ «راحيل» باختصار القول شبهها مقدار لحظة، وقد لمح على مسافة ضئيلة من «راحيله» «راحيل» التي من بنات الهوى، «راحيل» الحقيقيّة. إن أمكن القول أن تكون «راحيل» الساقطة أكثر حقيقة من الأخرى. وربما خطر لـ «روبير» آنذاك أن جهنم هذه التي كان يعيش فيها، إلى جانب التطلع إلى زواج ثريّ وضرورته وإلى بيع اسمه كي يستطيع الاستمرار في تقديم مئة ألف فرنك لـ «راحيل» في العام، ربّما تأتّى له أن يفلت منها بسهولة وأن ينال منن عشيقته، مثلما ينال هؤلاء المستخدمونَ منن بائعات الهوى، في مقابل النزر اليسير. ولكن كيف عساه يفعل؟ فهي لم تأت ما تستحقّ عليه اللوم. وقد

تضحي، إن أقلّ من نعمه عليها، أقلّ لطفاً ولن تقول له ولن تكتب إليه من بعد شيئاً من تلك الأمور التي كانت تهزّ مشاعره إلى حدّ بعيد والتي كان يذكرها لرفاقه بشيء من التباهي ويحرص أن يلفت الانتباه إلى أي حدّ كان ذلك لطيفاً من جانبها، ولكنه يغفل أنّه ينفق عليها ببذخ، وحتى أن يكون قدّم إليها أيّ شيء وأن تلك الاهداءات على صورة فوتوغرافية أو تلك الصيغة التي تختم بها عجالة إنما هي تحوّل الذهب إلى الشكل الأكثر اقتضاباً والأغلى ثمناً. ولئن كان يتحاشى أن يقول إن لطائف «راحيل» النادرة تلك كانت مدفوعة الثمن فمن الضلال أن نقول إن ذلك كان بداعي الاعتزاز بالنفس والغرور– مع أن هذا الاستدلال الساذج يتمّ استخدامه بسخف بحق جميع العشاق الذين «يدفعون» وبحقّ العديد من الأزواج – كان «سان لو» على قدر كاف من الذكاء كي يتبيّن أن جميع متع الغرور ربّما لقيها بيسر ودون مقابل في المجتمع بفضل اسمه الكبير ومحياه الجميل وأن علاقته بـ «راحيل» هي التي وضعته على العكس خارج المجتمع إلى حدّما وأسهمت في كونه أقلّ تقديراً فيه. لا، إن هذا الاعتزاز في ابتغاء الظهور مظهر من ينال بدون ثمن علامات الإيثار الظاهر لدى من يحب إنما هو محض أمر ناتج عن الحبّ والحاجة في أن يعطي المرء لذاته وللآخرين صورة عن ذاته بوصفه محبوباً لدى من يحبه هو حبّاً جمّاً واقتربت «راحيل» منا تاركة المرأتين تصعدان إلى مقصورتهما ؛ بيد أن اسمي «لوسيين» و«جيرمين» استبقيا «راحيل» الجديدة فترة لا تقلّ عمّا فعلت فراء ثعالب الماء الزائفة ومظهر المستخدمين المتصنع فيه. لقد تخيل لحظة حياة في ساحة «بيغال» برفقة أصدقاء مجهولين وثروات ضخمة قذرة وعشيّات من المتع الساذجة في باريس هذه التي لم يبد له فيها ضياء الشمس في الشوارع الممتدّة من شارع «كليشي» على أنّه الضياء ذاته الذي كان يتنزّه فيه بصحبة عشيقته لأن الحب والعذاب الذي يؤلف وإيّاه شيئاً واحداً يتمتعان، شأن السكر، بالقدرة على التفريق بين الأشياء بالنسبة إلينا. كان ما ارتابه يقارب أن يكون باريس أخرى وسط باريس ذاتها ؛ وتبدّت له علاقته بمثابة استكشاف لحياة غريبة، فلئن كانت «راحيل» معه شبيهة إلى حدّ ما بذاته فإنّما كانت «راحيل» تعيش معه جزءاً من حياته الحقيقية، وحتى الجزء الأغلى ثمناً من جرّاء المبالغ الطائلة التي كان يغدقها عليها، الجزء الذي كانت تحسدها عليه الصديقات إلى حدّ بعيد وسوف يسمح لها ذات يوم بالاعتزال في الريف أو أن تسعى إلى الشهرة في المسارح الكبرى بعدما يتم لها جني المكاسب. كان بودّ «روبير» أن يسأل صديقته من كانت «لوسيين» و«جيرمين» وما لعلهّما قالتا لها لو أنها صعدت إلى مقصورتهما وبما كنّ سيقضين النهار سوية هي ورفيقتاها، نهاراً ربما انتهى، بعد التزلج، في مقهى الأولمبيا بمثابة التسلية القصوى لو لم نكن حاضرين، هو، «روبير»، وأنا. وأثارت مشارف الأولمبيا التي سبق أن بدت له حتى ذاك مملة فضوله وعذابه وخلفت في نفسه شمس ذلك النهار الربيعيّ المطلّ على شارع «كومارتان»، حيث ربّما ذهبت «راحيل» بعد قليل وكسبت ليرة ذهبية لو لم تكن عرفت «روبير»، حنيناً مبهماً. ولكن أية جدوى أن يطرح أسئلة على «راحيل» «حين يعلم مسبقاً أن الجواب سوف يكون إما محض صمت وإمّا كذبة وإمّا أمراً محزناً بالنسبة إليه ولا يصف أي شيء؟ لقد دام ازدواج «راحيل»بما جاوز الحدّ.

كان المستخدمون يغلقون الأبواب، فصعدنا بسرعة إلى عربة من الدرجة الأولى ونقلت لآلىء «راحيل» الرائعة إلى «روبير» ثانية أنّها امرأة عظيمة القيمة فداعبها وأدخلها إلى قلبه حيث تأملها، بعدما استبطنها، مثلما فعل على الدوام حتى هذا الحين – فيما عدا هذه الفترة الوجيزة التي أبصرها فيها في ساحة «بيغال»من وحي رسام انطباعي – وانطلق القطار.

كان صحيحاً أنّ لها ميولاً أدبية. فلم تكفّ عن التحدّث إليّ عن الكتب والفنّ الجديد والنزعة التولستوئية إلا لتنحي باللائمة على «سان لو» لأنه يفرط في احتساء الخمر.

- «آه! لو استطعت العيش معي عاماً واحداً لرأيت، كنت حملتك على شرب الماء ولأضحيت أحسن حالاًبكثير.»

- «أنا موافق، فلنمضِ بعيداً جداً.»

- «ولكنك تعلم أن لديّ عملاً كثيراً (إذ كانت تأخذ الفنّ المسرحيّ على محمل الجدّ) وما عسى تقول عائلتك على أي حال؟»

وشرعت توجّه أمامي لعائلة «روبير» صنوفاً من اللوم بدت لي مصيبة جداً وقد تبناها «سان لو» كلياً فيما خرج على طاعة «راحيل» فيما يخص الشامبانيه. أما أنا الذي كان يخشى عليه أشدّ الخشية من الخمر ويحسّ بتأثير عشيقته الخيرّ عليه فقد كنت على أهبة أن أشير عليه برذل أسرته، وتصاعد الدمع إلى عيني المرأة الشابة لأنني غفلت فتحدّثت عن «دريفوس». وقالت وهي تغالب زفرة:

- «أيها الشهيد المسكين، سوف يقضون عليه هناك.»

- «اطمئني يا «زيزيت»، فسوف يعود وتتمّ تبرئته ويعترفون بخطأهم.»

- «ولكنه يكون قد فارق الحياة قبل ذلك! على أنّ أبناءه سيحملون على الأقلّ اسماً لاغبار عليه. ولكن التفكير بما ينبغي أن يعانيه، ذلك ما يذبحني! وهل تصدّق أنّ والدة «روبير»، وهي امرأة تقيّة، تقول إنه ينبغي أن يظلّ في جزيرة الشيطان وإن كان بريئاً، أليست تلك فظاعة؟»

وأكد «روبير» قائلاً: «أجل ذلك صحيح تماماً، إنها تقول به. إنها والدتي ولا اعتراض لديّ، بيد أنّ الأكيد أنّها لا تملك حساسية «زيزيت».

ولكن وجبات الغداء، تلك «الأمور اللطيفة جداً»، كانت تتمّ أبداً في الواقع على أسوأ حال. فما أن كان «سان لو» يغشى مكاناً عاماً برفقة عشيقته حتى يخيل إليه أنها تنظر إلى جميع الرجال الحاضرين فيتجهّم، وتتبيّن سخطه الذي ربّما تلهث بتأجيجه، أو هي ما ابتغت على الأرجح، بداعي اعتزاز بالنفس أبله، وقد جرحتها لهجته أن تبدو وكأنها تحاول أن تهدئ منه. فكانت تتظاهر برفض تحويل عينيها عن هذا الرجل أو ذاك، ولم يكن ذلك على الدوام لمحض التسلية على أيّ حال.فإن اتفق للسيد الذي صادف أن يكون جاراً لهما في المسرح أو المقهى، أو اتفق بكلّ بساطة لحوذيّ العربة التي استقلاها أن يكون على شيء من الإمتاع لاحظ «روبير» ذلك قبل عشيقته وقد نبهته غريته في الحال. كان يبصر لتوه فيه واحداً من تلك الكائنات القذرة التي سبق أن حدّثني عنها في «بالبيك» والتي تفسد النساء وتلحق بهنّ العار بداعي التسلية، فيتوسل إلى عشيقته أن تصرف عنه نظراتها ويلفت بذلك نظرها إليه. فكانت ترى أحيانا أن «روبير» قد أعرب عن حسن ذوق بالغ في شكوكه إلى حدّ أنها كانت تكفّ في النهاية عن مضايقته كي يهدأ بالاً ويرضى بالذهاب في مشوار ليفسح

لها الوقت في مباشرة الحديث مع الرجل المجهول وفي ضرب موعد في الغالب، وحتى في اشباع نزوة عاجلة أحياناً.

وقد رأيت تماماً فور دخولنا إلى المطعم أنّ «روبير» كان يبدو مشغول البال. فقد لاحظ في الحال أنّ «إيميه» وسط رفاقه العاميين، وهو ماخفي علينا في «بالبيك»، كان يبعث من حوله على نحو غير مقصود، وبألق متواضع، الجوّ الخياليّ العاطفي الذي ينشأ على مدى عدد من السنين من جرّاء شعر خفيف وأنف يوناني، الأمر الذي كان يميزّه وسط جمهرة الخدم الآخرين. فقد كان هؤلاء، وكلهم تقريباً مسنّون إلى حدّ ما، يمثلون نماذج قبيحة أيما قبح جليّة كل الجلاء لخوارنة مرائين ومرشدين روحيّين منافقين، بل في الغالب لممثلين هزليين سابقين لا وجود تقريباً لجباههم التي على شكل قوالب السكر إلاّ في مجموعات الرسوم المعروضة في الاستراحة التاريخية المتواضعة لمسارح صغيرة متقادمة العهد يمثلون فيها بأدوار الخدم أو كبار الكهّان، وكان يبدو هذا المطعم، بفضل انتقاء اصطفائي وربمّا بفضل طريقة تعيين وراثيّة، وكأنّه يحافظ على أنموذجها المهيب في ضرب من المجمع العرافيّ. ولما عرفنا «إيميه» فقد أقبل بنفسه لسوء الحظّ ليسجّل طلبنا فيما ظل ينساب باتجاه موائد أخرى موكب كبار الكهّان المسرحيّ. وسأل «إيميه» عن صحة جدّتي وسألته عن أخبار زوجته وأولاده، فنقلها إليّ بحماسة إذ كان رجل أسرة. كان يبدو ذكياً وحازماً ولكنّه مجلّ لغيره. وأخذت عشيقة «روبير» تنظر إليه بانتباه غريب. ولكنّ عيني «إيميه» الغائرتين اللتين يضفي عليهما قصر نظر طفيف شيئا من العمق المخادع لم يفصحا عن أيّ انطباع على صفحة محيّاه الجامد. ولابدّ أن الخطوط الجميلة التي اصفرّت قليلاً وأرهقت الآن والتي تؤلف وجهه، تلك التي كانت تشاهد أبداً على مدى سنوات عديدة، شأن تلك الصورة التي تمثل الأمير «أوجين»، في المكان ذاته وفي أقصى قاعة الطعام الخالية على الدوام تقريباً، لابدّ أنّها لم تجتذب الكثير من النظرات الفضولية في الفندق الريفيّ الذي عمل فيه سنوات عديدة قبل مجيئه إلى «بالبيك». لقد سبق إذن أن ظلّ فترة طويلة، لقلة توافر العارفين بالأمور دونما شك، جاهلاً لقيمة محيّاه الفنية وقليل الاستعداد على أيّ حال للفت الأنظار إليها إذ كان يتسم بالجفاء. وأكثر مافي الأمر أن تكون باريسية عابرة سبيل قد توقفت مرّة في المدينة ورفعت ناظريها إليه وطلبت أن يجيء ليقدّم لها الطعام في غرفتها قبلما تستقلّ القطار ثانية ودفنت في الفراغ الشفاف الرتيب العميق لحياة الزوج الصالح والخادم الريفيّ سرّ نزوة مضت دون رجعة، ولن يجيء من يكتشفها هناك في يوم. بيد أنّ «إيميه» لابدّ لاحظ الإلحاح الذي بقيت فيه عينا الفنانة الشابّة تحدقان إليه. ولكن الإلحاح لم يفت «روبير» على أيّ حال، فقد أخذت أرى حمرة تتجمع تحت وجهه، ولم تكن شديدة كالتي تلهبه إن هزّه انفعال مفاجئ بل طفيفة مبعثرة. فسأل عشيقته بعدما صرف «إيميه» بشيء من الجفاء:

— «رئيس الخدم هذا ظريف جداً يا «زيزيت»؟ يخيل إليّ أنك تودّين اجراء دراسة تمهيدية عليه».

— «ها نحن قد بدأنا، كنت متيقنة من ذلك.»

— «ولكن ما الذي بدأناه ياصغيرتي؟ إن كنت مخطئاً فلست أنكر، ذلك لك. ولكن لي الحقّ مع ذلك أن أحذّرك من هذا الخادم الذي أعرفه من «بالبيك» (ولولا ذلك لما باليت)، فهو واحد من أعظم ماحملت الأرض من أوغاد في يوم.»

وبدا أنّها تودّ طاعة «روبير» وبدأت معي حديثا أدبيًا شارك فيه. لم أشعر بالسأم وأنا أتحدّث إليها فقد كانت تعرف تمام المعرفة الأعمال التي كنت معجباً بها وتكاد توافقني الرأي في أحكامها، ولكني ما كنت أولي تلك الثقافة أهمية كبيرة إذ كنت قد سمعت على لسان السيدة «دوفيلباريزس» أنّها عديمة الموهبة. كانت تمزح بظرافة حول ألف أمر، ولعلّها كانت ممتعة حقا لو لم تتصنّع على نحو مزعج اللغة الخاصة بالندوات الأدبيّة ومشاغل الرسم. وكانت تمدّها على أيّة حال لتشمل كل شيء، وإذ تعودّت على سبيل المثال أن تقول عن لوحة، إن كانت انطباعية، وعن أوبرا إن كانت من النهج الفاغنيري: «آه! ذلك حسن»، قالت في يوم قبلها فيه شاب في أذنها وأبدى انضاعاً، وقد أثر فيه أنّها تظاهرت برعشة: «بلى، على صعيد الإحساس، أجد أنّ ذلك حسن.» ولكنّ ما كان يثير دهشتي أنّ العبارات الخاصة بـ«روبير» (والتي ربّما جاءته من أدباء تعرفهم) كانت هي تستخدمها في حضرته، وهو في حضرتها كما لو كانت تلك لغة ضرورية ودون أن يتبينّا عدمية أصالة هي ملك للجميع.

كانت إذ تتناول الطعام غير حاذقة في استخدام يديها إلى حدّ يدعو إلى افتراض أنهّا لابدّ تظهر غير ماهرة إلى حدّ بعيد وهي تمثل على خشبة المسرح. وما كانت تستعيد شطارتها إلاّ في الحبّ بفضل هذا التكهّن المؤثر لدى النساء اللائي يحببن الرجل إلى حدّ يحزرن معه من أوّل مرّة ما سيجلب أعظم المتعة لهذا الجسد المختلف إلى حدّ بعيد عن جسدهنّ.

وكففت عن المشاركة في الحديث حينما أخذا في الكلام عن المسرح لأن «راحيل» كانت مفرطة الإساءة في هذا الشأن. لقد دافعت، والحق يقال، عن «لابيرما» بلهجة المشفق – ضدّ «سان لو»، الأمر الذي يبرهن على أنّها كانت كثيراً ما تهاجماه في حضرته –قائلة: «لا، لا، إنّها امرأة مرموقة. إن ما تفعله لايؤثر من بعد فينا بالطبع، إذ لم يعد يوافق تماماً ما نبحث عنه، ولكن ينبغي لنا أن نضعها في مكانها في الفترة التي جاءت فيها ؛ إن لها الكثير بذمتنا. لقد قامت بأشياء حسنة، لو تدرى. ثم إنّها امرأة طيبّة إلى حدّ بعيد، وهي كبيرة القلب ؛ هي لاتحب بالطبع الأمور التي تثير اهتمامنا، بيد أنّها تمتعّت بميزة ذكاء حلوة إلى جانب وجه مؤثر بعض الشيء.» (والأصابع لاترافق جميع الأحكام الجمالية على نحو واحد. فإن تعلق الأمر بالرسم بالألوان اكتفى المرء، كيما يبدي أنّها قطعة جميلة ومن عجينة ممتازة، برفع الإبهام. ولكنّ «ميزة الذكاء الحلوة» أكثر تطلباً. فلا بدّ لها من اصبعين، أو ظفرين بالأحرى، كما لو اقتضى الأمر أقصاء ذرّة غبار.) ولكن عشيقة «سان لو»– ان استثنينا ذلك – كانت تتحدّث عن أكثر الفنانين شهرة بلهجة من السخرية والاستعلاء كانت تثير حنقي إذ كنت أحسب – وأنا مخطئ في ذلك – أنّها هي من كانت أدنى منهم. ولاحظت تماماً أنّي لابدّ أعتبرها فنّانة ضحلة وأني أكنّ على العكس الكثير من التقدير لأولئك الذين تحتقرهم. ولكنها لم تستأ لذلك لأن في الموهبة العظيمة التي لم تحظ بعد بالاعتراف، كما كانت حالها، وأية كانت ثقتها بنفسها، ضرباً من التواضع وأننا نقيس علامات الاحترام التي نطالب بها لا بمواهبنا الخفية بل بوضعنا المكتسب. (كنت أزمع بعد ساعة رؤية عشيقة «سان لو» في المسرح تبدي الكثير من الاحترام حيال الفنانين ذاتهم الذين كانت تصدر بحقهم حكماً قاسياً إلى هذا الحدّ. ولذلك لم تقلّ إلحاحاً، مهما صغر الشكّ الذي كان لابدّ أن يخلفه سكوتي في نفسها، على أن نتعشى معاً في المساء مؤكدة أن لم يرقها حديث إنسان قطّ بقدر ما فعل حديثي. ولئن لم تكن بعد في المسرح حيث كنّا نزمع الذهاب بعد الغداء، فقد كان يبدو لنا أننا في استراحة

مسرح تزينه رسوم قديمة للفرقة لكثرة ماتوافر لرؤساء الخدم من وجوه تبدو وكأنها تختلط بجيل كامل من الفنانين المبرّزين. كانوا يبدون كذلك وكأنهم أعضاء مجامع لغوية: فهنا توقّف أمام طاولة معدّة يتفحص إجّاصات بالوجه والفضول المتجرّد الذي ربّما استطاع أن يبديه السيد «دو جوسيو». وآخرون إلى جانبه ينقلون في القاعة نظرات تتسّم بالفضول والفتور من تلك التي ينقلها في الجمهور أعضاء من المعهد سبق أن وصلوا فيما يتبادلون بضع كلمات لاتسمعها. كانت وجوهاً مشهورة بين الروّاد. بيد أنّهم كانوا يشيرون إلى وافد جديد مغضنّ الأنف معسول الشفة تبدو عليه، حسبما كانت تقول«راحيل» في لغتها، هيئة الكهّان، فينظر كلٌّ باهتمام إلى المصطفى الجديد. وبعد قليل شرعت «راحيل» تغمز بعينها طالباً شاباً كان يتناول غداءه إلى طاولة مجاورة مع أحد الاصدقاء وربّما ابتغت بذلك حمل «روبير» على الرحيل كي تظلّ وحدها مع «إيميه».

وقال «سان لو» الذي تركزّت على وجهه الحمرةُ المتردّدة، التي كسته منذ قليل، سحابةً بلون لدم تمدّد ملامح صديقي المشدودة وتغمق لونها: «زيزيت، أرجوك ألاّ تنظري على هذا النحو إلى هذا الشاب. أفضل، إن ابتغى أن تجعلي منا فرجة المتفرّجين، أن أتناول الغداء بمفردي وأمضي لانتظارك في المسرح.»

وفي هذه اللحظة جاء من يقول لـ «إيميه» إنّ سيداً يرجوه المجيء للتحدث إليه على باب عربته. ونظر «سان لو»، وما يزال قلقاً يخشى أن يكونَ ثمة مهمةَ عشق يقع عليه أن ينقلها إلى عشيقته، نظر من الزجاج فأبصر السيد «دو شارلوس» في أقصى عربته مشود اليدين في قفازين أبيضين مخططين بالأسود وفي عروة سترته زهرة. وقال لي بصوت منخفض:

– «ترىَ، إن أسرتي تعمل على ملاحقتي حتى هنا. رجوتك، أنا لا أستطيع، ولكن بما أنّك تعرف رئيس الخدم حقّ المعرفة، وهو سيشي بنا بالتأكيد، فاطلب إليه ألاّ يذهب إلى العربة. وليكن على الأقلّ خادماً لايعرفني. فإذا ما قيل لعمي إنّهم لا يعرفونني فأنا أدرى بطبيعته، إنه لن يأتي للبحث في المقهى فهو يمقت هذه الأماكن. وإنه لمن المقرفَ على أيّ حال أن يعطيني زير نساءَ عجوز مثله لم يرعو بعد دروساً على نحو مستمرّ وأن يجيءَ للتجسس عليّ!»

وبعدما أبلغ «إيميه» أوامري أرسل واحداً من خدمه كان عليه أن يقول إنّه لايستطيع أن يكلف نفسه وإن تمّ السؤال عن المركيز «دو سان لو» فهم لايعرفونه. وانطلقت العربة في الحال. ولكن عشيقة «سان لو» لم تَسمع أقوالنا المهموس بها بصوت منخفض وحسبت أن الأمر يتعلق بالشاب الذي كان «روبير» يلومها أن تغمزه فانفجرت بالشتائم:

– «عجباً! جاء دور هذا الشاب الآن؟ حسناً تفعل أن تحذرني. ما أحلى تناول الغداء ضمن هذه الشروط! لاتهتمّ بما يقول فهو مهزوز العقل إلى حدّ ما وهو على وجه الخصوص»، تضيف قولها وهي تلتفت إليّ، «إنّما يقول ذلك لأنه يظنّ أن الظهور مظهر الغيران يضفي أناقة ويلبسك لبوس السيد الكبير.»

وأخذت تصدر بقدميها ويديها بوادر توتر عصبي.

– «ولكنّ الأمر محرج بالنسبة إليّ أنا يا «زيزيت». فأنك تضعيننا موضع سخرية هذا السيد الذي سيدخل في روعه أنّك تحاولين التقرّب منه والذي يبدو لي من أسوأ السوء.»

– «أمّا أنا فيروقني جدّاً بالعكس. إن له بادئ الأمر عينين أخاذتين لهما طريقة في النظر إلى النساء تحس معها أنه لابدّ يحبّهن.»

وصاح«روبير» قائلاً: «اصمتي على الأقلّ إلى ما بعد رحيلي إن كنت مجنونة. إليّ بحوائجي ياغلام.»

وما كنت أدري إن انبغى أن أتبعه ؛ فقال لي باللهجة نفسها التي حدّث بها عشيقته منذ هنيهة وكما لو كان غاضباً مني بالمقدار نيسه: «لا، إن بي حاجة إلى أن أكون وحدي». كان غضبه كجملة موسيقية واحدة تنشد وفقها في الأوبرا عدّة محاورات تختلف كلّ الاختلاف فيما بينها في نصّ الكلام من حيث معناها وطبيعتها ولكنّما تجمعها في شعور واحد. وبعدما ذهب «روبير» نادت عشيقته «إيميه» وسألته معلومات مختلفة. كانت تريد بعد ذلك أن تعلم كيف كنت أراه.

– «إنّ له نظرة مسلية، أليس كذلك؟ تفهم، ماقد يفرحني أن أعلم ما يمكن أن يفكر فيه وأن يقدّم لي الطعام غالباً أن اصطحبه في السفر ؛ ولكن لا أكثر من ذلك. فلو اضطررت أن تحب جميع الذين يروقونك لكان الأمر في الأساس ثقيلاً إلى حدّ ما. و«روبير» ليس على حقّ في ما يخطر له من ظنون. فكلّ ذلك يتشكل وينتهي في رأسي، وعلى «روبير» أن يطمئن بالاً. (وكانت توالي النظر إلى «أيميه».) هيّا انظر إلى عينيه السوداوين، إني أودّ معرفة ما وراءهما.»

وبعد قليل جاء من يقول لها إن «روبير» أرسل في طلبها إلى حجرة خاصة ذهب إليها، مروراً بمدخل آخر، لينهي غداءه دون أن يجتاز المطعم ثانية. وهكذا ظللت وحدي، ثم أرسل «روبير» يناديني بدوري. فوجدت عشيقته مستلقية على أريكة تضحك تحت وابل القبلات والمداعبات التي يغدقها عليها. كانا يحتسيان الشمبانيه، وكانت تقول له بين الحين والحين «مرحبي يا أنت!» إذ كانت قد تعلمت منذ وقت قريب هذه الصيغة التي تبدو لها آخر ما وصل إليه الحنان والذكاء. كنت قد أقللت في طعام الغداء وأحس أنّي غير مرتاح، وأخذت آسف، دون أن تسهم أقوال «لوغراندان» في شيء من ذلك للتفكير بأني أبدأ عشية الربيع الأولى هذه في حجرة مطعم وسوف إختتمها في كواليس مسرح. وبعدما نظرت «راحيل» إلى ساعتها لترى إن كانت لن تتأخر قدّمت لي الشمبانيه ومدّت لي واحدة من سكايرها الشرقية وانتزعت من أجلي وردة من صدارها، وإذ ذاك قلت في نفسي: «ليس لي أن آسف كثيراً على نهاري، فلم تذهب تلك الساعات التي قضيتها إلى جانب هذه المرأة الشابة هدراً إذ توافر لي بوساطتها وردة وسيكارة معطرة وكوب شمبانيه، وهو أمر لطيف ولا يمكن دفع مقابل كافٍ له». كنت أحدث نفسي بذلك إذ كان يبدو لي أنني أضفي طابعاً جمالياً على ساعات الضجر تلك وأني بذلك أبرّرها وأنقذها. ولعله كان ينبغي لي أن أفكر بأن ما كنت أحس به من حاجة إلى سبب يحمل إليّ العزاء لما لحق بي من ضجر كان كافياً ليبرهن أني ما كنت أحس بأيّ أمر جمالي. فأما «روبير» وعشيقته فقد بدا أنّهما لايحتفظان بأي ذكر للمشاجرة التي قامت بينهما قبل بضع لحظات ولابأني شهدتها. فلم يلمحا إليها البتة ولابحثا لها عن أيّ عذر ولا للتناقض الذي تورثها إيّاه تصرّفاتهما الآن. ولكثرة ما احتسيت من الشمبانيه معهما أخذت أشعر بشيء من النشوة التي كنت أحس بها في «ريفبيل»، ولعلها لم تكن واحدة على الأرجح. فليس يكشف فينا كلّ نوع من النشوة فحسب، من تلك التي توليها الشمس أو السفر إلى نشوة التعب أو الخمرة، بل كل درجة من النشوة، ولابدّ أن تحمل «رقما»

مختلفا كما هي حال الأعماق في البحر، إنّما تكشف فينا عن إنسان خاص في العمق الذي تبلغه بالضبط.
كانت الحجرة التي يجلس فيها «سان لو» صغيرة، ولكن المرآة التي تزينها قد وضعت بحيث تبدو وكأنها تعكس ثلاثين غيرها على مدى منظور لاينتهي. وكان لابد للمصباح الكهربائي الموضوع في أعلى الإطار حينما يضاء ويلحق به قرابة ثلاثين من الأضواء المنعكسة التي تشبهه أن يولي الشارب، وإن كان وحيداً، الفكرة التي قوامها أنّ المكان يتضاعف من حوله في الوقت الذي تتضاعف فيه أحاسيسه التي تثيرها النشوة وأنه إن سجن وحده داخل هذا المقر الصغير فإنما يمدّ سلطانه مع ذلك على شيء أكثر امتداداً في خطّه المنحني اللامحدود المضيء من ممر في «حديقة باريس». ولما كنت إذ ذاك في تلك اللحظة ذلك الشارب فقد بحثت عنه في المرآة فأبصرته فجأة ينظر إليّ، قبيحاً مجهولاً. وكانت بهجة النشوة أكثر قوة من القرف، فخصصته، يدفعني المرح أو التحدي، بابتسامة ردّ بمثلها. وكنت أحسني تحت السلطان العابر والقوي للدقيقة التي تبدو الأحاسيس فيها شديدة القوة إلى أني لم أعلم إن لم يكن حزني الوحيد يكمن في التفكير بأن الأنا القبيحة التي لمحتها منذ قليل ربما كانت في يومها الأخير وأنني لن ألتقي البتة من بعد بذلك الغريب في بحر حياتي.

أما «روبير» فقد أغضبه أنني لم أشأ التألق أكثر ممّا فعلت في عيني عشيقته.

— «ويحك، هذا السيد الذي التقيت به هذا الصباح والذي يمزج الحذلقة بعلم الفلك، قُصّ عليها ذلك، فإني لا أذكر تماماً» — وكان ينظر إليها من طرف عينه.

— «ولكن ليس ثمة مايقال، يا صغيرتي، غير الذي قلت منذ قليل.»

—«كم أنت مزعج. إروِ إذن عن أمور «فرانسواز» في محلة الـ«شانزيليزيه» فسوف يسرّها ذلك كثيراً.»

— «أجل، فما أكثر ما حدّثني «بوبيه» [(1)] عن«فرانسواز».» وأخذت بذقن «سان لو» وعادت تقول، لعجز في الابتكار، وهي تجذب ذاك الذقن وجهة الضوء: «مرحبى يا أنت!».

منذ لم يعد الممثلون حصرا ، في نظري، هم المؤتمنين في إلقائهم وتمثيلهم على حقيقة فنية أخذوا يحظون باهتمامي في حدّ ذاتهم. كنت أتلهى، ظناً مني أني أتامل شخصيات رواية هزلية قديمة، برؤية الفتاة الساذجة تتابع، ساهية، على الوجه الجديد العائد لسيد شاب دخل إلى القاعة منذ هنيهة، التصريح الغرامي الذي يسمعها إيّاه البطل الشاب في المسرحية، فيما لايتورّع هذا الأخير، وهو في قمة مقالته الغرامية، عن اختلاس نظرة لاهبة إلى سيدة عجوز تجلس في مقصورة مجاورة، وقد أدهشته لآلئها الرائعة ؛ وهكذا كنت أشهد، ولاسيما بفضل المعلومات التي كان يزودّني بها «سان لو» عن حياة الفنانين الخاصة، رواية أخرى صامتة معبرة يتمّ تمثيلها تحت صفحة المسرحية المحكيّة التي كانت تثير اهتمامي على أيّة حال على ضحالتها ؛ ذلك أني كنت أحس بتلك الشخصيات العابرة المعمّرة في آن التي تؤلفها شخوص المسرحية تنمو وتتفتح على مدى ساعة تحت أضواء المسرح وقد تشكلت من التصاق وجه آخر من أصبغة وكرتون فوق وجه الممثل ونص كلمات الدور فوق نفسه الخاصة به، وهي شخصيات فاتنة إلى ذلك، نحبّها ونعجب بها ونرثي لحالها ونودّ لو

(1) تصغير «روبير» للتحبب.

نلقاها مرّة أخرى بدما نغادر المسرح ولكنها تنفرط مذ ذاك ممثلا لم يعد في وضعه الذي كان عليه في المسرحية، ونصاً لايريك وجه الممثل من بعد، ومسحوقاً ملوّناً يزيله المنديل ؛ لقد عادت باختصار القول عناصر لم يظلّ فيها شيء منها بسبب انحلالها الذي اكتمل فور انتهاء العرض والذي يحملك، شأن زوال المحبوب، على الشكّ بحقيقة الأنا وعلى التأمل في الموت.

وقد حز في نفسي إلى حدّ بعيد مشهد من مواد البرنامج. فقد كان على امرأة شابّة تمقتها «راحيل» وكثيرات من صديقاتها أن تتمّ في إطار اغنيات قديمة بدايات بنت عليها جميع آمالها المستقبلية وآمال ذويها. وكان لهذه الامرأة الشابّة مؤخرة شديدة البروز تكاد أن تكون مضحكة وصوت جميل ولكنّه نحيل إلى حدّ بعيد يضعفه إلى ذلك الانفعال ويتناقض وذلك الهيكل الجبار. وكانت «راحيل» قد وزّعت في القاعة عدداً من الأصدقاء والصديقات يتناول دورهم إرباك المبتدئة. ويعهدونها خجولة، بتهكّمهم الجارح وإفقادها أعصابها على نحو تفشل معه فشلاً ذريعاً لايبرم المدير بعده تعهداً معها. ومنذ النغمات الأولى التي فاهت المسكينة بها أخذ بعض النظارة يمّن. ثمّ انتقاؤهم لهذا الغرض يتداوّن ظهرها ضاحكين، وتضحك بعض النساء المشاركات في المؤامرة بصوت عال وتزيد كلّ نغمة ناحلة من الضحك المقصود الذي أخذ ينقلب فضيحة. وحاولت المسكينة التي تصبّب عرقها من ألم تحت مساحيقها أن تقاوم فترة، ثمّ ألقت من حولها على الجمهور نظرات يمتزج فيها الأسي والحنق فكان أن ضاعفت من صيحات الاستنكار. وجرّت غريزة التقليد والرغبة في الظهور بمظهر الذكاء والشجاعة ممثلات جميلات لم يسبق اعلامهن بالأمر ولكنهنّ كنّ يرمين الآخرين بنظرات مختلسة يبطنّها التواطؤ والخبث ويتلوّين من الضحك بقهقهات عالية حتى إن مدير المسرح أمر باسدال الستار في نهاية الأغنية الثانية مع أن البرنامج كان يتضمن خمساً غيرها. وجهدت ألاّ أفكرّ في هذا الحادث أكثر مما كنت أفعل بعذاب جدّتي حينما كان عمّ والدتي يأمر، بغية تنكيدها. بإعطاء جدّي بعض الكونياك، لأن فكرة الخبث تتضمنّ في نظري شيئاً مؤلماً إلى أبعد الحدود. ولكن كما أن الإشفاق على الشقاء قد لا يكون صحيحاً كلّ الصحة لأننا نعيد بالمخيلة خلق ألم كامل لايفكر الشقيّ أن يرثي لحاله منه إذ هو مضطرّ لمحاربته، كذلك من المرجح أنّ ليس للخبث في نفس الشرّير تلك القسوة المحضة المتلذّذة التي يؤلمنا تخيلها أشدّ الألم. فالبغضاء تلهمه والغضب يضفي عليه حدّة ونشاطاً لايتسمان بما يبهج القلوب، ولابدّ من السادية كيما نستخلص منه المتعة، فالشرير يظنّ أنّه إنما يعذّب شرّيراً. كانت «راحيل» تتصوّر بالتأكيد أنّ الممّثلة التي أذاقتها المر لا أهمية لها البتة وأنها على أية حال إذ تدعو إلى استنكار فنها فانما تثأر للذوق السليم وتلقن الرفيقة الرديئة درساً. وقد فضلت مع ذلك ألاّ أروي عن تلك الحادثة بما أنّني لم أملك لا الشجاعة ولا القدرة للحؤول دونها. فقد كان شقّ عليّ كثيراً إن تناولت الضحية بالخير أن أشبه المشاعر التي تحرّك جلاّدي هذه المبتدئة بمباهج القسوة.

على أن بداية هذا العرض قد أثارت اهتمامي بطريقة أخرى. فقد أفهمتني جزئياً طبيعةَ الوهم الذي وقع «سان لو» ضحيته إزاء «راحيل» والذي جعل هوّة سحيقة بين الصور التي كنا نكونها، أنا و«روبير» عن عشيقته حينما كنّا نبصرها في هذا الصباح نفسه في ظلّ أشجار الإجّاض المزهرة. كانت «راحيل» تمثل دور محض ممثلة صامتة تقريبا في المسرحية الصغيرة. وكان لـ «راحيل» واحد من تلك الوجوه التي يرسم البعد خطوطها – وليس البعد بالضرورة بعد المسرح، إذ العالم لا يعدو كونه مسرحا أوسع رقعة – والتي تتهاوى هباء إن تمتّ رؤيتها عن كثب. فما كنت ترى إن اتخذت مكانك إلى جانبها سوى سديم، سوى مجرّة من بقع النمش

وبثور في غاية الصغر، ولاشيء سوى ذلك. وتتوقف امكانية رؤية كل ذلك على مسافة مناسبة ويطلع من الوجنتين المتراجعتين الغائرتين، كما الهلال، أنف دقيق نقيّ الخطوط إلى حدّ تودّ معه لو تكون موضع انتباه «راحيل» وتلقاها إلى مالا حدود وتمتلكها بالقرب منك إن لم يتفق لك البتة أن رأيتها على نحو آخر وعن كثب. ولم تك تلك حالي، بل كانت حال «سان لو» حينما رآها تمثل أوّل مرّة، وقد تساءل حينذاك كيف يقترب منها، كيف يتعرّف بها، وانكشف داخله مجال كامل رائع – ذاك الذي كانت تعيش فيه – تصدر عنه اشعاعات لذيذة ولكنه لن يستطيع ولوجه. وانطلق من مسرح المدينة الريفية الذي جرى ذلك فيه، لعدّة سنوات خلت، وهو يقول في نفسه إن الكتابة إليها قد تكون جنوناً وإنها لن تجيبه، وهو على أتمّ الاستعداد لمنح ثروته واسمه المخلوقة التي كانت تعيش في صدره في عالم يسمو كثيراً على هذه الحقائق المألوفة تماماً، عالم يزيده الشوق والحلم جمالاً حينما أبصر على مدخل الفنانين الفرقة المرحلة بقبعاتها اللطيفة، فرقة الفنانين الذين قاموا بالتمثيل خارجة من أحد الأبواب. وكان ثمة في انتظارهم شبّان ممن كانوا يعرفونهم. ولما كان عدد البيادق البشرية أقلّ من عدد التشكيلات التي يمكن أن تؤلفها، فإنه يتفق في قاعة غاب عنها جميع الأشخاص الذين يمكن أن نعرفهم أن نلقى ثمة شخصاً ظننا أنّا لن نحظى بلقياه ثانية في يوم ويوافينا في الوقت المناسب حتى لتبدو المصادفة ربانية ولعلّ مصادفة أخرى كانت حلت دوننا شكّ محلّها لو كنا لافي هذا المكان بل في آخر مختلف ربّما ولدت فيه رغبات أخرى واتفق أن نصادف فيه آخر من معارفنا القدماء ليرفدها. لقد انغلقت أبواب عالم الأحلام الذهبية على «راحيل» قبل أن يراها «سان لو» خارجة من المسرح مما جعل بقع النمش والبثور قليلة الشأن. ولكنها على ذلك كدّرته، يزيد من الأمر أنه لم يعد وحيداً فلم يتوافر له من القدرة على الحلم ما توافر له في المسرح. ولكنها هي ظلّت تحكم أفعاله. مع أنّه لم يتفق له من بعد أن يراها، شأن تلك الكواكب التي تحكمنا بجاذبيتها حتى في أثناء الساعات التي لا نراها فيها بأعيننا. ولذلك فقد نجم عن الشوق إلى الممثلة ذات الملامح الدقيقة التي لم تكن حتى حاضرة في ذاكرة «روبير» أن ارتمى على الرفيق القديم الذي كان هنالك مصادفة وحمله على تعريفه بالمرأة فاقدة الملامح وصاحبة بقع النمش، إذ هي المرأة نفسها، قائلاً في سرّه إنه سوف يفكر بعد ذلك في معرفة منْ من الاثنتين كانت في الواقع الممثلة. وكانت في عجلة من أمرها فلم تتجه حتى بالكلام إلى «سان لو» في تلك المرّة ولم يتيسرّ له أخيراً إلاّ بعد بضعة أيام أن يعود معها وقد حصل منها على فراق رفاقها. كان مذ ذاك يحبها. فإنّه ينجم عن الحاجة إلى الحلم والرغبة في أن يسعد المرء على يد من حلم بها أنّ الكثير من الوقت غير لازم كي نعهد بجميع احتمالات سعادتنا لتلك التي كانت قبل بضعة أيّام محض ظهور على خشبة المسرح مفاجئ مجهول لانبالي

وحينما انتقلنا إلى خشبة المسرح بعدما أسدل الستار أردت، وقد تملكتني الرهبة من التنقل عليها، أن أتحدث إلى «سان لو» بحدة، فيجيء مظهري، وما كنت أدري أي مظهر ينبغي اتخاذه في هذه الأمكنة الجديدة عليّ، وقد استأثرت به محادثتنا كلياً ويظنون أني منغمس فيه وساه إلى الحدّ الذي يرون من الطبيعي معه أن لا أتخذ الملامح التي كان يجدر بي اتخاذها في مكان أكاد لا أعلم أنّي موجود فيه لاستغراقي في ما كنت أقول. واغتنمت، بغية الإسراع، أول موضوع حديث خطر لي فقلت لـ «روبير»:

– تعلم أنّي ذهبت لوداعك في يوم رحيلي، إذ لم يتسنّ لنا البتّة التحدّث في الأمر. لقد حيّيتك في الشارع.»

وأجابني قائلاً: «لاتكلمني عن ذاك فقد اغتممت من جرّائه. لقد تلاقينا قرب الثكنة تماماً ولكني لم أستطع التوقف لانّني كنت متأخراً جداً. أؤكد لك أني كنت شديد الغمّ.».

لقد تعرّفني إذن! كنت لاأزال أستعيد التحية اللاشخصية تماماً التي وجهها إليّ وهو يرفع يده إلى قبعته العسكرية دون أية نظرة تكشف عن أنه عرفني ودون أية إشارة تبرز أنه يأسف لفقده القدرة على التوقف. ولابدّ أن الايهام الذي اعتمده في ذلك الحين بأنه لايتعرّفني قد بسّط بالطبع الكثير من الأمور. ولكني ذهلت أن عرف كيف يقرّ الرأي عليه بتلك السرعة وقبل أن يكشف ردّ فعل لديه عن انطباعه الأول. لقد سبق لي أن لاحظت في «بالبيك» أن جسمه، إلى جانب تلك الصراحة الساذجة لمحياه الذي كانت بشرته تسمح شفوفاً برؤية تدفق بعض الانفعالات المفاجئ، قد درّبته التربية تدريباً رائعاً على عدد من وجوه النفاق الذي تفرضه اللياقة وأنّه يستطيع، شأن فنّان مجلّ أن يمثل في حياته العسكرية وفي حياته الاجتماعية أدواراً مختلفة الواحد تلو الآخر. ففي أحد أدواره كان يحبني حباً عميقاً ويتصرف حيالي وكأنه أخ لي. لقد كان أخاً لي وعاد فأضحاه ثانية، بيد أنه أصبح مقدار لحظة شخصاً آخر لايعرفني وقد رفع يده، وهو يمسك بالأعنة ونظّارته على عينه ودونما نظرة أو ابتسامة، إلى واقية عمرته كي يردّ لي تحيتي العسكرية على نحو صحيح!

كانت مناظر المسرح التي أمرّ بينها لاتزال قائمة وقد بدت بائسة إذ تمت رؤيتها على هذا النحو عن كثب وفقدت كلّ ما يضفيه عليها البعد والإضاءة اللذين قدّرهما الرسّام الكبير الذي نفذها، ولم تتعرّض «راحيل» حينما اقتربت منها لقوّة تدميرية أقلّ شأناً. فقد بقيت فتحتا أنفها البديع عالقتين في المنظور بين القاعة والمسرح شأن بروز المناظر تماما. فلم تعد هي نفسها وما كنت أتعرّفها إلاّبفضل عينيها اللتين احتمت فيهما هويتها. لقد زال شكل هذا الكوكب الفتّي الشديد اللمعان منذ قليل وزال ألقه، ولم أعد أميّز في مقابل ذلك فوق هذا الوجه المتسق تماماً منذ قليل سوى نتوءات وبقع وأخاديد، كما لو نقرّب عيننا من القمر ويكف عن الظهور بلون ورديّ وذهبيّ بالنسبة إلينا.

وسرّني أن ألمح ما بين صحفيّين أو رجال مجتمع من أصحاب الممثلات كانوا يحيون ويتحدثون ويدخنون كما هوشأنهم في المدينة، شاباً بقلنسوة من المخمل الأسود وتنّورة بلون الأرطنسيه ووجنتين خططتا بالأحمر كصفحة من دفتر رسوم لـ «واتو»، وكان يبدو، والبسمة في فمه وعيناه عالقتان في السماء وهو يخطّ إشارات حلوة براحتي يديه ويقفز بخفة، كان يبدو وكأنه إلى حدّ بعيد من جنس غير جنس الناس المتعقلين الذين يرتدون السترة وحلة المراسم والذين كان يتابع فيما بينهم كالمجنون حلمه المشدوه، ويبدو بعيداً عن مشاغل حياتهم، سابقاً لعادات حضارتهم، محرّراً من قوانين الطبيعة حتى ليبدو الأمر مريحاً ندياً كأن ترى فراشة تاهت وسط جمهور، وأن تلاحق بعينيك ما بين الأفاريز الخطوط المتعرّجة الطبيعية التي تخطها صنوف لهوها المجنح المتقلب الملون. إلاّ أنّ «سان لو» تصور في اللحظة نفسها أنّ عشيقته تولي اهتمامها هذا الراقص الذي يعيد للمرّة الأخيرة شكلاً من الملهاة الراقصة التي يزمع الظهور فيها فتجهم وجهه وقال لها بهيئة عابسة:

– «بوسعك أن تتطلعي إلى جهة أخرى. فإنك تعلمين أن هؤلاء الراقصين لايساوون الحبل الذي لعلهم يحسنون فعلاً بالصعود عليه كي تقصم ظهورهم، وهم من قوم يمضون فيما بعد متبجحين بأنهم كانوا موضع اهتمامك. وتسمعين على أية حال أنهم يطلبون إليك الذهاب إلى مقصورتك لارتداء ملابسك.»

واقترب سادة ثلاثة – ثلاثة صحفيين – وقد رأوا هيئة «سان لو» الحانقة، اقتربوا، وقد انفرجت أساريرهم، ليسمعوا ما كان يقال. ولما كانت تقام مناظر مسرحية من الجهة الأخرى فقد تراصت صفوفنا إليهم.

وصاحت عشيقة «سان لو» وهي تنظر إلى الراقصين: «أوه! ولكني أتعرّفه، إنه صديقي. هاك عملاً متقنا، وتطلع لي إلى هاتين اليدين الصغيرتين اللتين تتراقصان كسائر بقية جسمه!»

وأدار الراقص رأسه نحوها وكان شخصه البشري يبرز خلف جنّي الهواء الذي كان يتدرب على الظهور بمظهره، وارتعش خط هلام عينيه الرمادي والتمع بين أهدابه المصلبة المطلية وطاولت ابتسامة جانبي فمه في وجهه الملوّن بالحمرة. ثم أخذ، شأنه شأن مغنية تدمدم لنا تلطفاً اللحن الذي قلنا لها إننا اعجبنا بها فيه، أخذ يعيد حركة راحتيه وهو يقلد نفسه بدقة المقلدين ومرح الأطفال.

وصاحت «راحيل» وهي تضرب ما بين يديها: «شيء في منتهى اللطف هذه الفعلة في تقليد المرء ذاته.»

فقال لها «سان لو» بصوت حزين : «رجوتك، ياصغيرتي، لا تجعلي من نفسك فرجة للناس، فإنك تقتلينني ؛ أقسمت لو فهت بكلمة أخرى فلن أرافقك إلى مقصورتك، وأمضي في سبيلي؛ هيّا، لا تقسي عليّ.» وأضاف، وهو يلتفتَ إليّ، بذاك العطف الذي كان يبديه لي منذ «بالبيك» : «لاتبق هكذا في دخان السيكار فسوف يضرّك ذلك.»

– «آه! أية سعادة لو تمضي في سبيلك!»

– «احذّرك من أنني لن أعود من بعد.»

– «تخونني الجرأة في توقع ذلك.»

– «اسمعي، تعلمين أنّي وعدتك بالعقد إن كنت لطيفة، ولكن بما أنك تعاملينني كما تفعلين...»

– «آه! إليك مالا يدهشني منك. لقد سبق أن وعدتني ولعله كان يجدر بي التفكير أنك لن تبرّ بوعدك. تريد أنَ تعلن على الملأ أنك تملك المال، ولكني لست نفعية مثلك. أنا لا أبالي بعقدك، ولديّ من سيهبني إيّاه.»

– «ليس من يستطيع سواي أن يهبك إياه، فقد احتجزته لدى «بوشرون» وقد وعد بألاّ يبيعه لغيري.»

– «عظيم ما فعلت، لقد أردت أن تتهدّدني واتخذت مسبقاً جميع احتياطاتك. هذا بالتمام مايُقال: «مارسانت»، «ماتر سيميتا» Mater Semita من هنا تنبعث رائحة العرق»، تجيب راحيل قولها مردّدة تأثيلاً يرتكز على خطأ فادح لان Semita [1] إنما تعني «الدرب» وليس «السامية»، ولكن الوطنيّن كانوا ينعتون بها

(١) تظن راحيل أن «سان لو» من والدة يهودية، وهو ما تعنيه لفظة «سامي» في اللغة السياسية آنذاك ولا يزال المعنى واردا في لفظة antisémitisme (معاداة السامية).

«سان لو» بسبب آراء معادية لـ «دريفوس» كان يدين بها للممثلة. (وكان أقلّ من يحق له نعت السيدة «دو مارسانت» باليهودية، وما كانَ بمقدور علماء الأجناس في المجتمع أن يلقوا من يهوديتها سوى قرباها بآل «لاوي ميربوا»). «ولكن كن على ثقة من أن كلّ شيء لم ينته. فالوعد المقطوع في مثل هذه الشروط لاقيمة له البتة. لقد تصرّفت معي تصرّفاً غادرا. وسوف يعلم «بوشرون» بالأمر ويدفع له الضعف ثمنا لعقده. اطمئن، عما قليل يوافونك بأخباري.»

كان «روبير» مئة مرّة على حقّ. ولكنّ الظروف متشابكة أبداً إلى حدّ أنّ من كان مئة مرّة على حق يمكن أن يكون مرّة على ضلال (١). ولم أفلح في الحؤول دون تذكر تلك الكلمة غير المستحبة والبريئة كلّ البراءة مع ذلك والتي أطلقها في «بالبيك»: بهذه الطريقة أضمن سيطرتي عليها.»

– «لقد أسأت فهم ما قلته لك بشأن العقد. فلم أعدك به وعداً قاطعاً. وبما أنك تفعلين كلّ ما ينبغي فعله كيما أهجرك فمن الطبيعي ويحك ألاّ أهبك إياه. ولست أفهم أين ترين الغدر في ذلك ولا كوني نفعياً. لايمكن أن يقال إنني أذيع على الملأ مالي فإني أقول لك على الدوام إني رجل مسكين لايملك فلساً واحداً. لستِ على حقّ في فهم الأمور على هذا النحو، ياصغيرتي. فبماذا تراني نفعياً؟ تعلمين حقّ العلم أن اهتمامي الوحيد إنّما هو أنت.»

وقالت له بلهجة ساخرة وهي ترسم حركة من يحلق لك ذقنك: «أجل، أجل، بوسعك أن تتابع». ثم التفتت إلى الراقص وقالت: «إنه رائع حقاً بيديه ؛ ولعلي لا أستطيع، أنا المرأة، أن أفعل ما يفعله هنا.» والتفتت إليه وهي تريه ملامح «روبير» المتشنجة وقالت له بصوت خافت في الاندفاعة المؤقتة لقسوة سادية لا تتناسب مطلقاً على أي حال ومشاعر الودّ الحقيقي الذي تكنه لـ «سان لو»: «أنظر، إنه يتألم».

– «اسمعي، للمرّة الأخيرة أقسم إني عبثاً ستسعين ويمكنك أن تبدي بعد ثمانية أيام جميع صنوف الأسف في العالم فلن أعود، لقد طفح الكيل، احذري فالأمر لا رجعة فيه وسوف تندمين عليه ذات يوم ولات ساعة مندم.»

ربما كان صادقاً وبدا له عذاب هجر عشيقته أقلّ قسوة من عذاب البقاء إلى جانبها في شروط معينة.

ثم أضاف قوله وهو يلتفت إليّ: «ولكن لاتظلّ ههنا ياصغيري، قلت لك، عما قليل تأخذ في السعال.»

وأريته المناظر التي كانت تمنعني من التنقل ولمس قبعته لمسة خفيفة وقال للصحفي:

– «ياسيد، هلاّ تكرمت برمي سيكارك فالدخان يضرّ بصديقي.»

وكانت عشيقته ماضية، لا تنتظره، إلى مقصورتها، واستدارت وقالت للراقص في أقصى المسرح بصوت

(١) ان اللورد «ديربي» يعترف بنفسه ان انكلترا لاتبدو دوماً وكأنها على حق حيال ايرلندا. (وردت في متن النص)

بادى التصنع في رخامته وبراءة الفتاة الساذجة فيه:

– «تراهما تتصرّ فان هكذا أيضاً مع النساء هاتان اليدان الصغيرتان؟ إنك تبدو امرأة بدورك، وأظن من الممكن التفاهم معك وواحدة من صديقاتي.»

وقال الصحفيّ: «ليس التدخين ممنوعاً فيما أعلم، وعلى المرء ملازمة بيته إن كان مريضاً.»

وابتسم الراقص للممثلة ابتسامة زاخرة بالأسرار، وصاحت به: «اصمت، فإنك تجنني، وكا أكثر ماسنقيم من حفلات!»

وقال «سان لو» للصحفي: «لست لطيفاً جداً على أي حال ياسيد»، قالها لايبدّل من لهجته المهذبة اللطيفة وبمظهر من وقف على أمر وقام بالحكم على حادثة انتهت حكماً ينطبق على الماضي.

وفي تلك اللحظة رأيت «سان لو» يرفع ذراعه عاموديأ فوق رأسه كما لو أنه أشار إلى شخص ما كنتّ أراه، أو مثل قائد أوركسترا – ودونما تمهيد أكثر ممّا تعقب إيقاعات عنيفة لحناً بطيئاً حلواً بمجردّ حركة قوس – أهوى بيده، بعد الأقوال المهذّبة التي قالها قبل قليل، بصفعة مدوّية على خدّ الصحفي.

أما الآن وقد أعقب أحاديث الديبلوماسيين الموزونة وفنونَ السلام الضاحكة الاندفاع المجنون إلى الحرب وبما أن الضربات تستدعي الضربات فلعلني ما كنت سأعجب كثيراً لرؤية الخصوم يسبحون في دمهم. ولكنّ ما كنت لا أستطيع فهمه (كما هي حال الأشخاص الذين يرون من غير المنطقي أن تقع حرب بين بلدين في حين لم يبحث بعد إلاّ في تعديل للحدود، أو أن توافي المنيّة مريضاً في حين لم يتحدّثوا إلاّ عن تضخّم في الكبد) كيف استطاع «سان لو» أن يتبع تلك الأقوال التي تنّم عن بعض ألوان اللطف بحركة لاتنبع البتة منها ولاهي تؤذن بها، حركة تلك الذراع المرفوعة دون مراعاة لحق الناس، وليس ذلك فحسب بل دون أن تأبه بمبدأ السببيّة، بنوع من توالد الغضب التلقائي، تلك الحركة الناشئة من لاشيء. ولم يردّ الصحفي لحسن الحظّ وقد فقد توازنه من شدّة اللطمة وامتقع لونه وتردّد لحظة. أما اصدقاؤه، فقد أشاح أحدهم في الحال بوجهه وهو ينظر باهتمام في جهه الكواليس إلى شخص لم يكن بالطبع موجوداً فيها، وتظاهر الثاني بأنّ ذرّة غبار دخلت إلى عينه فأخذ يقرص جفنه ويتكشّر ألماً ؛ أما الثالث فقد اندفع صائحاً: «يا إلهي، أظنهم يزمعون رفع الستار ولن نحصل على مقاعدنا».

وددت لو أكلمّ «سان لو» ولكنما اغتياظه من الراقص كان قد عمر صدره حتى لقد التصق تمام الالتصاق على صفحة الأحداق، وكمثل هيكل داخلي كان يشدّ وجنتيه إلى حدّ لم يعد يملك معه، وقد انقلب اضطرابه الداخلي جموداً خارجياً كاملاً، حتى الارتخاء وامكان التحريك اللازم ليستقبل كلمة منّي ويجيب عنها. وإذ رأى أصدقاء الصحفي أن كل شيء قد انتهى فقد عادوا بالقرب منه ولا يزالون يرتجفون. ولكنهم كانوا يحرصون كل الحرص. وقد أخجلهم أنهم تخلوا عنه، أن يظن أنّهم لم يلاحظوا شيئاً. ولذلك كانوا يسترسلون في الحديث هذا عن الغَبَرة في عينه، وذاك عن التخوّف الكاذب الذي وقع له إذ تخيّل أنّ الستارة تُرفع، والثالث عن الشبه الخارق بشقيقه لشخص مرّ ساعتها. بل بلغ بهم الأمر أن أبدوا له شيئاً من

الاستياء أن لم يشاركهم انفعالاتهم.

– «كيف، ألم يدهشك ذلك؟ أفلا ترى الأمور على حقيقتها؟» وغمغم الصحفي المصفوع قائلاً: «أعني أنكم كلكم جبناء».

وبدا أنهم يناقضون الوهم الذي أُخذوا به والذي كان يجدر بهم بموجبه– ولكنهم لم يفكروا فيه –أن يظهروا مظهر من لايفهم ما يقصد إليه فتفوّهوا بجملة متعارف عليها في المناسبات: «هذا أنت تثور فلا تغضب بدون سبب، لكأنما تجمح بك نفسك!».

لقد أدركت في الصباح أمام أشجار الإجّاص المزهرة الوهم الذي كان يستند إليه حبّ «روبير» لـ«راحيل حينما الربّ». وما كنت أقلّ ادراكاً بالعكس لحقيقة العذاب الناجم عن هذا الحبّ. وتقلصّ العذاب الذي كان يكابده منذ ساعة شيئاً فشيئاً دون أن يتوقف وغار في صدره، ولاحت في عينيه منطقة شاغرة مرنة. وغادرنا المسرح أنا و«سان لو» وسرنا بادئ الأمر قليلاً. واتفق أن تأخرّت لحظة في زاوية من شارع «غابرييل» غالباً ماكنت أبصر «جيلبيرت» تصل منها بالأمس. وحاولت قدر بضع ثوانٍ أن أتذكر تلك الانطباعات البعيدة، كنت أزمع اللحاق بـ «سان لو» بخطاً رياضية حينما أبصرت سيداً رديء الملبس إلى حدّما يبدو وكأنه يحدثه عن قرب. فجزمت أنه صديق شخصي لـ«روبير» ؛ وبدا إذ ذاك أنّهما يواليان الاقتراب الواحد من الآخر ؛ وفجأة، ومثلما تبرز في السماء ظاهرة نجمية، رأيت أجساماً بيضويّة الشكل تتخذ بسرعة مدوخة جميع المواقع التي تسمح لها بتأليف مجموعة غير ثابتة من النجوم أمام «سان لو» وبدا لي أنّها سبعة على الأقلّ قذفت كأنما بمقلاع. بيد أنها لم تكن سوى قبضتي «سان لو» وقد ضاعفت منهما سرعتهما في تبديل موقعهما في تلك المجموعة المثالية والتزيينية في ظاهرها. ولم تكن تلك اللعبة النارية سوى مجموعة لكمات يوجهها «سان لو» وقد كشف لي في الحال عن طابعها العدواني، بدلاً من الجماليّ، مظهر السيدُ الردئ الملبس وقد بدا أنه يفقد في الوقت نفسه كامل رباطة جاشه وفكاً وكثيراً من الدم. وقد أعطى ايضاحات كاذبة للاشخاص الذين اقتربوا لسؤاله وأدار رأسه ولما رأى «سان لو» يبتعد نهائياً للحاق بي ظلّ ينظر إليه بهيئة تمتزج فيها الضغينة بالارهاق، ولكنها غير غاضبة البتة. أما «سان لو» فكان غضاباً على العكس مع أنه لم ينل شيئاً وكانت عيناه لاتزالان تسطعان غضباً حينما لحق بي. ولم يكن للحادثة أية صلة بصفعات المسرح كماسبق أن ظننت. لقد كان متنزّهاً متقد الحب أبصر العسكري الجميل الذي يمثله «سان لو» فراوده عن نفسه. وكان صديقي لايزال مندهشاً من جرأة هذه «الطغمة» الي لم تعد تنتظر حتى ظلام الليل لتغامر بنفسها، وكان يتحدث عن العروض التي قدمت إليه بالحنق الذي تتحدث به الصحف عن سرقة بقوة السلاح جرى الإقدام عليها في وضح النهار في أحد أحياء باريس المركزية. بيد أن السيد الذي ضُرب كان يكمن عذره في أن مستوياً مائلاً يقرب بسرعة كافية الرغبة من المتعة كيما يبدو الجمال وحده وكأنه مذ ذاك قبول. ولم يكن موضع جدال أن «سان لو» كان جميلاً. أما اللكمات التي تشبه تلك التي كالها «سان لو» منذ قليل ففائدتها بالنسبة إلى رجال من نوعية الذي وقف بجانبه منذ قليل أن تحملهم على التفكير جدياً ولكن على مدى من الوقت أقلّ من أن يستطيعوا معه إصلاح أنفسهم وتجنب العقوبات القضائية. ومع أن «سان لو» كال لكماته دون تفكير كثير فإن جميع اللكمات التي من هذا القبيل لاتفلح، وإن هي جاءت عوناً للقوانين، في مجانسة الأخلاق.

وقد خلفت هذه الحوادث، ومن بينها دونما شك الحادثة التي كان «روبير» يصرف إليها أكثر تفكيره، لقد خلفت في نفسه الرغبة في شيء من الوحدة؛ ذلك أنه طلب إليّ بعد فترة أن نفترق وأن أذهب فيما يخصني إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وسوف يلقاني هناك ولكنه يفضل ألا ندخل معاً كي يظهر بمظهر من يصل لتوّه إلى باريس بدلا من أن يبعث على الظن بأنه قد سبق لنا أن أمضينا الواحد مع الآخر قسماً من بعد الظهيرة.

كان ثمة فارق كبير، مثلما سبق أن افترضت قبل التعرف إلى السيدة «دو فيلباريزيس» في «بالبيك»، بين الوسط الذي تعيش فيه ووسط السيدة «دوغيرمانت».فقد كانت السيدة «دو فيلباريزيس» واحدة من تلك النساء اللواتي ولدن في أسرة ذات أمجاد ودخلن بطريق زواجهن في أسرة أخرى لاتقل عن تلك أمجاداً، ولكنهنّ لا يتمتعن بمكانة اجتماعية رفيعة، فإنّه فيما عدا بعض دوقات هن بنات أشقائهنّ أو زوجات أسلافهنّ أو حتى واحداً أو اثنين من سلالات ملكية من معارف الأسرة القديمة، لايرتاد صالتهنّ سوى جمهور من الدرجة الثالثة من بورجوازية وأشراف ريفييّن أو من أرباب مفاسد أقصى وجودهم منذ زمن بعيد جماعة الأنيقين والمتخذلقين الذين لاتضطرّهم إلى المجيء واجبات القربى أو الألفة البعيدة العهد. صحيح أنني لم أصادف بعد بضع لحظات أية مشقة في أدراك السبب الذي اتفق من أجله للسيدة «دو فيلباريزيس» في «بالبيك» أن تكون على أتمّ اطلاع، وأن تفضلنا في ذلك، على أدق تفاصيل الرحلة التي كان يقوم بها والدي آنذاك في اسبانية برفقة السيد «دونوربوا». بيد أنه لم يكن من الممكن على الرغم من ذلك أن تستوقفنا الفكرة التي مفادها أن علاقة السيدة «دوفيلباريزيس» منذ أكثر من عشرين عاما بالسفير ربما كانت السبب في هبوط مكانة المركيزة في عالم كانت النساء الأكثر شهرة فيه يجاهرن بعشاق أقلّ جدارة بالاحترام من هذا الأخير الذي لم يعد على الأرجح منذ زمن طويل بالنسبة إلى المركيزة سوى صديق قديم. فهل وقع للسيدة «دوفيلباريزيس» في الأمس البعيد مغامرات أخرى؟ أو لم تفلح، وهي آنذاك من طبيعة أكثر هوى منها الآن في شيخوخة هادئة ورعة ربّما دانت مع ذلك بشيء من طابعها المميز لتلك السنوات المضطرمة المستنفدة، ألم تفلح في الريف الذي سبق أن قضت فيه زمناً طويلاً في تجنب بعض فضائح مجهولة لدى الأجيال الجديدة التي كانت تشهد أثرها فحسب في التركيب المختلط الفاسد لصالة أهل لتكون، لو لاذلك، من أنقاها من كلّ خليط ضحل؟ «لسان السوء» ذاك الذي كان ابن أخيها يخصها به هل صنع لها في ذلك الزمان أعداء؟ وهل دفعها إلى الإفادة من بعض صنوف التوفيق لدى الرجال كي تمارس صنوف ثأر على النساء؟ كل ذلك ممكناً. وليست الطريقة العذبة الحنون التي كانت السيدة «دو فيلباريزيس» تتحدث بها عن الحياء والطيبة – والتي لاتضفي ألوانا رقيقة على العبارات فحسب، بل على النبرات كذلك – ما كان يمكن أن يضعف ذاك الافتراض ؛ ذلك لأن الذين يحسنون التحدث عن بعض الفضائل، بل حتى الذين يحسون روعتها ويفهمونها على أحسن وجه (والذين يفلحون في مذكراتهم في رسم صورة لائقة عنها) إنما ينحدرون في الغالب من الجيل الصامت الفظّ غير المخادع الذي مارسها، بيد أنّهم ليسوا أنفسهم في عداده. إن هذا الجيل ينعكس فيهم ولكنه لا استمرار له فيهم، وإنّك واجد بدلاً من الحزم الذي كان بها حساسية وذكاءً لاجدوى منهما في العمل. وسواء أكان أم لم يكن في حياة السيدة «دوفيلباريزيس» من تلك الفضائح التي قد تطمسها شهرة اسمها، فإنما ذلك الذكاء، ويكاد أن يكون ذكاء كاتب من الدرجة الثانية أكثر منه ذكاء امرأة مجتمع، الذي كان بالتأكيد سبب تدني مكانتها في المجتمع.

ليس من شكّ أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» إنّما كانت تشيد على وجه الخصوص بمزايا لاتثير الحماسة إلى حدّ بعيد كالرزانة والاعتدال. ولكنّ الاعتدال لايكفي كيما تتحدّث عن الاعتدال بما يطابقه كليا ولابدّ من بعض مزايا لدى الكاتب تفترض حماسة قليلة الاعتدال. كنت لاحظت في «بالبيك» أنّ عبقرية بعض كبار الفنانين كانت تظل بعيدة عن مدارك السيدة «دوفيلباريزيس» وأنها ما كانت تجيد سوى أن تسخر منهم سخرية رقيقة وتضفي على قصور فهمها شكلاً ذكياً وظريفاً. بيد أنّ ذاك الذكاء وتلك الظرافة يضحيان بدورهما، بالدرجة التي يبلغانها لديها، -على صعيد آخر وعلى الرغم من استخدامهما لانتقاص قدر أرفع الأعمال الفنية-مزايا فنية حقيقية. والأكيد أنّ مثل هذه المزايا إنّما تمارس على أي وضع اجتماعي تأثيراً مرضياً مختاراً، على نحو مايقول الاطباء. تأثيراً مُفككاً، إلى الحدّ الذي تعسر على أمتنها أساساً مقاومته بضعة أعوام. فما يدعوه الفنانون ذكاءً إنّما يبدو إدعاء محضاً في نظر المجتمع الأنيق الذي يعجز عن الانطلاق من وجهة النظر الوحيدة التي يحكمون منها على كلّ شيء ولايدرك البتة الجاذب الخاص الذي ينقادون له في اختيارهم لعبارة أو قيامهم بمقارنة ما فيحسّ بالقرب منهم باجهاد وإزعاج سرعان ما ينجم عنه النفور. مع أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» لم تكن تظهر في حديثها، كما هو الأمر في مذاكرتها التي نشرت منذئذ. سوى ضرب من الظرافة الاجتماعية إلى أبعد الحدود. فقد مرّت بجانب أمور عظيمة دون أن تتعمق فيها ،ودون أن تميزها أحياناً فلم تستبق من السنوات التي عاشت فيها، والتي كانت تصفها على أية حال بالكثير من الدقة والروعة، سوى ما قدّمت من أكثر الأمور طيشاً. على أن المؤلف يظلّ عملاً من أعمال الفكر وإن لم يتناول سوى موضوعات ليست فكرية، ولا بدّ كيما نخلف في كتاب أو في حديث، وهو قليل الاختلاف عنه، الانطباع التامّ عن الطيش، لابدّ من قدر من الرزانة قد يعجز عنه محض الطائش. فهذه الجملة أو تلك التي يستشهدون بها على أنها نموذج الظرافة الرشيقة في بعض المذكرات التي سطّرتها امرأة ويعدّونها من الروائع قد حملتني أبداً على افتراض أن المؤلفة لابدّ امتلكت فيما مضى، كيما تبلغ هذا الحدّ من الرشاقة، علماً على شيء من التثاقل وثقافة منفرة وأنّها كانت على الأرجح تبدو لصديقاتها، ولا تزال فتاة، دعية أدب لاتطاق. وإن الترابط بين بعض المزايا الأدبية والفشل الاجتماعي ترابط لازم حتى لتكفي القارئ، إذ يقرأ اليوم مذكرات السيدة «دوفيلباريزيس»، هذه الصفة الصحيحة وهذه الصور المجازيّة التي تتلاحق كيما يستعيد بوساطتها التحية العميقة والجافة مع ذلك التي لابدّ كانت ترفعها إلى المركيزة العجوز على درج إحدى السفارات هذه المتحذلقة أو تلك من أمثال السيدة «لو رواء» التي ربّما كانت تخصها ببطاقة دعوة، وهي في طريقها إلى منزل آل «غيرمانت»، ولكنها لاتطأ قدماها في يوم صالتها مخافة أن يحطّ من مكانتها هناك بين مجموعة نساء الأطباء والكتّاب العدُل ربّما كانت السيدة «دو فيلباريزيس» في أوّل شبابها دعيّة أدب وأنّها ربما لم تفلح، وقد انتشت إذ ذاك بعلمها، في الامتناع عن إرسال سهام حادّة لاينساها المجروح ضدّ جماعة من المجتمع أقلّ ذكاء منها وأقلّ علماً.

ثم إن الموهبة ليست ملحقاً زائداً يضاف على نحو مصطنع إلى تلك المزايا المختلفة التي تضمن النجاح في المجتمع كي تصنع من كلّ ذلك ما يدعوه رجال المجتمعات الراقية «بالمرأة الكاملة». فهي النتاج الحيّ لبنية خلقية تفتقر بعامة إلى كثير من المزايا وتسود فيها حساسية يمكن أن يبرز منها إلى حيز الإحساس على نحو ملحوظ خلال الحياة تجليات أخرى لانتبينها في صفحات كتاب، من مثل ضروب من الفضول والنزوات

والرغبة في الذهاب إلى هنا أو هناك سعياً وراء المتعة الخاصة لابغية إنما العلاقات الاجتماعية أو صيانتها أو مجرّد تسييرها. لقد سبق لي أن رأيت السيدة «دو فيلباريزيس» في «بالبيك» يحيط بها قومها ولا تلقي نظرة واحدة على الأشخاص الجالسين في بهو الفندق. بيد أني داخلني حدس بأن ذاك الامتناع لم يكن لامبالاة ويبدو أنها لم تلازمه على الدوام. فقد كان يأخذها شغف بمعرفة هذا الفرد أو ذاك ممّن لايملكون ما يخوّلهم حقّ الاستقبال في منزلها لأنّها وجدته جميلاً أحياناً، أو لأنه نقل إليها فحسب أنّه كان طريفاً، أو لأنّه بدا لها مختلفاً عن الأشخاص الذين تعرفهم، وكلهم ينتمي، في تلك الفترة التي لم تكن بعد تقدرهم فيها حقّ قدرهم لأنها تحسب أنّهم لن يتخلوا عنها في يوم، إلى الصفوة في حي «سان جيرمان». فهذا البوهيمي، هذا البورجوازي الصغير الذي لفت نظرها أضحت مضطرّة أن توجّه إليه الدعوات التي لا يستطيع تقدير قيمتها، وذلك بالحاح كان يحطّ شيئاً فشيئاً من قدرها في أعين المتحذلقين الذين تعوّدوا تقدير المنتديات بعدد من تستبعدهم ربّة البيت أكثر منهم بعدد الذين تستقبلهم. ولئن تلهت السيدة «دوفيلباريزيس» بالتأكيد في فترة معينة من شبابها، وقد أورثها اللامبالاة اعتزازها بالانتماء إلى زهرة الاستقراطيين، لئن تلهت إلى حدّما بإثارة استنكار الجماعة التي كانت تعيش بين ظهرانيها وبتخريب مقصود لوضعها الاجتماعي فقد أخذت تولي ذاك الوضع أهمية بعدما أرادت أن تظهر للدوقات أنها تفوقهم إذ تقول وتفعل كلّ مالا يجرؤن على القيام به. أمّا الآن وقد امتنعن، باستثناء من كنّ من قريباتها، عن المجيء إلى منزلها، فقد أخذت تحس بانتقاص مكانتها وتتمنى أن تستمرّ سيادتها ولكن عن غير سبيل العقل. ودّت لو تجتذب إليها جميع اللواتي اهتمت إلى حدّ بعيد باقصائهنّ. وكم من حياة امرأة، حياة قلّما تكشفت على أي حال (لأنّ لكلّ حسب سنه ما يشبه العالم المختلف، ويحول تكتّم الشيوخ دون أن يكوّن الشبان فكرة عن الماضي ويحيطوا بكامل دورته)، قسمت هكذا فترات متعاكسة صرفت الأخيرة منها كلها في استعادة ما قذفت به الثانية عن طيب خاطر في مهبّ الريح! وبأيّة طريقة قذفت به في مهبّ الريح؟ إن الشبان أقلّ قدرة على تخيل الأمر بقدر ما تخطر أمام أعينهم مركيزة عجوز جليلة هي المركيزة «دوفيلباريزيس» ولا يراودهم أن صاحبة المذكرات الرزينة في يومنا، وهي شديدة الوقار بجمتّها المستعارة البيضاء، استطاعت أن تكون بالأمس جليسة موائد مرحة ربّما أمتعت يومها قلوب رجال يرقدون مذ ذاك في القبر وربما التهمت ثروتهم. وليس يعني كونها سعت أيضاً بجدّ دؤوب وطبيعي إلى تخريب مكانتها التي آلت إليها من كرم محتدها، ليس يعني ذلك مطلقاً أن السيدة «دوفيلباريزيس» لم تعلق أهمية كبيرة على مكانتها حتى في تلك الفترة البعيدة. كذلك يمكن للعزلة والخمول اللذين يعيش فيهما أحد المصابين بالوهن العصبيّ أن يحاكا على يده من الصباح إلى المساء دون أن يبدو له محتملين من جرّاء ذلك ومن الممكن ألاّ يحلم إلاّ بالحفلات الراقصة والصيد والرحلات فيما يسارع إلى اضافة حلقة جديدة إلى الشبكة التي تحتبسه. إننا نعمل في كل لحظة على اعطاء حياتنا شكلها، بيد أننا نفعل بأن ننسخ رغما عنا كما ينسخ الرسم ملامح الشخص الذي نمثله لاذاك الذي ربّما سرّنا أن نكونه. كان يمكن أن تعبّر تحيات السيدة «لوروا» المتعالية بطريقة أو بأخرى عن طبيعة السيدة «دو فيلباريزيس» الحقيقة ولكنّها لم تكن تستجيب إطلاقاً لرغبتها.

وفي اللحظة التي كانت السيدة «لوروا» «تقاطع» فيها، حسب تعبير عزيز على قلب السيدة «سوان»، المركيزة، كان يمكن لهذه الأخيرة أن تحاول مؤاساة نفسها بتذكّرها أنّ الملكة «ماري أميلي» قالت لها ذات

يوم: «أحبك محبّة الابنة». ولكن مثل تلك الألطاف الملكيّة الخفية المجهولة لم تكن موجودة إلا بالنسبة إلى المركيزة، وقد كساها الغبار كشهادة فائز قديم بالجائزة الأولى في الكونسرفاتوار. فالامتيازات الاجتماعية الوحيدة هي تلك التي تبدع حياة، تلك التي تستطيع أن تزول دون أن يقع على من أفاد منها أن يسعى إلى الاحتفاظ بها أو فضح سرّها لأن مئة غيرها تعقبها في النهار نفسه. ولعل السيدة «دوفيلباريزيس» إذ تذكر أقوالاً للملكة من هذا القبيل، لعلها كانت تبادل بها مع ذلك راضية القدرة الدائمة في تقبل الدعوات التي تحظى بها السيدة «لوروا»، مثلما يودّ فنان كبير مغمور في أحد المطاعم، ولم يسطرٌ نبوغة لافي ملامح وجهه الخجول ولافي قصّة سترته البالية التي بطل زيّها، أن يكون حتى السمسار الشاب الكائن في آخر مراتب المجتمع ولكنّه يتناول غداءه إلى مائدة مجاورة برفقة ممثلتين ويهرع نحوه في رحلة مجاملات لاتنقطع صاحب المطعم ورئيس الخدم والخدم والبوّابون وحتى الطهاة الذين يخرجون من المطبخ مواكبَ لتحيته كماهي الحال في قصص الجنّ فيما يتقدّم الساقي، وهو في مثل اغبرار زجاجاته، مقوّس الساقين مبهوراً كما لو التوت قدمه قبل أن يخرج إلى النور في طريقه من القبو.

على أنّه لابدّ أن نقول إن غياب السيدة «لوروا» عن صالة السيدة «دوفيلباريزيس» إن هو يغمّ سيدة البيت فقد كان خافياً عن أبصار عدد كبير من مدعوّيها. لقد كانوا يجهلون كلياً وضع السيدةَ «لوروا» الخاصّ الذي يعرفه جماعة المجتمع الراقي فحسب ولا يشكّون أن استقبالات السيدة «دوفيلباريزيس» إنّما تمثل أكثر الاستقبالات تألقاً في باريس على نحو ما اقتنع به اليوم قرّاء مذكراتها.

وفي هذه الزيارة الأولى التي قمت بها لدى فراقي «سان لو» للسيدة «دوفيلباريزيس» بناء على النصحية التي سبق أن زوّد بها السيد «دو نوربوا» والدي، لقيتها في صالتها الممدودة بالحرير الأصفر الذي تبرز عليه الأرائك والمقاعد الرائعة المكسوّة بقماش «بوفيه» بلون وردّي يكاد أن يكون بنفسجياً، لون توت العليق اليانع. كنت ترى إلى جانب رسوم آل «غير مانت» وآل «فيلباريزيس» رسوماً أخرى – قدّمها النموذج نفسه– للملكة« ماري آميلي» وملكة بلجيكا والأمير «دو جوانفيل» وامبراطورة النمسا. كانت السيدة «دو فيلباريزيس» تعتمر قلنسوة من الدانتيلا السوداء من الزمن الغابر (كانت تحتفظ بها بغريزة اللون المحلّي أو التاريخيّ المتيقظ نفسه الذي يبديه صاحب فندق بريتاني يظنّ أنّ ثمة مهارة أكبر في حمل خادماته على الاحتفاظ بالعمرة والأكمام العريضة مهما أغرق زبائنه في انتمائهم الباريسيّ) وتجلس إلى مكتب صغير كان عليه، إلى جانب ريشاتها وممزجة ألوانها ولوحة أزهار مائية باشرتها، ورود راغبة وزينيات وشعور جنّ في أكواب وصحون وفناجين وقد توقفت عن رسمها بسبب ازدحام الزيارات في تلك الفترة فبدت وكأنها تغطي طاولة بائعة زهور في صورة مطبوعة من القرن الثامن عشر. كان في تلك الصالة المدفأة بعض الشيء عن قصد لأنّ المركيزة أصابها رشح لدى عودتها من قصرها، كان بين الحضور ساعة وصولي أمين محفوظات صنفت معه السيدة «دوفيلباريزيس» في الصباح الرسائل المسطرة بيد شخصيات تاريخية والتي وجهت إليها وكانت معدّة لابرازها صور طبق الأصل بمثابة وثائق ثبوتية في المذكرات التي كانت في طور تحريرها، ومؤرّخ رسميّ السلوك بادي الفزع علم أنّها تملك بطريق الإرث رسماً لدوقة «مونمورانسي» فجاء يستأذنها نسخ هذا الرسم في لوحة من كتابه حول «حركة التمرّد»، وقد انضمّ إلى هذين الزائرين رفيقي السابق «بلوك» الذي أصبح الآن مؤلفاً مسرحياً شاباً وكانت تتكل عليه ليزوّدها دون مقابل بفنانين يمثلون في عشياتها المقبلة. صحيح أن المشكال

الاجتماعي كان آخذاً في الدوران وأنّ قضية «دريفوس» تزمع أن تهوي باليهود إلى آخر مرتبة في السلم الاجتماعي. ولكن عبثاً يبلغ الإعصار الدريفورسي أوجه من جهة، فما تبلغ الأمواج أشدّ غضبها في أوّل العاصفة. ثمّ ان السيدة «دوفيلباريزيس» تركت قسماً كاملاً من عائلتها يحمل بعنف على اليهود وظلت هي حتى الآن غريبة كلياً عن المسألة ولاتبالي بها. وإن شاباً مثل «بلوك» لا يعرفه أحد كان يمكن ألاّ يفطن له أحد فيما أخذ الخطر يحيق مذ ذاك بكبار اليهود الذين يمثلون حزبهم. لقد أصبح له الآن ذقن «تيس» مرقط وأخذ يضع نظارة وسترة رسمية طويلة وقفازا كأنه لفة من ورق البرديّ في يده. يستطيع الرومانيون والمصريّون والأتراك أن يمقتوا اليهود. ولكن الاختلافات بين تلك الشعوب ليست محسوسة إلى هذا الحدّ في صالة فرنسية، وإنّ يهودياً يقوم بالدخول كما لو كان خارجاً من أعماق الصحراء متقوّس الجسم كالضبع، يميل بقفا عنقه جانباً وينتشر سيلاًمن «السلامات» العريضة ليرضي تمام الرضى نزعة استشراقية. على أنّه لابدّ لذلك ألاّ ينتمي اليهودي إلى عالم «المجتمع الراقي» وإلاّ اتخذ بسهولة منظر «لورد» وأضحت تصرّفاته مفرنسة إلى حدّ أن أنفاً متمرّداً لديه ينمو كالحدقيات في اتجاهات غير متوقعة إنما يذكر بأنف «ماسكاريي» أكثر منه بأنف سليمان. ولما لم يتم تليين «بلوك» برياضة «الحيّ» ولاشرّف نسبه اختلاط مع انكلتره أو اسبانيه فقد ظلّ هاوي الطابع الأجنبي غريباً يلذّك النظر إليه، على الرغم من بزّته الأوروبية، كيهودي من «دوكان» فما أروع قوّة العرق الذي يدفع إلى الأمام من أعماق القرون حتى قلب باريس العصرية، في ممرّات مسارحنا وخلف كوى مكاتبنا وفي جنازة وفي الشارع كتيبة خالصة تضفي أناقة على القبعة الحديثة وتمتص السترة الرسمية وتنسيها وتنظمها، وقد ظلت باختصار القول شبيهة تماماً بسترة الكتبة الأشوريين الذين تمّ رسمهم بلباس الاحتفالات على افريز بناء في «سوسة» أمام أبواب قصر «داريوس». (وكان «بلوك» يزمع بعد ساعة أن يتصوّر أنّ السيد «دوشارلوس»» إنّما يستعلم إن كان يحمل اسماً يهودياً بدافع من مقصد سيء معاد لليهود في حين كان الأمر مجرّد فضول جمالي وتعشق للوّن المحلي.) ولكن التحدّث عن استمرار الأجناس إنّما يترجم على أي حال ترجمة غير دقيقة الانطباع الذي يخلفه فينا اليهود واليونانيون والفارسيون وسائر تلك الشعوب التي يجدر أن ندع لها تنوّعها. إننا نعرف وجه قدماء اليونان بفضل الرسوم القديمة وقد رأينا أشوريين في زخارف أحد قصور «سوسه». بيد أنّه يبدو لنا، حينما نلاقي في العالم شرقيين ينتمون إلى هذه الجماعة أوتلك، أننا في حضرة مخلوقات خارقة ربّما أظهرتها قوّة استحضار الأرواح. ما كنّا نعرف سوى صورة سطحية، فإذا هي قد اكتسبت عمقاً، وإذا هي تمتدّ في الأبعاد الثلاثة وتتحرّك. فالسيدة اليونانية الشابة، ابنة صاحب المصرف الثري التي شاعت في هذه الفترة، تبدو وكأنّها واحدة من تلك الممثلات الصامتات اللواتي يرمزن في«باليه» تاريخي وجمالي معاً إلى الفن الهليني بلحمه ودمه. على أنّ الاخراج في المسرح إنّما يطبع هذه الصور بالابتذال. أما المشهد الذي يعرضه لأعيننا دخول تركية أو يهوديّ إلى صالة فإنما يجعل الوجوه على العكس أكثر غرابة إذ يرفدها بالحياة وكأنّما الأمر أمر أشخاص تمّ استذكارهم بجهد وساطة روحيّة. وإنّما الروح (أو بالأحرى النزر اليسير الذي تؤول إليه الروح حتى الآن على الأقلّ في ضروب اتخاذ الشكل المادي هذه)، إنّما الروح التي لمحناها من قبل في المتاحف وحدها، روح اليونان القدماء وقدماء اليهود التي انتزعت من حياة تافهة وقبلية معاً تنفذ أمامنا هذه الايمائية المحيرّة. فما نودّ عبثاً أن نشدّه إلينا في السيدة اليونانية الشابة المتهرّبة إنّما هو شكل أعجبنا به بالأمس على جنبات أحد الآنية. وكان يخيل إليّ أنني لو أخذت صوراً لـ«بلوك» في ضياء صالة السيدة «دو فيلباريزيس» لنقلت عن اسرائيل تلك الصورة نفسها التي ترينا إيّاها صور استحضار الأرواح، صورة

مشوشة إلى حدّ بعيد إذ لايبدو أنها تصدر عن الإنسانية، مخيبّة إلى حدّ بعيد إذ انها تشبه الإنسانية مع ذلك إلى أبعد الحدود. حتى تفاهة الأقوال التي يتفوّه بها الأشخاص الذين نعيش بينهم إنما تخلف فينا، على نحو أعمّ، الاحساس بالأمر الخارق في عالمنا المسكين، عالم كلّ يوم، الذي يتفوّه فيه حتى الرجل العبقري الذي ننتظر منه، وقد انتظمنا من حوله كأنما حول الطاولة الدوّارة «سرّ اللانهاية مجردّ هذه الكلمات - تلك نفسها التي خرجت منذ قليل من شفتي «بلوك» -: «انتبهوا لقبعتي الرسمية».

وكانت السيدة «دو فيلباريزيس» تقول، وتوجه الحديث على نحو أخص إلى رفيقي القديم مستأنفة الحديث الذي قطعه دخولي: «يا إلهي، الوزراء يا سيدي العزيز، الوزراء، ما من أحد كان يودّ لقاءهم. ومهما كنت صغيرة آنذاك فإني لاأزال أذكر الملك وهو يرجو جدّي أن يدعو السيد «دوكاز» إلى حفلة راقصة سيراقص فيها والدي الدوقة «دوبيري». قال الملك: «سيسرّني ذلك يا«فلوريمون». وإذ سمع جدّي، وكان به شيء من الصمم،، اسم السيد «دوكاستري»، فقد وجد المطلب طبيعياً تماماً. وحينما أدرك أن الأمر يتعلق بالسيد «دوكاز» ثارت ثائرته لحظة، ثم أذعن وسطر في المساء ذاته كتاباً للسيد «دوكاز» يتوسل إليه فيه أن يتكرم ويشرّفه بحضور حفلته الراقصة التي ستجري في الأسبوع التالي. فالناس كانوا مهذّبين في ذلك الزمان ياسيدي، وما كانت ربّة بيت لتستطيع الاكتفاء بارسال بطاقتها مضيفة بخطّ يدها: «كوب شاي» أو «حفلة شاي راقصة» أو «شاي وموسيقي». ولئن عرفوا التهذيب إلاّ أنهم ما كانوا يجهلون الوقاحة. فقد قبل السيد «دوكاز» إلاّ أنه أذيع عشية الحفلة الراقصة أن جدّي ألغى الاحتفال إذ أحس بتوعّك صحته. لقد أطاع الملك ولكنه لم يستقبل السيد «دوكاز» في حفلته الراقصة...أجل ياسيدي إنّي اذكر تماماً السيد «موليه»، كان رجلاً ذكياً وقد أقام البرهان على ذلك حينما استقبل السيد «دو فينيي» في المجمع، ولكنه كان مغرماً بالرسميات ولازلت أراه ينحدر لتناول العشاء في منزله وقبعته الرسمية في يده».

- «آه! إن ذلك ليوحي تماماً بزمن شديد الأذى إلى حدّما في تفاهته، فقد كانت تلك عادة عامة ولاشك أن يحتفظ المرء بقبعته في يده وهو في منزله»، يقول «بلوك» وقد رغب في الإفادة من هذه الفرصة النادرة جدًا في استطلاع خصائص الحياة الارستقراطية الغابرة لدى شاهد عيان، فيما يرميها أمين المحفوظات، وهو مايشبه أمين سرّ متقطع للمركيزة، بنظرات رقيقة ويبدو وكأنه يقول: «هذه حالها، إنّما تحيط بكلّ شيء وتعرف كل الناس، ويمكنكم سؤالها حول ما تريدون، إنّها خارقة.»

وأجابت السيدة «دوفيلباريزيس» وهي تقرّب أكثر منها اناء الزجاج الذي تتدلى منه أزهار «شعور الجنّ» التي سوف تعاود عمّا قليل رسمها: «لا،لا،كانت تلك عادة للسيد «موليه» فحسب. فلم أرّ والدي يحتفظ بقبعته في منزله، إلاّ بالطبع حينما يجيء الملك إذ يغدو سيد البيت محض زائر في صالته الخاصة به إذ الملك في بيته أينما حلّ.»

وتجرّأ السيد «بيير» مؤرّخ «حركة التمرّد» فقال: «لقد قال لنا أرسطو في الفصل الثاني...»، ولكن بلهجة خجولة إلى حدّ أنّه لم يسترع انتباه أحد. لقد اصابه منذ بضعة أسابيع تأرّق عصبيّ لم تفلح معه جميع العلاجات فلم ينم من بعد ولا يخرج، وقد أنهكه التعب، إلاّ حينما تضطرّه أعماله إلى التنقل. ولما كان عاجزاً عن أن يعد مرّات عديدة هذه الرحلات البسيطة جداً في نظر غيره ولكنها تكلفه بقدر ما تكلفه لوينحدر من

القمر للقيام بها، فقد كان يذهل أن يجد في الغالب أن حياة كلّ واحد لم تكن منظمة تنظيماً دائماً كي توفر لاندفاعات حياته المفاجئة أقصى جدواها. فقد كان يجد أحياناً أنّ مكتبة لم يبادر إلى زيارتها إلاّ بتصنّع الوقوف على قدميه وبسترة رسمية، كأحد رجال «ويلز»، كانت مغلقة. وقد التقى لحسن الحظّ بالسيدة «دو فليباريزيس» في منزلها وسوف يشاهد الرسم.

وقطع «بلوك» عليه كلامه وقال وهو يردّ على ماقالته السيدة «دو فيلباريزيس» بصدد التشريفات التي تحكم الزيارات الملكية: «حقاً، ما كنت أعرف ذلك البتة» (كما لو كان غريباً ألاّيعرف ذلك).

وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» أمين المخطوطات قائلة: «بمناسبة هذا النوع من الزيارات، هل تعرف المزحة الغبية التي جاءني بها ابن أخي «بازان» صباح البارحة؟ لقد أرسل يقول لي، بدلا من أن يعلن عن نفسه، إنّ ملكة السويد تطلب زيارتي».

وصاح «بلوك» مقهقهاً: «آه! لقد أرسل يقول ذلك ببرود على هذا النحو! ما أجمل المزاح!» فيما كان المؤرخ يبتسم بمهابة خجلى.

—«لقد دهشت بعض الشيء لأنني لم أعد من الريف إلاّمنذ بضعة أيام. وكنت قد طلبت كيما أنعم بالهدوء ألاّينقلوا لأحد أنني في باريس وأتساءل كيف علمت ملكة السويد بالأمر»، وتضيف السيدة «دو فيلباريزيس» قولها: «ولاتدع لي في كلّ الأحوال يومين لأستريح قليلاً»، مخلفة الدهشة في نفوس زوّارها أن لاتكون زيارة ملكة السويد في حدّ ذاتها أمرا مستغرباً بالنسبة إلى مضيفتهم.

ولئن قلبت السيدة «دو فيلباريزيس» في الصباح وثائق مذكراتها مع أمين المخطوطات فقد كانت تجرّب في هذه اللحظة على غير علم منها آليتها وتأثيرها السحري على جمهور متوسط يمثل الجمهور الذي سيطلع منه ذات يوم قرّاؤها. كان يمكن أن تتميز صالة السيدة «دو فيلباريزيس» عن صالة تتسم بالأناقة الحقة وتغيب عنها الكثيرات من البورجوازيات اللواتي كانت تستقبلهنّ فيما تتسنى بالمقابل رؤية سيدات لامعات اجتذبتهن السيدة «لوروا» في نهاية المطاف، ولكن هذا الفارق الطفيف لايتمّ تبيّنه في مذكراتها حيث تزول بعض العلاقات الضحلة التي اتفقت للمؤلفة لأن الفرصة لا تتاح لها في إيراد ذكرها، في حين لاتغيب عنها زائرات لم يتوافرن لها لأن قليلاً من الأشخاص يمكن أن يمثلوا في المساحة الضيقة بالضرورة التي تقدّمها هذه المذكرات وأن الشعور الأقصى بالأناقة الذي يمكن أن تخلفه مذكرات لدى الجمهور إنّما يتمّ بلوغه إن كان هؤلاء الأشخاص شخصيات أمراء أو شخصيات تاريخية. كانت صالة السيدة «دو فيلباريزيس»، حسبما ترى السيدة «لوروا» صالة من الدرجة الثالثة، وكانت السيدة «دو فيلباريزيس»، ترى السيدة «لوروا». ولكنما لايعرف أحد اليوم من كانت السيدة «لوروا»، وقد زال ما حكمت به، و إنّما صالة السيدة «دو فيلباريزيس» التي تردّدت عليها ملكة السويد وتردّد عليها دوق «أومال» ودوق «دوبروي» و«تيير» و«مونت الامبير» وصاحب السيادة «دو بانلو» هي التي ستعدّها الأجيال القادمة إحدى ألمع صالات القرن التاسع عشر، تلك الأجيال التي لم تتغيرّ منذ زمان «هوميروس»، و«بنداريس» والتي يشكل المنبت الرفيع المرتبة المشتهاة بالنسبة إليها، المنبت الملكي أو شبه الملكي وصداقة الملوك ورؤساء الشعوب ومشاهير الرجال.

كانت السيدة «دو فيلباريزيس» تملك شيئا من كلّ ذلك في صالتها الحالية وفي الذكريات التي عدلَت أحيانا تعديلاً خفيفاً والتي كانت تمدُّ بوساطتها تلك الصالةَ في الماضي. ثم إنّ السيد «دو نوربوا» الذي لم يكن قادراً أن يعيد لصديقته مكانة حقيقيّة كان يجيئها عوضاً عن ذلك برجال الدولة الأجانب أو الفرنسيين الذين كانوا بحاجة إليه ويعلمون أن الطريقة الوحيدة الفعّالة التي يتودّدون بها إليه هي التردّد على منزل السيدة «دو فيلباريزيس». ربما كانت السيدة «لوروا» تعرف بدورها تلك الشخصيات الأوروبية البارزة، ولكنها كانت تتحاشى، بوصفها امرأة ظريفة تتجنّب لهجة دعيّات الأدب، التحدّث عن المسألة الشرقية إلى رؤساء الوزراء بقدرما تتحاشى التحدّث عن ماهية الحبّ إلى الروائيين والفلاسفة. لقد أجابت ذات مرّة سيدةً مدّعية سألتها: «مارأيك في الحبّ؟» أجابت قائلة: «الحبّ؟الحبّ، إنّي أتعاطاه كثيراً ولكني لا أتحدّث عنه البتّة». وحينما كانت تجمع في بيتها أساطين الأدب والسياسة كانت تكتفي، شأن دوقة «غير مانت»، بحملهم على لعب «البوكر». وغالباً ما كانوا يفضلون ذلك على الأحاديث العريضة حول الأفكار العامة التي تضطرّهم إليها السيدة «دو فيلباريزيس». بيد أنّ تلك الأحاديث التي ربّما بدت سخيفة في المجتمع قد زوّدت ذكريات السيدة «دو فيلباريزيس» بتلك المقطوعات الممتازة، بتلك الأبحاث السياسية التي تستساغ في المذكرات كما هي الحال في المسرحيات التي من طراز مسرحيات «كورنيي». وصالات مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» وحدها تنتقل إلى الخلف لأنّ مثيلات السيدة «لوروا» لايحسنّ الكتابة، وإن هنّ أحسنّها، لم يجدن متسعاً من الوقت. ولئن كانت ميول مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» الأدبية سبب ازدراء مثيلات السيدة «لوروا»، فإن ازدراء مثيلات السيدة «لوروا» يخدم بدوره على نحو عجيب ميول مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» الأدبية إذ يوفرّ لدعيّات الأدب من السيدات الوقت الذي تقتضيه مهنة الأدب. والله الذي يريد أن يكون ثمة بضعة كتب جيدة الصنعة إنّما ينفخ في سبيل ذلك في قلوب مثيلات السيدة «لوروا» أنواع الازدراء تلك، لأنّه يعلم أنّهن إن دعون مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» إلى العشاء فسوف تهجر هؤلاء محابرهنّ في الحال ويأمرن بأن تسرج الخيول للثامنة.

وبعد حين دخلت سيدة عجوز مديدة القامة بخطى وئيدة رزينة وكانت تبرز تحت قبعتها المرفوعة التي من قش شعراً أبيض هائلاً صفف على طريقة «ماري انطوانيت». وما كنت أعلم آنذاك أنّها واحدة من النسوة الثلاث اللواتي كان لايزال بالإمكان ملاحظتهنّ في المجتمع الباريسي وقد اضطررن، شأن السيدة «دو فيلباريزيس»، ومع أنهّنّ كريمات المحتد، ألاّ يستقبلن، لأسباب تغوص في ظلمة الأزمان، ولعلّ عجوزا أنيقا من تلك الحقبة كان وحده يستطيع أن ينبئنا عنها، سوى حثالة من الناس لايرغبون فيها في مكان آخر. كان لكلّ من تلك السيدات دوقة «غيرمانت» تخصها، ابنة شقيق لها لامعة تجيء إليها للوفاء بواجباتها ولكنما لاتستطيع أن تجتذب إلى منزلها دوقة «غيرمانت» الخاصة بواحدة من الأخريين. كانت السيدة «دو فيلباريزيس» على علاقة وثيقة بأولئك السيدات الثلاث ولكنها لاتحبهن. وربّما كان وضعهنّ الشبيه إلى حدّ ما بوضعها يزوّدها بصورة عنهنّ لا تروقها. ثم إنهنّ كانت تقوم بينهنّ، هنّ الساخطات دعيّات الأدب اللواتي يحاولن أن يتوافر لهنّ وهم صالةٍ من جرّاء عدد المشاهد الصغيرة التي يعملن على تمثيلها، كانت تقوم بينهنّ متنافسات تحوّلها ثروة مهلهلة بعض الشيء، في غضون حياة قليلة الهدوء تضطرّهن إلى الحساب وإلى الإفادة من معونة مجانية يقدّمها فنان، تحوّلها إلى ضرب من النضال في سبيل الحياة .أضف إلى ذلك أنّ السيدة ذات الشعور المصففة

على طريقة «ماري انطوانيت» لم تكن تستطيع في كل مرّة تبصرفيها السيدة «دو فيلباريزيس» الحؤول دون التفكير بأنّ دوقة «غيرمانت» لم تكن تذهب إلى استقبالاتها في أيام الجمعة. وكان عزاؤها أنّ الأميرة «دوبوا» لاتفوّت البتة أيام الجمعة تلك بوصفها قريبة مثالية، وكانت حصتها من آل «غيرمانت» ولا تذهب البتة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» مع أنّ السيدة «دوبوا» صديقة حميمة للدوقة.

بيد أنّ رباطاً قوياً ومقيتا معاً كان يوحد بين الالهات الثلاث المخلوعات من فندق رصيف «مالاكيه» إلى صالات شارع «تورنون» وشارع «لاشيز» وحي «سانتونوريه»، تلك الالهات اللواتي وددت لو أعلم، بتقليب أحد معاجم المجتمع الاساطيرية، أي مغامرة غرامية وأي انتهاك وقح للمقدسات قد آل بهنّ إلى العقاب. وربما ألف المنبت الرفيع نفسه والانهيار الحالي نفسه الكثير من الضرورة التي كانت تدفعهنّ إلى التزاور والتباغض في آن واحد. ثم إن كلّ واحد منهنّ كانت تجد في الأخريين وسيلة سهلة لمجاملة زائريها. إذ كيف لايحسب هؤلاء أنهم يدخلون إلى أكثر الأحياء انغلاقاً حينما يجري تعريفهم بسيدة رفيعة الألقاب تزوّجت شقيقتها أمثال دوق «ساغان» أو أمير «لينيي»؟ ولاسيمّا أنهم كانوا يتحدثون في الصحف عن هذه الصالات المزعومة أكثر مما يفعلون عن الحقيقية بكثير. حتى أبناء الأشقاء من النخبة (وعلى رأسهم «سان لو») كانوا يقولون لرفيق يسألهم أن يصحبوه إلى المجتمع:«أصحبك إلى منزل عمتّي «فيلباريزيس» أو إلى منزل عمتي س...،إنها صالة جديرة بالاهتمام.» كانوا يعلمون على وجه الخصوص أن ذلك سوف يكلفهم عناء أقلّ من إدخال الأصدقاء المذكورين إلى منازل بنات شقيقات تلك السيدات أو زوجات أشقاء أنيقات لهنّ. لقد قال لي الرجال الطاعنون في السن والنساء الشابات اللواتي علمن ذلك منهم إنه إن لم يتمّ استقبال تلك السيدات الطاعنات في السن فبسبب الانحراف غير المألوف في سلوكهن، ذلك الانحراف الذي تمّ تصويره لي، عندما احتججت بأنه لايشكل عائقاً أمام الأناقة، على أنّه قد تجاوز جميع الحدود المعروفة في يومنا. كان سوء سيرة تلك السيدات المهيبات اللواتي يجلسن منتصبات القامة يتخذ على لسان الذين يتحدّثون عنهّن شيئاً لا أستطيع تخيله يتناسب وضخامة حقب ما قبل التاريخ وعصر الماموث. كانت الهات الجحيم الثلاث تلك ذوات الشعور البيضاء أو الزرقاء أو الوردية قدفعن إلى التهلكة عدداً لايحصى من الرجال. وكنت أحسب أن الناس في يومنا يضخمون عيوب تلك الأزمنة الخيالية، شأن الاغريق الذين ألقوا «ايكاروس» و«ثيسيوس» و«هيركوليس» من رجال كانوا قليلي الاختلاف عن أولئك الذين أخذوا يؤلهونهم بعد ذلك بزمن طويل. على أنهم لايقومون بجمع عيوب امرئ إلاّ حينما لايستطيع ممارستها من بعد، وحينما يقيسون حجم الجرم الذي اقترف بحجم العقاب الاجتماعي الذي يأخذ طريقه إلى التنفيذ والذي يلاحظونه وحدهم، فيتخيلونه ويضخمونه. وفي مجموعة هذه الوجوه الرمزية التي يؤلفها المجتمع الراقي تظهر النساء الطائشات الحقيقيات، والمتحللات تماماً، يظهرن أبداً بالمظهر المهيب الذي لسيدة بلغت السبعين على الأقلّ، متعالية تستقبل قدرما تستطيع، ولكنها لا تستقبل من تريد، ولا ترضى بالذهاب إلى بيتها النساء اللواتي يؤخذ على سلوكهنّ بعض ما يعيب، ويمنحها البابا على الدوام «وردته الذهبية». وقد سطرت أحياناً حول شباب «لامارتين» كتاباً حاز جائزة المجمع الفرنسي وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسيدة ذات التسريحة البيضاء التي من طراز «ماري انطوانيت»: «صباح الخير يا «أليكس»، وكانت السيدة المذكورة تلقي نظرة حادّة على الحفل كيما تكتشف إن لم يكن في هذه الصالة قطعة يمكن أن تكون ذات فائدة بالنسبة إلى صالتها وينبغي لها في هذه الحالة أن تكتشفها بنفسها لأنّ السيدة «دو فيلباريزيس»، لا شكّ لديها، سوف تكون على قدر كافٍ من الخبث كي تحاول إخفاء الأمر عنها. من

ذلك مثلاً أن السيدة «دو فيلباريزيس» اهتمت كثيراً بألا تقدَم «بلوك» للسيدة العجوز مخافة أن يعمل على تمثيل المشهد نفسه الذي مثله لديها في فندق رصيف «مالاكيه». كان ذلك على أي حال محض ثأر. ذلك أن السيدة العجوز استضافت عشية البارحة السيدة «ريستوري» التي ألقت أشعاراً وحرصت أن تجهل السّيدة «دو فيلباريزيس» التي سرقت الفنانة الايطالية منها الحدث قبل انجازه. وكي لاتعرفها هذه الأخيرة عن طريق الصحف فيجرح شعورها، جاءت ترويها لها وكأنما لاتحس أنها مذنبة. ولما حكمت السيدة «دو فيلباريزيس»أن التعريف بي لايحمل المحاذير نفسها التي يحملها التعريف بـ «بلوك» فقد ذكرت اسمي لـ«ماري انطوانيت» الرصيف. وإذ حاولت هذه الأخيرة. بالقيام بأقلّ حركة ممكنة، أن تحافظ في شيخوختها على قدّ الهة من أعمال «كوازيفوكس» سبق أن فتن منذ سنوات عديدة الشباب الأنيق وقد أشاد به الآن أدباء مزيفون في أبيات قليلة -وإذ اتخذت على أي حال عادة الجفاء المتعالية التعويضية التي يشارك فيها جميع الذين يضطرّهم فقدان حظوة خاصّ إلى محاولات تقرّب دائمة - أحنت رأسها قليلاً بجلال لا حياة فيه والتفتت إلى جانب آخر ولم تهتّم بي من بعد وكأنني لم أكن موجوداً. وكان يبدو أن تصرّفها المزدوج للغاية يقول للسيدة «دو فيلباريزيس»: «ترين أني لست بحاجة إلى معارف وأنّ الشبان -ولست أسيء إليهم على الاطلاق - لايثيرون اهتمامي.» ولكنها حين خرجت بعد ربع ساعة أفادت من الضوضاء وهمست في أذني بأن آتي نهار الجمعة التالي إلى مقصورتها بصحبة واحدة من الثلاث فأثر فيّ اسمها اللامع تأثيراً عظيماً - وكان اسمها «شوازول» قبل الزواج.

- «اعتقد ياسيد أنك تبغي تسطير شيء ماحول السيدة دوقة «مونمورانسي»، تقول السيدة «دو فيلباريزيس» لمؤرخ «حركة التمرّد»، بذاك المظهر المتجهم الذي يتغضن به على غير علم منها لطفها العظيم من جراء انكماش الشيخوخة العابس وامتعاضها الفيزيولوجي، ومن جراء تصنع محاكاة اللهجة الفلاحية تقريباً التي تتخذها الارستقراطية القديمة. «سأريك رسمها وهو أصل النسخة الموجودة في متحف اللوفر.»

ونهضت وهي تضع ريشتها قرب أزهارها فزاد الإزار الصغير الذي بدا آنذاك حول خصرها والذي كانت ترتديه كي لا تتسخ بألوانها، زاد من انطباع المرأة الريفية تقريباً الذي تخلفه قبعتها ونظارتاها السميكتان وجاء يناقض بذخ حاشيتها من الخدم،كرئيس الخدم الذي حمل الشاي والحلويات والخادم ذي اللباس الخاص الذي قرعت له الجرس ليضيء رسم دوقة «مونمورانسي»، وكانت رئيسة في أحد أكثر مجالس الشرق الدينية شهرة. كان الجميع قد نهضوا وقوفاً، فقالت: «المضحك إلى حدّ ما أن بنات ملك فرنسه ماكنّ ليقبلن في تلك المجالس التي كانت كثيرا ما تديرها شقيقات جدّاتنا. فقد كانت تلك المجالس مغلقة تماما.» وسأل «بلوك» ذاهلاً: «بنات الملك، ولايقبلن، ولأيّ سبب؟» -«ذلك لأنّ «آل فرنسه» لم يظلّ لهم مايكفي من أفخاذ شريفة منذ أن قبلوا بزيجات من مستويات دنيا.» وكانت دهشة «بلوك» آخذة في التعاظم: «زيجات من مستويات دنيا في آل فرنسه؟ كيف ذلك؟».

وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» بلهجة طبيعية كأكثر ما تكون: «بزواجهم من آل «ميديتشي» ويحك! إنّ الرسم جميل، ألاترى ذلك؟» وأضافت قولها: «وفي أحسن حالة».

وقالت السيدة التي صففت شعرها على طريقة «ماري انطوانيت»: «تذكرين ياصديقتي العزيزة أن «ليست». حينما صحبته إلى منزلك، قال لك إنّ هذا هو النسخة.»

—«إني أنحني أمام رأي يبديه «ليست» في الموسيقى لافي الرسم كان قد دبّ فيه الخرف على كل حال، ولست أذكر أنه قال ذلك في يوم. ولست أنت من صحبته إليّ، فقد سبق أن تعشيت عشرين مرّة برفقته في منزل أميرة «سينفيتغنشتاين».

لقد طاشت رمية «آليكس» فصمتت وظلت واقفة لاتبدي حراكاً. وقد بدا وجهها، وتكسوه طبقات من البودرة، كأنه من حجر. وبما أن صورتها الجانبية كانت نبيلة الخطوط فقد بدت، فوق ركيزة مثلثية تكسوها الطحالب ويخفيها الإزار، كأنما إلهة يتفتت تمثالها في حديقة.

وقال المؤرّخ: «هوذا رسم آخر جميل أيضاً».

وانفتح الباب ودخلت دوقة «غيرمانت» فقالت لها السيدة «دو فيلباريزيس» دون أية إيماءة برأسها، وهي تخرج من جيب إزارها يداً مدّتها إلى الوافدة الجديدة: «مرحبى، يالك». وتوقفت في الحال عن الاهتمام بها لتلفت إلى المؤرّخ قائلة: «إنّه رسم دوقة «لاروشفوكو»...

ودخل خادم شاب جريء المظهر فاتن المحيّا (ولكنما تمّ حكه إلى أبعد الحدود كيما يظلّ كاملا إلى حدّ أن الأنف كان به شيء من الاحمرار وبالجلد تخريش خفيف كما لو يحتفظان بأثر من الشقّ والنحت الحديثي العهد) يحمل بطاقة على صينية.

— «إنّه ذاك السيد الذي سبق أن جاء عدّة مرات للقاء سيدتي المركيزة.»

— «وهل قلت له إني استقبل؟»

—«لقد سمع الناس يتحدثون».

— «فليكن إذن! أدخله»، وأضافت السيدة «دو فيلباريزيس»: «إنّه شخص عرّفوه بي. لقد قال إنه يرغب كثيرا أن يتمّ استقباله ههنا، ولم أصرّح له قط بالمجيء. ولكن هذه خمس مرّات يكلف نفسه عناء المجيء وينبغي ألاّ نجرح شعور الناس.» ثم قالت لي: «ياسيد، وأنت ياسيد». تضيف قولها وهي تشير إلى مؤرخ حركة التمرّد. «أقدّم لكما ابنة أختي دوقة «غيرمانت»».

وانحنى المؤرّخ انحناءة عميقة، وهكذا فعلت، وإذا خُيّل له أن لابدّ من ملاحظة ودّية تعقب هذه التحية فقد تألّقت عيناه وكان يزمع أن يفتح فاه حينما برّد من عزيمته مظهر السيدة «دو غيرمانت» التي استغلت استقلال جذعها كي تقذف به إلى الأمام بتهذيب مبالغ فيه وتردّه بحركة صحيحة دون أن يبدو أن وجهها ونظرتها قد لاحظا أن ثمة شخصاً أمامهما. واكتفت بعدما زفرت زفرة خفيفة بابراز انتفاء الانطباع الذي تخلفه لديها رؤية المؤرّخ ورؤيتي وذلك إذ قامت ببعض حركات في فتحتي أنفها بدقة تشهد بالجمود المطلق في انتباهها المعطل.

ودخل الزائر الثقيل الظلّ يسير رأساً باتجاه السيدة «دو فيلباريزيس» بهيئة ساذجة متحمسة، فإذا هو «لو غراندان».

وقال: «أشكرك كثيرا لأنك تستقبلينني ياسيدتي»، قال وهو يلح على كلمة: كثيراً»، وإنها لمتعة نادرة تماماً ورقيقة توفّرينها لمتوحد عجوز، وإني أؤكدّ لك أنّ صداها...»

وتوقف تماماً إذ أبصرني.

-«كنت أُري السيد رسم دوقة «لاروشفوكو» الجميل، وهي زوجة مؤلف «الحكم»، لقد خلفته لي أسرتي.»

أما السيدة «دوغيرمانت» فقد حيت «آليكس» وهي تعتذر أن لم تستطع المبادرة إلى زيارتها في هذه السنة شأنها في السنوات الأخرى. وأضافت تقول: «لقد نقلت لي «مادلين» أخبارك».

وقالت مركيزة رصيف «مالاكيه»: لقد تناولت طعام الغداء عندي هذا الصباح»، قالت باعتزاز من يفكر أن السيدة «دو فيلباريزيس» لن يسعها أن تقول البتة مثل هذا القول.

كنت في تلك الأثناء أتحدّث إلى «بلوك» فقلت له، وقد خشيت أن يحسدني حياتي بالاستناد إلى ما نقل إليّ عن تبدّل والده إزاءه، انّ حياته لابدّ أوفر سعادة. كانت تلك الكلمات الصادرة عنّي محض أثر من آثار التلطف. ولكنه يقنع بيسر أولئك الذين يحسون بالكثير من الاعتزاز بالذات أنّ حظهم سعيد ويتمّ بعث الرغبة لديهم في إقناع الآخرين بذلك. فقد قال لي «بلوك» بمظهر السعادة: «أجل، إني أعيش حياة حلوة. لديّ ثلاثة أصدقاء ولست أبغي الزيادة، وعشيقة رائعة ؛ إني سعيد إلى أبعد الحدود. وما أندر الفنانين الذين يمنحهم «زوس» الآب هذا المقدار من صنوف السعادة.» وأحسب أنه كان يحاول على وجه الخصوص أن يمتدح نفسه ويثير غيرتي. وربما كان في تفاؤله كذلك شيء من رغبة التفرّد. لقد بدا للعيان أنه ما كان يرغب أن يجيب بالتفاهات ذاتها التي يجيب بهاكلّ الناس: «أوه! شيء لايذكر، الخ..»حينما أجابني على سؤالي الذي طرحته بشأن حفلة راقصة أقيمت بعد الظهر في منزله ولم أستطع الذهاب إليها: «هل كانت حلوة؟»، أجابني بلهجة متساوية لا مبالية كما لو تعلق الأمر بسواه: بالطبع كانت حلوة جداً وبلغت أقصى درجات النجاح. كانت حقاً ساحرة.»

وقال «لوغراندان» للسيدة «دو فيلباريزيس»: «ماتطلعيننا» عليه ههنا يهمني إلى مالا حدود، فقد كنت بالضبط أقول في نفسي البارحة أنّك تدينين له بالكثير في صفاء العبارة وخفتها وفي ماسوف أدعوه بعبارتين متناقضتين السرعة المقتضبة واللحظة الخالدة. وددت في هذا المساء لو أدوّن جميع الأشياء التي قلتها.، ولكنّي سوف أحفظها، فإنها صديقة الذاكرة، حسب كلمة هي فيما أعتقد لـ «جوبير». ألم تقرئي قطّ «جوبير»؟ آه! كم كنت تروقينه! سوف أسمح لنفسي منذ هذا المساء بارسال مؤلفاته كاملة إليك وكليّ اعتزاز بأن أعرّفك بذكائه. لم يكن يتمتع بقوّتك، ولكنه كان يملك الظرف أيضاً.»

لقد أردت أن أبادر في الحال لتحية «لوغراندان» ولكنه كان يقف باستمرار أبعد ما يمكنه الوقوف عني آملا دونما شكّ ألاّ أسمع صنوف الإطراء التي ما كان يكفّ عن إغداقها في كل لحظة على السيدة «دو فيلباريزيس» بالكثير من أنيق العبارة.

وارتفعت بمنكبيها مبتسمة كأنّما كان يبغي أن يسخر منها والتفتت إلى المؤرّخ.

– «أمّا هذه فهي «ماري روهان» الشهيرة، دوقة «شفروز» التي سبق أن عقدت زواجها الأوّل على السيد «دو لوين».

– «تذكرني السيدة «دو لوين»، ياعزيزتي، بـ«يولاند». لقد جاءت البارحة إلى منزلي، ولو علمت أن أمسيتك لم تكن موقوفة لأحد لأرسلت في طلبك. لقد أنشدت السيدة «ريستوري»، التي جاءت على غير انتظار، أبياتا للملكة «كارمن سيلفا» أمام المؤلف، وما أجمل ما كان ذلك!»

وفكرت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «يالها من خيانة! لقد كانت بالتأكيد تتحدّث عن ذلك بصوت منخفض إلى السيدة «دوبولانكور» والسيدة «دو شابونيه» في ذلك اليوم.»

ثمّ أجابت: «كنت غير مرتبطة، ولكني ما كنت لأجيء. لقد سمعت السيدة «ريستوري» في أيام العزّ. وهي الآن فريسة الهرم. ثم إنّي أمقت أشعار «كارمن سيلفا» لقد جاءت السيدة «ريستوري» إلى هنا ذات مرّة تصطحبها دوقة «أووست» لالقاء نشيد من جحيم «دانته». إنها ههنا لاتجارى.»

واحتملت «آليكس» الضربة دون أن تضعف، فقد ظلت في جمود المرمر. كانت نظرتها ثاقبة وخالية وأنفها مقوساً نبيل القوس. ولكن أحد خدّيها كان يتقشر، وكانت تجتاح ذقنها نباتات خفيفة غريبة خضراء ووردية.وربّما أودى بها شتاء آخر.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس»لـ «لوغراندان» كيما تقطع دابر المديح الذي كان يعاود الكرة: «هاك إن كنت تحبّ الرسم الزيتي ياسيد، انظر إلى رسم السيدة «دو مونمورانسي»».

واستغلت السيدة «دو غيرمانت» أنّه ابتعد فدلت عمّتها عليه بنظرة ساخرة مستفهمة.

فقالت السيدة «دو فيلباريزيس» بصوت خافت: «إنّه السيد «لوغراندان» وإنّ له شقيقة تدعى السيدة «دو كامبرير»، الأمر الذي لايعني بالتأكيد بالنسبة إليك أكثر مما يعني لي.»

وصاحت السيدة «دو غيرمانت» وهي تضع يدها أمام فمها: «كيف ذلك، إني أعرفها تمام المعرفة. أو أنا لا أعرفها بالأحرى، ولكني لا أدري ما الذي حلّ بـ«بازان» الذي يلتقي الزوج حيث الله يعلم كي يقول لهذه المرأة الضخمة بأن تجيء لزيارتي. ولا استطيع أن أقول لك ما كانت عليه زيارتها. لقد روت لي أنّها ذهبت إلى لندن وعدّدت لي جميع لوحات المتحف الانكليزي. وسأبادر لدى خروجي من منزلك، وعلى نحو ماترينني، إلى وضع بطاقة دعوة لدى هذا الوحش. ولا تظني أن الأمر من أوفرها سهولة، فهي على الدوام في منزلها بحجة أنّها على شفا أن تموت وسواء أذهب المرء إلى هناك في السابعة مساء أم في التاسعة فإنها على استعداد لتقدّم لك فطائر بتوت الأرض.عجبا لك، إنّها وحش بالتأكيد»، ،تقول السيدة «دو غيرمانت» إزاء نظرة متسائلة من عمتها. «فهي امرأة لاتطاق: إنها تقول «رياشيّ» أو ماكان على هذا النحو.» وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» ابنة شقيقها قائلة: «وما الذي تعنيه لفظة «رياشي»؟ فتصرخ الدوقة بحنق متصنع: «ولكني لا أدري

عن ذلك، ولا أريد أن أعرف، فأنّي لا أتحدّث هذه الفرنسية.» ولما رأت أن عمتّها لم تكن تعرف حقّ المعرفة ما تعنيه «رياشي»، وكي يداخلها الرضى في إبراز أنها عالمة بقدر ماهي أمينة على نقاء اللغة وكي تسخر من عمتها بعدما سخرت من السيدة «دو كامبرمير» قالت في نصف ضحكة تكتمها بقايا الغيظ المتكلف: «بلى، كل الناس يعرفون ذلك، «الرياشي» هو الكاتب، إنّه الشخص الذي يحمل ريشة. ولكنها لفظة بشعة من بشاعة توازي تقليع أضراس العقل. ليس من يستطيع البتّة أن يحملني على قول ذلك... إنّه الأخ، ياعجبي! لم أدرك بعد. ولكن الأمر بالحقيقة لايتعذر إدراكه. فإن لها الاتضاع الخانع نفسه وتشعب المعارف نفسه. وهي في مثل تملقه وإزعاجه. لقد بدأت أتعودّ إلى حدّ ما فكرة تلك القرابة.»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسيدة «دو غيرمانت»: «اجلسي، ستتناول قليلاً من الشاي، قومي بذلك بنفسك، أنتِ لاحاجة بك أن تشاهدي رسوم جدّات جدّاك، فانّك تعرفينهنّ بقدر ما أعرفهنّ.»

وعادت السيدة «دو فيلباريزيس» بعد قليل لتجلس وشرعت ترسم. واقترب الجميع فاغتنمتها فرصة للذهاب إلى «لوغراندان» ولما لم أجد ذنباً في وجوده في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» قلت له دون أن يخطر لي إلى أيّ حد كنت أزمع أن أجرح شعوره وأحمله على الاعتقاد بنيّة جرح شعوره: «قل لي ياسيدي، أكاد أكون معذوراً لوجودي في إحدى الصالات بما أني أجدك فيها.» واستخلص السيد «لوغراندان» من تلك الأقوال أنني كائن صغير شرّير في الأساس ولايروقه إلاّ الشرّ (كان ذلك على الأقل هو الحكم الذي أصدره عليّ بعد بضعة أيام).

فأجابني: «بإمكانك» أن تتلطف فتبدأ بالقاء التحية عليّ أوّلا»، دون أن يأخذ يدي وبصوت حانق مبتذل ما كان يخطر ببالي ولم يكن ذا صلة منطقية بما يقوله عادة وإنما يملك صلة أشدّ مباشرة واسترعاء للانتباه بما كان يحس به. ذلك أننا لما كنّا عازمين أن نخفي أبداً ما نحس به فإننا لم نفكر قطّ في الطريقة التي قد نعبر بها عنه. فإذا في داخلنا فجأة حيوان نجس مجهول يسمعنا صوته ويمكن لنبرته أحيانا أن تبلغ حدّ إشاعة خوف في نفس من يسمع ذلك الكشف اللا مقصود المضمر الذي يكاد لايقاوم عن قصورك أو عيبك يعادل ما يفعله الإقرار المفاجئ الذي ينطق به على نحو غير مباشر وغريب مجرم لايستطيع الحؤول دون اعترافه بقتلٍ ما كنت تعلم أنّه اقترفه. كنت أعلم بالتأكيد أن المثالية، حتى الذاتية منها، لاتحول دون أن يظلّ فلاسفة كبار نهمين أو أن يتقدموا بإصرار لعضوية المجمع. ولكن «لوغراندان» لم تكن به بالحقيقة حاجة إلى التذكير إلى هذا الحدّ بأنّه من كوكب آخر في حين كانت الرغبة في بلوغ مركز جيد على هذا الكوكب تحكم جميع حركات الغضب أو اللطافة المتشنجة لديه.

ثم تابع بصوت خافت: «بالطبع، حينما تتم مضايقتي عشرين مرّة على التوالي لحملي على المجيء إلى مكان ما فليس يسعني، مع أن لي الحقّ في حريتي، أن أتصرّف تصرّف الأجلاف.»

كانت السيدة «دو غيرمانت» قد جلست، ولما كان اسمها مرفقاً بلقبها فقد كان يضيف إلى شخصيتها المادية اقطاعتها الدوقية التي كانت ترتسم من حولها وتبسط الظلال الندية المذهبة لأحراج «غيرمانت» في وسط الصالة ومن حول المقعد الجلدي الذي تجلس عليه. كنت أحسني دهشاً فقط ألاّ يكون الشبه بينهما

أكثر وضوحاً على وجه الدوقة الذي لم يكن به شيء من النبات والذي كانت بقع حمرة الوجنتين فيه – وكان ينبغي فيما يبدو أن تحملا شعار اسم آل «غيرمانت» –نتيجة لجولات طويلة على ظهور الخيل في الهواء الطلق، وليس صورة لها. وقد عرفت بعد ذلك، حين أضحت الدوقة لاتثير اهتمامي ، الكثيرمن الميزات الخاصة ولاسيما عينيها (كيما أكتفي بما كنت واقعاً مذ ذاك أسير سحره دون أن يمكنني تمييزه) حيث تحتجز كأنما في لوحة زرقة سماء عشية فرنسية نادرة السحاب غارقة في الضياء حتى حينما لا تتألق ؛ وصوت لها يخيل إليك، في بحة النبرات الاولى، أنه يقارب السفالة ويتسحب فيه، كما على درجات كنيسة «كومبريه» أو دكان الحلو الذي في الباحة، ذهب شمس ريفية خاملة دسمة، ولكني لم أميّز شيئاً في ذلك اليوم الأوّل فقد كان انتباهي الملتهب يبخر في الحال القليل مما كنت أستطيع جمعه وحيث كان بمقدوري أن ألقى شيئاً من اسم «غيرمانت» بيد أنني كنت أقول في نفسي على أية حال إن اسم دوقة «غير مانت» إنما كان يشير إليها في نظر الجميع وان الحياة التي لايمكن تصورها والتي يعنيها ذاك الاسم إنما كان يحتويها فعلاً ذاك الجسد، وقد أدخلها منذ قليل وسط كائنات مختلفة، في هذه الصالة التي كانت تحيط بها من كل جانب والتي كانت تمارس عليها أثراً شديداً إلى حدّ كنت أحسب معه أني أبصر حيثما تتوقف تلك الحياة عن التدفق حاشية من الفوران ترسم حدودها: داخل الدائرة التي كانت تخطها على السجادة كرة التنورة التي من حرير صيني أزرق، وداخل حدقتي الدوقة الصافيتين وفي تقاطع المشاغل والذكريات والفكر اللامدرك المزدري الهازئ الفضولي الذي يملؤها والصور الغريبة التي تنعكس فيهما. ربما رأيتني أقلّ اضطرابا لو أنّي لقيتها في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» بمناسبة أمسية بدلاً من أن ألقاها على هذا النحو في واحد من «أيام» المركيزة وفي واحدة من حفلات الشاي تلك التي تؤلف بالنسبة إلى النساء مجرّد استراحة قصيرة وسط مشوارهن، والتي يحملن إليها، إذ يحتفظن بالقبعة التي قمن بها بجولاتهنّ، في توالي صالاتها ميزة الهواء في الخارج ويوفرّن إطلالة على باريس في أواخر ما بعد الظهر أكثر ممّا تفعل النوافذ العالية المفتوحة التي يتناهى منها ضجيج عجلات العربات. كانت السيدة «دو غيرمانت» تعتمر قبعة واسعة من القش تزينها زهيرات الترنشاه. وما كان ما تذكرني به شموس السنوات الغابرة على أثلام «كومبريه» حيث قطفت منها الكثير الكثير وعلى السفح المحاذي لسياج «تانسونفيل»، بل رائحة الشفق وغباره على نحو ما كانا عليه منذ قليل لحظة اجتازتهما السيدة «دو غيرمانت» في شارع «لابيه». وكانت ترسم، تغمر وجهها البسمات، متعالية غامضة فيما تزمّ شفتيها اشمئزازاً، كانت ترسم بطرف شمسيتها دوائر على السجادة. ثمّ تحدّق إلى كلّ منا على التوالي بذاك الانتباه اللامبالي الذي يبدأ باقصاء أية نقطة تماس بين ما ينظر إليه المرء وبين ذاته، ثم تتفحص الأرائك والمقاعد ولكن النظرة يلطفها حينئذ ذلك التوادّ الإنساني الذي يوقظه وجود حاجة تعرفها وإن تكن قليلة الشأن، حاجة تقارب أن تكون شخصاً ؛ فما كانت حال ذلك الأثاث كحالنا إذ كان يرتبط بحياة عمتها. ثمّ تنثني تلك النظرة من أثاث «بوفيه» إلى الشخص الذي يجلس عليه فتستعيد إذ ذاك نفاذ البصيرة نفسه والاستنكار نفسه الذي ربّما حال احترام السيدة «دو غيرمانت» لعمتها دون الافصاح عنه والذي لعلها كانت تحس به على أية حال لو أنها لاحظت على المقاعد بدلا منا وجود بقعة من الدهن أو طبقة من الغبار.

ودخل الكاتب المجلي ج...؛ لقد جاء يقوم بزيارة للسيدة «دو فيلباريزيس» كان يراها بمثابة سخرة. أما الدوقة التي اغتبطت بلقائه ثانية فلم تومئ مع ذلك إليه ولكنّه جاء بالطبع بالقرب منها فقد كان ما تملك من

فتنة ولباقة وبساطة يحمله بالطبع على اعتدادها من النساء الظريفات. وكان الأدب يملي عليه على أيّه حال واجب الذهاب بالقرب منها، فكثيراً ما كانت السيدة «دو غيرمانت» تدعوه، إذ كان محبباً ومشهوراً، إلى طعام الغداء حتى على انفراد معها ومع زوجها، أو تستغلّ إبّان الخريف في «غيرمانت» تلك الألفة لتدعوه في بعض الأمسيات للعشاء بصحبة بعض أصحاب المعالي الطامحين إلى لقائه. ذلك أنّ الدوقة كانت تستعذب استقبال بعض رجال النخبة شرط أن يكونوا عازبين، والشرط يحققونه أبداً بالنسبة إليها وان كانوا متزوّجين، فقد كانوا يدعون دوما دون زوجاتهم فلعلهنّ، وهنّ عاميات في كثير أوقليل، كنّ يشكلن لطخاً في صالة لاتجد فيها سوى أكثر نساء باريس جمالا وأناقة. وكان الدوق يوضح لهؤلاء الأرامل المرغمين، دفعا لأيّة حساسية، أن الدوقة لا تستقبل نساء ولا تطيق صحبة النساء كما لو كان الأمر تقريبا وصفة طبيب وكما لو أنه قال إنّها لا تستطيع المكوث في غرفة تملؤها الروائح أو تناول طعام شديد الملوحة أو السفر في المؤخرة أو لبس المشدّ. صحيح أنّ هؤلاء الرجال العظام كانوا يبصرون في منزل آل «غيرمانت» أميرة «بارما» والأميرة «دو ساغان» (وقد دعتها «فرانسواز» أخيراً، وهي تسمع أبداً من يتحدّث عنها، «الساغانة» ظناً منها أنّ هذا المؤنث ضرورة قواعدية) وغيرهما كثيرات، إلاّ أنهم كانوا يبررون حضورهنّ بقولهم إنّهن من الأسرة أو صديقات طفولة لايمكن اقصاؤهنّ. وكان الرجال العظام ينقلون إلى زوجاتهم الايضاحات التي زوّدهم بها الدوق «دو غيرمانت» حول مرض الدوقة الغريب الذي قوامه أنّها لا تستطيع مخالطة النساء، سواء اقتنعوا بها أم لا. كانت بعضهنّ يعتقدن أن المرض كان محض عذر لإخفاء غيرتها لأن الدوقة تبغي أن تمدّ سلطانها وحدها على حاشية من المعجبين. وتعتقد أخريات أكثر سذاجة أنّ الدوقة ربّما كانت من نمط غريب، بل ربما كان لها ماض شائن وأنّ النساء لا يرغبن في ارتياد منزلها وأنّها تطلق على الضرورة اسم نزوة لديها. أما أفضلهنّ فكنّ يقدّرن، إذ يسمعن أزواجهنّ يروون العجائب والغرائب عن نباهة الدوقة، أن هذه الأخيرة تفوق باقي النساء إلى حدّ أنّها كانت تملّ صحبتهنّ لأنهنّ لايحسن التحدّث عن شيء والحقيقة أنّ الدوقة كانت تملّ صحبة النساء إن لم تضف عليهن ميزة الأمارة أهمية خاصة. ولكنّ الزوجات المستبعدات كن على خطأ لدى تصوّرهن أنّها لاترغب بغير استقبال الرجال لتستطيع التحدّث عن الآداب والعلم والفلسفة. ذلك أنّها ما كانت تتحدث البتة فيها على الأقلّ من كبار رجال الفكر. ولئن كانت بموجب التقليد الأسروي نفسه الذي يحمل بنات كبار العسكريين على الاحتفاظ وسط أكثر مشاغلهنّ بعثاً على الغرور باحترام أمور الجيش، لئن كانت تظنّ، وهي حفيدة نساء كنّ وثيقات الصلة بـ«تيير» و«ميريميه» و«أوجييه»، أنه ينبغي قبل كل شيء أن يرصد المرء في صالته مكاناً لجماعة الفكر، إلاّ أنها أخذت من الطريقة المستكبرة والأليفة في آن معا التي يتم فيها استقبال مشاهير الرجال في «غيرمانت» عادة احتساب رجال المواهب بمثابة معارف مألوفين لا تبهرك موهبتهم ولا تتحدّث إليهم عن أعمالهم الفنية، الأمر الذي ربما لن يثير اهتمامهم. ثم إن نمط «ميريميه» و«ميلاك» و«هاليفي» الفكري، وكان نمطها، كان يدفعها، بما يناقض النزعة العاطفية اللفظية التي طبعت حقبة سابقة، إلى طراز من الحديث يستبعد كلّ ما كان من قبيل الجمل العريضة والتعبير عن العواطف السامية، ويجعلها تتخذ نوعا من التأنق في قصر حديثها، حينما تكون بصحبة شاعر أو موسيقي، على أصناف الطعام التي يتم تناولها أو لعبة الورق التي يزمعون أن يلعبوها كان لذلك الامتناع، في نظر ثالث هيّن الاطلاع، شيء محير يبلغ حدّ السرّ فان سألته السيدة «دو غيرمانت» إن كان يغبطه أن يدعى برفقة هذا الشاعر أو ذاك كان يصل في الساعة المحددة يتآكله الفضول. وكانت الدوقة تكلم الشاعر عن الطقس السائد. ويقومون إلى المائدة، فتسأل

الشاعر: «أتحب هذه الطريقة في تحضير البيض»؟ وإزاء موافقته التي كانت تشاطره إياها، إذ كان يبدو لها كل مافي بيتها لذيذا، حتى شراب تفاح شنيع كانت تجيء به من «غيرمانت»، كانت تأمر رئيس الخدم قائلة: «قدّموا بيضاً للسيد مرّة أخرى»، فيما يوالي الشخص الثالث، تملؤه الحيرة، انتظار ماكان بالتأكيد في نية الشاعر والدوقة قوله فيما بينهما بما أنهما تدبّرا أمر لقاء بينهما قبل رحيل الشاعر على الرغم من ألوف المصاعب. ولكن الوليمة تستمرّ وألوان الطعام ترفع الواحد تلو الآخر، ولايتم الأمر دون أن تتاح للسيدة «دو غيرمانت» فرصة مزحات ذكية أو حكايات لطيفة. ويوالي الشاعر في تلك الأثناء تناول الطعام دون أن يبدو أن الدوق أو الدوقة يتذكران أنّه شاعر. وينتهي الغداء بعد قليل ويتم الوداع دون أن تقال كلمة واحدة عن الشعر الذي كان الجميع يعشقونه على الرغم من ذلك ولكنما لايتحدّث عنه أحد بداعي ضرب من التحفظ شبيه بذاك الذي زوّدني «سوان» بشعور سابق منه. كان ذاك التحفظ من جميل التهذيب فحسب. فأما بالنسبة إلى الآخر، فقد كان مبعثا لكآبة شديدة إن هو فكر في الأمر قليلاً، وكانت وجبات طعام محيط آل «غيرمانت» تذكر آنذاك بتلك الساعات التي غالبا ما يقضيها معا عشاق وجلون في التحدّث عن تفاهات إلى أن يحين فراقهم ودون أن يتأتى للسرّ الكبير الذي ربّما سعدوا أكثر في البوح به أن يمرّ من قلوبهم إلى شفاههم، إما وجلاً أو استحياء أو خرقاً على أنّه لابدّ أن نضيف من جهة أخرى أن ذاك الصمت حول الأمور الدفينة التي ينتظر المرء دوماً دون جدوى ساعة مباشرتها لم يكن مطلقاً لدى الدوقة وإن أمكن عدّه سمة مميزة لها. فقد سبق أن قضت السيدة «دو غيرمانت» شبابها في وسط مختلف بعض الشيء، وسط يساوي في ارستقراطيته الوسط الذي تعيش فيه اليوم ،ولكنه أقلّ تألقاً وأقلّ تفاهة على وجه الخصوص ومن ثقافة رحبة. ولقد خلف لطيشها الراهن نوعاً من التربة الأشد صلابة، تربة خفية الغذاء كان يبلغ بالدوقة أن تبحث فيها (ولأمر نادر جدّا لأنها كانت تكره الحذلقة) عن استشهاد من «فيكتور هوغو» أو «لامارتين» مناسب تماماً وتقوله بنظرة صادقة التعبير في عينيها الجميلتين فلا يخلو من اندهاش وسحر ألباب بل ويبلغ بها أحياناً دونما حيطة وبسداد في الرأي وبساطة أن تسدي النصح الذكيّ لمؤلفّ مسرحي عضو في المجمع فتحمله على تلطيف موقف أو تغيير خاتمة.

ولئن كنت أصادف مشقة، في صالة السيدة «دو فيلباريزيس» وفي كنيسة «كومبريه» سواء بسواء، لدى زواج الآنسة «بيرسبييه»، في أن أعثر، على وجه السيدة «دو غيرمانت» الجميل الذي يفيض سمات بشريّة، على المجهول الذي يغمر اسمها فقد كنت أحسب على الأقلّ أن حديثها العميق الذي تكتنفه الأسرار سوف يرتدي، إذ تتحدّث، غرابة سجادة من القرون الوسيطة وزجاجيّة قوطيّة بيد أنّه ما كان كافياً، كي لا تخيب ظنّي الأقوال التي ستتفوّه بها امرأة يدعونها السيدة «دو غيرمانت»، حتى وان لم أحببها، ما كان كافياً أن تكون الأقوال ذكية وجميلة وعميقة، بل كان انبغى أن تعكس ذاك اللون الأرجواني الذي في المقطع الأخير من اسمها، ذاك اللون الذي دهشت منذ اليوم الأول ألاّ أجده في شخصها والذي هربت به إلى فكرها. لقد سبق دونما شك أن سمعت السيدة «دو فيلباريزيس» و«سان لو»، وهما من قوم لاخارق في ذكائهم، ينطقان دون أن يحتاطا للأمر باسم «دو غيرمانت»، وببساطة وكأنه اسم شخص يزمع القدوم في زيارة أو تزمع تناول العشاء معه، ولايبدو أنّهما يحسان في ذلك الاسم مناظر غابات آخذة في الاصفرار وركناً خفياً تماماً في الريف. كان لابد أن يكون الأمر تصنعاً من جهتهما، كما هي الحال حين لاينبهنا الشعراء الكلاسيكيون إلى المقاصد

العميقة التي راودتهم مع ذلك، تصنعاً كنت أجهد بدوري في محاكاته قائلاً بلهجة طبيعية كأكثر ما تكون : دوقة «غيرمانت» ، وكأنه اسم يشبه أسماء أخرى. كان الجميع يؤكدون على أية حال أنها امرأة شديدة الذكاء ظريفة الحديث تعيش في جماعة صغيرة من أكثرها إثارة، وكانت تلك الأقوال تشجع حلمي. ذلك أني حينما كانوا يقولون جماعة ذكية وحديث ظريف لم أكن أتخيل على الإطلاق الذكاء حسبما كنت أعرفه وإن كان ذكاء أعظم العقول وما كنت على الاطلاق أؤلف تلك الجماعة من قوم على غرار «بيرغوت».لا، لقد كنت أعني بالذكاء قدرة لايحيط بها وصف، مذهبة أشربت ندوّة الغابات. ولعلّ السيدة «دو غيرمانت» كانت، وإن هي تفوّهت بأكثر الأقوال ذكاء (بالمعنى الذي كنت آخذ فيه لفظة «ذكيّ» حينما يدورا لأمر حول فيلسوف أو ناقد) ستزيد من خيبة ما أنتظر من قدرة خاصة إلى هذا الحدّ كما لو أنها اكتفت، عبر حديث لاشأن له بالتكلم عن مقادير الطبخ أو عن أثاث قصر وبذكر أسماء جارات أو أقارب لها ربما أوحوا لي بحياتها.

قالت السيدة «دو غيرمانت» لعمتّها: «ظننتني ألاقي «بازان» ههنا فقد كان يعتزم المجيء للقياك».

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» بلهجة بادية التأثر غاضبة: «لم أرَ زوجك، ومنذ عدّة أيام. لم أرَه أو ربما رأيته مرّة واحدة منذ تلك المزحة الطريفة في أن يبعث من يعلن لدى قدومه أنّه ملكة السويد».

وزمت السيدة «دو غيرمانت» زاوية شفتيها لتتبسم وكأنما عضت على برقعها الصغير.

— «لقدتغدّينا معها البارحة لدى «بلانش لوروا» ، وقد لا تتعرّفينها فقد أصبحت ضخمة، إنّي متيقنّة أنها مريضة.»

—«كنت الضبط أقول لهؤلاء لسادة إنك ترين لها هيئة ضفدعة.» وصدر عن السيدة «دو غيرمانت» ضرب من الضجة الخشنة تعني بها أنّها تقهقه إبراء لذمتها.

— «ما كنت أعلم أنني قمت بهذا التشبيه الجميل، ولكنما الضفدعة في هذه الحالة هي التي أفلحت الآن في أن تضحي بضخامة الثور. أو لعل الأمر بالأحرى ليس على هذا النحو تماماً لأنّ كامل ضخامتها قد تجمع على البطن، فهي بالأحرى ضفدعة في وضع مثير.»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» : «آه! إنّي أجد الصورة مضحكة» ، وكانت في أعماقها على شيء من الاعتزاز بنباهة ابنة شقيقها أمام زوّارها.

— «إنّها على وجه الخصوص اعتباطية» ، تجيب السيدة «دو غيرمانت» وهي تبرز بسخرية هذه الصفة المنتقاة كما لعلّ «سوان» كان فعل، «فانني أقرّ بأنني لم أرَ في يوم ضفدعة في طور الولادة وهذه الضفدعة التي لاتطلب ملكاً مع ذلك، لأنني ما رأيتها قطّ أكثر طيشاً منها منذ وفاة زوجها، سوف تأتي على كلّ حال لتناول العشاء في المنزل في أحد أيام الأسبوع القادم وقلت إنيّ سوف أبلغك ذلك على سبيل الاحتياط».

وأصدرت السيدة «دو فيلباريزيس» نوعاً من الغمغمة المبهمة، وأضافت تقول: «أعرف أنّها تناولت العشاء

قبل البارحة في منزل السيدة «دو مكلمبور»، وكان ثمة «هنيبال دو بريوتيه»، وقد جاء فروى لي عن ذلك، وعليّ أن أقول إنّه فعل على نحو مضحك إلى حدّما.»

- «كان في ذلك العشاء آخر أكثر ظرفاً من «بابال»، تقول السيدة «دو غيرمانت» التي كانت تصرّ، على الرغم من ألفتها الشديدة في علاقتها بالسيدة «دو بريوتيه كونسالفي»، على ابراز ذلك بتسميته بصيغة التصغير تلك ؛ «إنّه السيد «بيرغوت».

لم يكن قد خطر لي أنّه يمكن عدّ «بيرغوت» من الظرفاء، ثمّ إنّه كان يبدو لي أنّه يخالط البشرية الذكية، وأعني أنّه كان بعيداً إلى ما لاحدود عن هذه المملكة الغامضة التي سبق أن رأيتها تحت أرجوان ستائر إحدى المقصورات حيث كان السيد «دو بريوتيه» يضحك الدوقة إذ يسوق معها بلغة الآلهة ذلك الأمر الذي لايمكن تخيله بين جماعة من حيّ «سان جيرمان». وحزّ في نفسي أن أشهد التوازن ينفرط و«بيرغوت» يمرّ من فوق السيد «دو بريوتيه» ولكنما بعث في نفسي اليأس على نحو خاصّ انني تجنبت «بيرغوت» في أمسية مسرحية «فيدر» وأنني لم أذهب إليه، وذلك حينما سمعت السيدة «دو غيرمانت» تقول للسيدة «دو فيلباريزيس» :

- «إنّه الشخص الوحيد الذي أتوق إلى التعرف إليه»، تضيف الدوقة التي كنت تستطيع أن تبصر فيها أبداً، وكأنّما لحظة تدفق روحي، مدّ فضول إزاء مشاهير المثقفين يلتقي في طريقه بجزر السنوبيّة الارستقراطية ؛ «فما أكثر ما سيمتعني هذا الأمر!»

فلعلّ وجود «بيرغوت» إلى جانبي، وما أكثر ما كان يسهل عليّ نواله ولكني ربما ظننت أنّ من شأنه أن ينقل عني فكرة سيئة للسيدة «دو غيرمانت»، لعله كان نجم عنه بالتأكيد، وعلى عكس ذلك، أن تومئ إليّ بالمجيء إلى مقصورتها وتطلب إليّ أن أصطحب الكاتب الكبير ذات يوم للغداء.

وأضافت السيدة «دو غيرمانت» قولها: «يبدو أنّه لم يكن لطيفاً، فقد قدّموه للسيد «دو كوبور» ولم يقل له كلمة»، وهي تشير إلى هذه الفعلة الغريبة كما لو تروي عن صينيّ تمخط بالورق. ثمّ أضافت: «لم يقل له مرّة واحدة ياصاحب السيادة» بادية السرور من جرّاء هذا الأمر الذي يساوي في أهميته بالنسبة إليها رفض بروتستنتيّ أثناء إحدى مقابلات البابا أن يركع أمام قداسته.

وقد أثارت خصائص «بيرغوت» هذه اهتمامها ولم يكن يبدو عليها على أيّة حال أنّها تجدها معيبة بل بدا بالأحرى أنّها تجعل له منها فضلا دون أن تعلم هي بالضبط من أي نوع. وعلى الرغم من هذه الطريقة العجيبة في فهم غرابة «بيرغوت»، فقد وقع لي فيما بعد ألا أجد غير ذي شأن تماماً أن تكون السيدة «دو غيرمانت» قد ألفت «بيرغوت» أشدّ ظرافة من السيد «دو بريوتيه» أمام دهشة الكثيرين الكبيرة. ومثل هذه الأحكام التخريبية المنفردة والصائبة مع ذلك إنّما تصدرها على هذا النحو في العالم ندرة من الناس المتفوقين على سواهم. وإنهم ليرسمون فيها الخطوط الأولى لمراتبية القيم على نحو ما سيخططها الجيل اللاحق عوض أن يتمسك أبدا بالقديمة.

ودخل الكونت «دار جنكور» القائم بأعمال بلجيكا وابن قريب بالنسب للسيدة «دو فيلباريزيس» وهو يعرج، وقد تبعه بعد قليل شابان هما البارون «دو غيرمانت» وسمو الدوق «دو شاتيلرو» الذي قالت له السيدة «دو غيرمانت»: «مرحبى ياصغيري «شاتيلرو»، قالت بهيئة ساهية ودون أن تتحرّك على مقعدها المنفوخ لأنها كانت صديقة كبيرة لوالدة الدوق الشاب الذي كان يجلّها من جراء ذلك ومنذ طفولته إجلالاً بالغاً. كان يبدو هذان الشابان، وهما مديدا القامة نحيفان مذهبا الجلد والشعر ومن طراز آل «غيرمانت» تماماً، كانا يبدوان وكأنهما تكثيف النور الربيعي والمسائي الذي كان يغمر الصالة الكبيرة. ووضعا قبعتيهما الرسميتين على الأرض بالقرب منهما وفق عادة كانت تحكم السلوك في ذلك الوقت. وظن مؤرّخ «حركة التمرد» أنهما مرتبكان مثل فلاح يدخل إلى دار العمدة ولا يعلم ما يفعل بقبعته. فقال لهما، وقد ظن من واجبه أن يهبّ بداعي الرأفة بهما لمساعدة الارتباك والاستحياء اللذين يفترضهما لديهما:

– «لا، لا، لا تضعاهما على الأرض فسوف تتلفانهما.»

وحانت نظرة من البارون «دو غيرمانت» أمالت ساحة حدقتيه وبعثت فيهما فجأة لونا أزرق فاقعاً حاداً جمّد المؤرخ.

وسألني البارون الذي قدّمته لي السيدة «دو فيلباريزيس» قبل قليل قائلاً: «كيف يدعى هذا السيد»؟

فأجابت بصوت خافت: «السيد بيير».

– «بيير آل مَنْ؟»

– «بيير، تلك كنيته، إنّه مؤرخ عظيم الشأن.»

– «آه!... ماعدت أستغرب ما تقول!»

وأوضحت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «لا، إنّها عادة جديدة اتخذها هؤلاء السادة بوضع قبعاتهم على الأرض، وإنّني لم أتعود الأمر مثلما هي حالك. ولكنني أفضل ذلك على ابن شقيقي «روبير» الذي يترك أبداً قبعته في الردهة. وأقول له حينما أراه داخلاً على هذا النحو إنّه يبدو وكأنه الساعاتي وأسأله إن كان آتياً لتدوير ساعات الجدران.»

وقال مؤرّخ حركة التمرّد، وقد اطمأنّ قليلا من جراء تدخل السيدة «دو فيلباريزيس»، بيد أنّه فعل مع ذلك بصوت خافت إلى حدّ أن لم يسمعه أحد فيما عداي: «كنت تحدّثينني منذ قليل، ياسيدتي المركيزة، عن قبعة السيد «موليه»، وسوف يقدّر لنا عما قليل أن نؤلف، مثلما فعل أرسطو، فصلاً عن القبعات.»

وقال السيد «دارجنكور» وهو يشير إلى السيدة «دو غيرمانت» التي كانت تتحدث مع ج......: «إنّها مدهشة حقاً هذه الدوقة الصغيرة. فما أن يكون رجل بارز في صالة حتى تراه دوماً إلى جانبها، ولايمكن بالبداهة أن يكون غير الحبر الكبير الموجود هناك،. لايمكن أن يكون في كلّ يوم السيد «دوبوريللي» أوشلومبرجر» أو «دافنيل»، فإذا هو حينئذ السيد «بيير لوتي» أو السيد «ادمون روستان». والبارحة في منزل عائلة

«دو فيل» حيث كانت، ونقولها بين قوسين، رائعة تحت تاجها الذي من أحجار الزمرّد وبفسطان وردي طويل بأذيال، كان يجلس إلى جانبيها السيد «ديشانيل» من جهة وسفير ألمانيه من الجهة الثانية وقد صمدت أمامهما فيما يخص الصين. وكان الجمهور العادي يتساءل، وهو على المسافة التي يفرضها الإجلال، وما كان يسمع ما يقولون، إن لم تكن الحرب وشيكة الوقوع. لكأنها بالحقيقة ملكة تدير النادي.»

وكان كلّ قد اقترب من السيدة «دو فيلباريزيس» ليشاهدها ترسم. «قال «لوغراندان»: «هذه الأزهار من لون ورديّ سماويّ حقاً، وأعني بلون سماء ورديّة ؛ فثمة لون ورديّ سماويّ مثلما هنالك لون أزرق سماوي.» ثم همس قائلاً يحاول ألاّ تسمعه سوى المركيزة: «أظنني لازلت أميل إلى اللون الحريري، لون البشرة الزهري الحيّ في النسخة التي ترسمينها لها. آه! إنكِ تخلفين بعيداً وراءك «بيزانيللو» و«فان هويسوم» ومجموعتهما العشبيّة الدقيقة التي لاحياة فيها.»

والفنان يرتضي دوما، مهما يكن متواضعها، أن يفضل على منافسيه ويحاول أن ينصفهم فحسب.

– «إن ما يورثك هذا الأثر أنهم كانوا يرسمون أزهاراً من ذلك العصر ما عدنا نعرفها ولكنهم كانوا على علم وفير.»

وصاح «لوغراندان» قائلا: «أزهار من ذلك العصر، ما أبرع القول!»

– «ترسمين بالفعل أزهار كرز جميلة أو أزهارا من أزهار أيار». يقول مؤرّخ حركة التمرّد، ولا يفعل دون تردّد فيما يخصّ الزهرة ولكن بلهجة الواثق بنفسه إذ أخذ ينسى حادثة القبعات.

وقالت دوقة «غيرمانت» وهي توجه الحديث إلى عمتها: «لا، إنّها أزاهير تفاح.»

– «أراك ريفية صادقة، فانك تحسنين مثلي تمييز الأزهار.»

وقال مؤرّخ حركة التمرّد يبغي عذراً: «أجل، هذا صحيح! ولكنني ظننت فصل التفاح قد انقضى.»

فقال مدير المحفوظات الذي كان أكثر اطلاعاً على أمور الريف إذ كان يدير بعض الشيء أملاك السيدة «دو فيلباريزيس»: «لا، لا، بالعكس، إنّها لم تزهر ولن يتمّ ذلك لها قبل خمسة عشر يوما وربّما ثلاثة أسابيع».

– «أجل، وفي ضواحي باريس فقط حيث تسبق أوانها كثيراً. أما في النورماندي مثلاً، ولدى والده»، تقول وهي تشير إلى دوق «دو شاتيللرو»، «الذي يملك أشجار تفاح بديعة على شاطئ البحر وكأنما على سائرة يابانية، فلا تصبح وردية حقاً إلاّ بعد العشرين من أيار.»

وقال الدوق الشاب: «إنّي لا أراها البتّة لأنّها تصيبني بزكام الحشائش، وذلك مدهش».

وقال المؤرّخ: «زكام الحشائش، ما سمعت قطّ من يتحدّث عن ذلك.»

وقال مدير المحفوظات: «إنّه المرض الشائع».

وقال السيد «دارچنكور» الذي لم يكن فرنسياً تماماً فكان يحاول الظهور بمظهر الباريسي: «الأمر رهن بسواه فربّما لم تصبك بشيء إن كان العام عاماً فيه تفاح. تعرفين كلمة جماعة النورماندي، ففي سنة كثر تفاحها...»

وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» ابنة شقيقها قائلة: «أنت على حقّ إنّها من تفّاح الجنوب. إنّها بائعة زهور بعثت إليّ بهذه الاغصان طالبة أن أتقبلها. يدهشك ذلك ياسيد «فالنير»، تقول موجهّة الحديث إلى مدير المحفوظات، «أن تبعث إليّ بائعة زهور بأغصان شجرة تفّاح؟ ولكني وإن تقدمت بي السن أعرف بعض الناس، إنّ لديّ بعض الأصدقاء»، تضيف وهي تبتسم بداعي البساطة، فيما ظنّوا بعامّة، أو بالأحرى لأنّها، فيما بدا لي، كانت تجد إثارة أن تزهو بصداقة بائعة زهور حينما يتوافر لك معارف عظام إلى هذا الحدّ.

ونهض «بلوك» ليجيء بدوره وينظر بإعجاب إلى الأزهار التي كانت السيدة «دو فيلباريزيس» ترسمها.

وقال المؤرّخ وهو يعود إلى كرسيّه: «لا أهمية للأمر، أيتها المركيزة فحتى لو عادت واحدة من تلك الثورات التي كثيراً ما غمرت بالدماء تاريخ فرنسه، -- والمرء لايستطيع، والله، أن يعلم في هذه الأزمنة التي نعيش فيها»، يضيف قوله وهو يلقي نظرة دائرية محاذرة وكأنما ليرى إن لم يكن في الصالة أي من«ذوي التفكير السيىء»، مع أنّه لايشكّ في الأمر، – فإنّك بمثل هذه الموهبة ولغاتك الخمس لعلى ثقة دائمة بحسن تدبّر أمورك».

كان مؤرّخ حركة التمرّد ينعم ببعض الراحة إذ كان قد نسي أرقه. ولكنّه ذكر فجأة أنّه لم ينم منذ ستة أيام: وإذ ذاك اجتاح ساقيه تعب قاس كان وليد عقله فأحنى كتفيه وأخذ وجهه المحزون يتدلى شبيهاً بوجه رجل عجوز.

وأرد «بلوك» أن يجيء بحركة ليعبر عن إعجابه ولكنه قلب بضربة من مرفقه الإناء الذي كان يحوي الغصن وسال الماء كله على السجادة.

وقال المؤرّخ للمركيزة، ولم يكن قد لاحظ تصرّف «بلوك» الأخرق إذ كان يوليني ظهره في تلك اللحظة: «إن لك حقاً أنامل جنيّة».

وظن هذا الأخير أن الكلمات تنطبق عليه فقال بغية أخفاء خجله من تصرّفه الأرعن خلف ستار من الوقاحة: «لا أهمية للأمر بتاتا فإنّي لم يصبني البلل.»

وقرعت السيدة «دو فيلباريزيس» الجرس فأقبل خادم ليمسح السجادة ويجمع قطع الزجاج. ودعت الشابين إلى استقبالها بعد الظهر وكذلك الدوقة «دو غيرمانت» التي أوصتها قائلة:

– «افطني أن تقولي لـ«جيزيل» و«بيرت» (وهما دوقتا «أوبيرجون» و«بورتفان») أن تحضرا قبل الثانية ظهراً بقليل كي تعاوناني»، كما لعلها كانت تقول لرؤساء خدم إضافيين أن يصلوا سلفاً ليعدّوا أطباق الفواكه المطبوخة.

فلم تكن تبدي لذويها الأمراء ولا للسيد «دو نوربوا» أيّاً من تلك الألطاف التي تبديها للمؤرّخ و«كوتار» و«بلوك» ولي ولا يبدو أنّهم يكتسبون في نظرها غير أهمية تقديمهم بمثابة مادّة لفضولنا. ذلك لأنّها كانت تعلم أن ليس عليها أن تتحرّج مع جماعة لم تكن بالنسبة إليها امرأة لامعة إلى حدّما، بل الشقيقة الشديدة الحساسية التي يراعون شعورها شقيقة والدهم أو عمّهم. فما كانت لتفيد شيئاً من محاولة التألق أمامهم هم الذين لايمكن أن يخدعهم ذلك حول مكانتها الرفيعة أو الهزيلة والذين كانوا يعلمون أكثر من أي سواهم تاريخها ويجلوّن السلالة الشهيرة التي تنحدر منها. وهم ما عادوا على وجه الخصوص يمثلون في نظرهم سوى بقية ميتة لن تثمر من بعد، فلن يعرّفوها بأصدقائهم الجدد ولن يشاطروها متعهم. وهي لا تستطيع الحصول على غير حضورهم إلى استقبالها في الساعة الخامسة أو إمكان التحدّث عنهم فيه مثلما هي الحال فيما بعد في مذكراتها التي لم يكن الاستقبال سوى نسخة تجريبية لها ونوع من القراءة الجهريّة الأولى أمام ندوة صغيرة. فأما الجماعة التي كان هؤلاء الأقارب النبلاء يقيدونها في استثارتها وخلب ألبابها وتكبيلها، جماعة أمثال «كوتار» و«بلوك» والمؤلفين المسرحيين المرموقين ومؤرخي حركة التمرّد من كل صنف وجنس، فإنما تكمن في هذه الجماعة بالنسبة إلى السيدة «دو فيلباريزيس» -في غياب هذا القسم من المجتمع الذي لايرتاد منزلها- الحركة والجدّة والتسليات والحياة. فمن هؤلاء القوم كان بمقدورها أن تحصل على مكاسب اجتماعية (تساوي تماماً أن تفسح لهم أحياناً مجال التقاء الدوقة «دو غيرمانت» دون أن يعرفوها في يوم): فولائم عشاء برفقة رجال مرموقين استهوتها أعمالهم الفنية وغنائية هزليّة أو تمثيليّة إيمائيّة معدّة تمام الإعداد ويسمح المؤلف بتمثيلها، ومقصورات لعروض غريبة. ونهض «بلوك» يريد الذهاب. لقد سبق أن قال جهاراً أن حادثة إناء الزهر المقلوب كانت غير ذات بال، ولكن ما كان يقوله سرّاً كان مختلفاً «وأكثر اختلافاً منه ما كان يفكر فيه: فقد كان يغمغم بصوت خافت: «حينما لايملك المرء خدماً حسني التدريب إلى حدّ ما كي يحسنوا وضع إناء دون أن يعرّضوا الزوّار للبلل أو الجرح فلا يغامر في اتّخاذ صنوف الترف هذه». لقد كان في عداد هؤلاء الناس الحسّاسين «العصبيّين» الذين لا يستطيعون احتمال الوقوع في عمل أخرق لايقرّون به مع ذلك في سرّهم ويفسد عليهم نهارهم كلّه. كان حانقاً تعتمل في نفسه أفكار في سرّهم ويفسد عليهم نهارهم كلّه. كان حانقاً تعتمل في نفسه أفكار سوداء ولايريد العودة إلى صفوف المجتمع من بعد. وإنّه الوقت الذي لابدّ فيه من بعض الترفيه. ولحسن الحظّ كانت السيدة «دو فيلباريزيس» مقبلة بعدّ ثانية على استبقائه. فلم تكن قد عرّفت به الأشخاص الذين كانوا هناك إمّا لأنّها كانت تعرف آراء أصدقائها وموج معاداة السامية الذي كان آخذاً في الارتفاع، وإمّا أنّها سهت عن ذلك. أمّا هو الذي كان قليل العهد بالمجتمع فقد ظنّ من واجبه أن يحييّهم وهو ذاهب التزاماً بآداب السلوك ولكن دون تلطف، فأحنى الجبين عدّة مرات وغاص بذقنه اللحيّ في ياقة قميصه ينظر على التوالي إلى كلّ منهم من خلال زجاج نظارته نظرة فيها جفاء واستياء. ولكنّ السيدة «دو فيلباريزيس» أوقفته، فقد كان لايزال عليها أن تحدّثه عن الفصل الصغير الذي يزمعون تمثيله في منزلها وما كانت تودّ من جهة ثانية أن يمضي دون أن يكون قد نعم بالتعرّف إلى اليسد «دو نوربوا» (الذي كانت تعجب كيف لاتراه يدخل) مع أن هذا التعرّف غير ضروري لأن «بلوك» كان عازماً على اقناع الفنانين اللذين تحدّث عنهما بالمجيء للغناء دون مقابل في منزل المركيزة في واحد من تلك الاستقبالات التي تتردّد إليها صفوة أوروبا وذلك لصالح شهرتهما. وقد بلغ به أن اقترح إلى ذلك ممثلة مأساوية «فيروزية العينين وفي

جمال هيرا»[1] تنشد نثراً وجدانياً وتتمتع بحس الجمال التشكيلي. ولكنّ السيدة «دو فيلباريزيس» رفضت لدى سماع اسمها، فقد كانت صديقة «سان لو» وهمست في أذني قائلة:

«لديّ أخبار أفضل منها، فإنّي أظنّ الأمور لاتخفق إلاّ بجناح واحد وأنّهما لن يتوانيا عن الانفصال». وتضيف قولها: «على الرغم من ضابط قام بدور بغيض في كلّ ذلك.» (ذلك أن أسرة «روبير» أخذت تحقد حقداً مميتاً على السيد «دو بورودينو» الذي سبق أن منح التصريح إلى مدينة «بروج» نزولاً عند إلحاح الحلاق، وتتهمه بتيسير علاقة شائنة.) وقالت لي السيدة «دو فيلباريزيس» باللهجة الفاضلة التي لآل «غيرمانت» وحتى من كان أكثرهم انحطاطاً: «إنّه شخص سيئ جداً». كنت تحس أنّها لاتشكّ أن يكون الشريك الثالث في سائر الحفلات الفاجرة. ولما كان اللطف يشكل العادة السائدة لدى المركيزة فقد انتهت ملامح القسوة المقطبة إزاء النقيب المقيت الذي تلت اسمه بفخامة ساخرة: الأمير «دو بورودنيو»، تلاوة امرأة لاتحسب للامبراطورية حساباً، انتهت في ابتسامة رقيقة موجّهة إليّ بغمزة عين آلية يبطنّها تواطؤ غامض معي.

وقال«بلوك»: «كنت أحبّ إلى حدّ «دو سان لو آن بريه» مع أنّه كلب رديء لأنّه مهذّب إلى أقصى الحدود. إني أحبّ الأشخاص المهذّبين إلى أقصى الحدود حباً جماً فما أندرهم». يقول ولايلاحظ إلى أيّ مدى تسوء أقواله إذ كان سيئ التهذيب إلى أبعد حدّ. «سوف أذكر لكم دليلاً أراه جلياً جداً على تهذيبه الرفيع. فقد التقيت به ذات مرّة بصحبة شاب وفيما كان يزمع الصعود إلى عربته ذات العجلات الجميلة وبعدما وضع بنفسه الأحزمة الرائعة على جوادين غذّيا بالشوفان والشعير ولا حاجة لحثهما بالسوط الملتمع. وقدّمنا الواحد للآخر ولكنني لم أسمع اسم الشاب لأنك لاتسمع قطّ اسم الأشخاص الذي يتمّ تقديمك إليهم»، يضيف ضاحكاً إذ كانت تلك مزحة لوالده، «وظلّ دوسان لو آن بريه بسيط السلوك ولم يغالِ في الاهتمام بالشاب ولم يبدِ البتة أيّ انزعاج. وقد علمت بالمصادفة بعدبضعة أيّام أنّ الشابّ ابن السيد «روفوس إسرائيلز»!

وبدت خاتمة هذه القصة أقلّ إزعاجاً من بدايتها إذ ظلت متعذرة الفهم بالنسبة إلى القوم الحاضرين. ذلك أنّ السيد «روفوس إسرائيلز» الذي كان يبدو لـ «بلوك» ووالده بمثابة شخصية ملكية كان ينبغي أن يرتجف «سان لو» في حضرته إنّما كان على العكس في نظر محيط آل «غيرمانت» أجنبياً حديث النعمة يتغاضى عنه المجتمع وما كان ليخطر لأحد أن يفاخر بصداقته، بل على العكس تماماً!

وقال «بلوك»: «لقد عرفت ذلك على لسان وكيل السيد «روفوس اسرائيلز» المفوّض بالتوقيع وهو صديق لوالدي ورجل خارق تماماً. آه! إنّه شخص غريب كلّ الغرابة» يضيف قوله بهذا الحزم في التأكيد وبنبرة الحماسة التي لا يبديها المرء إلا في القناعات التي لم يشكلها بنفسه. وعاد «بلوك» يقول وهو يكلمني بصوت خافت جداً: «لكن قل لي، أيّة ثروة بمكن أن يملكها «سان لو»؟ تدرك تماماً أنني إن كنت أسألك ذلك فإني لا أحفل به في حدّ ذاته بقدر ما أفعل بالنسبة إلى عام الأربعين ؛ ولكنّ الأمر من وجهة نظر «بلزاكيّة» كما ترى، ولست حتى تعلم فيما تمّ توظيفها وإن كان يملك أسهماً فرنسية وأجنبية وأراضي؟»

(1) Héra الهة الزواج لدى قدماء اليونان وترمز إلى عظمة الأمّ وسلطانها.

لم أستطع تزويده بأية معلومات. وكفّ «بلوك» عن التحدّث بصوت خافت واستأذن بصوت عال بفتح النوافذ واتجه إليها دون أن ينتظر الجواب. وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» إنّه يستحيل فتحها وإنها مصابة بزكام فردّ «بلوك» يقول خائب الأمل: «آه! إن انبغى أن يؤذيك ذلك! على أنّه يمكن القول إن الجوّ حارّ.» وأخذ في الضحك وجعل في نظراته التي جالت حول الحضور استجداءً يطالب بدعم ضد السيدة «دو فيلباريزيس». فلم يوفق إليه في صفوف أولئك الناس الحسني التهذيب. واستعادت عيناه المتقدّان اللتان لم تفلحا في إفساد أحد رصانتهما مستسلمتين. وأعلن بلهجة الهزيمة: «الحرّ يبلغ اثنتين وعشرين درجة على الأقل. خمساً وعشرين؟ ذلك لايدهشني فإنّي أسبح تقريباً في عرقي. ولست أملك على غرار الحكيم «أنتينور» ابن النهر «ألفيوس» قدرة الغوص في المياه الأبوية كي أوقف عرقي قبل أن أدخل حماماً صقيلاً وأدهن نفسي بزيت معطر.» وأضاف بتلك الحاجة التي لدى المرء إلى وضع نظريات طبية تحت تصرّف الآخرين، نظريات قد يجيء تطبيقها في صالح راحتنا: «بما أنّك تظنين أن الأمر يعود عليك بالنفع ! أمّا أنا فأظنّ العكس تماماً. ذلك بالضبط ما يحمل لك الزكام.»

لقد أبدى «بلوك» أنّه مغتبط بفكرة التعرّف بالسيد «دو نوربوا»، ولعله كان يحبّ، فيما يقول، أن يحمله على التحدث عن مسألة «دريفوس».

– «ثمة ذهنية لا أعرفها حقّ المعرفة، وربّما كان مثيراً إلى حدّ ما أن أحظى بمقابلة هذا الدبلوماسي العظيم الشأن»، يقول بلهجة جارحة كي لا يبدو أنّه يعدّ ذاته أدنى من السفير.

وأسفت السيدة «دو فيلباريزيس» أن قال ذلك أيضاً بصوت عال ولكنها لم تعلق على الأمر كبير أهمية حينما أبصرت أن مدير المحفوظات الذي كانت تنقاد، إن جاز القول، لآرائه القومية كان في مكان أبعد من أن يمكنه من الاستماع. ولكنّما صدمها أكثر من ذلك أن تسمع «بلوك»، وقد دفعه شيطان سوء تهذيبه الذي سبق فأعماه، يسألها وهو يضحك للمزاح الأبوي:

– «ألم أقرأ له بحثاً علمياً يبيّن فيه لأية أسباب لاتدحض كان ينبغي أن تنتهي الحرب الروسية – اليابانية بانتصار الروس وهزيمة اليابانيين! أفليس على شيء من الخرف؟ ويبدو لي أنّه هو من رأيت «يسدّد» إلى مقعدة قبل أن يبادر إلى الجلوس فيه منزلقاً وكأنما على عجلات.»

– «مستحيل!» وتضيف المركيزة قولها: «انتظر لحظة، فلا أدري ما يمكن أن يفعل.»

وقرعت الجرس، وبعدما دخل الخادم، وإذكانت لاتخفي على الإطلاق أن صديقها القديم كان يمضي أكبر قسط من وقته في منزلها، بل تحب أن تبرز ذلك:

– «هيّا امض وقل للسيد «دو نوربوا» أن يأتي، فهو يقوم بتصنيف أوراق في مكتبي، وقد قال إنّه آت بعد عشرين دقيقة، وها إني انتظره منذ ساعة وثلاثة أرباع الساعة.» وقالت تخاطب «بلوك» بلهجة الحردان: «سوف يحدّثك عن مشكلة «دريفوس» وعن كلّ ما تريد، إنّه لايقرّ كثيراً مايجري.»

ذلك أنّ السيد «دو نوربوا» لم يكن على علاقة طيبة بالوزارة الحالية وكانت السيدة «دو فيلباريزيس»

بوساطته على علم بما يجري، مع أنّه ماكان ليسمح لنفسه أن يأتيها بجماعة من الحكومة (إذكانت تحتفظ مع ذلك بكبرياء السيدة التي تنتمي لكبار الارستقراطيين وظلت خارج دائرة العلاقات التي كان يضطرّ أن يعتني بها، وفوق تلك العلاقات). وما كان سياسيّو العهد أولئك ليجرؤوا بدورهم أن يطلبوا إلى السيد «دو نوربوا» أن يعرّف بهم السيدة «دو فيلباريزيس» ولكنّما سبق للعديد منهم أن جاؤوا في طلبه في منزلها في الريف حينما يحسّون بحاجتهم إلى مساعدته في ظروف عصيبة. كانوا يعرفون العنوان، فيذهبون إلى القصر، ولايرون سيدته، ولكنّها كانت تقول في العشاء: «أعلم ياسيدي أنّهم جاؤوا يزعجونك. فهل الأمور أفضل مما كانت؟»

وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» «بلوك» قائلة: «لست على عجلة من أمرك؟»

– «لا، لا، كنت أبغي الرحيل لأنني لست على مايرام، بل أنا الآن بصدد القيام باستشفاء في «فيشي» لعلاج مرارتي»، يقول وهو يتلفظ هذه الكلمات بسخرية شيطانية.

– «عجباً، إن ابن ابن أخي «شاتيللرو» يزمع بالضبط الذهاب إلى هناك، وعليكما تدبّر ذلك سويّة، أمايزال هنا؟ إنّه لطيف، لو تدري»، تقول السيدة «دو فيلباريزيس» ربّما عن حسن نية وظناً منها أن شخصين تعرفهما كليهما لايملكان أيّة حجة تمنعهما من الارتباط بصداقة.

وقال «بلوك» وبه خجل وغبطة: «آه لست أدري إن كان ذلك سيروقه ؛ فانّي لا أعرفه.. إلاّ لماماً، إنّه هناك إلى أبعد بقليل».

ولا بدّ أنّ رئيس الخدم لم ينفذ على أتم وجه المهمّة التي كلف بها لدى السيد «دو نوربوا»، ذلك أنّ هذا الأخير، كيما يظنّ أنّه آت من الخارج ولم يرّ بعد ربّة البيت، أخذ كيفما تيسر في الردهة قبعة بدا لي أنّي أتعرّفها وجاء يقبل بتكلفٍ كبير يد السيدة «دو فيلباريزيس» وهو يسألها عن أخبارها بالاهتمام ذاته الذي يبديه المرء بعد غياب طويل. وكان يجهل أنّ المركيزة سبق أن نزعت عن تلك المهزلة أيّ مظهر للحقيقة، وقد أوقفتها على أيّة حال عند حدّها إذ اصطحبت السيد «دو نوربوا» و«بلوك» إلى صالة مجاورة. أما «بلوك» الذي شاهد جميع صنوف التودّد التي أحيط بها ذلك الذي لم يكن يعلم بعد أنّه السيد «دو نوربوا» والتحيّات المتكلفة الأنيقة الواسعة التي يردّ بها السفير، «بلوك» الذي أحسّ أنّه دون كلّ هذه الرسميات وأزعجه التفكير بأنّها لن توجه إليه في يوم، فقد قال لي ليظهر مظهر المرتاح: «أيّ صنف معتوه هو هذا؟» ربّما صدمت تحيّات السيد «دونوربوا» جميعها ما كان أفضل شيء في نفس «بلوك»، ونعني الصراحة الأكثر مباشرة لدى بيئة عصرية، فكان أن رأى جزئياً بصدق أنها مضحكة. ولكنّها كفت على أية حال عن الظهور بهذا المظهر، بل أغبطته منذ اللحظة التي أصبح فيها هو، «بلوك»، موضوعها.

قالت السيدة «دو فيلباريزيس»: «بودّي ياسيدي السفير أن أعرّفك بالسيد. السيد «بلوك»، السيد المركيز «دو نوربوا»». كانت تهتم، على الرغم من الطريقة التي تقسو بها على السيد «دو نوربوا»، بأن تقول له: سيدي السفير» تمسكاً بآداب السلوك ومبالغةً في تقديرها لرتبة السفير، ذاك التقدير الذي لقنها إيّاه السفير، وأخيراً كيما تطبق تلك التصرّفات الأقلّ ألفة والأكثر مجاملة إزاء رجل ما، وهي التي إذ تختلف اختلافاً قاطعاً في صالة امرأة لامعة عن الصراحة التي تستخدمها مع روّاد بيتها الآخرين، إنما تشير في الحال إلى عشيقها.

وأغرق السيد «دو نوربوا» زرقة عينيه في بياض لحيته وأحنى بعمق قامته المديدة وكأنّما يحنيها أمام كل ما يمثله اسم «بلوك» في نظره من شهرة ومهابة وهمس قائلا: «إنني مغتبط»، في حين صحح محدّثه الشاب بسرعة وقد اهتزت مشاعره ولكنه رأى أن الديبلوماسي الشهير يبالغ كثيراً فقال: «لا، بل على العكس تماماً، إنّي أنا المغتبط!» بيد أنّ هذه الحفاوة التي كان السيد «دو نوربوا» يكرّرها حبّاً بالسيدة «دو فيلباريزيس» مع كلّ مجهول تعرّفه به صديقته القديمة لم تبد لهذه الأخيرة تأدّباً كافياً إزاء «بلوك» الذي قالت له:

— «هيّا اسأله كل ما تريد معرفته، واصطحبه جانباً إن كان ذلك أكثر يسراً، وسوف يغبطه أن يتحدّث إليك. وأظنّك كنت تبغي محادثته في مسألة «دريفوس»، تضيف قولها دون أن تهتم إن كان الأمر يروق السيد «دو نوربوا» أكثر مما لعلها فكرت في سؤال رسم الدوقة «دو مونمورانسي» موافقته قبل أن تأمر بإنارته للمؤرّخ، والشاي موافقته قبل أن تقدّم كوباً منه.

وقالت لـ «بلوك»: «كلمّه بصوت عالٍ، فبه شيء من الصمم، ولكنّه سيقول لك كلّ ما تريد، فقد عرف حقّ المعرفة بيسمارك وكافور. أليس أنّك عرفت بيسمارك حق المعرفة؟» تقول بصوت عالٍ.

وسألني السيد «دو نوربوا» بايماءة يبطنّها التواطؤ وهو يشدّ على يدي بحرارة:«هل لديك عمل باشرته»؟ فاغتنمت الفرصة كي آخذ منه بلطف القبعة التي ظنّ من واجبه أن يجيء بها بمثابة طابع رسميّات إذ تبينت لتوّي أنّ ما أخذه كيفما تيسّر إنّما كان قبعتي. «لقد سبق أن أريتني مؤلفاً صغيراً على شيء من التصنع كنت تبالغ فيه في تعقيد الأمور. وقد أبديت لك رأيي بصراحة ؛ فلم يكن ما فعلته جديراً بأن تسطرّه على الورق. فهل تعدّ لنا أمراً ما؟ إنّك شغوف جدّاً بـ«بيرغوت»، إن كنت أذكر تماماً.»وصاحت الدوقة قائلة: «لاتتناول «بيرغوت» بالسوء». — «لست أشكّ في موهبة الرسام لديه، فليس من يتبادر الأمر إلى ذهنه أيتها الدوقة. إنّه يحسن النقش بالازميل أو يحمض الآزوت إن لم يقم برسم الخطوط العريضة لتأليف ضخم على غرار السيّد «شيربولييه». ولكنّما يبدو لي أن عصرنا يخلط بين أنواع الفنون وأن من شأن الروائي أن يحيك الحبكة ويسمو بالقلوب أكثر منه أن يزوّق بالمنقاش واجهة أو نقشة تذييل.» وأضاف وهو يلتفت إليّ: «سوف أرى والدك نهار الأحد لدى هذا الطبيب المدعوّ أ. ج.».

ومنيت النفس لحظة إذ رأيته يتحدث إلى السيدة «دو غيرمانت» بأنّه ربّما مدّ لي للذهاب إلى منزلها يد العون التي سبق أن حجبها عنّي للذهاب إلى منزل السيدة «سوان» فقلت له: «هنالك مظهر آخر من مواطن إعجابي الكبير، إنّه «ايلستير» ويبدو أن الدوقة «دو غيرمانت» تملك لوحات رائعة له ولاسيما ضمّة الفجل البديعة التي لمحتها في المعرض والتي وددت كثيراً لو أراها ثانية، فأية رائعة فنية تمثلها تلك اللوحة!» ولو تسنى لي بالفعل أن أكون رجلاً مرموقاً وسئلت أي رسم أفضل لذكرت ضمّة الفجل تلك.

وصاح السيد «دونوربوا» بهيئة المستغرب اللائم: «رائعة فنيّة؟ إنّها لاتبلغ حتى مستوى اللوحة، بل هي مجرد رسم أوّلي (وكان على حق). فان دعوت بالرائعة الفنية هذه العجالة السريعة فما بالك بـ«عذراء» هيبير أو دانيان بوفريه؟»

وقالت السيدة «دو غيرمانت» لعمتها بعدما انتحى «بلوك» بالسفير ناحية: «سمعت أنّك ترفضين صديقة

«روبير»، وأحسب أنّ ليس ما تأسفين عليه، تدرين أنّها شيء شنيع، فليست تملك ذرّة موهبة وهي إلى ذلك مضحكة.»

قال السيد «دارجنكور»: «ولكن كيف تعرفينها أيّتها الدوقة؟»

— «كيف، ألا تعلم أنّها مثلت لديّ قبل كل الناس؟ ولست أكثر اعتزازاً لذلك»، تقول السيدة «دو غيرمانت» ضاحكة، ويسعدها مع ذاك، إذ يتّم الحديث عن تلك الممثلة أن تعلن أنّها قطفت باكورة مساخرها. وتضيف قولها: «هيّا، ما عليّ بعد سوى الرحيل»، دون أن تتحرّك.

لقد أبصرت منذ قليل زوجها داخلاً وكانت تلمح بالكلمات التي تنطق بها إلى سخرية أن يبدوا وكأنّهما يقومان سوية بزيارة عرس، لا إلى العلاقات الصعبة في الغالب التي كانت قائمة بينها وبين هذا الرجل الضخم القويّ البنية المتشيخ الذي كان يعيش دوماً مع ذلك حياة الشباب. كان الدوق يتقدّم وهو ينقّل على العدد الكبير من الأشخاص المحيطين بمائدة الشاي النظرات الأنيسة الخبيثة التي بهرتها بعض الشيء أشعة الشمس الغاربة، نظرات حدقتيه الصغيرتين المستديرتين المستقرّتين بدقة في العين شأن مراكز الدريئات التي كان يجيد التسديد إليها وإصابتها على أكمل وجه هذا الرامي الممتاز الذي يمثله، كان الدوق يتقدّم ببطء مفتون حذر كما لو خشي، وقد بعث في نفسه الرهبةَ جماعة لامعة إلى هذا الحدّ، أن يسير على الفساطين ويخرّب الأحاديث. وكانت تسمح له ابتسامة دائمة تلوّنها الطيبة الساذجة والنشوة الخفيفة ويد نصف مفتوحة تخفق كما جناح سمك القرش إلى جانب صدره ويطلقها ليشدّ عليها دونما تمييز أصدقاؤه القدامى والمجهولون الذين يقدّمون له، أن يرضي حماسة الجميع دون أن يقع عليه القيام بحركة واحدة أو يقطع جولته البشوشة الكسلى الملكية، وهو يهمس فقط: «مساء الخير أيّها الطيبّ، مساء الخير ياصديقي العزيز، سرّني اللقاء ياسيد «بلوك»، مساء الخير يا «أرجنكور». وعلى مقربة منّي، أنا الذي نال أكبر حظوة، قال بعدما سمع اسمي: «مساء الخير ياجاري الصغير، كيف حال أبيك؟» وأضاف قوله كي يرضي كبريائي: «ياللرجل الطيبّ! تدري أنّنا رفيقان حميمان». ولم يقدم على تظاهرات عريضة إلاّ تجاه السيدة «دو فيلباريزيس» التي حيّته باشارة من رأسها وهي تسلّ يداً من صدريتّها الصغيرة.

كان ثرياً هائل الثراء في عالم ترى الناس فيه أقلّ فأقلّ ثراء، وقد ماثل باستمرار بين شخصه وفكرة هذه الثروة الضخمة فاقترن اعتداد السيد الكبير لديه باعتداد رجل المال وتكاد لاتفلح تربية الأوّل المرهفة في كبح غرور الثاني. وكنت تدرك على أي حال أن نجاحاته النسائية التي كانت مصدر شقاء لزوجته لم يكن مردّها محض اسمه وثروته، إذ كان لايزال على جمال كبير وفي خطوط وجهه نقاء إله يوناني وثبات تقاطيعه.

وسأل السيد «دار جنكور» الدوقة قائلاً: «أهي حقاً مثلت في منزلك»؟

— «ويحك، لقد جاءت للإنشاد وفي يدها باقة زنبق و«عاء» فسطانها زنابق أخرى». (كانت السيدة «دو غيرمانت» تبدي، شأن السيدة «دو فيلباريزيس» تكلفاً في تلفظ بعض الكلمات على نحو فلاحي تماماً، مع أنها لا تنطق بعض الحروف بطريقة عمتّها.)

وقبل أن يصطحب السيد «دو نوربوا» مكرهاً مرغماً، «بلوك» إلى الشرفة الصغيرة حيث يمكنهما التحدّث معاً، عدت لحظة إلى الديبلوماسي الشيخ وأسررت إليه بكلمة حول مقعد في المجمع لوالدي. وأراد بادئ الأمر إرجاء الحديث إلى ما بعد. ولكنّي اعترضت بأنّي أزمع الذهاب إلى «بالبيك». «عجباً! أتذهب من جديد إلى «بالبيك»؟ إنّك لجوّاب آفاق حقيقيّ!» ثم أصغى إليّ. ولدى سماع اسم «لوروا بوليو» نظر إليّ السيد «دو نوربوا» نظرة مرتاب. وخيّل إليّ أنه ربما تفوّه أمام السيد «لوروا بوليو» بأقوال مسيئة بحقّ والدي وأنّه يخشى أن يكون الاقتصادي قد ردّدها أمامه. وبدا في الحال يهزّه وداد حقيقيّ إزاء والدي. وبعد واحد من تلك الإبطاءات في الإلقاء التي تنفجر فيها عبارة مفاجئة وكأنما غصباً عن المتحدث الذي يجرف اليقين الذي لايقاوم لديه ما كان يبذل من جهود متعثرة ليصمت، قال لي بانفعال: «لا، لا، ينبغي ألاّ يتقدّم والدك. ولا ينبغي ذلك لصالحه هو، وإجلالاً لقدره، وهو عظيم، وربّما أساء إليه في مغامرة كهذه. إنّه يساوي أفضل من ذلك، وهو إن تم تعيينه سيخسر كل شيء ولايكسب شيئاً. وما هو بالخطيب لله الحمد. وذلك هو الشيء الوحيد المعتبر لدى زملائي الأعزّاء وإن كان ما يقال محض ترّهات. إن لوالدك هدفاً هاماً في الحياة ويجدر به أن يسير رأساً إليه دون أن يسمح بأن يثنيه عن ذلك الطواف في البراري، وإن كانت براري ربّ المجامع، وشوكها مهما تكن الحال أكثر من زهرها. وهو إلى ذلك لن يجمع إلاّ بضعة أصوات. والمجمع يحبّ أن يخضع المرشح للتدريب قبل أن يقبله في حظيرته. لاثمرة في الوقت الراهن، أمّا فيما بعد فلست أمانع. بيد أنّه لابدّ من أن يجيء المجمع نفسه ليبحث عنه، فهو يمارس سياسة «القرار المستقلّ» التي ينادي بها جيراننا خلف جبال الألب وذلك بما هو أقرب إلى الصنميّة منه إلى الفلاح. لقد حدّثني «لوروا بوليو» عن كل ذلك بطريقة لم ترقني. وقد بدا لي للوهلة الأولى أنّه على اتفاق مع والدك؟.... ربّما حملته بلهجة قاسية بعض الشيء إلى الإحساس بأنّه لايحسن، وقد تعوّد الاهتمام بالأقطان والمعادن، أن يدرك دور دقائق الأمور، على حدّ قول بيسمارك. ما ينبغي تجنبه قبل أي شيء أن يقدّم والدك ترشيحه: Principiis obsta [1] وقد يلفي اصدقاؤه أنفسهم في وضع حرج إن جابههم بالأمر الواقع». وقال فجأة بلهجة صريحة وهو يثبت عليّ عينيه الزرقاوين: «خذ مثلاً، سأقول لك أمراً سوف يدهشك من جانبي أنا الذي يحب والدك إلى هذا الحدّ. أجل، بالضبط لأنّي أحبه (فنحن لايفارق أحدنا الآخر Arcades ambo)[2] ولأنّي أعرف بالضبط الخدمات التي يمكن أن يؤدّيها لبلاده والمخاطر التي يمكن أن يجنبها إياها إن ظلّ يمسك بالدفّة فلن أصوّت له بداعي المودّة والتقدير الرفيع والوطنية ! و أحسب على أيّة حال انني ألمحت إلى ذلك. (وحسبتني أبصر في عينيه تقاطيع «لوروا بوليو» الآشورية القاسية.) وإنّما يعني منحه صوتي ضرباً من التراجع.» وعدّ السيد «دونوربوا» زملاءه بمثابة مستحاثات مرّات عديدة. وإنّما يحبّ كلّ عضو في ناد أو مجمع، بمعزل عن الأسباب الأخرى، أن يولي زملاءه نوع الطباع الأكثر تعارضاً مع طباعه وذلك للاعتزاز الذي يداخله أن يبرز اللقب الذي ناله على أنّه أكثر صعوبة وأبعث على الزهو أكثر منه لجدوى أن يمكنه القول: «آه! لو لم يكن من يدٍ في الأمر إلاّ لي!» وخلص إلى

(١) العبارة لاتينية، وتعني التمسك بالمبادئ، وبما أن المتحدث عضو في المجمع فإنه يرى حسناً أن يلجأ إلى اللاتينية، بين الحين و الحين.

(٢) العبارة لشاعر الرومان الأول (فيرجيليوس) وتعني الأركاديين الإثنين ويرمز بها إلى زوج من الأغبياء، ولعل «دونوربوا» لايتبين المعنى الأخير.

القول: «سأقول لك، وذلك لصالحكم جميعكم، إنّي أفضل لوالدك انتخاباً مظفراً بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً.» وقد حكمت أن تلك الأقوال إن لم تملها الغيرة فقد أملاها على الأقلّ غياب كليّ لحب المعروف وقد اتّخذتْ فيما بعد من الحادثة نفسها معنى مختلفاً.[1] وقالت الدوقة لزوجها: «تعرف عمن نتحدّث يا «بازان» ؟

فقال الدوق: «حزرت بالطبع. آه! ليست ما نسميه بممثلة من سلالة العظماء.»

وعادت السيدة «دو غيرمانت» تقول وهي توجّه الكلام للسيد «دار جنكور»: «لم تتصورّ قطّ ما كان أكثر إثارة للسخرية».

وقاطع السيد «دو غيرمانت» قائلاً: «بل كان إلى ذلك مسلياً»، وكانت كلماته الغريبة تسمح في الآن نفسه لرجال المجتمع أن يقولوا إنّه لم يكن غبياً ولرجال الأدب أن يلفوه من أبشع المعتوهين.

وأردفت الدوقة: «لا أستطيع أن أفهم كيف استطاع «روبير» أن يحبها في يوم. أوه! أعرف تماماً أنه لاينبغي البتّة مناقشة هذه الأمور»، تضيف قولها ولها عبسة حلوة لفيلسوف ولعاطفيّة مخيّبة الآمال. «وأعلم أن أيّاً كان يمكن أن يحبّ أيّ شيء كان.» ثم أضافت: «بل إن ذلك ماهو جميل في الحبّ، فهو بحقّ ما يجعله مكتنفاً بالأسرار»-، ذلك أنّها إن كانت لاتزال تسخر من الأدب الجديد، فقد تسرّب هذا الأخير قليلاً إلى نفسها ربّما بطريق التبسيط الصحافيّ أو من خلال بعض الأحاديث-.

وقال الكونت «دار جنكور»: «مكتنف بالأسرار! أقرّ أن الأمر يجاوزني قليلاً يا ابنة العمّ.»

فأردفت الدوقة تقول بابتسامة عذبة لامرأة مجتمعات لطيفة، بل كذلك بالقناعة المتشدّدة التي لواحدة من نصيرات «فاغنر» تؤكد لرجل منتدى أن ليس في مسرحية الـ«فالكيري» ضجيج فحسب: «بلى، الحبّ مكتنف بالكثير من الأسرار. وعلى أيه حال، لست تعرف في الأساس لماذا يحبّ شخص آخر غيره. وقد لا يكون الأمر البتة ما نحسب»، تضيف مبتسمة ومستبعدة بذلك دفعة واحدة بفعل تفسيرها الفكرة التي فاهت بها منذ قليل وخلصت إلى القول بلهجة مرتابة متعبة: «والمرء على أيّة حال لا يعرف قطّ شيئاً. وينبغي لذلك،

---

(١) وسأل مؤرخ حركة التمرد السيد «دونوربوا» بوجل قائلاً: «أليس في نيتك أن تحدث المعهد عن ثمن الخبز في أثناء حركة التمرد؟ فقد تلاقي في ذلك نجاحاً هائلاً» (الأمر الذي كان معناه تقوم بدعاية ضخمة لي)، يضيف قوله وهو يبتسم للسفير بجبانه، الا أنه يفعل ذلك بحنان جعله يرفع أجفانه ويكشف عن عينيه، وهما في اتساع السماء. كان يبدو لي أنني رأيت تلك النظرة مع أنني ما عرفت السفير الا اليوم. وتذكرت فجأة: هذه النظرة نفسها سبق لي أن رأيتها في عيني طبيب برازيلي كان يدعي شفاء الاختناقات التي من قبيل ما كان يصيبني وذلك بتنشقات لاتصدق لخلاصات نباتات، ولما كنت قد قلت له، كيما يهتم بي اهتماما أكبر، أنني أعرف الأستاذ «كوتار» أجابني وكأنما في صالح «كوتار»: «إليك علاجاً يزوده، إن أنت حدثته عنه، بالمادة اللازمة لبحث مدو يرفعه إلى المجمع الطبي!» ولم يجرؤ على الإلحاح، ولكنه نظر إليّ بالهيئة المستفسرة الوجلة نفسها المهتمة المتوسلة التي أعجبت بها منذ قليل لدى مؤرخ حركة التمرد. صحيح أن هذين الرجلين لم يكن يعرف أحدهما الآخر ويكاد لايشبه أحدهما الآخر، ولكن القوانين النفسية تتمتع، شأن القوانين الفيزيائية ببعض العمومية. وإن كانت الشروط اللازمة واحدة فإن النظرة نفسها يمكن أن تنير حيوانات إنسانية مختلفة مثلما تنير السماء الصباحية نفسها أماكن في الأرض بعيداً بعضها عن بعضها الآخر، ولم يشاهد أحدهما الآخر قط. ولم أسمع جواب السفير لأن الجموع كانوا قد اقتربوا بشيء من الضجيج من السيدة «دوفيلپاريزيس» ليشاهدوها ترسم.

تدري، ألاأناقش البتّة في اختيار العشاق، فذلك ينم عن ذكاء أكبر.»

ولكنها بعدما طرحت هذا المبدأ خرقته في الحال بانتقادها اختيار «سان لو».

– «تدري مع ذلك، إنّي أرى عجباً أن يستطيع المرء أن يجد فتنة في شخص يثير السخرية.»

وإذ سمع «بلوك» أنّنا نتحدّث عن «سان لو» وأدرك أنّه في باريس أخذ يتناوله بسوء مريع إلى حد أثار الجميع. لقد أخذت تخالجه الأحقاد وكنت تحس أنّه لن يتراجع أمام شيء بغية إشباعها. ولما طرح بمثابة مبدأ أنّه يتمتع بقيمة أخلاقية عالية وأنّ صنف الناس الذين يرتادون «لابولي» (وهو ناد رياضيّ كان يحسبه أنيقاً) إنّما هم أهل للسجن فقد كانت تبدو له جميع الضربات التي يمكن أن يلحقها بهم جديرة بالثناء. وبلغ به ذات مرّة أن تحدّث عن دعوى كان يبغي إقامتها على أحد أصدقائه من نادي «لابولي». كان ينوي أثناء تلك الدعوى أن يشهد شهادة كاذبة لايستطيع المتهم مع ذلك إقامة الدليل على زيفها. كان «بلوك» الذي لم ينفّذ على أيّة حال مشروعه يظنّ أنّه يبحث بهذه الطريقة اليأس في نفسه ويزيد من ذعره. وأيّ سوء في ذلك بما أن الذي كان يبغي ضربه على هذا النحو رجل لايفكر إلاّ بالأناقة، رجل من نادي «لابولي»، وأن جميع الأسلحة مصرّح بها ضدّ مثل هؤلاء القوم ولاسيما لقدّيس مثله هو، «بلوك»؟

ويردّ السيد «دارجنكور» بقوله: «ولكن خذي «سوان» مثلا»، بعدما أدرك آخر الأمر معنى الأقوال التي تفوّهت بها ابنة عمّه ودهش لصحّتها وأخذ يبحث في ذاكرته عن مثال لجماعة أحبوا أشخاصاً ما كانوا ليروقوه.

واحتجت الدوقة قائلة: «سوان حالة مختلفة تماماً. كان الأمر مع ذلك مدهشاً جدّاً لأنّها بلهاء طيّبة القلب ولكنها لم تكن مضحكة وقد كانت جميلة.»

وغمغمت السيدة «دو فيلباريزيس»: «هيه، هيه».

– «آه! ما كنت ترين أنها جميلة؟ بلى، كانت لها مفاتنها، عينان جميلتان جدّا وشعر جميل وكانت ملابسها ولاتزال رائعة. إنّي أعترف أنّها مقرفة الآن، ولكنّها كانت فيما مضى امرأة فاتنة. ولم يكن غمّي بذلك أقلّ ان تزوّجها «شارل» لأنّ الأمر كان عديم الجدوى إلى حدّ بعيد.»

وما كانت الدوقة تحسب أنّها تقول شيئاً ملفتاً ولكنّما أخذ السيد «دارجنكور» في الضحك فكررّت الجملة إمّا لأنها وجدتها غريبة أو أنها ألفت الضحك لطيفاً فشرعت تنظر إليه نظرة مغناجة لتضيف إلى سحر الظرافة فتنة الحلاوة. وتابعت تقول:

«أجل، أليس كذلك، لم يكن من داع للأمر؛ على أنّها لم تكن عديمة الفتنة وأدرك تماما أن أحبتوها، في حين أن آنسة «روبير» بالتأكيد مضحكة إلى حدّ الموت. أعرف تماماً أنّهم سيردّون عليّ بهذه اللازمة القديمة لـ«أوجييه»: «لاشأن للقارورة شرط أن تبلغ النشوة!» حسن، ربّما حاز «روبير» النشوة ولكنه بالحقيقة لم يبرهن عن ذوق في اختيار القارورة! تصوّر بادئ الأمر أنها طالبتني باقامة درج في قلب صالتي. والأمر زهيد، ألست ترى، ثمّ هي أخبرتني أنها ستظّل منبطحة على بطنها فوق الدرجات. ولو أنّك سمعت من جهة ثانية ما كانت تقول، أنا لا أعرف سوى مشهد واحد، ولكنّي لا أحسب بالامكان تخيل ما كان من هذا

القبيل: إنهم يدعون ذلك بـ«الأميرات السبع». وصاح السيد «دارجنكور» قائلاً:

— «الأميرات السبع!، آه! أجل، أجل، باللسنوبيّة! ولكن صبرك، فإنّي أعرف الرواية كاملة. لقد بعث بها المؤلف إلى الملك الذي لم يفهم فيها شيئاً وسألني أن أشرح ذلك.»

وسأل مؤرخ حركة التمرّد بقصد إبداء الذكاء المرهف والراهنيّة، ولكن بصوت خافت إلى حدّ أنّ سؤاله لم يلفت الانتباه: «ألا يصادف أن يكون ذلك من أعمال «ساربيلادان»؟

وردّت الدوقة على السيد «دارجنكور» قائلة: «أو تعرف «الأميرات السبع»؟ تهاني لك كل التهاني! أمّا أنا فلا أعرف سوى واحدة ولكن ذلك أفقدني الشوق إلى التعرّف بالستّ الأخريات. فإن كنّ جميعاً شبيهاتٍ بتلك التي رأيتها!»

وفكرت في نفسي قائلاً: «ياللغبيّة!»، وقد أغضبني الاستقبال الجاف الذي قابلتني به.. ووجدت نوعاً من الارتياح العميق في ملاحظة لافهمها التامّ لـ«ميترلنك». «ألمثل هذه الامرأة أسير في كلّ صباح هذه الكيلومترات الكثيرة، إني طيبّ النفس حقاً! وإنما أنا الآن من لايرضى بها.» تلك كانت العبارات التي كنت أقولها بيني وبين نفسي، وكانت عكس تفكيري ؛ كانت محض أقوال في حديث شبيه بما نسرّ به لأنفسنا في هذه اللحظات التي يجاوز فيها اضطرابنا حدّ البقاء وحدنا مع ذواتنا فنحس بحاجة التحدّث إلى أنفسنا في غياب أي محاور آخر، وذلك دونما صدق وكأنما إلى غريب.

وتابعت الدوقة قولها: «لا أستطيع أن أزوّدك بفكرة عن ذلك فقد كان يثير أعنف الضحك. ولم نقصرّ فيه، بل جاوزنا الحدّ لأنّ المرأة الصغيرة لم تعجب به، وقد ظلّ «روبير» حاقداً عليّ من جراء ذلك، الأمر الذي لا آسف له على أيّة حال فقد كانت عادت الآنسة لو أنّها صادفت نجاحاً، وأتساءل إلى أي مدى كانت «ماري إينار» ستغتبط له.»

هكذا كانوا يسمّون في العائلة والدة «روبير» السيدة «دو مارسانت» أرملة «إينار دو سان لو» ليميّزوا بينها وبين ابنة عمّها الأميرة «دو غيرمانت بافيير»، وهي ماري أخرى، كان أبناء أشقائها وأعمامها وأصهارها يضيفون إلى اسمها بغية تلافي الاختلاط إمّا اسم زوجها وإمّا واحداً من أسمائها الأخرى، الأمر الذي كان يفضي إمّا إلى «ماري جيلبير» أو إلى «ماري هيدويج».

وتابعت السيدة «دو غيرمانت» بلهجة ساخرة: «تمّ بادئ الأمر في عشية ذلك اليوم نوع من التجربة، كان شيئاً رائعاً! تصوّر أنّها كانت تقول جملة، وهي حتى لا تبلغها، بل ربع جملة، ثم تتوقف، ولا تقول شيئاً من بعد، ولست أبالغ، على مدى خمس دقائق.»

وصاح السيد «دارجنكور»: «بلى، بلى، بلى!»

— «لقد سمحت لنفسي أن ألمح بأقصى التهذيب إلى أن الأمر ربّما يثير بعض الدهشة، فأجابتني بالحرف: «ينبغي أبداً أن نقول الشيء وكأنما نحن ماضون شخصياً في تأليفه.» والجواب ضخم إن أنت فكّرت فيه!»

وقال أحد الشابين: «ولكنني كنت أحسبها تحسن إلى حدّ ما قول الأشعار».

فأجابت السيدة «دوغيرمانت»: «إنّها لاترتاب في ما يكون ذلك. ولم أحس على أيّة حال بالحاجة إلى سماعها. فقد اكتفيت برؤيتها تحمل زنابق! لقد أدركت في الحال أنّها لاتتمتّع بموهبة حينما رأيت الزنابق!»

وضحك الجميع.

– «ألم تغضبي منّي يا عمتّي لقاء مزاح ذاك اليوم بشأن ملكة السويد؟ لقد جئت أسالك الأمان.»

– «لا، لست غاضبة منك وإنّي أمنحك حتى حق تناول العصرونية إن كنت جائعاً.»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» لأمين المخفوظات وفق مزاح أصبح شائعاً: «هيّا ياسيد «فالنير»، قم بدور الفتاة.»

وانتصب السيد «دو غيرمانت» في مقعده الذي كان مسترخياً فيه وقبعته إلى جانبه فوق السجادة ونظر نظرة راضية إلى قصعات المعجنات المحمصة التي تقدم له.

–«بطيبة خاطر، الآن وقد بدأت آلف هؤلاء الحضور الكرام، أقبل بقطعة «بابا»، فإنها تبدو ممتازة.»

وقال السيد «دارجنكور» الذي ردّد مزاح السيدة «دو فيلباريزيس» يدفعه روح التقليد: «إنه يقوم على نحو رائع بدور الفتاة الموكل إليه».

وقدّم أمين المخفوظات قصعة المعجنات لمؤرّخ حركة التّمرد، فقال له هذا الأخيرُ وَجَلاً وفي محاولة كسب العطف العامّ: «إنّك تنهض بوظيفتك على نحو رائع».

ورمى الذين سبق أن فعلوا مثله، رماهم خفية بنظرة تواطؤ.

وسأل السيد «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» قائلا: «قولي لي يا عمتي الطيبة من ذاك السيد الحسن الشخصية الذي كان خارجاً حين دخلت؟ لابدّ أنّي في خصام مع الأسماء، والأمر مزعج جداً»، يقول قول الراضي عن نفسه.

– «السيد لوغراندان»

– «آه! ولكن لـ «أوريان» ابنة عمّ والدتّها، إن لم تخنّي الذاكرة، من عائلة «غراندان».

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس»: «لا»، ليس من صلة البتّة، فإنهّم من آل «غراندان» فحسب ولاشيء سوى ذلك. ولكنّهم إنّما يسعون إلى إضافة ما شئت إلى كنيتهم (ممّا يدلّ على النبلاء) (1). إن شقيقة هذا

(1) ما ورد بين قوسين مضاف إلى النص الفرنسي في محاولة لايضاح الفكرة. ويعرّف ارستقراطيو فرنسه بإضافة اسم إلى كنيتهم يمثل بعامة أحد ممتلكاتهم من قصر أو أرض والسيدة تنفي أن يكونوا من النبلاء، فيما يسعون هم إلى كسب الصفة.

الأخير تدعى السيدة «دو كامبرمير».

وصاحت الدوقة غاضبة: «ويحك يا«بازان»، تعلم تماماً عمن تبغي عمتّي التحدّث، إنّه شقيق تلك العاشبة الضخمة التي خطرت لك فكرة غريبة في ارسالها للقائي ذلك اليوم. لقد مكثت ساعة وحسبت أنني سأجنّ. ولكنّي بدأت أعتقد أنها هي المجنونة إذ رأيت امرأة تدخل بيتي ولا أعرفها وتبدو كأنها بقرة.»

– «اسمعي يا «أوريان» لقد طلبت منّي يوم استقبالك فما كان بمقدوري أن أرتكب فظاظة إزاءها، ثم إنّك تبالغين، ويحك، فليس يبدو أنّها بقرة»، يضيف قوله بلهجة شاكية، ولايفعل دون أن يلقي خلسة على الحضور نظرة تشرق فيها ابتسامة.

كان يعلم أنّ قريحة امرأته بحاجة أن تُستحثّ بالمعارضة، بمعارضة الحس السليم الذي يعترض على سبيل المثال بأنه لايمكن أن تعدّ امرأة بمثابة بقرة (فكثيراً ما أفلحت السيدة «دو غيرمانت» في أداء أفضل كلماتها بمجاوزة الصورة الأولى). وكان الدوق يبادر بسذاجة إلى مساعدتها لتنجح في طرفتها دون أن يبدي من ذلك شيئاً مثلما الشريك المستتر للاعب يانصيب في عربة قطار.

وصاحت السيدة «دو غيرمانت» قائلة: «أعترف بأنّها لاتشبه البقرة لأنّها تشبه عدّة بقرات. وأقسم لك أنني كنت شديدة الارتباك إذ رأيت هذا القطيع من الأبقار يدخل بالقبعة إلى صالتي ويسألني عن الحال. كنت أرغب من جهة في أن أجيب: «ولكنك تخلط يا قطيع الأبقار فلا يمكن أن تكون على علاقة بي بما أنك قطيع أبقار»، ولكني ظننت في النهاية، من جهة ثانية، وبعدما بحثت في ذاكرتي، أنّ «كامبرمير» التي رويتّ عنها هي صاحبة الرفعة «دوروتيه» التي سبق أن قالت إنّها ستأتي مرّة، وهي «بقريّة» إلى حدّما، حتى أوشكت أقول ياصاحبة السموّ الملكي وأتحدّث بضمير الغائب إلى قطيع أبقار. وإن لها نوع المعدة الثالثة التي لملكة السويد. على أنّ هذا الهجوم الذي تمّ عنوة سبق الإعداد له بقصف بعيد وفق جميع قواعد الفنّ. فمنذ مالا أدري من وقت كانت تنهمر عليّ بطاقاتها فأجد منها في كلّ مكان وعلى سائر قطع الأثاث وكأنّها نشرات دعائية. كنت أجهل غاية تلك الدعاية. فما كنت ترى في منزلي سوى «المركيز والمركيزة دو كامبرمير» إلى جانب عنوان لا أتذكّره وأنا مصمّمة على أية حال ألاّ استخدمه في يوم.»

وقال مؤرّخ حركة التمرد: «إنّما لمبعث اعتزاز أن تكون شبَه الملكات.»

– «ياإلهي، الملوك والملكات في عصرنا ليسوا بالأمر العظيم»، يقول السيد «دو غيرمانت» لأنّه كان يدّعي التحرّر الفكري والحداثة وكي لايبدو إلى ذلك أنّه يهتّم بالعلاقات الملكية التي كانت تهمه كثيراً.

وألفينا «بلوك» والسيد «دونوربوا» بعدما نهضا أكثر قربا منّا.

وقالت السيدة : «هل حدّثته ياسيدي عن قضية «دريفوس»؟

فرفع السيد «دو نوربوا» عينيه إلى السماء ولكنه كان يتبسم كأنّما ليبرز ضخامة النزوات التي تفرض عليه ربّة أفكاره واجب الخضوع لها. بيد أنه كلّم «بلوك» بكثير من اللطف عن السنوات الرهيبة، بل ربّما

القاتلة التي تجتازها فرنسه. وبما أن ذلك كان يعني على الأرجح أن السيد «دو نوربوا» (الذي سبق أن نقل إليه «بلوك» مع ذلك اعتقاده ببراءة «دريفوس») يقف بعنف ضدّ «دريفوس»، فإن لطف السفير وما يبدي من إقرار بالحقّ لمحدّثه ومن أنّه لا يشكّ بأنّهما يريان الرأي نفسه ومن تواطؤ معه للتنديد بالحكومة، كان كلّ ذلك يدغدغ كبرياء «بلوك» ويثير فضوله. فما هي النقاط الهامة التي لم يكن السيد «دو نوربوا» يحدّدها ولكنّما يبدو وكأنه يقبل ضمناً بأنّه و«بلوك» متفقان عليها، وما الرأي الذي يراه في القضيّة الذي يمكن أن يجمع بينهما؟ وكان يزيد من دهشة «بلوك» إزاء الاتّفاق الغامض الذي يبدو قائماً بينه وبين السيد «دونوربوا» أن ذلك الاتّفاق لم يكن يتناول السياسة فحسب، إذ كانت السيدة «دو فيلباريزيس» قد حدّثت السيد «دو نوربوا» حديثاً طويلا إلى حدّما عن أعمال «بلوك» الأدبيّة.

وقال السفير السابق لهذا الأخير: «لستَ من عصرك، وإنّي اهنّئك على ذلك، لستَ من هذا العصر الذي لا وجود فيه من بعد للدراسات المجرّدة من المآرب والذي لايبيعون فيه للجمهور من بعد سوى صنوف الخلاعة أو السخافة. كان جديراً بجهود مثل جهودك أن تلقى التشجيع لو كانت لدينا حكومة.»

كان يثير اعتزاز «بلوك» أن يطفو وحده وسط هذا الغرق الشامل. ولكنّما ودّ ههنا أيضاً لو يحصل على إيضاحات ولو يعلم السخافات التي يبغي السيد «دو نوربوا» أن يتحدّث عنها. كان «بلوك» يحسّ بأنّه يعمل في الدرب الذي سلكه كثيرون ولم يحسب أنّه خارق إلى هذا الحدّ. وأعاد الكرّة على قضيّة «دريفوس» ولكنّه لم يفلح في كشف رأي السيد «دو نوربوا». وحاول أن يحمله على الكلام عن الضبّاط الذين كانت أسماؤهم تتكرّر كثيراً على صفحات الصحف في تلك الفترة، وكانوا يثيرون الاهتمام أكثر من السياسيين المشتركين في القضية نفسها لأنّهم لم يكونوا معروفين آنذاك شأن هؤلاء، وقد طلعوا منذ قليل وتكلموا في بزّة خاصة ومن أعماق حياة مختلفة وصمت التزم بدقة، شأن «لوهانغرين» ينحدر من قارب يقوده تمّ. وكان «بلوك» قد استطاع بفضل محامٍ وطنّي يعرفه أن يدخل إلى عدّة جلسات من محاكمة «زولا». كان يصل هنالك في الصباح ولايخرج إلاّ في المساء يحمل مؤونة من الصاندويش وزجاجة قهوة كما هي الحال في المسابقة العامة أو امتحانات البكالوريا، وإذ كان تبديل العادات هذا يوقظ الهياج العصبي الذي تبلغ به القهوة والانفعالات الناجمة عن المحاكمة أقصى حدّله، فقد كان يخرج من هناك بالغ العشق لكلّ ما جرى إلى حدّ أنّه كان يبغي في المساء بعدما يعود إلى منزله أن ينغمس من جديد في الحلم الجميل فيجري ليلاقي في مطعم يرتاده الفريقان رفاقاً يعيد معهم حديثاً لاينتهي عمّا جرى في النهار ويصلح بفضل عشاء يوصي عليه بلهجة آمرة تخلف في نفسه وهم السلطة الصيام ومتاعب يوم بدأ باكرا جدّا ولم يتّم فيه تناول طعام الغداء. والإنسان الذي يتنقّل باستمرار بين مستويي التجربة والخيال راغب في تعميق الحياة المثلى للناس الذي يعرفهم وفي معرفة الأشخاص الذين تمّ له تخيل حياتهم. وأجاب السيد «دو نوربوا» على أسئلة «بلوك» قائلا:

«ثمة ضابطان اشتركا في القضية القائمة وقد سمعت عن أخبارهما فيما مضى على لسان رجل كنت أثق ثقة كبيرة برأيه وكان يقيم وزناً كبيراً لهما (هو السيد«دو ميريبيل»)، وهما المقدّم «هنري» والمقدّم «بيكار».

وصاح «بلوك» قائلاً: «ولكنّ «أثينا» الإلهيّة ابنة «زيوس» وضعت في عقل كل منهما عكس مافي

عقل الآخر وإنّهما ليتصارعان وكأنّهما أسدان. كان العقيد «بيكار» يتمتع بمركز كبير في الجيش ولكنّ البزّة قادته إلى الجانب الذي لم يكن جانبه. وسوف يقطع سيف الوطنيين جسده الرقيق ويضحي غذاء للوحوش اللاحمة والطيور التي تتغذّى بشحوم الأموات.»

ولم يحر السيد «دو نوربوا» جواباً.

وسأل السيد «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» وهو يشير إلى السيد «دو نوربوا» و«بلوك»: «عما يثرثران في زاوية هناك؟»

—«عن قضيّة دريفوس»

— «يا ويحهما! هل تعلمين بالمناسبة من يناصر «دريفوس» إلى حدّ الولع؟ لاسبيل البتّه لأن تحزري. إنّه ابن أخي «روبير»! بل سأقول لك إنّهم عندما بلغتهم تلك المآثر في نادي الفروسية ثاروا ثورة عارمة وأطلقوا صيحات الاستنكار. وبما أنّه سيتم تقديمه بعد ثمانية أيام...»

وقاطعته الدوقة قائلة: «بالطبع، إن كانوا جميعهم على شاكلة «جيلبير» الذي أكد دوما أنّه ينبغي طرد جميع اليهود إلى القدس...».

وقاطع السيد «دارجنكور» بدوره: «إذن فالأمير «دو غيرمانت» يماشي أفكاري تماماً.»

كان الدوق يتباهى بامرأته ولكنّه لايحبّها. وإذ كان شديد الإعجاب بنفسه فقد كان يكره أن يُقاطع، ثم إنّه كان من عادته في منزله أن يعاملها بفظاظة. وهزّه غضب مزدوج، غضب الزوج السيء الذي يجري التحدّث إليه والمحدّث المتحذلق الذي لايتم الإصغاء إليه فتوقف على الفور ورمى الدوقة بنظرة أربكت الجميع. وأخيراً قال:

«ما الذي دهاك لتحدّثينا عن «جيلبير» والقدس؟ فما هذا هو الأمر» ولكنّه أضاف بلهجة مُطلقة: «ستقرّين أنّه إنْ رُفِضَ واحد منا في نادي الفروسية، ولاسيما «روبير» الذي كان والده رئيساً على مدى عشرة أعوام، فسيكون ذلك قمة المصيبة. لاحول لنا في ذلك ياعزيزتي، لقد جنّ هؤلاء الناس وحملقوا بعيونهم. ولا أستطيع أن أحقهّم. تعلمين أنّي شخصياً خلو من أيّ تحيز عرقي فلست أرى أنّ ذلك يماشي عصرنا واني عازم على مسايرة الركب. ولكن، ويحك! حينما يحمل المرء اسم المركيز «دو سان لو» فليس له أن يكون من أنصار «دريفوس»، ماذا تبغينني أن أقول!».

وتلفظ السيد «دو غيرمانت» بهذه الكلمات: «حينما يحمل المرء اسم المركيز «دو سان لو» بلهجة مفخمة. كان يعلم مع ذلك تمام العلم أن حمل اسم «الدوق دو غيرمانت» أرفع شأناً بكثير. ولئن كان اعتزازه بنفسه ميالاً إلى أن يضخّم في عينيه بالأحرى تفوّق لقب الدوق «دو غيرمانت» فربما لم تكن تدفعه إلى التقليل منه قواعد الذوق السليم بقدر ما يراه لدى الآخرين. ذلك أن القوانين التي تحكم المنظور في المخيلة إنّما تنطبق على الناس الآخرين سواء بسواء. وليس الأمر أمر قوانين المخيلة فحسب بل أمر قوانين اللغة كذلك.

وكان يمكن هنا أن ينطبق هذا أو ذاك من قانوني اللغة. فالأوّل يقضي أن يتحدّث المرء مثل جماعة طبقته الذهنية لا طبقته الأصليّة. كان يمكن للسيد «دو غيرمانت» نتيجة لذلك أن يدين في تعابيره، حتى حينما يبغي التحدّث عن طبقة النبلاء، لصغار البورجوازيين الذين ربّما قالوا: «حينما يحمل المرء اسم الدوق «دو غيرمانت» فيما لعلّ رجلاً مثقفاً من أمثال «سوان» و«لوغراندان» ما كان ليقول ذلك. يستطيع دوق أن يكتب روايات سمّان حتى حول أخلاق المجتمع الراقي فهنا لا تفيد ألقاب النبلاء في شيء ويمكن لكتابات رجل من عامة الشعب أن تحوز صفة الارستقراطية. فمن تراه كان في هذه الحالة البورجوازي الذي سمعه السيد «دو غيرمانت» يقول: «حينما يعى المرء»، إنّه دونما شك لايعلم شيئاً من ذلك. ولكنّ ثمة قانوناً آخر في اللغة قوامه أنّه ينبثق بين الحين والحين، مثلما تظهر ثم تبتعد بعض الأمراض التي لاتسمع من بعد من يتحدّث عنها، ينبثق دون أن نعلم كيفية الأمر، إمّا تلقائياً بفضل مصادفة شبيهة بتلك التي أنبتت في فرنسه عشبة ضارّة من أميركا سبق أن سقطت بذرتها العالقة بوبر غطاء صوف سفريّ على سفح خطّ حديدً، طرائق تعبير تتناهى إلى الأسماع في العقد نفسه على لسان أناس لم يتوافقوا في الأمر. ومثلما سمعت «بلوك» في إحدى السنين يقول وهو يتحدّث عن نفسه: «لما لاحظ أكثر الناس ظرفاً وأشدّهم تالقاً وأفضلهم رزانة وأكثرهم تشدّدا أن ليس سوى رجل واحد يرونه ذكيا وممتعا وهو بلوك»، والجملة نفسها على لسان العديد غيره من الشبان الذين لايعرفونه والذين يحلّون محلّ «بلوك» فحسب اسمهم الخاصّ، كذلك كان ينبغي أن أسمع كثيراً عبارة «حينما يدعى المرء».

وتابع الدوق قوله: «ما عساك تبغين، مع الروح السائدة هنا يصبح الأمر قريب الإدراك.»

فأجابت الدوقة: «الأمر مضحك على وجه الخصوص إذا نظرنا إلى أفكار والدته التي تزهقنا من الصباح إلى المساء بـ«الوطن الفرنسي»».

- «أجل، ولكنّ والدته ليست وحيدة هناك، وينبغي ألاّ تروي لنا الأكاذيب. هنالك امرأة لعوب، بهلوانة من أسوأ طينة وهي أشدّ تأثيراً عليه وهي بالضبط من موطن «السيد دريفوس». وقد نقلت إلى «روبير» عقليّتها.»

وقال أمين المحفوظات الذي كان أمين اللجان المعادية لإعادة النظر في الدعوى: «ما كنت ربّما تعلم ياسيدي الدوق أن ثمة كلمة جديدة للتعبير عن نمط التفكير هذا. إنّهم يقولون «الذهنية». وهي تعني الشيء ذاته تماماً ولكنّما لايعرف أحد على الأقل ما الذي ترمي إليه. إنّها الخلاصة و«آخر ما جادت به القرائح»، كما يقولون».

وإذ سمع في هذه الأثناء اسم «بلوك» رآه يطرح أسئلة على السيد «دو نوربوا» باضطراب بعث بدوره اضطراباً مختلفاً في نفس المركيزة ولكنه يساويه شدّة. كانت ترتجف أمام أمين المحفوظات وهي تصطنع مناهضة «دريفوس» معه وتخشى ملامته إن هو تبيّن أنها استقبلت يهودياً ينتسب إلى حدّما إلى «النقابة».

وقال الدوق: «آه! ذهنيّة، سأسجّل ذلك وأعود فأستخدمه. (ولم تكن صورة بلاغية فقد كان الدوق يحمل دفتراً صغيراً مليئاً «بالشواهد» وكان يعيد قراءتها قبل مآدب العشاء الكبرى. تروقني «الذهنية». هناك من

هذا القبيل لفظات جديدة يطلقونها ولكنها لاتدوم. لقد قرأت مؤخراً من هذا القبيل أن الكاتبِ يكون «مواهبياً». هيّا افهم إن كنت تستطيع. وما عدت رأيت اللفظة ثانية.»

وقال مؤرّخ حركة التمرّد بغية المشاركة في الحديث: «ولكنّ «ذهنيّة» أكثر استعمالاً من«مواهبي». فأنّي عضو إحدى اللجان في وزارة التعليم العام وقد سمعتهم يستخدمونها عدّة مرّات، وكذلك في ناديّ، نادي «فولنيه»، وحتى في مأدبة عشاء لدى السيد «أميل أوليفييه».

- «أمّا أنا الذي لم يحز شرف عضوية وزارة التعليم العام». يجيب الدوق قوله بتواضع متصنع، ولكنّما يفعل بغرور عميق إلى حدّ أن فمه لايستطيع الحؤول دون أن يبتسم وعينيه دون أن ترميا الحضور بنظرات تختلي سرورا ويحمرّ من سخريتها المؤرّخ المسكين، «أنا الذي لم يحز شرف عضوية وزارة التعليم العام». يقول ثانية وهو يصغي إلى مايقول، «ولانادي فولنييه (فإني عضو في الاتحاد وفي نادي الفروسية فحسب...) وسأل المؤرخ الذي اشتّم في السؤال وقاحة فلما لم يفهمها أخذ يرتعد كلّ عضو فيه: «ألست من نادي الفروسية ياسيد؟ أنا الذي لايتعشى حتى في منزل السيد «أميل أوليفييه» فإني أقرّ بأني ما كنت أعرف كلمة «ذهنيّة». ويقيني أنك في مثل حالي يا «آرجنكور».... تعرف لماذا لا يمكن إقامة الدليل على خيانة «دريفوس». ذلك لأنه فيما يبدو عشيق امرأة وزير الحرب، هذا ماتتناقله الأفواه في الظلام.».

وقال السيد «دار جنكور»: «آه! ظننته عشيق امرأة رئيس مجلس الوزراء.»

وقالت الدوقة «دو غيرمانت» التي كانت تصرّ أبداً، على صعيد المجتمع، أن تظهر للعيان أنّها لاتدع لأحد أن يقودها: «أراكم تتساوون جميعاً في ابلائي ضجراً قاتلاً في هذه القضية. إنّها لايمكن أن تحمل بالنسبة إليّ تبعة على صعيد اليهود للسبب البسيط الذي مفاده أن ليس منهم بين معارفي وأنا عازمة أن أظلّ دوماً داخل هذا الجهل السعيد. ولكنّي أراني لا أطيق أن تفرض علينا «ماري إينار» أو «فيكتور نيين» طائفة من زوجات لزيد أو عبيد ما كنّا لنعرفهّن بحجة أنّهنّ مستقيمات الرأي أو أنّهن لا يبتعن شيئاً من الباعة اليهود وأنّه قد كُتب على شمسيتهنّ «الموت لليهود». لقد ذهبت إلى منزل «ماري إينار» قبل البارحة. كان بديعاً فيما مضى، أمّا الآن فتجدين فيه كلّ الأشخاص الذين قضيت حياتك في تجنبهم بحجّة أنهم معادون لـ «دريفوس»، وآخرين لايخطر لك من عساهم يكونون.»

وعاد الدوق يقول: «لا، إنّها زوجة وزير الحرب، تلك على الأقلّ شائعة تتناقلها الأفواه»، وكان يستخدم على هذا النحو في الحديث بعض العبارات التي يظنّها متقادمة العهد. «والناس يعلمون على أيّة حال أنّني شخصياً أفكرّ التفكير المعاكس تماماً فيما يخصّ ابن عمّي «جيلبير» لست إقطاعياً مثله، وقد أتنزّه مع زنجيّ إن كان من أصدقائي ولعلّني أهتّم برأي الثالث أو الرابع كما أهتم بسنة الأربعين. بيد أنه ينبغي مع ذلك الإقرار بأنك حينما تحمل اسم «سان لو» لاتتلهى باتخاذ نقيض أفكار عموم الناس الذين هم أشدّ ذكاء من «فولتير» وحتى من ابن أخي. ولاتنصرف على وجه الخصوص إلى ما اسميّه بهلوانيات رقة المشاعر قبل ثمانية أيّام من رفع اسمك إلى النادي! ذلك أمر صعب التصديق. لا، هي على الأرجح عاهرته الصغيرة التي جعلت الدم يغلي في رأسه، فربّما اقنعته بأنّه سيتّم تصنيفه في عداد «المثقفين» والمثقفون يشكّلون الجواب الجامع في نظر

هؤلاء السادة. وقد أفضى ذلك إلى تلاعب بالألفاظ جميل إلى حدّ ما ولكنّه لاذع جداً».

وذكر الدوق والسيد «دارجنكور» بصوت خافت جداً: «Mater Semita» [1] وكانوا بالحقيقة يتناقلونها في نادي الفروسية، فمن بين جميع البذرات الجوّالة إنّما يشكل المزاح البذرة التي شدت إليها أصلب الأجنحة التي تمكنّها من التشتت إلى مسافة أكبر بعيداً عن مكان ظهورها.

وقال وهو يشير إلى المؤرّخ: «بوسعنا أن نستوضح السيد الذي يبدو لي واسع الاطّلاع. ولكنّما من الأفضل أن لا نتحدّث عن ذلك نظراً لأنّ الأمر خاطئ تماماً. لست في مثل طموح ابنة عمّي «ميربوا» التي تدّعي أنّها تستطيع متابعة أنساب أسرتها قبل يسوع المسيح وحتى عشيرة «لاوي».وأظنّ بمقدوري إقامة الدليل على أنّه لم يكن ثمّة نقطة دم يهودي واحدة في عائلتنا. على أنّه ينبغي ألاّ يخدعونا، فمن المؤكّد أن آراء السيد ابن أخي الطريفة يمكن أن تثير ضجة في «لاندرنو». أضف إلى ذلك أنّ«فرنساك» مريض وسوف يتولى «دوراس» كلّ شيء وتعلمين أنّه يعشق خلق الإرباكات» يقول الدوق الذي لم يفلح قطّ في معرفة المعنى الدقيق لبعض اللفظات وكان يحسب أن خلق الإرباكات إنّما يعني التعقيدات لاصنوف التهريج.

وقاطعته الدوقة قائلة: «وفي جميع الأحوال إن كان «دريفوس» هذا بريئاً فإنه لايقيم الدليل على ذلك. فأيّة رسائل غبيّة مفخّمة يسطرّ من جزيرته! لست أدري إن كان السيد «استرهازي» أفضل منه ولكنّ له غير تأنقه في طريقه سكب جمله وغير ألوانه. ولابدّ أن ذلك لايسرّ أنصار السيد «دريفوس». فيالمصيبتهم أنّهم لا يستطيعون استبدال بريء ببريء».

وأغرق الجميع في الضحك، وسأل الدوق «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» بشغف قائلاً: «هل سمعت نكتة «أوريان»؟ - «أجل، وأجدها مضحكة جداً.» وما كان ذلك كافياً في نظر الدوق. - «أمّا أنا فلا أجدها مضحكة ؛ أو بالأحرى لا يهمنّي على الإطلاق أن تكون مضحكة أو لا تكون، فلست أقيم أيّ وزن للظرافة.» ورفع السيد «دارجنكور» صوته بالاحتجاج، فهمست الدوقة قائلة: «إنّه لايصدّق كلمة ممّا يقول». «ذلك دونما شكّ لأنّي كنت عضواً في المجالس النيابيّة حيث سمعت خطابات لامعة ماكانت تعني شيئاً. وقد تعلّمت أن أقدرّ فيها منطقها على وجه الخصوص. ولابدّ أنّ ذلك كان سبباً في أنّي لم أنتخب ثانية. إنّي لا أبالي بالأمور المضحكة.» - بازان، لا تتصنّع دور الدعيّ المتفاصح ياصغيري، فأنت تعلم تمام العلم أنّ ليس من يحبّ الظرف بقدر ما تفعل.» - «دعيني انتهي. فبالضبط لأنّي لا يهزّني نوع معين من التهريج الرخيص أراني كثيراً ما أقدر ظرافة امرأتي. لأنها تنطلق بعامة من ملاحظة صحيحة. فهي تعمل شأن الرجال وتصيغ صياغة الكتاب.».

كان «بلوك» يحاول دفع السيد «دو نوربوا» إلى موضوع العقيد «بيكار». فأجاب السيد «دو نوربوا» قائلاً: «لا اعتراض على أنّ شهادة العقيد أضحت ضروريّة ما أن تبادر إلى ذهن الحكومة إمكان أن يكون ثمة

---

(١) يظن الدوق أن Semita تعني يهودية فيما هي تعني الدرب وذلك تذكيراً بكنية والدة «سان لو»: مارسان(Semita Marsantes وبدم يهودي يجري في عروق «سان لو» مما يفسر مناصرته لـ«دريفوس».

سرّ دفين. وأعلم أنني دفعت بمساندتي هذا الرأي أكثر من واحد من زملائي إلى إطلاق صيحات البوم، ولكن الحكومة فيما أرى كان من واجبها أن تفسح مجال الكلام للعقيد. والمرء لايخرج من مأزق كهذا بحركة بهلوانية فحسب أو هو يعرّض نفسه إذ ذاك للوقوع في ورطة. أمّا فيما يخص الضابط نفسه فقد أحدثت هذه الشهادة في الجلسة الأولى انطباعاً مشجعاً جداً فحينما رأوه يقبل مشدود الجسم في بزّة القناصة بشرفي العسكري » (وهنا هزّت صوت السيد «دو نوربوا» ارتعاشة وطنية طفيفة) (تلك هي قناعتي» فلا يمكن أن ننكر أنّ الانطباع كان عميقا.»

وفكّر «بلوك» في نفسه قائلاً: «ها إنّه من انصار «دريفوس»، لم يعد ثمة أدنى شك».

– «لكنّ ما أفقده كلياً مشاعر العطف التي استطاع أن يحوزها بادئ الأمر فمواجهته بأمين المحفوظات «غريبلان»: فحين تم سماع هذا الخادم العجوز، هذا الرجل الذي لا يملك إلاّ قولاً واحداً (وشدّد السيد «دو نوربوا» بعزيمة القناعات الصادقة على الكلمات التي تلت ذلك)، وحين شوهد ينظر في عيني رئيسه ولايخشى أن يجابهه بحزم ويقول له بلهجة لاتقبل الردّ: «هيّا أيّها العقيد إنك تعلم تمام العلم أني لم أكذب في يوم وتعلم تماماً أنّي في هذه اللحظة أقول الحقيقة شأني على الدوام»، تغير اتجاه الريح وعبثا حرّك السيد «بيكار» السماء والأرض في الجلسات اللاحقة فقد أخفق اخفاقا تامّا.»

وقال «بلوك» في نفسه: «لا، إنه بالتأكيد مناهض لـ«دريفوس»، والأمر متوقع. ولكن إن هو ظن «بيكار» خائناً يكذب فكيف يمكن أنّ يأخذ في حسابه ما يذيع من أسرار ويذكرها كما لو يجد فيها روعة ويظنها صادقة؟ فأما إن رأى فيه على العكس رجلاً صالحاً ينقذ ضميره فكيف يمكن أن يفترضه كاذباً في مواجهته بـ«غريبلان»؟

وربّما نجم السبب الذي من أجله كان السيد «دو نوربوا» يحدّث «بلوك» على هذا النحو وكأنما هما على اتفاق عن أنّه كان يناهض «دريفوس» إلى الحدّ الذي أضحى معه، وقد وجد الدول لاتناهضه مناهضة كافية، عدوّا للدولة بقدر ما كان مناصرو «دريفوس». وربما لأنّ الموضوع الذي كان يتمسك به في السياسة أمر أكثر عمقاً بكثير ويقع في مستوى آخر تبدو مناصرة «دريفوس» منه بمثابة صيغة لا أهمية لها وليست أهلاً لأن تستوقف وطنيا همّه القضايا الخارجية الكبرى. وربّما بالأحرى لأنّ قواعد حكمته السياسية كانت عاجزة، وهي لاتنطبق إلاّ على مشكلات تتعلق بالشكل والأسلوب والمناسبة، عن حلّ القضايا الأساسية عجز المنطق المجرّد في الفلسفة عن البت في قضايا الوجود، أو أنّ هذه الحكمة نفسها جعلته يجد خطراً في خوض مثل هذه الموضوعات وأنه لايبغي التحدّث بداعي الحذر إلاّ عن ظروف ثانوية. ولكن موطن خطأ «بلوك» كان يكمن في اعتقاده أن السيد «د نوربوا» كان باستطاعته، حتى ولو كان أقلّ حذراً في طباعه وأقلّ شكلية مطلقة في عقله، أن يقول له الحقيقة، لو شاء ذلك، حول دور «هنري» و«بيكار» و«دو باتي دو كلام» وحول جميع النقاط في هذه القضية.، وما كان يستطيع «بلوك» بالفعل أن يشك بأن السيد «دو نوربوا» كان يعرف الحقيقة حول هذه الأمور جميعها. وكيف عساه يجهلها وهو يعرف الوزراء؟ أجل كان «بلوك» يحسب أنّ الحقيقة السياسية يمكن أن تعيد بناءها على نحو تقريبي أكثر الأدمغة صفاء، ولكنّه كان يتخيل، شأن السواد الأعظم، أنّها تقيم دوماً، ملموسة لا جدال فيها، في الإضبارة السرية العائدة لرئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء اللذين يطلعان الوزراء عليها. بيد أنّه يندر، حتى حينما تتضمن الحقيقة السياسية وثائق، أن تكتسب هذه

الأخيرة أكثر من قيمة صورة شعاعية تحسب العامّة أن مرض المصاب مسطّر فيها بكامل حروفه فيما تزوّد هذه الصورة في الواقع بمحض عنصر تقويم ينضم إلى عناصر أخرى كثيرة يحكّم فيها الطبيب عقله ويستقي منها تشخصيه. ولذلك فإن الحقيقة السياسية تتهرب حينما نقترب من ذوي الاطلاع ونحسب أنّا بالغوها. وحتى حينما وقعت فيما بعد، كيما نظل في نطاق قضية «دريفوس»، واقعة في مثل وضوح إقرار «هنري» الذي تلاه انتحاره فقد فسّرت في الحال تفسيراً متناقضاً على يد وزراء من أنصار «دريفوس» وعلى يد «كافينياك» و«كينييه» اللذين اكتشفا بنفسهما التزو ير وقادا التحقيق. أضف إليس ذلك أن دور «هنري» قد فُسّر تفسيراً متناقضاً تماماً في صفوف الوزراء المناصرين لـ «دريفوس» أنفسهم ومن ذوي اللون السياسي نفسه الذين لم يحكموا على المستندات نفسها فحسب بل وفق الروح نفسها كذلك، فقد رأى فيه البعض شريكاً لـ «استرهازي» فيما عزا آخرون الدور على العكس إلى «دي باتي دوكلام» فانضموا على هذا النحو إلى طرح خصمهم «كينييه» وأصبحوا ونصيرهم «ريناك» على طرفي نقيض. كلّ ما استطاع «بلوك» استخلاصه من السيد «دو نوربوا» أنّه إن ثبت أن رئيس الأركان السيد «دو بواديفر» قد كلف السيد «روشفور» القيام بمكالمة سريّة فثمّة بالتأكيد أمر مؤسف إلى حدّ بعيد.

– «فليكن ثابتا لديك أن وزير الحرب لابدّ نذر رئيس أركانه على الأقل في قرارة نفسه، لآلهة جهنّم. وما كان الشجب الرسمي فيما أرى ليؤلف قولاً نافلاً. ولكن وزير الحرب يعبر عن ذلك أثناء الشراب بفجاجة. ثمّة على أيّة حال موضوعات يبدو من التهوّر أن نبعث من حولها اضطرابات لانستطيع فما بعد الاستمرار في السيطرة عليها.»

وقال «بلوك»: «ولكن هذه المستندات بادية الزيف».

ولم يحر السيد«دو نوربوا» جوابا ولكنّه أعلن أنّه لا يوافق على تظاهرات الأمير «هنري دورليان»:

«إنّه لايمكن على أيّة حال إلاّ أن تعبث بهدوء المحكمة وتشجع اضطرابات قد تدعو إلى الأسف في هذا الاتجاه أو غيره سواء بسواء. ينبغي بالتأكيد أن نضع حدّا للدسائس المعادية للعسكر، بيد أنّنا كذلك في غنى عن فوضى تشجعها جماعة من عناصر اليمين يفكّرون في استخدام الفكرة الوطنية عوضاً عن أن يخدموها. وفرنسه ليس، والحمد لله، من جمهوريات أميركا الجنوبية ولاتمس بها الحاجة إلى لواء يقوم بانقلاب.»

ولم يفلح «بلوك» في حمله على التحدّث عن قضية مسؤولية «دريفوس» الجرميّة ولا على التنبؤ بالحكم الذي قد يصدر في القضية المدنيّة الجارية حالياً. وبدا في مقابل ذلك أنّ السيد «دو نوربوا» يغتبط باعطاء تفاصيل حول عواقب ذاك الحكم، فقال:

«إن كان ثمّة إدانة فالأرجح أنّها ستنقض إذ يندر في دعوى تكثر فيها شهادات الشهود إلى هذا الحدّ ألاّ يكون هناك أخطاء اجرائيّة يمكن أن يحتجّ بها المحامون. وكيما أقول كلمتي الأخيرة حول تهجم الأمير «هنري دورليان» فاني أشكّ كثيراً أن يكون والده قد ارتضى ذلك.»

وسألت الدوقة وهي تبتسم مستديرة العينين، محمرة الوجنتين تغمس أنفها في قصعة الحلوى ويعلو وجهها الاستنكار: «أتظنّ «شارتر» إلى جانب «دريفوس»؟

– «لا على الإطلاق، لقد قصدت أن أقول فقط إنّ في العائلة كلها من هذه الناحية، حساً سياسياً أمكن أن نلاحظ أقصى درجاته لدى الأميرة الرائعة «كليمانتين» وقد احتفظ به ابنها الأمير «فردينان» بمثابة تركه ثمينة. وما كان أمير «بلغاريا» ليضم بين ذراعيه القائد «استراهازي».– «لعلّه كان يفضل جندياً بسيطاً» تقول السيدة «دو غيرمانت» هامسة، وكثيراً ما كانت تتناول طعام العشاء برفقة البلغاري في منزل الأمير «دو جوانفيل» وقد أجابته ذات مرة إذ سألها إن لم تكن غيرى: «بلى، ياصاحب السيادة، من أساورك».

وقال السيد «دو نوربوا» للسيدة «دو فيلباريزيس» كيما يضع حدّاً للحديث مع «بلوك»: «ألا تذهبين هذا المساء إلى حفلة السيدة «دو ساغان» الراقصة»؟

وما كان هذا الأخير ليسوء في عين السفير الذي قال لنا فيما بعد بشيء من السذاجة ودونما شك بسبب بعض الآثار التي ظلت في لغة «بلوك» من الطراز الهرميروسي الجديد، مع أنّه كان قد هجره: «إنّه مسلّ إلى حدّ ما بطريقته في التحدّث بكلام متقادم العهد بعض الشيء ورسمي إلى حدّ ما. وما هو إلاّ القليل ليقول: «العالمات الشقيقات» [1] على غرار «لامارتين» و«چان باتيست روسو». لقد أضحى الأمر نادراً إلى حدّ ما لدى الشباب الحالي وقد كان نادراً حتى لدى من سبقهم. لقد كنّا بدورنا رومانتيكيين بعض الشيء» ولكن مهما بدا المحدّث غريباً فقد وجد السيد «دو نوربوا» أنّ الحديث جاوز الحدود.

فأجابت بابتسامة حلوة على شفتي امرأة عجوز: «لا ياسيدي ماعدت أذهب إلى الحفلات الراقصة. فهل تذهبون أنتم؟» وتضيف قولها وهي تشمل بالنظرة نفسها السيد «دو شاتيللرو» وصديقه و«بلوك»: «ذلك يناسب عمركم. ولقد دعيت بدوري»، تقول وهي تتظاهر بالتفاخر في سبيل المزاح. «لقد جاء حتى من يدعوني» (و«من» تعني الأميرة «دو ساغان»).

– «ليس لديّ بطاقة دعوة»، يقول «بلوك» ظناً منه أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» سوف تقدّم له بطاقة وأن السيدة «دو ساغان» ستسعد باستقبال صديق امرأة جاءت تدعوها بشخصها.

ولم تحر المركيزة جواباً ولم يلح «بلوك»، إذ كان لديه مسألة أكثر جديّة يبغي معالجتها وإيّاها وقد طلب منها منذ قليل في هذا السبيل موعداً لما بعد الغد. كان يبغي سؤال السيدة «دو فيلباريزيس»، بعدما سمع الشابين يعلنان أنهما قدّما استقالتهما من نادي الشارع الملكي حيث يدخل المرء وكأنّما إلى طاحونة، أن توعز بقبوله فيه.

وقال بسخرية جارحة: «أليس آل «ساغان» على شيء من الأناقة الزائفة وبعض السنوبيّة على الحواشي»؟

وأجاب السيد «دار جنكور»، وكان قد تبنى كل صنوف المزاح الباريسي: «لا على الإطلاق، إنّه خير ما نصنع من هذا القبيل.»

وقال «بلوك» نصف هازئ: «ذلك إذن ما يدعى واحداً من احتفالات الموسم الرسمية و«المؤتمرات»

---

(١) نقصد تسبيق الصفة على الموصوف كما هي الحال في الشعر.

المجتمعيّة الكبرى!»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» جذلانة للسيدة «دو غيرمانت»:

– هاتي نرَ، هل حفلة السيدة «دو ساغان» الراقصة احتفال مجتمعيّ كبير؟»

فأجابت الدوقة بلهجة ساخرة: «لاينبغي أن تسأليني عن ذلك لأنّي لم أفلح بعد في معرفة ما عسى يكون الاحتفال المجتمعي. وأمور المجتمع على أيّة حال ليست ما أمتاز به.»

وقال «بلوك» الذي تبادر إلى ذهنه أنّ السيدة «دو غيرمانت» قد قالت كلاماً صادقاً: «آه! كنت أحسب العكس.»

وتابع يطرح العديد من الأسئلة على السيد «دو نوربوا» حول مسألة «دريفوس» ممّا أثار اغتمامه. وقد أعلن هذا الأخير أن العقيد «دي باتي دو كلام» كان يبدو له لأوّل وهلة وكأنه عقل غامض وربّما سلم بحسن اختياره للقيام بهذا الأمر الدقيق الذي يقتضي الكثير من رباطة الجأش ونفاذ البصيرة، عنينا التحقيق.

– «أعرف أن الحزب الاشتراكي يطالب عالياً برأسه وكذلك بإخلاء سبيل سجين جزيرة ابليس فوراً. ولكني أظن أنّنا لم نرغم بعد على الانصياع لإرادة السيد «جيرو ريشار» وشركائه. وانّما هذه القضية حتى الآن هي المشكلة العويصة. لست أنكر أنه لابدّمن إخفاء فضائح بشعة إلى حدّما من هذا الجانب وذاك على حدّ سواء. بل أن يستطيع بعض نصراء عميلك غير المنحازين إلى حدّما أن يبدوا مقاصد طيبة، فلست أزعم عكس ذلك!» وأضاف بنظرة ذكية: «ولكنّك تعلم أن جهنّم مرصوفة بها. المهم أن تولي الحكومة انطباعاً بأنّها ليست في قبضة زمر اليسار أكثر ممّا يقع عليها أن تستسلم مكبلة لانذارات مالست أدري من جيش خاص بالمحاكم ليس هو الجيش، صدّقني. وغني عن القول إنّه إن وقع أمر جديد فسوف تتم مباشرة إعادة النظر في الدعوى. والنتيجة واضحة وضوح الشمس والمطالبة بذلك تعني اقتحام أبواب مفتوحة. وستعرف الحكومة يومها كيف تتكلم عالياً وبوضوح أو هي تسمح بهلهلة ما يشكل امتيازها الأساسي. ولن يكفي من بعد اللغو الذي لامعنى له ؛ ولابدّ من توفير قضاة لـ «دريفوس» وسيكون الأمر سهلاً لأنه، على الرغم من العادة المتخذة في فرنسه الحبيبة، حيث يتعشقون ذمّ أنفسهم، عادة الاعتقاد أو الحمل على الاعتقاد بأنه لابدّ كيما تبلغ الأسماع لفظتا الحقيقة والعدالة من اجتياز بحر المانش، وهو مالا يعدو في الغالب كونه وسيلة ملتوية لبلوغ نهر «سبريه». ليس القضاة وقفاً على برلين. ولكن هل ستفلح في الإصغاء لهذه الحكومة بعدما تتحرّك الدعوى الحكومية؟ وهل ستلتف من حولها حينما تدعوك إلى النهوض بواجبك الوطني؟ وهل تستطيع ألاّ تصمّ الآذان حيال ندائها الوطني وأن تجيب: «ها أنا!»؟

كان السيد «دو نوربوا» يطرح تلك الأسئلة على «بلوك» بعنف يدغدغ مشاعر رفيقي فيما يبعث في نفسه. ذلك أن السفير كان يبدو وكأنّه يتوجّه من خلاله إلى حزب بأكمله، كأنّه يسائل «بلوك» وكأنّما تمّ تزويده بأسرار ذاك الحزب وكان بمقدوره الاضطلاع بمسئولية ماقد يتخذ من قرارات. وأردف السيد «دو نوربوا» قوله دون أن ينتظر إجابة «بلوك» الجماعية: «فإن لم تهدأ نفسك وإن اتفق أن انقدت، حتى قبل أن

يجفّ حبر المرسوم الذي يحدّد إجراءات إعادة النظر في الدعوى، إلى ما لست أدري من شعار ماكر فلم تهدأ نفسك بل قبعت في معارضة عقيمة تبدو لبعضهم وكأنّها «l'ultumaratio» (الحجة الأخيرة» في السياسة وإن انسحبت إلى خيمتك وأحرقت سفنك فسوف يكون ذلك وبالاً عليك. فهل أنت سجين مسببي الفوضى؟ وهل قدّمت لهم ضمانات؟» وحار «بلوك» في الجواب، ولم يدع له السيد «دو نوربوا» متسعا لذلك. «فإن كان النفي هو الصحيح، كما عزمت على اعتقاده، وإن اتفق لك قليل مما يفتقر له لسوء الحظّ بعض قادتك وأصدقائك، شيء من الروح السياسية، وإن لم تسمح، في اليوم الذي تحال فيه الدعوى إلى غرفة الجنايات، بأن يجنّدك الصيّادون في المياه العكرة، فسوف تكسب الجولة. ولست آخذ على عاتقي أن تستطيع مجموعة الأركان بأسرها أن تتخلص من الورطة، وجميل جداً إن استطاع قسم على الأقلّ أن يحفظ ماء الوجه دون أن يشعل الحريق. وبديهي على أيّة حال أنّه إنّما يعود للحكومة أن تعلن الحقّ وتختتم اللائحة الطويلة للجرائم التي لم تلقَ عقابها، لا بانصياعها بالتأكيد للتحريضات الاشتراكية ولما لا أدري من صنف العسكر»، يضيف قوله وهو ينظر في عيني «بلوك» وربّما بالغريزة التي يمتاز بها جميع المحافظين في أن يهيئوا لأنفسهم أعواناً في معسكر الخصم. «والنشاط الحكومي ينبغي أن يتم دون الاهتمام بالمزاودات أيّاً كان مصدرها. والحكومة، لله الحمد، لا تأمر لا بأوامر العقيد «دريان» ولا بأوامر السيد «كليمانصو» في القطب الآخر. لابدّ من قهر محترفي الشغب والحؤول دون أن يرفعوا رؤوسهم. إن فرنسه في غالبيّتها العظمى ترغب أن تعمل داخل النظام! ولقد قرّ قراري بهذا الشأن. ولكنما ينبغي ألا نخشى تنوير الرأي العام، وإن ارتمى بعض الخراف، من الصنف الذي عرفه «رابليه» تمام المعرفة، مغمض العينين في الماء فانّما يجدر أنّ تبدي لهم أن هذا الماء عكر وقد تمّ تعكيره عن قصد على يد أوغاد ليسوا من ديارنا بغية تخفية قاعها الخطير. ويجدر بها ألاّ تتظاهر بالخروج من سلبيتها مكرهة حينما تمارس الحق الذي هو في الأساس حقها، وأعني تحريك صاحبة السمو العدالة. سوف ترتضي الحكومة مقترحاتكم كافّة. فان كان ثابتا أن ثمة خطأً قضائياً فسوف تضمن له أغلبية ساحقة تسمح له بحرية الحركة.»

وقال «بلوك» وهو يلتفت إلى السيد «دار جنكور» وقد سبق أن ذكروا اسمه أمامه مع بقية الناس: «وأنت، ياسيد، إنّك من مناصري «دريفوس» بالتأكيد، فالجميع هذه حالهم خارج خارج البلاد.»

– «تلك قضيّة لاتخصّ سوى الفرنسيين فيما بينهم، أليس كذلك؟» يجيب السيد «دارجنكور» بهذه الوقاحة الخاصة التي قوامها أن تحمّل محدّثك رأيا تعلم بصراحة أنّه لا يشاطرك إيّاه بما أنّه أبدى منذ قليل رأيا معاكساً.

وكست الحمرة وجه «بلوك»؛ وابتسم السيد «دارجنكور» وهو ينظر من حوله، ولئن كانت الابتسامة أثناء ما وجهّها إلى الزوّار الآخرين محملة بالإساءة بحقّ «بلوك» فقد لطفّها ببعض المودّة إذ حطّ بها أخيراً على صديقي كي لايدع لهذا الأخير حجة الاغتياظ من الكلمات التي سمعها منذ قليل والتي ظلّت مع ذلك قاسية. وقالت السيدة «دو غيرمانت» شيئا في أذن «دارجنكور» لم أسمعه إلاّ أنّه كان لابدّ ذا علاقة بدين «بلوك» إذ مرّ على وجه الدوقة في تلك اللحظة ذاك التعبير الذي تضفي عليه الخشية من أن يلاحظك الشخص الذي تتحدّث عنه شيئاً من التردّد والزيف وتمتزج به الغبطة الفضولية المحملة سوءاً التي توحي بها

جماعة بشرية نحس أنّا غرباء عنها كلياً. والتفت «بلوك» ناحية الدوق «شاتيللر» يبغي التعويض على ذاته وقال: «أنت أيّها السيد ذو الجنسية الفرنسية، إنّك تعلم بالتأكيد أن الناس يناصرون «دريفوس» مع أنّهم يزعمون أنّهم في فرنسه لايدرون البتة ما يجري في البلدان الأجنبية. وأعلم من ناحية أخرى أنّه يمكن التحدّث إليك، فقد قال لي ذلك «سان لو» ولكن الدوق الشاب الذي كان يحسّ بأنّ الجميع أخذوا يقفون ضد «بلوك» والذي كان جباناً كما هم الناس في الغالب في العالم قال وهو يلجأ على أيّة حال إلى طريقة متحذلقة جارحة يبدو أنّها انحدرت إليه بالارتداد الوراثي من السيد «دو شارلوس»: اعذرني ياسيدي ألاّ أناقش وإياك حول «دريفوس»، فتلك قضية مبدئي فيها ألاّ أتحدّث عنها إلاّ فيما بين اليافثيّين» (١) وابتسم الجميع فيما عدا «بلوك»، لا لأنّه لم يتعوّد التلفّظ بجمل ساخرة حول منابته اليهودية وعلى الجانب الذي يذكرفيه بعض الشيء بسيناء. ولكن بدلاً من واحدة من تلك الجمل التي لم تكن جاهزة دونما شكّ طلع مفتاح الآلة الداخلية بجملة أخرى على لسان «بلوك». ولم يكن بالامكان التقاط غير مايلي: «ولكن كيف استطعت أن تعرف؟ ومن عساه قال لك؟ كما لو كان ابنّ محكوم بالأشغال الشاقة. ولما كان اسمه من جهة ثانية لايوحي بالضبط بأنّه مسيحي وكذلك وجهه فقد كانت دهشته تظهر شيئاً من السذاجة.

ولما لم يرضه ما قاله له السيد «دونوربوا» تمام الرضى فقد اقترب من أمين المحفوظات وسأله إن كانوا يشاهدون أحياناً في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» السيد «دي باتي دو كلام» أو السيد «جوزيف ريناك». ولم يجب أمين المحفوظات بشيء، فقد كان وطني النزعة ولايفتأ يتكهنّ للمركيزة أن حرباً اجتماعية ستقوم عمّا قليل وأنّه يجدر بها أن تكون أوفر حذراً في انتقاء أصدقائها. وتساءل إن لم يكن «بلوك» رسولاً خفيّاً للنقابة جاء لينقل إليه الأخبار، ومضى في الحال يردّد للسيدة «دو فيلباريزيس» تلك الأسئلة التي طرحها عليه «بلوك» منذ قليل. وحكمت أنّه على الاقلّ سيئ التهذيب وربّما كان خطراً على وضع السيد «دو نوربوا» وكانت تريد أخيراً أن ترضي أمين المحفوظات، وهو الشخص الوحيد الذي يوحي إليها ببعض المخافة والذي كان يلقنها المبادئ دون أن يلقي نجاحاً كبيراً (كان يقرأ عليها في كلّ صباح مقالة السيد «جوديه» في«الصحيفة الصغيرة»). لقد أرادت إذن أن تلفت نظر «بلوك» إلى أنّه يقع عليه ألاّ يعود وعثرت على نحو طبيعي جدّا في مجموعتها الاجتماعية على المشهد الذي تطرد فيه سيدة كبيرة أحدهم من منزلها، مشهد لايتضمن الاصبع المرفوع والعينين اللاهبتين اللتين نتخيّلهما. ففيما كان «بلوك» يقترب منها ليودّعها بدت، وقد غاصت في مقعدها الواسع، وكأنّما تستفيق من اغفاءة غامضة. ولم ترسل نظراتها سوى الوميض الواهن البديع الذي ترسله لؤلؤة. ولم ينتزع وداع «بلوك»، وكاد لاينشر على محيّا المركيزة ابتسامة واهنة، لم ينتزع منها كلمة واحدة ولم تمدّ إليه يدها. وقد بلغ هذا المشهد بـ«بلوك» أقصى درجات الدهشة، بيد أنّه لم يظنّ، بما أن حلقة من الاشخاص كانت شاهدة على ذلك من حوله، أنّه يمكن لها أن تطول دون أن تلحق الأذى به، وكيما يرغم المركيزة فقد مدّ من تلقاء نفسه اليد التي لم يقبل من يأخذها منه. واغتاظت السيدة «دو فيلباريزيس». ولكنّها شاءت دونما شكّ، فيما اهتّمت أن تحوز في الحال رضى أمين المحفوظات والجماعة المناوئة لـ «دريفوس»، أن تراعي المستقبل فاكتفت بخفض جفنيها وبأن أغمضت عينيها نصف إغماضة.

(١) ابناء يافث ويقصد اليهود.

وقال «بلوك» لأمين المحفوظات الذي اتخذ هيئة غاضبة إذ شعر أنّ المركيزة تسانده: «أظنّها نائمة». ثم صرخ قائلاً: «وداعاً ياسيدتي».

وقامت المركيزة بالحركة الخفيفة التي لشفتي محتضرة تودّ أن تفتح فمها ولكن نظرتها لم تعد تتعرّف شيئاً.. ثم التفتت، تفيض حياة مستعادة، نحو المركيز «دارجنكور» فيما كان «بلوك» يبتعد وقد أيقن أنّ الخرف نال منها. وعاد ليراها بعد بضعة أيّام وقد تملّكه الفضول والعزم على ايضاح حادثة غريبة إلى هذا الحدّ. فاستقبلته أحسن استقبال لأنّها كانت امرأة طيّبة وأن أمين المحفوظات لم يكن هناك وأنّها تحرص على المشهد الصغير الذي يزمع «بلوك» أن يدعو إلى تمثيله في منزلها، وأنها في نهاية المطاف قد قامت بدور السيدة الراقية التي كانت تتوق إليه والذي أثار اعجاباً شاملاً وتعليقات في العشية نفسها في صالات مختلفة ولكن وفق رواية لم يعد لها مذذاك أي صلة بالحقيقة.

– «كنت تتحدّثين عن «الأميرات السبع» أيتها الدوقة، تعلمين (ولست لذلك أكثر اعتزازا) أنّ مؤلف هذا... ماذا عساي أقول، هذه الأهجيّة هو أحد مواطني بلدي»، يقول السيد «دارجنكور» بسخرية يخالطها الاعتزاز بأن يعرف أفضل من الآخرين مؤلّف عمل في جرى الحديث عنه منذ قليل. ويضيف قوله: «أجل، إنّه بلچيكي، وتلك مهنته».

– «حقا؟ لا. لسنا نتّهمكم أن تكونوا على شيء من «الأميرات السبع». وانكم، لحسن حظّك وحظّ مواطنيك، لاتشبهون مؤلف هذه السخافة. إني أعرف بلچيكيّين محبّبين جدّا، أنت وملككم، وهو خجول بعض الخجل ولكنه يفيض ذكاء، وأبناء أعمامي «الينيي» وكثيرون غيرهم، ولكنّكم لحسن الحظّ لا تتكلّمون اللغة نفسها التي يتكلّمها مؤلف «الأميرات السبع» وإن شئت، على أي حل، أن أقول لك فإن الحديث عنها مغالاة لأنّها لاشيء بوجه الخصوص. إنّهم جماعة يحاولون أن يظهروا بمظهر الغموض ويتدبّرون أمرهم ليبدوا مضحكين بغية اخفاء صحراء فكرهم.» وأضافت بلهجة الجدّ: «لعلّني كنت أقول لك، لو أن خلف القشور شيئاً، إني لا أخشى بعض صنوف الجرأة بما أنّ ثمة فكرا. لست أدري إن كنتَ شاهدتَ مسرحية «بوريللي». هناك من صدموا من جرّاء ذلك. أما أنا فأقرّ ولو بلغ بي الأمر أن أرجم»، تضيف قولها دون أن تتبيّن أنّها لا تتعرّض لأخطار كبيرة، أقرّ أني وجدت الأمر مثيراً إلى مالا حدود. فأما «اللأميرات السبع»! وعبثا تغدق إحداهنّ صنوف مودّتها على ابن أخي، فلست أستطيع أن أبلغ بمشاعري العائلية حدّ...»

وتوقفت الدوقة فجأة لأن سيدة دخلت وكانت الفيكونتيسه «دو مارسانت» والدة «روبير». كانوا يعدّون السيدة «دومارسانت» في حيّ «سان جيرمان» بمثابة كائن متفوّق يتمتع بلطف وتسليم ملائكيين. لقد سبق أن قيل لي ذلك وما كان لديّ أيّ داع خاص لأدهش للأمر إذ لم أكن أعلم في ذلك الوقت أنّها شقيقة الدوق «دو غيرمانت» حقاً. ولقد أصابتني الدهشة فيما بعد كلّ مرّة بلغني فيها، في هذا المجتمع، أن نساء كئيبات نقيّات مضحيّ بهن مكرّمات شأن قدّيسات مثاليات على زجاج الكنائس قد نبتن من الأصل الإنسانيّ نفسه الذي أنبت أشقاء أفظاظاً ماجنين سفلة. كان يبدو لي أنّ الأشقاء والشقيقات، يوم يتماثلون تماماً في الوجه كما كان شأن الدوق «دو غيرمانت» والسيدة «دو مارسانت»، إنّما ينبغي أن يملكوا عقلاً واحداً وقلباً واحداً كما هي حال شخص يمكن أن تتفق له لحظات سعد أو نحس إلاّ انّه لايمكن مع ذلك توقع رؤى

واسعة له إن كان محدود العقل وسمواً في انكار الذات إن كان قاسي الفؤاد.

كانت السيدة «دو مارسانت» تتابع دروس «برونتيير»، وكانت تثير حماسة حيّ «سان جرمان» وتوفر له إلى ذلك، بفضل سيرتها الورعة، القدوة الصالحة. على أن رابطة الشكل في الأنف الجميل والنظرة الثاقبة كانت تدفعني إلى تصنيف السيدة «دو مارسانت» في أسرة شقيقها الذوق العقلية والأخلاقية نفسها. وما كنت أقوى على الاعتقاد بأن محض كونها امرأة وأنّها ربّما سبق أن كانت تعيسة وأن الجميع يقفون إلى جانبها يمكن أن يجعل منها كائناً يختلف إلى هذا الحدّ عن ذويه كما هي الحال في القصائد الملحميّة حيث تتجمّع كلّ الفضائل والمحاسن لشقيقة إخوة أفظاظ. كان يخيّل إليّ أنّ الطبيعة، وهي أقلّ حريّة من الشعراء الأقدمين، لابدّ أن تستخدم بما يقارب الحصر العناصر المشتركة في الأسرة وما كان بمقدوري أن أخصّها بسلطان معين في التجديد تصنع بموجبه عقلاً واسعاً لاتشوبه شائبة غباء وقديسة لاتلوّثها لطخة قسوة بموادّ مشابهة لتلك التي تؤلف غبيّاً غليظ القلب. كانت السيدة «دو مارسانت» ترتدي فسطاناً من الحرير الهندي الأبيض بسبلات عريضة تبرز فوقها زهرات من القماش، وكانت سوداء. ذلك لأنّها فقدت لثلاثة أسابيع خلت ابن عمها السيد «دو كونموراني»، الأمر الذي ما كان يحول دون أن تقوم بزيارات وأن تذهب إلى حفلات عشاء صغيرة ولكن بثياب الحداد. كانت سيدة راقية، وكانت نفسها يملؤها بالوراثة طيش ضروب العيش في البلاط بكلّ ما يعمرها من سطحية وصرامة. لم تتجمّع للسيدة «دو مارسانت» القوّة لتأسف فترة طويلة على أبيها وأمّه ولكنّها ما كنت لترتدي أثواباً ملوّنة في الشهر الذي يلي وفاة ابن عمّ لها أيّة كانت الظروف. لقد أبدت لي ما كان أكثر من اللطف لأنني كنت صديق «روبير» ولأنّني لم أكن من مجتمع «روبير» نفسه. كانت تلك الطيبة تقترن بخجل متكلف بما يشبه حركة التراجع المتقطع في الصوت والنظرة والفكر الذي يردّه المرء إليه كمثل تنّورة غير محتشمة، كي لا تحتلّ حيّزاً أكبر وكي تظل مستقيمة تماماً حتى في إطار المرونة كما يفرض ذلك حسن التهذيب. حسن التهذيب الذي ينبغي أن لا نبالغ في فهمه بمعناه الحرفيّ على أيّ حال، إذ سرعان ما كان يتّجه العديد من أولئك السيدات ناحية التهتّك الأخلاقي دون أن يفقدن في يوم لياقة في السلوك طفوليّة تقريباً. كانت السيدة «دو مارسانت» تزعجك بعض الشيء في الحديث لأنّها كانت تقول كلّما تعلق الأمر برجل من العامة، بـ«بيرغوت» و«ايلستير» مثلاً، كانت تقول وهي تبرز الكلمة، وهي تظهرها وترتلها بلحنين مختلفين في تنغيمة خاصة بآل «غيرمانت»: «لقد حزت «الشرف»، عظيم «الشرف» في لقاء السيد «بيرغوت»، في التعرّف بالسيد «ايلستير»، إمّا لتحمل على الإعجاب باتضاعها وإمّا عن ذات الميل الذي كان لدى السيد «دو غيرمانت» في العودة إلى الصيغ المهجورة ليعلن معارضته للعادات التي تتسم بسوء التهذيب الحالي الذي لايعلن المرء فيه أنّه «تشرّف» إلى حدّ كاف، أيّا كان السبب الحقيقي من بين هذين السببين فقد كنت تحس في جميع الأحوال أن السيدة «دو مارسانت» تحسب حينما تقول: «لقد حزت «الشرف»، عظيم الشرف» أنّها تنهض بدور عظيم وتبرز أنّها تحسن استقبال أسماء الرجال ذوي الشأن كما لعلّها كانت استقبلتهم بذاتهم في قصرها لو اتفق لهم أن يقيموا في الجوار. ولما كانت أسرتها من جهة ثانية كبيرة العدد وأنها كانت تحبّها حبّاً جمّاً وتبغي، وهي بطيئة الإلقاء مغرمة بالإيضاحات، أن توضح مواطن القربى، فقد كان يتفق لها (دون أيّة رغبة في الإدهاش وفيما لا تحبّ صادقة سوى التحدّث عن فلاحين يهزّون المشاعر وخفراء صيد شرفاء) أن تذكر في كلّ لحظة جميع الأسر المعتقة من سلطان الملوك في أوروبا، الأمر الذي ما كان يغتفره لها من كانوا أقلّ شهرة، ويهزؤون منه على أنّه من السخافة إن كانوا على قدر قليل من الثقافة.

كانت السيدة «دو مارسانت» موضع عشق في الريف من جرّاء الخير الذي تفعله، وعلى وجه الخصوص لأنّ صفاء النسل الذي لم تعد تلقى فيه منذ عدّة أجيال إلاّ أعظم ما في تاريخ فرنسه قد خلّص سلوكها من كلّ ما تسمّيه عامّة الشعب «تكلّفا» وأولاها البساطة التامّة. فما كانت تخشى أن تأخذ في أحضانها امرأة مسكينة حالفتها التعاسة وتطلب إليها أن تمضي لتأتي بعربة أحطاب من القصر. لقد كانت فيما يقال مثال المسيحيّة. وكانت حريصة على أن تزوّج «روبير» زواجاً طائل الثراء. وإنّما يعني أن تكون سيدة راقية تمثيل دور السيدة الراقية، يعني التظاهر بالبساطة. وإنّها للعبة تكلف ثمناً غالياً جداً، فضلاً عن أن البساطة لاتسحر الفؤاد إلاّ بشرط أن يعلم الآخرون أنّه يمكن ألاّ تكونوا بسطاء، يعن أنكم طائلو الثراء. لقد قيل لي فيما بعد حينما رويت أنني شاهدتها: «أنت لابدّ تبينت أنّها كانت رائعة.» ولكن الجمال الحقيقي خاص وجديد إلى حدّ أنّك لا تتعرّفه على أنّه الجمال. لقد قلت في نفسي على الأقل في ذلك اليوم إنّ لها أنفاً صغيراً جدّاً وعينين زرقاوين جدّاً وعنقاً طويلاً وهيئة حزينة.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للدوقة «دو غيرمانت»: «أسمعي أظنّ أني سأحظى عما قليل بزيارة امرأة لاتريدين التعرّف بها، وأفضلّ أن أخطرك كي لايزعجك الأمر. يمكن أن تطمئني على أيّة حال فلن استقبلها البتّة في منزلي فيما بعد، ولكنّها ستجيء اليوم لمرّة واحدة. إنّها زوجة «سوان».

كانت السيدة «سوان»، إذ رأت الأبعاد التي تتخذها قضيّة «دريفوس» وخشيت أن تنقلب منابت زوجها ضدّها، قد توسلت إليه ألاّ يتحدّث من بعد عن براءة المحكوم. وكانت تذهب إلى أبعد من ذلك حينما لايكون حاضراً فتجهر بأشدّ الوطنية عنفاً. وإنما كانت تتأثر في ذلك على أيّة حال خطى السيدة «فيردوران» التي استيقظ في نفسها عداء للساميّة بورجوازي كامن وقد بلغ درجة الهيجان الحقيقيّ. وقد كسبت الراقي معاديات للسامية كانت آخذه في التشكل وأقامت علاقات مع عديد من جماعة الارستقراطيين. وربّما بدا غريباً أن تكون دوقة «غيرمانت»، على صداقتها المتينة لـ«سوان»، قد صمدت دوماً، بدلاً من أن تقلدّهم، في وجه الرغبة التي لم يكتمها إيّاها في تقديم زوجته لها. على أنّنا سنرى فيما بعد أن الأمر كان نتيجة لطباع الدوقة الخاصة التي كانت تحكم أنّه «لايقع عليها» النيام بهذا الأمر أو ذاك وكانت تفرض فرض المستبد ما أقرّته «إرادتها الحرّة» الاجتماعية الاعتباطيّة إلى أبعد حدّ.

وأجابت الدوقة: «أشكر لك أنّك أخطرتني، فلعلّ الأمر يزعجني بالفعل أشدّ الإزعاج. ولكنّي سأنهض في الوقت المناسب بما أنّي أعرفها بالوجه».

وقالت السيدة «دو مارسانت»: «أؤكد لك يا «أوريان» أنّها ممتعة إلى حدّ بعيد، إنّها امرأة ممتازة».

– «لاشك في الأمر ولكنّي لا أشعر بأيّة حاجة إلى التأكد من ذلك بنفسي».

وسألت السيدة «دوفيلباريزيس» الدوقة بغية الحديث: «هل أنت مدعوّة لدى السيدة «اسرائيلز» ؟

فأجابت السيدة «دو غيرمانت»: ولكنّي لله الحمد لا أعرفها. والأجدر أن تسألني «ماري إينار» عن ذلك، فأنّها تعرفها وقد تساءلت دوماً عن السبب».

وردت السيدة «دو مارسانت» قائلة: «لقد عرفتها بالفعل، وإنّي أقرّ بأخطائي. ولكنّي مصمّمة ألاّ أعرفها

من بعد. يبدو أنّها من أسوأهنّ وأنّها لاتخفي ذلك. لقد جاوزنا جميعنا على أية حال حدود الثقة والضيافة. ولن أتردّد من بعد على أيّ من هذه الأمّة. ففيما كان لنا ابناء عمّ قدامى في الريف نغلق الباب دونهم كنّا نفتحه لليهود. وإنّنا نشاهد اليوم امتنانهم. ليس لديّ ما أقوله، واأسفي! إن لي ابناً رائعاً يجود في جنونه الفتي بجميع السخافات الممكنة»، تضيف قولها لدى سماعها أنّ السيد «دارجنكور» قد عرض بـ«روبير». وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «ولكن، أما رأيت «روبير»، إذ نحن بصدد الحديث عنه؟ لقد ظننت، بما أنّ اليوم سبت، أنّه ربّما كان باستطاعته قضاء أربع وعشرين ساعة في باريس، ولعله كان جاء بالتأكيد في هذه الحالة ليشاهدك.».

كانت السيدة «دو مارسانت» تظن في الواقع أن ابنها لن يمنح إذنا. ولما كانت تعلم في جميع الأحوال أنّه ما كان ليجيء إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» لو حصل على إذن فقد كانت تأمل، وهي تتظاهر بالاعتقاد بأنّها ربّما وجدته هنا أن تصفح له عمّته الشديدة الحساسية عن جميع الزيارات التي لم يقم بها إليها.

– «روبير في هذا المكان! ولكني لم أتسلمّ حتى كلمة واحدة منه، وأظنّ أني لم أره منذ «بالبيك».

فقالت السيدة «دو مارسانت»: «إنّه كثير المشاغل وما أكثر ما لديه من أعمال.»

وهزّت ابتسامة خفيّة أهداب السيدة «دو غيرمانت» التي نظرت إلى الدائرة التي كانت تخطّها على السجادة بطرف شمسيتها. كانت السيّدة «دو مارسانت» قد لزمت صراحة، في كلّ مرّة هجر فيها الدوق امرأته على نحو مفضوح، جانب زوجة أخيها ضدّ أخيها نفسه. وظلت هذه الأخيرة تحتفظ من تلك الحماية بذكرى يمتزج فيها الامتنان بالحقد، وما كانت إلاّ نصف غاضبة من جهالات «روبير». وفي تلك اللحظة انفتح الباب من جديد، فدخل هذا الأخير.

وقالت السيدة «دو غيرمانت»: «عجباً، ما أن نتحدث عن الذئب...».

ولم تكن السيدة «دو مارسانت» التي كانت تولي الباب ظهرها قد أبصرت ابنها داخلاً. فلما رأته خفق الفرح بالحقيقة في صدر هذه الأم خفقة جناح وهمّت السيدة «دو سارمانت» بالنهوض واختلج وجهها وأخذت تحدّق إلى «روبير» بعينين ذاهلتين:

– «كيف، ها أنّك جئت! يا للسعادة! يا للمفاجأة!»

قال الديبلوماسي البلجيكي وهو يضحك بأعلى صوته: «آه ما أن تتحدّث عن الذئب.. لقد فهمت.»

وردّت السيدة «دو غيرمانت» بجفاء: «قول رائع»، وكانت تكره التلاعب بالألفاظ ولم تجازف بهذا الأخير إلاّ وهي تتظاهر بأنها تسخر من نفسها. وقالت: «مرحبى يا «روبير» ؛ أرأيت كيف ينسى الناس عمّتهم!».

وتحدّثا معاً فترة، وعنّي دونما شكّ إذ إن السيدة «دو غيرمانت» التفتت نحوي فيما كان «سان لو»

يقترب من والدته وقالت لي: «مرحبى، كيف حالك؟»

وسكبت فوقي نور لحظها الأزرق وتردّدت مدى لحظة ونشرت ثمّ مدّت جذع ذراعها وأحنت إلى الأمام جسدها الذي ارتدّ بسرعة إلى الخلف مثل شجيرة تميل بها إلى الأرض فتعود إلى وضعها الطبيعي إن تركتها لنفسها. هكذا كانت تفعل وقد سلطت عليها نار نظرات «سان لو» الذي كان يراقبها ويقوم من بعيد بجهود يائسة ليحصل من عمّته على ما كان أكثر من ذلك بقليل. وإذ خشي أن يفتر الحديث أقبل يغذّيه وأجاب بدلاً مني قائلاً:

– «ليس على مايرام، إنّه متعب قليلاً، وربّما أصبح أفضل حالاً لو رآك مرّات أكثر فأنّي لا أخفي عليك أنّه يحبّ كثيراً أن يلقاك.»

وقالت السيدة «دو غيرمانت» بلهجة تعمدّتها عاديّة كما لو أني جئتها بمعطفها: «آه! هذا أمر لطيف. وأنّه ليرضيني إلى حدّ بعيد.»

– «إليك، إني ذاهب قليلاً بالقرب من أمي وأعطيك كرسيّي»، يقول «سان لو» وهو يضطرّني بذلك إلى الجلوس بالقرب من عمّته.

وصمت كلانا.

وقالت لي: «إني ألمحك أحياناً في الصباح»، وكأنّما ذلك خبر تنقله إليّ وكأني لا أراها بدوري «ذلك مفيد جدّاً للصحة».

وقالت السيّدة «دو مارسانت» بصوت خافت: «أوريان، كنت تقولين إنّك ذاهبة لزيارة السيدة «دو سان فرّيئول»، فهل تلطفت وقلت لها ألاّ تنتظرني على العشاء؟ سوف ألازم منزلي بما أن «روبير» عندي. ولئن توافرت لي الجرأة لسألتك أنْ تقولي في طريقك بأن يقوموا في الحال بشراء نوع السيكار الذي يحبّه «روبير» ويسمّونه «كورونا» ولم يعد موجوداً».

واقترب «روبير» ؛ لقد تمّ له فقط سماع اسم السيدة «دو سان فرّيئول» وسأل بلهجة تقترن فيها الدهشة بالتصميم، إذ كان يتظاهر بجهل كل ما يتعلق بالمجتمع: «ومن عساها تكون هذه السيدة «دو سان فرّيئول»؟

فقالت أمه: «عجباً لك ياعزيزي، أنت تعرف تماماً، إنها شقيقة «فيرماندوا»، وهي التي سبق أن أعطتك لعبة البيليارد الجميلة هذه التي كنت تحبّها أشدّ الحبّ.»

– «شقيقة «فيرماندوا»، ما هذا، لم يسبق أن خطرت لي أيّة فكره عن ذلك، يا ما أروع عائلتي»، يقول في نصف التفاتة ناحيتي فيما يتخذ دون أن ينتبه للأمر نبرات «بلوك» مثلما كان يقتبس أفكاره، «إنّها تعرف أناساً لايخطرون ببال، أناساً يدعون ما كان في كثير أو قليل من قبيل «سان فرّيئول» (ويلحّ على الحرف الأخير من كلّ كلمة)، وتذهب إلى الحفلات الراقصة، وتتنزّه في عربة واسعة وتعيش عيشة خيالية. هائل.»

وأطلقت السيدة «دو غيرمانت» من حنجرتها ذلك الصوت الخفيف المقتضب الشديد، وكأنّما لابتسامة

تكتبها، وتريد أن تعلن به أنها تشارك بالقدر الذي تضطرّها إليه القرابة بنباهة ابن شقيقها. وأقبل من يعلن أن الأمير «دو فافنهايم مونستر بورغ فاينغن» ينقل للسيد «دو نوربوا» أنّه قد حضر.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسفير السابق: «اذهب وأتِ به ياسيدي»، فأسرع لاستقبال رئيس الوزراء الألماني.

ولكن المركيزة استدعته: «على رسلك ياسيدي؛ أوينبغي أن أريه منمنمة الامبراطورة «شارلوت»؟

وقال السفير بلهجة المقتنع وكما لو يحسد هذا الوزير المحظوظ على المنة التي تنتظره: «أظنه سيغتبط كثيراً».

وقالت السيدة «دو مارسانت»: «أعلم أنّه مستقيم الرأي، وما أندر ذلك بين الأجانب. ولكني على اطلاع، إنّه التجسيد الحي لعداء السامية».

كان اسم الأمير يحتفظ عبر الصراحة التي تتمّ بها مباشرةُ مقاطعه الأولى – حسبما يقولون بلغة الموسيقى– والفأفأة المتكرّرة التي تقطعّها، كان يحتفظ بالزخم والسذاجة المتكلفة وصنوف التلطف الألمانية الغليظة التي ترتسم وكأنّها أغصان ضاربة إلى الخضرة على اللوحة التي من مينا زرقاء قاتمة تنشر صوفيّة زجاجٍ ملوّن خلف مذهبات القرن الثامن عشر الجرماني الشاحبة الدقيقة النقوش. كان هذا الاسم يضمّ بين الأسماء المختلفة التي يتألف منها اسم مدينة استشفاء ألمانية صغيرة ذهبت إليها وأنا طفل صغير برفقة جدّتي على حضيض جبل شرّفته نزهات «غوته» وكنا نحتسي في محطة الاستشفاء خمور كرومه الذائعة الصيت ذات الأسماء المركّبة الداوية كالنعوت التي يطلقها هرميروس على أبطاله. فما أن سمعتهم ينطقون باسم الأمير حتى بدا لي قبلما أتذكر مركز المياه الحارّة يتقلص ويمتلئ إنسانية ويلقى له مكاناً صغيراً كافياً في ذاكرتي. التي التصق بها أليفاً عادياً طريفاً لذيذاً خفيفاً وبه شيء من المجوّز والمفروض. وزاد السيد «دو غيرمانت» على ذلك فذكر، وهو يوضح من كان الأمير، عدداً من ألقابه وتعرّفت اسم قرية يجتازها النهر الذي كنت أمضي فيه، في نهاية الاستشفاء، في القارب عبر البعوض، واسم غابة بعيدة بما يكفي كي لا يصرّح لي الطبيب بالذهاب إليها في نزهة. وكان معقولاً بالفعل أن تمتدّ إقطاعية السيد إلى الأماكن المحيطة المجاورة وتقترن من جديد في تعداد ألقابه الأسماء التي يمكن قراءة بعضها إلى جانب بعضها الآخر على الخريطة. وهكذا رأيت تحت واقية أمير الامبراطورية المقدّسة وفارس «فرنكونيه» وجه أرض حبيبة كثيراً ما توقفت فيها بالنسبة إليّ أشعة شمس الساعة السادسة أقلّه قبلما دخل الأمير الذي من أمراء «الراين» وأعيان «بالاتينا». ذلك لأني علمت في مدى بضع لحظات أن العائدات التي كان يجنيها من الغابة والنهر اللذين يسكنهما الجان وحوريات الماء ومن الجبل المسحور الذي شيدت فوقه القرية القديمة التي تحتفظ بذكرى «لوثر» و«لويس الجرماني» إنّما كان يستخدمها ليملك خمس سيارات «شارون» وفندقاً في باريس وآخر في لندن ومقصورة في الأوبرا نهارَ الاثنين وأخرى في أيام الثلاثاء في مسرح «الفرنسيون» وما كان يخيل إليّ – ولايبدو أنّه يصدّق بدوره – أنّه يختلف عن الرجال الذين يملكون الثروة نفسها والعمر نفسه وأصلاً أقلَّ شاعرية. فقد كان يملك ثقافتهم ومثلهم الأعلى ويغتبط لمكانته ولكن بسبب المكاسب التي تقدّمها له فحسب ولم يظلّ له سوى مطمح في الحياة وهو أن يتمّ انتخابه عضواً مراسلاً لمجمع العلوم الأخلاقية والسياسية وهو السبب الذي جاء من أجله إلى منزل السيدة

«دوفيلياريزيس».

ولئن كان التمس، وهو من كانت زوجته على رأس الجماعة الأكثر انغلاقاً في برلين، أن يُعرّفَ به لدى المركيزة، فما كان ذلك لأنّه أحس بادئ الأمر بالرغبة فيه. فلم يتسن له البتة لسوء الحظّ، وقد تأكّله منذ سنوات ذاك المطمح في دخول اتحاد المجامع، أن يرى عدد أعضاء المجمع الذين يبدون على استعداد للتصويت إلى جانبه يتجاوز الخمسة. كان يعلم أنّ السيد «دو نوربوا» يتصرّف وحده بما لا يقل عن عشرة أصوات يستطيع أن يضيف إليها أخرى غيرها بفضل عمليّات بارعة. ولذلك فقد سبق للأمير الذي عرفه في روسيا حينما كان كلاهما سفيراً فيها أن ذهب لزيارته وفعل كلّ مافي وسعه ليكسب ودّه. ولكن عبثاً ضاعف مظاهر اللطف وحصل للمركيز على أوسمة روسيّة وذكر اسمه في مقالات تتناول السياسة الأجنبية فقد ألفى أمامه عاقّاً وإنساناً بدت كلّ تلك المظاهر من التودّد وكأنّها لاحساب لها في نظره ولم يدفع ترشيحه خطوة إلى الأمام ولم يعده حتى بصوته! وليس من شك أنّ السيد «دو نوربوا» كان يستقبله بتأدّب بالغ ولايبغي حتى أن يكلف نفسه عناء «ويتحمل مشقة المجيء حتى بابه»، فيذهب بنفسه إلى فندق الأمير وحينما قال الفارس التوتوني: «بودّي أن أضحي زميلاً لك»، أجابه بلهجة المقتنع: «آه! سوف أغتبط لذلك!» ولا ريب أنّ أحد السذّج من أمثال الدكتور «كوتار» كان قال بينه وبين نفسه: «ويحي، إنّه ههنا في منزلي وهو الذي أصرّ على المجيء لأنّه يعدّني شخصاً أعظم خطراً منه وهو يقول لي إنّه سيغتبط لأن أكون في المجمع، وإنّما للكلمات مدلولها، يا ربي! ولاريب أنّه إن لم يعرض عليّ التصويت لصالحي فلأنّه لايفكر في الأمر. إنه يبالغ في التحدث عن سلطاني العظيم ولابدّ أنّه يحسب أمانيّ تتحقق دون عناء وأني أملك من الأصوات بقدر ما أشاء ولذلك لايقدّم لي صوته، ولكنّما عليّ أن أحرجه وأن أقول له ههنا فيما بيننا: هيّا، صوّت في صالحي وسوف يضطرّ إلى القيام بذلك.» ولكنّ الأمير «دو فاقنّهايم» لم يكن ساذجاً. لقد كان ما لعلّ الدكتور «كوتار» كان يدعوه «ديبلوماسياً داهية» وكان يعلم أن السيد «دو نوربوا» لايقلّ عنه دهاء وأنّه ما كان رجلاً لا يفطن من تلقاء ذاته أنّه قد يحسن في عيني مرشح إن هو صوّت لصالحه. لقد سبق للأمير في سفاراته وبوصفه وزيراً للخارجيّة أن تفوّه، في سبيل بلاده بدلاً من أن يفعل في سبيل نفسه كما هي حاله الآن، بأحاديث يعرف المرء سلفاً إلى أي حدّ يبغي الذهاب فيها ومالن يحملوك على قوله. وما كان يجهل أن الحديث في لغة الديبلوماسيين إنّما يعني التقدمة، ولذلك عمل على أن يحصل السيد «دو نوربوا» على وشاح «القدّيس اندراوس» ولو كان لابدّ له أن يقدّم لحكومته تقريراً عن الحديث الذي تمّ له بعد ذاك مع السيد «دو نوربوا» لاستطاع أن يذكر في برقيّته: «لقد أدركت أنّي ضللت السبيل.» ذلك لأنه ما أن عاد يتكلم عن المجمع حتى كرّر له السيد «دو نوربوا» قوله:

– «لعلّي أرغب في ذلك كثيراً، كثيراً جداً من أجل زملائي. فلا بدّ أنّهم، فيما أظنّ، يحسون أنّك تشرّفهم حقاً لأنّك فكّرت فيهم. إنّه ترشيح مثير تماماً وخارج حدود عاداتنا إلى حدّ. تدري، المجمع روتيني جدّاً ويداخله الرعب من كلّ مايرتدي بعض الجدّة. وإنّي ألومه شخصيّاً على ذلك. وكم مرّة أتفق لي أن أنقل ذلك إلى مسامع زملائي! ولست أدرى، عفوك يا رب، إن لم تنطلق من شفتيّ مرّة لفظة «متحجّرين»، يضيف قوله بابتسامة مستنكرة وبصوت خافت وكأنّما يحدّث نفسه، كما هي الحال في حركة مسرحية، وهو يلقي على الأمير نظرة خاطفة مائلة من عينه الزرقاء كممثل عتيق يريد أن يحكم على التأثير الذي يخلفه. «تدرك

أيّها الأمير أنني لا أودّ أن أدع لشخصيّة بمثل شهرة شخصكم أن تنجرّ إلى جولة خاسرة سلفاً. فانّي أرى من الحكمة أن تمتنع مادامت أفكار زملائي متخلفة إلى هذا الحدّ. وصدّق على أيّة حال أنني إن رأيت في يوم روحاً أكثر جدّة بقليل، أكثر حيوية بقليل، ترتسم خطوطها في هذا المجمع الذي ينزع إلى أن يصبح مقبرة كبيرة، وإن توقعّت حظاً ممكنا لك فسوف أكون أوّل من يخطرك بالأمر.».

وفكر الأمير في نفسه قائلاً: «إن وشاح «القدّيس اندراوس» غلطة، والمفاوضات لم تحقق خطوة واحدة. ما هذا ما كان يريد، ولم أضع يدي على المفتاح الصحيح.»

كان ذلك ضرباً من المحاكمة ربّما توافرت القدرة عليه للسيد «دو نوربوا» الذي نُشّئ في مدرسة الأمير نفسها. ويمكن لنا أن نسخر من الغباء المتحذلق الذي يؤخذ به دبلوماسيون من أمثال «نوربوا» إزاء عبارة رسمية تكاد لاتعني شيئاً . ولكنّ لصبيانيتهم ما يقابلها: فالديبلوماسيون يعلمون أنّ المشاعر الطيّبة والخطب الجميلة والتوسلات هينّة الوزن في الميزان الذي يضمن هذا التوازن الأوروبي أو غير الأوروبي الذي يدعونه السلام، وأن الوزن الثقيل والحقيقي والحاسم قوامه أمر آخر، قوامه القدرة التي يملكها الخصم، إن كان على قدر كاف من القوّة، أو لا يملكها في إرضاء رغبة ما بوسيلة المبادلة. إن هذا النوع من الحقائق، الّذي ربّما لم يدركه شخص خالي الغرض تماماً شأن جدّتي مثلاً، كثيراً ما واجهه السيد «دو نوربوا» والأمير «فون....». فقد كان السيد «دو نوربوا» يعلم تمام العلم، وهو قائم بالأعمال في بلدان كنّا قاب قوسين أو أدنى من إعلان الحرب عليها، ويساوره القلق من جرّاء الاتّجاه الذي توشك الأحداث أن تتخذه، كان يعلم أنّها لن تبلّغ إليه بلفظة «السلم» أو بلفظة «الحرب»، بل بكلمة أخرى تافهة في ظاهرها، مخيفة أو مباركة، يفلح الديبلوماسي في الحال في قراءتها بوساطة رموزه ويجيب عليها كيما يحافظ على كرامة فرنسه بكلمة أخرى في مثل تفاهتها ولكن وزير الامّة المعادية يبصر خلفها في الحال: «الحرب». بل إنّ الحوار الذي قد تملي فيه الأقدار كلمة «الحرب» أو كلمة «السلم» لم يجر بعامة، وفق عادة قديمة شبيهة بتلك التي كانت تضفي على أوّل تقارب بين شخصين نذر كلّ منهما نفسه للآخر شكل لقاء عارض في أثناء عرض مسرحي في مسرح القاعة الرياضية، لم يجرِ في مكتب الوزير بل على مقعد حديقة كان يمضي إليها الوزير والسيد «و نوربوا» إلى ينابيع مياه حارّة ليحتسيا من النبع أكواباً صغيرة من ماء استشفائي. كانا يلتقيان، بنوع من الاتفاق الضمني، ساعة الاستشفاء فيقومان معا بادئ الأمر ببضع خطوات في نزهة يعلم المتحاوران أنّها، خلف مظهرها الذي لايوحي بالخطر، مأساويّة كمثل أمر بالتعبئة العامة. وقد لجأ الأمير في قضية خاصة كهذا الترشيح إلى المجمع إلى طريقة الاستقراء نفسها التي صنعها في السلم وأسلوب القراءة نفسة من خلال رموز متناضدة.

وليس يمكن بالتأكيد الزعم بأن جدّتي وأمثالها النادرين وحيدون في جهلهم لهذا النوع من الحسابات. فوسطيّ البشرية ممّن يمارسون مهما حدّدت خطوطها سلفاً يلتقون جزئياً من جراء انعدام الحدس لديهم بالجهل الذي كانت تدين به جدّتي لتجرّدها الرفيع. ولابدّ في الغالب من الانحدار إلى الأشخاص الذين يجري الاتفاق عليهم، رجالاً أو نساء على السواء، كيما يقع علينا أن نبحث عن الدافع إلى العمل أو الأقوال الأكثر براءة في ظاهرها داخل المصلحة وضرورة العيش. فمن ذا لايعلم، حينما تقول له امرأة يزمع أن يدفع لها: «دعنا من حديث المال»، أن هذه العبارة ينبغي أن تعدّ، حسبما يقال في لغة الموسيقى، بمثابة «فاصل صامت»، وأنّها إن صرّحت له فيما بعد قائلة: «لقد بعثت في نفسي الكثير من الغمّ، وكثيراً ما أخفيت عنّي الحقيقة، لقد طفح

الكيل»، فينبغي أن يفسّر: «إن حامياً آخر يعرض عليها أكثر»؟ على أن الأمر ههنا لايعدو كونه لغة إمرأة لعوب قريبة إلى حدّ من نساء المجتمع الراقي. إن قطاع الطرق يزوّدوننا بأمثلة. أكثر إثارة. ولكن السيد «دو نوربوا» والوزير الألماني قد تعوّدا، إن كان قطاع الطرق غير معروفين لديهما، قد تعوّدا العيش على مستوى الشعوب نفسه، وهي على الرغم من عظمتها كائنات تداخلها الأنانية والمكر ولا تتمّ السيطرة عليها إلاّ بالقوة وبالنظر إلى مصلحتها التي يمكن أن تصل بها إلى القتل، وهو قتل رمزي في الغالب، إذ يمكن أن يعني محض التردّد في القتال أو رفض القتال بالنسبة إلى شعب ما «الهلاك». ولما كان كلّ ذلك غير وارد في مختلف «الكتب الصفراء» وغيرها فالشعب من دعاة السلام القانعين. وإن كان نزوعاً إلى الحرب فبالغريزة ومن جرّاء الحقد والحفيظة لا من جرّاء الأسباب التي دفعت رؤساء الدولة الذين تمّ إخطارهم عن طريق أمثال «نوربوا».

في الشتاء التالي مرض الأمير مرضاً شديداً وشفي، ولكن قلبه ظلّ مصاباً إصابة لا اشفاء لها. وقال في نفسه: «ويحي! ينبغي ألاّ أضيع الوقت بالنسبة إلى المجمع، لأني إن طال بي الزمن سأوشك أن أموت قبل تعييني، وسيكون الأمر مزعجاً حقاً».

فقام بدراسة حول السياسة في العشرين سنة الأخيرة لصالح «مجلة العالمين» وأعرب فيها مرّات عديدة عن أكثر العبارات إطراء للسيد «دو نوربوا». وذهب هذا الأخير لزيارته وشكره. وأضاف أنّه لايدري كيف يعرب عن امتنانه. وقال الأمير في نفسه، شأن من أقدم على تجربة مفتاح آخر من أجل أحد الأقفال: «ما هذا أيضاً هو المفتاح» وفكر إذ شعر بأنه فقد أنفاسه بعض الشيء وهو يشيع السيّد «دو نوربوا»: «تبا لهم، فسوف يوردني هؤلاء الماجنون حتفي قبل أن يأذنوا بدخولي. فهيا نسرع.»

وفي المساء نفسه التقي بالسيد «دو نوربوا» في الأوبرا، فقال له: «كنت تقول لي هذا الصباح، أيّها السفير العزيز، إنّك لاتدري كيف تبرهن لي عن اقرارك بالجميل. ذلك من المبالغة الكبيرة لأنّك لاتدين لي بأي شيء من هذا القبيل، ولكنني سأبدي قلة ذوق في قبول العرض في الحال.».

لم يكن السيد «دو نوربوا» أقلّ تقديراً للباقة الأمير من الأمير للباقته. وأدرك في الحال أن الأمير «دو فانتهايم» ما كان يزمع أن يتقدمّ إليه بطلب، بل بعرض وأعدّ نفسه ببشاشة للإصغاء إليه:

— «دونك، سوف تجدني قليل التحفظ إلى حدّ بعيد. ثمة شخصان أنا شديد التعلق بهما، وعلى نحو مختلف تماماً مثلما ستدرك ذلك، وقد أقاما منذ قليل في باريس حيث اعتزما العيش من الآن فصاعداً، وهما زوجتي والدوقة الكبيرة «جان». وسوف تقدّمان بعض الولائم ولاسيّما على شرف ملك انكلترا وملكتها. ولعلّ ما تحلمان به أن يمكنهما تقديم شخصية لمدعوّيهما تكنّ كلاهما لها، دون معرفة بها، إعجاباً عظيماً. وإنّي أقرّ أني لا أدري كيف أفعل لتلبية رغبتهما حينما علمت لتوّي بمحض المصادفة أنّك تعرف هذه الشخصية. إني أعرف أنها تعيش في عزلة شديدة ولاتبغي التقاء سوى القليل من الناس، وياسعد هذا القليل. ولكن، إن أنت ساندتني إلى جانب ما توليني من عطف، فأني متيقن أنّها سوف تأذن بأن تقدمّني في منزلها وأن أنقل إليها رغبة الدوقة الكبيرة والأميرة. وربما ارتضت المجيء لتناول طعام العشاء مع ملكة انكلترة، ومن يدري، لقضاء عطلة الفصح معنا، إن كنّا لا نزعجها كثيراً، لدى الدوقة الكبيرة «جان» في محلة «بوليو». إنّ هذه الشخصية تدعى المركيزة «دو فيلباريزيس». وإني أقرّ بأنّ أملي في أن أضحي واحداً من روّاد مثل هذا المنتدى

الفكري قد يحمل إليّ العزاء ويجعلني أفكر دون غمّ في التخلي عن ترشيح نفسي إلى المجمع. ففي منزلها كذلك يتداولون العقل والأحاديث الظريفة».

وأحس الأمير بغبطة لاتوصف بأنّ القفل لايقاوم وأن هذا المفتاح قد دخل فيه.

وأجاب السيد «دو نوربوا» قائلاً: «إن خياراً كهذا لاجدوى منه أيها الأمير العزيز، فليس ما يتوافق والمجمع أكثر من المنتدى الذي تتحدّث عنه وهو منبت حقيقي للمجمعيين. سوف أنقل طلبك إلى السيدة المركيزة «دو فيلباريزيس» وستغتبط لذلك بالتأكيد. فأما أن تذهب للعشاء في منزلك، فإنها قليلاً ما تغادر منزلها وربما كان الأمر أكثر صعوبة. ولكني سأعرّف بك وتتولى بنفسك الدفاع عن قضيتك. إلاّ أنّه ينبغي لك على وجه الخصوص ألاّ تتخلى عن المجمع ، وإنّي بالضبط أتناول طعام الغداء بعد خمسة عشر يوماً من الغد في منزل «لوروا بوليو» الذي لايمكن أن يتمّ انتخاب بمعزل عنه كيما أرافقه بعدها إلى جلسة هامّة. وقد سبق لي أن أوردت اسمك في حضرته وهو يعرفه بالطبع أتّم المعرفة. لقد أطلق بعض الاعتراضات، ولكنّما يتفق أنّه بحاجة إلى مساندة جماعتي في عملية الانتخاب المقبلة وإنّي عازم على إعادة الكرّة. سأقول له بمنتهى الصراحة عن الروابط الودّية تماماً التي تجمع بيننا ولن أكتمه أنّني سأطلب إلى جميع أصدقائي التصويت إلى جانبك إن قدّمت ترشيحك (وزفر الأمير زفرة ارتياح عميقة) وهو يعلم أنّ لي أصدقاء. وأحسب، إن أفلحت في ضمان مساعدته، أنّ احتمالات نجاحك ستصبح جديّة. فتعال في ذلك المساء في الساعة السادسة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» فسأقدمك ويمكنني أن أطلعك على مضمون مداولتي في الصباح».

وهكذا تمّ للأمير «دو فافنهايم» أن يجيء لزيارة السيدة «دو فيلباريزيس». وأصابتني خيبة أمل عميقة حينما تكلم. فلم يخطر لي، إن كان لعصر معين سمات خاصة وعامة أقوى مما يتفق لجنسيّة ما إلى حدّ أنّ «لايينتس» بشعره المستعار وياقته ذات الكشاكش قليلاً ما يختلف عن «ماريفو» أو صامويل بيرنار» في معجم مصوّر يزوّدونك فيه حتى برسم حقيقي لـ«مينيرڤا»، لم يخطر لي أن جنسية ما تحمل سمات أقوى من طبقة اجتماعية مغلقة. ولكنّها استبانت أمامي لابخطاب ظننت سلفاً أنّني سأسمع فيه حفيف جنيات الهواء ورقص جنيات الكهوف، بل بتبديل صوتي ما كان أقلّ توكيداً لهذا المنشأ الشاعري وقوامه أن أمير «الراين» قال وهو ينحني في حضرة السيدة «دو فيلباريزيس». محمراً مكرشاً: «صباح الخير، سيدتي المركيزة» باللهجة نفسها التي لبوّاب ألزاسيّ.

وقالت لي السيدة «دو غيرمانت» رغبة منها في أن تكون لطيفة ما أمكنها اللطف: «ألا تودّ أن أعطيك كوباً من الشاي وشيئاً من «التورته»، إنّها طيبة جداً. إني أرحب بضيوف البيت وكأنه بيتي»، تضيف قولها بلهجة ساخرة تضفي على صوتها شيئاً من التقعير كما لو أنّها كتمت ضحكة خشنة.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس». للسيد «دو نوربوا»: «هل ستفطن بعد قليل ياسيدي أنّ لديك شيئاً تقوله للأمير بشأن المجمع»؟

وخفضت السيدة «دو غيرمانت» عينيها ورسمت ربع دائرة بمعصمها لتنظر إلى الساعة.

– «آه! يا الهي، لقد آن أن أستودع عمتّي إن انبغي لي أن أمرّ لدى السيدة «دو سان فرّيئول» وأتناول

طعام العشاء في منزل السيدة «لوروا».

ونهضت دون أن تودِّعني. فقد لمحت لتوّها السيدة «سوان» التي بدا عليها بعض الارتباك من جراء ملاقاتي. فلا بدّ أنّها تذكرت أنّها قالت لي قبل أي شخص آخر إنهّا على يقين من براءة «دريفوس».

وقال لي «سان لو»: «لا أريد أن تقدّمني أمي للسيدة «سان»، فإنها مومس سابقة، وزوجها يهودي وهي تتظاهر بالوطنية. انظر، هوذا عمّي «بالاميد».

كان حضور السيدة «سوان» يرتدي بالنسبة إليّ أهمية خاصة ناجمة عن أمر جرى قبل بضعة أيام ومن الضروري أن أرويه بسبب النتائج التي ستنجم عنه فيما بعد والتي سنتابعها في تفاصيلها عندما يحين الوقت. فقد اتفق لي قبل هذه الزيارة ببضعة أيام زيارة أخرى ما كنت أتوقعها، وزيارة «شارل موريل» ابن الخادم السابق لشقيق جدّي، وكان مجهولاً لديّ. وكان شقيق جدّي هذا (الذي سبق أن شاهدت لديه السيدة ذات الأثواب الوردية) قد توفي في السنة السابقة، وقد أعرب خادمه عدّة مرّات عن عزمه في أن يجيء لزيارتي. لم أكن أعلم هدف زيارته ولكنّي ربما رأيته بطيبة خاطر إذ علمت على لسان «فرانسواز» أنّه ظلّ يبدي تعلقاً حقيقياً بذكرى عمي ويقوم في كل مناسبة بزيارة المقبرة. ولكنه أوفد إليّ ابنه وقد اضطرّ أن يذهب للتداوي في بلده ويتوقع أن يمكث فترة طويلة هناك. ودهشت أن أبصرت فتى جميلاً في الثامنة عشرة يدخل، وملابسه توحي بالغنى أكثر منها بالذوق، على أنّه كان يظهر بمظهر أيّ شيء فيما عدا مظهر الخادم. وقد أصرّ منذ البداية على أيّة حال أن يقطع الاتصال بعالم الخدمة الذي كان ينحدر منه إذ أطلعني وعلى فمه بسمة الرضى أنّه يحمل جائزة المعهد الموسيقيّ الأولى. وكان هدف زيارته هو الآتي: كان والده قد وضع جانباً، من بين تذكارات عمّي «أدولف»، عدداً منها حكم أنّه لايليق إرسالها لذويّ ولكنّ من شأنها، فيما يظنّ، أن تثير اهتمام شاب في مثل سني. كانت تلك صور الممثلات الشهيرات والغانيات الكبيرات اللواتي عرفهنّ عمّي، الصور الأخيرة لحياة الماجن العجوز تلك التي كان يفصلها عن حياته العائلية بحاجز منيع. وفيما كان «موريل» الشاب يريني إياها تبينت أنّه يتكلف التحدّث إليّ حديث الندّ للندّ. كان يحس، في قوله «أنت» وأقل ما يمكن «يا سيد»، متعة من لم يستخدم والده قطّ في حديثه مع ذويّ سوى صيغة الغائب. كانت جميع الصور الفوتوغرافية تقريباً تحمل عبارة إهداء من مثل: «إلى أفضل صديق لي». ولكنّ ممثلة أكثر عقوقاً وأوفر فطنة كتبت: «إلى أفضل الأصدقاء»، الأمر الذي كان يسمح لها، فيما أكدوا لي، أن تقول: إن عمي لم يكن البتة، وإلى حدّ بعيد على وجه التقريب، أفضل صديق لها، بل الصديق الذي أدّى لها أكثر الخدمات الصغيرة، الصديق الذي كانت تستخدمه، رجل ممتاز وما يقارب الحيوان العجوز. وعبثاً كان «موريل» الشاب يحاول الهروب من نسبه فقد كنت تحس أنّ طيف عمي «أدولف» ظلّ يرفرف، جليلاً هائلاً في نظر الخادم العجوز، يرفرف بما يشبه القدسية فوق طفولة الابن وشبابه. وفيما كنت أشاهد الصور كان «شارل موريل» يتفحص غرفتي. ولما كنت أبحث أين يمكنني أن أجمعها، قال لي (بلهجة لم تكن الملامة بحاجة إلى الظهور فيها لكثرة ما تبدو في العبارات نفسها): ولكن كيف يتفق ألاّ أرى صورة لعمك في غرفتك؟» وشعرت بالحمرة تكسو وجهي وتمتمت قائلاً: «أظن أن ليس لديّ صورة.» –«كيف، لا تملك صورة واحدة لعّمك «أدولف» الذي كان يحبّك إلى هذا الحد! سوف أبعث إليك بواحدة آخذها من بين الكميات التي في حوزة الوالد وآمل أنّك ستضعها في مكان الصدارة فوق هذا الصوان الذي جاءك بالضبط من عمّك.» صحيح أنّه لم يكن ثمة ما يثير

في ألاّ يكون في غرفتي صورة لعمي «أدولف» بما أني لم أكن أملك فيها حتى صورة لوالدي أو لوالدتي بيد أنه لم يكن من العسير الاحساس بأن عمّي كان في نظر «موريل»، الذي علّم ابنه هذه النظرة إلى الأمور، الشخصية الهامة في العائلة ومنه يستقي والداي ألقاً مقلّصا. كنت أكثر حظوة لأن عمي كان يقول كلّ يوم لخادمه إنني سأضحي ما يشبه «راسين» و«فولابيل» وكان «موريل» يعدني تقريباً بمثابة ابن بالتبنّي لعمي وولده المختار. وسرعان ما تبينت أنّ ابن «موريل» كان وصوليا. من ذلك أنّه سألني في ذلك اليوم، بما أنّه كان ملحناً بعض الشيء وقادراً على تلحين بعض الأشعار، أن كنت لا أعرف شاعراً يتمتّع بمكانة هامة في دنيا الارستقراطيين. فذكرت له أحدهم. ولم يكن يعرف أعمال هذا الشاعر ولم يسمع باسمه قطّ قدوّنه. إلاّ أنني علمت أنّه كتب إلى هذا الشاعر بعد ذلك بقليل ليقول له إنّه معجب متحمس لاعماله وإنّه وضع موسيقى لإحدى مقطوعاته الشعرية وسوف يسعده أن يقدّم مؤلف الكلمات وصلة إلقاء في منزل الكونتيسة (...). كان ذلك من قبيل التسرّع وإماطة اللثام عن خطته. ولم يجب الشاعر وقد جرحت كبرياؤه.

وقد بدا على أيّة حال أنّ «شارل موريل» كان يملك إلى جانب طموحه ميلاً قوياً إلى صنوف من الواقع أكثر حسيّة. فقد لاحظ في الباحة ابنة شقيق «جوبيان» وهي تخيط صدرية، ومع أنّه اقتصر على القول بأنّه يحتاج بالضبط إلى صدرية من النوع الغريب فقد أحسست أنّ الفتاة خلفت في نفسه انطباعاً قوياً. ولم يتردّد بأن يسألني أن انزل وأعرّف به، «لا بالنسبة إلى موقعي في أسرتك، أنت تعي ذلك، فإني اعتمد على تكتّمك فيما يخصّ والدي، قل فقط إنّه فنان كبير من أصدقائك، فلا بدّ، كما تدرك، من أن تخلف انطباعاً طيباً في نفس التجار». ومع أنّه ألمح إليّ بأني استطيع، إذ لا أعرفه معرفة كافية كيما أدعوه «صديقي العزيز»– وهو يدرك ذلك–، أن أقول له في حضرة الفتاة شيئاً ما لا من نحو «معلّمي العزيز... مع أنّه، «بل. إن حسن ذلك في عينيك، عزيزي الفنان الكبير»، فقد تجنبت داخل المحل أن «أنعته»، كما لعلّ «سان سيمون» كان يقول، واكتفيت بأن أردّ على تأدّبه بتأدّب يقابله. ورأى بين قطع من المخمل قطعة من حمرة فاقعة صارخة إلى حدّ أنّه لم يستطع قطّ ارتداء تلك الصدرية فيما بعد على الرغم ممّا به من ذوق رديء. وعادت الفتاة إلى الشغل مع تلميذتيها، إلاّ أنّه بدا لي أنّ الانطباع كان متبادلاً وأنّ «شارل موريل» الذي حسبته «من عالمي» (ولكنه أكثر أناقة وأوفر ثراء) قد راقها إلى حد بعيد. ولما دهشت أشدّ الدهشة أن عثرت بين الصور التي بعث بها إليّ والده على صورة لرسم الآنسة «ساكريبان» (يعني «أوديت») بريشة «ايلستير»، قلت لـ «شارل موريل» وأنا أرافقه حتى المدخل الرئيسي: «أخشى أنّك لن تستطيع تزويدي بمعلومات. هل كان عمي يعرف هذه السيدة تمام المعرفة؟ لست أرى في أيّة فترة من حياة عمي يمكن أن أحدد موقعها، والأمر يهمني بسبب السيد «سوان»... – «لقد فاتني بالضبط أن أقول لك إنّ والدي أوصاني بلفت انتباهك إلى هذه السيدة. فقد كانت هذه المرأة اللعوب تتناول طعام الغداء في منزل عمّك في آخر يوم رأيتها فيه. وظلّ والدي لايدري إن هو يستطيع إدخالك. ويبدو أنك حسنت كثيراً في عيني تلك المرأة الطائشة وكانت تأمل أن تلقاك ثانية. بيد أن نفوراً وقع بالضبط في ذلك الوقت داخل الأسرة، حسبما قال لي والدي، وما عدت رأيت عمّك البتّة.» وابتسم في تلك اللحظة كي يودّع من بعيد ابنة شقيق «جوبيان». كانت تنظر إليه وتتأمل بإعجاب دونما شكّ محيّاه النحيل ذا الخطوط المنتظمة وشعره الخفيف وعينيه المرحتين. أما أنا فكنت أفكر في السيدة «سوان» فيما أشدّ على يده، وكنت أقول في نفسي مستعجباً إنه لابدّ لي منذ الآن أن أماثل بينها وبين «السيدة ذات الأثواب الوردية»، أقول مستعجباً لشدة ما تنفصلان وتختلفان في ذاكرتي.

وسرعان ماجلس السيد «دو شارلوس» إلى جانب السيدة «سوان».فقد كان يسارع في سائر الاجتماعات التي يحضرها، متعالياً مع الرجال محاطاً بالنساء، إلى الالتحام بأكثرهن أناقة فيحس أنها تكلله بزينتها. كانت سترة البارون الرسمية أو لباسه الرسمي يجعلانه شبيهاً بتلك الرسوم التي نجح في خطها فنان ألوان عظيم لرجل يرتدي السواد ولكنما بالقرب منه على كرسي معطف زاه يزمع ارتداءه إلى حفلة راقصة تنكرية. كانت هذه المقابلة الانفرادية، وهي بعامة مع صاحبة سموّ، توفر للسيد «دو شارلوس» صنوفاً من الامتياز يتعشقها. فقد كان من نتائجها مثلاً أن تسمح سيدات المنازل أن يكون للبارون وحده في حفلة ما كرسي أمامي في صف سيدات في حين يتدافع باقي الرجال في الركن القصي. وكان السيد «دو شارلوس» إلى ذلك في حلّ. وقد استغرق أشدّ الاستغراق، فيما يبدو، في رواية حكايات مسلية للسيدة المفتونة وبأعلى صوته، من المبادرة إلى تحية الأخريات، وبالتالي من الالتزام بواجبات يؤدّيها. وخلف الحاجز المطيب الذي ترفعه من حوله الجميلة المصطفاة كان معزولاً وسط صالة وكأنما وسط قاعة مسرح في مقصورة، وحينما يبادرون لتحيته، وكأنما من خلال جمال رفيقته، كان معذوراً أن يجيب باقتضاب شديد ودون أن يتوقف عن محادثة امرأة. لم تكن السيدة «سوان» بالتأكيد في مرتبة النساء اللواتي يحبّ أن يبرز على هذا النحو إلى جانبهنّ، ولكنما كان جاهز بإعجابه بها وبصداقته لـ«سوان» ويعلم أنّها ستغتبط لاهتمامه بها ويغبطه بدوره أن تعرّض سمعته للخطر أجمل امرأة هناك.

كانت السيدة «دو فيلباريزيس» نصف راضية فحسب عن زيارة السيد «دو شارلوس» لها. وكان هذا الأخير يحبّ عمّته كثيراً مع أنّه يجد لها عيوباً كبيرة. ولكنّه كان يوجه إليها بين الحين والحين في سورة الغضب ولمآخذ وهمية، ودون أن يصعد في وجه نزواته، رسائل في غاية العنف يكشف فيها عن أمور صغيرة ما كان يبدو حتى ذاك أنّه لاحظها. ويمكنني أن أذكر هذه الواقعة، من بين أمثلة أخرى غيرها، لأن اقامتي في «بالبيك» قد أطلعتني عليها: فقد قبلت السيدة «دو فيلباريزيس»، في خشيتها ألا تكون حملت مايكفي من مال لتمديد فترة اصطيافها في «بالبيك» وإذ لاتحبّ، بما أنّها كانت بخيلة وتخشى المصروفات الفائضة عن الحاجة، أن تستقدم مالاً من باريس، أن يقرضها السيد «دو شارلوس» ثلاثة آلاف فرنك. واتفق أن أستاء من عمته لسبب واه فطالبها بها بحوالة برقية بعد ذلك بشهر واحد. فوصله ألفان وتسع مئة وتسعون وبضع فرنكات. ولما رأى عمته بعد بضعة أيام في باريس وتحدّث إليها حديثاً ودياً حملها بكثير من اللطف على ملاحظة الخطأ الذي ارتكبه المصرف المكلف بالإرسال. وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس». قائلة: «ولكن ليس ثمة من خطأ، فالحوالة البرقية تكلف ستة فرنكات وخمسة وسبعين.» فردّ السيد «دو شارلوس»: «آه! بما أنّ الأمر مقصود فهو على ما يرام. لقد قلت لك ذلك فقط فيما لو كنت تجهلينه لأنّ الأمر في هذه الحالة كان يمكن أن يغيظك لو فعل المصرف ما فعل مع أشخاص أقلّ ارتباطاً بك منّي.» «لا، لا، ليس من خطأ هناك.» وختم السيد «دو شارلوس» قوله مبتهجاً وهو يقبل برقة يد عمّته: «كنت تماماً على حقّ في حقيقة الأمر.» ولم يكن بالفعل حاقداً عليها وكان يبتسم فحسب إزاء هذه الدناءة الطفيفة. ولكنه سطر لها بعد ذلك بوقت قليل رسالة تفيض حنقاً ووقاحة إذ حسب أنّ عمّته كانت تريد أن تخدعه في أمر عائلي و«تحيك ضدّه مؤامرة كاملة» وفيما كانت هذه الأخيرة تختبئ بغباء خلف رجال أعمال اشتبه بالضبط أن تكون حالفتهم ضدّه. وأضاف في التعقيب قوله: «لن أكتفي بالانتقام، بل سأجعلك مضغة الأفواه. سوف أبادر منذ الغد إلى رواية قصة الحوالة البرقية والستّ فرنكات وخمسة وسبعين التي اقتطعتها من الثلاثة آلاف التي أقرضتك إيّاها، وذلك

على مسامع كلّ الناس، وسألحق بك العار.» وعوضاً عن ذلك بادر في الغد إلى طلب الصفح من عمّته «فيلباريزيس». آسفاً لرسالة ضمنها جملاً مقيتة بالحقيقة. ومن كان عساه يمكن أن يطلع على قصة الحوالة البرقية على أيّة حال؟ إن قصة الحوالة هذه إنما كان سيكتمها الآن إذ لا يبغي انتقاماً بل مصالحة صادقة. أمّا قبل ذلك، فقد رواها في كل مكان وهو على أحسن حال مع عمّته، لقد رواها دون خبث، للاضحاك ولأنّه كان التجسيد الحيّ للفضيحة. لقد رواها ولكن دون أن تعلم بذلك السيدة «دو فيلباريزيس».، حتى إنّها لما علمت من رسالته أنّه عازم على الحاق العار بها بفضح ظرف أعلن لها أنّها أحسنت صنعاً فيه ظنت أنّه خدعها آنذاك وأنّه يكذب وهو يتظاهر بحبه لها. لقد هدأ كلّ ذلك، ولكنما لم يكن يعلم كلّ منهما بالدقّة رأي الآخر فيه. والأمر هنا بالتأكيد أمر خلافات متقطعة خاص بعض بعض الشيء. أمّا خلافات «بلوك» وأصدقائه فكانت من نوع مختلف، ومن نوع آخر كذلك خلافات السيد «دو شارلوس»، مثلما سوف نرى، مع أشخاص غير السيدة «دو فيلباريزيس». تماماً. ولابدّ أن نتذكر مع ذلك أن الرأي الذي نحمله بعضنا عن بعض وعلاقات الصداقة والأسرة ليس فيها من أمر ثابت إلاّ في الظاهر، فهي على العكس أبدية الحركة كالبحر. من هنا جاء الكثير من شائعات الطلاق بين أزواج كانوا يبدون في ترابط تامّ ثم هم بعد قليل يتحدثون بحنان بعضهم عن بعض ؛ والكثير من الأحاديث الشائنة يقولها صديق عن صديق حسبناه لاينفصل عنه ونعود فنلقاه وقد صالحه قبل أن تسعنا العودة عن دهشتنا ؛ والكثير من انقلابات الأحلاف بين الشعوب في وقت قصير جدًا.

وقال لي «سان لو»: «يا إلهي، الحرارة ترتفع بين عمّي والسيدة «سوان». وأمي التي جاءت، ببراءتها، تزعجهما. فكل شيء طاهر في نظر الطاهرات.!»

كنت أنظر إلى السيد «دو شارلوس». كانت خصلة شعره الأشيب وعينه الضاحكة التي ترفع النظارة المفردة حاجبها وعروته بزهراتها الحمر تؤلف كأنما الرؤوس الثلاث المتحرّكة لمثلّث مضطرب ومدهش. ولم تخالفني الجرأة لتحيّته إذ لم تبدر منه أيّة إشارة نحوي. بيد أنّي كنت متيقنًا أنه رآني مع أنه لم يكن يلتفت صوبي. فقيما كان يروي قصّة للسيدة «سوان» التي يتهدّل معطفها الرائع الذي بلون زهر الثالوث حتى إحدى ركبتي البارون كانت عينا السيد «دو شارلوس» الشائحتان، وكأنّي بهما عينا بائع في الهواء الطلق يخشى من مجيء الشرطة، قد تحرّيتا بالتأكيد كلّ قسم في الصالة واكتشفتا كل الأشخاص الحاضرين فيه. وجاء السيد «دو شاتليرو» يقرئه السلام دون أن ينم شيء في وجه السيد «دو شارلوس» أنّه لمح الدوق الشاب قبل مثول هذا الأخير في حضرته. فهكذا كان السيد «دو شارلوس» في الاجتماعات الحاشدة إلى حدّما، شأن الاجتماع هذا، يحتفظ على نحو ثابت تقريباً بابتسامة لا اتجاه محدّدا لها ولا مقصد خاصاً فتجيء، وقد سبقت على هذا النحو تحيّات الوافدين، خلوا، حينما يدخل هؤلاء ساحتها، من أي دلالة تودّد لهم. وكان لابدّ لي مع ذلك من المبادرة إلى تحية السيدة «سوان». وبما أنّها لم تكن تعلم إن كنت أعرف السيدة «دو مارسانت» والسيد «دو شارلوس» فقد أبدت شيئاً من الجفاء وقد خشيت دون ريب أن أطلب إليها أن تعرف بي. فتقدّمت إذ ذاك صوب السيد «دو شارلوس» وأسفت في الحال لأنّه لابدّ كان يراني تماماً فلم يبد من ذلك شيئاً. وقد وجدت، ساعة انحنيت أمامه، إصبعاً بعيداً عن جسمه الذي كان يمنعني من الاقتراب منه بكامل طول ذراعه الممدودة، إصبعاً تخالها فقدت خاتماً اسقفياً تبدو وكأنما تقدّم لك مكانه المكرّس له لتقوم بتقبيله، ولا بدّ أني بدوت وكأنّي دخلت على غير علم من البارون وبطريق تحطيم للابواب يلقي عليّ مسؤوليته إلى ابتسامته الدائمة

وتبدّدها المخفل الخالي من الدلالة. وما كان من شأن هذا الفتور أن يشجع السيدة «سوان» كثيراً على الإقلاع عن فتورها.

وقالت السيدة «دو مارسانت» لابنها الذي أقبل لتحيّة السيد «دو شارلوس»: «كم تبدو متعباً ومضطرباً».

كانت نظرات «روبير» بالفعل تبدو بين الحين والحين وكأنّها تبلغ أعماقاً تغادرها في الحال شأن غوّاص بلغ القاع. وإنّما كان ذلك القاع الذي كان يؤلم «روبير» أشدّ الألم حينما يبلغه ويغادره في الحال ليعود إليه بعد لحظة، إنّما كان فكرة أنّه قطع علاقته بعشيقته.

وأضافت والدته وهي تداعب خدّه: «لا بأس عليك، لا بأس عليك، حسن أن أرى ابني الصغير.»

وإذ بدا أن هذا الحنان يزعج «روبير» جذبت السيدة «دو مارسانت» ابنها إلى أقصى الصالة حيث كانت بعض مقاعد من طراز «بوفيه» في فجوة مكسوّة بالحرير الأصفر تكتّل أغطيتها البنفسجية كأزهار سوسن تخضبّها الحمرة في حقل من الأزرار الذهبيّة. وإذ ألفت السيدة «سوان» نفسها وحيدة وأدركت أنّي أرتبط بعلاقة صداقة مع «سان لو» أشارت إليّ بالمجيء بالقرب منها. وما كنت أدري، إذ لم أرها منذ فترة طويلة، عمّا أحدّثها. ولم أغفل عن قبعتي بين جميع تلك التي كانت فوق السجادة، ولكنني كنت أتساءل بفضول لمن يمكن أن تكون قبعة لم تكن قبعة الدوق «دو غيرمانت» وفي بطانتها حرف «G» يعلوه التاج الدوقي. كنت أعرف من كان الزوّار جميعهم ولا أجد واحداً من بينهم يمكن أن تكون قبعته.

وقلت للسيدة «سوان» وأنا أشير إلى السيد «دو نوربوا»: «ما أقربه إلى القلب. صحيح أن « روبير سان لو» يقول لي إنّه ضرب من الوباء ولكن...».

فأجابت: «إنّه على حقّ».

ولما رأيت نظرتها ترتدّ إلى أمر كانت تكتمني إيّاه ضيقت عليها بالسؤال، فمضت بي إلى زاوية إذ ربّما سرّها أن تبدو وكأنّما يشغلها إلى حدّ بعيد واحد في هذه الصالة التي تكاد لا تعرف فيها أحداً. وأجابتني قائلة:

— «إليك ما أراد السيد «دو سان لو» أن يقوله لك، ولكن لا تُعدْ له القول، فربما وجدني غير حافظة للسرّ وإنّي أحرص على تقديره، فأنا كما تعلم «مثالية السلوك» إلى أبعد حدّ. لقد تناول «شارلوس» مؤخراً طعام العشاء في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ولست أدري كيف تمّ الحديث عنك. وقد روى السيد «دو نوربوا»، على حدّ قولهم، — والأمر سخيف فلا تشغل بالك لذلك إذ لم يوله أحد أهمية، فالكلّ يعلم تماماً على أيّ لسان يجيء الخبر — أنّك متزلف نصف مهزوز.»

لقد سبق أن رويت قبلاً عن ذهولي أن استطاع صديق لوالدي على نحو ما كان السيد «دو نوربوا» أن يتكلّم هكذا في حديثه عني. وانتابني ذهول أكبر أن علمتُ أن أنفعالي في ذلك اليوم البعيد الذي تكلّمت فيه عن السيدة «سوان» وعن «جيلبيرت» وكان معروفاً لدى الأميرة «دو غيرمانت» التي كنت أحسبها تجهلني. إن كلا من أعمالنا وأقوالنا ومواقفنا إنّما يفصله عن «العالم»، عن الناس الذين لم يدركوه مباشرة، وسط تختلف

نفاذيته إلى مالا نهاية وتظلّ مجهولة لدينا. ولما علمنا بالتجربة أنّ قولاً مهما، أيّ قول، تمنينا بشدة أن ينتشر (كتلك الأقوال المتحمسة جدًا التي كنت أجود بها فيما مضى للجميع وفي كل مناسبة حول السيدة «سوان» ظنًا مني أنّه سوف يكون بين الكثير من البذرات الصالحة المبثوثة واحدة ستنبت) إنما وقع له وفي الغالب بسبب رغبتنا نفسها أن وضع في الحال تحت المكيال، فكم كنّا بالأحرى بعيدين عن أن نصدّق أنّ هذه العبارة الصغيرة جدًا التي نسيناها، بل لم نتلفظ بها في يوم وتكوّنت في طريقها من جراء انكسار غير صحيح لعبارة مختلفة سوف يتّم نقلها، دون أن تتوقف مسيرتها في يوم، إلى مسافات لا نهاية لها- وحتى منزل الأميرة «دو غيرمانت» فيما يخص موضوعنا – وتمضي لتنشر المرح على حسابنا في وليمة الآلهة! إنّ ما نتذكّره من سلوكنا يظل مجهولاً لدى أقرب جيراننا ؛ أمّا ما نسينا أنّا قلناه أو حتى مالم نقله في يوم فينتقل ليثير الضحك حتى إلى كوكب آخر والصورة التي يكوّنها الآخرون عن حركاتنا وسكناتنا لا تشبه تلك التي نرسمها لذواتنا أكثر مما يشبه رسماً ما نقل «فاشل» عنه يقابل فيه مجال فارغ خطاً أسود واستدارة غامضة آخر أبيض. وقد يتفق على أيّة حال أن يكون ما لم يتم نقله إما خطأ وهمياً لا نبصره إلاّ بداعي الإعجاب بالنفس وأن ما يبدو لنا مضافاً إنّما يخصنّا على العكس على نحو جوهري إلى حدّ أنّه يفوتنا. حتى أنّ هذه المسوّدة الغريبة التي تبدو لنا قليلة الشبه بنا إلى حدّ بعيد إنّما تملك أحياناً نوع الحقيقة التي لصورة بالأشعة السينية، وهي قلّما ترضي بالتأكيد ولكنها عميقة ومفيدة. وليس ذلك سبباً كيما نتعرّف ذواتنا فيها. فمن تعوّد أن يبتسم في المرآة لمحيّاه الجميل وصدره الجميل سيتفق له، إن هم أروه صورتهما الشعاعية، حيال هذه السلسلة العظيمة المشار إليها على أنّها صورة له ذات الارتياب بالخطأ الذي يتفق لزائر معرض يقرأ في الدليل أمام رسم امرأة شابّة: «جمل نائم» . وكنت سأتبين فيما بعد هذا الفارق بين صورتنا حسبما يتم رسمها على يدنا أو على يد الغير، وذلك لدى آخرين غيري يعيشون عيشة راضية وسط مجموعة من الصور أخذوها لأنفسهم فيما تكشر من حولهم صور مخيفة تخفى عليهم بالعادة ولكنها تغرقهم في الذهول لو أرتهم إياها المصادفة قائلة لهم: «أولئك أنتم» .

لعلّني كنت سعدت منذ بضع سنوات أن أقول للسيدة «سوان» «لأي داع» كنت رفيقا إلى هذا الحدّ بالسيد «دو نوربوا» بما أن ذاك «الداعي» كان الرغبة في التعرّف بها. ولكنّي لم أعد أحس بذلك ولم أعد أحب «جيلبيرت» . وما كنت أفلح من جهة ثانية في مماثلة السيدة «سوان» بالسيدة ذات الأثواب الوردية التي رأيتها في طفولتي. وقد تكلمت لذلك عن المرأة التي كانت تشغلني في ذلك الوقت. فسألت السيدة «سوان» قائلاً:

– «هل رأيت لتوّك الدوقة «دو غيرمانت» ؟

ولما كانت الدوقة لاتحيي السيدة «سوان» فقد شاءت هذه الأخيرة أن تبدو وكأنها تحسبها امرأة لا شأن لها ولا ينتبه المرء لوجودها فأجابتني بلهجة متكدّرة وهي تستخدم لفظة مترجمة عن الانكليزية:

– «لست أدري، لم «أحقق» ذلك» .

على أني وددت لو أحصل على معلومات لا حول السيدة «دو غيرمانت» فحسب، بل حول جميع الذين كانوا يقربون منها، فسألت السيدة «دو فيلباريزيس» حمل السيدة «لوروا» ، في محاولة لتمثل حياة السيدة

«دو غيرمانت» تمثلاً دقيقاً، شأن مايفعل «بلوك» تماماً وبالافتقار إلى اللباقة الذي يبديه أناس يحاولون في حديثهم لا أن يحسنوا في عيون الآخرين بل أن يستوضحوا، كما يفعل الأنانيوّن، نقاطاً تهمّهم. فأجابت بازدراء متكلف:

– «أجل، أدري، ابنة تجّار الخشب الكبار. أدري أنّها تلتقي الآن أناساً، ولكني سأقول لك إنّي تقدّم بي السن كثيراً كيما أتخذ معارف جدداً. وقد عرفت أناساً ذوي خطر ولطف كبيرين إلى حدّ أحسب معه حقاً أن السيدة «لوروا» لن تضيف شيئاً إلى ما أملك.»

أمّا السيدة «دو مارسانت» التي كانت تقوم بدور وصيفة للمركيزة فقد قدّمتني للأمير ولم تكد تنتهي حتى كان السيد «دو نوربوا» يقدّمني بدوره وبأكثر العبارات حرارة. فربما وجد من اليسير أن يقوم بمجاملة إزائي لاتمس في شيء سمعته إذ تمّ التعريف بي بالفعل منذ قليل ؛ وربّما لأنّ الغريب، وإن يكون مشهوراً، أقلّ اطلاعا على الصالات الفرنسية ويمكن أن يحسب أنّهم يعرّفونه بشاب من علية القوم ؛ وربما لممارسة واحد من امتيازاته، وهو أن يضيف ثقل توصيته الخاصة بوصفه سفيراً، أو بداعي نزعة إلى الأسلوب القديم في القيام على شرف الأمير بأحياء عادة ترضي كبرياء صاحب السموّ وهي ضرورة أن يكون ثمة عرّابان إن شاء المرء أن يُقدم له.

وصاحت السيدة «دو فيلباريزيس» بالسيد «دو نوربوا» وقد أحست بحاجة أن تقول لي على لسانه إنّه ما كان لها أن تأسف لأنّها لا تعرف السيدة «لوروا».

– «أليس أنّ السيدة «لوروا»، يا سيدي السفير، امرأة لا شأن لها وأدنى بكثير من جميع اللواتي يتردّدن إلى هنا وأنّي على حقّ في أني لا أستميلها؟»

واكتفى السيد «دونوربوا»، إمّا بداعي الاستقلالية أو الإرهاق، بأن يجيب بتحيّة تفيض احتراماً ولكنّها خالية المدلول.

وقالت له السيدة «دو فيلباريزيس» ضاحكة: «ثمة أناس يثيرون السخرية إلى حدّ كبير. هل تصدّق يا سيدي أن رجلاً قد زارني اليوم وشاء أن يحملني على الاعتقاد بأنّه يحس متعة أكبر في تقبيل يدي منه في تقبيل يد امرأة شابة؟»

وفهمت في الحال أنّها تعني «لوغراندان». وابتسم السيد «دو نوربوا» بغمزة خفيفة من عينه كما لو كان الأمر ملذّة طبيعية إلى حد لا يمكن معه أن نحمل على من يشعر بها وما يقارب أن يكون بداية رواية نبدي استعداداً لأن ننفر لها، وحتى أن نشجعّها، بتسامح شيطاني على طريقة «فوازنون» و«كريبيون» الابن.

وقال الأمير وهو يشير إلى اللوحات المائية التي باشرتها السيدة «دو فيلباريزيس»: «قد تعجز أيدي الكثيرات من النساء الشابات عن صنع ما شاهدت هنا.»

ثمّ سألها إن كانت شاهدت أزهار «فانتان لاتور» التي عُرِضَتْ منذ قليل.

وصرّح السيد «دو نوربوا» قائلاً: «إنّها من الطراز الأول وهي، كما يقولون اليوم، من ريشة رسام مرموق، ريشة واحد من أساتذة الممزجة. غير أنّي أرى أنّها لاتستطيع احتمال المقارنة مع أزهار السيدة «دو فيلباريزيس» التي أتعرّف فيها أكثر من تلك ألوان الزهرة.»

وحتى لو افترضنا أنّ تحيّز العشيق السابق وعادة التزلف والآراء المسلم بها في جماعة مغلقة قد أملت تلك الأقوال على السفير السابق فقد كانت تبرهن مع ذلك على أي انتقاء حقيقي في الذوق يرتكز حكم أهل المجتمعات الراقية الفنّي، وهو اعتباطي إلى حدّ أن النزر اليسير يمكن أن يبلغ به أسوأ صنوف السخافة التي لا يلاقي على دربها كيما يوقفه أيّ انطباع نابع من إحساس حقيقي.

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» باتضاع: «ليس لي أيّ فضل في معرفة الأزهار، فقد عشت أبداً في الحقول.» وأضافت بلطف وهي توجّه القول للأمير: «ولئن تسنت لي في حداثة سني أفكار أكثر جدية بقليل من أطفال الريف الآخرين فإني أدين بذلك لرجل بارز جدًا من شعبكم هو السيد «دو شليغل». لقد التقيت به في «بروي» حيث اصطحبتني عمّتي «كورديليا» (عقيلة المشير «دو كاستيلان»). وإنّي أتذكر تماماً أنّ السيد «لوبرون» والسيد «دو سافندي» والسيد«دو دان» كانوا يحملونه على الحديث عن الازهار وكنت بنية صغيرة جداً ولا أحسن تماماً فهم ما يقول. ولكنّه كان يلهو بملاعبتي، وبعدما عاد إلى بلادكم بعث إليّ بمجموعة عشبية جميلة تذكاراً لنزهة كنّا قمنا بها في عربة مكشوفة إلى محلّة «فال ريشيه» وقد أغفيت فيها على ركبتيه. لقد حافظت دوماً على هذه المجموعة العشبية وقد علمّتني أن ألاحظ الكثير من خاصيات الأزهار التي ما كانت لتسترعي انتباهي لولا ذلك. وحينما نشرت السيدة «دو بارانت» بضع رسائل للسيدة «دو بروي» جميلة بادية الصنعة على نحو ما كانت هي نفسها أملت أن ألقي فيها بعض أحاديث السيد «دو شليغل» تلك. ولكنّها امرأة ما كانت تبحث في الطبيعة إلاّ عن حجج في سبيل الدين.»

ودعاني «روبير» إلى أقصى الصالة حيث كان مع والدته. فقلت له: «كم كنت لطيفاً وكيف أشكرك؟ هل يمكن أن نتناول غداً طعام العشاء معاً؟»

– «غداً، إن شئت، ولكن برفقة «بلوك». لقد التقيت به أمام الباب. وبعد لحظة من الفتور لأنّني كنت غصباً عنّي قد تركت جانباً رسالتين له دون جواب (لم يقل لي إن ذلك ما جرح شعوره ولكنّي أدركت الامر)، أبدى من المودّة مالا يمكنني معه أن أبدي العقوق نحو صديق كهذا. وأحس أن ذلك سيظلّ بيننا، فيما يخصّه على الأقلّ، مدى الحياة وحتى الممات.»

ولا أحسب أنّ «روبير» كان على خطأ تامّ. فكثيراً ما كانت المذمّة لدى «بلوك» نتيجة مودّة قوية ظنّ أنّهم لايبادلونه إياها. ولما كان ضعيف التخيل لحياة الآخرين فلم يكن يخطر له أنّه يمكن للمرء أن يكون مريضاً أو على سفر، الخ، وسرعان ما يبدو له صمت دام ثمانية أيّام أنّه ناجم عن جفوة مقصودة. ولم أعتقد لذلك في يوم أن أسوأ صنوف عنف الصديق لديه، والكاتب فيما بعد، كانت على عمق كبير. لقد كانت تزداد حدّة إن قوبل فيها بجفاء وقور أو ببرودة تشجعه على مضاعفة ضرباته، ولكنّها تنهار في الغالب أمام حرارة المودّة. وتابع «سان لو» قوله: «فأما اللطف فإنك تزعم أنّني كنت لطيفاً معك، ولكني لم أكن لطيفاً

على الإطلاق، فعمتي تقول إنّك تتجنبها أنت وإنك لاتقول لها كلمة واحدة: وتتساءل إن كنت لا تضمر أمراً ضدّها.»

ولو وقعت ضحية هذه الأقوال لحال رحيلنا إلى «بالبيك» لحسن حظي، وكنت أحسبه وشيكاً، دون أن أحاول لقاء السيدة «دو غيرمانت» ثانية وأؤكّد لها أنّي لا أضمر شيئاً ضدّها وإن أضطرّها بذلك إلى أن تثبت أنّها هي التي تضمر شيئاً ضدّي. إلاّ أنّه لم يقع عليّ سوى أن أتذكر أنها لم تعرض عليّ حتى الذهاب لزيارة أسرة «ايلستير». وما كان ذلك على أيّة حال خيبة أمل، إذ ما توقعت على الإطلاق أن تكلّمني عن الأمر. كنت أعلم أنّي لا أروقها وأنّه لم يكن لي أمل في حملها على محبتي. واكثر ما أمكن أن أتمناه أن أحمل عنها، بفضل طيبتها، وبما أنّي لن أعود فأراها قبل مغادرتي باريس، انطباعاً كلّي الحلاوة آخذه إلى «بالبيك» ويتطاول إلى مالا نهاية ولاتمسة يد، بدلاً من ذكرى تمتزج بالقلق والكآبة.

كانت السيدة «دو مارسانت »تقطع في كل لحظة حديثها مع «روبير» لتقول لي كم كلمّها كثيراً عنّي وكم كان يحبني. لقد كانت تبدي لي من العناية ما كاد يورثني غمّا لأنني كنت أحس أنها إنّما تمليها الخشية التي بها أن تغضب بسببي من ذلك الابن الذي لم تكن بعد قد رأته اليوم والذي تستعجل أن تنفرد به والذي تحسب أن السلطان الذي تمارسه عليه لايوازي سلطاني ولابدّ أن يراعيه. واستعلمت السيدة «دو مارسانت» بعدما سمعتني قبلاً أسائل «بلوك» عن أخبار عمّه «نسيم بيرنار» إن كان ذاك الذي سبق أن سكن «نيس». وقالت: «لقد عرف فيها، في هذه الحالة، السيد «دو مارسانت» قبل أن يتزوّجني. وكثيراً ما حدّثني زوجي عنه على أنّه رجل ممتاز رقيق القلب كريم النفس.»

ولعلّه كان خطر لـ«بلوك» أن يقول: «عجباً أنّه لم يكذب هذه المرّة، ذلك أمر لا يصدّق».

كان بودّي دوماً أن أقول للسيدة «دو مارسانت» إنّ «روبير» يكنّ لها مودّة أعظم بما لايقاس ممّا يكنّ لي وأن ليس من طبعي محاولة استعدائه عليها وفصله عنها ولو أبدت لي العداء. ولكني أصبحت أكثر حرية في ملاحظة «روبير» منذ أن ذهبت السيدة «دو غيرمانت» وتبينت آنذاك فقط أن نوعاً من الغضب أخذ يبدو ثانية وكأنه يحتمل في صدره ويلوح على وجهه القاسي المتهجم. وكنت أخشى أن يشعر بالمذمة ازائي، لدى تذكّر شجار ما بعد الظهيرة، أن سمح بمعاملته معاملة قاسية إلى هذا الحدّ على يد عشيقته دون أن يردّ.

وتملص فجأة من والدته التي كانت قد لفت عنقه بذراعها وأقبل إليّ فقادني خلف منضدة السيدة «دو فيلباريزيس» المزهرة حيث كانت هذه الأخيرة قد جلست وأشار إليّ أن أتبعه إلى الصالة الصغيرة. وكنت ماضياً إليها بسرعة حينما فارق السيد «دو شارلوس» على نحو مفاجئ، ولعلّه حسبني ذاهباً باتجاه المخرج، السيد «دو فافنهايم» الذي كان يتحدث معه وقام بدورة سريعة قادته قبالتي. ورأيت بهلع أنّه أخذ القبعة التي خطّ في أسفلها حرف (G) وتاج دوقي. وقال لي في فتحة باب الصالة الصغيرة دون أن ينظر إليّ:

– «بما أنّني أراك الآن ترتاد المجتمع فتكرّم عليّ بأن تأتي لزيارتي.» وأضاف بهيئة الشارد المتحسب وكما لو تعلّق الأمر بمتعة كان يخشى ألاّ يعود فيلقاها بعدما تفلت من يده فرصة تنظيم وسائل تحقيقها معي: «ولكنّ الامر على شيء من التعقيد، فقليلاً ما أكون في منزلي ولابدّ من أن تكتب إليّ. على أني أفضل أن

أوضح لك ذلك بهدوء أكبر. إني أزمع الذهاب بعد لحظة فهل تسير خطوتين برفقتي؟ لن أستوقفك سوى لحظة.»

فقلت له: «يحسن بك أن تنتبه ياسيدي، فقد أخذت خطأ قبعة أحد الزائرين.»

– «مرادك أن تمنعني من أخذ قبعتي؟»

لقد افترضت، إذ اتفقت لي المغامرة قبل ذلك بقليل، أنه بعدما أخذ أحدهم قبعته لمح إحداها اتفاقاً كي لايعود حاسر الرأس وأنني كنت أحرجه بكشف حيلته. ولذلك لم ألحّ، وقلت له إنّه ينبغي لي أولاً أن أقول بضع كلمات لـ «سان لو»، وأضفت قولي: «إنّه يحادث دوق «غيرمانت» الأبله هذا». – «ظريف ما تقوله، وسوف أنقله لشقيقي.» – «آه! أتظنّ أن الأمر يمكن أن يثير اهتمام السيد «دو شارلوس»؟ (وكنت أتصور أنه، إن كان له أخ، فلا بدّ أن يدعى هذا الأخ بدوره «شارلوس». لقد سبق أن زوّدني «سان لو» ببعض الايضاحات بهذا الشأن في «بالبيك» ولكني نسيتها.) فقال لي البارون بلهجة وقحة: «ومن يحدّثك عن السيد «دو شارلوس»؟ هيا امضِ بالقرب من «روبير». إني أعلم أنك شاركت هذا الصباح في واحد من أغدية العربدة التي يقيمها بصحبة امرأة تلطّخ شرفه. وجدير بك أن تستخدم نفوذك عليه كي تحمله على إدراك الغمّ الذي يسببه لوالدته المسكينة ولنا جميعاً بتمريغ اسمنا في الوحل.»

وددت لو أجيب أنّنا لم نتحدث في أثناء الغداء الشائن إلاّ عن «إيمرسون» و«ايبسن» و«تولستوي» وأنّ المرأة الشابة قد حضتّ «روبير» على ألاّ يشرب غير الماء. وكيما أجهد في جلب بعض العزاء لـ «روبير» الذي ظننت كرامته قد جرحت حاولت أن أعذر عشيقته. ولم أكن أعلم أنه إنّما كان يوجه الملامة لنفسه في تلك اللحظة على الرغم من غضبه منها. ذلك أنّه يتفق دوماً حتى في المشاجرات بين صالح وشرّيرة وحينما يكون الحق بكليّته من جانب أن يكون ثمة إحدى الترّهات التي يمكن أن تبدي للشرّيرة أنها ليست مخطئة في نقطة معينة. وبما أنها تهمل جميع النقاط الأخرى، فإن أحتاج الصالح إليها أقلّ ما يحتاج وأضعف الهجر معنوياته فسيدخل ضعفه الوساوس إلى نفسه وسيتذكر صنوف اللوم اللامعقولة التي وجهت إليه ويتساءل إن لم يكن لها شيء من الأساس.

وقال لي «روبير»: «أظنني أخطأت في مسألة العقد هذه. أنا بالتأكيد لم أفعل ذلك بمقصد سيء ولكنّي أعرف تماماً أنّ الآخرين لايتخذون وجهة النظر نفسها التي نتخذها نحن. لقد عاشت طفولة قاسية جداً. وإنّما أنا في نظرها الغني الذي يعتقد أن المرء يبلغ كل شيء بماله والذي لايقوى الفقير على محاربته سواء في ذلك التأثير على «بوشرون» أو كسب دعوى أمام القضاء. ليس من شك أنّها كانت قاسية جداً، أنا الذي لم يبحث في يوم إلاّ عن خيرها. ولكنّي أتبيّن الأمر تماماً، إنّها تظنّ أني أردت أن أُشعرّها بامكان ربطها بالمال، وما ذلك بصحيح.

ما عساها تقول في نفسها هي التي تحبني أشدّ الحبّ! يا للعزيزة المسكينة، إن لديها، لو تدري، من صنوف الرقة، أنا لا أستطيع أن أقول لك، فكثيراً ما فعلت من أجلي أمور رائعة. كم ينبغي أن تكون تعيسة في هذه اللحظة! ومهما يكن من أمر، على أي حال، لا أريد أن تعدّني غليظ الفؤاد، وإنّي مسرع لدى «بوشرون»

لاحضار العقد. من يدري؟ ربما اعترفت بأخطائها ساعة تراني أفعل ما أفعل. ترى، هي فكرة أنّها تتعذّب في هذه اللحظة مالا أطيق احتماله! ما نحتمل من عذاب إنّما نعلمه وهو غير ذي بال. أما فيما يخصها، فأن نقول لأنفسنا إنّها تتعذّب ولا نستطيع تصوّر ذلك، أظنّني سأجنّ وأفضل ألاّ أعود فألقاها في يوم على أن أدعها تتعذّب. فلتكن سعيدة بمعزل عني إن وجب الأمر، فذلك كلّ ما أتمنّاه. اسمع، تدري، كلّ ما يمسها لاحدود له، في نظري، ويتخذ شيئاً من رحابة الكون. إني مسرع إلى الجواهري، وبعدها أسالها الصفح. وإلى أن أصل إلى هناك، ماعسى يمكن أن تفكر فيّ؟ لو أنه تعلم فحسب أنّي أزمع المجيء! يمكنك تحسباً لكلّ طارئ أن تجيء إلى بيتها، فمن يدري، ربما تمت تسوية كلّ شيء.» وقال مبتسماً وكأنما لايجرؤ على الاعتقاد بحلم كهذا: «ربما ذهبنا ثلاثتنا للمشاء في الأرياف. ولكنّما لانستطيع أن نعرف بعد، فاني لا أحسن معاملتها. يا للصغيرة المسكينة، ربما أزمعت أن أجرح شعورها أيضاً. وقد يكون قرارها قراراً لا رجعة فيه.»

ومضى بي «روبير» على نحو مفاجئ إلى والدته، وقال لها: «الوداع، إني مضطرّ إلى الرحيل، ولست أعلم متى أعود في اذن، ولن يكون ذلك قبل شهر دونما شك. سوف أكتب لك ما أن أعلم ذلك.»

لم يكن «روبير» بالتأكيد من أولئك الأبناء الذين يحسبون، إما وجدوا في المجتمع برفقة والدتهم، أنه لابدّ أن يوازي موقف ساخط إزاءها البسمات والتحيات التي يوجهونها للأغراب. فليس ما كان أكثر شيوعاً من ذلك الانتقام البشع يمارسه أولئك الذين يظنون أنّ الفظاظة تجاه الأهل إنما تكمل بالطبع البزّة الرسميّة. ومهما تقل الوالدة المسكينة فإن ابنها يرفع في الحال في وجهه التوكيد الذي صيغ بوجل قولاً مناقضاً ساخراً قاسياً كما لو اصطُحِبَ رغماً عنه وابتغى أن يكلفهم حضوره دفع ثمن مرتفع وتنضم الوالدة في الحال إلى رأي هذا الكائن المتفوق، دون أن تهدأ سورة غضبه لذلك. وتوالي الإشادة به في غيابه أمام الجميع على أنه ذو طباع عذبة، مع أنّه لايكفيها أيا من سهامه اللاذعة كأكثر ما تكون. كان «سان لو» من طينة مغايرة تماماً، بيد أنّ القلق الذي يبعثه غياب «راحيل» كان من نتيجته أنْ لم يكن أقلّ قسوة على والدته من هؤلاء الأبناء على أمهاتهم ولكن لأسباب مختلفة. ورأيت لدى الكلمات التي تفوّه بها الخفقة نفسها، وهي شبيهة بخفقة جناح، تلك التي لم تقو السيدة «دو مارسانت» على كتمها لدى وصول ابنها، تدفعها إلى الانتصاب بكامل قامتها. ولكنما كانت تثبت عليه الآن وجهاً قلقاً وعينين منتحتين.

— «عجباً، أنت ذاهب «يا روبير»؟ والأمر جديّ؟ ياولدي الصغير! وهو اليوم الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه لي!».

وأضافت بصوت خافت تقريبا وبلهجة طبيعيّة كأكثر ما تكون وبصوت تجهد أن تقصي منه أيه حزن كي لا توحي لابنها بأية شفقة قد تكون قاسية عليه أو غير مجدية ومن شأنها أن تغضبه فحسب، أضافت وكأنما تلك حجة صادرة عن سلامة التفكير:

— «تعلم أنّ ما تفعله ليس لطيفاً.»

ولكنها كانت تضيف إلى تلك البساطة قدراً كبيراً من الوجل كي تبدي له أنها لاتتجاوز حرّيته، وقدراً كبيراً من الحنان كي لا يأخذ عليها أنها تقف حائلاً دون متعه إلى حدّ لم يستطع «سان لو» معه ألاّ يتبينّ في

داخله إشفاقاً ممكناً، يعني عائقاً دون قضاء الأمسية مع صديقته. ولذلك أخذه الغضب:

— «ذلك مؤسف، أما أن كون لطيفاً أو غير لطيف، فالأمر هكذا.»

ووجّه إلى والدته اللوم الذي أحس دونما شك أنه ربما يستحقه ؛ إذ هكذا يملك الأنانيون أبداً الكلمة الفصل ؛ فانّهم يفترضون باديء الأمر أنّ عزمهم لايتزعزع، وبقدر ما يبدو الشعور الذي يستحثون به لثنيهم عن عزمهم مؤثراً بهذا القدر يشجبون، لا أنفسهم هم الذين يقاومون ذاك الشعور، بل أولئك الذين يفرضون عليهم ضرورة مقاومته، حتى إن قسوتهم يمكن أن تبلغ أقصى درجات الشراسة دون أن يفضي ذلك في نظرهم إلاّ إلى أن يزيد بالقدر نفسه من ذنب الشخص الذي يبدي من قله الذوق ما يكفي ليتألم ويكون على حقّ ويسبب لهم بذلك على نحو جبان ألم التحرّك ضدّ إشفاقهم ذاته. وقد كفت السيدة «دو مارسانت» على أيّة حال من تلقاء نفسها عن الإلحاح إذ أخذت تحس أنّها لن تستوقفه من بعد.

وقال لي: «إني أدعك، ولكن لاتستبقيه طويلاً يا أمي إذ ينبغي له أن يبادر بعد قليل إلى القيام بزيارة.»

كنت أحس تماماً أنّ وجودي لايمكن أن يجلب أيّة مسرّة للسيدة «دو مارسانت» ولكنّي كنت أفضل، إذ لا أرحل مع «روبير»، ألاّ تحسب أني أشارك في تلك المتع التي تحرمها إياه. وددت لو ألقى عذراً لسلوك ابنها، وذلك اشفاقاً عليها أكثر منّي مودّة له. ولكنها كانت أوّل من بادر إلى الكلام وقالت لي:

— «يا للصغير المسكين، إني على يقين من أنني بعثت الغم في نفسه. أرأيت ياسيدي، الأمهات أنانيات إلى أبعد حدّ. مع أنّه لايتوافر له الكثير من المتع، فما أقل ما يأتي إلى باريس. يا إلهي، وددت لو ألحق به إن لم يكن بعد قد ذهب، لا لأستبقيه بالتأكيد، بل لأقول له إني غير حاقدة عليه وإني أرى أنه كان على حقّ. ليس يزعجك أن أنظر على الدرج؟»

ومضينا حتى هناك. وصاحت: «روبير! روبير! لا، لقد ذهب وفات الأوان.»

لعلني كنت أخذت الآن على عاتقي مهمة أن أحمل «روبير» وعشيقته على قطع علاقتهما بمثل ما كنت أبديت من طيبة خاطر منذ بضع ساعات كيما يمضي للعيش معها كلياً. وربما حكم «سان لو» في هذه الحالة انني صديق خائن، ودعتني أسرته في الحالة الأخرى قرينها الشرير. مع أني كنت الرجل نفسه بفارق بضع ساعات.

وعدنا إلى الصالة، فبادلت السيدة «دو فيلباريزيس» ، إذ لم تبصر «سان لو» يعود، السيد «دو نوربوا» نظرة متشككة ساخرة دونما اشفاق كبير فيها، تلك التي نرسلها ساعة نشير إلى زوجة مفرطة الغيرة أو أم مفرطة الحنان (وكلتاهما توفرّ أن عرضاً هزلياً للآخرين) والتي تعني: «ويحك، لابدّ أنّ عاصفة هبّت هناك.»

ومضى «روبير» إلى منزل عشيقته يحمل إليها الجوهرة الرائعة التي ما كان يجدر به، بموجب اتفاقاتهما، أن يهبها إيّاها. على أنّ الأمر أفضى إلى النتيجة نفسها لأنها لم تقبل بها ولم يفلح البتة في حملها على القبول بها. كان بعض أصدقاء «روبير» يعتقدون أن أدلة التجرّد التي توفرّها كانت خطة ترمي إلى شدّة

إليها. بيد أنّها لم تكن متعلقة بالمال إلاّ بالقدر الذي يمكنها أن تصرف دون حساب فقد رأيتها تتصدّق كيفما تيسر لها وعلى نحو مجنون على أناس كانت تظنهم فقراء. وكان أصدقاء «روبير» يقولون له كيما يوازنوا بأقوالهم السيئة فعلة متجرّدة قامت به «راحيل»: «لابدّ أنّها الآن في ممرّ ملهى «الفولي بيرجير». إن «راحيل» هذه لغز ومستودع أسرار حقيقي». وكم من امرأة مغرضة، بما أنّه يتّم الانفاق عليها، نراها تقيم بنفسها ألف حاجز صغير دون كرم عشيقها تدفعها لباقة تورق وسط هذه الحياة!

كان «روبير» يجهل سائر خيانات عشيقته تقريباً ويعمل فكره في كلّ ما كان محض هنات تافهة في مقابل حياة «راحيل» الحقيقية، الحياة التي لم تكن تبدأ كلّ يوم إلاّ بعدما يفارقها بقليل. كان يجهل تقريباً كلّ خياناتها. وربما أمكن اطلاعه عليها دون أن يزعزع ذلك ثقته بـ «احيل» ؛ فذلك قانون للطبيعة رائع يبرز في صميم المجتمعات الأكثر تعقيداً وقوامه أن يعيش المرء في جهل كامل لما يحب. فالعاشق من جانب يقول في نفسه: «إنّها ملاك ولن تهبني نفسها في يوم، ولم يبق لي سوى الموت، على أنّها تحبني إلى حدّ أنها ربما... ولكن لا لن يكون الأمر ممكناً!» وفي ثورة اشتياقه وقلق انتظاره كم من الجوهرات يضع على قدمي هذه الامرأة وما أسرع ما يجري إلى افتراض المال ليجنبها الهمّ! أما الجمهور فيقول من جانب الحاجز الزجاجيّ الآخر الذي لن تمرّ عبره الأحاديث أكثر ما تفعل تلك التي يتبادلها المتنزّهون أمام حوض أحياء مائية: «ألست تعرفها؟ إني اهنئك على ذلك، لقد سرقت وهدّمت مالست أدري من الناس. إنّها محض محتالة. خدّاعة إلى ذلك!» وربما لم تكن هذه الصفة الأخيرة باطلة تماماً، فحتى الرجل المتريب الذي لايعشق حقاً هذه المرأة بل تروقه فحسب يقول لأصدقائه: «لاياعزيزي، ليست غانية على الإطلاق. أنا لا أنكر أنّها عرفت في حياتها نزوتين أو ثلاثاً، ولكنها ليست امرأة تشترى، أو أن الثمن مرتفع جدّا حينذاك. معها تدفع خمسين ألف فرنك أو لاشيء على الإطلاق.» وقد دفع، هو، خمسين ألفّ فرنك في سبيلها وحصل عليها مرّة، أما هي فقد أفلحت في إقناعه أنّه من بين الذين حصلوا عليها مقابل لاشيء إذ لقيت من أجل ذلك على أيّة حال شريكاً في داخله وفي شخص كبريائة. وهكذا فإن الشخص الأكثر افتضاحاً والأسوأ سمعة لن يتمّ لأحد في المجتمع أن يعرفه في يوم إلاّ في أقاصي ندرة طبيعية حلوة مستعذبة وفي حماها. وكان في باريس رجلان لاثقان لم يعد «سان لو» يحييهما ولايتحدّث عنهما دون أن يرتجف صوته ودون أن يدعوهما مستغلي نساء: «ذلك أنّهما تبدّدت ثروتهما على يد «راحيل».

وقالت لي السيدة «دو مارسانت» بصوت خافت: «لست ألوم نفسي إلاّ في أمر واحد، وهو أني قلت له إنّه لم يكن لطيفاً. هو، ذاك الابن الرائع الفريد الذي لامثيل له، أن أكون قلت له في المرّة الوحيدة التي ألقاه فيها إنّه لم يكن لطيفا، إني أفضل لو ضربت بالعصا لأنني متيقنه أنّه مهما أصاب من متعة في هذا المساء، هو الذي لايصيب الكثير، فسوف تودي بها تلك العبارة الظالمة. على أني لن استبقيك ياسيدي بما أنك في عجلة من أمرك.»

كل ما جاءت السيدة «دو مارسانت» على قوله لي كان يتعلق بـ «روبير». كان صادقاً. ولكنها كفت عن كونها صادقة لتعود من جديد سيدة كبيرة:

– «لقد شاقني وأسعدني جدّا ورافقني أن أتحدّث إليك قليلاً. شكراً! شكراً!»

وكانت تثبت عليّ، بادية الاتضاع، نظرات ممتنة منتشية كما لو كان حديثي احدى أعظم المتع التي عرفتها في حياتها. كانت تلك النظرات الرائعة تتناسب والزهرات السوداء على الفسطان الأبيض المعرّق، كانت نظرات سيدة كبيرة تتقن مهنتها.

– «لايمكنني الذهاب في الحال، فلابدّ أن انتظر السيد «دو شارلوس» الذي ينبغي لي أن أمضي معه.»

وسمعت السيدة «دو فيلباريزيس» هذه الكلمات الأخيرة، فبدا أنها تكدّرت. ولعله خيل إليّ أن ما بدا وكأنّه في ذعر لدى السيدة «دو فيلباريزيس» في تلك اللحظة إنّما كان الحياء، لو لم يدر الأمر حول مسألة لايمكن أن نردّها إلى شعور من هذا القبيل. ولكنّ تلك الفرضية لم تخطر حتى ببالي. فقد كنت مسروراً من السيدة «دو غيرمانت» و«سان لو» والسيدة «دو مارسانت» والسيد «دو شارلوس» والسيدة «دو فيلباريزيس» ، فما كنت أفكر وكنت أتحدّث بمرح وكيفما تيسر.»

وقالت لي: «أتزمع الذهاب مع ابن أخي «بالاميد» ؟

وإذ خطر لي أنّ ارتباطي بصداقة مع ابن اخ للسيدة «دو فيلباريزيس» كانت تقدّره إلى حدّ بعيد كان يمكن أن يورثها انطباعاً مشجعاً جدّاً فقد أجبت مغتبطاً: «لقد طلب إليّ أن أعود معه، ويغبطني الطلب. وإننا على كلّ حال أعمق صداقة مما تظنّين ياسيدتي وأنا عازم على كلّ شيء كيما نزداد ارتباطاً.»

وخيل إليّ أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» أضحت، بعد تكدّر، في هم، فقالت لي بهيئة المهتّم: «لاتنتظره، إنّه يتحدث إلى السيد «دو فافنهايم». ولم يعد يفكر في ما قاله لك. هيا امضِ وانتهز الفرصة بسرعة فيما هو يدير ظهره.»

ولم أكن فيما يخصني معجلاً في الذهاب للحاق بـ «روبير» وعشيقته. ولكنما بدا أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» كانت تصرّ إصراراً كبيراً على ذهابي إلى حدّ أني استودعتها وقد تبادر ربما إلى ذهني أنها ترغب التحدّث بمسائل هامة مع ابن شقيقها. كان السيد «دو غيرمانت» يجلس بتثاقل بالقرب منها، رائعاً إلهي المظهر. لكأنما كانت فكرة أمواله الكبيرة الماثلة في كلّ جزء من أعضائه، وكأن تلك الأموال قد أذيبت في البوتقة سبيكة بشريّة واحدة، كانت تضفي كثافة خارقة على هذا الرجل الذي يساوي الكثير الكثير. وساعة استودعته نهض بتأدب من مقعده وأحسست بكتلة الثلاثين مليوناً الجامدة المتراصة التي كانت التربية الفرنسية القديمة تحرّكها وترفعها تنتصب واقفة أمامي. كان يخيل إليّ أني أرى تمثال «جوبيتير» الأولمبي الذي صنعه «فيدياس» فيما يقولون من ذهب خالص. ذلك كان سلطان التربية اليسوعية على السيد «دو غيرمانت» ، على جسد السيد «دو غيرمانت» على الأقلّ، لأنّها لم تكن إلى ذلك تسيطر على عقل الدوق سيطرة مطلقة. فقد كان السيد «دو غيرمانت» يضحك لنكاته ولكنما لاتنفرج أساريره لنكات الآخرين.

وسمعت من الخلف صوتاً يصرخ بي في الدرج:

– «أعلى هذا النحو تنتظرني ياسيد» !

وكان السيد «دو شارلوس».

وقال لي بجفاء حينما أضحينا في الباحة: «ألا يضيرك أن نقوم ببضع خطوات سيراً على الأقدام؟ سنمشي إلى أن أجد عربة توافقني.»

– «كنت تريد أن تتحدّث إليّ ياسيدي؟»

– «أجل، بالتأكيد، كان لديّ بعض أمور أقولها لك، ولكني لا أدري تماماً إن كنت سأفعل. إني اعتقد بالطبع أنها قد تكون بالنسبة إليك نقطة انطلاق إلى مكاسب لاتقدّر بثمن. ولكني أستشف كذلك أنها قد تجلب في حياتي وفي سني التي يشرع المرء يتمسك فيها براحة البال الكثير من ضياع الوقت والكثير من الازعاج من كل صنف ونوع. وإني أتساءل إن كنت تساوي ما أتكلف في سبيلك من عناء ولم يسعدني أن أعرفك معرفة كافية لأقرّر في الأمر. لقد ألفيتك على كثير من الضحالة في «بالبيك» حتى إذا أخذنا في اعتبارنا الغباء الذي لاينفصل عن شخصية «المستحم» وانتعال هذا الشيء المسمى «الخفّ القماشي». وربما لم يكن بك على أية حال ما يكفي من كبير رغبة في ما يمكن أن أفعله من أجلك حتى أولي نفسي هذا القدر من الازعاج لانني أكرر لك بأقصى الصراحة ياسيد»، يعيد قوله وهو يقطع كلماته بشدة، «لا يمكن أن يكون الأمر بالنسبة إليّ إلاّ سلسلة إزعاجات.»

وقلت محتجاً إنّه ينبغي حينذاك الامتناع عن التفكير في الأمر. ولم يبد أن قطع المحادثات هذا يوافق ذوقه. فقال لي بلهجة قاسية:

«هذا التأدب لايعني شيئاً، فليس أمتع من تكبد الإزعاج في سبيل شخص جدير بذلك. فدراسة الفنون وحب سقط المتاع والمجموعات والحدائق إن هي إلاّ أمور بديلة وحجج بالنسبة إلى أفضلنا. إننا في داخل برميلنا نبحث عن رجل، شأن «ديوجين». ونزرع أزهار «البيغونيا» ونقلم شجر السدر لافتقارنا إلى الافضل ولأن شجر السدر وأزهار البيغونيا تنقاد لمشيئتنا. ولكننا نفضل أن نكرّس وقتنا لشجيرة بشرية لو تيقنا أنها جديرة بذلك. والمسألة كلها تكمن هنا، ولابدّ أنك تعرف نفسك إلى حدّما. فهل أنت جدير بذلك أم لا؟»

فقلت له: «لا أودّ، ياسيدي، مقابل أي شيء في العالم أن أكون سبب هم لك، فأما من جهة سروري فصدّق أن كل ما يأتيني منك سوف يوليني سروراً عظيماً. إنّي بالغ التأثر أن تتكرم هكذا وتصرف إليّ اهتمامك وتسعى إلى منفعتي.»

فكان أن شكرني على تلك الأقوال بما يقرب أن يكون فيض حنان مما أورثني أعظم الدهشة. وتأبط ذراعي بتلك الألفة المتقطعة التي سبق أن أثارت دهشتي في «بالبيك» والتي كانت تتناقض قسوة نبرة صوته.

وقال: «قد تتفوّه أحياناً، في طيش سنك، بأقوال من شأنها أن تحفر هوّة عميقة جداً بيننا. فأما ما تفوّهت به منذ قليل فهو على العكس من النوع الذي من شأنه أن يؤثر في ويدفعني إلى أن أفعل الكثير، وربما أكثر من الكثير في سبيلك.»

وفيما كان السيد «دو شارلوس» يسير معي يتأبط كلّ منّا ذراع الآخر، وإذ كان يسمعني تلك العبارات التي تفيض مودّة، على ما يخالطها من تعال، كان يثبت حيناً نظراته على وجهي بذلك الشخوص القوي، بتلك القسوة الثاقبة، وقد سبق أن أدهشاني أوّل صباح رأيته فيه أمام مقصف «بالبيك» وحتى قبل سنوات خلت قرب شجرة الزعرور الوردية إلى جانب السيدة «سوان» التي كنت أحسبها عشيقته آنذاك في حديقة «تانسونفيل»، وينقلها أحياناً من حوله ويتفحص العربات التي كانت تمرّ عديدة في ساعة التبديل تلك، وبإلحاح توقفت معه عدّة عربات وقد ظنّ الحوذي أنّنا ننوي اكتراءه. ولكن السيد «دو شارلوس» كان يصرفهم جميعهم.

وقال لي: «ليس منهم من يلائمني، وكل ذلك مسألة مصابيح والحيّ الذي يعودون إليه.» ثم قال: «وددت ألاّ يمكنك أن تخطىء حول سمة التجرّد المحض وحبّ الخير التي تطبع الاقتراح الذي سأقدّمه لك.»

وقد دهشت للعديد من الجوانب التي كان إلقاؤه فيها يشبه، أكثر من حاله في «بالبيك»، إلقاء «سوان».

— «إني إفترض أنّك على قد كاف من الذكاء كي لا تعتقد أنّه مستوحى من «غياب المعارف»، من خشية العزلة والضجر. ليس لي أن أحدّثك عن أسرتي لأنني أحسب أن صبياً في سنك ينتمي إلى البورجوازية الصغيرة (والحّ على الكلمة إلحاح الراضي) لابدّ أن يعرف تاريخ فرنسه. وإنما جماعة الطبقة التي انتمي إليها الذين لا يقرؤون شيئاً وهم في جهل الأجراء. كان خدّام الملك الخاصوّن فيما مضى يعينون في صفوف السادة الكبار، أما الآن فلم يعد السادة الكبار أكثر من خدّام. ولكنما الشبان البرجوازيون مثلك يقرؤون وإنك تعرف بالتأكيد صفحة «مشيليه» القيمة حول ذوي: «إني أجدهم عظاما جدًا آل «غيرمانت» الأشداء هؤلاء، وما عساه يكون، إمّا قوبل بهم، ملك فرنسه الصغير المسكين السجين في قصرة في باريس؟» أمّا فيما يخصنّي شخصياً، فذلك موضوع لا أحب كثيراً التحدّث فيه ياسيد، ولكنك ربما اطلعت على الأمر فقد ألمح إليه مقال مدوّ إلى حدّما في «التايمز» وذلك أن امبراطور النمسا الذي شرّفني دوماً بعطفه ولايسوءه أن يحافظ على صلات قربى معي قد صرّح بالأمس القريب في حديث تم نشره على الملأ أنّه لو اتفق للسيد الكونت «دو شامبور» رجل بالقرب منه يعرف حقّ المعرفة مثلي خفايا السياسة الأوروبية لكان اليوم ملك فرنسة. كثيراً ما فكّرت ياسيد أنّ في أثوابي، لا من جراء مواهبي، بل من جراء ظروف ربما عرفتها في يوم، كنزاً من التجارب ونوعاً من الملف السريّ الذي لايقدر بثمن والذي لم يخطر لي أن استخدمه لنفسي، ولكنّه ربّما كان فوق كل ثمن بالنسبة إلى شاب أدفع إليه في بضعة شهور ما صرفت أكثر من ثلاثين عاما في اكتسابه وما ربما كنت وحدي أملكه. لست أتحدّث عن المتع الفكرية التي قد تصيبها في الاطلاع على أسرار قد يبذل واحد من أمثال «غيزو» في أيّامنا سنوات من حياته ليعرفها وربما اتخذت بعض الأحداث في نظره بفضلها مظهراً مغايراً تماماً. ولست أتحدّث عن الأحداث المنقضية فحسب، بل عن ترابط ظروف (كانت هذه إحدى عبارات السيد «دو شارلوس» المفضلة وكثيراً ما كان يضمّ يديه، حينما ينطق بها، مثلما نفعل إذ نصلي، ولكن مشدود الأصابع وكأنما ليسهل بهذا التشابك ادراك تلك الظروف التي لم يكن يحددها وترابطها). فلعلني أزوّدك بتفسير غير معروف لا للماضي فحسب، بل للمستقبل أيضاً.»

وتوقف السيد «دو شارلوس» ليطرح عليَّ أسئلة حول «بلوك» الذي تم الحديث عنه في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» دون أن يبدو عليه أنّه يسمع. وسألني بتلك اللهجة التي كان يجيد فصلها عمّا يقول حتى ليبدو وكأنه يفكر في أمر مختلف تماماً وأنه يتكلم آليا ولمحض التهذيب، إن كان صاحبي شاباً، وإن كان جميلاً، الخ. ولو سمعه «بلوك» لعسر عليه حتى أكثر مما يعسر بالنسبة إلى السيد «دو نوربوا»، ولكن من جرّاء أسباب مختلفة أتم الاختلاف. أن يعلم إن كان السيد «دو شارلوس» إلى جانب «دريفوس» أو ضدّه. ثم قال لي السيد «دو شارلوس» بعدما طرح عليَّ هذه الأسئلة حول «بلوك»: لستَ على خطأ، إن ابتغيت أن تتثقف، أن تتخذ في عداد أصدقائك بعض الأجانب.» فأجبت أنّ «بلوك» فرنسي. فقال السيد «دو شارلوس»: «آه! لقد تبادر إليّ أنّه يهودي». وقد حملني اعلان هذا التعارض على الاعتقاد بأن السيد «دو شارلوس» أكثر عداء لـ «دريفوس» من أي من الأشخاص الذين سبق أن التقيتهم. واحتج، بعكس ذلك، على تهمة الخيانة الموجهة إلى «دريفوس»، ولكنما فعل بالصيغة التالية: «في اعتقادي أنّ الصحف تقول إنّ «دريفوس» ارتكب جريمة بحقّ وطنه، في اعتقادي أنّ ذلك يقال، فلست أعير الصحف أي انتباه ؛ إني أقرؤها مثلما أغسل يديّ دون أن أرى أن ذلك جدير باثارة اهتمامي. والجريمة أية كانت الأحوال لا وجود لها، فقد كان مواطن صديقك هذا ارتكب جريمة بحق وطنه لو أنه خان منطقة «يهودا»، ولكن ما شأنه وفرنسه؟» وقلت معترضاً إنّ اليهود، لو قامت حرب في يوم، سوف تتم تعبئتهم كا لآخرين تماماً. «ربّما، وليس أكيداً ألاّ ينطوي ذلكَ على مخاطر. ولكن إن تمّ استدعاء سنغاليّين أو مالاغاشيّين فلا أحسب أنهم سيبدون حماسة كبيرة في الدفاع عن فرنسه، والأمر طبيعي تماماً. إن رجلك «دريفوس» هذا يمكن أن يحكم عليه بالأحرى لخروجه على قواعد الضيافة. ولكن لندع ذلك جانباً. ربما أمكنك أن تسأل صديقك دعوتي لحضور احتفال جميل في المعبد، لحضور ختان وترانيم يهودية. ربما استطاع أن يستأجر قاعة وأن يقدّم لي حفلة ترفيهية من وحي الكتاب المقدس، مثلما مثلت فتيات «سان سير» مشاهد اقتبسها «راسين» من المزامير للترفيه عن لويس الرابع عشر. ربّما استطعت أن تدبر ذلك، وحتى حفلات للاضحاك. فصراع، على سبيل المثال، بين صديقك ووالده يجرحه فيه مثلما «داود» «جوليات»، فربّما ألف ذلك مهزلة مسلية بعض الشيء. بل قد يمكنه، وهذه حاله، أن يكيل لوالدته «النتنة»، كما لعلّ خادمتي العجوز تقول، ضربات مبرّحة. هذا ما يمكن أن يتم على أحسن وجه ولن يكون من شأنه أن يكدّرنا، أليس كذلك ياصديقي الصغير، بما أنّنا نعشق المشاهد الغريبة وأنّ ضرب هذه المخلوقة التي من خارج أوروبا إنّما يعني إنزال قصاص مستحقّ ببغل عجوز» كان السيد «دو شارلوس»، ساعة يقول هذه الكلمات الفظيعة التي تقارب الجنون، يضغط على ذراعي حتى ليؤلمني. وأخذت أتذكّر عائلة السيد «دو شارلوس» وهي تذكر الكثير من ملامح الطيبة الرائعة يبديها البارون إزاء هذه الخادمة العجوز التي أعاد إلى الأذهان منذ قليل لهجتها المحلية التي من لون «موليير»، وأقول في نفسي إنّ العلاقات التي لم تحظَ إلاّ بالقليل من الدراسة، فيما يبدو، بين الطيبة والخبث في القلب الواحد، لقد يبدو من المفيد تحديدها مهما أمكن أن تكون مختلفة.

ونبّهته إلى أن السيدة «بلوك» لم تعد، على أية حال، على قيد الحياة وأنني أتساءل فيما يخص السيد «بلوك» إلى أي مدى ستروقه لعبة يمكن بالتأكيد أن تفقأ عينيه. وبدا الغضب على السيد «دو شارلوس» وقال: «إليك امرأة أخطأت خطأً عظيماً في موتها. فأما العيون المفقوءة، فالكنيس بالضبط أعمى، إنه لايبصر حقائق

الانجيل. فكر على أي حال، في هذه الفترة التي يرتجف فيها جميع هؤلاء اليهود التعساء أمام حنق المسيحيين الغبيّ، أيّ شرف لهم أن يبصروا رجلاً مثلي يتنازل للتلهّي بألعابهم!» ولمحت في تلك اللحظة السيد «بلوك» الأب لدى مروره، وهو لابدّ ذاهب لملاقاة ابنه. لم يكن يبصرنا ولكني عرضت على السيد «دو شارلوس» أن أقدّمه له. ولم أكن أرتاب بالغضب الذي أزمع أن أبعثه في صدر صاحبي: «تقدّمه لي! لابدّ أنّك على قدر هيّن من حسّ القيم! فليس يعرفني الناس بهذه السهولة. وربّما كان الأخلال باللياقة في الحالة الراهنة مزدوجاً بسبب حداثة سنّ المقدِّم ولا جدارة المقدَّم. وأكثر ما أستطيعه، إن قدّموا لي ذات يوم المشهد الأسيوي الذي ألمحت إليه، أن أوجّه إلى هذا العجوز القبيح بعض أقوال تتسم باللطف. ولكن شرط أن يكون قبل أن يضرب ضرباً وافراً على يد ابنه. وربما بلغ بي الأمر أن أعبر عن ارتياحي.»

ولم يكن السيد «بلوك» يعيرنا، على أي حال، أيّ انتباه، فقد كان يوجه للسيدة «سازرا» تحيات واسعة تحظى منها بأحسن استقبال. وقد أذهلني الأمر، إذ سبق أن ثارت ثائرتها بالأمس في كومبريه» أن استقبل والداي «بلوك» الشاب لشدّة عدائها للسامية. ولكنّ مسألة «دريفوس» حملت إليها منذ بضعة أيام، شأن تيار هوائي، السيد «بلوك» لقد ألفى والد صديقي السيدة «سازرا» رائعة وقد راقه على وجه الخصوص عداء تلك السيدة للسامية الذي كان يرى فيه برهاناً على صدق إيمانها وصدق آرائها المناصرة لـ «دريفوس» والذي كان يضفي قيمة على الزيارة التي أذنت أن يقوم بها لها. وهو حتّى لم تجرّح مشاعره لأنها صرّحت في حضرته بلهجة طائشة: «ينزع السيد «درومون» إلى وضع المطالبين بالتعديل في زاوية البروتستانت واليهود. ما أبدعه اختلاط!» فكان أن قال مزهواً للسيد «نسيم بيرنار» لدى عودته: «تدري يا «بيرنار»، إنّها من الموالين!» ولكن السيد «نسيم بيرنار» لم ينبس ببنت شفة ورفع إلى السماء نظرة ملائكية. لقد اتخذ الآن، وهو يغتم لشقاء اليهود ويتذكر صداقاته المسيحية ويضحي متصنّعا متأنقاً كلما تقدّمت به السنّ ولأسباب سوف نراها فيما بعد، هيئة طيف من حركة «ما قبل رفائيل» الفنية نبتت له أوبار على نحو قذر كأنها شعور مغموسة في حجر من الأوبال.

وعاد البارون يقول، ولا يزال يمسك بذراعي: «قضية «دريفوس» برمتها لاتشكو إلاّ محذوراً واحداً، وهو أنها تهدّم المجتمع (ولا أقصد المجتمع الصالح، فالمجتمع لم يعد منذ زمن طويل أهلاً لصفة الثناء هذه) من جرّاء تدفق سادة وسيدات من الجمال والجمالة وحظائر الجمال، وأناس مجهولين بالتالي أجدهم حتى في منازل بنات عمي لأنهم ينتمون إلى رابطة الوطن الفرنسي المعادية لليهود وما لست أدري كما لو أن رأياً سياسياً يخوّلك حقّ اكتساب صفة اجتماعية.»

كان عبث السيد «دو شارلوس» هذا يقرّبه أكثر ما يقرّب من الدوقة «دو غيرمانت» وأشرت إلى هذه المقاربة. وإذ كان يبدو وكأنه يحسب أني لا أعرفها ذكرته بأمسية الأوبرا التي بدا أنه كان يودّ فيها التخفي خجلاً بي. فقال لي إنه لم يرني على الإطلاق وبقدر من الحزم لعلني بلغت معه في النهاية حدّ تصديقه لو لم تحملني حادثة صغيرة بعد قليل على الاعتقاد بأن السيد «دو شارلوس» لم يكن ربما راغباً، لفرط كبريائه، أن يشاهد بصحبتي.

وقال لي: «هيّا نعد إليك وإلى خططي فيما يخصك. تقوم بين بعض الرجال، ياسيد، ماسونية لايمكنني

أن أحدّثك عنها ولكنها تضمّ في صفوفها الآن أربعة من ملوك أوروبا. ولكن حاشية واحد منهم، وهو امبراطور ألمانيه، تبغي أن تشفيه من ضلالته. وذلك أمر خطير جدًا ويمكن أن يجيئنا بالحرب. أجل، بالتأكيد ياسيد. تعرف حكاية ذاك الرجل الذي كان يظنّ أنّه يحتجز أميرة الصين في زجاجة. كان ذلك جنوناً، وقد تمّ شفاؤه منه. ولكن ما أن لم يعد مجنوناً من بعد حتى أضحى غبياً. ثمة أدواء ينبغي ألاّ نحاول الشفاء منها لأنها تقينا وحدها من أخرى أشدّ خطورة منها. كان أحد أبناء عمومتي يشكو مرضاً في معدته فلم يكن يقوى على هضم شيء. وعالجه أكثر أخصائيي المعدة علما دون جدوى. فأخذته إلى أحد الاطباء (شخص آخر شديد الغرابة بدوره، أقولها بين هلالين، لعله من الممكن أن نقول الكثير عنه). فحزر هذا الأخير في الحال أنّ الداء كان عصبياً وأقنع مريضه وأمره أن يأكل دونما خوف ما يشتهي وما كان دوماً ممكن الاحتمال. ولكنّ ابن عمّي كان يشكو كذلك من التهاب الكلية، وما هضمته المعدة على أحسن وجه لم تستطع الكلية في النهاية طرحه، وعوض أن يعيش ابن عمّي شيخاً بمرض في المعدة وهمي كان يزعمه على اتباع حمية معيّنة مات في الأربعين وقد تعافى في معدته وخسر كليته. ومن يدري، وقد أحرزت تقدماً عظيماً على حياتك نفسها، ربما أصبحت ما كان يمكن أن يكونه رجل لامع في الماضي لو كشفت له روح خيّرة قوانين البخار والكهرباء وسط بشرية كانت تجهلها. لا تكن غبياً ولا ترفض بداعي الاتضاع. وافهم أنني إن كنت أؤدّي لك خدمة كبرى فلست أرى أنْ تؤدّي لي خدمة أقلّ. منذ فترة طويلة لم يعد رجال المجتمع يثيرون اهتمامي وليس بي من بعد سوى ولع واحد قوامه محاولة التكفير عن أخطاء حياتي بتمكين نفس لاتزال عذراء وقادرة على التحمس للفضيلة من الإفادة مما أعلم. لقد أصابتني غموم عظيمة، أيّها السيد، وربما رويت لك عنها في يوم، لقد فقدت زوجتي التي كانت الامرأة الأكثر جمالاً والأوفر نبلاً والأكثر كمالاً مما يمكن أن يراود الأحلام. ولديّ شبّان من ذوي قرباي ليسوا، لن أقول جديرين، بل قادرين على تسلم الإرث الأدبيّ الذي أحدّثك عنه. ومن يدري إن لم تكن ذاك الذي يمكن أن يمرّ بين يديه، ذاك الذي يمكن أن أوجه حياته وأسمو بها عالياً جداً؟ أضف أنّ حياتي قد تفيد من ذلك. فربّما عدت فيما اطلعك على المسائل الدبلوماسية الكبرى فأحسست معها بميل إلى ذاتي وشرعت أخيراً أقوم بأمور مفيدة تقاسمني إياها. على أنه لابدّ لي قبل أن أعرف ذلك من أن أراك كثيراً، كثيراً جداً، كل يوم.»

كنت أودّ الإفادة من هذه الاستعدادات اللاهبة اللامؤملة التي يبديها السيد «دو شارلوس» لأسأله إن كان لايستطيع أن يوفرّ لي لقاء زوجة أخيه، ولكنما وقع لي أن دفعت ذراعي في تلك اللحظة دفعاً شديداً وكأنما من جرّاء صدمة كهربائية. وكان السيد «دو شارلوس» الذي أقدم، لسبب جاء يعاكس القوانين «الكونية» التي كان لايزال قبل ثانية «نبيها الملهم» على سحب ذراعه من تحت ذراعي على عجل. لقد شاهد منذ قليل فقط السيد «دار جنكور» يطلع من شارع عرضاني مع أنّه كان ينقّل عينيه، وهو يكلمني، في كل اتجاه. وبدا وزير بلجيكا متكدّرا إذ رآنا ورماني بنظرة ارتياب، بما يقارب تلك النظرة الموجهّة إلى شخص من عرق آخر تلك التي نظرت بها السيدة «دو غيرمانت» إلى «بلوك»، وحاول أن يتجنبنا. ولكنما خيّل إليّ أنّ السيد «دو شارلوس» كان حريصاً أن يبدي له أنّه لايحاول على الإطلاق أنْ لا يبصره هو، فقد نادى عليه وكيما يقول له أمراً تافهاً جداً. وربما خشي السيد «دو شارلوس» أن لم يعرفني السيد «دار جنكور» فقال له إنّي صديق كبير للسيدة «دو فيلباريزيس» والدوقة «دو غيرمانت» و«روبير دو سان لو»، وأنّه هو، «شارلوس»،

صديق قديم لجدّتي وأنّه سعيد أن ينقل إلى الحفيد قليلاً من المودّة التي يكنّها لها. ولكني لاحظت أن السيد «دارجنكور»، مع أن أسمي لم يكد يذكر له في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وأنّ السيد «دو شارلوس» حدّثه منذ قليل حديثاً مطوّلاً عن أسرتي، بدأ أكثر جفاء حيالي ممّا كان منذ ساعة خلت، وقد سارت الأمور مذ ذاك فترة طويلة على هذا المنوال كلّ مرّة كان يلقاني فيها. وقد راقبني في ذلك المساء بفضول لاينطوي على شيء من المودّة، بل بدأ مضطرّ لقهر مقاومة شديدة حينما مدّ إليّ بعد تردّد وهو يفارقنا يداً استردّها في الحال.

وقال لي السيد «دو شارلوس»: إنّي آسف لهذا الحادث الطارئ. فالسيد «دار جنكور»، وهو كريم المحتد ولكنه سيء التهذيب، ودبلوماسي أكثر من ضحل، وزوج مقيت وزير نساء، وماكر كما المكر في مسرحيّة، هو واحد من هؤلاء الرجال العاجزين عن الفهم، ولكنّهم قادرون على تهديم الأشياء العظيمة حقاً. وإني آمل أن تكون صداقتنا كذلك إن انبغى أن تنشأ في يوم وأنك ستوليني شرف الحفاظ عليها، بقدر ما أفعل، في مأمن من لبطات أحد هؤلاء الحمير الذين يستحقون جرّاء البطالة أو الرعونة أو الخبث ما كان يبدو أنه جعل ليدوم، وإنما غالبية جماعة المجتمعات قد جبلوا لسوء الحظّ في هذا القالب.»

— «إن الدوقة «دو غيرمانت» تبدو شديدة الذكاء. وكنّا منذ قليل نتحدث عن حرب محتملة، ويبدو أنها تملك بهذا الشأن معلومات خاصة.»

فأجابني السيد «دو شارلوس» بجفاء قائلاً: «إنّها لا تملك من ذلك شيئاً البتة. فالنساء، وكثير من الرجال على أيّ حال، لا يفقهون شيئاً في الأمور التي كنت أبغي التحدّث فيها. إن زوجة أخي امرأة ممتعة تتخيل أنّها لاتزال في زمن روايات «بلزاك» يوم كانت النساء يؤثرون في السياسة. وقد لا تجرّ عليك مخالطتها في الوقت الراهن سوى أثر مشؤوم، شأن كل مخالطة اجتماعية على أية حال. ذلك بالضبط واحد من الأشياء الأولى التي كنت أزمع أن أقولها لك حينما قاطعني هذا الأحمق. إن أوّل تضحية ينبغي لك أن تقدّمها لي — وسأطالبك بقدر ما أمنحك من هبات — ألاّ تتردّد على المجتمعات. لقد تألمت منذ قليل بشأنك أن رأيتك في هذا الاجتماع السخيف. سوف تقول إني كنت حاضراً فيه، ولكنّه ليس بالنسبة إليّ اجتماعاً دنيوياً بل هو زيارة عائلية. أما فيما بعد، وحينما تصبح رجلاً ناجحاً، فإن سرّك أن تنحدر فترة إلى دنيا المجتمع فربما لم ينطو ذلك على ضرر. ولاحاجة بي أن أقول لك أيّة فائدة يمكن أن أوفّرها لك حينذاك. فـ«سمسم» فندق «غيرمانت» وجميع تلك التي هي أهل لأن تنفتح أبوابها أمامك على مصراعيها إنّما أقبض عليه أنا. سأكون حكماً ومرادي أن أظل سيد الساعة. إنك «موعوظ» (١) في الوقت الراهن، وقد كان لحضورك هنالك شيء من طابع الفضيحة، ولا بدّ قبل كلّ شيء من تجنب العمل الفاضح.»

وفيما كان السيد «دو شارلوس» يتحدّث عن تلك الزيارة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» أردت أن أسأله عن قرابته الصحيحة مع المركيزة وعن مولد هذه الأخيرة، ولكنّ السؤال جاء على شفتيّ على نحو يختلف

(١) صفة من يجري إعداده لدخول الدين المسيحي لدى قدماء المسيحيين، ويعني أنه لايزال في مرحلة التدرب على الصعيد الاجتماعي.

عمّا كنت أريد وسألت ماعسى أن تكون أسرة «فيلباريزيس».

وأجابني السيد «دو شارلوس» بصوت يخيل إليك أنه ينزلق على الألفاظ: «يا إلهي، ليس الجواب سهلاً؛ لكأنما تسألني أن أفيدك ما عسى يكون اللا شيء. لقد خطر لعمتّي التي تستطيع أن تسمح لنفسها بكلّ شيء أن تزجّ في العدم أعظم اسم في فرنسه بزواجها الثاني من مجهول صغير يدعى السيد «تيريون». وقد ظنّ تيريون» هذا أنه يستطيع، دون أيّة محاذير، اتخاذ اسم ارستقراطي لم يظلّ من يطالب به، على نحو ما يفعلون في الروايات. ولا تذكر الحكاية إن كان أغراه «برج اوفيرنيي» وإن كان حار بين «تولوز» و«مونمورانسي». لقد أقدم على اختيار آخر بأية حال وأصبح السيد «دو فيلباريزيس». ولمّا لم يبق من كان بهذا الاسم منذ ١٧٠٢ فقد ظننته يبغي بذلك أن يشير بكلّ تواضع إلى أنه رجل من «فيلباريزيس»، وهي قرية صغيرة على مقربة من باريس وأنّه يملك مكتب وكيل دعاو أو دكان حلاق في «فيلباريزيس». ولكنّ عمّتي لم تكن تعير هذا التفسير أذنا صاغية – وقد بلغت على أيّ حال السنّ التي لايظل فيها للمرء أذن يعيرها، فقد زعمت أن لقب المركيز هذا كان في الأسرة وكتبت إلينا جميعاً وأرادت أن تضفي على الأمور صبغة نظامية ولست أعلم لماذا. فخير للمرء، بما أنّه يتخذ اسماً لايحق له، ألاّ يثير هذه الكمّ من المتاعب، شأن صديقتنا الطيبة الكونتيسة المزعومة «دو/م/...» التي رفضت على الرغم من نصائح السيدة «ألفونس روتشيلد» أن تزيد من هباتها في سبيل لقب لن يصبح بذلك أكثر صحّة. والمضحك أنّ عمتي قد قامت منذ ذلك الحين باحتكار جميع الرسوم المتعلقة بآل «فيلباريزيس» الحقيقيّين اللذين لم يكن للمرحوم «تيريون» أيّة صلة قربي بهم. وأضحى قصر عمتّي ما يشبه مكان احتكار لرسومهم الحقيقية أو الزائفة التي اضطرت بعض رسوم آل «غيرمانت» وآل «كونديه»، مع أنهم ليسوا من ذوي الشأن اليسير، إلى الاختفاء أمام تدفق موجها المتعاظم. ويصنع لها تجار اللوحات منها في كل عام. بل هي تملك في قاعة الطعام لديها في الريف رسما لـ «سان سيمون» بسبب زواج ابنة شقيقه الأوّل من السيدة «دو فيلباريزيس» ومع أن مؤلف «المذكرات» ربما ملَك مؤهلات أخرى تثير اهتمام الزائرين غير أنّه لم يكن جدّ جدّ السيد «تيريون».

وإذ لم تكن «السيدة «دو فيلباريزيس» سوى السيدة «تيريون» فقد أتمّت السقطة التي كانت قد باشرتها في خاطري بعدما رأيت الخليط الذي يؤلف صالتها. كنت أرى من الظلم أن يتيسر لامرأة يكاد يكون حتى لقبها واسمها حديثين جدًا أن توهم المعاصرين وهي لابدّ ستوهم اللاحقين بفضل صداقات ملكيّة. ولما عادت فأضحت ما سبق أن بدت لي عليه في طفولتي، يعني امرأة مجرّدة من أية صفة أرستقراطية، فقد بدا لي أنّ ذوي القربى العظام الذين يحيطون بها غرباء عنها. ولم تكف فيما بعد عن كونها شديدة اللطف بالنسبة إلينا. وكنت أذهب أحيانا لزيارتها وتبعث إليّ بين الحين والحين بتذكار. بيد أنّه لم يكن يخطر لي البتّة أنّها من حي «سان جيرمان» وإن اتفق لي أيّ استفسار أطلبه حوله فربما كانت آخر من أتوجه إليه بالسؤال.

وتابع السيد «دو شارلوس» قائلاً: «لن تفعل بارتيادك المجتمعات في الوقت الراهن أكثر من إلحاق الأذى بمكانتك وتشويه عقلك وطباعك. ويجدر بك على كلّ حال أن تراقب حتى، بل على وجه الخصوص، أصحابك، ولتكن لك عشيقات إن لم تر أسرتك محذوراً في ذلك، والأمر لايخصنّي، بل لا يسعني إلاّ أن أشجعك أيها الماجن الصغير، أيها الماجن الصغير الذي سيكون عمّا قليل بحاجة إلى حلاقة ذقنه»، يقول لي

وهو يتلمّس ذقني. «ولكنّ انتقاء الأصدقاء الرجال يرتدي أهمية مختلفة. ذلك أنّ ثمانية من عشرة شبان هم أوغاد حقيقيون وأشقياء صغار قادرون أن يلحقوا بك أذى لن تمحوه في يوم. ولكن إليك ابن أخي «سان لو» فهو رفيق طيب لك لدى الضرورة. هو لن يفيدك في شيء فيما يخصّ مستقبلك، ولكني أكفيك بالنسبة إلى ذلك. فأما للخروج برفقتك في الأوقات التي تملّني فيها فإنه يبدو لي باختصار القول أنّه لايشكلّ محذورا جدّيا فيما أعتقد. هو رجل على الأقلّ، وليس من هؤلاء المخنثين مثلما نلقى الكثير منهم اليوم ممن هم أشبه «بالزغليّين» الصغار الذين ربّما ساقوا في غد إلى المفصلة ضحاياهم البريئة». (لم أكن أعرف معنى هذه اللفظة العامية: «الزغلي»». ولعلّ كلّ من عرفها كان سيصاب بالدهشة نفسها، فالناس في المجتمعات الراقية يطيب لهم التحدث بالعامية وأن يبدي أولئك الذين يمكن أن تؤخذ عليهم بعض الأمور أنّهم لايخشون التحدّث فيها، فذلك في نظرهم برهان يقام على براءتهم ولكنّهم فقدوا مقياس الأمور ولا يتبيّنون من بعد الدرجة التي يضحي مزاح من بعدها مغرقا في الخصوصية وفاضحاً إلى حدّ بعيد ويصبح برهاناً على فساد الأخلاق أكثر منه على السذاجة.) «ليس على شاكلة الآخرين. إنه لطيف جدّا ورصين جدّا.)

ولم أتمالك عن الابتسام إزاء صفة «رصين» هذه التي بدا أن النبرة التي يغلفها بها السيد «دو شارلوس» كانت تضفي عليها معنى «الفاضل» و«الحسن السلوك»، مثلما يقولون عن عاملة صغيرة إنها «رصينة». ومرّت في تلك اللحظة عربة كانت تسير بالروب تماماً ؛ وكان حوذي شاب يقودها، وقد هجر مقعده، من الركن القصيّ في المركبة حيث كان يجلس فوق المساند نصف سكران. وأوقفه السيد «دو شارلوس» بسرعة. وناقش الحوذي حينا.

– «إلى أيّ جهة تمضي؟»

– «حيث تمضي» (كان الأمر موضع دهشتي إذ سبق أن رفض السيد «دو شارلوس» عدّة عربات لها مصابيح من ذات اللون).

– «ولكني لا أريد الصعود إلى المقعد. أفيستوي لديك أن أبقى في المركبة؟»

– «أجل، ولكن أسدل الغطاء». وقال لي السيد «دو شارلوس» قبل أن يفارقني: «فكر على أيّة حال في اقتراحي، إنّي امنحك بضعة أيام لتعمل الفكر فيها، واكتب لي. إنّي أعيد الأمر عليك، ينبغي أن أراك كلّ يوم وأن تقدّم لي ضمانات في الإخلاص والتكتم يبدو لي على أيّة حال، ويجدر بي القول، أنّك تقدّمها. ولكني كثيراً ما خدعتني المظاهر خلال حياتي إلى حدّ أني لا أستطيع الوثوق بها من بعد. ويحك! إنّه لأقلّ الأمور أن أعلم، قبلما أتخلى عن كنز، بين أيّة أيد أضعه ومهما يكن من أمر، تذكر تماماً ما أعرضه عليك، فأنت، شأن «هرقل» الذي لايبدو لي، لسوء حظك، أنك تتمتّع بعضلاته القوية، على مفترق طريقين. فاجهد ألاّ يقع عليك أن تأسف طوال حياتك أنّك لم تختر الطريق التي كانت تقود إلى الفضيلة.» ثم قال للحوذي: «عجباً، أولم تنزل الغطاء بعد؟ سوف أطوي النوابض بنفسي. واعتقد على أي حال الله ينبغي لي كذلك أن أقود العربة بالنظر إلى الحالة التي تبدو فيها.»

وقفز إلى جانب الحوذي في الركن القصي من العربة التي انطلقت مسرعة.

وما أن عدت إلى البيت حتى وجدت فيه، فيما يخصّني، نظير الحديث الذي سبق أن تبادله قبل قليل «بلوك» والسيد «دو نوربوا»، ولكن بشكل مقتضب ومعكوس وقاس: كان جدالاً بين رئيس خدمنا، وكان من أنصار «دريفوس»، ورئيس خدم آل «غيرمانت»، وكان معاديا لـ «دريفوس». كانت الحقائق والحقائق المضادة التي تتعارض في الحلقات العليا لدى المثقفين في «رابطة الوطن الفرنسي» و«رابطة حقوق الإنسان» تمتّد بالفعل حتى أعماق الشعب. كان السيد «ريناك» يحرّك بالعاطفة أناساً لم يسبق أن رأوه في يوم فيما كانت قضية «دريفوس» تطرح أمام عقله فحسب بمثابة نظرية لا تدحض وقد برهن عليها بالفعل بأغرب نجاح في السياسة العقلانية شوهد في يوم (نجاحٍ قال بعضهم إنّه ضدّ فرنسه). فقد أحلّ في غضون سنتين محلّ وزارة يرئسها «بيو» وزارة يرئسها «كليمانسو» وقلب الرأي العام رأساً على عقب وأخرج «بيكار» من سجنه ليضعه، ناكراً للجميل، في وزارة الدفاع. ربّما كان يحرّك محرّك الجماهير العقلاني هذا من سلف من ذوي قرباه. ولئن كانت المنظومات الفلسفية التي تتضمن أكبر قدر من الحقيقة إنّما يمليها على واضعيها في نهاية المطاف سبب عاطفي، فكيف نفترض ألاّ تستطيع أسباب من هذا القبيل في محض قضية سياسية كقضية «دريفوس» أن تحكم عقل المفكر دون علمه؟ كان «بلوك» يحسب أنّه اختار بالمنطق موقفه المناصر لـ«دريفوس»، وكان يعلم من ذلك أن أنفه وجلده وشعره قد فرضها عليه جنسه. ليس من شك أنّ العقل أوفر حرّية؟ ولكنه يخضع على الرغم من ذلك لبعض قوانين لم يضعها لذاته. أما حالة رئيس خدم آل «غيرمانت» ورئيس خدمنا فحالة خاصة، ذلك أن موج التيارين المتمثلين في مناصرة «دريفوس» ومناهضته اللذين كانا يشقان فرنسه من الأعلى إلى الأسفل كان خافتاً إلى حدّما، ولكنما الأصداء النادرة التي يصدرها صادقة. فقد كان يمكنك، إذ تسمع أحدهم يعلن على نحو خفيّ، وسط حديث يتجنب القضية متعمداً، خبراً سياسياً كاذباً بعامّة ولكنه متوخّى على الدوام، كان يمكنك أن تستخلص من موضوع تنبؤاته اتجاه رغباته: وهكذا كانت تتجابه حول بضع نقاط دعاية خجولة من جانب وغضب مقدس من جانب آخر. أما رئيسا الخدم اللذان سمعتهما لدى عودتي فقد شذّا عن القاعدة. فقد أعلن رئيس خدمنا أن «دريفوس» كان مذنباً، ورئيس خدم آل «غيرمانت» أنّه كان بريئاً. وما كان ذلك بغية إخفاء قناعاتهما، بل عن خبث وضراوة في اللعب. كان رئيس خدمنا، وهو غير متيقن إن كانت إعادة النظر ستتم، كان يبغي سلفاً في حال الفشل أن يسلب رئيس خدم آل «غيرمانت» غبطة الاعتقاد بأن قضية عادلة قد هزمت. كان رئيس خدم آل «غيرمانت» يظنّ أنّ رئيس خدمنا، في حال رفض إعادة النظر، سوف يصيبه ازعاج أكبر لرؤيته بريئاً يوالى احتجازه في «جزيرة الشيطان». وكان الحاجب ينظر إليهما، ووافاني شعور بأنه لم يكن يزرع الشقاق في صفوف خدم آل «غيرمانت».

وصعدت فوجدت جدّتي أشدّ مرضاً. لقد كانت تشتكي منذ بعض الوقت من صحتّها دون أن تدري ما بها. وانما نتبين في المرض أننا لانعيش وحدنا، ولكننا مقيدون بكائن من عالم مختلف تفصلنا عنه هوّة واسعة، وهو لايعرفنا ويستحيل علينا حمله على فهمنا، عنيت جسدنا. ربّما استطعنا، أيّا كان اللص الذي نصادفه على طريقنا، أن نفلح في حمله على الرفق بمصلحته الشخصية، إن لم يكن بشقائنا. فأمّا أن نسأل جسدنا رحمة بنا فانما يعني التحدث أمام أخطبوط لا يمكن أن تعني أقوالنا بالنسبة إليه أكثر من ضجة المياه وقد يبعث الحكم علينا بالعيش معه الذعر في نفوسنا. كثيراً ما كانت توعكات جدّتي تمرّ دون أن تلفت انتباهها الذي تصرفه دوما إلينا. وحينما كانت تعاني منها كثيراً كانت كيما تفلح في شفائها تجهد عبثا في فهمها. ولئن

كانت الظاهرات المرضية التي تتخذ من جسدها مسرحاً لها غامضة وخافية على فكرها، فقد كانت واضحة سهلة الإدراك بالنسبة إلى كائنات تنتمي إلى العالم الماديّ نفسه الذي تنتمي إليه، من تلك التي توجّه إليها العقل الإنسانيّ في النهاية كي يدرك ما يقوله له جسده مثلما تمضي، إزاءة أجوبة يجود بها أجنبيّ، لنأتي بواحد من البلد نفسه يقوم بمهمة الترجمة. هي تستطيع التحدث إلى جسدنا وأن تقول لنا إن كان غضبه خطيراً أو هو سيهدأ عما قليل. وحاول «كوتار» الذي استدعيناه إلى جانب جدّتي والذي بعث فينا الضيق إذ سألنا بابتسامة ماكرة منذ الدقيقة الأولى التي نقلنا إليه فيها أنّها مريضة: «مريضة؟ ليس ذلك على الأقل مرضاً ديبلوماسياً؟» حاول الحمية بالحليب بغية تهدئة اضطراب مريضته. ولكن الشوربات بالحليب لم تأت بأثر لأن جدّتي كانت تضع فيها الكثير من الملح، وكانوا يجهلون ضرره في ذلك الوقت (إذ لم يكن «فيدال» قد قام بعد باكتشافاته). فإنّه لما كان الطب موجزاً لأخطاء الأطباء المتعاقبة والمتناقضة كان ثمة احتمال كبير إن نحن استدعينا أفضلهم أن نلتمس حقيقة تحتسب مغلوطة بعد ذلك بسنوات. حتى ليبدو أن الاعتقاد بالطب أقصى الجنون لو لم يكن الامتناع عن الاعتقاد به جنوناً أعظم، إذ قد استخلصت على مر الأيّام بعض الحقائق من ركام الأخطاء ذاك. كان «كوتار» قد أوصى بأن تقاس حرارتها، فمضينا لإحضار ميزان حرارة. كان الأنبوب خالياً من الزئبق في كامل ارتفاعه تقريباً، وتكاد لاتبصر السمندل الفضي يقبع في أقصى حوضه الصغير. كان يبدو لا حراك به. وتم وضع الأنبوب الزجاجي في فم جدّتي. ولم تكن بنا حاجة لابقائه فترة طويلة، فلم يطل الأم بالساحرة الصغيرة التي كشفت طالعها. ووجدناها لاتبدي حراكاً وقد جثمت في منتصف ارتفاع برجها لاتغادره من بعد وترينا بدقة الرقم الذي طلبناه منها والذي ربما عجزت عن تزويد جدّتي به جميع التأملات التي كان يمكن أن تصبّها على ذاتها: ٣٨,٣. وأحسسنا للمرّة الأولى بشيء من القلق. وهززنا ميزان الحرارة بقوة لنمحو العلامة المشؤومة كما لو وسعنا بذلك خفض الحمّى والحرارة المسجلة في آن واحد. ولكنما بدا واضحاً للأسف أنّ العرّافة الصغيرة المجرّدة من العقل لم تزوّدنا اعتباطاً بذاك الجواب، فما أن أعيد في الغد ميزان الحرارة بين شفتي جدّتي حتى أقبلت النبية الصغيرة لتوّها تقريباً، وكأنما بقفزة واحدة، تزهو يقيناً واستشفافاً لأمر خافٍ علينا، لتتوقف في النقطة نفسها في جمود لايرحم وترينا مرة أخرى بالتماع شفرتها الرقم ٣٨,٣ لم تكن تقول غير ذلك، وكنّا عبثاً رغبنا وأردنا ورجونا فقد بدا في صممها أنّها كلمتها الأخيرة المخدِّرة المتوعدة.

حينئذ توجهّنا، بغية إرغامها على تبديل جوابها، إلى مخلوقة أخرى من العالم نفسه لكنها أكثر اقتداراً ولا تكتفي بمساءلة الجسم بل تستطيع أن تأمره، إلى مزيل للحمّى من نوع الاسبيرين التي لم تكن بعد قد استخدمت آنذاك، ولم نعمل على تخفيض ميزان الحرارة إلى أكثر من ٣٧,٥ أملاً منا أنّه على هذا النحو لن يعود إلى الارتفاع، وأوعزنا أن تتناول جدّتي مخفض الحرارة هذا وأعدنا حينئذاك ميزان الحرارة. ولم تتحرّك حارسة البرج الساهرة هذه المرّة، شأن حارس متصلب يبرز له أمر سلطة عليا لعبت لديها الوساطة دورها فيجيب وقد وجد الأمر مطابقاً للقوانين: «حسن، ليس لديّ ما أقوله، تفضل ما دامت الأمور على هذه الشاكلة». ولكنما كان يبدو أنّها تقول متجهمّة: «ماذا يجديكم ذلك؟ بما أنكم تعرفون «الكينا»، فسوف تصدر إليّ أمراً بالامتناع عن التحرّك مرّة وعشر مرّات وعشرين مرّة. ثم يأخذ منها التعب، فإني أعرفها ويحكم! لن تظلّ الأمور كذلك أبداً، وحينذاك تكونون قد كسبتم الكثير.»

حينئذ أحسّت جدّتي في داخلها بوجود مخلوقة كانت تعرف الجسم الإنساني أفضل من جدّتي، وجود معاصرة للأجناس المندثرة، وجود واضع اليد الأوّل - الذي سبق بكثير خليقة الإنسان المفكر - ؛ لقد أحست بهذا الحليف المغرق في القدم يتحسسها بشيء من القسوة في رأسها، في قلبها، في مرفقها. كان يتعرف الأمكنة وينظّم كلّ شيء من أجل المعركة التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي وقعت فورا بعد ذلك. وتم قهر الحمى في مدى لحظة، بعد ما سحق التنين، بفعل العنصر الكيميائي القوي الذي ودّت جدّتي لو يسعها أن تشكره عبر الممالك ومن فوق جميع الحيوانات والنباتات. وظلت متأثرة من جرّاء هذا اللقاء الذي تمّ لها عبر الكثير الكثير من القرون بهذا العنصر الذي سبق حتى خليقة النبات. وكان ميزان الحرارة من جهته، وقد تم قهره إلى أمد على يد إله أقدم منه، يمسك بمغزله الفضيّ جامداً لايتحرّك. لكنّ مخلوقات دنيا، وأسفي، نشأها الإنسان على مطاردة هذه الطرائد الخفية التي لايستطيع ملاحقتها في أعماق ذاته كانت تحمل إلينا بقسوة في كلّ يوم رقم كمية ضئيلة من الزلال ولكنها ثابتة إلى حدّ ما كيما تبدو هي الأخرى ذات صلة بحالة مستديمة ما كنّا نبصرها. لقد سبق أن أثار لديّ «بيرغوت» الغريزة الدقيقة التي كنت أخضع بها عقلي حينما كلمني عن الدكتور «دو بولبون» على أنه طبيب لن يبعث فيّ الملل وسوف يجد صنوفاً من العلاج تلائم تفرّد عقلي وإن بدت غريبة في ظاهرها. ولكنّ الأفكار تتحوّل في داخلنا وتقهر المقاومة التي كنّا نرفعها في وجهها بادئ الأمر وتتغذي بذخائر فكرية غنية جاهزة ما كنا نعلم أنها تناسبها. وكما يتفّق في كلّ مرّة كان من شأن الأقوال التي سمعناها بصدد امرئ لا نعرفه أن توقظ فينا فكرة موهبة عظيمة ونوع من العبقرية، كنت أدع للدكتور «دو بولبون» أن يفيد من هذه الثقة اللامحدودة التي يوحي بها إلينا ذاك الذي يدرك الحقيقة بنظرة أوفر عمقاً من سواه. كنت أعلم بالتأكيد أنّه قبل كلّ شيء اختصاصي بالأمراض العصبية، وهو الذي تنبأ له «شاركو» قبل موته أنّه سيكون سيد علم الأعصاب والطبّ النفسيّ. «لست أدري، ذلك ممكن»، تقول «فرانسواز» التي كانت حاضرة وتسمع للمرّة الأولى اسم «شاركو» واسم «دو بولبون» على السواء. بيد أنّ الأمر لايحول دون أن تقول: «ذلك ممكن». وكان ما تقول من «ممكن» و«ربما» و«لا أدري» يثير السخط في حالة كهذه. وتعتمل فيك الرغبة في أن تجيبها: «ما كنت بالطبع تعلمين بما أنّك لا تعرفين شيئاً عن الأمر المعنّي ؛ بل كيف يسعك حتى القول إنّ الأمر ممكن أو غير ممكن وما كنت تعلمين شيئاً عنه؟ ولا يسعك أن تقولي الآن على أيّ حال إنّك لاتعلمين أن «شاركو» قال لـ«دو بولبون» الخ، فأنت تعلمين ذلك بما أننا قلناه لك، وما تقولين من «ربما» و«الأمر ممكن» غير وارد بما أنّ الأمر أكيد.»

وعلى الرغم من هذه الكفاءة الخاصة فيما يتصل بالدماغ والأعصاب، ولما كنت أعلم أنّ «دو بولبون» طبيب عظيم وإنسان متفوق ذو عقل مبدع عميق فقد توسلت إلى والدتي أن تأمر بإحضاره، وقد رجحت في آخر المطاف كفة الأمل في أنّه ربّما شفى الداء بفعل نظرة صائبة على الخشية التي بنا أن نزرع الرعب في قلب جدّتي إن نحن استدعينا طبيباً مشاوراً. فأما ما أقنع والدتي فأنّ جدّتي لم تعد تخرج وتكاد لاتنهض يشجعها في ذلك على نحو غير واعٍ «كوتار». وعبثا تردّ علينا برسالة السيدة «دو سيفينييه» إلى السيدة «دو لافاييت»: «كان يقال إنّها مجنونة أن ترفض الخروج، فأقول لاولئك الأشخاص المتعجلين في حكمهم: «ليست السيدة «لافاييت» مجنونة» وأظل عند رأيي. وقد انبغى أن توافيها المنية كي تبرهن أنّها كانت محقة في الامتناع عن الخروج.» ولئن لم يخطئ «دو بولبون»، بعدما تمّ استدعاؤه، السيدة «دو سيفينييه» التي لم

تذكر أمامه، فقد فعل على الأقلّ بالنسبة إلى جدّتي. وبدلا من أن يفحصها أخذ، فيما يرمقها بنظراته الرائعة التي ربّما داخلها وهم تفحص المريضة على نحو معمق، أو الرغبة في إيلائها ذلك الوهم الذي كان يبدو تلقائيا ولكنه لابدّ أصبح آليا. أو كي لايدع لها تبين أنه يفكر في أمر مختلف تماماً، أو كي تتمّ له السيطرة عليها، أخذ يتحدّث عن «بيرغوت».

– «آه! هذا ما اعتقده تماماً يا سيدتي، ذلك رائع ؛ وكم أنت محقة في ولعك به! ولكن أيّا من كتبه تفضلين؟ صحيح! يا إلهي، ربما كان بالتأكيد أفضلها. وهو في جميع الأحوال أفضل رواية له تأليفاً: إن «كلير» رائعة فيها. وعلى صعيد الرجال أيهم يبدو لك الأكثر إيناسا؟».

وظننت بادئ الأمر أنّه يحملها على هذا النحو على التحدّث عن الأدب لأنّ الطبّ كان يورثه الملل، وربّما كي يبدي كذلك اتساع فكره، بل حتى كي يعيد، وهدفه أقرب إلى العلاج، الثقة لمريضته، ويظهر لها أنه غير قلق ويسليها عن حالتها. ولكني فهمت مذ ذاك أنه أراد، وقد اشتهر خصوصاً بوصفه اختصاصياً بالمعتوهين وبسبب أبحاثه حول الدماغ، أن يتبين بأسئلته إن كانت ذاكرة جدتي سليمة تماما. وقد ساءلها قليلاً عن حياتها وكأنما مرغماً، قاتم النظرة ثابتها. ثم قال فجأة، وكأنما أبصر الحقيقة وصمم أن يبلغها مهما كلفه الأمر، وبحركة مسبقة يبدو بها وكأنه يجهد في أن ينفض عنه، باستبعادها، موجات التردّد الأخيرة التي كان يمكن أن تنتابه وجميع الاعتراضات التي ربما أمكن أن نرفعها في وجهه، قال وهو ينظر إلى جدّتي بعين صافية وبحرية وكأنما يضع أخيراً أقدامه على أرض صلبة، ويشدّد على الكلمات بلهجة وادعة أخاذة يلوّن الذكاء جميع نبراتها (وقد ظلّ صوته على أيّ حال طوال الزيارة على ما طبع عليه، ظلّ ناعماً وكانت عيناه الساخرتان تحت حاجبيه الأشعثين تفيضان طيبة):

«ستكونين على مايرام، يا سيدتي، في اليوم البعيد أو القريب– ويعود إليك أن يكون ذلك في هذا اليوم نفسه – الذي تدركين فيه أنّك لا تشكين شيئاً والذي تستعيدين فيه الحياة المعتادة. قلت لي إنك لا تأكلين وإنك لا تخرجين؟»

– «ولكنني أشكو قليلاً من الحمى ياسيدي.»

ولمس يدها:

– «ليس في هذا الحين على أية حال. ثم ما أروعه عذراً! أما تعلمين أنّنا ندع في الهواء الطلق مسلولين تبلغ حرارتهم ٣٩ وأنّنا نزيد من تغذيتهم.»

– «ولكنني أشكو كذلك قليلاً من الزلال».

– «يجدر بك أن لا تعرفي ذلك. انّك تشكين ما أدرجته تحت اسم الزلال الذهني. لقد عانينا جميعاً أثناء توعك صحيّ من نوبة الزلال الطفيفة التي سارع طبيبنا إلى إضفاء الديمومة عليها بتنبيهنا إليها. وفي مقابل علّة يشفيها الأطباء بالأدوية (ثمة من يؤكد على الأقلّ أنّ الأمر وقع أحياناً) ينتجون عشرا لدى أناس معافين إذ ينقلون اليهم هذا العامل المرضيّ الذي يفوق ألف مرّة سائر الأحياء الدقيقة حدّة، عنينا فكرة أنّهم

مرضى. ومثل هذا الاعتقاد، وهو شديد الوقع على جميع الجيّلات، انّما يؤثر بفعالية خاصة على العصبين. قل لهم أنّ نافذة مغلقة قد فتحت خلف ظهورهم فيأخذون في العطاس. وادخل في روعهم أنّك وضعت شيئاً من المانيزيا في حسائهم فيأخذهم المغص، وأن قهوتهم أقوى من المعتاد فلا يغمض لهم طوال الليل جفن. أتظنين ياسيدتي أنه لم يكفني أن أرى عينيك وأن أسمع فحسب الطريقة التي تتحدّثين بها، ماذا أقول؟ أن أرى السيدة ابنتك وحفيدك اللذين يشبهانك إلى حد بعيد كيما أعرف مع من أتعامل؟»

— «ربما استطاعت جدّتك أن تبادر فتجلس، إن صرّح لها الدكتور بذلك، في ممرّ هادئ في «الشانزيليزيه»، على مقربة من كتلة شجيرات الغار تلك التي كنت تلعب فيما مضى أمامها»، تقول أمّي وهي تستشير مباشرة على هذا النحو الدكتور «دوبولبون» ويتخذ صوتها بسبب ذلك شيئاً من الاستحياء والإجلال ما كان ليتخذه لو أنها وجهت الحديث إليّ وحدي. والتفت الدكتور إلى جدّتي، ولما لم يكن أقلّ منه علماً قال:

— «إذهبي إلى «الشانزيليزيه» ياسيدتي، بالقرب من كتلة شجيرات الغار التي يحبها حفيدك. سوف تفيدك شجرة الغار، فإنّها تطهر. إنّ «أبولون» بعدما قضى على الثعبان إنّما دخل إلى «ذلفي» وهو يحمل في يده غصن غار. كان يبغي بذلك أن يقي نفسه من جراثيم الحيوان السامّ الميتة.

ها إنّك ترين أن شجرة الغار هي الأوفر قدماً والأجدر بالتقدير، وأضيف إلى ذلك أنها أحسن المطهرات — الأمر الذي يتخذ قيمة في العلاج والوقاية على حدّ سواء—».

ولما كان قسم كبير مما يعرفه الأطباء إنما يلقنّهم إياه مرضاهم فإنهم يميلون بسهولة إلى الاعتقاد بأن علم «المرضى» هذا واحد لدى الجميع ويتباهون بإدهاش من كانوا بالقرب منه بملاحظة تعلموها من أولئك الذين عالجوهم فيما مضى. ولذلك قال الدكتور «دو بولبون» لجدّتي بالابتسامة الماكرة التي لباريسي يأمل في حديثه مع فلاح أن يدهشه باستخدام كلمة من اللهجة الإقليمية: «ربما أفلح طقس الرياح في حملك على النوم حيث تخفق أقوى المنوّمات». — «بالعكس ياسيدي، فالريح تحول تماماً دون أن أنام.» ولكنّ الأطباء شديدو الحساسية. وهمس «دو بولبون» وهو يقطب حاجبيه: «أخ!» كما لو ديست قدمه وكان أرق جدتي في الليالي العاصفة إهانة شخصية بالنسبة إليه. ولكنّما لم يكن يشكو مع ذلك فرط اعتزاز بالنفس، وإذ ظنّ من واجبه بوصفه «عقلاً متفوقاً» ألاّ يؤمن بالطب فقد استعاد بسرعة هدوءه الفلسفي.

وأضافت أمي، تحدوها رغبة عارمة في أن تطمئنّ بالاً على يد صديق «بيرغوت»، أضافت تدعيماً لقوله بأنّ ابنة عمّ لها كانت ضحيّة علّة عصبية فظلّت سبعة أعوام حبيسة غرفة نومها في «كومبريه» لا تنهض إلاّ مرّة أو مرتين في الأسبوع.

— «ها أنت ترين ياسيدتي، ما كنت على علم بذلك وكان بوسعي أن أقوله لك.»

وقالت جدّتي، إما لأنّها ضاقت نفسها بعض الشيء من جرّاء نظريات الدكتور أو لأنّها رغبت في عرض ما يمكن أن يثار من اعتراضات عليها آملة أن يدحضها وأنّه لن تظلّ لديها، بعدما يذهب، أيّ شكّ ترفعه حول تشخيصه الناجح: «ولكنّي لست البتّة على غرارها ياسيدي، بل العكس صحيح ؛ فليس يستطيع طبيبي أن

يأمرني بملازمة سريري.»

- «بالطبع يا سيدي، لا يمكن أن يصاب المرء، واستميحك العذر للكلمة، بجميع العاهات العقلية، فأنت تشكين غيرها ولا تشكين هذه بالذات. لقد قمت البارحة بزيارة مصحّ لمرضى الأعصاب، وفي الحديقة كان رجل يقف فوق مقعد لايبدي حراكاً كأحد الفقراء ويميل برقبته في وضع كان لابدّ شاقاً جدّاً. ولما سألته ما كان يفعل أجابني دون أن يقوم بحركة أو يدير رأسه: «دكتور، إني كثير الإصابة بالرثية والرشوحات، وقد قمت بالكثير من التمرينات وفيما كنت على هذا النحو أزيد ببلاهة من حرارتي كانت رقبتي تلتصق بملابسي الداخلية. فان أبعدتها الآن عن تلك الملابس قبل أن أدع لحرارتي أن تهبط فإنّي موقن بأنّي سأصاب بتصلب في الرقبة وربّما بالتهاب قصبات.» ولعله كان سيصاب به بالفعل. فقلت له: أنت واهن الأعصاب إلى حدّ بعيد، ذلك ما أنت بالتمام.» فهل تعلمين الحجة التي قابلني بها ليبرهن لي على العكس؟ الحجة أنّهم كانوا يضطرّون، فيما جميع مرضى المؤسسة مصابون بهوس وزن أنفسهم إلى حدّ أنهم لم يجدوا بدّاً من وضع قفل للميزان كي لا يقضوا كامل يومهم في وزن أنفسهم، إلى إرغامه على الصعود إلى الميزان لقلة ما يرغب في ذلك. كان يغتبط لأنّه غير مصاب بهوس الآخرين دون أن يخطر له أنّه مصاب بهوسه الخاصّ وهو الذي يقيه آخر غيره. لا تجرحك المقارنة ياسيدتي، فذاك الرجل الذي ما كان يجرؤ أن يدير عنقه مخافة أن يصيبه الزكام إنّما هو أعظم شاعر في عصرنا. وإنما ذلك المهووس المسكين أسمى عقل عرفته. فاحتملي أن تدعي عصبيّة. إنّك تنتمين إلى هذه الأسرة الرائعة التعيسة الحال التي تؤلف ملح الأرض. إن كلّ أمر عظيم نعرفه يوافينا من العصبيين. فهم، لاغيرهم، أنشؤوا الأديان وألفوا الروائع الفنية. ولن يعرف العالم في يوم كلّ ما يدين به لهم ولاسيما ما كابدوه كي يهبوه إيّاه. إننا نتذوّق الموسيقى الرقيقة واللوحات الجميلة وألفاً من اللطائف ولكننا لا نعلم ما تكلف في سبيلها، أولئك الذين ابتدعوها، من أرق ودموع وضحكات متقبضة وشرى وربو ونوبات صرع، ومن ضيق حتى الموت هو أسوأ من كلّ ذلك، وربّما كنت عارفة به ياسيدتي»، يضيف قوله وهو يبتسم لجدّتي، «لأنك حينما جئت، هيا أقرّي بذلك، لم تكوني كثيرة الاطمئنان. كنت تحسبين أنك مريضة، مريضة ربّما إلى حدّ خطير. ويعلم الله أيّة علّة كنت تظنين أنك تكتشفين أعراضها فيك. وما كنت مخطئة، فقد كانت لديك. إن توتر الأعصاب مقلّد عبقري، فليس من داء إلاّ ويحاكيه غاية المحاكاة. إنّه يقلد إلى حدّ الإيقاع بك نفخة المصابين بالتخمة وغثيان الحمل ولا انتظام مريض القلب وحمّية المسلول. وكيف لايخدع المريض هو القادر على تضليل الطبيب؟ لا تظنّي أنّي أسخر من أدوائك، فما كنت أبادر إلى علاجها إن كنت لا أستطيع ادراكها. ثم هاك، ليس من اعتراف صحيح إلاّ متبادلاً. قلت لك إنّه ليس من فنان كبير دون مرض عصبي، بل وأكثر من ذلك»، يضيف قوله وهو يرفع سبّابته بوقار، «ليس من عالم كبير. وأضيف أن ليس، لن أقول من طبيب جيّد بل من طبيب مقبول فحسب في الأمراض العصبيّة إن لم يكن مصاباً بدوره بمرض عصبي. إن طبيباً، في حقل علم الأمراض العصبيّة، لا يدلي بالكثير من الغباوات مريض نصف معافى، مثلما الناقد شاعر لاينظم الشعر من بعد، والشرطي لصّ لايمارس من بعد. أنا، ياسيدتي، لا أحسب مثلك أنّي مصاب بالزلال فليس بي خوف عصبي من الغذاء، من الهواء الطلق، ولكني لا أستطيع النوم قبلما أعود فأنهض عشرين مرّة لاتبيّن أن كان الباب موصداً. وذلك المصحّ الذي لقيت فيه البارحة شاعراً لايدير رقبته إنّما كنت ذاهباً إليه لأحجز غرفة لأنّي، وأقولها بيننا، أمضي

فيه عطلتي في علاج نفسي بعدما أزيد أدوائي إذ أرهق نفسي في شفاء أدواء الآخرين.»

- «ولكن، هل ينبغي لي يا سيدي،» تقول جدّتي مذعورة، «أن أقوم باستشفاء مماثل؟»

- «لا ضرورة لذلك يا سيدتي، فالظاهرات التي تبدو عليك سوف تستسلم أمام كلامي. ثمّ إن لك بالقرب منك من هو مقتدر جدّا وإنّي أجعل منه طبيبك منذ الآن. إنّه داؤك وفرط نشاطك العصبيّ. ولو عرفت السبيل إلى شفائك منه لتحاشيت القيام بذلك. يكفيني من مرض أعصابك فلن تجنّبيه من بعد. وهل أحس أنّ لي الحقّ أن أبادل المتع التي يوفرها مقابل سلامة عصبيّة قد تعجز تماماً عن توفيرها لك؟على أنّ هذه المتع نفسها إنّما تشكلّ دواء قوياً وربّما كان أقواها جميعها. لا، لست أبغي شرّا بطاقتك العصبيّة. إنّي أطلب إليها فقط أن تصغي إليّ. وإنّي أكِلُك إليها. فلتعد القهقرى. والقوّة التي كانت تبذلها لتمنعك من التنزّه وتناول مايكفي من الغذاء فلتستخدمها في إطعامك وحملك على القراءة والخروج والترويح عنك بكل الطرق. لا تقولي لي إنك متعبة، فالتعب هو التحقيق العضويّ لفكرة سبق تصورّها. فابدئي بالاّ تفكري فيه. وإن ألمّ بك في يوم توعكّ طفيف، وهو ما يمكن أن يتفق للجميع، فسيخيّل إليك أنّه لم يصبك إذ يكون قد جعل منك معافي بالوهم، حسب كلمة بليغة للسيد «دو تاليران». وها إنها شرعت تشفيك، فإنّك تصغين إليّ منتصبة القامة تماماً دون أن استندت مرّة واحدة، حادّة النظرة مرتاحة الوجه وقد مضى على ذلك نصف ساعة كاملة ولم تنتهي للأمر. سيدتي، يشرّفني أعظم الشرف أن احيّيك مودّعاً.»

وحينما عدت، بعدما شيّعت الدكتور «دو بولبون»، إلى الغرفة حيث كانت أمي وحدها تبدّد الغمّ الذي كان يضيّق عليّ منذ عدّة أسابيع وأحسست أن والدتي توشك أن تطلق فرحتها وأنّها على وشك أن ترى فرحتي، وشعرت باستحالة احتمال انتظار اللحظة القريبة التي يزمع فيها شخص بالقرب منا أن يبدي انفعاله، استحالة احتمال تشبه إلى حدّما الخوف الذي ينتابنا حين نعلم أن أحدهم سيدخل لإثارة الرعب في صدورنا من باب لايزال مغلقاً. وهممت أبغي أن أقول كلمة لأمي ولكنّما خانني الصوت وانفجرت باكياً وظللت طويلاً ورأسي إلى كتفها أبكي وأتذوق الألم وأتقبلّه وأهواه الآن وقد علمت أنّه خرج من حياتي مثلما يطيب لنا أن نتحمس لمشروعات صالحة لاتسمح لنا الظروف بتنفيذها.

وأثارت «فرانسواز» حنقي بأنّها لم تشاركنا فرحتنا. لقد كانت في أشد الانفعال لأنّ شجاراً عنيفاً هبّ بين خادم الغرفة والبوّاب الواشي. وقد انبغى أن تتدخلّ الدوقة بطيبة قلبها وتعيد ظاهراً من السلام وتصفح عن خادم الغرفة. ذلك لأنها كانت طيّبة، ولعلّه كان المكان الأمثل لو لم تصغ إلى «الأقاويل».

أخذ الناس منذ بضعة أيّام يعلمون أنّ جدّتي مريضة ويسألون عن أخبارها. لقد كتب إليّ «سان لو» يقول: «لا أريد استغلال هذه الساعات التي ليست جدّتك فيها على مايرام كي أوجّه إليك ما كان أكثر من الملائمة وليست في شيء مما جرى. ولكنّي قد أكذب إن قلت لك، ولو كان من باب التغاضي، إنني سأنسى في يوم مسلكك الغادر وأنّك تنال الصفح في يوم عن مكرك وخيانتك.» بيد أنّ أصدقاء سألوني، وهم يرون أنّ جدّتي يسيرة المرض أو حتى يجهلون تماما أنّها مريضة، أن أصحبهم في الغد إلى «الشانزيليزيه» ونذهب من هناك لاقوم بزيارة ونشهد في خارج المدينة عشاء كان يفرحني. ولم تعد لديّ أيّة حجة للتخلي عن هاتين

المتعتين. فقد رأينا أن جدّتي ذكرت في الحال «الشانزيليزيه» حينما قيل لها إنّه ينبغي لها الآن أن تتنزّه كثيراً نزولاً عند رغبة الدكتور «دو بولبون». سوف يكون من اليسير عليّ أن أصحبها إلى هناك، وأن أتفق واصدقائي، فيما هي جالسة تقرأ، حول المكان الذي نلتقي فيه وسوف يتسع لي الوقت إن استعجلت نفسي لاستقل القطار معهم إلى «فيل دافريه». وفي الوقت المحدد لم تشأ جدّتي الخروج وقد ألفت نفسها متعبة. ولكن والدتي التي درّبها «دو بولبون» توافر لها العزم لتغضب وتفرض طاعتها. كادت تبكي لدى التفكير بأن جدّتي سوف يعاودها ضعفها العصبي ولن تبلّ منه. ولم يتفق أن آتى طقس بمثل هذا الجمال والدفء نزهتها إلى هذا الحدّ. كانت الشمس إذ تبدل من مكانها تدس ههنا وهناك في صلابة الشرفة المصدّعة حرائرها الرجراجة وتضفي على الحجر المنحوت قشرة دافئة وهالة من ذهب غير واضحة المعالم. ولما لم يتسع الوقت لـ «فرانسواز» لتبعث ببرقية لابنتها فقد غادرتنا بعد الغداء مباشرة. لقد كان جميلاً منها. أن دخلت قبل ذلك لدى «جوبيان» لتطلب إليه أن يرفأ المعطف الصغير الذي سترتديه جدّتي للخروج. وإذ عدت في ذلك الوقت من نزهتي الصباحية فقد ذهبت معها إلى دكان صانع الصداري. قال «جوبيان» لـ «فرانسواز» «أهو معلّمك الشاب الذي يجيء بك هنا، أم أنت من تجيء به أم أنّ ريحاً مؤاتية والأقدار تسوقكما معاً؟» كان «جوبيان»، مع أنّه لم يتابع دراسته، يحترم القواعد بالسليقة بقدر ما ينتهكها السيد «دو غيرمانت» على ما يبذل من جهود كثيرة. وبعدما ذهبت «فرانسواز» وتم إصلاح المعطف الصغير انبغى لجدّتي أن ترتدي ملابسها. ولما رفضت بقاء أمي معها فقد أمضت وحيدة وقتاً لاينتهي في ارتداء ثيابها، وأخذت، وأنا أعلم الآن أنها في تمام العافية وبهذه اللامبالاة الغريبة التي نبذلها لذوينا ما داموا على قيد الحياة والتي تفضي بنا إلى إنزالهم بعد كل الناس، أخذت أجدها شديدة الأنانية أن تنفق كلّ هذا الوقت وتوشك أن تؤخرني فيما تعلم أني على موعد مع أصدقاء وأزمع تناول العشاء في «فيل دافريه». وبلغ بي الأمر، وقد ضقت ذرعاً، أن أنزل مسبقاً بعدما قيل لي مرّتين أنها توشك أن تجهز. ولحقت بي أخيراً، دون أن تعتذر لي عن تأخرها كما كانت تفعل عادة في تلك الحالات، محمرة ساهية شأن من كان في عجلة من أمره ونسي نصف حاجاته، فيما كنت أصل على مقربة من الباب المزجج المشقوق الذي كان ينفذ الهواء اللزج الموشوش الدافئ من الخارج، وكأنما تم فتح خزّان، بين جدران الفندق الشديدة البرودة دون أن يبعث فيها أقل الدفء.

— «يا إلهي، كان بوسعي أن أرتدي معطفاً آخر بما أنك تزمع لقاء أصدقاء لك، فإن مظهري به يوحي بعض البؤس.»

وأدهشني مدى احتقان وجهها وأدركت أنها اضطرّت، وقد تأخرّت، أن تتعجل أمرها. ولما غادرنا العربة في مدخل شارع «غا برييل» في محلة «الشانزليزيه» رأيت جدّتي وقد تحوّلت دون أن تكلمني واتخذت تتجه إلى الكشك الصغير القديم المسيج بسياج أخضر حيث سبق أن انتظرت «فرانسواز» ذات يوم. كان لا يزال ثمة بالقرب من «المركيزة» الحارس الحراجي نفسه الذي كان هناك آنئذ حينما صعدت درجات المسرح الريفي الصغير المقام وسط الحدائق وأنا أتبع جدّتي التي كانت تضع يدها أمام فمها لأنّها لاشكّ كانت تحس بغثيان. وكما هي الحال في مدن الملاهي المتنقلة حيث يتقاضى المهرّج نفسه في الباب، وهو على أهبة الصعود إلى خشبة المسرح وقد غطّى وجهه بالطحين، ثمن المقاعد، كانت «المركيزة» لاتزال في المراقبة تستوفي رسوم الدخول بخطمها الهائل اللامنتظم المطلي بجص سميك وقبعتها الصغيرة التي من زهر أحمر ودانتيلا سوداء

تعلو شعرها المستعار الأصهب. على أنّي لا أظن أنها تعرفتني. وكان الحارس يتحدث وهو يجلس إلى جانبها وقد أهمل مراقبة مواضع الخضرة التي كانت بزّته تنسجم مع لونها.

كان يقول: «لازلت ههنا، أنت، ولاتفكّرين في التقاعد».

– «ولمَ أتقاعد يا سيد؟ هلاّ قلت لي أين أكون أفضل من هنا وأين توافر لي أكثر من هنا رفاهيتي وكلّ مايريحني؟ ثمّ هذه الجيئة والرواح لاينقطعان والتسلية، ذلك ما أدعوه باريسي الصغيرة: فزبائني يطلعونني على كل ما يجري. خذ مثلا ياسيد، هنالك أحدهم، وقد خرج منذ ما لايزيد عن خمس دقائق، إنّه قاض من أعلى المراتب. حسن، ياسيد»، تقول في صيحة حماس وكأنّها مستعدة لإثبات هذا التوكيد بالعنف إن أبدى رجل السلطة أنّه يشكك في صحتّها، «منذ ثماني سنوات، تفهمني تماماً، وفي سائر الأيام التي صنعها الله، تراه هنا حين تدقّ الثالثة، دائم التأدّب لا ترتفع له كلمة فوق أخرى ولا يوسخ قطّ شيئا ويظل أكثر من نصف ساعة ليقرأ صحفه وهو يقضي حاجته الصغيرة. يوم واحد لم يجيء فيه. ساعتها لم أنتبه للأمر، ولكني في المساء قلت فجأة في نفسي: «ويحي، هذا السيد لم يجيء وربما أدركته المنية.» لقد هزّني الأمر لأنني أتعلق حينما يكون الناس طيّبين. ولذلك أحسست بسر عظيم عندما عدت فرأيته في الغد، وقلت له: «لم يصبك أمر البارحة، ياسيدي؟» حينئذ قال لي هكذا إنّه لم يقع له شيء وإنّما امرأته التي ماتت وإنّه تأثر إلى حدّ أنّه لم يستطع المجيء. كان مظهره حزينا بالتأكيد، أنت تدرك ذلك، أناس زوجوا منذ خمسة وعشرين عاما، ولكنه كان يبدو مسروراً مع ذلك أن يعود. كنت تحس أنّه أزعج كلّ الازعاج في شؤون عاداته المألوفة. وقد حاولت أن أشدّد عزائمه فقلت له: سينبغي ألاّ تستسلم للأمر، تعال كما كنت من قبل، فسوف يأتيك ذلك بسلوى يسيرة في غمك.»

وأردفت «المركيزة تقول بلهجة أكثر لينا لأنّها لاحظت أنّ حامي كتل الزهر والخضائر يصغي إليها بسذاجه دون أن يخطر له أن يخالفها وقد أبقى في الغمد سيفاً مسالماً يبدو بالأحرى وكأنّه أداة بستنة أو مما كان خاصاً بالحدائق.

– «ثم إني انتقي زبائني، تقول، ولا أستقبل جميع الناس في ما أدعوه صالاتي. أليست تبدو بمثابة صالة إلى جانب زهوري؟ وبما أنّ لديّ زبائن لطافاً جدّا، فإن هذا أو ذاك يتلطف دوماً فيحمل إليّ غصناً صغيراً من ليلك جميل أو ياسمين، أو وروداً، وهي زهرتي المفضلة.»

واكتسى وجهي بالحمرة لدى التفكير بأننا ربّما كنا موضع نظرة سيئة لدى هذي السيدة إذ لا نحمل إليها في يوم ليلكاً أو وروداً جميلة، وتقدمت باتجاه باب الخروج أجهد في أن أتجنب جسدياً حكماً في غير صالحي – أو لأ تصدر الحكم بحقي إلاّ غيابياً. ولكن الأشخاص الذين يأتون بالزهور ليسوا على الدوام في الحياة أولئك الذين يبدي المرء أكثر اللطف لهم، فقد خاطبتني «المركيزة»، وفي ظنها أن الضجر أصابني، قائلة:

– ألا تريد أن أفتح لك قمرة صغيرة؟»

ولما رفضت أضافت تقول بابتسامة: «لا لست تريد؟ كان ذلك بكامل رضاي، ولكنّي أعلم تماماً أنّها حاجات لايكفي ألاّ تنقد ثمنها لتحس بها».

ودخلت باستعجال في تلك اللحظة امرأة رثة الثياب كان يبدو بالضبط أنّها تحسّ بها. ولكنها لم تكن من عالم «المركيزة»، فقد قالت لها هذه الأخيرة بجفاء وبقسوة المتحذلقين:

- «ليس من شاغر ياسيدتي»..

وسألت السيدة المسكينة وقد كستها الحمرة تحت أزهارها الصفر: «وهل سيطول بي الأمر»؟

- «آه! أنصحك ياسيدتي بالذهاب إلى مكان آخر، فأنت ترين، لايزال هنالك هذان السيدان ينتظران»، تقول وهي تشير إليّ وإلى الحارس، «وليس لديّ سوى بيت خلاء واحد، فالآخر في طور الإصلاح...» وقالت المركيزة: «هذه هيئة من يماطل في دفع ما بذمتّه، ولايبدو أنّها من طرازنا هنا، فلا نظافة ولا احترام وإنما سينبغي لي أن أمضي ساعة في التنظيف للسيدة. لست نادمة على فلسيها.»

وأخيراً خرجت جدّتي بعد نصف ساعة ونيف، وإذ خطر لي أنّها لن تحاول أن تستر باكراميّة ما أبدت من عمل غير محتشم لبقائها وقتاً كهذا عدت القهقرى كي لا يصيبني جزء من الازدراء الذي ستبديه لها «المركيزة» دون شك وسلكت ممراً ولكن على مهل كي تستطيع جدّتي اللحاق بي بسهولة ومتابعة السير معي. وذلك ماتم بعد قليل. كنت أحسب أنّ جدّتي ستبادرني بقولها: «لقد جعلتك تنتظر طويلاً وآمل أنّ لن يفوتك على الرغم من ذلك لقاء أصدقائك»، ولكنّها لم تنطق بكلمة واحدة حتى إني لم أشأ، وقد خاب أملي إلى حدّ، أنّ أتحدّث الأوّل إليها. وحين رفعت العين إليها رأيت أنّها تحوّل رأسها في الجانب الآخر فيما تسير بالقرب مني. وخشيت أنّها تعاني من غثيان بعد. وأنعمت النظر إليها ودهشت لمشيتها المهتزّة. كانت قبعتها مائلة ومعطفها متسخاً وكانت تبدي اضطرابا واستياءً، محمرّة الوجه مهتمة كمن دفعته عربة أو أخرج من حفرة.

وقلت لها: خشيت أن أصابك غثيان ياجدّة، فهل أنت أحسن حالاً؟» وليس من شك أنّها حسبت أنّه يستحيل عليها ألاّ تجيبني دون أن تبعث القلق في نفسي، فقالت لي:

«لقد سمعت كامل الحديث بين «المركيزة» والحارس، وكان ألصق ما يكون بطراز آل «غيرمانت» وحلقة آل «فيردوران» الضيقة. يا الله! بأية كلمات رقيقة صيغ الحديث!» وأضافت إلى ذلك جاهدة، والاستشهاد لمركيزتها هي، السيدة «دو سيفينييه»: «ظننت إذ كنت أصغي إليها أنّها تعدّ لي متع الوداع.»

تلك كانت العبارات التي اسمعتني إيّاها والتي ضمنتها كامل رقتها وميلها إلى الشواهد وما تحفظ من روائع الأدباء، بل زادت قليلاً عمّا لعلها كانت تفعل عادة وكأنما لتبدي أنّ ذلك ملك يديها. ولكني خمنت تلك الجمل أكثر مما تمّ لي سماعها لفرط ما نطقت بها مدمدمة وهي تضغط على أسنانها أكثر مما يمكن أن يفسّره خوفها من الاقياء.

فقلت لها بشيء من الاستخفاف كي لايبدو أني آخذ وعكتها على محمل الجدّ: «هيا، بما أنك تحسين بغثيان طفيف، سوف نعود إن شئت، فلست أريد أن أحمل إلى النزهة في «الشانزيليزيه» جدّة تشكو عسر هضم.»

فأجابتني قائلة «وما كنت أجرؤ أن أعرض الأمر عليك بسبب أصدقائك. ياصغيري المسكين! ولكنما الأمر أكثر حكمة بما أنك راضٍ به».

وخشيت أن تلاحظ الطريقة التي كانت تنطق بها بتلك الكلمات، فقلت لها بجفاء: «هيا، لاتجهدي النفس في التحدّث، وبما أنك تحسّين بغثيان فانتظري على الأقلّ أن نكون عدنا فذلك غير منطقي.»

وابتسمت لي ابتسامة حزينة وشدّت على يدي. لقد أدركت. ألاّ سبيل إلى أن تخفي عليّ ما قد خمّنته في الحال: لقد أصيبت منذ قليل بنوبة قلبية طفيفة.

❖

القسم الثاني



الفصل الأول



مرض جدتي – مرض «بيرغوت»

– الدوق والطبيب – انحطاط قوى جدتي – موتها

عدنا فاجتزنا شارع «غابرييل» وسط جمهور المتنزّهين. وأجلست جدّتي على مقعد وذهبت في طلب عربة. أمّا هي التي كنت أقف أبداً في قلبها لأقيّم أكثر الناس تفاهة فقد أضحت الآن مغلقة النفس دوني. لقد باتت جزءاً من العالم الخارجي وأراني مضطراً أن أكتمها مايراودني بشأن حالتها وأن أكتمها مخاوفي أكثر منّي مع مجردّ عابري سبيل. وما كان بوسعي أن أروي لها عن الأمر بثقة أكثر ممّا أفعل مع غريبة. لقد ردّت إليّ منذ قليل الأفكار والغموم التي سبق أن استودعتها إيّاها إلى الأبد منذ طفولتي. لم تكن بعد قد ماتت، وكنت مذ ذاك وحيداً. حتّى تلك التلميحات إلى آل «غير مانت» و«موليير» وأحاديثنا حول النواة الصغيرة كانت تتّخذ هيئة لا ركيزة لها ولاسبب، هيئة من عالم الخيال لأنّها تصدر عن هذا الكائن عينه الذي ربّما لن يظلّ موجوداً في غد والذي لن يظلّ لها في نظره أيُّ معنى، عن هذا العدم– العاجز عن تصورها – الذي ستصير إليه جدّتي عمّا قريب.

– «لست أنكر ياسيّد، ولكنّك لم تحصل على موعد منّي، ولا رقم لك. وليس اليوم على أيّة حال يوم استشارتي. لابدّ أنّ لك طبيبك، ولا أستطيع أن أحلّ محلّه إلاّ إذا أرسل يدعوني للمشاورة. إنّها مسألة تسلسل وأدب...».

وكنت في اللحظة التي أشير فيها إلى إحدى العربات التقيت بالأستاذ الشهير أ...، وهو صديق والدي وجدّي تقريباً وعلى علاقة بهما على أيّة حال، وكان يسكن في شارع «غابرييل» فأوقفته، وقد هبط عليّ وحي مفاجئ، لحظة كان يعود إلى بيته ظنّا منّي أنّه ربّما أشار أحسن المشورة بالنسبة إلى جدّتي. ولكنّه همّ، وهو معجل بعدما أخذ رسائله، يريد أن يصرفني ولم أستطع التحدّث إليه إلا باستقلالي وإيّاه المصعد الذي رجاني أن أدع له تحريك أزراره، إذ الأمر هوس لديه.

–«ولكنّي لا أسألك استقبال جدّتي، ياسيّد، وستدرك بعد الذي سأقوله، أنّها قلّما تستطيع، أسألك على العكس أن تمرّ في غضون نصف ساعة إلى بيتنا حيث تكون عادت».

– «أمرّ إلى بيتكم؟ إنّك لاتفكّر في ما تقول ياسيّد. سأتناول طعام العشاء لدى وزير التجارة وينبغي أن أقوم بزيارة قبل ذلك وسأبدّل ثيابي في الحال. يزيد في الطين بلّة أنّ ردائي تمزّق وأنّ الآخر لاعروة له لوضع الأوسمة. أرجوك، تكرّم عليّ بألاّ تلمس أزرار المصعد فأنت لاتحسن تحريكها. لابدّ من الحذر في كل شيء. هذه العروة سوف تزيد من تأخيري. على كلّ حال. وبداعي صداقتي لذويك، إن جاءت جدتك في الحال فسوف استقبلها. ولكنّي أحذّرك من أنّه يكاد لايتّسع لي سوى ربع ساعة أصرفها لها».

كنت قد عدت في الحال، وكدت لم أخرج من المصعد الذي حرّكه الأستاذ أ... بنفسه كي يحملني على النزول، ولايغفل أن ينظر إليّ محاذراً.

نحن نقول أنّ ساعة الموت غير أكيدة، ولكنّنا حين نقول ذلك إنّما نتمثّل هذه الساعة وكأنّها واقعة في مكان مبهم بعيد ولا نظنّ أنّ لها علاقة. أيّة علاقة، بالنهار الذي بدأ ويمكن أن تعني أنّ الموت – أو امتلاكه الأوّل الجزئيّ لنا والذي لن يتركنا بعده– يمكن أن يحدث في هذا العصر نفسه، وما أقلّ إبهامه، هذا العصر الذي نُظّم فيه سلفاً استخدام الساعات جميعها. أنت تحرص على نزهتك ليتوافر لك في الشهر مجموع الهواء النقّي اللازم، وقد تردّدت في اختيار معطف تحمله معك والحوذيّ الذي ينبغي استدعاؤه، وإنّك في العربة والنهار كلّه أمامك قصير المدى لأنّك تبغي أن تكون عدت في الوقت المناسب لاستقبال إحدى الصديقات ؛ وتودّ أن يكون الطقس في الغد في مثل صحوه، ولا يخطر لك أنّ الموت الذي كان يسري فيك على مستوى آخر وسط ظلمة لاتنفذ إليها الأبصار قد اختار بالضبط هذا النهار ليدخل مسرح الأحداث بعد بضع دقائق في اللحظة التي ستبلغ فيها العربة تقريباً منطقة الـ«شانز يليزيه». وربمّا وجد الذين يلاحقهم بالعادة هلع الغرابة الخاصّة بالموت شيئاً من الطمأنينة في هذا النوع من الموت – في هذا النوع من الاتّصال الأوّل بالموت– لأنّه يحمل فيه مظهراً معهوداً ومألوفاً ويومياً. لقد سبقه غداء طيبّ والنزهة نفسها التي يقوم بها الناس المعافون. إن عودة في عربة مكشوفة تنضاف إلى إصابته الأولى ؛ ومهما يبلغ المرض من جدّتي فقد كان بوسع عدّة أشخاص أن يقولوا إنّهم حيّوها، حينما عدنا من «الشانز يليزيه». وهي تمرّ في عربة مكشوفة وفي طقس رائع. وقد حيّانا «لوغراندان» الذي كان يتّجه إلى ساحة «الكونكورد» بحركة أدّاها بقبعته وهو يتوقفّ مستعجباً. وسألت جدّتي، أنا الذي لم يتجرّد بعد عن الحياة، إن هي ردّت عليه مذكّراً إيّاها بأنّه سريع التأثر. أمّا جدّتي فقد ألفتني دونما شكّ شديد الطيش ورفعت يدها كأنّما لتقول: «وماذا في الأمر؟ لا أهميّة لذلك على الإطلاق».

أجل، كان يمكن القول منذ قليل، حينما كنت أبحث عن عربة، إن جدّتي كانت تجلس على مقعد في شارع «غابرييل» وإنّها مرّت بعد ذلك بقليل في عربة مكشوفة. ولكن، أكان ذلك صحيحاً تمام الصحّة؟ إنّ المقعد لا حاجة به، فيما يخصّه، كيما يقيم في أحد الشوارع– مع أنّه يخضع بدوره لبعض شروط التوازن– لقدرة معيّنة. ولكنّما ينبغي، كيما يكون الكائن الحيّ مستقراً وإن استند إلى مقعد أو داخل عربة، توتّر قوى لانحس بها عادة أكثر ممّا نحسّ بالضغط الجوي (لأنّه يتمّ في جميع الاتّجاهات). وربّما شعرنا، لو تحقق، الفراغ في داخلنا وتُركنا نتحمّل ضغط الهواء، ربّما شعرنا في أثناء اللحظة التي تسبق تدميرنا بالثقل الرهيب الذي لا يعطّله شيء من بعد. كذلك حينما تنفتح فينا هاويات المرض والموت ولا يظلّ لدينا من بعد ما نضعه قبالة الضوضاء الذي يكرّ به علينا العالم وجسدنا نفسه، اقتضانا حينذاك حتّى تحمّل فكرة عضلاتنا، حتّى الرعشةُ التي تزرع الدمار في مخاخنا، حتّى الوقوف بلا حراك في مانظنّه عادة محض الوضع السلبي للشيء اقتضانا حينذاك، إن شئنا أن يظلّ الرأس قائماً والنظرة هادئة، طاقةً حيويّة وأصبح موضع عراك مضن.

ولئن نظر إلينا «لوغراندان» بهذه الهيئة المستعجبة فلأنّ جدّتي ظهرت له ولجميع الذين كانوا يمرّون حينذاك على السواء، ظهرت، في العربة التي كانت تبدو جالسة فيها على المقعد، كأنّها تهوي، كأنّها تنزلق

إلى الهاوية وتتشبّث يائسه بالمساند التي تكاد لاتستطيع احتجاز جسدها المندفع، والشعر منكوش والعين شاردة لاتقوى من بعد على مجابهة كرّ الصور التي لم تعد حدقتها تفلح في حملها. لقد ظهرت، مع أنّها بالقرب منّي، غارقة في هذا العالم المجهول الذي سبق أن تلقّت في صميمه الضربات التي كانت تحمل آثارها حينما شاهدتها منذ قليل في «الشانزيليزيه» وقد عبثت بقّبعتها ووجهها ومعطفها يد الملاك الخفيّ الذي صارعته.

لقد خطر لي مذ ذاك أن تلك اللحظة من النوبة التي أصابت جدّتي لابدّ لم تفاجئها تمام المفاجأة، بل لعلّها توقّعتها قبل الأوان بفترة طويلة وعاشت في انتظارها. هي لم تعلم دونما ريب متى تحلّ تلك اللحظة المحتومة وبها حيرة، مثلها في ذلك مثل العشّاق الذين يدفعهم شكّ من ذات القبيل إلى أن يبنوا آمالا غير معقولة تارة وطوراً شكوكاً ليس لها مايبرّرها حول إخلاص عشيقتهم. على أنّه يندر لمثل تلك الأمراض الجسيمة الشبيهة بذاك الذي أصابها في نهاية المطاف إصابة صريحة ألاّ تتّخذ مسكناً لها فترة طويلة لدى المريض قبل أن تقتله وألاّ تحمله في أثناء تلك الفترة، شأن جار أو مستأجر سريع الصلة بالغير، إلى التعرّف بها. وإنّه لتعارف رهيب، وأقلّ رهبة من جراء الآلام التي يسبّبها منه من جرّاء الجدّة الغريبة للقيود النهائيّة التي يفرضها على الحياة. فأنّك تبصر ذاتك تموت في هذه الحالة، لا في لحظة الموت نفسها، بل قبل ذلك بشهور وأحياناً بسنين منذ أن أقبل بقبحه ليسكن لدينا. إن المريضة لاتعرّف شكله ولكنّها تستخلص عاداته من الضجيج الذي تسمعه يحدثه بانتظام. فهل هو فاعل سوء؟ إنّها ذات صباح لاتسمعه من بعد. لقد مضى. آه! لو يدوم الأمر أبداً! فها هو ذا في المساء قد عاد. ماهي مقاصده؟ ويجيب الطبيب المستشار بعدما يطرح عليه السؤال، يجيب كعشيقة معبودة بأيمان تصدّق هذا اليوم ويرتاب بها في ذاك. والطبيب على أيّ حال يؤدّي دور الخدم المساءلين أكثر منه دور العشيقة. فليس الخدم إلاّ السوّى. أمّا تلك التي نشدّها إلينا، والتي نشكّ أنها على شفا أن تخوننا، فهي الحياة بعينها، ومع أنّنا لا نشعر من بعد أنّها لاتزال ذاتها فإنّنا نظلّ نؤمن بها. نظلّ في جميع الأحوال سجناء الشكّ إلى اليوم الذي تكون فيه قد هجرتنا.

وضعت جدّتي في مصعد الأستاذ أ... وبعد لحظة أقبل إلينا وأدخلنا إلى مكتبه. ولكنّه وإن يكن معجلاً فقد تبدّلت هنا هيئته المتعجرفة لشدّة ما العادات قويّة، وكان من عادته أن يكون لطيفاً مع مرضاه، وحتّى ممزاحاً. ولمّا كان يعرف جدّتي طويلة الباع في الثقافة وكان هو على ذاك فقد أخذ يروي لها على مدى دقيقتين أو ثلاث أبياتاً جميلة حول الصيف المشرق الذي كان سائداً. وكان قد أجلسها فوق كنبة وظلّ بعكس الضوء كي يحسن رؤيتها. وجاء فحصه دقيقاً واقتضى حتّى أن أخرج برهة. وتابعه أيضاً لمّ شرع، بعدما انتهى ومع أنّ ربع الساعة قارب النهاية، يعيد على جدّتي بعض الاستشهادات. ووجّه إليها حتّى بعض المزحات المرهفة إلى حدّما والتي لعلّني كنت فضّلت سماعها في يوم آخر وذكرت حينذاك أنّ السيّد «فاليير» رئيس مجلس الشيوخ أصيب منذ عدّة سنوات بنوبة كاذبة وأنّه أخذ بعد ثلاثة أيّام، واليأس يطبق على منافسيه، يمارس وظائفه من جديد وكان يعدّ، فيما يقولون، لترشيح بعيد أو قريب لرئاسة الجمهورية. وازدادت ثقتي بشفاء جدّتي السريع تماماً بقدر ما انتشلتني، لحظة كنت أتذكّر مثال السيّد «فالييره»، من فكرة هذه المقاربة قهقهة صريحة ختمت مزحة للأستاذ أ... وإذ ذاك أخرج ساعته وقطّب الحاجب باضطراب إذ رأى أنّه تأخّر خمس دقائق، وفيما كان يستودعنا رنّ الجرس كي يجيئوه في الحال بردائه. وتركت جدّتي تمرّ أمامي وأغلقت الباب وسألت العالم الحقيقة. فقال لي:

- «جدّتك ميؤوس منها. إنّها نوبة ناجمة عن تسمّم بولي. وليس التسّمم البوليّ في حدّ ذاته مرضاً قاتلاً بالضرورة ولكنه الحالة تبدو لي ميؤوساً منها. لاحاجة لي أن أقول لك إنّي آمل أن أكون مخطئاً. أنتم مع «كوتار» بين أيد أمينة». ثم قال لي وهو يبصر خادمة تدخل وتحمل على ذراعها رداء الأستاذ الأسود: «معذرة، أنت تعلم أنّي أتناول طعام العشاء في منزل وزير التجارة وعليّ أن أقوم بزيارة قبل ذلك. آه! ليست الحياة وروداً فحسب، كما يظنّون ذلك في سنّك».

ومدّ إليّ يده بلطف. كنت قد أغلقت الباب فيما يقودنا خادم أنا وجدّتي عبر غرفة الانتظار حينما سمعنا صيحات غضب كبيرة. فقد كانت الوصيفة نسيت أن تثقب العروة للأوسمة، والأمر سيتطلّب عشر دقائق أخرى. كان الأستاذ يوالي صراخه فيما كنت أتامل على صحن الدرج جدّتي الميؤوس منها. كلّ امرئ وحيد تماماً ومضينا ثانية إلى البيت.

كانت الشمس آخذة في الأفول، وكانت تلهب جداراً لاينتهي ينبغي لعربتنا أن تحاذيه قبل الوصول إلى الشارع الذي كنّا نقطن فيه، جداراً يبرز عليه أسود على خلفيّة ضاربة إلى الحمرة، كعربة موتى على فخّار من «بومبيي». ظل الحصان والعربة الذي يسقطه الغروب. وأخيراً وصلنا. وأجلست المريضة في أسفل الدرج في الردهة وصعدت أخطر والدتي. قلت لها إن جدّتي تعود وبها وعكة بسيطة إذ قد أصيبت بدوار. ومنذ كلماتي الأولى بلغ وجه أمي ذروة يأس بدت تسلّم به مع ذلك إلى حدّ بعيد أدركتُ معه أنّها كانت تحتفظ به منذ سنوات كثيرة جاهزاً في داخلها من أجل يوم غير معيّن وأخير. ولم تسألني شيئاً ؛ كان يبدو، مثلما يحلو للأذيّة أن تبالغ في آلام الآخرين، أنّها لم تشأ، بداعي الحنان، أن تسلّم بأنّ والدتها مصابة إصابة بالغة، ولاسيّما بمرض يمكن أن يمسّ العقل. كانت والدتي ترتعش ويبكي وجهها دونما دموع، وجرت تقول أن يذهبوا في طلب الطبيب، ولكنّها لم تستطع الإجابة إذ كانت «فرانسواز» تسأل من كان مريضاً، وتوقفّ صوتها في حنجرتها. وانحدرت تجري معي وهي تزيل عن محيّاها الزفرة التي تغضّنه. كانت جدّتي تنتظر في الأسفل على أريكة الردهة ولكنّها اعتدلت ما أن سمعتنا ونهضت واقفة ولوّحت لوالدتي باشارات مرحة من يدها. وكنت قد أحطت رأسها نصف إحاطة بخمار من الدانتيلا البيضاء قائلاً لها إن الغرض من ذلك أن لايصيبها البرد في الدرج. فما كنت أريد أن تلاحظ أمّي كثيراً امتقاع الوجه والتواء الفم ؛ وجاءت حيطتي عديمة الجدوى، فقد اقتربت أمّي من الجدّة وقبلّت يدها وكأنما يد إلهها وساندتها وحملتها إلى المصعد بصنوف من الحيطة لاحدّ لها تجد فيها إلى جانب خشية أن تكون هوجاء وتؤذيها تواضع من يحسّ أنّه غير أهل لملامسة مايعلم أنه أثمن الثمين، ولكنّها لم ترفع عينيها مرّة ولانظرت لي وجه المريضة. ربّما كان ذلك كي لا تغتّم هذه وهي تظنّ أن رؤيتها أمكن أن تقلق ابنتها. وربّما مخافةَ ألم بالغ العنف لم تجرؤ على مواجهته. وربّما بداعي الإجلال لأنّها لا تعتقد أنّه يسعها دونما عقوق أن تلاحظ أثر أيّ وهن عقلي على الوجه المكرّم. وربّما كي تحفظ فيما بعد على حالها وعلى نحو أفضل صورة وجه أمّها الحقيقيّ يشعّ ذكاء وطيبة. وهكذا صعدنا الواحدة إلى جانب الأخرى، تختفي جدّتي خلف خمارها وتشيح والدتي بعينيها.

وفي أثناء ذلك كان ثمة شخص لايرفع عينيه عمّا يمكن أن يُستشفّ من ملامح جدّتي المتغيّرة التي لاتجرؤ ابنتها أن تراها، شخص يثبت عليهما نظرة دهشة وفضول وشؤم: إنها «فرانسواز». وليس يعني ذلك أنّها

لاتحبّ جدّتي حبّاً صادقاً (بل هي خاب ظنّها وأثار استنكارها برودة والدتي وكانت تودّ لو رأتها ترتمي باكية بين ذراعي والدتها)، ولكنّما كان بها ميل إلى توقّع الأسوأ أبداً واحتفظت من طفلتها بخاصيتين تبدوان وكأنّما ينبغي أن تتنافيا ولكنّهما حينما تجتمعان تقوي إحداهما الأخرى، عنينا قلّة تهذيب عامّة الناس الذين لايحاولون إخفاء الإنطباع،بل الرعب المؤلم الذي تبعثه فيهم رؤية تبدّل جسميّ ربّما كان أكثر لباقة أن لايبدو المرء وكأنّه يلاحظه، والخشونة البعيدة عن الإحساس لدى الفلاّحة التي تنتزع أجنحة اليعاسيب قبل أن تتوافر لها فرصة دقّ أعناق الفراريج وينقصها الاحتشام الذي قد يحملها على إخفاء الاهتمام الذي تحسّ به لرؤية الجسد الذي يتعذّب.

حينما تمّ وضع جدّتي في سريرها بفضل عناية «فرانسواز» التامّة. تبينتُ أنّها كانت تتكلمّ بسهولة أكبر إذ لابدّ أنّ التمزّق الضئيل أو الاختناق الذي أحدثه التسمّم البوليّ في أحد الأوعية كان طفيفاً جدّاً حينئذ شاءت ألاّ تكون بعيدة عن أمّي وأن تعينها في أقسى ما لعلّ هذه الأخيرة اجتازت من لحظات.

وقالت لها، وهي تأخذ يدها وتمسك بالثانية أمام فمها كي توفرّ هذا السبب الظاهر للصعوبة الطفيفة التي لاتزال تعاني منها في لفظ بعض الكلمات: «ماذا، يا ابنتي! أهكذا ترثين لحال أمّك! أراك تظنّين أنّ ليس يزعج سوء الهضم!».

حينئذ حطّت عينا والدتي للمرّة الأولى بحرارة على عيني جدّتي إذ لاتبغي أن تبصر بقيّة وجهها وقالت وهي تبدأ لائحة تلك الأيمان الكاذبة التي لانستطيع البرّ بها:

– «سوف تشفين عمّا قريب يا أمّي، ذلك عهد على ابنتك».

واحتسبت أشدّ حبّها وكامل مبتغاها لأن تشفى والدتها في قبلة استودعتها إيّاهما ورافقتها بفكرها وبكلّ كيانها حتّى حافة شفتيها وأقبلت تطبعها بتواضع وورع على الجبين الحبيب.

كانت جدّتي تشكو من نوع من انجراف الأغطية وكان يتمّ على الدوام في الجهة نفسها على ساقها اليسرى وما كانت تفلح في رفع تلك الأغطية. على أنّها لم تكن لتتبيّن أنّها كانت هي السبب (حتّى أنّها اتّهمت في كل يوم «فرانسواز» زوراً أنّها تسيء ترتيب سريرها). فقد كانت تلقي بحركة تشنّجية في ذلك الجانب كامل سيل تلك الأغطية المزبدة التي من صوف ناعم والتي كانت تتكدّس فيه كالرمال في خليج صغير سرعان ما يستحيل شاطئاً رملياً (إن لم نبنِ فيه سدّا) من جرّاء أجلاب الموج المتعاقبة.

أمّا أنا (الذي كان كذبه يُكتشف سلفاً على يد «فرانسواز» الثاقبة النظرة والمسيئة) وأمّي فما كنّا حتّى نبغي أن نقول إنّ جدّتي مريضة جدّاً كما لو أمكن ذلك أن يسرّ الأعداء، ولا أعداء لها على أيّة حال، وكما لو بدا أكثر حناناً أن نجد أنّها ليست سيئة الحال إلى هذا الحدّ. وذلك باختصار القول بالإحساس الغريزي نفسه الذي حملني على افتراض أن «آندريه» كانت تفرط من الرثاء لحال «ألبيرتين» كيما تحبّها كثيراً. وإنّ الظاهرات نفسها تتكرّر من خاصّة الناس إلى الجمهور في الأزمات الكبيرة. إنّ الذي لايحبّ بلاده لايتناولها بسوء في الحرب ولكنّما يعتقد أنّها هالكة ويرثي لحالها ويرى الأمور بلون السواد.

كانت «فرانسواز» تؤدّي لنا خدمة لاحدود لها بقدرتها على الاستغناء عن النوم وأداء أكثر الأشغال مشقّة. فإن اضطررت، بعدما ذهبتُ لتنام عدّة ليال أمضتها واقفة، أن تناديها ربع ساعة بعدما أخذها النوم، كانت سعيدة أن تستطيع أداء أمور شاقّة كما لو كانت أبسط مافي العالم إلى حدّ تبدي معه على وجهها الرضى والتواضع بدلاً من أن تمتعض. فلمّا حينما تحلّ ساعة القداس وساعة الإفطار فلعلّ «فرانسواز» كانت تتوارى في الوقت المناسب كي لا تتأخّر وإن كانت جدّتي في طور النزاع. وما كانت تستطيع ولاهي تريد أن يحلّ محلّها خادمها الشابّ. أجل، لقد حملت من «كومبريه» فكرة رفيعة جدّاً عن واجبات كلّ واحد تجاهنا، وما كانت لتسمح أن يقصّر أحد خدمنا في احترامنا. وقد جعل ذلك منها مربيّة كريمة متجبّرة فعّالة إلى حدّ أنّه لم يتفق أن كان لدينا خدّام مفسدون إلى حدّ بعيد لم يبدّلوا وينقّوا بسرعة مفهومهم للحياة إلى حدّ أنّهم لايقبضون فلساً واحداً من بعد ويسارعون- مهما كانوا قليلي المروءة-حتى ذاك - كي يأخذوا من يديّ أيّة رزمة ولايدعوا لي أن أتعب في حملها. إلا أن «فرانسواز» كانت قد اتخذت في «كومبريه» أيضاً- وحملت معها إلى باريس- عادة ألاّ تطيق احتمال أيّة مساعدة في عملها. فأن ترى من يمدّ لها يد العون كان في نظرها إهانة توجّه إليها وقد ظلّ بعض الخدم أسابيع دون أن يحصلوا منها على ردّ على تحيّتهم الصباحيّة، بل هم ذهبوا لقضاء العطلة دون أن تودّعهم ودون أن يحزروا لماذا، والأمر بالحقيقة لمحض أنّهم أرادوا أن يقوموا بشيء من عملها في يوم كانت فيه متوعّكة. وفي هذه الفترة التي كانت فيها جدّتي في أسوأ حال كان عمل «فرانسواز» يبدو لها ملك يديها على نحو خاصّ. فما كانت تريد، هي صاحبة الحقّ، أن تسمح بسرقة دورها في هذه الأيّام الاحتفاليّة وما كان خادمها الشابّ الذي استبعدته يعلم ما يفعل وقد أخذ، إذ لم يكتف بأنّه أخذ أوراقي من مكتبي على غرار «فيكتور»، أخذ إلى ذلك يحمل معه مجلّدات شعريّة من مكتبيّ. وكان يقرؤها، على مدى نصف نهار ويزيد، داعي الإعجاب بالشعراء الذين ألّفوها وكيما يرصّع كذلك في الجزء الآخر من وقته بالشواهد الرسائل التي كان يسطّرها لأصدقائه في القرية. كان يأمل بالتأكيد أن يبهرهم بذلك. بيد أنّه لّما كان قليل الترابط في أفكاره فقد شكّل في ذاته هذه الفكرة التي قوامها أن تلك القصائد التي وجدها في مكتبي كانت أمراً يعرفه سائر الناس ومن الشائع العودة إليه، فكان بذلك إذ يكتب إلى هؤلاء الفلاحين الذين يتوقّع إذهالهم يمزج أفكاره الخاصّة بأبيات لـ«لامارتين» كما لعلّه كان قال: من يعش يرَ، أو حتّى: صباح الخير.

سُمِحَ لجدّتي بالمورفين بسبب ما تعاني من آلام: ولئن كان هذا الأخير يسكّنها فقد كان لسوء الحظّ يزيد كذلك من كميّة الزلال. فالضربات التي كنّا نوجهّها للداء الذي سكن داخل جدّتي كانت تخطئ الهدف أبداً، فهي التي كانت تتقبّلها، وكذلك جسدها المسكين الذي حلّ بين الداء والدواء، دون أن تشتكي إلاّ بأنين ضعيف. وما كانت الآلام التي نسبّبها لها، ما كانت تستعاض بخير لانستطيع أن نوفّره لها. والداء الشرس الذي وددنا لو نقضي عليه لم نلامسه إلاّ قليلاً وكنّا نزيد فحسب من حدّته وربّما استعجلنا الساعة التي ستفترس فيها السجينة. كان «كوتار» يرفض المورفين، بعد تردّد، في الأيّام التي يتجاوز فيها الزلال الحدّ. فقد كان لدى هذا الرجل التافه إلى حدّ بعيد والعاديّ إلى حدّ بعيد، في هذه اللحظات القصيرة التي يتفكّر فيها والتي تتصارع فيها في صدره مخاطر علاج وآخر إلى أن يتوقّف عند أحدهما، كان لديه ما يشبه عظمة جنرال يثير مشاعرك، هو العاميّ في باقي الحياة، بقراره لحظة يحيق الخطر بمصير الوطن، حينما يخلص بعدما تردّد

لحظة إلى ما كان أكثر الأمور حكمة على الصعيد العسكريّ فيقول: «اصمدوا شرقاً». كان ينبغي على الصعيد الطبيّ، مهما قلّ الأمل في وضع حدّ لنوبة التسمّم البوليّ هذه، ألاّ تُرْهَقَ الكلية. بيد أنّ أوجاع جدّتي كانت لانطاق من جهة أخرى حينما لايتوافر لها المورفين، وكانت تكرّر دونما انقطاع حركة يصعب عليها تحقيقها دون أنين: فالألم في جزء كبير منه ضرب من حاجة الجسم إلى أن يعي حالة جديدة تقلقه، وأن يجعل الإحساس مطابقاً لهذه الحالة. ويمكن تمييز منشأ الألم هذا في حال مزعجات ليست كذلك بالنسبة إلى سائر الناس. ففي غرفة ملأى بدخان ثاقب الرائحة يدخل رجلان فظّان ويقومان بأعمالهما، ويبدي ثالث أدقّ بنية اضطراباً لاينقطع. فلن يتوقف منخره عن أن يستنشق بقلق الرائحة التي ينبغي، فيما يبدو، أن يحاول إغفال شمّها والتي يجهد في كلّ مرّة أن يلصقها بفضل معرفة أكثر دقّة بحاسة شمّه المزعوجة. من ذلك ينشأ دونما شكّ أنّ اهتماماً شديداً يحول دون أن نشتكي من ألم أسنان عنيف. فحينما كانت جدّتي تتألم على هذا النحو كان العرق ينساب على جبينها الواسع البنفسجي الشاحب ويلصق به الخصل البيضاء، فإن ظنّت أنّنا لسنا في الغرفة أطلقت صرخات: «آه! ما أفظع ذلك!» ولكنّها إن لمحت أمّي استخدمت في الحال كامل قوتها لتمحو عن وجهها آثار الألم أو ردّدت على العكس الأنّات نفسها وترافقها بايضاحات تضفي رجعياً معنى آخر على تلك التي أمكن أن تسمعها أمّي:

– «آه! يابنتي، إنّه لأمر فظيع أن يظلّ المرء طريحاً في هذا الطقس المشمس الجميل حينما يودّ الذهاب في نزهة، إنّي أبكي حنقاً من إرشاداتكم».

ولكنّها لم تكن تستطيع الحيلولة دون أنين نظراتها وعرق جبينها والانتفاضة المتشنّجة في أعضائها والتي تكتمها في الحال.

– «ليس بي ألم، إنّي أشكو لأني راقدة على نحو غير مريح وأحسّ شعري مشعثاً ويوجعني بطني وقد ارتطمت بالجدار».

أمّا أمّي، وهي على حضيض السرير مشدودة إلى ذاك الألم كما لو انبغى لها في النهاية، لشدّة ما تخترق بنظرتها هذا الجبين الموجع، هذا الجسد الذي يحتوي الداء، أن تبلغه وتحمله، فكانت تقول:

– «لا، يا أميمتي، لن ندعك تتألّمين على هذا النحو، سوف نجد شيئاً، فتجمّلي بالصبر ثانية، وهل تسمحين أن أعانقك دون أن يقع عليك القيام بحركة؟».

وإذ تنحني فوق السرير مثنيّة الساقين نصف جاثية كما لو يتوافر لها، كلّما ازدادت اتّضاعاً، حظ أكبر في أن يقبَل جودها المهموم بذاتها، كانت تميل على جدّتي بكامل حياتها تحملها في وجهها وكأنّما في كأس قربان تمدها إليها، كأس ازدانت بنقوش بارزة من غمّازات وتجاعيد حارّة حزينة عذبة إلى حدّ لاتعلم معه إن كان قد حفرها فيه إزميل قبلة أم زفرة أم إبتسامة. كانت جدّتي بدورها تحاول أن تمدّ وجهها صوب أمّي، وكان قد تغيّر إلى حدّ أنّها ما كانت لتعرَفَ دونما شكّ، لو توافرت لها القدرة على الخروج، إلاّ من ريشة قبّعتها. كانت ملامحها تبدو وكأنّما تجدّ، كما هي الحال في جلسات صنع النماذج، من خلال جهد يصرفها عن كل ماتبقّى، في مطابقة نموذج ما كنّا نعرفه. وكان عمل المثّال هذا يقارب نهايته ولئن تقلّص

وجه جدّتي فقد تصلّب كذلك. وكانت الأوردة التي تخترقه تبدو وكأنّها لاعروق المرمر بل عروق حجر أكثر خشونة. ولّما كانت تنحني أبداً إلى الأمام من جرّاء صعوبة التنفّس فيما تنطوي على ذاتها في الوقت نفسه من جرّاء التعب فقد كان وجهها الخشن المقلّص المعبّر إلى حدّ فظيع يبدو وكأنّه، في نحت قديم يقارب أن يرتقي إلى ما قبل التاريخ، الوجه الخشن الضارب إلى البنفسجي الأصهب اليائس لحارسة قبر متوحشة. ولكنّ العمل لم يكن قد أُنجز بكامله، ولابدّ بعد ذلك من تحطيمه ثم إنزاله في هذا القبر – الذي تمّت حراسته بهذا القدر من المشقّة وهذا التشنّج القاسي–.

وفي واحدة من تلك اللحظات التي لايدري المرء من بعد فيها إلى أيّ شفيع يلجأ حسبما يقول سواد الناس، وبما أن جدّتي كانت تسعل وتعطس كثيراً، تبعنا مشورة قريب كان يؤكّد أنّ الأمر ينتهي في ثلاثة أيّام بوساطة الأخصائيّ س... إنّ رجال المجتمع يقولون ذلك عن طبيبهم ونصدّقهم مثلما كانت «فرانسواز» تصدّق دعايات الصحف. وجاء الأخصائي بحقيبته المثقلة بجميع رشوحات زبائنه، شأن قربة «أيولوس»[1]. ورفضت جدّتي رفضاً قاطعاً أن تسمح بفحصها.

أمّا نحن الذين أصابهم الإزعاج من أجل هذا الطبيب الذي كلّف نفسه عناء المجيء بلا جدوى، فقد انصعنا للرغبة التي عبّر عنها في فحص أنف كلّ منّا مع أنّه لم يكن به شيء. وكان يزعم أنْ بلى وأن الأمر أمر مرض في الأنف أسيئ فهمه سواء أكان شقيقة أم مغصاً، وداء في القلب أم داء السكريّ. وقد قال لكلّ واحد منّا: «هذا قرين يسرّني أن ألتقيه ثانية. فلا تنتظر أكثر من اللازم، وسوف نخلّصكم ببضع وخزات بالنار». كنّا نفكّر بالتأكيد في أمر مختلف أتمّ الاختلاف. ومع ذلك فقد تساءلنا قائلين: «ولكن نتخلّص من أيّ شيء؟» وخلاصة القول إنّ أنوفنا كلّها كانت مريضة، ولم يخطئ إلاّ وضعه الأمر في الزمن الحاضر. ذلك أن فحصه وضماده المؤقّت قد فعلا مفعولهما منذ الغد. فقد أصاب كلّ منّا زكامه. وفيما كان يلاقي في الشارع والدي تهزّه نوبات السعال ابتسم لخاطرة أن يستطيع جاهل الظنّ أنّ الداء ناشئ عن تدخّله، إذا أقدم على فحصنا ساعة كنّا مرضى.

لقد أفسح مرض جدّتي لعدّة أشخاص مجال إبداء إفراط في المودّة أو تقصير فيها فاجأنا بقدر ما فاجأنا نوع المصادفة التي كان هؤلاء أو أولئك يكشفون لنا بها حلقات مناسبات أو حتّى صنوف مودّة لعلّنا ما ارتبنا بوجودها. وكانت علامات الاهتمام التي يبديها الأشخاص الذين كانوا يقبلون بدون انقطاع للتزوّد بالأخبار تكشف لنا عن خطورة الداء الذي لم نكن حتّى ذاك قد عزلناه تماماً وفصلناه عن ألف من الانطباعات المؤلمة التي نحسّ بها بالقرب من جدّتي. فلم تغادر أخواتها «كومبريه»، وقد أخطرن برقياً، إذ سبق أن اكتشفن فناناً كان يقدّم لهن حفلات من موسيقى الحجرة الممتازة التي يخلن أنهّن واجدات في سماعها. أكثر ممّا يتوافر أمام سرير المريضة، خلوة نفسيّة وتسامياً مؤلماً بدا شكلهما غريباً على الدوام. وكتبت السيّدة «سازرا» إلى والدتي، ولكن على نحو ما يفعل شخص فصلتنا عنه إلى الأبد خطوبة فُسختْ فجأة (والفسخ كان الاتّجاه «الدريفوسيّ»). وفي مقابل ذلك جاء «بيرغوت» فقضى كلّ يوم عدّة ساعات معي.

(1) Bole إله الرياح ومحرك العواصف لدى قدماء الرومان.

لقد أحبَّ دوماً أن يأتي ليقيم بعض الوقت في بيت واحد لايقع عليه فيه تحتمل المشقّات. بيد أن ذلك كان فيما مضى كيما يتحدّث فيه دون أن يقاطعه أحد، أمّا الآن فليصمت طويلاً دون أن يطلب إليه الكلام. ذلك أنّه كان مريضاً جداً: فالبعض يقولون من زلال في البول، شأن جدّتي، وكان به ورم حسبما يرى آخرون. وكان آخذاً في الضعف، فقد كان يصعد درجنا بصعوبة، وبصعوبة أكبر يهبطه. وكثيراً ما كان يتعثّر مع أنّه يستند إلى الدرابزين وأظنّه كان ظلّ في بيته لو لم يخش أن يفقد كلياً عادة بل امكان الخروج، هو، الرجل «ذو اللحية القصيرة» الذي سبق أن عرفته رشيقاً منذ وقت ليس بطويل. ولم يعد يبصر البتّة وكثيراً ما كان يتلعثم في كلامه.

ولكنّما اتّخذ مجمل مؤلفّاته في الوقت نفسه، وعلى العكس تماماً، وكانت معروفة لدى المثقفين فحسب في الفترة التي كانت السيّدة «سوان» ترعى فيها جهودها الخجولة في الانتشار، وأمّا الآن فقد عظمت في عيون الجميع وقويت، لقد اتخذ مجمل مؤلفّاته قوّة انتشار خارقة لدى الجمهور العريض. وإنّه يتّفق دونما شكّ ألاّ يضحي الكاتب مشهوراً إلاّ بعد وفاته. إلاّ أنّه كان يشهد، ولايزال بعد حيّاً وفي أثناء تقدّمه البطيء نحو الموت الذي لم يبلغه بعد، تقدّم مؤلفاته نحو الشهرة. المؤلّف المتوفّي مشهور على الأقلّ دونما مشقّة، فإن إشعاع اسمه يتوقّف أمام شاهدة قبره. وفي صَمَم النوم الأبدي لايزعجه المجد ولكنّ النقيض لم يكن قد اكتمل كليّاً بالنسبة إلى «بيرغوت»، فهو بعد يحيا بما يكفي ليتعذّب من جرّاء الضجيج. وهو لايزال يتحرّك، وإن فعل بمشقّة، فيما تسوق مؤلّفاته كلّ يوم، طافرات كفتيات تحبّهنّ ولكنّ شبابهنّ الجارف وضجيج ملذّاتهن يتعبانك، تسوق إلى حضيض سريره معجبين جدداً.

أمّا الزيارات التي كان يقوم لنا بها الآن فتجيء في نظري متأخرّة بضع سنوات إذ لم أعد معجباً به بالمقدار نفسه، الأمر الذي لا يناقض تعاظم شهرته ذاك. فنادراً ما يتمّ فهم عمل أدبيّ وانتصاره دون أن يكون عمل كاتب آخر، ولايزال مغموراً، قد شرع، لدى بعض أشخاص أكثر تشدّداً، في إحلال ولع جديد محلّ ذاك الذي بلغ تقريباً حدود التسيّد. ففي كتب «بيرغوت» التي كنت أعيد قراءتها كثيراً كانت جمله واضحة أمام عينيّ وضوح أفكاري ذاتها وأثاث غرفتي والعربات في الشارع. كلّ شيء كان يُرى بيسر فيها على الأقل مثلما تعوّد المرء أن يبصره الآن إن لم يكن على نحو مارآه أبداً. فإن كاتباً جديداً كان قد شرع ينشر مؤلّفات كانت العلاقات بين الأشياء مختلفة فيها في نظري عن تلك التي تربط بينها إلى حدّ أنّي ما كنت أفهم شيئاً تقريباً ممّا يكتبه. كان يقول مثلاً: «كانت أنابيب السقاية تنظر باعجاب إلى حسن صيانة الطرق» (وهذا سهل فقد كنت انزلق على امتداد هذه الطرق) «الطرق التي تنطلق كلّ خمس دقائق من «بريان» و«كلوديل»[1]. حينذاك كنت لا أفهم، لأنّني توقّعت اسم مدينة فيما يقدّم لي اسم شخص. بيد أنّني كنت أحسّ أن ليست الجملة هي الرديئة الصياغة ولكنّما تنقصني أنا القوّة والرشاقة اللتان أبلغ بهما حدّ النهاية. فكنت أستعيد قواي وأستعين برجلّي ويديّ لأصل إلى المكان الذي أبصر منه العلاقات الجديدة بين الأشياء. وفي كلّ مرّة أعود، بعدما أصل إلى نصف الجملة تقريباً، فأسقط كما هي حالي فيما بعد في الكتيبة في

---

(١) Briand : رجل سياسة وخطيب مفوه (١٨٦٢ - ١٩٣٢)، Claudel كاتب فرنسي شغل مناصب ديبلوماسية، تتصف كتبه بالشاعرية والعمق وروح الإيمان. (١٨٦٨ - ١٩٥٥).

التمرين المسمّى «الرجّاجة». ولايحول ذلك دون أن أكنّ للكاتب الجديد إعجاب طفل أهوج يعطي درجة الصفر في الرياضة أمام طفل آخر أكثر براعة. ومذ ذاك تناقص اعجابي بـ«بيرغوت» الذي بدا لي صفاؤه قصوراً. وقد حلّت فترة كان الناس فيها يتعرّفون الأشياء تماماً حين كان «فرومنتان» هو الذي يرسمها ولا يتعرّفونها من بعد إن كان «رنوار».

إنّ أهل الذوق يقولون لنا اليوم إن «رنوار» رسّام كبير من القرن الثامن عشر. ولكنّهم إذ يقولون ذلك ينسون الزمن وأنّه انبغى الكثير منه حتّى في صميم القرن التاسع عشر كيما ينادى بـ«رنوار» فنّاناً كبيراً. وينحو الرسّام الأصيل والفنّان الأصيل ليفلحا في أن يعترف هكذا بهما نحو أطبّاء العيون. وليست المعالجة برسمهما ونثرهما ممتعة دوماً. فحينما تنتهي يقول لنا الطبيب الممارس: انظروا الآن. فإذا العالم (الذي لم يخلق مرّة واحدة بل بقدر ما اتّفق ثمة فنّان أصيل) يبرز مختلفاً كلياً عن القديم ولكنّه واضح تماماً. وتمرّ نسوة في الشارع مختلفات عن نسوة الأمس بما أنهنّ من لوحات «رنوار»، هذه اللوحات التي كنّا نرفض بالأمس أن نبصر فيها نسوة. والعربات كذلك من لوحات «رنوار»، والماء والسماء: ويهزّنا الشوق إلى التنزّه في الغابة المشابهة لتلك التي كانت تبدو لنا في اليوم الأوّل كلّ شيء ماخلا الغابة، كسجّادة على سبيل المثال عديدة الألوان ولكنّما تنقصها بالضبط الألوان الخاصّة بالغابات. ذلك هو العالم الجديد الزائل الذي تمّ إبداعه منذ حين، وسوف يدوم حتّى الكارثة الجولوجية المقبلة التي يطلقها رسّام جديد أصيل أو كاتب جديد أصيل.

كان الذي حلّ في نظري محلّ «بيرغوت» يبعث فيّ السأم لامن جرّاء اللا ترابط، بل من جرّاء الجدّة وهي متماسكة تماماً في علاقات لم أتعود متابعتها. وكانت النقطة التي لا تتغيّر والتي أحسّني أعود إلى السقوط فيها تشير إلى هويّة كلّ حركة صعبة ينبغي القيام بها. وحينما كنت أستطيع، على أيّة حال، مرّة من ألف مرّة أن ألحق بالكاتب إلى آخر جملته فالذي كنت أرى كان أبداً من غرابة وصحّة وسحر شبيهة بتلك التي سبق أن وجدتها بالأمس في قراءة «بيرغوت» ولكنّها أكثر علوية. وفكّرت أنّه لم ينقض العديد من السنين على تجديد مماثل للعالم كان «بيرغوت» من جاءني به، تجديد شبيه بالذي انتظره من خلفه. ويبلغ بي أن أتساءل إن كان ثمة شيء من الحقيقة في هذا التمييز الذي نقرّه على الدوام بين الفنّ الذي لم يتقدّم أكثر ممّا كان عليه في زمن هوميروس والعلم الذي يتقدّم باستمرار. فربّما ماثل الفنّ على العكس العلم في ذلك ؛ فقد كان كلّ كاتب أصيل جديد يبدو لي في تقدّم على الذي سبقه ؛ ومن ذا يقول لي إنّه لن يطلع، بعد عشرين عاماً، وحينما أحسن مرافقة جديد اليوم دون تعب، لن يطلع آخر ينطلق الحاليّ هارباً أمامه للّحاق بـ«بيرغوت» ؟

وحدّثت هذا الأخير عن الكاتب الجديد، فبعث في نفسي القرف منه بروايته لي أنّه رآه يشبه «بلوك» إلى حدّ يختلط فيه الأمر عليك أكثر منه بتأكيده لي أنّ فنّه خشن وسهل وفارغ. وارتسمت هذه الصورة مذ ذاك على الصفحات المكتوبة ولم أعد أعتقد أنّي ملزم من بعد بعناء فهمه. ولئن حدّثني «بيرغوت» عنه فانّما كان ذلك أقلّ، فيما أعتقد، بداعي الغيرة من نجاحه منه من جرّاء الجهل بآثاره. فقد كاد لايقرأ شيئاً، وكان معظم فكره قد مرّمن دماغه إلى كتبه. وكان به هزال كأنّما تمّ اقتطاعها منه. ولم تعد غريزته المولّدة تحثّه على النشاط الآن وقد دفع إلى الخارج كلّ ما كان يفكّر فيه تقريباً. لقد كان يعيش الحياة الخاملة التي تعيشها ناقه

أو امرأة ولود. وكانت عيناه الجميلتان تلبثان جامدتين ومبهورتين إلى حدّ ما كعيني رجل مستلق على شاطىء البحر ينظر في تأمّل حالم إلى كلّ موجة صغيرة فحسب. ولئن كنت أقلّ اهتماماً بالتحدّث إليه مما لعلّني كنت بالأمس فما كنت على أيّ حال أحسُّ بتأنيب الضمير لذلك، كان رجل عادات إلى حدّ أن أكثرها بساطة وأوفرها ترفاً على حدّ سوى كانت تضحي، إمّا اتخذها، ضروريّة له إلى حين. لست أدري ما الذي حمله على المجيء أوّل مرّة ولكن الأمر بعد ذلك تمّ كلّ يوم للسبب أنّه جاء البارحة. كان يصل إلى البيت، كما لعلّه يذهب إلى القهوة، كي لايتحدّث أحد إليه، وكيما يستطيع التحدّث – والأمر نادر جداً –، إلى حدّ أنّه ما كان من الممكن في مجمل الأمر أن نجد إشارة إلى أنّه متأثر لغمّنا أو هو يستمتع في التحدّث معي لو شاء المرء أن يستخلص شيئاً من مثل تلك المواظبة، على أنّها لم تكن غير ذات بال في نظر والدتي، وهي حسّاسة بكلّ ما يمكن أن يؤخذ مأخذ التكريم لمريضتها. فكانت تقول لي كلّ يوم: «لا تنس بوجه الخصوص أن تشكره أحسن الشكر».

ونعمنا بزيارة السيّدة «كوتار»، كزيادة بالمجّان على الزيارات التي كان يجود بها علينا زوجها– والأمر لفتة رقيقة من امرأة، كالعصرونية التي تقدّمها لنا بين جلستي رسم رفيقة أحد الرسّامين–. لقد جاءت تعرض علينا «وصيفتها» ؛ وتهمّ، إن فضلّنا خدمات رجل، في المبادرة إلى البحث، ثمّ تقول، إن واجهناها بالرفض، إنّها تأمل على الأقل ألاّ يكون الأمر من جانبنا «هزيمة»، والكلمة تعني في عالمها حجّة زائفة كي لايقبل المرء بالدعوة. وأكّدت لنا أنّ الأستاذ الذي ما كان يتحدّث البتّة في بيته عن مرضاه كان حزيناً حزنه لو كان الأمر أمرها هي. وسنرى فيما بعد أنّ ذلك، حتّى لو كان صحيحاً، لجاء قليلاً جدّاً أو كثيراً في الآن نفسه من جانب أقلّ الأزواج إخلاصاً وأكثرهم امتناناً.

وجاءتني عروض في مثل جدواها، ولكنّها أكثر تأثيراً في النفس بمالا يقاس في طريقتها (التي كانت مزيجاً من أرفع الذكاء وأوسع القلب ونادرة التوفيق في عبارتها) على لسان الدوق الأكبر وريث «لوكسمبور». وكنت قد عرفته في «بالبيك» حيث جاء لزيارة إحدى عمّاته، أميرة «لوكسمبور»، حين لم يكن بعد سوى الكونت «دو ناسّاو». لقد تزوّج بعد بضعة شهور الإبنة الرائعة لأميرة أخرى من أميرات «لوكسمبور» فاحشة الثراء لأنّها كانت وحيدة أمير يملك تجارة ضخمة من الطحين. وعليه فإن دوق «لوكسمبور» الأكبر الذي لم يكن له بنون وكان يعبد ابن أخيه «ناسّاو» قد حمل المجلس على أن يوافق على إعلانه الدوق الأكبر وريثاً. وكما هي الحال في جميع الزيجات التي من هذا القبيل فإن منشأ الثروة هو العقبة وهو إلى ذلك أيضاً السبب الفعّال. كنت أتذكّر الكونت «دو ناسّاو» هذا على أنّه من ألمع الشبّان الذين صادفتهم، قد تأكّله مذّ ذاك حبّ رهيب وداو لخطيبته. لقد تأثّرت أبلغ التأثّر من الرسائل التي لم ينفكّ يسطرّها لي في أثناء مرض جدّتي وأخذت والدتي بدورها، وقد اهتزّت مشاعرها، تعيد بأسى كلمة أمّها: ما كانت «سيفينييه» لتقول أفضل من ذلك.

وفي اليوم السادس اضطرّت أمّي، امتثالاً لتوسّلات جدّتي، أن تتركها حيناً وتتظاهر بالذهاب طلباً للراحة. وودت أن تمكث «فرانسواز» دون حركة كي تنام جدّتي. ولكنّها خرجت من الغرفة على الرغم من توسّلاتي ؛ لقد كانت تحبّ جدّتي، وقد حكمت بنفاذ بصيرتها وتشاؤمها أنّها هالكة. لقد ودّت إذن لو

تمنحها جميع صنوف العناية. بيد أنّه جاء من قال إنّ هناك عامل كهرباء قديماً جدّاً في مؤسّسته وصهر ربّ عمله ويحظى بكامل التقدير في بنايتنا حيث كان يجيء للعمل منذ سنوات طويلة، ولاسيّما من جانب «جوبيان». كانوا قد أوصوا على ذاك العامل قبل أن تمرض جدّتي. وبدا لي أنّه كان بالإمكان ترحيله أو مطالبته بالانتظار. ولكنّ قواعد المجاملات لدى «فرانسواز» ما كانت تسمح بذلك فلعلّها كانت تخالف اللباقة، أمّا حالة جدّتي فلم تعد في الحسبان. وحينما ذهبت، بعد مرور ربع ساعة، أبحث عنها في المطبخ وقد أخذني أشدّ الحنق، لقيتها تتحدّث إليه على «تريبعة» درج الخدم الذي كان بابه مفتوحاً، والفضل في الطريقة أن تسمح، إن وصل أحدنا، بالتظاهر بافتراق وشيك، ولكن المزعج فيها التسبّب في تيّارات هوائيّة مريعة. وفارقت «فرانسواز» العامل إذن دون أن يكون فاتها أن تبعث بأعلى صوتها ببعض التحيّات التي نسيتها إلى زوجته وصهره. والاهتمام يميّز «كومبريه» في الابتعاد عن مخالفة اللباقة، وكانت «فرانسواز» تحمله حتّى في السياسة الخارجيّة. يتخيّل البلهاء أن الأحجام الضخمة للظاهرات الاجتماعية مناسبة ممتازة للنفاذ إلى مدى أبعد في النفس الإنسانية ؛ وينبغي لهم على العكس أن يعلموا أنّه ربّما حالفهم الحظّ في إدراك تلك الظاهرات في الانحدار إلى اعماق الفرد. كانت «فرانسواز» قد ردّدت ألف مرّة لبستانيّ «كومبريه» أن الحرب أشدّ الجرائم جنوناً وأنّه لايساويها شيء فيما عدا الحياة. ولكن حينما اندلعت الحرب الروسيّة اليابانية ضاقت نفسها ألاّ نكون، إزاء القيصر، قد دخلنا الحرب لمدّ يد العون «للروس المساكين»، «بما أنّنا متحلفون»، فيما تقول. لم تكن ترى ذلك من اللباقة حيال «نقولا الثاني» الذي خصّنا على الدوام «بكلمات في غاية الطيبة بالنسبة إلينا» ؛ وإنّها لنتيجة القواعد نفسها التي كانت حالت دون أن ترفض لـ«جوبيان» كأساً صغيراً تعلم أنّه سوف «يعاكس هضمها»، والتي كانت تحملها، وهي قاب قوسين أو أدنى من وفاة جدّتي. على الاعتقاد بأن الخسّة نفسها التي تجرّم بها فرنسه إذ مكثت على الحياد حيال اليابان سوف تقع فيها إن لم تبادر وتعتذر بنفسها إلى عامل الكهرباء الطيّب هذا الذي تحمّل الكثير من الإزعاج.

وما أسرع ما تخلّصنا لحسن الحظّ من ابنة «فرانسواز» التي وقع عليها أن تتغيّب عدّة أسابيع. فقد أضافت إلى النصائح العاديّة التي كانت تسدى في «كومبريه» إلى أسرة المريض: «لم تجرّبوا الرحلة الصغيرة، فتغيير الهواء، واستعادة الشهيّة، الخ» الفكرة الفريدة تقريباً التي كوّنتها على نحو خاصّ في ذهنها وكانت إلى ذلك تردّدها كلّما يرونها دونما كلل وكأنّما لتغرسها في رأس الآخرين: «كان عليها أن تتعالج جذريّاً منذ البداية». ما كانت توصي بنوع من الاستشفاء دون آخر بشرط أن يكون ذاك الاستشفاء جذريّاً. أمّا «فرانسواز» فكانت ترى أن جدّتي تعطى القليل من الأدوية. وبما أنّها لا تنفع، في رأيها، إلاّ في تخريب المعدة فقد كانت سعيدة للأمر ولكنّها فوق ذلك مذلّة. لقد كان لها ابناء عم في الجنوب – أغنياء نسبيّاً– ماتت ابنتهم في الثالثة والعشرين بعدما أصابها المرض وهي في ريعان الشباب. وفي أثناء هذه السنوات القليلة بدّد الوالد والوالدة أموالهما في الدواء والأطبّاء المختلفين والحلّ والترحال من مركز مياه حارّة إلى آخر حتّى الوفاة. على أن ذلك كان يبدو لـ«فرانسواز» ، فيما يخصّ ذينك الوالدين، ضرباً من الترف كما لو امتلكا خيول سبق وقصراً. حتّى هما كانا يجدان، مهما بلغ بهما الحزن، شيئاً من الزهو لهذا القدر من الإنفاق. لم يظلّ لديهما شيء ولاسيّما أثمن مايملكان، ابنتهما، ولكنّما يحلو لهما أن يردّدا أنهما فعلا من أجلها على قدر مايفعل أوفر الناس ثراء وأكثر. كانت الأشعّة مافوق البنفسيجة التي أخضعت الفتاة التعيسة لمفعولها عدّة مرّات في اليوم وعلى مدى

شهور، كانت تدغدغ كبرياءهما على نحو خاصّ. وقد بلغ بالوالد، وهو مزهو في آلامه بضرب من الفخّار، أن يروي عن ابنته وكأنّما عن نجمة أوبرا بدّد في سبيلها أمواله. ولم تكن «فرانسواز» عديمة الإحساس بمثل هذه المبالغة في الإخراج. فأمّا الذي يحيط بمرض جدّتي فيبدو لها هزيلاً بعض الشيء وصالحاً لمرض على مسرح صغير في الريف.

وحلّت فترة انتقل فيها التسمم البولي إلى عيني جدّتي. ولم تعد تبصر على الإطلاق على مدى بضعة أيّام. ولم تكن عيناها البتّة عيني عمياء وظلّتا لاتتبدّلان. وأدركت فقط أنّها لاتبصر من غرابة ابتسامة ترحيب تعلو شفتيها ما أن يُفتح الباب إلى أن تأخذ يدها لتقرئها التحيّة، ابتسامة تبدأ قبل أوانها بكثير وتظلّ جامدة على شفتيها وثابتة ولكنّها تواجهك أبداً وتجهد أن تُرى من كل مكان لأنّه لم يظلّ لها عون النظر كي ينظّمها ويعيّن لها اللحظة والاتّجاه ويضبطها ويبدّلها كلّما تبدّل مكان الشخص الذي دخل أو ملامح وجهه ؛ ولأنّها تلبث وحيدة دون بسمة في العينين ربما صرفت عنها قليلاً اهتمام الزائر فتّتخذ بذلك في إرباكها أهميّة مفرطة تولي انطباعاً بلطافة مبالغ فيها. ثم عاد البصر تماماً وانتقل الداء الرحّال من العينين إلى الأذنين. وعلى مدى بضعة أيّام أضحت جدّتي صمّاء. ولما كانت تخشى أن يفاجئها دخول أحدهم على حين غرّة دون أن تكون سمعته يقبل إليها فقد كانت تدير في كل لحظة رأسها نحو الباب على نحو مفاجئ (مع أنّها تنام إلى جانب الجدار). ولكنّ حركة رقبتها كانت مربكة لأنّ المرء لايألف في بضعة أيّام هذا التحول، وهو إن لم يكن إبصار صنوف الضجة فعلى الأقلّ الإصغاء بالعينين. وأخيراً تناقصت الأوجاع ولكنّما ازداد اضطراب الكلام. فكنّا نضطرّ إلى حمل جدّتي على تكرار كلّ ما تقوله تقريباً.

وأخذت جدّتي، وقد أحسّت أنّنا لانفهمها من بعد، ترفض أن تنطق بكلمة واحدة وتظلّ لاحراك بها. وحينما كانت تلمحني كانت تنتفض انتفاضة من يعوزهم الهواء فجأة وتودّ أن تكلّمني ولكنّها لا تتلفّظ إلاّ بأصوات لاتُفهم. حينئذ كانت تدع رأسها يهوي، وقد قهرها عجزها نفسه، وتتمدّد بطولها على السرير وفي الوجه وقار وجمود الرخام واليدان لاحراك بهما فوق الشرشف أو تهتم بحركة ماديّة بحتة كتنشيف أصابعها بمنديلها. كانت لاتودّ أن تفكّر. ثم أخذت تنتابها حركة مستمرّة. فكانت ترغب دونما انقطاع في النهوض، ولكنّنا نمنعها قدر المستطاع من تحقيق ذلك مخافة أن تتبيّن شللها. وفي يوم تركت فيه حيناً وحدها، وجدتها واقفة في ثوب النوم تحاول فتح النافذة.

لقد سبق أن قالت لي في «بالبيك» ذات يوم تمّ فيه غصباً إنقاذ أرملة ألقت بنفسها في الماء (وربّما دفعها إلى القول واحد من صنوف الحدس التي نقرؤها أحياناً في خفايا حياتنا العضويّة، مع أنّها شديدة الإبهام، ولكنّما يبدو أن المستقبل ينعكس فيها) إنها لا تعرف وحشيّة مماثلة لانتزاع يائسة من الموت الذي أرادته وردّها إلى شديد عذابها.

ولم يتّسع لنا من الوقت أكثر من الأمساك بجدّتي وقامت بعراك قارب الشراسة مع والدتي، وبعدما غُلب على أمرها وأجلست عنوة في مقعد توقّفت عن المراد والأسف وعاد وجهها فأضحى جامداً وشرعت تنزع باهتمام أوبار الفرو التي خلفّها على ثوب نومها معطف سبق أن أُلقي عليها.

وتبدّلت نظرتها تماماً، وغلب عليها القلق والشكوى والضياع، لم تعد نظرتها بالأمس، لقد أضحت النظرة المتجهّمة لامرأة عجوز تهذي.

وبلغ الأمر بـ«فرانسواز»، لكثرة ما تسألها إن كانت لاترغب في تسريح شعرها، أن اقتنعت بأن الطلب صادر عن جدّتي. فجاءت بفراشٍ وأمشاط وماء «كولونيا» ومبذل. كانت تقول: «لايمكن أن يُتعب السيّدة «أميديه» أن أسرّحها، فالمرأة يمكن دوماً أن تُسرّح مهما وهنت». والأمر يعني أن ليس المرء قطّ أضعف من أن يستطيع شخص آخر، فيما يخصّه، أن يسرّحه. ولكنّي حين دخلت الغرفة أبصرت بين يدي «فرانسواز» القاسيتين، وهي مفتونة وكأنّها آخذه في ردّ العافية لجدّتي، أبصرت، تحت كآبة شعر هرم لايقوى على احتمال ملامسة المشط، رأساً يعجز عن الحفاظ على الوضعة التي يعطاها فيهوي في دوّامة لا تتوقّف يتعاقب فيها انحطاط القوى والألم. وشعرت بأنّ اللحظة التي تزمع «فرانسواز» الانتهاء فيها تقترب ولم اجرؤ في استعجالها بقولي: «كفى» مخافة أن تعصى أمري. ولكنّي في مقابل ذلك انقضضت حينما قرّبت «فرانسواز» القاسية في براءتها مرآة كي ترى جدّتي إن كانت حسنة التسريحة. ورأيتني بادئ الأمر سعيداً أن استطعت انتزاعها في الوقت المناسب من بين يديها قبلما يتمّ لجدّتي التي أُبعدت عنها بعناية أيّة مرآة أن تلمح عن غير ماقصد صورة لها لاتستطيع أن تتمثّلها. ولكنّي حينما انكببت بعد لحظة عليها، وا أسفي، لأقبّل ذاك الجبين الجميل الذي بولغ في إرهاقه نظرت إليّ بهيئة مستعجبة محاذرة مستنكرة: إنّها لم تتعرّفني.

كان ذلك، فيما رأى طبيبنا، عرَض يزيد منه احتقان الدماغ، وكان لابدّ من إزالته. ويتردّد «كوتار». وأملتْ «فرانسواز» لحظة أنّه سيتم وضعِ محاجم «منقّاة». وبحثت عن آثارها في قاموسي ولكنّها لم تستطع العثور عليها. ولو أنّها قالت تماماً «مشفرة» (١) بدلاً من «منقّاة» لما زاد ذلك من حظّها في العثور على تلك الصفة لأنّها لم تكن تبحث عنها في حرف «الميم» أكثر منها في حرف «النون». وبالفعل كانت تقول «منقّاة» ولكنّها تكتبها (وتظنّ بالتالي أنّها تكتب) «امنقّاة». ومال «كوتار» دون كبير أمل إلى العلق، الأمر الذي خيبّ أملها. وحينما دخلت بعد بضع ساعات غرفة جدّتي، كانت الحيّات الصغيرة تتلوى وكأنّما في شعر «المدوسة» في شعرها المدمى، وقد علقت في قفا رأسها وصدغيها وأذنيها. ولكنّي أبصرت في وجهها الشاحب المستكين الجامد كلّ الجمود عيني الأمس الجميلتين مستديرتين مشرقتين هادئتين (وربّما حمّلتا ذكاء أكثر ممّا كانت حالهما قبل مرضها لأنّها إنّما كانت تستودع عينيها وحدهما فكرها، إذ هي لاتستطيع الكلام وينبغي ألاّ تتحرّك، الفكر الذي يمكن أن ينبعث ثانية وكأنّما بفعل التوالد الذاتي بفضل بضع قطرات دم يتّم سحبها)، عينيها العذبتين المائعتين كما هو الزيت واللتين كانت النار المشبوبة التي تشتعل فوقهما تنير أمام المريضة الكون المستعاد. ولم يعد هدوؤها الحكمة التي يبعثها اليأس بل الأمل. أخذت تدرك أنّها تتحسّن ومرادها أن تكون حذرة وألاّ تتحرّك فاقتصرت على منحي ابتسامة جميلة كي أعلم أنّها تحسّ بالتحسّن وضغطت بلطف على يدي.

كنت أعلم أيّ قرف يداخل جدّتي أن ترى بعض الهوامّ، فما بالك إن هي لامستها. وكنت أعلم أنّها

(١) علقت بها شفرات

تتحمّل العلق آخذة في حسابها منفعة عليا. ولذلك كانت «فرانسواز» تثير أشدّ حنقي إذ تردّد لها بتلك الضحكات الصغيرة التي توافينا مع طفل نبغي حمله على اللعب: «آه! هذه الدويبات التي تجري على سيّدتي». والأمر يعني إلى ذلك معاملة مريضتنا دون احترام كما لو عادت إلى الطفولة. ولكنّ جدّتي التي اتّخذ محيّاها الشجاعة الهادئة التي لأحد الرواقيّين لم تبدِ حتّى أنّها تسمع.

وما نُزعَتْ العلقات حتّى عاد الاحتقان، والأسفي، متزايد الخطورة. وأدهشني أن تتوارى «فرانسواز» في كلّ لحظة آن كانت جدّتي في أسوأ حال. ذلك أنّها كانت قد أوصت على أثواب حداد ولا تودّ أن تحمل الخيّاطة على الانتظار فكل شيء يفضي في حياة معظم النساء إلى مسألة قياس، حتّى ما كان من أعظم الأحزان.

وبعد بضعة أيّام، وفيما كنت نائماً، أقبلت أمّي تناديني في وسط الليل. وقالت لي برقيق العناية التي يبديها في المناسبات الكبيرة، أولئك الذين يرزحون تحت نير حزن عميق، حتّى لمتاعب الآخرين الطفيفة:

— «اعذرني أن آتي فاعكر نومك».

فأجبت وأنا استيقظ: «ماكنت نائماً».

وكنت أقول ما أقول عن حسن نيّة. فإن التبدّل الكبير الذي تحمله إلينا اليقظة يكمن في إفقادنا ذكرى الضياء الملطّف إلى حدّ ما الذي كان عقلنا يرقد فيه، وكأنّما في أعماق المياه المتلألئة، أكثر منه في إدخالنا إلى حياة الوعي الواضحة. إن الأفكار نصف المحتجبة التي كنّا نطفو فوقها منذ لحظة كانت تسبّب فينا حركة كافية تماماً إلى حدّ استطعنا معه أن نطلق عليها اسم اليقظة. ولكن الاستيقاظ يلقى حينذاك تداخلاً للذاكرة. وبعد قليل نصفه بالنوم لأنّنا لا نتذكّره من بعد. وعندما تشرق هذه النجمة الملتمعة التي تنير، لحظة الاستيقاظ، نوم النائم بكامله من خلفه، فانّها تحمله على الاعتقاد على مدى بضع ثوان أنّه لم يكن نوماً بل يقظة. وهي والحق يقال شهاب يغيّب مع ضيائه الوجود الكاذب للحلم، بل مظاهره أيضاً ويسمح لمن يستفيق فحسب أن يقول في نفسه: «لقد نمت».

وسألتني أمّي، بصوت رقيق إلى حدّ بدت معه وكأنها تخشى إيلامي، إن لم يكن سيتعبني كثيراً أن أنهض، وقالت وهي تلامس يديّ بلطف:

— «ياصغيري المسكين، لن تستطيع الاعتماد بعد الآن إلاّ على أبيك وعلى أمّك».

ودخلنا الغرفة. كان ثمة كائن آخر غير جدّتي التوى فوق السرير على هيئة نصف دائرية، وما يشبه حيواناً وضع شعرها ونام في شراشفها وهو يلهث ويئنّ ويهزّ الأغطية بتشنّجاته. كان الجفنان مطبقين وكانا يسمحان، لسوء الإطباق أكثر منهما لأنّهما يتفتحان، برؤية زاوية من الحدقة غائمة لزجة تعكس ظلام رؤية عضويّة وعذاب داخليّ. ولم يكن كلّ هذا الاضطراب موجهاً إلينا نحن الذين لاتبصرنا ولا تعرفنا. ولكن إن لم يعد ما يتحرّك هناك إلاّ محض حيوان فأين كانت جدّتي؟ كنّا نتعرّف مع ذلك شكل أنفها، ولاتناسب الآن بينه وبين بقيّة وجهها، ولكنّما ظلّت شامة عالقة في زاويته، ويدها التي كانت تبعد الأغطية بحركة لعلّها عنت

فيما مضى أن هذه الأغطية تضايقها وهي لاتعني الآن شيئاً.

وسألتني أمّي أن أذهب وآتي بقليل من الماء والخلّ لتبليل جبين جدّتي. لقد كان الشيء الوحيد الذي يرطّبها فيما تظنّ أمي التي كانت تراها تحاول إبعاد شعرها. إلاّ أنّه أشير إليّ من الباب بالمجيء. فالخبر الذي مفاده أن جدّتي في الرمق الأخير كان قد انتشر في الحال داخل المنزل. لقد قام أحد «الخدم فوق العادة» الذين يؤتى بهم في الفترات الاستثنائيّة للتخفيف من تعب الخدّام، الأمر الذي من شأنه أن يكسب فترات الاحتضار شيئاً من الأعياد، قام بفتح الباب لدوق «غيرمانت» الذي ظلّ في غرفة الانتظار فأرسل يطلبني ؛ ولم أستطع الإفلات منه.

— «لقد عرفت منذ قليل، ياسيّدي العزيز، هذه الأخبار المرعبة، وأودّ أن أشدّ على يد السيّد والدك رمزاً للتوادّ».

واعتذرت لصعوبة إزعاجه في هذه اللحظة. لقد حلّ السيّد «دو غيرمانت» مثلما هي الحال آن تزمع الذهاب في سفر. ولكنّه كان يحسّ بأهميّة المجاملة التي يقدمها لنا إلى حدّ أن الأمر كان يحجب عنه ماعداه، وأنّه كان يريد الدخول إلى الصالة على الرغم من كل شيء. وكان من عادته بوجه العموم أن يصرّ على التأدية الكاملة لصنوف التأدّب التي قرّر أن يكرم بها أحدهم، وقلّما يهتم أن تكون الحقائب محزومة أو التابوت جاهزاً.

— «هل استقدمتم «ديولافوا» ؟ آه! ذلك خطأ فادح. ولو كنتم طلبتموه منّي لجاء من أجلي فهو لايرفض لي شيئاً، مع أنّه رفض لدوقة «شارتر». ترى، إنّي أضع نفسي دون مواربة فوق أميرة من الأسرة المالكة». ويضيف قوله: «جميعنا متساوون أمام الموت على أيّة حال»، لا ليقنعني بأنّ جدّتي أضحت مساوية له بل لأنّه ربّما شعر بأن حديثاً مطوّلاً فيما يخصّ سلطانه على «ديولافوا» وتقدّمه على دوقة «شارتر» لن يتّسم بحسن الذوق.

ولم تكن نصحيته تدهشني على أيّ حال. فقد كنت أعلم أنّهم كانوا لدى آل «غيرمانت» يذكرون على الدوام اسم «ديولافوا» (مع شيء من مزيد الاحترام فحسب) على أنّه اسم «مورِّد» لا منافس له. وقد أوصت الدوقة العجوز «دو مورتمار»، المولودة لآل «غيرمانت» (ويستحيل أن ندرك لماذا يقول الناس دوماً على وجه التقريب، ما أن تعلّق الأمر بدوقة: «الدوقة العجوز» أو على العكس. إن كانت شابّة فبلهجة لطيفة عليها مسحة من «واتو»، «الدوقة الصغيرة») أوصت على نحو آلي تقريباً وهي تغمز بعينها، في الحالات الخطيرة «ديولافوا، ديولافوا»، كقولك «بواريه بلانش» إن كنت بحاجة إلى مثلّجة، أو «روباتيه، روباتيه» للمعجّنات المحمّصة، ولكنّي كنت أجهل أن والدي قام بالضبط منذ قليل بطلب «ديولافوا».

وفي تلك اللحظة دخلت والدتي التي كانت تنتظر بفارغ الصبر قارورات أوكسجين من شأنها أن تزيد من يسر تنفّس جدّتي، دخلت بنفسها إلى الردهة حيث ما كانت تعلم أنها واجدة السيّد «دو غيرمانت» ووددت لو اخبئه في أي مكان. ولكنّه أخذ ذراعي بعنف، وهو قانع أن ليس ما كان أكثر أهميّة وما يمكن على أيّة حال أن يرضي كبرياءها أكثر منه وكان أكثر ضرورة في الحفاظ على سمعة النبيل الذي لا عيب فيه، وعلى الرغم من ممانعتي وكأنّما حيال اغتصاب وأنا أردّد: «ياسيّد، ياسيّد، ياسيّد» فقد قادني إلى

والدتي وهو يقول لي: «هلاّ أوليتي عظيم الشرف في أن تقدّمني إلى والدتك؟» متهدّج الصوت بعض الشيء على كلمة والدة. وكان يرى أن الشرف من نصيبها هي إلى حدّ لايستطيع معه أن يملك نفسه عن الابتسام فيما يصنع لنفسه وجهاً مناسباً ولم أملك إلاّ أن أسمّيه، الأمر الذي تسبّب في الحال من جهته بانحناءات واختلاجات ساقين وأوشك الشروع في حفلة التحية كاملةً. وقد خطر له حتّى أن يباشر الحديث، ولكنّ أمّي التي كانت غارقة في حزنها قالت لي أن أجيء بسرعة ولم تجبْ حتّى عن جمل السيّد «دو غيرمانت» الذي كان يتوقّع أن يرحّب به في زيارة وألفى نفسه على العكس وقد ترك وحده في غرفة الانتظار ولعلّه كان خرج في النهاية لو لم يشاهد في اللحظة نفسها «سان لو» داخلاً وقد وصل في الصباح نفسه إلى باريس وسارع يستقصي الأخبار. وصاح مغتبطاً، وهو يمسك ابن أخيه بزرّ أوشك أن ينتزعه ودون أن يهتّم بوجود أمّي التي كانت تجتاز الردهة مرّة ثانية: «آه! ما أحسن المصادفة!» ولم يكن «سان لو»، فيما أعتقد، على الرغم من حزنه الصادق، أكثر استياءً من أنّه يتجنّب لقائي وذلك بسبب ما كان يكنّه لي. وذهب بجرّه عمّه الذي ما كان يستطيع أن يصدّق فرحته، إذ كان لديه أمر هام جداً يقوله له وأوشك لذلك أن يذهب إلى «دونسيير»، أن استطاع توفير مثل ذلك الإزعاج. «آه! لو قيل لي أنّه لايقع عليّ إلا اجتياز الباحة وألقاك هنا لظننتها مزحة ضخمة. إنّها من قبيل المهزلة، كما قد يقول رفيقك السيّد. «بلوك». ويردّد وهو يبتعد برفقة «روبير» ويمسك به من كتفه: «الأمر سواء، واضح تماماً أن أبواب السماء قد تفتّحت أمامي أوماكان من هذا القبيل ؛ حظّي يفلق الصخر». وليس يعني ذلك أن الدوق «دو غير مانت» كان سيء التهذيب، بل على العكس. ولكنّه كان من قوم يعجزون أن يحلّوا أنفسهم محلّ الآخرين، قوم يشبهون في ذلك غالبيّة الأطبّاء ودافني الموتى، وهم بعدما اتّخذوا وجهاً مناسباً وقالوا: «إنّها لحظات صعبة جدّاً»، وبعد ما عانقوك، إن قضت الضرورة، وأشاروا عليك بالراحة، لاينظرون إلى الاحتضار أو الدفن إلاّ بمثابة لقاء لأهل المجتمع أكثر أو أقلّ روّاداً يبحثون بالعين فيه، بمرح يكتمونه حيناً، عن الشخص الذي يستطيعون أن يحدّثوه عن أمورهم الصغيرة أو يسألوه أن يقدّمهم لشخص آخر أو «يعرضوا مكاناً» في عربتهم لتقلّهم في العودة، وفيما كان الدوق «دو غير مانت» يغبط نفسه على «الريح المؤاتية» التي دفعت به إلى ابن أخيه، ظلّ مندهشاً من استقبال والدتي، مع أنّه طبيعيّ جدّاً، إلى حدّ أنّه أعلن فيما بعد أنّها قليلة التهذيب على قدر ما يتحلّى به والدي من تهذيب، وأنّها تعاني من «فترات غياب» تبدو في أثنائها وكأنها لاتسمع الأشياء التي تقال لها وأنّها «غير راكزة» فيما يرى وربّما لم تملك كامل عقلها. على أنه شاء، فيما قيل لي، أن يضع ذلك جزئياً على عاتق «الظروف» ويعلن أنّ والدتي بدت له شديدة التأثر من جرّاء هذا الحادث. بيد أنّه كان لايزال في ساقيه كلّ بقيّة التحيّات والانحناءات المتراجعة التي حيل بينه وبين أن يبلغ بها غايتها ولايتبيّن من جهة أخرى إلى حدّ بعيد ما كان عليه حزن أمّي إلى حدّ أنّه سأل عشيّة الدفن إن لم أكن أحاول أن أسلّيها.

وأبرق أحد أسلاف جدّتي، وكان رجل دين، وكنت لا أعرفه، إلى النمسا حيث رئيس جمعيّته، وجاء في ذلك اليوم بعد ما حصل على الإذن بانعام استثنائي. كان يقرأ بجانب السرير، وقد هدّه الحزن، نصوص صلوات وتأمّلات دون أن يرفع ناظريه الثاقبين عن المريضة. وقد آلمتني رؤية حزن هذا الكاهن في لحظة كانت فيها جدّتي فاقدة الوعي، ونظرت إليه. وبدا أنّه ذاهل من إشفاقي وجرى إذ ذاك أمر غريب. فقد ضمّ يديه أمام وجهه شأن رجل غارق في تأمّل مؤلم، ولكنّي أبصرت أنّه ترك فاصلاً صغيراً بين أصابعه وقد أدرك أنّني سوف

أشيح بعينيّ عنه. ولمحت، لحظة تغادره نظراتي، عينه الثاقبة التي استخلّت مخبأ يديه ذاك لترقب منه إن كان حزني صادقاً. كان يكمن هناك وكأنّما في عتمة كرسيّ اعتراف. ولاحظ أنّي أراه فأحكم في الحال إغلاق الشبك الذي سبق أن تركه نصف مفتوح. لقد عدت فرأيته فيما بعد ولم يجر قطّ بيننا البحث في تلك الدقيقة. وتمّ الاتّفاق ضمنياً أنّني لم ألاحظ أنّه كان يرصدني. فثمة على الدوام لدى الكاهن وطبيب الأمراض العقلّية على حدّ سواء شيء من قاضي التحقيق. وعلى أيّه حال أين الصديق، مهما غلا، الذي لايوجد في ماضيه المشترك مع ماضينا من تلك الدقائق التي نرى من الخير لنا أن نقتنع أنّه لابدّ قد نسيها؟

قام الطبيب بزرقة مورفين وطالب بقوارير أوكسجين كي يقلّل من مشقّة التنفّس. كانت أمّي والطبيب والأخت يمسكون بها بين أيديهم، فما أن تفرغ واحدة حتّى يعطوا غيرها. كنت قد خرجت حيناً من الغرفة. وحينما عدت وجدتني وكأنما أمام أعجوبة. فقد بدت جدّتي، يرافقها في خفوت همس لاينقطع، وكأنّها توجّه إلينا نشيداً طويلاً سعيداً كان يملأ الغرفة سريعاً موسيقياً. وأدركت في الحال أنّه لم يكن أكثر وعياً وأنّه كان بمثل الآليّة التي تميّزت بها الحشرجة التي سبقته. وربّما عكس بمقدار ضعيف بعض تحسنّ جاءت به المورفين. ولكنّه كان ناجماً على وجه الخصوص عن تبدّل في سلّم التنفّس، إذ لم يعد الهواء يمرّ على النحو نفسه في القصبات. فأنفاس جدتي لم تعد، وقد تحرّرت بفعل التأثير المزدوج للأوكسجين والمورفين، تعاني مشقة ولاتزفر. بل تنساب نشيطة رشيقة منزلقة نحو الجسم الغازيّ اللذيذ. وربما امتزج في هذا النشيد بالأنفاس، ولاتشعر بها كأنفاس الريح في ناي القصب، بعض من تلك الزفرات الأكثر إنسانية التي إذ تنطلق لدى اقتراب الموت إنّما تحملك على الاعتقاد بانطباعات عذاب أو سعادة لدى أولئك الذين أضحوا لايحسّون من بعد، وجاءت تضيف نغمة أكثر رخامة، ولكن دونما تغيير في الإيقاع، إلى هذه الجملة الطويلة التي كانت ترتفع وتوالي الصعود ثم تهوي لتنطلق ثانية في إثر الأوكسجين من الصدر المرتاح. ثم يبدو ذاك النشيد، وقد بلغ هذا الارتفاع وتطاول بهذا القدر من القوّة، يبدو، وقد امتزج بهمسة توسّل في اللّذة، وكأنّه يتوقّف بعض الأحيان تماماً مثلما ينضب النبع.

كانت «فرانسواز» إن حلّ بها غمّ كبير تشعر بالحاجة اللامجدية إلى حدّ بعيد، ولا تملك الفنّ البسيط إلى حدّ بعيد، للتعبير عنه. فهي إذ حكمت أن جدّتي هالكة لا محالة إنّما كانت ترغب في اطلاعنا على انطباعاتها هي، «فرانسواز». ولم تكن تعلم غير أن تردّد: «ما أكثر مايزعجني الأمر» باللهجة نفسها التي تقول بها بعد ما أكثرت من تناول حساء بالملفوف: «كأنّي أحمل أثقالاً في معدتي»، الأمر الذي كان في الحالين أقرب إلى الطبيعة ممّا يبدو أنّها تظنّ. ولم يكن غمّها، على هزالة ترجمته، أقلّ ضخامة لذلك، وقد زاد فيه من جهة أخرى الضيق من أن ابنتها التي احتجزت في «كومبريه» (وكانت الباريزيّة الشابّة تدعوها الآن «كامبروس» وتحسّ أنّها تضحي فيها «فلاحة») لن تستطيع على الأرجح العودة للاحتفال الجنائزي الذي تشعر «فرانسواز» أنّه لابدّ سيكون شيئاً رائعاً. وإذ كانت تعلم أنّنا قليلاً ما نفصح عن ذات النفس فقد استدعت «جوبيان» مسبّقاً وتحسّباً لكلّ طارئ إلى جميع عشيّات الأسبوع. كانت تعلم أنّه لن يكون خالي الأشغال ساعة الدفن، ولكنّها كانت تريد على الأقل أن «تروي» له عنه.

أخذ والدي وجدّي وأحد أبناء عمومتنا يسهرون منذ عدّة ليال وما عادوا يغادرون البيت. وقد بلغ

بتفانيهم المستّمر أن يتّخذ قناع اللامبالاة، والبطالة المتطاولة حول هذا الاحتضار تضع على ألسنتهم تلك الأقوال نفسها التي لا تنفصل عن إقامة طويلة في عربة سكّة حديديّة. وكان ابن العمومة ذاك (ابن أخ والدة عمّتي) يثير لديّ من الكراهية بقدر ما يستحق من التقدير وما يصيب منه بعامّة.

كنت تلقاه أبداً في الظروف الخطيرة وكان شديد المواظبة بالقرب من المحتضرين إلى حدّ أنّ الأسر، لزعمها أنّه رقيق الصحّة، على الرغم من مظهره القويّ وصوته الغليظ ولحية جنديّ الأنقاذ التي يحملها، كانت تستحلفه دوماً بالعبارات المعهودة ألاّ يجيء إلى الدفن، وكنت أعلم سلفاً أن أمّي التي كانت تفكّر في الآخرين في غمرة أكثر الأحزان هولاً سوف تقول له بصيغة أخرى ماتعودّ سماعهم ممّن يقولون له:

— «عدني بأنّك لن تجيء «غداً». افعل ذلك «من أجلها». لا تذهب على الأقلّ إلى «هناك» لقد سبق أن سألْتك الامتناع عن المجيء».

وما كان ينفع شيء في ذلك، فقد كان أبداً الأوّل في «البيت»، فاطلقوا عليه لذلك السبب في وسط آخر اللقب الذي كنّا نجهله: «لازهر ولا أكاليل». وكان دوماً قبلما يذهب إلى «كل مكان» قد فكّر «في كلّ شيء»، الأمر الذي كان يعود عليه بهذه الكلمات: «هل من ضرورة لشكرك، أنت؟»

وسأل جدّي بصوت قوي، وكان قد أصابه شيء من الصمم ولم يسمع أمراً قاله ابن عمّي لوالدي قبل قليل: «ماذا؟».

فأجاب ابن العمّ: «لاشيء، كنت أقول فقط إنني تسلّمت هذا الصباح رسالة من «كومبريه» حيث الطقس رهيب، وهنا شمس يكاد يكون حرّها مفرطاً».

وقال والدي: «مع أنّ ميزان الضغط الجوي منخفض جداً».

وسأل جدّي قائلاً: «وأين تقول إن الطقس رديء؟».

— «في كومبريه».

— «آه! لست أستغرب، ففي كلّ مرّة يسوء الطقس هنا يكون صحواً في «كومبريه» والعكس بالعكس. ياإلهي! تتحدّث عن «كومبريه»: فهل فكرتم في إخطار «لوغراندان»؟

فقال ابن عمّي الذي ابتسمت وجنتاه المسمرّتان من جرّاء لحية شديدة الكثافة ابتسامة خفيّة لسروره أن يكون فكّر في الأمر: «أجل، لاتقلق، فقد تمّ ذلك».

وهرع والدي في تلك اللحظة فظننت أن ثمة تحسّناً أو تردّياً فاذا هو الدكتور «ديولافوا» الذي وصل لتوّه. وذهب والدي لاستقباله في الصالة المجاورة كالممثّل الذي يزمع المجيء للتمثيل. وكانوا قد أرسلوا في طلبه لا للمعالجة بل لإثبات الواقعة بمثابة نوع من كاتب العدل. لقد أمكن أن يكون الدكتور «ديولافوا» بالفعل طبيباً عظيماً وأستاذاً رائعاً؛ وكان يقرن هذه الأدوار المختلفة التي أبدع فيها بآخر مكث فيه أربعين عاماً دون

منافس، دور في مثل أصالة المُحَاجّ أو «سكاراموش» (١) أو الوالد النبيل وقوامه المجيء لاثبات واقعة النزاع أو الموت. كان اسمه يؤذن بالوقار الذي سيجري به بالوظيفة، وحينما تقول الخادمة: «السيّد ديولافوا» كنت تحسب أنّك لدى «موليير» كانت تسهم في وقار المظهر دون أن تتكشّف للعين مرونة قامة ساحرة. ووجه له مفرط الجمال في حدّ ذاته كانت تخفّف منه ملاءمته ظروفاً مؤلمة. كان الأستاذ يدخل بسترته الرسميّة السوداء المهيبة، وهو حزين دون تصنّع ولايجود بتعزية واحدة يمكن أن تُظنّ متكلّفة ولايقع إلى ذلك في أقلّ خروج على اللياقة. كان هو لادوق «غيرمانت» من كان السيّد العظيم أمام سرير الميت. وبعدما تفحصّ جدّتي دون أن يتعبها وبفرط من التحفظّ كان مجاملة للطبيب المعالج قال بضع كلمات لوالدي بصوت منخفض وانحنى باحترام أمام والدتي التي أحسستُ أنّ والدي كان يتمالك نفسه كي لايقول لها: «الأستاذ ديولافوا». ولكنّ هذا الأخير كان قد أدار رأسه، إذ لايودّ الإزعاج، وخرج كأحسن ما يكون المَخرج وهو يأخذ فحسب الأجر الذي سلّموه إيّاه. ولم يبدُ منه أنّه رآه وقد تساءلنا بدورنا حيناً إن كنّا سلّمناه إيّاه لشدّة ما أبرز من مرونة لاعب الخفّة في إخفائه دون أن يفقد لذاك شيئاً من وقار، تزايد بالأحرى، وقار طبيب عظيم ذي سترة رسميّة طويلة بمقالب من حرير، ورأس جميل مليء بنبيل الإشفاق. كان بطؤه وحيويته يبرزان أنّه لايريد، وإن كان لايزال في انتظاره مئة زيارة، أن يبدو في عجلة من أمره. ذلك أنّه كان اللياقة والذكاء والطيبة مجسّدة. لقد ارتحل هذا الرجل البارز. ويمكن أن يكون أطبّاء آخرون وأساتذة آخرون قد ساووه وربّما فاقوه، ولكن «الوظيفة» التي كان علمه ومواهبه الجسديّة وتربيته العالية توفّر له الغلبة فيها لم تعد موجودة لانعدام الخلف الذي أفلح في القيام بها. لم تكن والدتي حتّى لمحت السيّد «ديولافوا» فكلّ مالم يكن جدّتي لم يكن موجوداً. وإنّي أذكر (واستبق الأمور هنا) أن والدي حين قال لها في المقبرة حيث شوهدت مثل ظهور عجائبي تقترب بوجل من القبر وتبدو وكأنّها تنظر إلى كائن طار وغدا الآن بعيداً عنها: «لقد جاء العمّ «نوربوا» إلى البيت والكنيسة والمقبرة وقد فوّت عليه لجنة هامّة جدّاً بالنسبة إليه ومن واجبك أن تقولي له كلمة فسوف يؤثّر فيه ذلك كثيراً»، لم تستطع أمّي حينما انحنى السفير باتّجاهها إلاّ أن تميل برفق وجهها الذي لم يبك، وقبل ذلك بيومين – ولنستبق الأمور مرّة أخرى قبل أن نعود في الحال بالقرب من السرير الذي كانت المريضة تحتضر فيه – وفيما كانوا يسهرون على جدّتي المتوفّاة كانت «فرانسواز» التي ترتعد لأقلّ ضجّة إذ هي لاتنفي تماماً العائدين، كانت تقول: «يبدو لي أنّها هي». ولكن هذه الكلمات أيقظت بدلاً من الرعب عذوبة لاحدّ لها في صدر والدتي التي ما أكثر ما رغبت أن يعود الأموات كي تكون أمّها أحياناً بالقرب منها.

وكيما نعود الآن إلى ساعات الاحتضار تلك: سأل جدّي ابن عمّي: «أتدري بما أبرقت به لنا شقيقتاها؟».

– «أجل، «بيتهوفن»، قيل لي ذلك وينبغي وضعه داخل إطار، والأمر لايدهشني».

وقال جدّي وهو يمسح دمعة: «وزوجتي المسكينة التي كانت تحبّهما أشدّ الحبّ. يجب ألاّ نحقد عليهما. إنّهما مجنونتان حتّى لينبغي تكبيلهما، لقد قلت ذلك دوماً. ماذا هناك، ألم تعد تعطى أوكسجين؟».

(١) من مشاهير الممثلين في المهزأة الإيطالية النمط، ويعني المهرج بعامة.

وقالت أمّي: «ولكن ستعاود أمّي التنفّس بصعوبة، والحالة هذه. فردّ الطبيب قائلاً: «لا، سيدوم مفعول الأوكسجين فترة مقبولة بعد، وسنعاود الكرّة بعد قليل».

كان يخيّل إليّ أنّهم ما كانوا ليقولوا ذلك بصدد مائته وأنّه إن انبغى أن يستمرّ ذاك المفعول الخيّر فمفاده أنّهم يستطيعون شيئاً على حياتها. وتوقّف صفير الأوكسجين بضع لحظات. ولكنّ أنّةَ التنفّس السعيدة كانت تنبثق دوماً خفيفة قلقة غير تامّة ولاتني تستعاد. كان يبدو بين الحين والحين أنّ كلّ شيء قد انتهى فتوقّف الأنفاس إمّا بفعل تلك التغيّرات في نقطة القرار التي تقوم في تنفّس النائم، وإمّا من جرّاء تقطّع وأثر للتحذير وتزايد للاختناق وبعض قصور في القلب، وعاد الطبيب فأخذ نبض جدّتي، ولكنّ غناء جديد أخذ مذ ذاك يتّصل بالجملة المقطوعة، كما لو أنّ رافداً جاء يحمل ضريبته إلى المجرى الذي جفّ. وكانت الجملة تعود على مستوى آخر وبالزخم نفسه الذي لاينضب. ومن ذا يعلم إن لم يكن الكثير من الحالات السعيدة الرقيقة التي احتجزها الألم ينطلق منها الآن، حتّى دون أن يوافي جدّتي شعور بذلك، كتلك الغازات الأقلّ وزناً والتي كُتِمَتْ زمناً طويلاً؟ لكأنّ كلّ ما كانت تودّ أن تقوله لنا أخذ ينكشف وأنّها كانت تخاطبنا نحن بهذا التطويل وهذه الحماسة وهذه الاستفاضة. وكانت أمّي في أسفل السرير وقد تشنّجت بفعل سائر أنفاس هذا النزاع، لاتبكي ولكنّما تبلّلها الدموع بين الحين والحين وبها الغمّ الشديد الخالي من الفكر الذي لأوراق الشجر يضربها المطر وتقلبها الريح. وطلبوا إليّ مسح عينيّ قبل أن أبادر إلى تقبيل جدّتي.

وقال والدي: «ولكنّي ظننت أنّها لم تعد تبصر».

فأجاب الطبيب: «لايمكن البتّة معرفة ذلك».

حينما لامستها شفتاي اضطربت يدا جدّتي وهزّت كامل جسمها رعشة طويلة إما من قبيل المنعكس وإمّا لأنّ لبعض صنوف الحنان فرط حساسيتها الذي يتعرّف عبر حجاب اللاوعي ماليست بها حاجة تقريباً إلى الحواس لتودّه. وفجأة نهضت جدّتي نصف جالسة وقامت بجهد عنيف كمن يدافع عن حياته. ولم تستطع «فرانسواز» مقاومة ذلك المنظر فاجهشت في البكاء. وأردت أن أخرجها من الغرفة وقد تذكّرت ما قاله الطبيب. وفي تلك اللحظة فتحت جدّتي عينيها. فسارعت إلى «فرانسواز» لأخفي دموعها فيما يحدّث والداي المريضة. إلاّ أن الأوكسجين كان قد صمت وابتعد الطبيب عن السرير. كانت جدّتي قد فارقت الحياة.

وبعد مرور بضع ساعات استطاعت «فرانسواز» مرّة أخيرة أن تسرّح ذلك الشعر الجميل دون أن تعذّبه. وكان متشيباً فحسب وبدا حتّى ذاك أصغر سناً منها. أمّا الآن فقد كان على العكس الوحيد الذي يفرض اكاليل الشيخوخة على المحيّا الذي عاد فأضحى فتيّاً وقد زالت منه التجاعيد والتقلّصات والتهدّل والتوتر والارتخاء وقد أضافها إليه العذاب منذ العديد من السنين. وكما كان شأنها في الزمن البعيد الذي اختار لها أهلها فيه زوجاً، كانت النقاوة والطاعة تخطان ملامحها خطاً ناعماً والوجنتان تلتمعان بعفيف الأمل وحلم بالسعادة وبهجة بريئة هدمتها السنون شيئاً فشيئاً. ولقد حملت الحياة معها في انسحابها خيبات الحياة. فتبدو ابتسامة وكأنّها حطّت على شفتي جدّتي. وفوق ذاك السرير الجنائزي كان الموت، شأن نحّات العصر الوسيط، قد مدّدها بهيئة فتاة شابّة.



الفصل الثاني



زيارة «البيرتين». توقع زواج لري لبعض أصدقاء «سان لو». -

ذكاء آل «غير مانت» في حضرة أميرة «بارما». -

زيارة عجيبة للسيد «دو شارلوس». - أراني أقل فأقل فهماً لطباعه. -

حذاء الدوقة الأحمر.

مع أنَّ اليوم كان محض يوم أحد خريفيّ فقد أخذت أعود إلى الحياة من جديد، والوجود كان بكراً أمامي إذ حلَّ في الصبيحة، بعد سلسلة من الأيّام الدافئة، ضباب بارد لم يتلاش إلاّ حوالي الظهر: وإن تحوّلاً في الطقس لكافٍ لإعادة خلق العالم وخلقنا. فقد كنت بالأمس حين تهبّ الريح في موقدي أصغي إلى الضربات التي تضربها على بابه بانفعال يوازي انفعالي لو أنّها كانت، على غرار ضربات القوس المشهورة التي تبدأ بها «سمفونية دو الصغرى»، نداءت قدر خفّي لاتقاوم. إن كلّ تغيّر ظاهر للعيان في الطبيعة يقدّم لنا تبدّلاً مشابهاً إذ يوافق بين الصيغة الجديدة للأشياء ورغباتنا المؤالفة. لقد جعل الضباب منّي، حالما استيقظت، عوضاً عن الكائن الهارب من نفسه الذي نضحيه في الأيّام الصاحية، رجلاً منطوياً راغباً في ركن النار والسرير المقتَسم، آدم برودياً يبحث عن حوّاء مقيمة، في هذا العالم المختلف.

بين اللون الرماديّ الرقيق لسهول صباحيّة ومذاق كوب شوكولاته كنت أحصر كامل أصالة الحياة الجسمية والعقليّة والأخلاقية التي جئت بها قبل سنة تقريباً إلى «دونسيير» والتي كانت تكوّن فيّ، يميّزها شعار مستطيل الشكل لراية جرداء - قائمة دوماً حتّى حينما كانت غير مرئية -، سلسلة من المتع متميّزة تماماً عن كلّ ماعداها ونعجز عن روايتها للأصدقاء، بمعنى أن الانطباعات الغنّية التي تداخلت خيوطها والتي كانت تنظّمها، إنّما كانت تطبعها بالنسبة إليّ ودون علم منّي بما يفوق الوقائع كثيراً التي كان يمكن أن أرويها. كان العالم الجديد الذي غمسني فيه ضباب هذا الصباح، كان من وجهة النظر هذه عالماً مألوفاً لديّ (الأمر الذي ما كان إلاّ ليزيده حقيقة) ومنسياً منذ بعض الزمن (الأمر الذي كان يعيد إليه كلّ نضارته). وقد استطعت أن أنظر إلى عدد من لوحات الضباب التي سبق أن اقتنتها ذاكرتي، ولاسيّما لوحات لـ«صباح في دونسيير»، إمّا أوّل يوم في الثكنة، وإمّا مرّة أخرى في قصر مجاور اصطحبني إليه «سان لو» لقضاء أربع وعشرين ساعة: فمن النافذة التي رفعتُ ستائرها في الفجر قبل أن أعود فأستلقي تبدّى لي في الأولى فارس، وفي الثانية (وعلى الحدّ الدقيق الفاصل بين غدير وغابة غاص كلّ مابقي منهما في لطافة الضباب المتساوية الرجراجة) حوذيّ ماض في تلميع سيور كمثل هؤلاء الأشخاص القليلين، وتكاد لا تميّزهم العين التي تضطر أن تتلاءم وإبهام الظلال الخفّي، الذين يبرزون من جدارية دارسة.

وإنّما كنت ألاحق اليوم تلك الذكريات من سريري، فقد عدت فأويت إليه لانتظار اللحظة التي عزمت فيها في هذا المساء، مستغلاً غياب والديّ اللذين ذهبا بضعة أيّام إلى «كومبريه»، أن أذهب لسماع مسرحيّة

صغيرة كانت تُمثّل في منزل السيّدة «دوفيليا ريزيس». وما كنت ربّما تجرأت على القيام بذلك بعد ما يعودان، فقد كانت أمّي تريد، في وساوس إجلالها لذكرى جدّتي، أن تكون علامات الأسف التي تخص بها حرّة صادقة، وما كانت لتمنع عنّي تلك النزهة بل كانت استنكرتها. ولكنّها لو استشيرت لما أجابتني من «كومبريه» بهذه العبارة الحزينة: «إفعل ما تشاء فقد كبرتَ إلى الحدّ الذي تعلم معه ماينبغي أن تفعل»، ولكنّها كانت تمنّت. وهي تلوم نفسها أن تركتني وحدي في باريس وتحكم على غمي بالقياس على غمّها، كانت تمنّت له تسليات لعلّها كانت تحجبها عن نفسها وتعتقد أنّ جدّتي، وهمّها قبل كلّ شيء صحتي واتّزاني العصبي، كانت تشير بها عليّ.

لقد تمّ منذ الصباح إشعال جهاز التدفئة المائيّ الجديد. ولم يكن لضجّته المزعجة التي تطلق بين الحين والحين ضرباً من الفواق أيّة صلة بذكرياتي في «دونسيير». ولكنّ لقاءها المستفيض معها في داخلي عصر هذا اليوم كان سيكسبها تقارباً معها شديداً إلى حدّ أنّها سوف تذكرني بها في كلّ مرّة أسمع فيها التدفئة المركزيّة من جديد (بعدما فقدت عادتها بعض الشيء).

لم يكن في البيت غير «فرانسواز». وكان الضباب قد تلاشى، والضياء الرماديّ ينهمر على هيئة مطر ناعم فينسج دون انقطاع شباكاً شفّافة يبدو المتنزهون يوم الأحد وكأنّهم يتفضّضون فيها. وكنت قد رميت على قدميّ صحيفة «لوفيغارو» التي كنت آمر بشرائها على نحو دقيق منذ أن أرسلتُ إليها مقالة لم تنشر فيها. كانت شدّة الضياء تشير على الرغم من غيبة الشمس إلى أنّنا مازلنا في منتصف العصر وكانت ستائر «التول» في النافذة تبدو ضبابيّة متفتّتة كما لعلّها لاتبدو في طقس صاح وبها ذاك المزيج نفسه، من نعومة وسرعة انكسار، الذي لأجنحة اليعاسيب وزجاج البندقيّة. كان يزيد من ضيقي بالوحدة في يوم الأحد ذاك أنّني بعثت في الصباح برسالة إلى الآنسة «دوستيرماريا». وكان «روبير دو سان لو» الذي أفلحت والدته في حمله، بعد محاولات مؤلمة باءت بالفشل، على قطع صلته بعشيقته والذي تمّ إرساله منذ ذلك الحين إلى المغرب لينسى تلك التي لم يعد يحبّها منذ بعض الوقت، كان قد سطّر لي كلمة وصلتني المشيّة يعلمني فيها بمجيئه القريب إلى فرنسه لقضاء عطلة قصيرة جداً. وإذ كان يمرّ محض مرور الكرام في باريس (حيث تخشى أسرته دونما شكّ أن تراه يعيد صلته بـ«راحيل»)، فقد أخطرني، ليظهر لي أنّه فكّر فيّ أنّه التقى في طنجه بالآنسه أو بالأحرى بالسيّدة «دوستير ماريا» لأنّها حصلت على الطلاق بعد ثلاثة شهور من الزواج. وإذ تذكّر «روبير» ما سبق أن قلته له في «بالبيك» فقد طلب باسمي موعداً من المرأة الشابّة. وقد أجابته بأنّها سوف تتناول طعام العشاء معي بكلّ طيبة خاطر في أحد الأيّام التي ستقضيها في باريس قبل العودة إلى «بريتانيه». كان يقول لي أن أسارع إلى الكتابة إلى السيّدة «دوستيرماريا» لأنّها قد وصلت بالتأكيد.

لم أُعْجَبْ لرسالة «سان لو» مع أنّني لم أتلقّ منه أخباراً منذ أن اتهمني في حين مرض جدّتي بالغدر والخيانة. وكنت قد أدركت أتمّ الإدراك آنذاك ما الذي جرى. فقد أقنعت «راحيل» عشيقها، وكانت تحبّ استثارة غيرته (ولديها كذلك أسباب إضافيّة لتحقد عليّ): أنّني قمت بمحاولات غادرة كي تتمّ لي علاقات معها في أثناء غيابه. ومن المرجّح أنّه كان يوالي الظنّ بأنّ الأمر صحيح، ولكنّه كفّ عن التولّه بها حتّى أنّ الأمر أضحى، أصحيحاً كان أم غير صحيح، سواء لديه وأن صداقتنا وحدها ظلّت باقية. وحينما ابتغيت محاولة

التحدّث إليه عن مآخذه عليّ، بعدما التقيته ثانية، وافته فقط ابتسامة طيّبة ورقيقة بدا وكأنّه يعتذر بها ثمّ غيّر الحديث. وليس يعني ذلك أنّه لم يلتق أحياناً «راحيل» في باريس بعد ذلك بقليل، فان المخلوقات التي كان لها دور كبير في حياتنا إنّما يندر أن تخرج منها دفعة واحدة وعلى نحو نهائي، إنّها تعود لتحطّ فيها بين الحين والحين (إلى حدّ أنّ بعضهم يعتقدون بعودة للحبّ) قبل أن تغادرها إلى الإبد. وسرعان ما أضحت القطيعة بين «سان لو» و«راحيل» أقلّ إيلاماً بالنسبة إليه بفضل المتعة المهدّئة التي كانت تحملها إليه طلبات صديقته التي لاتنقطع للمال. إنّ الغيرة التي هي امتداد للحبّ لايمكن أن تحتوي أشياء أكثر بكثير من أشكال الخيال الأخرى. فإن حملنا معنا حينما نذهب في سفر ثلاث صور أو أربعاً سوف تضيع على أيّة حال في الطريق (كزنابق «الجسر القديم وشقائقه، والكنيسة الفارسيّة في الضباب، إلخ.) فالحقيبة مذ ذاك ملأى تماماً. وحينما نهجر عشيقة فانّنا نودّ، إلى أن ننساها قليلاً، ألاّ تضحي ملكاً لثلاثة أو أربعة من المموّلين المحتملين وتراودنا صورهم، يعني أنّنا نغار منهم. أمّا جميع الذين لاتراودنا صورهم فهباء. ولكن طلبات المال المتكرّرة لعشيقة مهجورة لاتزوّدك بفكرة كاملة عن حياتها أكثر ممّا قد تفعل أوراق حرارة مرتفعة عن مرضها. على أنّ الثانية قد تكون مع ذلك دليلاً على أنّها مريضة. وتقدّم الأولى افتراضاً، غامضاً بالحقيقة إلى حدّما، بأنّ المهجورة أو الهاجرة لابدّ لم تجد الشيء الكثير بمنزلة النصير الغَنِي. ولذلك يتّم الترحيب بكلّ طلب بالسرور الذي توليه الهدأة في عذاب الغيران، ويتّم اتباعه في الحال بمرسَلاَت ماليّة لأنّنا نريد ألاّ ينقصها شيء فيما عدا العشّاق (أي واحداً من العشّاق الثلاثة الذين نتصوّرهم)، بانتظار أن نتعافى قليلاً وأن يسعنا معرفة اسم الخلف دون ضعف. لقد عادت «راحيل» أحياناً في وقت متأخّر من السهرة لتستأذن عشيقها السابق في النوم إلى جانبه حتّى الصباح. كان ذلك هناءة كبيرة في نظر «روبير»، فقد كان يتبيّن إلى أيّ مدى عاشا معاً عيشة حميمة على الرغم من كل شيء لمحض مايرى أنّه، وإن خصّ نفسه بجزء كبير من السرير، لايضايقها في شيء في نومها. كان يدرك أنّها أكثر راحة بالقرب من جسم الصديق القديم الذي كان، منها في أيّ مكان آخر، وأنّها تلقى نفسها بجانبه– وإن كان ذلك في الفندق– وكأنّما في غرفة هي قديمة العهد بها وللمرء فيها عاداته وينام فيها نوماً أفضل. كان يحسّ أنّ منكبيه وساقيه وكلّ ذاته كانت في نظرها، حتّى حينما يبالغ في الحركة من جرّاء الأرق أو عمل يقوم به، من تلك الأمور المعتادة جداً إلى حدّ أنّها لايمكن أن تولّد إزعاجاً وأنّ الإحساس بها يزيد من الشعور بالراحة.

وكيما أعود إلى الوراء، لقد تزايد اضطرابي من جرّاء الرسالة التي سطّرها لي «سان لو» من المغرب بقدر ما كنت أقرأ بين السطور مالم يجرؤ أن يكتب عنه كتابة أكثر صراحة. كان يقول لي «يمكنك تماماً دعوتها إلى حجرة خاصّة. إنّها امرأة شابة فاتنة عذبة الطباع وسوف تتفاهمان على أكمل وجه وإنّي متيقّن سلفاً أنك ستقضي أمسية طيّبة جداً». وبما أنّ والديّ سيعودان في آخر الأسبوع، يوم السبت أو الأحد، وأنّني قد أضطر بعدها إلى العشاء كلّ مساء في البيت فقد كتبت في الحال إلى السيّدة «دوستير ماريا» كي أعرض عليها اليوم الذي تشاء حتّى يوم الجمعة. وقد أُجِبْتُ أنّني سأتسلّم رسالة حوالي الساعة الثامنة في هذا المساء نفسه. وكنت بلغته بسرعة مقبولة لو تيسّر لي في أثناء العصر الذي يفصلني عنه عون يجيئني من زيارة. فحينما تلفّ الأحاديث الساعات فإنّك لاتستطيع قياسها من بعد، ولاحتى رؤيتها، إنّها تتلاشى، وإنّما يعود فيبرز فجأة في ساحة انتباهك الزمن الرشيق المُخْتَلَس بعيداً جداً عن النقطة التي غاب عنك فيها. أمّا إذا كنّا وحدنا فإنّ

الاهتمام إذ يعيد أمامنا اللحظة التي لاتزال بعيدة والتي ننتظرها دون انقطاع، يعيدها بتواتر تكتكة الساعة وانتظامها، إنّما يقسّم بل يضاعف الساعات بعدد جميع الدقائق التي لعلّنا ما كنّا نعدّها في مجلس أصدقاء. وكان ذلك العصر الذي أزمع أن أكمله وحدي، إمّا قوبل من جرّاء رجعة شوقي المستمرّة باللذة اللاهبة التي سأتذوّقها مع السيّدة «دوستير ماريا»، ولكن بعد بضعة أيّام للأسف، كان يبدو لي شديد الفراغ وشديد الكآبة.

كنت أسمع بين حين وآخر ضجّة المصعد وهو يرتفع، ولكنّما كانت تليها ضجّة ثانية، لا تلك التي آملها، أي التوقف في طابقي، بل أخرى مختلفة جداً يطلقها المصعد لموالاة طريقه المندفعة صوب الطوابق العليا وقد ظلّت لكثرة ماعنت هجر طابقي حين كنت أنتظر زيارة، ظلّت بالنسبة إليّ فيما بعد، حتّى حين لا أرغب في أي زيارة، ضجّة مؤلمة في حدّ ذاتها ويدوّي فيها كأنّما حكم بالهجران كان النهار الأغبر ينسج تخاريمه اللؤلئية متعباً مستسلماً منصرفاً عدّة ساعات أيضاً إلى عمله المغرق في القدم، وكنت أغتمّ للتفكير بأنّي سوف ألبث وحدي أجلس قبالته هو الذي ما كان يعرفني أكثر من عاملة اتّخذت مكانها قرب النافذة كي تبصر على نحو أوضح وهي تؤدّي عملها، ولا تهتّم بالشخص الحاضر في الغرفة. وفجأة، ودون أن أكون سمعت قرع الجرس، أقبلت «فرانسواز» تفتح الباب وتُدخل «ألبيرتين» التي دخلت مبتسمة صامتة سمينة حاوية في امتلاء جسمها الأيّام التي قضيتها في «بالبيك» حيث لم أعد قطّ، الأيّام التي أُعدَّتْ كي أستمّر في عيشها، والتي أقبلت إليّ. وليس من شكّ أنّنا كلّما عدنا فالتقينا شخصاً اتفق لعلاقاتنا به– مهما تكن هزيلة– أن تتغيّر فكأنّما تلك مقابلة بين عصرين. وليس من حاجة لذلك أن تجيء عشيقة سابقة لتلقانا لقاء صديقة، بل تكفي زيارة إلى باريس يقوم بها واحد عرفناه في السياق اليومي لنمط معيّن من الحياة، وأن تكون تلك الحياة قد توقّفت حتّى منذ أسبوع فحسب. كنت أستطيع تهجية هذه الأسئلة على كل خطّ ضاحك مستفسر منقبض من وجه «ألبيرتين»: «ماذا عن السيّدة «دو فيلباريزيس»؟ ومعلّم الرقص؟ والحلوانيّ؟» وحينما جلست بدا ظهرها وكأنّه يقول: «ليس من جرف بالطبع ههنا، أتسمح مع ذلك أن أجلس بالقرب منك كما لعلّني كنت فعلت في «بالبيك»؟ كانت تبدو وكأنّها ساحرة تقدّم لي مرآة الأزمنة. وكانت في ذلك شبيهة بجميع الذين نادراً ما نلتقيهم ولكنّهم عاشوا معنا بالأمس عيشة أشدّ وثوقاً. لم يكن ذلك فحسب، فيما يخصّ «ألبيرتين». فالصحيح أنّي كنت أدهش دوماً، حتّى في «بالبيك»، حينما أبصرها في أثناء لقاءاتنا اليوميّة لكثرة ما كانت مستمّرة. ولكنّك الآن تكاد لا تتعرّفها. فقد برزت ملامحها شأن تمثال، بعدما تحرّرت من الضباب الورديّ الذي كانت غارقة فيه. لقد صار لها وجه آخر، أو هي بالأحرى أصبح لها أخيراً وجه، وقد كبر جسمها. ولم يظلّ شيء تقريباً من الغلاف الذي سبق أن لُفت به والذي كان ينخطّ على صفحته في «بالبيك» شكلها الآتي.

لقد عادت «البيرتين» هذه المرّة إلى باريس أبكر من المعتاد. فلم تكن تصل إليها عادة إلاّ في الربيع حتّى أني، وبي جزع منذ بضعة أسابيع من جرّاء العواصف على الأزاهير الأولى، ما كنت أفصل في المتعة التي أصيبها بين عودة «ألبيرتين» وعودة الربيع. كان يكفي أن يقال لي إنّها في باريس وإنّها مرّت في بيتي حتّى أعود فأراها مثل وردة على شاطئ البحر. ولست أدري تماماً إن كان اشتياقي إلى «بالبيك» أو إليها هو الذي كان يستولي عليّ حينذاك، ولأن اشتياقي إليها ربّما كان صيغة كسلى متراخية غير تامّة لامتلاك «بالبيك» كما لو كان امتلاك الشيء ماديّاً، اختيار الإقامه في مدينة، يساوي امتلاكها روحيّاً. ولكنّما كانت تبدو لي

على أيّة حال، حتّى مادياً، حينما لايرجحها خيالي أمام الأفق البحريّ بل هي ثابتة بالقرب منّي، كانت تبدو لي في الغالب وردة هزيلة جداً أردت لو أطبق الأجفان دونها كي لا أرى هذا العيب أو ذاك في التويجيات وليخيّل إليّ أنني أتنفّس على الشاطئ.

بوسعي أن أقولها ههنا، مع أني ماكنت أعلم حينذاك ماكان لن يحدث إلاّ فيما بعد. إنّه أكثر صواباً بالتأكيد أن نضحّي بحياتنا في سبيل النساء منه في سبيل الطوابع البريديّة وعلب السكاير القديمة وحتّى اللوحات والتماثيل. على أنّ مثل المجموعات الأخرى ينبغي أن ينبّهنا إلى التغيير وألاّ يكون لنا امرأة واحدة بل كثيرات. فتلك الأخلاط الساحرة التي تؤلّفها فتاة مع أحد الشواطئ، مع الشعر المجدول لتمثال في كنيسة، مع صورة مطبوعة، مع كلّ ما من أجله نحبّ في إحداهنّ، كلّ مرّة تدخل فيها، لوحة ساحرة، تلك الأخلاط ليست مستقرة إلى حدّ كبير. عش كليّاً مع المرأة ولن ترى فيها من بعد شيئاً ممّا حملك على حبّها. إنّ الغيرة تستطيع بالتأكيد، إن انفصل العنصران، أن تجمعهما من جديد. فإن بلغ بي الأمر بعد زمن طويل من الحياة المشتركة ألاّ أرى في «ألبيرتين» من بعد سوى امرأة عادية فلعلّ أيّ مكيدة لها مع رجل أحبّته في «بالبيك» ربّما كانت كافية لتدخل إليها من جديد وتمزج بها الشاطئ وتدفّق الموج. بيد أنّ هذه الأخلاط الثانويّة لاتخلب أبصارنا من بعد وإنّما يحسّ بها فؤادنا وهي شؤم عليه. ولايمكن أن نجد رغبة في تجدّد المعجزة في صيغة خطرة إلى هذا الحدّ. ولكنّي استبق السنين. وعليّ أن آسف هنا فقط أنّي لم أظلّ على تعقّل كاف كي يكون لي محض مجموعة من النساء مثلما يملك المرء مجموعة مناظير قديمة، وليست في يوم كافية العدد خلف الواجهة حيث ينتظر دوماً مكان فارغ منظاراً جديداً وأشدّ ندرة

لقد جاءت هذه السنة، بعكس الترتيب المعهود لأمكنه اصطيافها، جاءت مباشرة من «بالبيك» وهي إلى ذلك قد مكثت فيها أقلّ من عادتها بكثير. ولم أكن قد رأيتها منذ زمن طويل. ولمّا كنت لا أعرف حتّى أسماء الأشخاص الذين تتردّد عليهم في باريس فقد كنت لا أعلم شيئاً عنها في أثناء الفترات التي تلبث فيها دون أن تأتي للقائي. وكثيراً ما كانت تلك طويلة إلى حدّ ما. ثمّ إذا بـ«ألبيرتين» تطلع فجأة ذات يوم، «ألبيرتين» التي كانت تجليّاتها المورّدة وزياراتها الصامتة تطلعني على النزر اليسير ممّا أمكن أن تفعل في الزمن الفاصل بينها، ويظلّ غارقاً في هذه الظلمة من حياتها التي تكاد لاتهتّم عيناي بالنفاذ إليها.

على أن بعض الدلائل كانت تبدو هذه المرّة وكأنّها تشير إلى أنّ أموراً جديدة لابدّ جرت في هذه الحياة. غير أنّه ربّما كان ينبغي أن نستخلص منها فحسب أنّ المرء يتغيّر بسرعة كبيرة في سنّ «ألبيرتين». من ذلك مثلاً أنّ ذكاءها كان يبرز على نحو أفضل، وحينما عدت فحدّثتها عن اليوم الذي أبدت فيه الكثير من الحماسة لفرض فكرتها في حمل «سوفوكليس» على أن يكتب: «عزيزي راسين»، كانت أوّل من ضحك مشروح الفؤاد. وقالت: «آندريه» هي التي كانت على حقّ، وكنت غبيّة. كان ينبغي لـ«سوفوكليس» أن يكتب: «سيّدي». فأجبتها أنّ كلمتيّ: «سيّدي» و«سيّدي العزيز» لـ «آندريه» لم تكونا أقلّ إضحاكاً من كلمتها هي: «عزيزي راسين»، وكلمة «جيزيل»: «صديقي العزيز» وأن ليس من كان غبياً في الأساس سوى أساتذة يطلبون أن يوجّه «سوفوكليس» رسالة لـ«راسين». وهنا لم تتبعني «ألبيرتين»، فلم تكن ترى ما في ذلك من غباء؛ لقد كان عقلها يتفتّح ولكنّه لم يكن قد نما. كان ثمّة وجود جدّة أكثر اجتلاباً فيها. كنت

أحسّ في الفتاة الجميلة نفسها التي جلست منذ قليل قرب سريري شيئاً مختلفاً، وفي تلك الخطوط التي تعبّر في النظرة وملامح الوجه عن الإرادة المعتادة تغيّراً واضحاً ونصف انقلاب وكأنّما قضي فيها على صنوف المقاومة التي تحطّمت على صخورها في «بالبيك» ذات مساء أضحى الآن بعيداً وكنّا نؤلّف فيه زوجاً يناظر زوج بعد الظهيرة الحاضرة ولكنّه عكسه بما أنّها هي التي كانت مستلقية في سريرها حينذاك وأنا بجانب السرير. ولما كنت أبغي التأكّد إن كانت تدع لأحد أن يقبّلها وتخونني الجرأة في ذلك، فقد كنت أسألها أن تمكث بعد في كلّ مرّة تنهض فيها للذهاب. ولم يكن من السهولة بمكان الحصول على ذلك فقد كانت، على الرغم من أنْ ليس ثمّة ما تفعله (ولولا ذاك لوثبتْ خارجاً)، امرأة دقيقة وقليلة اللطف معي على أيّ حال إذا بدا أو كاد أنّها لا تستمتع من بعد برفقتي. ولكنها كانت تعود في كل مرّة فتجلس نزولاً عند رجائي بعدما تنظر إلى ساعتها حتّى أنّها قضت بضع ساعات معي ودون أن أكون طلبت إليها شيئاً. كانت الجمل التي أقولها لها ترتبط بتلك التي سبق أن قلتها لها في أثناء الساعات السابقة ولا تتّصل بشيء ممّا كنت أفكّر فيه، ممّا كنت أتوق إليه، وتظلّ موازية له إلى مالانهاية. فليس كالشوق يحول دون أن تكتسب الأشياء التي نقولها أيّ شبه بما يجول في خاطرنا. فالوقت يستعجلنا ويبدو مع ذلك أنّنا نبغي كسب الوقت بالتحدّث عن موضوعات غريبة تماماً عن الموضوع الذي يشغلنا. ويجري الحديث بينما الجملة التي نودّ لو ننطق بها قد ترافقها مذ ذاك حركة، على افتراض أنّنا (كيما نوفّر لذاتنا متعة الأمر الفوري ونشبع الفضول الذي ينتابنا حيال ردود الفعل التي سيحملها) لم نقم بتلك الحركة دونما كلمة قلناها ودون أن نلتمس إذناً بذلك. أجل ما كنت أحبّ «ألبيرتين»: فقد كان بوسعها، هي وليدة الضباب في الخارج، أن تشبع فحسب الرغبة المتخيّلة التي أيقظها في صدري الطقس الجديد والتي كانت نقطة وسيطة بين الرغبات التي يمكن لفنون الطبخ أن تسدّها وتلك العائدة إلى النحت الأثري، فقد كانت تملؤني بأحلام قوامها أن أمزج بجسمي مادّة مختلفة دافئة وأن أربط في الآن نفسه بنقطة ما من جسمي الممدود جسماً مختلفاً مثلما كان جسم حوّاء عالقاً بقدميه، أولايكاد، بورك آدم وهي تعامد جسمه تقريباً في تلك النقوش البارزة الرومانية في كاتدرائية «بالبيك» التي تصوّر على نحو نبيل وهادئ، وبما لايزال يقارب إفريزاً قديماً، خلق المرأة. والله يتبعه فيها في كلّ مكان، وكأنّما وزيران، ملاكان صغيران تتعرّف فيهما آلهة حبّ من «هرقولا نوم» لاتزال تعيش في قلب القرن الثالث عشر وتجرّر آخر رقّة لها، رقّة متعبة ولكنّما لا تنقصها الرشاقة التي يمكن أن نتوقّعها منها، على كامل واجهة البّوابة- مثلها مثل تلك المخلوقات الصيفيّة المجنحة المحوّمة التي فاجأها الشتاء وأبقى عليها.

ولكنْ تلك المتعة التي ربّما أنقذتني، بتحقيق رغبتي، من هذه الأحلام والتي لعلّني كنت بحثت عنها بمثل الطيبة لدى أيّة امرأة حلوة أخرى، لو أنّني سئلت- في غضون هذه الثرثرة التي لاتنتهي والتي كنت أكتم «البيرتين» فيها الشيء الوحيد الذي أفكّر فيه- على أيّ أساس تقوم فرضيّتي المتفائلة بشأن التساهلات الممكنة فربّما أجبت أنّ هذه الفرضيّة ناجمة (فيما كانت الملامح المنسيّة في صوت «ألبيرتين» ترسم لي من جديد معالم شخصيّتها) عن ظهور بعض كلمات لم تكن في عداد مفرداتها، بالمعنى الذي كانت تخصّها به الآن على الأقلّ. ففيما كانت تقول لي إنّ «ايلستير» غبّي وأنا أصيح متدداً، أجابتني تبتسم قائلة: «أردت أن أقول إنّه كان غبياً في تلك المناسبة، ولكنّي أعلم تمام العلم أنّه رجل مرموق إلى أبعد حدّ».

وقد أعلنت كذلك، بغية أن تقول عن «غولف فونتينبلو» إنّه أنيق:

– «إنّه بالتمام صفوة مختارة».

وقالت لي بصدد مبارزة سبق أن وقعت لي، قالت بشأن شهودي: «إنّهم شهود مصطفون»، وأقرّت إذ نظرت إلى وجهي أنّها تودّ لو تراني بشاربين. وبلغ بها حتّى أن تقول، وبدا لي إذ ذاك أن احتمالات تُحاجي كبيرة جداً، إنّه انقضى منذ أن التقت «جيزيل» «ردح من الزمن»، واللفظة، وكنت أقسمت على ذلك، إنّما كانت تجهلها في السنة السابقة. وليس يعني أنّ «ألبيرتين» لم يسبق أن ملكتْ عندما كنتُ في «بالبيك» كميّة مناسبة جداً من تلك العبارات التي تكشف في الحال أنّك تنحدر من أسرة ميسورة والتي تتخلى عنها الوالدة لابنتها سنة بعد سنة مثلما تهبها كلّما كبرت مجوهراتها الخاصة في المناسبات الهامّة. وقد سبق الإحساس بأنّ «ألبيرتين» كفّت عن كونها صبيّة صغيرة حينما أجابت ذات يوم للشكر على هديّة قدّمتها لها إحدى الغريمات: «إنّني خجلى». ولم تتمالك السيّدة «بونتان» عن النظر إلى زوجها الذي أجاب قائلاً:

– «بالطبع، فإنّها تناهز الرابعة عشرة».

وقد برزت علامات البلوغ على نحو أكثر وضوحاً حينما قالت «ألبيرتين» وهي تتحدّث عن فتاة سيئة المظهر: «أنت لا تستطيع حتّى أن تميّز إن كانت حلوة فإنّها تضع قدماً من الحمرة على وجهها». وكانت أخيراً تتصرفّ، مع أنّها فتاة بعد، تصرفّ امرأة من بيئتها ومكانتها إذ تقول إن كشّر أحدهم: «لا أقوى على رؤيته لأنّني أرغب أن أفعل مثله»، أو أن تلهوّا بتقليد بعضهنّ: «أغرب الأمر حينما تقلّدينها أنّك تشبهينها». وكلّ ذلك مقتبس من الذخيرة الاجتماعيّة. بيد أن بيئة «ألبيرتين» لم تكن تبدو لي قادرة أن توفّرلها «متميزّ» بالمعنى الذي كان والدي يقول فيه عن واحد من زملائه لم يكن يعرفه بعد وكانوا يشيدون أمامه بذكائه العظيم: «يبدو أنّه رجل متميّز تماماً». وبدا لي «اصطفاء»، حتّى فيما يخصّ لعبة الغولف، لاينسجم وعائلة «سيموتيه» بقدر قلّة انسجامه لو جاء مصحوباً بالصفة «طبيعيّ» في نصّ سابق عدّة قرون لأعمال «داروين». وبدا لي «ردح من الزمن» أفضل فألاً. وبرزت لي أخيراً بجلاء انقلابات ما كنت أعرفها ولكن من شأنها أن تصرّح لي بكل الآمال حينما قالت لي «ألبيرتين» بالرضى الذي يبديه امرؤ لايستهان برأيه:

– «ذلك، فيما أرى، أفضل ما كان يمكن أن يحدث... وفي تقديري أنّه الحلّ الأفضل، الحلّ الأنيق».

كان ذلك بالغ الجدّة وجليية شديدة الوضوح تدع لك أن تخمنّ عطفات غير منتظرة إلى حدّ بعيد عبر أراض مجهولة بالأمس لديها حتّى أنّي جذبت «ألبيرتين» حال سماعي كلمات «فيما أرى»، ولدى «في تقديري» أجلستها على سريري.

لاشكّ أنّه يتّفق أن تتسلّم نسوة هيّنات الثقافة يتزوجّن رجلاً كثير الثقافة مثل تلك العبارات في إسهامهن الصداقيّ. وبعد التحوّل الذي يلي ليلة العرس بقليل، وحينما يقمن بزياراتهنّ ويبدين تحفّظاً مع صديقاتهنّ السابقات، نلاحظ بدهشة أنّهن غدون نساء إن هنّ قمن، لدى تقريرهنّ أنّ أحد الناس ذكيّ، بوضع شدّتين للفظة ذكيّ، ولكنّ ذلك بالضبط دليل تغيّر، وكان يبدو لي أنّ ثمّة عالماً بين العبارات الجديدة ومفردات «ألبيرتين» التي سبق أن عرفتها، المفردات التي كان أكثر صنوف الجرأة فيها أن تقول عن شخص غريب الأطوار: «إنّه إنسان غريب»، أو إن هم عرضوا على «ألبيرتين» أن تلعب: «لامال عندي أضيّعه»، أو إن

وجهّت لها هذه أو تلك من صديقاتها لوماً لاترى أنه مبّرر: «أجدك بالحقيقة رائعة!»، والجمل يمليها في تلك الحالات نوع من التقليد البورجوازي يكاد يكون في قدم «عظمي يانفسي» ذاتها وتستخدمها الفتاة التي ينتابها شيء من الغضب وهي واثقة من حقّها، تستخدمها على النحو الذي يسمّونه «طبيعياً جدّاً»، وأعني لأنها تعلّمتها من والدتها كما تعلّمت أداء صلاتها أو التحيّة. كلّ تلك الجمل علّمتها إيّاها السيّدة «بونتان» إلى جانب كراهية اليهود والتقدير للون الأسود الذي يبدو فيه المرء لائقاً على الدوام وعلى أحسن وجه، حتّى دون أن تعلّمها إيّها تعليماً صريحاً، بل مثلما تتطابق وزقزقة الوالدين من الحساسين زقزقة الحساسين المولودة حديثاً حتّى إنّها تصبح هي الأخرى حساسين حقيقية. وعلى الرغم من كل شيء فقد بدا لي «اصطفاء» من تربة أخرى و«في تقديري» مشجعاً. لم تعد «ألبيرتين» كما كانت ولعلّها لن تتصرّف التصرف نفسه ولن تكون لها ردود الفعل نفسها.

لم أعد أحسّ بأيّ حبّ نحوها، وليس ذلك فحسب، بل لم يعد عليّ أن أخشى، كما لعلّني كنت أفعل في «بالبيك»، أن أحطّم فيها مودّة لي لم تعد موجودة. ولم يكن ثمّة أي شكّ في أنّني غدوت منذ زمن طويل لا أهميّة لي البتّة في عينيها. لقد أخذت أتبيّن أنّني لم أعد بالنسبة إليها من أفراد «الجماعة الصغيرة» التي جهدت كثيراً فيما مضى في الانضمام إليها وسعدت جدّاً فيما بعد أن أفلحت في ذلك. ثم إنّي لم أكن أشعر بمخاوف كبيرة بما أنّها لم تعد حتّى تظهر، شأنها في «بالبيك»، بمظهر الصراحة والطيبة. على أنّي أعتقد أنّ ماحلمني على التقرير كان اكتشافاً أخيراً لغويّاً. فلّما كنت أوالي إضافة حلقة جديدة إلى سلسلة الأقوال الخارجيّة التي كنت أخفي خلفها رغبتي العميقة وأتحدّث، فيما تجلس «ألبيرتين» الآن في زاوية سريري، عن واحدة من فتيات «الجماعة الصغيرة»، وكانت أكثر نحولاً من الأخريات، ولكنّي كنت أجدها مع ذلك على جمال كاف، أجابتني «ألبيرتين» قائلة: «أجل، إنّها تبدو وكأنّها مومس صغيرة». وجلي كلّ الجلاء أن كلمة «مومس» كانت مجهولة لدى «ألبيرتين» حينما عرفتها. ومن المحتمل أنّها ما تعلّمتها في يوم لو جرت الأمور مجراها الطبيعي وما كنت وجدت في ذلك فيما يخصنّي أيّ ضير إذ ليس ما كان أكثر إثارة للاشمئزاز. فانّك تحسّ إمّا سمعتها بمثل ما يصيبك من ألم الأسنان إن أنت وضعت قطعة كبيرة من المثلجات في فمك. أمّا لدى «ألبيرتين»، وبالجمال الذي كانت عليه، فما كانت حتّى «مومس» تستطيع أن تسوء في عيني. ولكنّما بدا لي بالمقابل أنّها إن لم تكشف عن تدرّب خارجيّ، فعن تطوّر داخليّ على الأقل. وكانت قد حانت للأسف الساعة التي ينبغي لي أن أودّعها فيها إن أردت أن تعود في الوقت المناسب من أجل عشائها وأن أنهض بدوري قبل أواني بعض الشيء من أجل عشائي. وكانت «فرانسواز» هي التي تعدّه ولاتحبّ أن ينتظر ولابدّ أنّها وجدت منافياً لأحدى موادّ مدّونتها أن تكون «ألبيرتين» قد قامت، في غياب والديّ، بزيارة لي طويلة إلى هذا الحدّ، وتوشك أن تؤخّر كلّ شيء، ولكنّ هذه الأسباب تهاوت أمام كلمة «مومس» وسارعت إلى القول:

– «تصوّري أنّني لا أتأثر بالدغدغة على الإطلاق، ويمكنك أن تدغدغيني على مدى ساعة فلا أشعر حتّى بذلك».

– «صحيح!».

- «أؤكّد لك».

وأدركتُ دونما شكٍّ أنّ ذلك كان التعبير غير الحاذق عن رغبة ما، فقد قالت لي بتواضع المرأة، شأن من يقدّم لك توصية ما كنت تجرؤ على التماسها لكنّ أقولك برهنت له أنّه يمكن أن تفيد منها:

- «أتريد أن أجرّب؟».

- «إن شئتِ، لكنّما يبدو من الأسهل آنذاك أن تتمدّدي تماماً فوق سريري».

- «هكذا؟!»

- «لا، غوري».

- «ولكن ألستُ ثقيلة جداً؟».

وفيما كانت تنهي هذه الجملة انفتح الباب ودخلت «فرانسواز» تحمل مصباحاً. ولم يتسع لـ «ألبيرتين» أكثر من أن تعود فتجلس على الكرسيّ. ربّما اختارت «فرانسواز» هذه اللحظة لتخزينا وقد مضت تصغي» من وراء الباب أو حتّى تنظر من ثقب المغلاق. بيد أنّه لم تكن بي حاجة إلى القيام بمثل هذا الافتراض فقد أمكن أن تزدري التأكد بالعين مما لابدّ استشفته بالغريزة استشفافاً كافياً لأنّ الخشية والحذر والانتباه والحيلة قد زوّدتها في النهاية عنّا، لطول معيشتها معي ومع والديّ، بهذا النوع من المعرفة الغريزيّة التي تقارب الكهانة والتي تتوافر للبحّار عن البحر وللطرائد عن الصيّاد وأمّا عن المرض فللمريض في الغالب على الأقلّ إن لم يكن للطبيب. كان يمكن لكلّ ما تفلح في معرفته أن يذهل بحقّ شأن الواقع المتطوّر لبعض المعارف لدى القدماء نظراً لوسائل الإعلام المعدومة تقريباً التي كانت بحوزتهم (ولم تكن وسائلها أوفر عدداً ؛ كانت بعض أقوال تكاد لاتشكّل واحداً من عشرين من حديثنا في العشاء التقطها رئيس الخدم بسرعة ونقلها نقلاً غير دقيق إلى غرفة الخدمة). ثم إن أخطاءها كانت تنجم بالأحرى، شأن أخطائهم، شأن الأساطير التي كان «أفلاطون» يعتقد بها، عن تصورّ خاطئ للعالم وعن أفكار مسبقة أكثر منها عن نقص الإمكانات المادّية. فمن ذلك أن أعظم اكتشافات في مضمار عادات الحشرات أمكن أن تتمّ، حتى في أيّامنا، على يد عالم ما كان يملك أيّ مخبر أو أيّ جهاز. ولئن لم تَحُل المضايقات الناجمة عن مركز الخادمة الذي تشغله دون اكتساب علم لاغنى عنه للفنّ الذي كان غايته -والذي قوامه أن تسومنا الخزي بنقل نتائجه إلينا - فقد فعل القسر أكثر ، فالقيد لم يكتف هنا بألاّ يشلّ تقدّمه بل أدّى له عوناً كبيراً. وليس من شكّ أنّ «فرانسواز» ما كانت تهمل أيّة وسيلة معينة، كوسيلة الإلقاء والوقفة على سبيل المثال. ولمّا كانت توافق دون أدنى ارتياب «إن لم تكن تصدّق البتّة مانقوله لها ومانتمنّى أن تصدّقه» على كلّ مايرويه لها أيّ شخص من طبقتها ممّا كان منافياً للعقل أكثر ما يكون ويستطيع في الوقت نفسه أن يصدم أفكارنا، فبقدر ما كانت طريقتها في الإصغاء إلى توكيداتنا تنّم عن قلّة تصديقها، كانت اللهجة التي تنقل بها (لأن الكلام المنقول يسمح لها بأن توجّه لنا دونما عقاب أشنع الشتائم) رواية طاهية حكت لها أنّها هدّدت أسيادها ونالت منهم، فيما تنعتهم أمام الجميع «بالزبالة»، الجمّ من النعم، كانت تظهر بالمقدار نفسه أنّها كلام الإنجيل بالنسبة إليها. بل كانت «فرانسواز» تضيف قائلة: «أما

أنا، فلو كنت ربّة البيت لوجدتْني مغضبة». وعبثاً كنّا، على الرغم من قلّة مودّتنا الأصليّة للسيّدة التي تقطن الرابع، نهزّ المنكبين إزاء رواية مثل سيّئ إلى هذا الحدّ، وكأنّما إزاء خرافة لاتصدّق، فقد كانت لهجة الراوية تفلح في اتّخاذ النبرة القاطعة الباترة التي تطبع أكثر مالا يحتمل النقاش ويثير الحنق من توكيد.

زد على ذلك أنه، مثلما يبلغ الكتّاب في الغالب قوّة في التركيز لعلّ نظام الحرية السياسيّة أو الفوضى الأدبيّة كان أعفاهم منها، وذلك حينما يكبّلهم استبداد سلطان أو مذهب شعري وقسوة قواعد العروض أو دين الدولة، كذلك كانت «فرانسواز» تتحدّث مثل «تيريزياس» (١) ولعلّها كان كتبت مثل «تاكيتوس»(٢)، إذلايسعها أن تردّ علينا ردّاً صريحاً. كانت تعلم كيف تضمّن كلّ مالا تستطيع التعبير عنه مباشرة في جملة ما كان باستطاعتنا أن نطعن فيها دون أن نتّهم أنفسنا، وحتّى في أقلّ من جملة، في لحظة صمت، في الطريقة التي تضع بها حاجة ما.

من ذلك أنّه حينما كان يتفق لي أن أدع سهواً على طاولتي بين رسائل أخرى رسالة ما كان ينبغي أن تراها لأنّه جرى فيها على سبيل المثال التحدّث عنها بنيّة سوء تفترض أخرى بحقّها لدى المرسل إليه تعادل مقدارها لدى المرسل، فإن عدت مضطرب النفس في المساء وذهبت رأساً إلى غرفتي كانت الوثيقة المثيرة الشبهات فوق رسائلي التي نسقت على أحسن وجه في كومة متقنة تسترعي للوهلة الأولى أنظاري مثلما لم يكن ممكناً ألا تسترعي أنظار «فرانسواز» وقد وضعتها هي في الأعلى تماماً، وكأنّما على حدة، وفي جلاء كانت كلاماً في حدّ ذاته وله من الكلام بلاغته وكان يبعث فيّ ما أن أجتاز الباب رعشة مثلما تفعل صرخة. كان تجيد تنظيم صنوف الإخراج هذه المعدّة لإطلاع المشاهد، في غياب «فرانسواز»، إطلاعاً تامّاً إلى حدّ يعلم معه مذ ذاك أنّها تعلم كلّ شيء حينما تدخل فيما بعد. وكيما تنطق على هذا النحو حاجة لاروح فيها كانت تملك الفنّ العبقريّ والمتأنّي في آن معاً الذي يمتاز به «إيرفنغ» و«فريديريك لوميتر» وفي هذه اللحظة كانت «فرانسواز» تبدو، وهي تمسك فوق «ألبيرتين» وفوقي بالمصباح المضاء الذي ما كان يدع في الظلام أيّامن الأخاديد التي لاتزال واضحة والتي سبق أن حفرها جسم الفتاة في اللحاف، كانت تبدو وكأنّها «العدالة تلقي الضوء على الجريمة». ولم يكن وجه «ألبيرتين» ليخسر من جراء هذه الإضاءة فقد كانت تكشف على الوجنتين الطلاء المنّور نفسه الذي سبق أن فتنني في «بالبيك». إن وجه «ألبيرتين» هذا الذي كان لجمله في الخارج أحياناً نوع من الإصفرار الشاحب كان يبرز على العكس مساحات برّاقة الألوان متساويتها إلى حدّ بعيد وشديدة الصلابة والملاسة كلّما نشر المصباح ضياءه عليها حتّى ليمكن تشبيهها بالألوان الورديّة الثابتة في بعض الأزهار. وقد فوجئت مع ذلك بدخول «فانسواز» اللامتوقّع فصرخت قائلاً:

— «كيف، أحان وقت المصباح؟ بالإلهي ما أشدّ هذا النور!»

كان غرضي دونما ريب من ثاني هاتين الجملتين أن اخفي اضطرابي، ومن الأولى أن أجد العذر لتأخيري. واجابت «فرانسواز» بلبس قاسٍ:

---

(١) Tirésias من كهان «ثيبة»، عوقب بالعمى لأنه كشف أسرار مقر الآلهة للبشر.

(٢) Tacitus مؤرخ روماني، اشتهر بالخطابة وبكتاباته التاريخية الرصينة كما اشتهر بوصفه الدقيق للأخلاق والأهواء.

– «أفينبغي أن اطفي؟».

وهمست «البيرتين» في أذني: «أن اطفيء؟». فخلّفتني مفتوناً بسرعة الخاطر الأليفة التي دست بها، وقد اتّخذت منّي معلماً وشريكاً في الجريمة في آن واحد، هذا التأكيد النفسي عبر اللهجة المستفهمة التي أضفتها على سؤال قواعديّ.

وبعدما خرجت «فرانسواز» من الغرفة وعادت «البيرتين» فجلست على سريري، قلت لها:

– «تعلمين ما الذي اخشاه، وهو انّني، إن تابعنا على هذا المنوال، لن استطيع الامتناع عن تقبيلك».

– «ما اجملها مصيبة تحلّ».

ولم امتثل في الحال لهذه الدعوة. ولعلّ آخر غيري كان يمكن حتّى أن يجدها نافلة، فقد كان لـ «البيرتين» نطق شهواني وعذب إلى حدّ تبدو معه وكأنها تقبّلك بمحض تحدّثها إليك. كان القول منها منّة وكان حديثها يغمرك بالقبل. بيد أن تلك الدعوة كانت مع ذلك محبّبة جداً إلى نفسي. ولعلّها كانت كذلك بالنسبة إليّ حتّى من فتاة جميلة أخرى في سنّها ؛ لكن، أن تغدو «البيرتين» الآن سهلة بالنسبة إليّ إلى هذا الحدّ كان يخلّف فيّ أكثر من المتعة، كان يخلّف تقابل صور يطبعها الجمال. كنت أتذكّر «البيرتين» أوّل الأمر أمام الشاطئ وكأنّما تمّ رسمها على خلفيّة البحر وهي لا تملك في نظري وجوداً حقيقياً أكثر من تلك الرؤى المسرحيّة حيث لاتدري إن كنت تواجه الممثلة التي يفترض أن تظهر، أو محض بديلة تحلّ محلّها في تلك اللحظة أو محض إسقاط. ثمّ إن المرأة الحقيقية انفصلت عن الحزمة المضيئة، لقد جاءت إليّ، ولكن لمحض أن أستطيع ملاحظة أنّها لم تكن، في العالم الحقيقيّ، على السهولة الغراميّة التي تفترض لها في اللوحة السحريّة. لقد علّمتُ أنّه لايمكن لمسها وتقبيلها وأنّه يمكن التحدّث إليها فحسب وأنّها لم تكن بالنسبة إليّ امرأة أكثر ممّا تكون أعناب من اليشم، وهي زينة غير صالحة للأكل على الموائد في الزمن الغابر، أعناباً. ثم إذا هي تبدو لي على مستوى ثالث حقيقيّة شأنها في المعرفة الثانية التي سبقت لي عنها، ولكنّها سهلة شأنها في الأولى ؛ سهلة سهولة تتزايد عذوبتها بقدر ماظننت مدّة طويلة أنّها لم تكن كذلك. كانت زيادة معرفتي بالحياة (بالحياة الأقلّ اتساقاً والأقلّ بساطة ممّا ظننت بادئ الأمر) تفضي مؤقّتاً إلى اللا أدرية. فما الذي يمكن توكيده بما أنّنا ظنّنا محتملاً في البداية ماتبدّى كذباً فيما بعد وبدا أنّه حقيقة في مرحلة ثالثة؟ (ولم أكن للأسف في نهاية اكتشافاتي مع «البيرتين»)..

وحتّى لو لم يتوافر في جميع الأحوال الجاذب العاطفي لهذه المعرفة المقتبسة عن وفرة أكبر من المستويات التي كشفتها الحياة الواحد تلو الآخر (هذا الجاذب الذي هو عكس الجاذب الذي كان «سان لو» يتذوقه أثناء أعشية «ريفبيل» في أن يعود فيلقى بين الأقنعة التي راكمتها الحياة فوق وجه هادئ ملامح سبق أن علقت بالأمس تحت شفتيه)، فأن أعلم أنّ تقبيل وجنتي «البيرتين» أضحى أمراً ممكناً إنّما كان بالنسبة إليّ متعة ربّما فاقت أيضاً متعة تقبيلهما، فأي فارق بين امتلاك امرأة يلتصق بها جسدنا وحده لأنّها لاتعدو كونها قطعة لحم وامتلاك الفتاة التي كنّا نلمحها على الشاطئ مع صديقاتها في بعض الأيّام، حتّى دون أن نعلم لماذا في تلك الأيّام دون أخرى غيرها، الأمر الذي كان مآله ان نرتجف خوفاً من ألاّ نلقاها ثانية. لقد تلطّفت الحياة فكشفت لك بالتفصيل قصّة هذه الفتاة وزوّدتك لتراها آلة بصريّة، ثمّ أخرى، وأضافت إلى الرغبة الجنسيّة

الجوقة التي تزيدها اضعافاً مضاعفة وتنوعها، جوقة تلك الرغبات الأكثر روحانية والأقل إشباعاً التي لاتنفض عنها خدرها وتدعها تمضي وحدها حينما لاتبغي سوى امتلاك قطعة لحم، بيد أنها، من أجل امتلاك منطقة كاملة من الذكريات التي تشعر بحنين انّها مبعدة منها. ترتفع إرتفاع العاصفة إلى جانبها وتضخّمها ولاتستطيع اللحاق بها حتّى إتمام حقيقة لامادّية، حتّى تمثلها، وهو مستحيل بالشكل الذي تتمنّى به، ولكنّها تنتظر تلك الرغبة في منتصف الطريق وتعود فتواكبها لحظةَ العودة. فإن أقبّل بدلاً من وجنتيّ أوّل عابرة سبيل، مهما كانتا غضّتين إلا أنّهما غفلان لاسرّ بهما ولا روعة لهما، الوجنتين اللتين طالما حلمت بهما إنّما يعني معرفة مذاق وطعم لون كثيراً مانظرت إليه. لقد رأيت امرأة، وهي محض صورة في زخارف الحياة، شأن «البيرتين» المرتسمة على البحر، ثمّ تستطيع أن تنزعها وأن تضعها بالقرب منك وأن ترى شيئاً فشيئاً حجمها وألوانها كما لو أنّك نقلتها خلف زجاج منظار مجسّم. ولذلك فإن النساء المتمنّعات بعض الشيء اللواتي لايمتلكهنّ في الحال بل هو حتّى لايدري في الحال إن كان سيمتلكهنّ في يوم إنّما يثرن وحدهنّ الاهتمام. ذلك أنّ معرفتهنّ والاقتراب منهنّ وامتلاكهنّ إنّما تعني تنويع الصورة الإنسانية شكلاً وحجماً وبروزاً هي درس في النسبيّة في تقدير جسم امرأة، حياة امرأة يحلو لنا أن نبصرها من جديد بعدما تستعيد نحافة الأطياف في زخارف الحياة. إن النساء اللواتي نعرفهنّ بادئ الأمر لدى القوّادة لايحظين بالاهتمام لأنّهنّ يبقين على ماهنّ عليه لايتبدّلن.

كانت «البيرتين» من جهة أخرى تجمع حولها سائر الانطباعات عن مجموعة بحريّة كانت عزيزة على فؤادي على نحو خاصّ. فقد كان يبدو لي انّني ربمّا قبّلت شاطئ «بالبيك» بكامله على وجنّتي الفتاة.

– «إن أذنت حقاً بأن أقبلك فإني أفضل إرجاء الأمر إلى مابعد وأن أحسن اختيار اللحظة التي تناسبني. بيد أنّه ينبغي الاّ يغرب عن بالك آنذاك انّك أذنت،. ولابد لي من «قسيمة صالحة لقبلة».

– «أينبغي أن اوقعّها» ؟

– «فإن غنمتُها في الحال فهل أحصل على ثانية مع ذلك فيما بعد ؟»

– «تضحكني بقسائمك، سوف أحرّر لك بعضها بين الحين والحين».

– «قولي، لدى كلمة بعد، تدرين، في «بالبيك» حينما كنت بعدُ لا أعرفك، كثيراً ما كانت لك نظرة قاسية محتالة، أفلا يمكنك أن تقولي لي بأيّ أمر كنت تفكّرين في تلك اللحظات؟».

– «لست أذكر البتّة».

– «إليك مثلاً من أجل أن أساعدك، ذات يوم قفزت صديقتك «جيزيل» من فوق الكرسي الذي كان يجلس عليه سيّد عجوز. حاولي أن تتذكّري فيما فكّرت في تلك اللحظة».

– «كانت «جيزيل» أقلّ مَن نتردّد عليها، لقد كانت من المجموعة إن شئت، ولكنّها لم تكن منها تماماً. لابدّ أني حسبت أنّها سيئة التهذيب إلى حدّ بعيد وعاديّة».

– «آه! هذا كلّ شيء؟».

وددت، قبل تقبيلها، لو أستطيع ملأها من جديد بالأسرار التي كانت تكتنفها في نظري على الشاطئ قبل أن أعرفها، وأن أعود فألقى فيها المنطقة التي عاشت فيها سابقاً ؛ فإن لم أعرفها كان بوسعي على الأقلّ أن أدخل مكانها جميع ذكريات حياتنا في «بالبيك» وضجيج الموج المتكّسر تحت نافذتي وصيحات الأطفال. بيد أنّي لابدّ قلت وأنا أدع عيني تنزلق على كرة وجنتيها الورديّة الجميلة التي تقبل سطوحها المثنّية بلطف لتلقف أنفاسها على حضيض أولى انثناءات شعرها الأسود الجميل الذي يجري سلاسل كثيرة التضاريس ويرفع ركائزه الوعرة ويبرز تموّجات وديانه: سوف أعرف أخيراً مذاق الوردة المجهولة التي تمثلها وجنتا «ألبيرتين» بعدما لم أفلح في ذلك في «بالبيك» وبما أن الدوائر التي يمكن أن نحمل الأشياء والكائنات على اجتيازها في بحر حياتنا ليست عديدة جداً فربّما استطعت أن أعدّ حياتي وكأنّها ناجزة إلى حدّ ما حينما أكون قد حملت إلى هذا المستوى الجديد الوجه النضير الذي سبق أن أخترته من بينها جميعاً بعدما أخرجته من إطاره النائي، الوجه الذي سيتسنّى لي أخيراً أن أعرفه بالشفتين» كنت أقول في نفسي لأنني كنت أعتقد أن ثمّة معرفة بالشفتين ؛ كنت أقول في نفسي إنّي أزمع أن أعرف مذاق هذه الوردة الجسديّة لأنّه لم يخطر لي أن الإنسان، وهو مخلوق أقلّ بدائيّة بالطبع من الأخينوس أو حتّى من الحوت، إنّما يفتقر بعد مع ذلك إلى عدد من الأعضاء الأساسيّة وهو لايملك على وجه الخصوص أيّ عضو يستخدم في القبلة. وإنّه ليعوّض هذا العضو المفقود بالشفتين وربّما بلغ بذلك نتيجة مرضية إلى حدّ ما أكثر ممّا لو اقتصر على مداعبة المحبوبة بناب قرنّي. ولكنّ الشفتين المصنوعتين لتحملا إلى سقف الفم طعماً ما يغريهما ينبغي لهما أن ترضيا بالهيمان على سطح الوجنة الممتنعة والمشتهاة وبالاصطدام بسياجها دون إدراك ضلالتهما ودون الاعتراف بخيبتهما. والشفتان على أيّة حال قد لاتستطيعان في تلك اللحظة لدى ملامسة الجسد نفسه، حتى بافتراض أنهما قد تضحيان أكثر خبرة وأوفر مواهب، قد لاتستطيعان دون شكّ أن تتذوّقا أكثر من قبل الطعم الذي تحول الطبيعة حالياً دون بلوغه لأنهما وحيدتان في هذه المنطقة المقفرة التي لايمكنهما أن تلقيا فيها غذاءهما إذ النظر ثم الشّم قد هجراهما منذ فترة طويلة. فكلّما ازداد فمي بادئ الأمر اقتراباً من الوجنتين اللتين سبق أن دعته نظراتي إلى تقبيلهما، أبصرت هذه الأخيرة وجنات جديدة. وأبرز العنق، وقد شوهد من مسافة أقرب وكأنّما بالمكبرة، أبرز في مضلّعات نسيجه صلابة بدّلت طابع الوجه.

إنّ آخر تطبيقات التصوير الشمسيّ– التي ترمي على أقدام كاتدرائية جميع البيوت التي كثيراً مابدت لنا عن قرب بمثل ارتفاع الأبراج تقريباً، والتي تحرّك على التوالي، على غرار كتيبة، الأبنية نفسها، تحرّكها أرتالا وشتاتاً وكتلاً متراصة، وتقرّب عمودي «الساحة الصغرى» الواحد من الآخر، وما أبعدهما منذ قليل، وتبعد كنيسة «سالوتا» القريبة وتفلح على خلفيّة شاحبة متدرجة في احتواء أفق مترام تحت قنطرة جسر وفي فتحة نافذه ومابين أوراق شجرة واقعة في مقدّمة اللوحة، وبوساطة لون أكثر زخماً تجعل للكنيسة نفسها على التوالي إطاراً من جميع أقواس الكنائس الأخرى– ذلك مالست أرى سواه قادراً قدرة القبلة أن يبرز ممّا كنا نظنه شيئاً محدد المظهر الأشياء المئة الأخرى التي تمثّله على السواء بما أنّ كلاً منها متّصل بمنظور لايقلّ شرعيّةعن غيره. وقصارى القول إنه مثلما سبق بدت لي «ألبيرتين» غالباً مختلفة في «بالبيك»، فإنّما رأيت الآن – وكأنّما أردت بزيادة سرعة تبدلات المنظور وتبدّلات الألوان التي يزوّدنا بها شخص في مختلف لقاءاتنا به زيادة هائلة أن أحتويها كلّها في مدى بضع ثوان كيما أوجد ثانية بالتجربة الظاهرة التي تنوع فردية كائن ما وأن

استخلص جميع الإمكانات التي تتضمنها بعضها من بعضها الآخر وكأنّما من قراب - رأيت عشر «ألبيرتينات» في هذا المشوار القصير لشفتي باتجاه خدها. وإذ كانت هذه الفتاة وحدها وكأنها إلهة بعدة رؤوس، فإن الذي كنت رأيته في آخر المطاف كان يخلي المكان لآخر غيره إن حاولت الاقتراب منه. ذلك الرأس كنت أراه على الأقلّ مادمت لم ألمسه، إذ يقبُل إليّ منه عطر خفيف. ولكن عينّي، واأسفي! - لأنّ منخرينا وعينينا رديئة الموقع بقدر ما الشفتان رديئتا الصنع - كفتا فجأة عن الرؤية ولم يشمّ أنفي بدوره، وقد تسطح، أيّة رائحة من بعد، وعلمت لدى هذه العلامات المقيتة، ودون أن أعرف لذلك أكثر من ذي قبل مذاق اللون الوردي المشتهى، أنني كنت آخذا بتقبيل «ألبيرتين».

أفلأنّنا كنّا نمثّل المشهد المعاكس لمشهد «بالبيك» (والذي يرمز إليه دوران جسم صلب)، وأنّني كنت مستلقياً وهي واقفة وقادرة على تفادي هجمة شرسة وعلى توجيه المتعة على هواها، ألذلك تركتني آخذ الآن بهذا القدر من السهولة ما كانت رفضت بالأمس بمظهر القسوة الشديدة؟ (وليس من شكّ أن الملامح الشهوانية التي يتّخذها اليوم وجهها لدى اقتراب شفتّي ما كانت تختلف عن هيئة الأمس تلك إلاّ بانحراف في الخطوط ضئيل جداً، إلا أنّه يمكن أن يحتوي بين حدّيه كامل المسافة التي تفصل بين حركة رجل يجهز على جريح وآخر يسعفه، بين رسم بديع أو قبيح). ودون أن أعلم إن كان عليّ أن أبدي التكريم والامتنان على تبدّل موقفها لمحسن غير قاصد عمل من أجلي في باريس أو «بالبيك» في واحد من هذه الشهور الأخيرة، فقد خطر لي أن الطريقة التي اتّخذنا بها مطارحنا كانت السبب الرئيسيّ في هذا التبدّل. على أنّ «ألبيرتين» قدّمت لي سبباً آخر لذلك، وهو بالضبط هذا: «آه! ذلك لأنّي في ذلك الحين في «بالبيك» ما كنت أعرفك وكان يمكنني الظنّ بأنّ لك مقاصد سوء». وخلّفني هذا السبب حائراً. لقد قدّمته لي «ألبيرتين» صادقةً دون شكّ. فإن المرأة لتصادف الكثير من المشقّة في أن تتعرّف في حركات أعضائها وفي الأحاسيس التي تنتاب جسمها أثناء لقاء منفرد مع أحد الأصحاب الزلة المجهولة التي كانت ترتعد أن يكون غريب قد صمّم إيقاعها فيها.

وأيّة كانت في جميع الأحوال التبدّلات الطارئة منذ بعض الوقت في حياتها والتي ربّما فسرت أن تمنح رغبتي المؤقتة والجسديّة البحتة بذلك اليسر ما سبق أن حجبته بهلع في «بالبيك» عن حبّي، فقد جرى تحوّل أكثر إدهاشاً في «ألبيرتين» في ذلك المساء ذاته حالما جاءتني مداعباتها في منزلي بالارتياح الذي لابدّ أنّها لاحظته تماماً والذي خشيت حتّى أن يسبب لديها الانتفاضة الهينّة من اشمئزاز وحياء مجروح والتي تمت لـ«چيلبيرت» في لحظة مشابهة خلف دغل أشجار الغار في محلّة «الشانزليزيه».

وقد كان العكس تماماً. فقد سبق أن اتخذت «ألبرتين» قبل ذلك، حين مدّدتها على سريري وشرعت أداعبها، هيئة ما كنت أعرفها لديها من مرونة في المراس وبساطة تكاد أن تكون طفوليّة. وقد أزالت اللحظة التي تسبق المتعة، وهي شبيهة في ذلك بتلك التي تلي الوفاة، أزالت عنها جميع الاهتمامات وجميع المزاعم المعتادة فأعادت إلى قسماتها التي استعادت نضارتها كأنما براءة السن الأولى. وليس من شكّ أن أيّ إنسان توضع موهبته فجأة موضع اختبار إنّما يصبح متواضعاً ومجداً ولطيفاً، ولاسيما إن عرف كيف يمنحنا بتلك الموهبة متعة عظيمة فإنه يسعد من جرّائها ويودّ أن يمنحنا إيّاها كاملة. بيد أنّه كان في ملامح وجه «ألبيرتين» الجديدة تلك أكثر من التجرّد والوجدان والسخاء المسلكيّين، كان ثمّة ضرب من التفاني المألوف والمفاجئ. فلقد عادت

إلى أبعد من طفولتها، بل إلى شباب سلالتها الأولى. لقد بدت «ألبيرتين»، وهي شديدة الاختلاف عنّي أنا الذي لم يتمنّ أكثر من تسكين جسديّ بلغه في النهاية، بدت وكأنها ترى بعض الفظاظة فيما يخصّها أن تحسب أن هذه المتعة الجسدية تستقيم دون شعور نفسي وأنّها تنهي أمراً ما. كانت، هي المعجلة منذ قليل، تقول الآن، ولأنّها ترى دونما شكّ أن القبل تتضمنّ الحبّ وأنّ الحبّ يعلو على أيّ واجب آخر، تقول حينما أذكرها بعشائها:

– «لابأس عليّ من ذلك مطلقاً، لدي كل الوقت، ويحك».

كانت تبدو وكأنما يحرجها أن تنهض في الحال بعد الذي أقدمت عليه، يحرجها بداعي التأدب، شأن «فرانسواز» حينما ظنّت أنّ من واجبها، دون أن تشكو العطش، أن تقبل باحتشام مرح كأس الخمرة التي كان «جوبيان» يقدّمها لها، وما كانت لتجرؤ على الذهاب حالما تشرب آخر جرعة أيّا كان الواجب الملح الذي استدعاها. كانت «ألبيرتين» واحداً من رموز الفلاّحة الصغيرة الفرنسية التي مثالها من حجر في كنيسة «سانت أندريه دي شان»– وربما كان ذلك، بالإضافة إلى سبب آخر سوف نراه فيما بعد، واحداً من الأسباب التي جعلتني دون علم مني أشتهيها– فقد تعرفت فيها تأدب «فرانسواز» التي كانت ستضحي على ذلك بعد قليل عدوتها اللدودة، إزاء الضيف والغريب، والحشمة واحترام الفراش.

ولعلّ «فرانسواز» التي ما كانت تحسب بعد وفاة عمتي أنّها تستطيع التحدّث إلاّ بلهجة مشفقة، لعلها كانت ترى أمراً فاضحاً، في بحر الأشهر التي سبقت زواج ابنتها، في ألاّ تأخذ هذه الأخيرة بذراع خطيبها حينما كانت تتنزّه معه.

كانت «ألبيرتين» تقول لي، وقد ظلّت لاحراك بها بالقرب منّي:

– «شعرك جميل وعيناك جميلتان وأنت لطيف».

ولما أضفت أقول، بعدما حملتها على ملاحظة أنّ الوقت قد تأخر: «ألا تصدّقيني؟» أجابتني قائلة «إنّي أصدّقك على الدوام»، الأمر الذي ربّما كان صحيحاً، ولكن منذ دقيقتين فحسب وعلى مدى بضع ساعات.

وحدثتني عن نفسي وعن أسرتي وعن بيئتي الاجتماعية. قالت لي:

«آه! أعلم أنّ ذويك يعرفون جماعات راقية. إنّك صديق لـ«روبير فوريستييه» و«سوزان دولاج» ولم تعن تلك الأسماء شيئاً لي على الإطلاق في الدقيقة الأولى. ولكنّي ذكرت فجأة أنّي لعبت بالفعل في «الشانزليزيه» و«روبير فوريستييه» الذي لم أره من بعد البتّة. أمّا «سوزان دولاج» فقد كانت ابنة شقيقة السيّدة «بلانديه» وقد وقع عليّ مرة أن أذهب إلى درس في الرقص وحتّى أن أمثل دوراً صغيراً في مهزلة بيتيّة في منزل ذويها. ولكنّ خشيتي أن أنفلت ضاحكاً ومن بعض الرعاف حالت دون ذلك حتّى أنّي لم أرها في يوم. وأكثر الأمر أنّه خيل إليّ فيما مضى أن معلّمة آل «سوان» ذات الريشة قد كانت لدى ذويها، ولكنّها ربّما كان مجردّ شقيقة لتلك المعلّمة أو صديقة. وأعلنت لـ«ألبيرتين» معارضاً بأن «روبير فوريستييه» و«سوزان دولاج» يشغلان حيزاً قليلاً في حياتي. «ذلك ممكن، إن والدتيكما ترتبطان بصداقة والأمر يسمح بتحديد مواقعكم. كثيراً ما ألتقي «سوزان

دولاج» في شارع «ميسينّا» وإنّها لأنيقة» وما كانت والدتانا تعرف إحداهما الأخرى إلاّ في مخيلة السيّدة «بونتان» التي استخلصت، إذ علمت أنّني لعبت فيما مضى مع «روبير فور يستييه»، وكنت فيما يبدو أنشده أشعاراً، أنّنا كنّا نرتبط بعلاقات عائليّة. وما كانت تدع البتّة. فيما قيل لي، اسم والدتي يمرّ دون أن تقول: «أجل، إنّه وسط آل «دولاج» و«فوريستييه» إلخ»ونمنح والديّ بذلك نقطة لصالحهما لايستحقانها.

كانت مفاهيم «ألبيرتين» الاجتماعية على أيّة حال تتصف بحماقة بالغة. فكانت تظنّ آل«سيمونّيه» بنون مشدّدة أقلّ قدراً لامن آل «سيمونيه» بنون غير مشدّدة فحسب، بل من جميع ما أمكن من أناس آخرين. فأن يحمل أحدهم الاسم الذي تحمله دون أن يكون من أسرتك سبب كبير لازدرائه. ثمة استثناءات بالتأكيد. فقد يتفق إن رأى اثنان من أسرة «سيمونّيه» (وقد تمّ تعريف أحدهما بالآخر في واحد من تلك الاجتماعات التي يشعر المرء فيها بالحاجة إلى التحدّث عن أيّ شيء والتي يحس فيها على أيّ حال أنّه يفيض استعدادات متفائلة كحاله مثلاً في موكب جنازة ينطلق إلى المقبرة) أنّهما يحملان الاسم نفسه، أن يبحثا بتلطف متبادل ودونما نتيجة إن كان لايربطهما أيّ رباط قربى. ولكنّ هذا محض استثناء. فكثير من الناس قلّما يجدر احترامهم، ولكنّنا نجهل ذلك أولا نهتّم به. فإن أوصل إلينا تطابق الأسماء رسائل موجهة إليهم، أو العكس بالعكس، بدأنا بالحذر، ويغلب أن يكون مبرّراً، حول ما يساوون. إنّنا نخشى الخلط ونتلافاه بتكشيرة اشمئزاز إن حدّثونا عنهم. وحينما نقرأ في الصحيفة اسمنا الذي يحملونه يبدو لنا أنّهم ينتحلونه. إن ذنوب غيرهم من أعضاء الهيئة الاجتماعية لانكترث بها، ولكننا نثقل بها كاهل سميينا. والحقد الذي نحمله لآل «سيمونيه» يزداد قوة بقدر ماهو غير فرديّ ولكنّما يتناقل بالوراثة. وبعد انقضاء جيلين نتذكر فحسب التكشيرة المهينة التي كانت تعلو شفاه الجدود إزاء الآخرين من آل «سيمونيه». إنّنا نجهل السبب، ولكنّما لن يدهشنا أن نعلم أن الأمر بدأ بجريمة قتل. إلى اليوم، وهو كثير، الذي ينتهي به الأمر إلى زواج بين واحدة من آل «سيمونيه»وآخر من آل «سيمونيه» لا تربطه بها البتة صلة قربى.

ولم تحدثني «ألبيرتين» عن «روبير فوريستييه» و«سوزان دولاج» فحسب بل روت لي تلقائياً، بدافع من واجب المسارة الذي ينشئه تقارب الأجساد في البداية على الأقل وعلى مدى مرحلة أولى قبل أن يولّد نفاقاً خاصاً والكتمان تجاه الكائن نفسه، روت «ألبيرتين» عن أسرتها وأحد أعمام «آندريه» قصة سبق أن رفضت في «بالبيك» أن تقول كلمة واحدة عنها، ولكنها كانت تظنّ أنّه لاينبغي لها أن تبدو وكأنها لاتزال تملك أسراراً إزائي. ولئن روت لها الآن أفضل صديقة لها أمراً ما ضدي لرأت من واجبها أن تنقله لي والحت في أن تعود إلى منزلها فذهبتُ في النهاية ولكنما بها وجل بشأني من جراء فظاظتي حتى لتضحك أو تكاد لتعذرني، مثلها مثل ربّة بيت تذهب إلى منزلها بسترة عادية فتقبلك على هذا النحو ولكنّما ليس الأمر غير ذي أهمية في نظرها.

وقلت لها: «أتضحكين؟»

فأجابتي بحنان: «لست أضحك، إنّي ابتسم لك». وأضافت قولها: «متى أعود فألقاك؟» وكأنها لاتقرّ بأن ماقمنا به لم يكن على الأقل المقدمة لصداقة كبرى، لصداقة سابقة الوجود ومن واجبنا أن نكتشفها، أن نعترف بها وتستطيع وحدها أن تفسر ما انصرفنا إليه، بما أنه بالعادة تتويج لتلك الصداقة.

- «بما أنك تأذنين لي بذلك فسأرسل في طلبك حينما أستطيع».

ولم أجرؤ أن أقول لها إنّي أبغي إخضاع كل شيء لإمكان لقاء السيدة «دو ستير ماريا».

وقلت لها: «سيتم الأمر على نحو مفاجئ فلست أعلم البتة مسبقاً أفيمكن أن أرسل في طلبك في المساء حينما لا أرتبط بموعد»؟

- «سيكون ذلك عمّا قليل ممكناً جداً فسوف أنفرد بمدخل مستقل عن مدخل عمتي، ولكن الطريق غير سالكة الآن. سآتي على أيّ حال على سبيل الاحتياط في الغد بعد الظهر. لاتستقبلني إلا إذا استطعت ذلك».

وإذ بلغت الباب مدّت لي وجنتها، وقد أدهشها ألا أكون سبقتها إلى ذلك، إذ ترى أن لاحاجة البتة لرغبة جسديّة فظة كيما نتعانق الآن ولمّا كانت العلاقات القصيرة التي أقدمنا عليها منذ قليل معاً من تلك التي تقود إليها أحياناً ألفة مطلقة واصطفاء قلبي ظننت «ألبيرتين» من واجبها أن ترتجل وتضيف مؤقتاً إلى القبلات التي تبادلناها فوق سريري الشعور الذي ربما كانت عنواناً له في نظر فارس وسيّدته على نحو ما يمكن أن يتصوّرها بهلوان قوطيّ.

بعدما فارقتني البيكارديّة الشابة التي كان يمكن أن ينحتها على بوابته مثّال «سانت آندريه دي شان» جاءتني «فرانسواز» برسالة ملأتني فرحاً إذ كان من السيدة «دو ستير ماريا» التي توافق على تناول طعام الغداء وإيّاي نهار الأربعاء. من السيّدة «دو ستير ماريا»، يعني بالنسبة إليّ أكثر من السيّدة «دوستير ماريا» الحقيقية، من تلك التي فكرت فيها طوال النهار قبل وصول «ألبيرتين». إنّها لخدعة الحبّ الرهيبة أنّه يشرع في حملنا على اللهو مع امرأة ليست من العالم الخارجي، بل مع دمية في داخل دماغنا، وهي الوحيدة على أيّة حال التي تظلّ دوماً في متناولنا، الوحيدة التي ستكون في حوزتنا والتي ربما جعلها اعتباط الذكرى، ويقارب أن يكون مطلقاً كاعتباط المخيلة، مختلفة عن المرأة الحقيقيّة اختلاف ما كان بالنسبة إليّ من أمر «بالبيك» المتخيلة عن «بالبيك» الحقيقية. وهي خليقة مصطنعة سوف نرغم المرأة الحقيقية شيئاً فشيئاً أن تشبهها، والأمر مدعاة لعذابنا.

كانت «ألبيرتين» قد أخرتني إلى حد أن التمثيلية كانت قد انتهت حينما وصلت إلى منزل السيّدة «دو فيلباريزيس». ولما كنت قليل الرغبة في أن آخذ من الخلف موج المدعوّين المتدفق وهو يعلق على الخبر المظيم، على الانفصال الذي يقولون إنّه تمّ مذ ذاك بين الدوق «دو غير مانت» والدوقة، جلست بانتظار أن أستطيع تحية ربّة البيت، على متكأ خال في الصالة الثانية حينما أبصرت الدوقة تطلع من الأولى، حيث كانت قد جلست دونما شك في الصف الأول تماماً، مهيبة واسعة مديدة القامة في فسطان طويل من الساتين الأصفر علقت به على نحو بارز أزهار خشخاش سوداء ضخمة. ولم تعد رؤيتها تثير في صدري أيّ اضطراب. وذات يوم وضعت فيه والدتي يديها على جبيني (كما كانت عادتها حين كانت تخشى أن تغمني) وهي تقول لي: «لا تتابع طلعاتك من أجل ملاقاة السيّدة «دو غيرمانت»، فقد أضحيت مضغة الأفواه في البيت. وانظر على أيّة حال كم هي مريضة جدّتك، إنّ لديك بالحقيقة أموراً أكثر جدية من وقوفك على درب امرأة تسخر منك»،

فأيقظتني فجأة من حلم تطاول فجاوز مداه كمنوّم مغناطيسي يعيدك من البلاد البعيدة التي تخيلت نفسك فيها ويفتح عينيك من جديد أو كالطبيب الذي يردّك إلى حس الواجب والواقع فيشفيك من داء وهميّ كنت تنعم بالا فيه. لقد تمّ تكريس النهار التالي لوداع أخير لذاك الداء الذي تخليت عنه. وقد أنشدت ساعات على التوالي وأنا أبكي «الوداع» لشوبرت:

«الوداع، إن أصواتاً غريبة تناديك بعيداً عني ياشقيقة الملائكة السماوية».

ثم انتهى الأمر. لقد قطعت طلعاتي في الصباح وبيسر بلغ بي أن استخلصت حينذاك التوقع الذي ستتبين خطأه فيما بعد والذي قوامه أنني سأتعود بسهولة خلال حياتي ألا أرى امرأة من بعد. وحينما روت لي «فرانسواز» بعدها أنّ «جوبيان»، رغبة منه في التوسّع، كان يبحث عن دكّان في الحيّ، ورغبة منّي في أن ألقى له دكّاناً (وبي سعادة كبيرة كذلك، فيما أتسكع في الشارع الذي كنت أسمعه من سريري يضج أنواراً وكأنه شاطئ أن أبصر تحت ستارة دكاكين الألبان الحديدية المرفوعة بائعات الحليب الصغيرات ذوات الأكمام البيضاء)، استطعت أن أباشر ثانية تلك الطلعات. وبحرية شديدة على أي حال، إذ كنت أشعر أنّي لا أقوم بها من بعد بهدف لقاء السيّدة «دو غير مانت»:كحال امرأة تتخذ احتياطات لاحد لها مادامت تتخذ عشيقاً فما أن تقطع صلتها به حتى تدع رسائله مبعثرة وهي عرضة لأن تكشف لزوجها سرّ زلة بلغ بها في النهاية أن تذعر منها في الوقت الذي تكفّ فيه عن اقترافها.

ما كان يبعث الغمّ في نفسي هو أن أعلم أن جميع البيوت على وجه التقريب كان يسكنها أناس تعساء فهنا لاتكفّ امرأة عن البكاء لأنّ زوجها يخدعها. وهناك يقع العكس. وفي مكان آخر تحاول والدة شغيلة تضرب ضرباً مبرحاً على يد ابن سكّير أن تخفي عذابها عن أعين الجيران. كان نصف البشرية يبكي بكامله. وحينما عرفتها وجدتّها مغيظة إلى حد أنني ساءلت نفسي إن لم يكن الزوج أو الزوجة الزانيان (وإنّهما لكذلك لمحض أنّهما حرما السعادة المشروعة، فيما يبديان ظرفاً ووفاء إزاء أيّ شخص آخر فيما عدا الزوجة أو الزوج) من كانا على حقّ. وبعد قليل لم تتوافر لي حتّى حجّة إفادة «جوبيان» لأوالي مشاويري الصباحيّة.فقد أعلمت أن نجار باحتنا الذي لم يكن يفصل بين مشغله ودكّان «جوبيان» سوى حاجز دقيق جداً كان يزمع أن يصرفه المدير لأنّه يضرب ضربات شديدة الصخب. لم يكن بوسع «جوبيان» أن يأمل أفضل من ذلك فقد كان للمشغل قبو توضع فيه الأخشاب ويتصل بأقبيتنا. سوف يضع «جوبيان فحمه فيه ويقوم بهدم الحاجز ويحصل على حانوت واحد فسيح. أضف أن «فرانسواز»، إذ كان «جوبيان» يرى أن الثمن الذي حدّده السيّد «دو غيرمانت» مرتفع جداً ويسمح بزيارة المكان كي يوافق الذوق، وقد فقد الأمل في أن يجد مستأجراً، على إجراء تخفيض له، إن «فرانسواز»، إذ لاحظت أنّ البواب كان يدع، حتى بعد الساعة التي لا تتم فيها الزيارة، لوحة «للايجار» خلف باب الدكان» استشعرت شركاً ينصبه البواب لاجتذاب خطيبة خادم آل «غيرمانت» (فسوف يجدان فيها خلوة غرامية) ومفاجأتهما بعد ذلك.

ومهما يكن من أمر، ومع أنّه لم يظلّ لي أن أبحث عن دكان لـ «جوبيان» فقد واليت الخروج قبل الغداء. وكثيراً ما كنت ألتقي في هذه الطلعات بالسيّد «دو نوربوا» وكان يتفق أن يلقي عليّ، وهو يتحدّث مع زميل له، نظرات تنصرف، بعدما تفحصتني ملياً، إلى محدثه دون أن يكون ابتسم لي أو حيّاني أكثر ممّا لو لم

يعرفني على الإطلاق. ذلك أن النظر بطريقة معينة لدى هؤلاء الديبلوماسيّين الهامين لايهدف إلى إعلامك بأنهم أبصروك، بل بأنهم لم يبصروك وأنّ عليهم أن يحدثوا زميلهم عن مسألة جديّة. وكان ثمة امرأة طويلة القامة كثيراً ما التقي بها قرب المنزل وهي أقل تحفظاً معي. فقد كانت تلتفت إليّ، مع أنّي لا أعرفها، وتنتظرني – وعبثاً تفعل– أمام واجهات البائعين وتبتسم لي كما لو تزمع أن تقبلني وتقوم بحركة من تسلّم نفسها. ثم تعود فتتخذ هيئة مجافية تجاهي إن إلتقت بمن تعرفه. كنت أنتقي منذ زمن بعيد في تلك المشاوير الصباحية، وحسبما يقع عليّ أن أفعله، وإن يكن ذلك شراء أكثر الصحف تفاهة، الدرب الأكثر مباشرة دونما أسف إن كان خارج الخطّ المعتاد الذي تتبعه نزهات الدوقة، فإن كان، على العكس، من ذاك الخطّ فدونما هاجس ودونما رياء لأنه لم يعد يبدو لي وكأنّه الدرب الممنوع الذي أنتزع فيه من ناكرة للجميل منّة أن أراها على الرغم منها. ولكنّما لم يخطر ببالي أن شفائي، فيما يوفر لي إزاء السيّدة «دو غير مانت» موقفاً طبيعياً، سوف ينجز بالتوازي العمل نفسه فيما يخصّها ويضع موضع الممكن توددا وصداقة لم أعد أعيرهما اهتمامي. ولعلّ جهود العالم بأسره التي تضافرت حتّى ذاك لتقرّبني منها، لعلّها كانت تلفظ أنفاسها أمام السحر البغيض الناجم عن حبّ فاشل. لقد قرّرت جنيّات أكثر اقتداراً من الناس أن ليس من شيء يستطيع في هذه الحالات أن يجيء بفائدة إلى اليوم الذي نكون قلنا فيه بصدق داخل فؤادنا القول التالي: «لست أحبّ من بعد». وكنت قد حقدت على «سان لو» لأنّه لم يصحبني إلى منزل عمتّه. ولكنّه لم يكن قادراً أكثر من آخر سواه أن يكسر طوق السحر. فما دمت على حبّ السيدّة «دو غير مانت» كانت مظاهر اللطف التي تزدني من الآخرين تغمني، وتغمنّي كلمات المديح، لا لأنها لا تصدر عنها فحسب بل لأنّها لم تكن تدري بها. ولعلّ الأمر كان لايجدي على الإطلاق حتّى لو علمتْ بها. ولكنّ غياباً والامتناع عن عشاء وتشدّداً غير مقصود وغير واع إنّما تفيد حتّى في تفاصيل المودّة أكثر من جميع موادّ التجميل وأبهى الأثواب. وربّما كان ثمة من يبلغون غاياتهم لو تمّ تعليم فنّ بلوغ الغاية بهذا المعنى.

حينما كانت السيّدة «دو غيرمانت» تجتاز الصالة التي كنت أجلس فيها والفكر مليء بذكرى الأصدقاء الذين لا أعرفهم والذين ربّما التقتهم بعد قليل في أمسية أخرى، أبصرتني على متكئي(أنا اللامبالي الحقيقيّ الذي ما كان يبحث إلا عن أن يكون لطيفاً في حين حاولت كثيراً فيما كنت أحبّ أن أتّخذ هيئة اللامبالاة دون أن أفلح في ذلك ؛ وانعطفت وجاءت إليّ وقالت لي وهي تعود فتلقى ابتسامة أمسية الأوبرا التي لم يعد يمحوها الشعور المؤلم بأن يحبّها من لاتحبّ، قالت لي وهي ترفع بلطف تنّورتها الفسيحة التي كانت شغلت لولا ذاك المتكأ بكامله:

– «لا، لاتزعج نفسك، أتأذن بأن أجلس لحظة إلى جانبك ؟»

ولمّا كانت أطول قامة منّي ويزيدها إلى ذلك كامل حجم فسطانها، فقد كانت تلامسني ملامسة خفيفة أو تكاد بذراعها العارية الرائعة التي يطلّق من حولها زغب لاتبصره العين ولايحصى ضباباً دائماً كأنّه بخار مذهب، وبجدلة شعورها الشقراء التي كانت ترسل إليّ رائحتها، وما كانت تستطيع، إذ لا مكان لها، أن تلتفت إليّ بسهولة وتتخذ، وقد اضطرّت أن تنظر أمامها أكثر منها في اتجاهي، تتخذ هيئة حالمة رقيقة وكأنّما في رسم. وقالت لي:

– «هل لديك أخبار عن «روبير»؟

ومرّت السيّدة «دو فيلباريزيس» في تلك اللحظة.

– «ماذا! لقد بكّرت في المجيء ياسيّد، وهي مرّة نراك فيها!»

وإذ لاحظت أنّني أتحدّث مع ابنة شقيقها وربّما افترضت أنّنا أوثق صلات ممّا تعلم أضافت قولها (لأن المساعي الحميدة لدى القوّادة هي جزء من واجبات ربّة المنزل):

– «ولكنّي لا أريد تعكير حديثك مع «أوريان». أفلا تريد المجيء لتناول الغداء معها نهار الأربعاء؟»

وكان اليوم ذاك الذي ينبغي أن أتغدّى فيه مع السيّدة «دو ستير ماريا»، فرفضت.

– «ونهار السبت؟».

ولمّا كانت والدتي ستعود السبت أو الأحد، فلعلّه كان من قلّة اللطف ألا أمكث كلّ مساء للعشاء معها، ورفضت إذن مرّة أخرى.

– «آه! لستَ رجلاً يسهل استقدامه إلى المنزل».

– «لماذا لاتجيء البتّة لزيارتي؟» تقول السيّدة «دو غيرمانت» بعدما ابتعدت السيّدة «دو فيلباريزيس» لتهنّئ الفنانين وتسلّم «الصوت الملائكي» طاقة من الورد كلّ ثمنها في اليد التي تقدّمها لأنّها لم تكلّف سوى عشرين فرنكاً (وكان الثمن على أيّة حال الحدّ الأقصى حين لايتّم الغناء إلاّ مرّة واحدة. أمّا اللواتي كنّ يتطوّعن في حفلات بعد الظهر والمساء جميعها فتردهنّ ورود رسمتها يد المركيزة). (من المزعج ألاّ نلتقي مرّة إلاّ في منزل الآخرين. وبما أنّك لاتريد تناول العشاء معي في منزل عمتي، فلماذا لاتجيء لتناول العشاء في منزلي؟».

ولما مكث بعض الأشخاص أطول فترة ممكنة بداعي حجج، أيّ حجج، وأخذوا يخرجون في النهاية، وإذ أبصروا الدوقة جالسة للتحدّث مع شاب على قطعة أثاث ضيقّة حتّى لاتتّسع إلا لاثنين ظنّوا أنّه قد أسيئ إعلامهم وأن الدوق، لا الدوقة، هو الذي كان يطلب الانفصال بسببي. ثم سارعوا إلى نشر هذا الخبر. وكنت أكثر قدرة من أيّ إنسان على معرفة زيفه. ولكنّما أذهلني أنّ الدوقة، في هذه الفترات الصعبة التي يقع فيها انفصال لم يتّم بعد، تدعو من تعرفه معرفة يسيرة إلى هذا الحدّ عوضاً عن أن تنعزل. وخامرني شكّ بأنّ الدوق كان وحده من لم يوّد أن تستقبلني وأنّها إذ تهجره الآن لم تعد ترى مانعاً في أن تحيط نفسها بمن يروقونها.

ولعلني كنت دهشت قبل دقيقتين لو قيل لي إنّ السيّدة «دو غير مانت»تزمع أن تسألني المضيّ للقائها، وأكثر من ذلك أن أجيء للعشاء. وعبثاً كنت أعلم أن صالة آل «غيرمانت» لايمكن أن توفّر الخصائص التي سبق أن استخلصتها من ذاك الإسم فإن الأمر الذي قوامه أنّه حيل دون دخولي إليها جعلني أتخيلها، حتّى وأنا متيقّن من أنّها شبيهة بجميع الأخريات، مختلفة تماماً إذ يضطرني أن أضفي عليها نوع الوجود نفسه الذي

يميّز الصالات التي قرأنا أوصافها في رواية أو رأينا صورتها في حلم ؛ فقد كان بيني وبينها الحاجز الذي ينتهي الواقع عنده لقد كان تناول العشاء لدى آل«غيرمانت» كالقيام برحلة طال اشتهاؤها وتنقيل شوق من رأسي إلى مواجهة عيني والتعرّف بحلم. ولعلّه كان يمكنني الظنّ على الأقلّ بأنّ الأمر أمر واحدة من دعوات العشاء تلك التي يدعو إليها أرباب البيوت واحداً لايرغبون في إظهاره إذ يقولون له:«تعال، فلن يكون ثمة قطعاً سوانا»، ويتظاهرون بخضّ المنبوذ بالخشية التي تداخلهم من أن يروه يختلط بأصحابهم ويحاولون قلب حجر المُبعد، وقد أضحى على الرغم منه منعزل الطباع ومُحابيً، إلى امتياز مشتهى يُخَص به الألأف. وشعرت على العكس أنّ لديّ السيّدة «دو غيرمانت» رغبة في أن تذيقني ما كان أمتع شيء لديها حينما قالت لي وهي تضع على أيّة حال أمام عينيّ ما يشبه الجمال البنفسجي لحلول في منزل عمّة «فابريس» وأعجوبة تعرّف إلى الكونت «موسكا»[1]:

– «والجمعة ألن تكون حرّاً، في مجلس صغير؟ فما ألطف ما يكون الأمر. ستحضر الأميرة «دو بارما»، وهي فاتنة. ثم إنّي لا أدعوك لو لم يكن ذلك للقاء أناس ممتعين».

إنّ الأسرة التي تُهجر في الأوساط المجتمعية المتوسطة، الأوساط التي تتنابها حركة صعود مستمرّة، إنّما تمثل على العكس دوراً هاماً في الأوساط الثابتة كالبورجوازيّة الصغيرة وكأرستقراطية الأمراء التي لاتستطيع البحث عن الارتقاء بما أنّه لاشيء فوقها من وجهة نظرها الخاصّة. وإن المودّة التي كانت تبديها لي «العمّة فيلباريزيس» و«روبير» ربّما جعلت منّي في نظر السيّدة «دو غير مانت» وأصدقائها، وهم يعيشون أبداً على أنفسهم وفي عصبة واحدة، موضوع اهتمام فضولي ماكنت أرتاب بأمره.

لقد كانت تعرف أولئك الأقارب معرفة عائلية يوميّة عادية شديدة الاختلاف عمّا نتخيّل، وإن نحن دخلنا دائرتها فما أبعد أن تلفظ أعمالنا منها كحبّة الرمل من العين أو قطرة الماء من القصبة الهوائية، بل يمكن أن تظلّ منقوشة وأن يُعلق عليها وتروى سنوات أيضاً، بعد أن نسيناها نحن، في القصر الذي ندهش أن نعود فنلقاها فيه كرسالة منّا في مجموعة ثمينة من الأقوال الموقعة.

إن محض أناس أنيقين يمكن أن يمنعوا بابهم المزدحم جدّاً. وماكان ذلك أمر باب آل «غيرمانت» فلم تكن تتوافر لغريب في يوم تقريباً فرصة المرور أمامه. وإذ يتفّق مرّة وأحدة لدوقة أحد من يشيرون إليه بتلك الصفة فما كان يخطر لها أن تهتّم بالقيمة المجتمعيّة التي قد يحملها معه، إذ هي التي تسبغها ولايمكن أن تتلقّاها. لم تكن تفكّر إلاّ في صفاته الحقيقية، وقد سبق للسيّدة «دو فيلباريزيس» و«سان لو» أن قالا لها إني أتحلّى ببعضها. ولعلّها ما كانت لتصدّقهما دونما ريب لو لم تلاحظ أنّهما ما كانا يستطيعان البتّة الإفلاح في إحضاري حينما يشاءان وأن المجتمع إذن ما كان يهمّني، الأمر الذي يبدو للدوقة وكأنّه الدليل بأنّ أحد الغرباء يدخل في عداد «الناس الممتعين».

كان ينبغي أن ترى، وأنت تتحدّث عن نسوة لاتحبّهنّ على الإطلاق، كيف يتبدّل وجهها في الحال إن

(١) من أبطال رواية ستاندال الشهيرة La chartreuse de Parme

أنت ذكرت بصدد إحداهن اسم زوجة أخيها على سبيل المثال. كانت تقول بلهجة ناعمة متيقنّة: «آه! إنّها فاتنة». والسبب الوحيد الذي تدلي به في ذلك أن هذه السيّدة رفضت أن يتمّ تقديمها إلى المركيزة «دو شو سَغرو» والأميرة «دو سيليستري». ولكنها لاتضيف أن هذه السيّدة رفضت أن يتمّ تقديمها لها، هي دوقة «غيرمانت». لقد وقع الأمر مع ذلك، ومنذ ذلك اليوم يعمل فكر الدوقة حول ما كان يمكن أن يجري لدى السيّدة التي يصعب التعرّف بها. كانت تتحرّق شوقاً إلى أن تستقبل في منزلها. فإن أهل المجتمعات قد تعودّوا أن يسعى الناس إليهم إلى حدّ يبدو فيه من يتهرّب منهم وكأنّه طائر العنقاء ويستحوذ على اهتمامهم.

فهل كان الدافع الحقيقيّ لدعوتي في ذهن السيّدة «دو غير مانت» (منذ لم أعد أحبّها) أنّني لا أسعى إلى ذويها مع أنّهم يسعون إليّ؟ لست أدري. ومهما يكن من أمر، فقد كانت تودّ، بعدما قرّرت أن تدعوني، أن تكرمني بأفضل ما كان في منزلها، وأن تبعد من ربّما استطاعوا من بين أصحابها أن يحولوا دون عودتي،أولئك الذين تعلم أنّهم مزعجون. ولم أدري إلى ما أردُّ تغيير طريق الدوقة حينما رأيتها تنحرف عن مسيرتها الكوكبيّة وتقبل لتجلس بالقرب منّي وتدعوني إلى العشاء، والأمر نتيجة أسباب مجهولة: فأنّنا لغياب حسّ خاصّ يحيطنا علماً بهذا الشأن نتمثّل الأشخاص الذين نكاد لانعرفهم – كأمري من الدوقة– ،كأنّهم لايفكّرون فينا إلاّ في اللحظات القليلة التي يلقوننا فيها. ولكنّ هذا النسيان المثالي الذي نتصوّر أنّهم يضعوننا فيه اعتباطيّ على الإطلاق حتّى إننا فيما نتصوّر في سكون العزلة الذي يشبه سكون ليلة جميلة ملكات المجتمع المختلفات يوالين سيرهن في السماء على مسافة لا متناهية لا يمكننا أن نملك النفس عن انتفاضة تكدّر أو سرور إن هبطت علينا من فوق، وكأنّما نيزك يحمل اسمنا منقوشاً وكنّا ظننّاه مجهولاً في الزهرة أو «كاسيوبيه»[1]، دعوة للعشاء أو قيل وقال.

وربّما قالت السيدة «دو غير مانت» أحياناً حينما كانت تبحث، على غرار أمراء فارس الذين كانوا يأمرون، حسبما ورد في «كتاب إيستر»، أن تقرأ عليهم السجلاّت التي دوّنت فيها أسماء الذين أبدوا من بين أتباعهم غيرة عليهم، تبحث في لائحة من كانوا حسني النوايا، ربّما قالت عنّي: «واحد سوف نطلب إليه إن يجيء للعشاء». ولكنّ أفكاراً أخرى شردت بها.

(إن الأمير حينما يحاط باهتمامات صاخبة

إنّما ينجرف باستمرار إلى أغراض جديدة)

حتى اللحظة التي لحتني فيها وحيداً شأن «مردخاي» على باب القصر ؛ وإذ أنعشت رؤيتي ذاكرتها فقد ابتغت، شأن «أحشورش»، أن تغمرني بعطاياها.

على أنّه ينبغي لي أن أقول أن مفاجأة من نوع معاكس كانت تزمع أن تلي تلك التي أصابتني حينما دعتني السيّدة «دو غير مانت». ذلك أنّي لمّا رأيت أكثر اتّضاعاً فيما يخصّني وأوفر امتناناً ألا أخفي هذه المفاجأة

(١) Cassiopée من الأساطير اليونانية، زوجة «سيفي» ووالدة «أندروميدة»، أثارت غضب الآلهة فانقلبت مجموعة نجمية تحمل هذا الاسم.

الأولى وأن أبالغ على العكس في التعبير عمّا كان بها من أمر مفرح، فقد قالت لي السيّدة «دو غير مانت»، وكانت تستعدّ للذهاب إلى أمسية أخيرة، قالت بما يقارب أن يكون تبريراً وخشية ألاّ أكون علمت تماماً من كانت كي أبدو بمثل تلك الدهشة أن تتم دعوتي إلى منزلها: «تعلم أنّي عمّة «روبير دوسان لو» وأنّه سبق على أيّ حال أن تلاقينا هنا». وإذ أجبت أنّني أعلم ذلك، أضفتُ أنّني أعرف كذلك السيّد «دو شارلوس» الذي سبق أن كان شديد اللطف معي في «بالبيك» وباريس». وبدت الدهشة على السيّدة «دو غير مانت» وبدت نظراتها وكأنّها تعود، فيما يشبه التحقّق، إلى صفحة أكثر قدماً في الكتاب الداخلي. «عجباً! أو تعرف «بالاميد»؟». ويكتسب هذا الاسم في فم السيّدة «دو غير مانت» حلاوة عظيمة من جرّاء البساطة غير المتعمّدة التي كانت تتحدّث بها عن رجل لامع إلى هذا الحدّ ولكنّه بالنسبة إليها لايعدو كونه صهرها وابن العم الذي نشأت معه. كان اسم «بالاميد» هذا يضفي على العتمة الغامضة التي تمثّلها في نظري حياة دوقة «غير مانت» ما يشبه ضياء أيّام الصيف الطويلة التي لعبت فيها فتاةً وإيّاه في الحديقة في «غير مانت». أضف أنّ «أوريان دوغير مانت» وابن عمّها «بالاميد» كانا في هذا الجزء من حياتهما الذي انقضى منذ زمن بعيد شديدي الاختلاف عمّا أصبحا عليه مذ ذاك، ولاسيّما السيّد «دو شارلوس» وقد انصرف بكليّته إلى ميول فنّية أُفلح في كبحها فيمابعد إلى حدّ أنّي ذهلت أن أعلم أن المروحة الضخمة ذات السوسن الأصفر والأسود والتي تبسطها الدوقة في هذه اللحظة قد رسمتها يداه. ولعلّه كان يمكنها أيضاً أن تريني «سوناتا» صغيرة كان قد ألّفها فيما مضى من أجلها. كنت أجهل تماماً أنّ للبارون كلّ هذه المواهب التي لم يكن يتحدّث عنها البتّة. ولنقل إذ نحن بهذا الصدد أن السيّد «دو شارلوس» لم يكن مغتبطاً أن يدعى في أسرته «بالاميد». ولعلّه كان من الممكن أن ندرك أنّ الأمر فيما يخصّ «ميميه» ما كان ليروقه. فهذه الاختصارات الغبيّة دليل على قلّة الإدراك الذي تبديه الأرستقراطيّة تجاه شاعريّتها الخاصة (ولليهوديّة قلّة الإدراك نفسها بما أن أحد أبناء شقيق عقيلة «روفوس ايسرائيلز»، وكان يدعى «موسى»، كانوا يسمّونه عادة «مومو») وعلى اهتمامها في الوقت نفسه ألاّ تبدو وكأنّها تعلّق أهميّة على ماكان أرستقراطيّاً. غير أن السيّد «دو شارلوس» كان يملك إزاء هذه النقطة خيالاً شاعريّاً أوسع ويبدي اعتزازاً أكبر. ولكنّ السبب الذي يجعله قليل التذوقّ لـ «ميميه» لم يكن ذلك بالضبط بما أنّه كان يشمل ايضاً اسم «بالاميد» الجميل. والحقيقة انّه كان يودّ، إذ يحكم ويعلم أنّه سليل أمراء، لو يقول عنه شقيقه وزوجة أخيه: «شارلوس» كما كان بوسع الملكة «ماري اميلي» أو دوق «أورليان» أن يقولا عن أبنائهما وأحفادهما وأبناء أشقائهما وأشقائهما: «جوانفيل ونومور وشارتر وباريس».

وصاحت قائلة: «أيّ متكتّم هو «ميميه» هذا! لقد حدّثناه عنك حديثاً طويلاً فقال لنا إنّه سوف يسعده أشدّ السعادة أن يتعرّف بك، كما لو أنّه بالضبط لم يرك في يوم. هيا اعترف أنّه غريب الأطوار وأنّه بين الحين والحين على شيء من الجنون، وليس من التلطفّ في شيء فيما يخصنّي أن أقول ذلك عن شقيق لزوجي أعشقه وأنا معجبة بعظيم قدره».

ودهشت أيّما دهشة لهذه الكلمة التي تلصق بالسيّد «دو شارلوس» وقلت في نفسي إنّ بعض الجنون هذا ربّما أوضح بعض الأمور، كأن يكون بدا على سبيل المثال شديد الاغتباط لعزمه أن يسأل «بلوك» ضرب والدته. وانتبهت إلى أن السيّد «دوشارلوس» كان على بعض الجنون لامن جرّاء الأشياء التي كان يقولها فحسب، بل من جرّاء الطريقة التي كان يقولها بها. فحينما تسمع للمرّة الأولى محامياً أو ممثّلاً، تدهشك

لهجتهما المختلفة عن الحديث. ولكنّك إذ تبيّن أنّ الجميع يجدون الأمر طبيعياً جدّاً لا تقول شيئاً للآخرين ولا تقول شيئاً لنفسك وتكتفي بتقدير درجة الموهبة. وأكثر ماهنالك أن تظنّ فيما يخص ممثّلاً من فرقة المسرح الفرنسيّ: «لماذا أنزل ذراعه المرفوعة بحركات صغيرة متقطّعة تتخلّلها فترات راحة على مدى عشر دقائق على الأقلّ عوضاً عن أن يدعها تهوي؟»أو فيما يخصّ أمثال «الابوري»: «لماذا أصدر، ما أن فتح فاه، هذه الأصوات المأساوية غير المنتظرة ليقول أبسط الأمور؟» ولكنّما لايصدمك الأمر بما أن الجميع يسلّمون به قبلياً. كذلك كنت تقول في نفسك، بعد تفكير، إنّ السيّد «دو شارلوس» يتحدّث عن نفسه بأسلوب مفخّم وبلهجة ليست البتّة لهجة الالقاء المعتاد. ويخيّل إليك أنّه كان ينبغي أن يقال له في كلّ دقيقة: «ولكن، لماذا تصرخ بهذه القوّة، ولِمَ أنت وقح إلى هذا الحدّ؟» ولكنّما كان يبدو أنّ الجميع قد سلّموا ضمناً بأنّ الأمر حسن هكذا. فكنت تدخل حلقة الذين كانوا يهلّلون له فيما هو يخطب. على أنّه من المؤكدّ أنّه كان سيخيل لغريب في بعض الأحيان أنّه يسمع معتوهاً آخذاً في الصراخ.

وعادت الدوقة تقول بالوقاحة الطفيفة التي تنضاف لديها إلى البساطة: «ولكن، هل أنت على تمام اليقين من أنّك لاتخلط وأنّك تتحدّث بالضبط عن صهري «بالاميد»؟ فمهما شغف بالأسرار فإن الأمر يبدو لي مبالغاً فيه!...»

فأجبت أنّي على أتمّ اليقين وأن السيّد «دو شارلوس» لابدّ أساء سماع اسمي.

وقالت لي السيّدة «دو غير مانت» بما يشبه الأسف: «حسن! إنّي أتركك. ينبغي أن أذهب مقدار ثانية إلى منزل الأميرة «دولينيي». ألا تذهب إلى هناك؟لا، لست تحبّ عالم المجتمعات؟ إنّك على أتمّ الحقّ، فذلك مملّ. لو لم أكن ملزمة!، ولكنّها ابنة عمّي، وما ذلك بلطيف: إنّي آسف بدافع الأنانيّة، من أجلي أنا، فقد كان يسعني أن آخذك في عربتي وحتّى أن أعيدك. إنّي استودعك إذن، واغتبط لنهار الجمعة».

لابأس أن يكون السيّد «دو شارلوس» خجل منّي في حضرة السيّد «دار جنكور» فأمّا أن ينكر على شقيقة زوجته، وهي تحمل أرفع فكرة عنه، أنّه يعرفني، والأمر طبيعي إلى حدّ بعيد بما أني كنت أعرف عمّته وابن أخيه معاً، فذلك مالم يكن يسعني إدراكه.

وسأختتم ذلك بقولي إن السيّدة «دو غير مانت» كانت تتحلّى من وجهة نظر معينّة بسمّو حقيقيّ قوامه أن تطمس طمساً كليّاً كلّ مالعلّ غيرها ما تناساه إلا جزئياً فحتّى لولم تلقني في يوم أطاردها وألاحقها واقتفي آثارها في نزهاتها الصباحية، حتى لو لم تردّ على تحيّتي اليومية بنفاد صبر حانق ولم تزجر في يوم «سان لو» حينما توسلّ إليها أن تدعوني، ماكان وسعها أن تسلك معي سلوكاً أكثر نبلاً وأوفر لطفاً فطرياً. فلم تكن لتستوقفها استفسارات تتناول الماضي وتلميحات وابتسامات غامضة وإضمارات فحسب، ولم تكن تملك في لطافتها الراهنة، ودونما عود إلى الوراء، دونما تحفظ، شيئاً بمثل اعتزاز واستقامة قامتها المهيبة فحسب، بل كانت المآخذ التي أمكن أن تأخذها على أحدهم في الماضي تستحيل بكليّتها رماداً والرماد نفسه يلقى به بعيداً جدّاً عن ذاكرتها أو على الأقلّ عن مسلكها إلى حدّ أنّك لو نظرت إلى وجهها في كل مرة وقع لها أن تعالج بأفضل طرق التبسيط مالعلّه كان لدى كثيرين غيرها حجّة لبقايا جفاء وصنوف ملامة لأحسست بما يشبه

عملية تطهير.

ولئن دهشت للتبدّل الذي تمّ في داخلها إزائي فكم كانت دهشتي أعظم أن أجد في داخلي تبدلاً إزاءها أعمق بكثير! أفلم تكن ثمة فترة لاتعود فيها إليّ الروح والقوة إلاّ إذا بحثت، وأنا أُعدّ على الدوام مشروعات جديدة، عمّن يجعلها تستقبلني ويوفّر بعد هذه السعادة الأولى صنوفاً أخرى كثيرة من السعادة لفؤادي الذي يزداد تطلّباً؟ أمّا ماحلمني على الذهاب إلى «دونسيير» للقاء «سان لو» فاستحالة أن أجد شيئاً. أما الآن فمن جرّاء النتائج الناجمة عن رسالة منه أراني مضطرب النفس، ولكن بسبب السيّدة «دو ستير ماريا» لابسبب السيّدة «دو غير مانت».

ولنضف، بغية أن نأتي إلى ختام هذه الأمسية، أنّه جرى فيها حادث كذب بعد بضعة أيام ولم تنقطع دهشتي حياله وقد أثار الخلاف بيني وبين «بلوك» بعض الوقت وهو يشكّل في حدّ ذاته واحداً من هذه التناقضات الغريبة التي سنجد تفسيرها في نهاية هذا المجلد[1]. لم يكفّ «بلوك» إذن في منزل السيّدة «دو فيلباريزيس» عن الإشادة أمامي بمظهر اللطف لدى السيّد «دو شارلوس» الذي كان حينما يلتقيه في الشارع ينظر في عينيه وكأنّه يعرفه، كأنّه يتوق إلى التعرّف به، ويعلم تمام العلم من هو. وابتسمت لذلك بادئ الأمر إذ سبق لـ «بلوك» أن تحدّث في«بالبيك» بكثير من العنف بحقّ السيّد «دو شارلوس» نفسه. وظننت فحسب أنّ «بلوك» كان يعرف البارون «دون أن يعرفه»، على غرار والده بالنسبة إلى «بيرغوت»، وأنّ ما كان يعدّه نظرة لطيفة كان نظرة ساهية. ولكنّ «بلوك» بلغ في النهاية حدّاً من الإيضاحات الدقيقة وبدا متيقناً أن السيّد «دوشارلوس» ودّ مرّتين أو ثلاثاً أن يبادره بالحديث إلى حدّ أنّي افترضت، وقد تذكّرت أنّني رويت عن رفيقي للبارون الذي طرح عليّ بالضبط في عودتنا من زيارة لدى السيّدة «دو فيلباريزيس» أسئلة مختلفة حوله، أن «بلوك» لم يكن كاذباً وأنّ السيّد «دوشارلوس» عرف اسمه وأنّه كان صديقي،إلخ. ولذلك فقد طلبت بعد وقت يسير من السيّد «دو شارلوس» في المسرح أن أقدم له «بلوك» وذهبت في طلبه بناءً على موافقته. ولكن ما أن أبصره السيد «دوشارلوس» حتّى ارتسمت على محيّاه دهشة كتمها في الحال وحلّ محلّها غضب متطاير الشرر. فلم يمدّ لـ «بلوك» يده، وليس ذلك فحسب بل أجابه في كلّ مرّة وجّه هذا الأخير الكلام إليه بلهجة يشوبها أشدّ الوقاحة وبصوت غاضب وجارح. حتى إن «بلوك»، ولم يكن البارون قد قابله حتّى ذاك، فيما يقول، إلاّ بالابتسامات، ظنّ أنّي لم أوص به بل أسأت إليه في أثناء الحديث القصير الذي كلّمت فيه السيّد «دو شارلوس»، وأنا عارف بميله إلى الرسميّات، عن رفيقي قبل أن أصحبه إليه. وغادرنا «بلوك» منهكاً كمن شاء أن يعتلي صهوة حصان يوشك دوماً يجمح، أو أن يسبح بعكس أمواج تردك دون انقطاع إلى رمال الشاطئ، ولم يعد يكلّمني طوال ستة أشهر.

لم تلذّ لي الأيام التي سبقت عشائي مع السيّدة «دو ستير ماريا» بل كانت لاتطاق. ذلك أنّه كلّما كان الوقت الذي يفصلنا عمّا نقصد إليه قصيراً بعامّة كلّما بدا طويلاً لأنّنا نطبّق عليه مقاييس أكثر قصراً، أو لمحض

(١) القسم الأول من كتاب «سادوم وعامورة» لأن هذه المؤلف كان يحوي في الطبعة الأصلية «جانب غير مانت٢» و«سادوم وعامورة١».

أنّنا نفكّر في قياسه. إنّ البابويّة فيما يقال تحسب بالقرون بل هي ربّما لاتفكّر في الحساب لأنّ غايتها تمتّد إلى مالانهاية. ولّما كانت غايتي على مسافة ثلاثة أيّام فحسب فقدكنت أحسب بالثواني وأنصرف إلى تلك التخيّلات التي هي بدايات مداعبات، مداعبات يثير حنقك أن لا تستطيع حمل المرأة نفسها على انجازها (تلك المداعبات بالضبط دون الأخريات جميعها). وخلاصة القول إن من صحّ بعامّة أن صعوبة بلوغ موضوع رغبة ما إنّما تنميّها (الصعوبة لا الاستحالة لأنّ هذه تقضي عليها)، فإن اليقين، فيما يتعلّق برغبة جسديّة محضة، بأنّها ستتحقّق في وقت قريب ومحدّد ليس أقلّ إثارة من الشك، فإنّ غياب الشكّ إنّما يجعل انتظار اللذّة الواقعة لا محالة أمراً لايطاق، بمقدار ما يفعل الشكّ القلق تقريباً، لأنّ الغياب إنّما يجعل من ذلك الانتظار تحققاً لايحصى ويقسم الوقت من جرّاء كثرة التصوّرات المسبقة إلى شرائح دقيقة على نحو ما قد يفعل القلق.

إنّ ما كان يلزمني هو امتلاك السيّدة «دوستير ماريا» فمنذ عدّة أيام كانت رغباتي قد أعدّت، بنشاط لاينقطع، تلك المتعة في خيالي، تلك المتعة وحدها. وما كانت سواها (المتعة مع أخرى غيرها) لتكون جاهزة، إذ المتعة لاتعدو كونها تحقيق شهوة سابقة ليست على الدوام واحدة وهي تتغير وفق آلاف المزجات في الأحلام ومصادفات التذكّر وحالة المزاج وترتيب جاهزية الرغبات التي يستريح آخر ما تمت تلبيته منها إلى أن تنتسى إلى حدّ ما خيبة الإنجاز. وكنت قد هجرت طريق الرغبات العامة العريض وسرت على درب رغبة أكثر خصوصيّة ؛ وكان لابدّ لي، بغية تمنّي موعد آخر، أن أعود أدراجي من مكان قصيّ لأدرك الطريق الرئيسيّ واتخذ درباً آخر، فامتلاك السيّدة «دو ستير ماريا» في جزيرة غابة بولونيا التي دعوتها للعشاء فيها، تلكم كانت المتعة التي كنت أتخيلها في كلّ دقيقة. ولعلها كانت تلاشت بالطبع لو تناولت عشائي في تلك الجزيرة بدون السيّدة «دوستير ماريا» ؛ بل ربما تناقصت أيضاً إلى حدّ بعيد لو تناولت عشائي في مكان آخر حتّى برفقتها. وإنّ المواقف التي نتمثّل متعةً ما وفقاً لها لسابقة على أيّة حال للمرأة، لنوعية النساء التي توافق ذلك. إنّها تتحكم بها، وكذلك يفعل المكان. وهي لهذا السبب تعيد بالتناوب إلى فكرنا المتقلب هذه المرأة أو تلك، وهذا الموقع أو ذاك، وهذه الغرفة أو تلك، ولعلّنا كنّا ازدريناها في أسابيع أخرى. فهؤلاء نساء. وهنّ وليدات الموقف، لا يستقيم أمرهنّ بمعزل عن السرير الواسع الذي نجد فيه راحة النفس إلى جانبهنّ، وأخريات يتطلّبن،كيما تتم مداعبتهنّ بمقصد أكثر خفاءً ، الأوراق خافقات في الريح والمياه في صميم الليل، وهنّ خفيفات متهرّبات بقدر ماهي.

وليس من شكّ أنّ جزيرة الغابة قد سبق أن بدت لي، قبل أن اتسلّم رسالة «سان لو» بفترة طويلة وحين لم يكن الأمر بعد أمر السيّدة «دو ستير ماريا» ، وكأنّها صنعت للمتعة إذ سبق لي أن وجدتني أمضي لأتذوق فيها حزني ألاّ يتوافر لي أيّة متعة أحجبها فيها عن الأبصار. وإنّا لنهيم على وجهنا على ضفاف البحيرة التي تقودنا إلى تلك الجزيرة والتي تمضي الباريسيّات، اللواتي لم يرحلن بعد، للنزهة على امتدادها في أسابيع الصيف الأخيرة، نهيم آملين أن تمرّ بنا الفتاة التي وقعنا في حبّها في آخر حفلة راقصة من العام والتي لن يسعنا من بعد أن نلقاها ثانية في أيّة أمسية قبل الربيع القادم، إذ لا نعلم من بعد أين نلتقيها، بل إن لم تكن قد غادرت باريس. وإذ نحس أننا في عشية رحيل المحبوب ، وربّما في غداته، فانّنا نسير على حافّة الماء المرتعش في تلك المسالك الجميلة حيث تزهر ورقة أولى حمراء وكأنّها وردة أخيرة، ونتحرّى ذلك الأفق حيث لاتعلم عينانا، من جرّاء خدعة معاكسة لخدعة تلك المناظر التي تضفي الأشخاص الشمعية الأمامية تحت استدارتها،

تضفي على اللوحة الخلفية المرسومة مظهر العمق والحجم الخدّاع، لاتعلم عينانا، إذ تنتقلان دون تمهيد من الروضة المزروعة إلى المرتفعات الطبيعية العائدة لـ«مودون» وجبل «فاليريان»، أين تضعان حدوداً وتدخلان السهول الحقيقية ضمن أعمال البستنة فتنقلان إلى ماخلف حدودها ذاتها متعتها الصنعية، وهو شأن تلك الطيور النادرة التي تنشأ طليقة في حديقة نبات والتي تمضي كلّ يوم على هوى نزهاتها المجنحة فتضع حتى في قلب الأحراج المجاورة لوناً غريباً. وإنّنا لنطوف بقلق، بين آخر احتفالات الصيف وغربة الشتاء، في هذه المملكة الخيالية للقاعات غير المؤكدة وكآبات الغرام ولعلّه لن يدهشنا أن تقع خارج العالم الجغرافي أكثر مما لو تم لنا في «فيرساي» في أعلى الشرفة، هذا المرقب الذي تتراكم السحب من حوله وتبرز على السماء الزرقاء وفق أسلوب «فان دير مولن»، أن نعلم، بعدما ارتفعنا على هذا النحو خارج الطبيعة، أنّ القرى، في المكان الذي تعود تلك الطبيعة فتبدأ فيه من جديد في آخر القناة الكبرى، تلك القرى التي لا نقوى على تمييزها في الأفق الملتمع كالبحر، إنّما تدعى«فلوروس» أو «نيميغ».

وبعدما تمرّ آخر عربة، حينما نشعر شعوراً مؤلماً بأنّها لن تجيء من بعد، نمضي للعشاء في الجزيرة. وفوق أشجار الصفصاف المرتعشة التي تذكر إلى مالانهاية بأسرار المساء أكثر مما تشكل جواباً لها، تضفي سحابة وردية لوناً أخيراً من الحياة في السماء الساكنة. وتسقط بعض قطرات من المطر دونما ضجة فوق الماء العتيق الذي ظلّ أبداً، في طفولته الرائعة، على حاله بالأمس والذي ينسى في كل لحظة صور السحب والأزهار وبعد أن تكافح أزهار الجير انيوم دون جدوى ضدّ الغسق المحلولك وذلك بتكثيف ضياء ألوانها، يقبل ضباب فيغمر الجزيرة التي تغفو. وتتنزّه في العتمة الرطبة على امتداد الماء، وأكثر مافي الأمر أن تدهشك خطرة تمّ يمرّ هادئاً مثلما في سرير ليليّ عينا طفل تنفتحان لحظة وابتسامته وماكنت تحسبه مستيقظاً. حينئذ تود لو تصحبك حبيبة وعلى نحو يتزايد بمقدار ما تلفي نفسك وحيداً ويسعك الظنّ بأنّك بعيد.

ولكن، كم كنت أزداد سعادة، في هذه الجزيرة التي كثيراً ما يغمرها الضباب حتّى في الصيف، أن أصطحب السيّدة «دوستير ماريا» الآن وقد حلّ الفصل المشؤوم، وقد حلّ آخر الخريف! ولو لم يجعل الطقس السائد منذ نهار الأحد، لو لم يجعل بمفرده المناطق التي يعيش فيها خيالي غائمة بحرية– مثلما تجعلها فصول أخرى معطّرة منورة إيطالية– لكان أملي في امتلاك السيّدة «دو ستير ماريا» بعد بضعة أيّام كافياً ليمدّ عشرين مرّة في الساعة ستاراً من الضباب في خيالي الذي يعصف به حنين لايتبدّل. والضباب الذي كان قد امتدّ منذ البارحة حتّى فوق باريس لم يكن يذكّرني على أيّة حال دون انقطاع بمسقط رأس الإمرأة الشابّة التي أقدمت على دعوتها فحسب، بل لمّا كان من المرجّح أنّه سيغمر الغابة في المساء وهو أشدّ كثافة منه في المدينة، ولاسيّما على ضفّة البحيرة، فقد ظننت أنّه سوف يحيل من أجلي جزيرة طيور التّم إلى ما يقرب من جزيرة «بريتانيه» التي أحاط جوّها البحريّ والضبابي أبداً في نظري إحاطة الرداء بطيف السيّدة «دو ستير ماريا» الشاحب. صحيح أن رغبتنا واعتقادنا ونحن أحداث، وفي سنّي يوم كنت أقوم بنزهاتي في جانب «ميز يكليز» إنّما يضفيان على رداء المرأة خاصيّة فرديّة وجوهراً لايردّ إلى سواه. فانت تلاحق الحقيقة. ولكنّما يبلغ بك في النهاية، لكثرة ما تفلت منك، أن تلاحظ أنّه قد ظلّ لديك من خلال جميع تلك المحاولات اللامجدية التي أفضت بك إلى العدم شيء صلب، وهو ما كنت تبحث عنه. وتبدأ باستخلاص ما تحبّ وبتعرّفه وتحاول الحصول عليه ولو كان ذلك لقاء خدعة، حينئذ إنّما يعني الثوب، في غياب الاعتقاد المتلاشي، ما يقوم مقام

هذا الأخير بوساطة وهم متعمد. كنت أعلم تمام العلم أنّني لن ألقى «بريتانيه» على مسافة نصف ساعة من بيتي. ولكنّني سوف أفعل وأنا أعانق أثناء النزهة السيّدة «دوستير ماريا» في ظلمات الجزيرة على ضفاف الماء، سوف أفعل ما يفعله آخرون ممّن لايستطيعون الدخول إلى دير فيلبسون امرأة قبل امتلاكها ثوب الراهبات على الأقل.

كان بوسعي حتّى أن أمني النفس بسماع بعض ثرثرة الموج برفقة المرأة الشابّة لأن عاصفة هبّت عشيّة دعوة العشاء. وكنت آخذاً في حلاقة ذقني للذهاب إلى الجزيرة بغية حجز الحجرة (على الرغم من خلوّ الجزيرة في هذه الفترة من العام وإقفار المطعم) وتقرير أطباق الطعام لعشاء الغد عندما أنبأتني «فرانسواز» بقدوم «ألبيرتين» وأمرت بأن تدخل في الحال، غير عابئ بأن تراني يقبحني ذقن أسود، تلك التي ما كنت أجدني يوماً في «بالبيك» على جمال كاف بالنسبة إليها والتي كلفتني آنذاك ما تكلفني السيّدة «دو ستير ماريا» الآن من اضطراب ومشقة. كان يهمني أن تحمل هذه الأخيرة أفضل انطباع ممكن عن سهرة الغد. ولذلك سألت «ألبيرتين» أن ترافقني في الحال حتّى الجزيرة كي تساعدني على وضع لائحة الأطباق. إن التي نمنحها كل شيء سرعان ما تحلّ أخرى محلها حتّى لنعجب أن نهب مالدينا من جديد وفي كلّ ساعة دون أمل في المستقبل وبدا وجه «ألبيرتين» المشرق المورّد تحت قبعّة عريضة تنخفض إلى حدّ كبير حتّى لتحجب العينين، بدا وكأنّه حائر. فلا بد أن مقاصدها كانت مختلفة، وقد ضحت بها بيسر على أيّة حال من أجلي فبعثت في نفسي ارتياحاً كبيراً لأنّني كنت أعلّق الكثير من الأهمية على أن أصطحب ربّة منزل شابّة تعرف أفضل منّي بكثير كيف توصي على طعام العشاء.

والأكيد أنّها كانت قد مثّلت بالنسبة إليّ أمراً مختلفاً تمام الاختلاف في «بالبيك». ولكنّ ألفتنا، حتّى حينما نحكم أنّها ليست حينئذ كافية الوثاقة، بامرأة نهيم بحبها إنّما تنشئ بينها وبيننا، على الرغم من النواقص التي تعذّبنا آنذاك، روابط اجتماعية تظلّ قائمة بعد حبنّا وحتّى بعد ذكر حبنّا. حينئذ يدهشنا ويسلينا، في التي لم تعد بالنسبة إلينا سوى وسيلة ودرب يقودنا إلى أخريات غيرها، أن نعلم من ذاكرتنا ما عناه اسمها من أمر غريب بالنسبة إلى الكائن الآخر الذي سبق أن كنّاه بالأمس، بمقدار ما يتّم لنا إن انتبهنا، بعدما نلقي إلى الحوذي بعنوان في جادّة «الكبوشيات» أو جادّة «المعبرة» فيما نفكّر فحسب بالمرأة التي نزمع أن نلقاها فيهما، أن هذين الأسمين كانا فيما مضى اسم الراهبات الكبوشيات اللواتي يقوم ديرهنّ هناك واسم الزورق الذي كان يعبر نهر «السين».

صحيح أن أشواقي في «بالبيك» كانت قد أنضجت إلى أبعد الحدود جسد «ألبيرتين» وراكمت فيه مذاقات نديّة وعذبة حتّى أنّي كنت أقول في نفسي، أثناء مشوارنا في الغابة، وفيما كانت الريح، شأن بستاني دقيق في عمله، تهزّ الأشجار وتسقط الثمار وتكنس الأوراق اليابسة، إنّي ربما حدّدت لـ«ألبيرتين» موعداً في المساء نفسه وفي ساعة متأخرة إن اتفق أن كان «سان لو» مخطئاً، أو كنت أسأت فهم رسالته فلا يفضي بي عشائي برفقة السيّدة «دو ستير ماريا» إلى شيء، وذلك كي أنسى على مدى ساعة غرامية بحتة، وأنا أمسك بين ذراعي الجسد الذي سبق أن خمّن فضولي بالأمس وراز جميع صنوف الفتنة التي يزخر بها الآن بإنفعالات بداية الحبّ هذه للسيّدة «دو ستير ماريا» وربّما صنوف كربتها. وصحيح أنّني لو أمكنني افتراض أن السيّدة

«دو ستير ماريا» لن تمنّ علي بأي شيء في هذه الأمسية الأولى كنت تمثلت سهرتي وإياها على نحو مخيبّ للآمال إلى حدّ ما. كنت أعلم بالتجربة أتمّ العلم كيف أن المرحلتين اللتين تتعاقبان داخلنا في بدايات الحب هذا لامرأة اشتهيناها دون أن نعرفها إذ أحببنا فيها الحياة الخاصة التي تغمرها أكثر منها ذاتها وهي لاتزال مجهولة لدينا تقريباً – كيف أن هاتين المرحلتين تنعكسان انعكاساً غريباً في مجال الوقائع، واعني لا في داخلنا من بعد بل في مواعدنا معها. لقد تردّدنا، دون أن نكون تحدّثنا إليها في يوم، وقد وقعنا في إغراء الشعر الذي تمثله في نظرنا فهل تكون هي أو أخرى غيرها؟ فاذا بالأحلام تستقرّ من حولها ولا تؤلف من بعد إلا شيئاً واحداً معها.

ولابدّ أن يعكس أوّل موعد معها هذا الحب الوليد. ولايتّم شيء من ذلك، وكما لو كان من الضروري أن تكون للحياة المادّية أيضاً مرحلتها الأولى فاننّا نتحدّث إليها، وقد أحببناها مذ ذاك، أتفه الحديث: «لقد طلبت إليك المجيء للعشاء في هذه الجزيرة لأنّني حسبت أن الموقع سيروقك. وليس لدي على أي حال أمر خاص أقوله لك. ولكنّي أخشى أن يكون الطقس رطباً جداًوأن يصيبك البرد».– «لا، لا.».– «تقولين ما تقولين تلطفاً. إنّي أسمح لك ياسيّدتي أن تكافحي البرد ربع ساعة أيضاً كي لا أشيع الضيق في نفسك، ولكنّي سوف أعيدك بالقوّة بعد ربع ساعة، فلست أريد أن تصابي بزكام». ونعيدها دون أن نكون قلنا لها شيئاً ولا نتذكّر شيئاً منها، أو على الأكثر طريقة معينّة تنظر بها، ولكننا لا نفكرّ إلا في لقائها ثانية. بيد أن المرحلة الأولى، في المرة الثانية (وما عدنا نلقى حتّى النظرة، وهي الذكرى الوحيدة، ولكنّنا لانفكر من بعد على الرغم من ذلك – بل وأكثر بكثير من ذي قبل– إلا بلقائها ثانية) قد تم تجاوزها. ولم يجر شيء في غضون ذلك. بيد أنّنا نقول، عوضاً عن أن نتكلّم عن أسباب الراحة في المطعم، نقول، دون أن يدهش الأمر المرأة الجديدة التي نراها قبيحة ولكننا نودّ لو يحدّثونها عنا على مدى كامل دقائق حياتها: «سوف يقع علينا أن نفعل الكثير كي نتغلب على سائر العقبات المراكمة بين قلبينا. أتظنيننا نفلح في ذلك؟ وهل تتصوّرين أننا سنستطيع أن نقهر اعداءنا وأن نأمل مستقبلاً سعيداً؟» على أن هذه الأحاديث المتعارضة التي لاطائل تحتها بادئ الأمر والتي تلمح بعد ذلك إلى الحب لن تجري وكان بوسعي أن أصدق في ذلك رسالة «سان لو» فالسيدة «دوستير ماريا» سوف تسلم نفسها منذ أول مساء ولن تلح بي الحاجة إذن إلى استدعاء «ألبيرتين» إلى منزلي بمثابة أسوأ حل لنهاية السهرة. كان ذلك غير ذي جدوى وما كان «روبير» يبالغ قطّ ورسالته واضحة.

كانت «ألبيرتين» قليلة الكلام إذتحسنّي مشغول البال. وقمنا ببضع خطوات سيراً على الأقدام داخل المغارة المخضوضرة التي تقرب أن تكون بحرية لدوحة كثيفة كنّا نسمع الريح تعصف بقبتها وترشهّا بالمطر. وكنت أدوس الأوراق اليابسة التي تنغرس في الأرض مثلما الأصداف وأدفع بعصاي كستناء شائكة كرخويّات الأخينوس.

كانت الأوراق الأخيرة المتقبضة فوق الأغصان لاتتبع الريح إلا بقدر طول معلاقها، ولكنّها كانت تهوي أحياناً على الأرض إن انقطع فتلحق بها جرياً. وكنت أفكرّ بسرور إلى أي مدى ستضحى الجزيرة في غد، إن دام هذا الطقس، أكثر بعداً ومقفرة إقفاراً كلياً في جميع الأحوال. وعدنا فصعدنا إلى العربة، ولما كانت العصفة قد هدأت سألتني «ألبيرتين» أن أتابع السير حتّى «سان كلو». وكمثل الأوراق اليابسة على الأرض

كانت السحب في السماء تتبع الريح. كان ثمّة عثيات مهاجرة، يكشف ضرب من المقطع المخروطي في السماء عن تناضدها الوردي والأزرق والأخضر، قد جهزت تماماً للانطلاق إلى مناخات أكثر صحواً. وكيما تبصر «ألبيرتين» عن كثب إلهة من المرمر كانت تندفع من قاعدتها وتملأ، إذ هي وحيدة في حرج كبير يبدو وكأنما كرس لها، تملأ ذاك الحرج بالرعب الأساطيري الذي نصفه حيواني والنصف مقدس والمنبعث من وثباتها العنيفة، كيما تبصرها اعتلت أكمة فيما كنت انتظرها على الدرب. كانت تبدو بدورها، إمّا شوهدت هكذا من أسفل، وليست من بعد سمينة بدينة شأنها على سريري في ذاك اليوم الذي تظهر فيه تحببات عنقها تحت مكبرة عيني القريبتين، بل منمقة الخطوط ورشيقة، كانت تبدو وكأنها تمثال صغير خلّفت عليها لحظات «بالبيك» السعيدة قشرتها الرقيقة وحينما عدت فوجدتني وحيداً في منزلي قلت في نفسي، وأنا أذكر أني قمت بمشوار بعد الظهر برفقة «ألبيرتين» وأنّي أتغدى بعد الغد لدى السيّدة «دو غير مانت»، وأنّه ينبغي لي أن أجيب عن رسالة لـ «جيلبيرت»، وهن ثلاث نساء كنت أحببتهنّ، قلت إن حياتنا الاجتماعية تزخر، شأن مشغل فنان، بمحاولاتٍ مهجورة ظنناً أنّه يسعنا أن نثبت فيها حاجتنا إلى حب كبير، ولكنما لم يخطر لي أنّه قد يتفق لنا أحياناً، إن لم تكن المحاولة مغرقة في القدم، أن نستعيدها وأن نجعل منها عملاً مختلفاً أتم الاختلاف، بل ربما كان أكثر أهمية من ذاك الذي سبق أن عقدنا عليه العزم بادئ الأمر.

وفي الغد كان الطقس بارداً وصحواً: كنت تحس الشتاء (وكان في الواقع شديد التسبيق حتّى ليبدو من قبيل الأعجوبة إن كنّا استطعنا أن نلقى في الغابة المخربة بعض القباب التي من أخضر ذهبي)، وأبصرت. وأنا أستيقظ، وكأنما من نافذة ثكنة «دونسيير» الضباب الكامد المتساوي الأبيض يتدلّى بمرح في الشمس متماسكاً ناعماً كالسكّر المغزول. ثم اختفت الشمس فتكاثف أيضاً بعد الظهر. وحلّ الليل في ساعة مبكرة فقمت بارتداء ملابسي ولكنّ الوقت كان لايزال مبكراً جداً للذهاب. وقررت إرسال عربة للسيدة «دو ستير ماريا». ولم أجرؤ على الصعود إليها كيلا أرغمها على قطع الطريق برفقتي، ولكنّي سلّمت الحوذيّ «كلمة» لها أسألها فيها إن كانت تأذن بأن أجيء لاصطحابها وبانتظار ذلك استلقيت على سريري وأطبقت عينيّ لحظة ثم عدت ففتحتهما من جديد. لم يعد ثمة فوق الستائر سوى حاشية دقيقة من الضوء آخذة في الإظلام. كنت أستبين هذه الساعة اللا مجدية، دهليز المتعة العميق، التي تعلمت في «بالبيك» كيف أتعرف فراغها العاتم اللذيذ حينما أشاهد، وأنا وحيد في غرفتي شأني الآن، وفيما الآخرون جميعهم على مائدة العشاء، أشاهد دون اغتمام احتضار النهار فوق الستائر وأعلم أنّه يزمع عما قليل، وبعد ليلة قصيرة قصر ليالي القطب، أن ينبعث أشدّ سطوعاً في لألاء «ريفبيل» فأقفز من سريري وأعقد ربطة عنقي السوداء وأمرّر الفرشاة في شعري، وهي آخر حركات في ترتيب متأخر أقوم بها في «بالبيك» وأنا أفكر لا في بل فيّ النساء اللواتي سأشاهدهن في «ريفبيل» فيما كنت ابتسم لهنّ مسبقاً في المرآة المائلة في غرفتي، وقد ظلت تلك الحركات لذلك العلامات التي تبشر بلهو تمتزج فيه الأضواء والموسيقى. فكانت شأن علامات سحرية توحي به بل تحققه مذ ذاك، ويتجمع لديّ بفضلها فكرة مؤكدة عن حقيقته واستمتاع مسكر طائش في مثل تمام ويقين ما كان يتجمع لديّ في «كومبريه» في شهر تموز حينما أسمع ضربات مطرقة حازم المتاع واستمتع في برودة غرفتي السوداء بالدفء والشمس.

ولم تعد السيّدة «دو ستير ماريا» لذلك، لم تعد تماماً من لعلّني كنت أتوق إلى لقائها. ولعلّني كنت

أفضلُ وأنا مضطرٌ الآن لقضاء سهرتي معها، وإذ كانت تلك آخر سهرة لي قبل رجوع والديّ، أن تظلّ حرّة وأن يمكنني محاولة لقاء نسوة من «ريفيبل» مجدّداً. وعدت فغسلت يديّ مرّة أخيرة ونشفتهما، أثناء الجولة التي كان السرور يحملني على القيام بها عبر الشقة، في قاعة الطعام المظلمة. وبدت لي مفتوحة على الردهة المضاءة، ولكنّ ما أخذته على أنّه الشق المضاء في الباب الذي كان على العكس مغلقاً لم يكن سوى انعكاس منشفتي الأبيض في مرآة وضعت بمحاذاة الجدار بانتظار أن توضع في مكانها من أجل عودة أمي. وعدت بالفكر ثانية إلى جميع ضروب السراب التي سبق أن اكتشفتها على هذا النحو في شقتنا والتي لم تكن خدعاً بصريّة فحسب، ذلك أنّه خيل إليّ في الأيام الأولى أن جارتنا تملك كلباً من جراء النباح المتطاول والبشريّ تقريباً الذي تعوّده أنبوب في المطبخ في كل مرة يفتح فيها صنبور الماء. وما كان الباب المطلّ على صحن الدرج ينغلق من تلقاء ذاته ببطء شديد على إثر تيارات الهواء في الأدراج إلاّ بأداء نتف الجمل التي تنضح شهوة وشكوى والتي تنضاف إلى نشيد جوقة الحجاج في نهاية افتتاحية «تانهويزر»[1]. وقد سنحت لي الفرصة على أية حال، بعدما قمت باعادة منشفتي إلى مكانها، أن استمع ثانية إلى هذه المقطوعة السمفونية الرائعة، إذ جريت بعدما دوّت رنّة جرس لأفتح باب الردهة للحوذيّ الذي يحمل إليّ الجواب. كنت أحسب أنّ الأمر من هذا القبيل ؛ «إن هذه السيّدة في الأسفل»، أو «هذه السيّدة تنتظرك» ولكنّه كان يمسك رسالة بيده. وتردّدت لحظة في الإطلاع على ماسطّرته السيّدة «دو ستير ماريا» التي كان يمكن أن تكون على غير هذه الصورة مادامت الريشة في يدها ولكنّها الآن، وقد أفلتت منها، مصير يوالي طريقه وحده ولاتستطيع أن تبدّل شيئاً فيه من بعد. وطلبت من الحوذي النزول والانتظار لحظة على الرغم من تذمّرة من الضباب وما أن انصرف حتّى فضضت المغلف. وعلى البطاقة كانت مدعوتي الفيكونتيسة «أليكس دو ستير ماريا» قد خطت: «إنّي مغتمة. ثمة ظرف طارئ يحول دون عشائي هذا المساء برفقتك في جزيرة الغابة. كنت مغتبطة بذلك. سوف أكتب إليك مطوّلاً من «ستير ماريا» إليك أسفي ومودّتي». وظللت لاحراك بي وقد أذهلتني الصدمة التي أصبت بها. كانت البطاقة والمغلف قد سقطا على قدميّ كحشوة سلاح ناري بعدما تنطلق القذيفة. ولمتهما وحللّت تلك الجملة «تقول لي إنّها لاتستطيع تناول العشاء معي في جزيرة الغابة». فيمكن أن نستخلص من ذلك أنّها قد تستطيع العشاء معي في مكان آخر. لن أتطفل فأمضي لاصطحابها، ولكنّما يمكن في النهاية فهم الأمر على هذا النحو».ولما كان فكري قد أقام سلفاً منذ أربعة أيام في جزيرة الغابة هذه مع السيّدة «دو ستير ماريا» فلم يكن بمقدوري أن أفلح في إعادته منها. كانت، رغبتي تتخذ غير متعمدة المنحدر الذي سارت عليه منذ العديد من الساعات، وعلى الرغم من تلك البرقية، وهي أقرب عهداًمن أن تقوى عليها، كنت أستمدّ تلقائياً للذهاب مثلما يودّ تلميذ راسب في امتحان أن يجيب عن سؤال آخر إضافيّ. وانتهى بي الأمر أن أقرّر الذهاب لأقول لـ «فرانسواز» ان تنزل وتدفع للحوذيّ. واجتزت الممرّ وإذ لم ألقها مررت في قاعة الطعام. وفجأة كفت خطاي عن الضجيج فوق الأرضية الخشبية مثلما سبق أن فعلت حتّى ذاك وخرست يلفّها صمت خلّف في نفسي حتّى قبل أن أتعرف سببه شعوراً بالاختناق والاحتجاز. كان ذلك السجاد الذي شرعوا يثبتونه بالمسامير من أجل عودة والديّ، هذا السجاد الشديد الجمال في الصبيحات السعيدة حينما تنتظرك الشمس عبر

(١) مسرحية غنائية شهيرة لـ«فاغنر».

تبعثره شأن صديق جاء ليصطحبك إلى غداء في الريف، وتحطّ فوقه نظرة الغابة، ولكنّه يمثل الآن على العكس أوّل تجهيز للسجن الشتائي الذي لن أستطيع من بعد مغادرته بملء الحرية فيما أزمع أن أعيش فيه وأتناول طعامي فيه مع أسرتي مرغماً. وصاحت بي «فرانسواز»:

– «فيلحترس سيدي من السقوط فانّه لم يسمر بعد. كان ينبغي أن أوقد النار، فاننا في آخر «أيلول»، وقد انقضت أيام الصحو».

عما قليل يحل الشتاء، وفي زاوية النافذة عرق من الثلج المتصلب وكأنما على زجاج من «غاليه». وحتى في محلة «الشانزيليزيه» ليس سوى عصافير الدوري عوضاً عن الفتيات اللواتي تنتظرهنّ.

ما كان يزيد من كآبتي ألا ألقى السيّدة «دو ستير ماريا» أن جوابها كان يحملني على الظنّ بأنّها لم تفكر دون شكّ مرة واحدة بذلك العشاء فيما لم أعش منذ يوم الأحد إلا من أجله ساعة فساعة. وقد علمت فيما بعد أنّها أقدمت على زواج حبّ لايصدق بشاب لابد أنّها كانت تلتقيه في تلك الفترة وقد أنساها دونما شكّ دعوتي. ذلك لأنّها لو تذكرتها لما انتظرت دون ريب العربة التي ما كنت أزمع أن أبعث بها إليها على أية حال، وفق ما اتفقنا عليه، كيما تخطرني بأنّها لم تكن غير مرتبطة بموعد. كانت أحلامي، أحلام عذراء إقطاع في جزيرة ضبابية، قد أفسحت الطريق لحبّ لم يكن بعد قائماً. وكان باستطاعة خيبة أملي الآن وحنقي ورغبتي اليائسة في استعادة تلك التي أقدمت على استبعادي، كان باستطاعتها، وقد أشركت بالأمر مشاعري، أن تثبت الحب الممكن الذي كان محض خيالي حتّى ذاك قد قدمه لي ولكن على نحو أقل تماسكاً.

كم من وجه فتاة وامرأة شابة يعمر ذكرياتنا، وأكثر منها في زوايا النسيان، وكلها مختلفة ولم نضف إليها سحراً وشوقاً محموماً إلى لقائهن إلا لأنهن تهربن في آخر لحظة! أما فيما يخص السيدة «دو ستير ماريا» فالأمر أكثر بكثير وكان يكفيني الآن كيما أحبها أن أعود فألقاها كي تتجددّ تلك المشاعر المتقدة والبالغة القصر والتي ما كانت الذاكرة لتقوى لولا ذاك على الاحتفاظ بها في الغياب. وقد قضت الظروف بغير ذلك فلم أرها ثانية. ما كانت هي من أحببت، بيد أنه كان بالأمكان أن تكون هي. وإن من بين ما جعل الحب الكبير الذي كنت وشيك الوقوع فيه أكثر ما يكون قسوة أن قلت في نفسي، وأنا أتذكر هذه الأمسية، إنّه كان يمكن، لو تبدّلت ظروف بسيطة جداً، أن ينصرف إلى اتجاه آخر، إلى السيدة «دو ستير ماريا». فلم يكن إذن، وقد انصب على تلك التي أوحت إلي به بعد ذلك بقليل، لازماً لزوماً مطلقاً ومقدر الوقوع كما لعلني كنت راغباً إلى حدّ بعيد وكانت بي حاجة إلى تصديقه.

كانت «فرانسواز» قد تركتني وحدي في قاعة الطعام وهي تقول لي إنّي مخطئ إن مكثت فيها قبل أن توقد النار. لقد ذهبت لإعداد العشاء، ولقد بدأت عزلتي حتّى قبل وصول والديّ ومنذ هذا المساء. ولمحت رزمة ضخمة من السجاد لاتزال ملفوفة وقد وضعت في زاوية الصوان فأخفيت رأسي فيها أبتلع غبارها ودموعي، شأني شأن اليهود الذين كان يغطون رؤوسهم بالرماد أيام الحداد، وطفقت انتحب. كنت أرتعش لا من جرّاء أنّ الحجرة كانت باردة فحسب، بل لأنّ انخفاضاً حرارياً هاماً (ولا نحاول مقاومة خطره، بل ربما انبغى أن نقول اللذة الطفيفة الناجمة عنه) إنما تشبه بعض دموع تنهمر من عيننا قطرة فقطرة مثل مطر خفيف نفاذ شديد البرودة يبدو وكأنّه لايزمع أن يتوقف في يوم. وسمعت فجأة صوتاً يقول:

– «هل أستطيع الدخول؟ قالت لي «فرانسواز» إنك لابدّ في قاعة الطعام. لقد جئت استطلع إن كنت لاتود أن نذهب لتناول العشاء معاً في أي مكان، وإن كان ذلك لايؤذيك إذ الضباب كثيف حتى لتقطعه بالسكين».

وكان «روبير دو سان لو»، وهو وصل في الصباح في حين كنت أظنّه لايزال في المغرب أو في عرض البحر. لقد قلت رأيي في الصداقة (وكان «روبير دو سان لو» بالضبط هو الذي مدّ لي يد العون رغماً عنه لأعي ذلك): ومفاده أنّها أمر زهيد إلى حدّ أنّه يعسر عليّ إدراك أن يكون رجال على شيء من النبوغ من أمثال «نيتشه» قد بلغوا من السذاجة أن يخصوها بقيمة فكرية وأن يمتنعوا بالتالي عن صداقات لاصلة لها بالتقدير الفكري. أجل لقد أدهشني أبداً أن أرى أن رجلا كان يبلغ بالصراحة مع ذاته حدّ الانقطاع عن موسيقى «فاغنر» بداع من رهافة الوجدان قد تصوّر أنّ الحقيقة يمكن أن تتحقق في صيغة تعبير هي غامضة بطبيعتها وغير ملائمة وقوامها أعمال على وجه العموم وصداقات على وجه الخصوص وأنّه يمكن أن تكون ثمة دلالة، أيّة دلالة، في أن يترك المرء عمله ليذهب للقاء صديق ويبكي معه إذ يحاط علماً بنبأ حريق «اللوفر» الكاذب لقد بلغ بي في «بالبيك» أن أرى متعة اللهو مع فتيات أقل شؤماً على الحياة الروحية، وإنها لتظل على الأقلّ غريبة عنها، من الصداقة التي ينصرف كامل جهدها إلى حملنا على التضحية بالجزء الوحيد الحقيقي الممتنع على التواصل (بغير وساطة الفنّ) من ذواتنا لصالح «أنا» سطحية لاتجد كتلك الأخرى مسرة في ذاتها بل تجد تأثراً غامضاً في الإحساس بأنها تستند إلى ركائز خارجية وتستريح في شخصية غريبة تبث منها، وقد أسعدتها الحماية التي توفّر لها هناءها استحساناً وتستعجب من صفات لعلّها تدعوها عيوباً لديها وتحاول إصلاحها. وإن مزدري الصداقة ليستطيعون على أيّة حال، يستطيعون دون توهّم لا دون وخز ضمير، أن يكونوا أفضل أصدقاء في العالم مثلما يهب فنان يحمل في ذاته رائعة فنية ويحس أن واجبه يقتضيه أن يعيش ليعمل، يهب على الرغم من ذلك، وكي لايبدو أنانياً أو يقع له أن يكونه، حياته في سبيل قضية لاطائل تحتها ويهبها بشجاعة تتزايد بمقدار ما كانت الأسباب التي ربما فضل ألا يهبها من أجلها أسباباً متجردة. ولكن أياً كان رأيي في الصداقة، حتّى إن لم أتحدث إلا عن المتعة التي كانت توفرها لي وهي من نوعية ضحلة حتّى لتشبه ما كان واقعاً بين التعب والملل، فليس من شراب، مهما يكن مشؤوماً، إلا ويستطيع أن يضحى في بعض الساعات ثميناً مشجعاً إذ يجيئنا بضربة السوط التي كانت تلزمنا وبالحرارة التي لا نستطيع أن نجدها في ذواتنا.

وما أبعد ما كنت بالحقيقة عن أن ابتغي سؤال «سان لو»، مثلما كنت راغباً في ذلك قبل ساعة، أن يهيئ لي لقاء جديداً مع نسوة «ريفبيل»، فالأخدود الذي خلفه في نفسي أسفي على السيّدة «دو ستير ماريا» كان يرفض أن يمحى بهذه السرعة، ولكنّما حين لم أعد أحس في نفسي أيّاً من أسباب السعادة كان دخول «سان لو» بمثابة حلولٍ لطيبة ومرح وحياة كانت خارج ذاتي دونما شكّ ولكنها كانت تقدّم نفسها ولاتبغي إلا أن تكون لي. ولم يدرك هو نفسه صيحة امتناني ودموع تأثري. فهل هنالك ما كان أكثر مودّة على نحو مفارق على أيّ حال من واحد من هؤلاء الأصدقاء، ديبلوماسيّاً كان أو مكتشفاً أو طيّاراً أو جندياً شأن ما كان «سان لو»، الذين يبدون، وهم يعودون في الغد إلى الريف ومن هناك إلى حيث يعلم الله. وكأنّهم يضمنون لأنفسهم السهرة التي يكرسونها لنا انطباعاً يدهشنا أن يستطيع، لشدّة ندرته وقصره، أن يلذ لهم إلى هذا الحدّ، وأن نراهم لايطيلون فيه أكثر من ذلك أو لا يجدّدونه مرات أكثر بما أنّه يروقهم إلى هذا الحدّ؟ إن طعاماً

يتناولونه معنا، وهو أمر طبيعي جداً، إنما يولي هؤلاء المسافرين المتعة الغريبة واللذيذة نفسها التي توليها شوارعنا لأحد الأسيويين. وذهبنا سوية لتناول طعام العشاء، وفيما كنت انحدر على الأدراج تذكرت «دونسيير»، حيث كنت أمضي كلّ مساء للحاق بـ«روبير» في المطعم، وحجرات الطعام الصغيرة المنسيّة. وتذكّرت واحدة لم أكن قد عدت إلى التفكير بها قطّ ولم تكن في الفندق الذي كان «سان لو» يتعشى فيه بل في آخر أكثر اتضاعاً بكثير وهو وسط بين الفنادق والنزل العائلية وتقدّم الطعام لك فيه صاحبته وواحدة من خادماتها. وكان الثلج قد أوقفني هنالك؛. ولم يكن «روبير» يزمع في ذلك المساء أن يتناول العشاء في الفندق فلم أشأ أن أمضي إلى أبعد من ذلك. وحملوا إليّ الأطباق إلى فوق حجرة صغيرة كلّها من خشب. وانطفأ المصباح في أثناء العشاء فأشعلت لي الخادمة شمعتين. أما أنا فقد تظاهرت بأني لا أرى بوضوح تام وأنا أمد إليها قصعتي فيما كانت تضع فيها البطاطا فأخذت ساعدها العاري بيدي وكأنما لأرشدها. وإذ رأيت أنّها لاتسترده قمت بمداعبته ثمّ شددتها إليّ كلياً دون أن أنبس ببنت شفة وأطفأت الشمعة وقلت لها حينئذ أن تفتشني كي تحصل على بعض المال. وبدا لي في الأيام التي تلت أن المتعة الجسدية تقتضي، كيما يتم تذوقها، لاتلك الخادمة فحسب، بل حجرة الطعام الخشبية المعزولة تماماً. بيد أنّني إنّما عدت في كلّ مساء إلى حجرة الطعام التي كان «روبير» وأصدقاؤه يتعشون فيها، بداعي العادة، بداعي الصداقة وذلك حتّى رحيلي من «دونسيير» على أنّي لم أعد أفكر منذ فترة طويلة حتى بذلك الفندق الذي كان يحّل نزيلاً فيه مع أصدقائه. إننا لانفيد من حياتنا وندع الساعات التي بدا لنا أنه يمكن لقليل من الراحة أو المتعة أن يحتبس فيها، ندعها غير مكتملة في سويعات الشفق في الصيف وفي ليالي الشتاء المبكرة. ولكن هذه الساعات لاتذهب هدراً. فحينما تصدح لحظات جديدة من المتعة، وقد تنقضي على نحوها وفي مثل نحولها وخطيتها، تقبل لتحمل إليها قاعدة ارتكازها وتماسك جوقة غنية من الذكريات، وتمتد هكذا حتّى واحد من صنوف السعادة النموذجية التي لا نلقاها إلا بين حين وآخر ولكنّها تستمرّ في البقاء؛ وفي المثال الراهن كان قوام الأمر التخلّي عن الباقي كلّه لتناول العشاء في إطار مريح يتضمن بفضل الذكريات داخل لوحة طبيعية وعوداً بالسفر، برفقة صديق سوف يحرّك حياتنا الراكدة بكل طاقته وكلّ مودّته ويبعث في نفسنا متعة تهزّ مشاعرنا وهي شديدة الاختلاف عن تلك التي يمكن أن ندين بها لجهدنا الخاصّ أو لصنوف من اللهو الاجتماعي. وسوف ننصرف إليه وحده ونبثه عهود الصداقة التي ربما لم يبر بها بما أنّها ولدت ضمن قضبان هذه الساعة وستظل حبيسة داخلها، ولكنّي كنت أستطيع أن أبثها دون توجس لـ «سان لو» بما أنّه سيكون قد رحل في الغد بشجاعة بداخلها الكثير من الحكمة واستشفاف أنّ الصداقة لايمكن أن تتعمق.

ولئن كنت أعيش ثانية عشيّات «دونسيير» فيما أنحدر على الأدراج فإن الليل المطبق، حينما بلغنا الجادة، الليل الذي بدا فيه الضباب وكأنّه أطفأ المصابيح التي ما كنت تميزها، وهي ضعيفة جدّاً، إلاّ عن قرب شديد قد ردّني إلى ما لست أدري من وصول في المساء إلى «كومبريه» حين لم تكن المدينة منارة بعد إلا على مسافات متباعدة ويتلمس المرء طريقه فيها عبر عتمة مذود رطبة دافئة مقدّسة ترصعها ههنا وهناك، ولاتكاد فتيلة مصابيح لا يسطع أكثر مما تفعل شمعة. ولكن أيّة فروق بين عام «كومبريه» هذا، وهو غير محدّد على أي حال، وعشيات «ريفبيل» التي عدت أراها منذ قليل فوق الستائر! كنت أحس في ترائيها لي حماسة كان يمكن أن تكون خصبة لو أنني بقيت وحدي وكانت جنبتي على هذا النحو عطفة العديد من السنوات اللا

مجدية التي أزمع المرور بها قبل أن تظهر بوادر هذه الموهبة الخفية التي يؤلف هذا الكتاب قصتَّها، ولو اتفق هذا الأمر في ذاك المساء لحقّ أن تظلّ هذه العربة جديرة بالذكرى في نظري أكثر من عربة الدكتور «بير سبييه» التي سبق أن ألفت على مقعدها وصفاً صغيراً لقباب أجراس «مارتنفيل» – سبق بالضبط أن عثرت عليه منذ وقت قليل مضى ورتبتّه وبعثت به، وعبثاً فعلت، إلى صحيفة الـ«فيغارو»– أفلأننا لا نعيش ثانية سني عمرنا في تسلسلها المستمر ويوماً إثر يوم بل في الذكرى التي تسمرت في برودة أو إشماس صباح أو مساء وامتدّ عليها ظلّ موقع، أيّ موقع، منعزل سجين أسوار ثابت جامد قصيّ بعيد عن كلّ ماعداه، وأنّ التبدلات المتدرجة تفضي هكذا إلى زوال لافي الخارج فحسب، بل في أحلامنا وطباعنا المتطورة التي قادتنا على نحو لاشعوري عبر الحياة من زمن إلى آخر سواه شديد الاختلاف عنه؟ فإن عشنا ثانية ذكرى أخرى نقتطعها من سنة مختلفة وجدنا بينها من جرّاء ثغرات ومساحات شاسعة من النسيان ما يشبه الهوّة الناجمة عن فارق الارتفاع وما يشبه تنافر مزيتين لا مجال لتشابه بينهما من هواء مستنشق وألوان محيطة. ولكنّي كنت أحسّ بين الذكريات التي توالت منذ قليل في خاطري عن «كومبريه» و«دونسيير» و«ريفبيل» أكثر من فاصل الزمن، كنت أحس بالمسافة التي يمكن أن تقوم بين أكوان مختلفة ليست المادّة فيها واحدة. ولو شئت أن أحاكي في مؤلف المادة التي كانت أتفه ذكرياتي تبدو لي منقوشة فيها لانبغى لي أن أجعل عروقاً وردية في المادة التي كانت تشبه حتى ذاك صخر «كومبريه» الرمليّ القاتم القاسي وأن أحيلها فجأة مادّة شفافة متراصة باردة رنّانة.

ولكن «روبير» لحق بي في العربة بعدما انتهى من تزويد الحوذيّ بايضاحاته. وفرّت الأفكار التي تبدّت لي. فتلك آلهات يتنازلن أحياناً ويظهرن لأحد الفانين المتوحدّين في عطفة طريق وحتّى في غرفته أثناء نومه حين يقفن بالباب ويحملن إليه بشارتهن. ولكنّهن يختفين ما أن نضحى اثنين فالناس إن اجتمعوا لايشهدونهن البتة. وألفيتني أرتد إلى الصداقة.

كان «روبير» قد حذرني لدى وصوله أنّ الضباب كثيف، ولكنه لم يفتأ يزداد كثافة فيما كنّا نتحدّث. فلم يعد ذاك الضباب الخفيف الذي تمنيت أن أراه يتصاعد من الجزيرة ويلفنا أنا والسيّدة «دوستير ماريا» فالمصابيح كانت تنطفىء على خطوتين ويحلّ الليل إذ ذاك حالكاً حلكة وسط الحقول أو في غابة أو بالأحرى في جزيرة غير متماسكة من مقاطعة «بريتانيه». كنت وددت لو أذهب إليها، وأحسستني ضائعاً وكأنما على شاطىء بحر شمالي تواجه الموت فيه عشرين مرّة قبل أن تصل إلى نزل منفرد. وأخذ الضباب يضحي، وقد كفّ عن كونه سراباً نبحث عنه، واحداً من تلك المخاطر التي نكافحها حتّى أننا واجهنا لنجد طريقنا ونصل إلى دار الأمان والمصاعب والقلق ومن ثمّ الفرح الذي يوليه الأمان – وما أبعده عن إحساس من ليس مهدداً بفقدانه –للمسافر الحائر المبلبل الذهن شيء واحد أوشك أن يودي ببهجتي في أثناء رحلتنا الملأى بالأخطار بسبب الدهشة الخانقة التي رماني فيها لحظة، فقد قال لي «سان لو»: «تدري، لقد رويت لـ «بلوك» أنك لاتحبه إطلاقاً إلى هذا الحدّ وأنّك ترى له بعض جوانب سوقية». وخلص يقول قول الراضي عن نفسه بلهجة لاتقبل الجواب: «هذه حالي، إنّي أحبّ المواقف الواضحة». لقد أصابني الذهول، فلم تكن ثقتي مطلقة إلى أبعد حدّ بـ«سان لو» وبصدق صحبته فحسب. وقد خانها بما قاله لـ«بلوك»، ولكنّما بدا لي إلى ذلك أنّه كان لابد له أن يحول بينه وبين ما فعل معايبه وصفاته على حدّ سواء وهذا المكتسب الخارق على صعيد التربية والذي كان يمكن أن يبلغ بالتهذيب حدّ مجانبة الصراحة بعض الشيء فهل كان مظهره المظفر المظهر الذي نتخذه لنخفي

بعض الارتباك إذ نبوح بأمر نعلم أنه ما كان ينبغي لنا أن نفعله؟ وهل كان يعرب عن شيء من اللاتقدير؟ عن غباء يضع موضع الفضيلة عيباً ما كنت أعرفه لديه؟ عن نوبة غضب عابرة عليّ تدفعه إلى هجري أم تسجيل نوبة غضب عابرة إزاء «بلوك» وقد شاء أن يقول له أمراً مكدّراً وإن أدّى إلى الأساءة إليّ؟كان وجهه على أيّ حال، وهو يقول تلك الأقوال التافهة، يند به التواء رهيب لم أبصره لديه سوى مرّة أو مرتين في الحياة وكان يتبع بادئ الأمر منتصف الوجه تقريباً فاذا بلغ الشفتين لواهما فأضفى عليهما تعبيراً بشعاً من السفالة وما يقارب الحيوانية العابرة والموروثة دون شكّ عن الأجداد. كان لابدّ أن يتم في تلك اللحظات التي لاتعود دون شكّ سوى مرّة كل سنتين احتجاب جزئي لأناه الخاصة بمرور شخصية أحد الجدود عليه وانعكاسها فيه. وكلمات «روبير» :«إنني أحبّ المواقف الواضحة» كانت تفضي إلى الريبة نفسها وربما استوجبت، لابد في ذلك، الملامة نفسها التي تستوجبها هيئة الرضى لديه. كنت أودّ أن أقول له إنّه ينبغي، إن أحببنا المواقف الواضحة، أن تنتابنا موجات من الصراحة فيما يتعلّق بنا وألاّ نبدي من سهل الفضيلة على حساب الآخرين. ولكن العربة كانت قد توقفت أمام المطعم الذي كانت واجهته العريضة المزججة المتوهجة تفلح وحدها في اختراق الظلمة. والضباب نفسه، من جرّاء الأضواء المريحة في الداخل، كان يبدو حتّى الرصيف وكأنما يدلك على المدخل بغبطة هؤلاء الخدم الذين يعكسون نفسيات سيّدهم ؛ كان يتقزح بأكثر الألوان لطافة ويشير إلى المدخل مثل العمود المضيء الذي قاد العبرانيين. وكان الكثير منهم على أي حال بين الزبائن، ذلك أنّ «بلوك» وأصدقاءه سبق أن جاؤوا على مدى فترة طويلة يلتقون في المساء وبهم نشوة صوم يجوعهم بقدر ما يفعل الصوم الطقسي الذي لايحل على الأقل إلا مرّة في العام، صوم عن المقهى، وحبّ استطلاع السياسة. ولما كانت كل إثارة ذهنية تخلف قيمة تفضل سواها وميزة فائقة للعادات التي تتعلق بها فليس من ميل على شيء من القوة إلا ويؤلف على هذا النحو من حوله مجتمعاً يوحده ويكون تقدير الأعضاء الآخرين فيه هو التقدير الذي يسعى إليه كلّ منهم أوّل ما يسعى في الحياة. وإنّك لتجد هنا، حتّى في مدينة ريفية صغيرة، عشاقاً يهيمون بالموسيقى ؛ فهم ينفقون أفضل الوقت لديهم وأكثر ما لهم في حفلات موسيقى الحجرة، وفي الاجتماعات التي يجري الحديث فيها عن الموسيقى، وفي المقهى الذي يلتقي فيه الهواة فيما بينهم ويجلسون جنباً إلى جنب مع الموسيقيينّ. أمّا غيرهم فعشاق طيران وهمهم أن يحسنوا في عين خادم البار المزجج وقد جثم في أعلى المطار. وسيستطيع هنا وهو بمأمن عن الريح، وكأنما في قفص منارة زجاجي، أن يتابع برفقة طيار لايطير في هذا الوقت تحركات قائد طائرة يقوم بدورات عمودية حول ذاته فيما قام آخر، وكان لايرى قبل لحظة، بالحط فجأة على الأرض والارتطام بها محدثاً الضجيج الضخم الذي لجناحي طائر الرخ. إن الجماعة الصغيرة التي كانت تلتقي لتجهد في استمرار الانفعالات الخاطفة الناجمة عن محاكمة «زولا» وتعميقها كانت تعلق كذلك أهمية كبرى على هذا المقهى. ولكنّ النبلاء الشباب الذين كانوا يؤلفون القسم الآخر من الزبائن لم يكونوا ينظرون إليها بعين الرضى وقد اتخذوا لأنفسهم قاعة ثانية في المقهى مفصولة عن الأخرى بمحض ساتر خفيف تزينه الخضرة. كانوا يعدون «دريفوس» وأنصاره خونة على الرغم من أن أبناء هؤلاء النبلاء الشباب أنفسهم، بعد خمسة وعشرين عاماً وبعدما اتسع الوقت لتحلّ الأفكار في مراتبها ولتتخذ «النزعة الدريفوسية» في التاريخ شيئاً من الأناقة، أبناءهم البارعين في الرقص ذوي النزعة البلشفيّة لابدّ سيعلنون «للمثقفين» الذين يسائلونهم أنّهم لو عاشوا في ذلك الزمان لكانوا بالتأكيد إلى جانب «دريفوس» دون أن يعلموا عن جوهر القضية ما يجاوز كثيراً ما يعرفونه عن الكونتيسة «أدمون دو بورتاليس» والمركيزة «دو غاليفيه»،

وهمامن أمجاد أخرى انطفأت يوم مولدها. ففي أمسية الضباب هذه كان نبلاء المقهى الذين سيصبحون فيما بعد آباء هؤلاء المثقفين الشباب الدريفوسييّ النزعة باتجاه الماضي لايزالون فتياناً. صحيح أن عائلات الجميع كانت تتطلع إلى زواج غنّي، ولكنه لم يكن بعد قد تحقق لأحد. كان ذاك الزواج الغنيّ الذي يشتهيه كثيرون في الآن نفسه ولايزال بعد في دنيا الاحتمال، (صحيح أن هنالك عدّة «زوجات ثريات» مرتقبات ولكنّ عدد البائنات الضخمة أقلّ بكثير من عدد المرشحين) كان يقف عند حدّ إثارة بعض التنافس بين هؤلاء الشبان.

وقد شاء سوء الطالع فيما يخصني أن اضطرت إلى الدخول بمفردي إذ ظلّ «سان لو» بضع دقائق يخاطب فيها الحوذي كيما يعود فيأخذنا بعد تناول العشاء. ففي البداية ظننت بعدما دخلت في الباب الدوار الذي لم أتعوّده أنّني لن أفلح في الخروج منه. (ولنقل، إذ نحن بهذا الصدد، بالنسبة إلى هواة مفردات أكثر دقة، إن هذا الباب المنفاخ إنّما يدعى على الرغم من مظهره السلمي الباب المسدس، من الإنكليزية Revolving door، (*) وقد لبث صاحب المطعم في ذلك المساء، إذ لم يجرؤ على البلل بالذهاب خارجاً ولا على ترك زبائنه، لبث مع ذلك بالقرب من الباب كي يمتع النفس بسماع شكاوى الوافدين المبهجة وقد أشرقت أساريرهم أيما إشراق بارتياح من صادف مشقة في الوصول وخالجه الخوف من الضياع، بيد أنّ ودّ استقباله الضاحك تلاشى من جرّاء رؤية مجهول لايعرف كيف يتخلص من المصاريع الزجاجية. وقد حملته علامة الجهل الفاضح هذا على تقطيب حاجبيه تقطيب فاحص شديد الرغبة في الامتناع عن النطق بعبارة «Dignus estintrare» (إنّه أهل للدخول). وزيادة في سوء الطالع ذهبت وجلست في القاعة المخصصة لأرستقراطيين فجاء يسحبني منها يخشونه وهو يدلني بفظاظة حذا حذوه فيها فوراً جميع الخدم، على مكان في القاعة الأخرى، كان إعجابي به قليلاً بمقدار ما كان المقعد الذي يقع فيه مليئاً بالناس وأنّ قبالتي الباب المخصص للعبريين الذي لم يكن دواراً بن كان يحمل إليّ برداً مخيفاً إذ ينفتح وينغلق في كل لحظة ولكنّ صاحب المطعم رفض نخصي بمكان آخر وهو يقول: «لاياسيد، لايمكنني إزعاج الجميع من أجلك». ونسي بعد قليل على أيّة حال المتعشي المتأخر والمزعج الذي كنته وقد أخذه وصول كلّ وافد جديد كان عليه، قبل أن يطلب كأس البيرة أو جناح الفروج البارد أو الشراب الساخن (إذ انقضت ساعة العشاء منذ وقت طويل)، كما هي الحال في الروايات القديمة، أن يشارك وذلك براوية مغامرته لحظة كان يدخل إلى ملجأ الدفء والأمان هذا حيث كان التناقض مع مانجا منه المرء يشيع المرح وروح الرفاقية اللذين يمزجان سوية أمام نار معسكر في العراء.

كان أحدهم يروي أن عربته قد دارت ثلاث مرّات حول مبنى «الأنفاليد» إذ تبادر لها أنّها وصلت إلى جسر «الكونكورد» وآخر أن عربته قد دخلت، وهي تحاول الإنحدار في شارع «الشانزيليزيه»، في كتلة شجراء من المستديرة قضت ثلاثة أرباع الساعة في الخروج منها. ثم تلي ذلك منادب حول الضباب والبرد وصمت القبور في الشوارع كانت تحكى ويصغى إليها بهيئة الابتهاج اللا متوقع الذي يفسره جوّ القاعة اللطيف حيث يعم الدفء باستثناء المكان الذي أشغله والنور الشديد الذي ترف له العيون وقد تعوّدت ألا تبصر وجلبة الأحاديث التي تعيد للآذان نشاطها.

(*) الباب الدوار.

كان الوافدون يجدون مشقة في التزام الصمت. ذلك أنّ غرابة الحوادث الطارئة، ويظنونها فريدة، كانت تكوي ألسنتهم فيبحثون بالعين عمّن يباشرون الحديث معه. حتّى صاحب المطعم أخذ يفقد حسّ المسافات ولم يخش أن يقول ضاحكاً: «لقد ضاع السيد الأمير «دوفوا» ثلاث مرات وهو آت من بوابة «سان مارتان»، ولا يغفل أن يدل، وكأنما في تعارف، على الأرستقراطي الشهير محامياً يهودياً لعلّه كان فصله عنه في أي يوم آخر حاجز تفوق صعوبة اجتيازه أكثر من النافذة المزدانة بالخضرة. وقال المحامي وهو يلمس قبعته: «ثلاث مرّات! أرأيت لذلك». ولم يستسغ المحامي جملة المقاربة هذه. فقد كان من جماعة أرستقراطية تبدو لها ممارسة الوقاحة، حتّى تجاه فئة النبلاء حين لاتنتمي إلى أرفع مرتبة، وكأنها الشاغل الوحيد. لايردون على تحية ؛ فان أعاد الرجل المهذب الكرة قهقهوا بهيئة ساخرة أو ردوا الرأس إلى الوراء بهيئة حانقة ؛ويتظاهرون بأنّهم لايتعرفون رجلاً مسناً سبق أن أدى لهم خدمات ؛ ويقفون المصافحة والتحية على الدوقة والأصدقاء الحميمين للدوقة ممّن يعرّفونهم بهم: ذلكم كان موقف هؤلاء الشبان ولاسيما الأمير «دوفوا». كان مثل هذا الموقف تيسّره فوضى سني الشباب الأولى (التي يظهر المرء فيها عقوقاً، حتّى في البورجوازية، ويبدي فظاظة لأنّه نسي على مدى شهور أن يكتب إلى محسنٍ فقد زوجته منذ فترة قليلة ثم هو لايحييه من بعد لاختصار الأمور)، ولكنما توحي به على وجه الخصوص سنوبيّة طبقية حادّة. صحيح أن تلك السنوبية، مثلها مثل بعض الأمراض العصبية التي تخف أعراضها في سن النضوج، كان لابد بعامة أن تكف عن الظهور ظهوراً عدائياً إلى هذا الحدّ لدى أولئك الذين سبق أن كانوا شباباً لايطاقون. فمن النادر أن يظل المرء حبيس الوقاحة بعدما ينقضي الشباب. لقد ظنّوا أنّها موجودة وحدها، ويكتشفون فجأة، مهما بلغوا من إمارة، أن ثمة الموسيقى أيضاً والآداب وحتّى التمثيل النيابي وبذلك يتغير ترتيب القيم الإنسانية ونباشر الحديث مع الناس الذين كنّا نرشقهم فيما مضى بنظرات غاضبة.فليحالف التوفيق أولئك الذين تحلّوا بالصبر للانتظار والذين حسنت طباعهم إلى حد ما – إن كان لابد أن نقول قولاً من هذا القبيل– كي يلقوا متعة في أن يتقبلوا حوالي الأربعين اللطف والاستقبال اللذين حجبا عنهم بجفاء في سن العشرين!

ويجدر أن نقول فيما يخص الأمير «دوفوا» ، بما أنّ الفرصة قد سنحت، أنّه كان في عداد جماعة تتراوح بين اثني عشر إلى خمسة عشر شاباً وزمرة محدودة أكثر قوامها أربعة. أمّا جماعة الاثني عشر إلى خمسة عشر فقد كانت تتصف بهذه الميزة التي كان الأمير بمنأى عنها، فيما أعتقد، وقوامها أنّ هؤلاء الشبان كانوا يبدون، كلّ فيما يخصه، مظهراً مزدوجاً. فقد كانوا يبدون، وقد غرقوا في الديون، عديمي الشأن في نظر ممونيهم على الرغم من المتعة التي يصيبها هؤلاء في أن يقولوا لهم: «سيدي الكونت... سيدي المركيز»... سيدي الدوق...» وكانوا يأملون الخروج من المأزق بوساطة «الزواج الغني» المدعوّ أيضاً «بالجراب الكبير»، ولما كانت البائنات الضخمة التي يطمعون بها لا تتجاوز الأربع أو الخمس فقد كان العديد ينصبون مدافعهم في الخفاء في سبيل الخطيبة نفسها. وكان السرّ يحسن كتمانه إلى حدّ أنّ العديد من الصيحات كانت تدوّي، حينما يقول أحدهم وهو آت إلى المقهى: «يا أحسن الأحبة إني أودكم أكثر من ألا أخبركم بخطوبتي للآنسة «دامبرساك» ، إذ يظنّ العديد منهم أنّ الأمر معها تحصيل حاصل بالنسبة إليه ولا يملك برودة الأعصاب اللازمة ليكتم لأوّل وهلة صيحة الغيظ ودهشته ؛ ولا يستطيع أمير «دو شاتيلرّو» أن يملك نفسه عن الاستعجاب ويترك شوكته تهوي من استغراب ويأس إذ قد ظنّ أن خطوبة الآنسة «دامبر ساك» نفسها كانت ستعلن عما قريب

ولكن له هو، «شاتيلّرو»: «يروقك إذن أن تتزوج يا «بيبي»؟ ومع ذلك فالله يعلم كلّ ما سبق أن رواه والده بمهارة لآل «دامبر ساك» ضدّ والدة «بيبي» ولايتمالك عن أن يسأل «بيبي» مرّة ثانية: «أيسرّك إذن أن تتزوج؟» فيجيب مبتسماً، وهو افضل استعداداً أذ اتسع له كامل الوقت لاختيار مظهره منذ أن أضحى الأمر رسمياً تقريباً»: إنّي مسرور لا لأنّي أتزوجّ، فكدت لا أرغب في ذلك، ولكن لاقتراني بـ«ديزي دامبر ساك» التي أجدها رائعة. كان «شاتيلّرو» قد استعاد رباطة جأشه في المدى الذي استغرقه هذا الجواب ولكنّه كان يفكر أنّه ينبغي أن يتقلب بأسرع ما يمكن باتجاه الآنسة «دو لا كانورك» أو الآنسة «فوستر»، وهما الزوجتان الثريتان رقم ٢ و٣، وأن يسأل الدائنين الذين ينتظرون زواج «دامبر ساك» طول الأناة وأن يوضح أخيراً لمن سبق أن قال لهم أيضاً إن الآنسة «دامبر ساك» فاتنة أن هذا الزواج مناسب بالنسبة إلى «بيبي»، ولكنّه لو تزوجها هو لخالف أسرته كلّها. وقد بلغ الأمر بالسيّدة «دو سوليون»، فيما يزعم أن يدعيه، أن تقول إنّها لن تستقبلهما.

ولئن كانوا يبدون في نظر المموّلين وأصحاب المطاعم إلخ، أناساً قليلي الشأن فلم يكن ينظر إليهم، وهم شخصيات مزدوجة. ما أن يحلوا في المجتمع، بمنظار ثروتهم المتهدّمة والمشاغل التعسة التي كانوا ينصرفون إليها لمحاولة إصلاحها. لقد كانوا يضحون من جديد السيد الأمير والسيد الدوق فلاناً ولا يعدون إلا بحسب منازلهم. وهذا الدوق الذي يقارب أن يكون من أصحاب المليارات ويبدو وكأنما تجمع له كل شيء في ذاته إنما كان يجيء بعدهم لأنهم كانوا فيما مضى، بوصفهم رؤساء أسر، أمراء مطلقي السلطة في بلد صغير حقّ لهم فيه أن يسكّوا النقود، إلخ. وكثيراً ما كان أحدهم يغض الطرف في هذا المقهى حينما يدخل آخر حتّى لا يجبر الوافد على تحيته. ذلك أنّه قد دعا في مطاردته الخيالية للثراء صاحب مصرف إلى العشاء. وفي كل مرّة يقيم فيها أحد رجال المجتمع ضمن هذه الظروف صلات مع صاحب مصرف فإن هذا الأخير يخسره زهاء مئة ألف فرنك، الأمر الذي لايحول دون أن يعيد رجل المجتمعات الكرّة مع آخر. فإننا نستمر في إشعال الشموع واستشارة الأطباء.

بيد أنّ الأمير «دوفوا»، وهو نفسه ثري. لم يكن ينتمي فحسب إلى هذه الجماعة الأنيقة التي يؤلفها خمسة عشر شاباً، بل إلى جماعة من أربعة أكثر انغلاقاً ولاينفصل بعضهم عن بعض وكان «سان لو» في عدادهم. وما كانوا يدعون قطّ الواحد دون الآخر ويسمون بالعشاق الأربعة ويشاهدون على الدوام معاً في النزهة ويعطون في القصور غرفاً متصلة إلى حدّ سرت معه شائعات يزيد منها أنّهم كانوا جميعهم على جمال عظيم. حول علاقتهم الحميمة. واستطعت أن أكذبها تكذيباً قاطعاً فيما يخصّ «سان لو» ولكن الغريب في الأمر أنّه إن عرف الناس فيما بعد أن تلك الشائعات كانت صحيحة بالنسبة إلى الأربعة فإن كلاً منهم بالمقابل قد جهلها عن الثلاثة الآخرين جهلاً تاماً. مع أن كلا منهم قد جدّ في تقصي أخبار الآخرين إما لإشباع رغبة أو ضغينة بالأحرى أو الحؤول دون زيجة أو برّ الصديق المكتشف. وقد انضم خامس إلى الأفلاطونيين الأربعة «فثمة على الدوام أكثر من أربعة في الزمر التي يؤلفها أربعة»، وكان أكثر أفلاطونية من الآخرين جميعهم، ولكن وساوس دينية استوقفته حتى بعد ما انفرط عقد الأربعة بكثير وتزوج وأصبح أباً لأسرة يتوسل في «لورد» أن يكون الطفل المقبل صبياً أو بنتاً ويرتمي في هذه الأثناء على العسكر.

وعلى الرغم من وضع الأمير فأن يكون الكلام جرى في حضرته دون أن يوجه إليه مباشرة قد جعل

غضبه أقل حدة مما لعلة كان لولا ذلك. أضف أنّ هذه الأمسية كانت تتسم بطابع استثنائي إلى حدّ ما. ثم إن المحامي لم يكن أوفر حظاً في إقامة علاقات مع الأمير «دوفوا» من الحوذي الذي صحب هذا السيد النبيل. وقد ظنّ هذا الأخير لذلك أنّه يستطيع أن يردّ. ولكن بلهجة متعجرفة وصوت خفيض، على هذا المخاطب الذي كان بفضل الضباب كأنما رفيق سفر صادفته على شاطئ واقع في أقاصي الدنيا تضربه الرياح أو يغرقه الضباب: «ليست المشكلة أن نضيع، ولكنما أن لا نهتدي إلى الطريق من بعد». وقد أذهلت صحة هذه الفكرة صاحب المقهى إذ سبق أن سمع من يعبر عنها مراراً هذا المساء.

فقد تعودّ بالفعل أن يقابل على الدوام ما يسمعه أو يقرؤه بنصّ معروف من قبل ويحسّ بإعجابه يستفيق إن لم يجد فروقاً. وليست هذه الحالة الذهنية غير ذات بال لأنها إما تمّ تطبيقها على المحادثات السياسية وعلى قراءة الصحيفة فإنها تشكل الرأي العام وتجعل أعظم الأحداث ممكنة بذلك. فكثيرون من أصحاب المقاهي الألمان الذين كانوا ينظرون بإعجاب إلى الزبون لديهم أو إلى صحيفتهم فحسب قد أدخلوا في حيز الممكن حينما كانوا يقولوت إن فرنسه وإنكلتره وروسيه «تستفز» ألمانيه. أدخلوا يوم «أغادير» حرباً لم تندلع على أية حال. ولئن لم يخطئ المؤرخون في الإحجام عن تفسير أفعال الشعوب بمشيئة ملوكهم فلا بد أن يحلوا محلها سيكولوجية الفرد، الفرد ذي السوية الضحلة.

لم يكن صاحب المقهى الذي وصلت إليه منذ قليل يطبق ذهنية مدرس المحفوظات التي يتسم بها، لم يكن يطبقها في حقل السياسة منذ بعض الوقت إلاّ على عدد معين من المقطوعات حول مسألة «دريفوس». فإن لم يلق اللفظات المعهودة في أقوال زبون أو على أعمدة صحيفة أعلن أنّ المقالة مملة أو أنّ الزبون غير صريح. أما الأمير «دوفوا» فقد فتنه على العكس حتّى كاد لايدع لمحدثه الوقت لإنهاء جملته. وصاح قائلاً: «أحسنت القول، يا أميري، أحسنت القول (الأمر الذي كان يعني، باختصار الكلام، تلوت دون خطيئة» وقد انشرح فؤاده، حسب تعبير كتاب «ألف ليلة وليلة»، و«هو في غاية الارتياح». ولكن الأمير كان قد اختفى في الحجرة الصغيرة. وبما أن الحياة تمضي من جديد حتّى بعد أكثر الأحداث غرابة فقد أخذ الذين كانوا يخرجون من بحر الضباب يوصي بعضهم بشرابه والآخرون بعشائهم، ومن بينهم شبان من نادي سباق الخيل لم يتردّدوا بسبب طابع اليوم غير العادي في الجلوس إلى طاولتين في القاعة الكبرى فإذا هم، وتلك حالهم، على قرب شديد منّي . وهكذا فقد أرست الكارثة، حتى من القاعة الصغرى إلى الكبرى، بين جميع هؤلاء الناس تستثيرهم في ذلك أسباب الراحة في المطعم، بعد ضلالاتهم الطويلة في خضم الضباب، ألفة أُقصيتُ عنها وحدي وكانت لابد تشبهها تلك التي سادت سفينة نوح.

وفجأة أبصرت صاحب المقهى تلويه الانحناءات ورؤساء الخدم يهرعون بكامل عددهم. الأمر الذي حمل جميع الزبائن على تحويل أنظارهم إليه. وكان صاحب المقهى يصرخ قائلاً: «بسرعة. نادوا لي على «سبيريان»، إليّ بطاولة للسيّد المركيز «دو سان لو». وما كان «روبير» في نظره محض سيدٌ عظيم يتمتع بمهابة حقيقية حتّى في نظر الأمير «دوفوا»، بل زبون يقضي الحياة واسعة، وينفق في هذا المطعم كثيراً من المال. كان زبائن القاعة الكبرى ينظرون بفضول وزبائن القاعة الصغرى يتسابقون إلى دعوة صديقهم الذى كان ينتهي من مسح رجليه. ولكنّه لمحني في القاعة الكبرى لحظة كان يزمع الدخول إلى الصغرى وصاح قائلاً: «ياإلهي، ماذا

تفعل ههنا، وهذا الباب مفتوح أمامك»، ولا يغفل أن يرمي بنظرة حانقة صاحب المقهى الذي سارع إلى إغلاقه وهو يعتذر محملاً الخدم «إنّي أقول لهم دوماً أن يظل مغلقاً».

وكنت قد اضطررت إلى إزعاج مائدتي وموائد أخرى كانت أمامها من أجل المضيّ إليه. «لماذا تحركت من مكانك؟ أتفضّل العشاء ههنا على العشاء في القاعة الصغرى؟ ولكنّك ستتجمدّ، ياصديقي المسكين». وقال لصاحب المقهى: «ستتكرّم عليّ باغلاق هذا الباب نهائياً»

«في الحال ياسيدي المركيز. وعلى الزبائن الذين سيجيئون منذ الآن أن يمرّوا من القاعة الصغرى، هذا كل مافي الأمر». وكي يبدي اندفاعه على نحو أفضل امر أن يقوم بهذه العملية رئيس خدم وعدد من الخدم فيما يطلق بأعلى صوته تهديدات مخيفة إن لم تتّم على أحسن وجه. وكان يوجّه إليّ أمارات إجلال بالغ كي أنسى أنها لم تبدأ منذ وصولي. بل بعد وصول «سان لو» فقط، ويخصني خفية، كي لا أظنّ أنّها ناجمة عن الصداقة التي يبديها لي زبونه الثري الأرستقراطي، بابتسامات صغيرة كأنّما تستبين فيها مودّة شخصية تماماً.

وحملني قول زبون خلف ظهري على أن أدير رأسي مقدار ثانية. فقد سمعت عوضاً عن الكلمات التالية: «جناح فرّوج، حسن جدّاً، وقليل من الشمبانيا، ولكن لا تكن مرّة جدّاً». هذه الأخرى: «أفضل الغليسرين أجل دافئة، حسن جداً» وودت لو أرى من كان الناسك الذي يقضي على نفسه بمثل هذه الوجبة. وأدرت رأسي بسرعة صوب «سان لو» كي لايتعرّفني الذواقة العجيب. كان محض دكتور كنت أعرفه وقد طلب إليه أحد الزبائن استشارة مستغلاً الضباب كي يسجنه في هذا المقهى.

وفي تلك الأثناء كنت أنظر إلى «سان لو» وأفكر في الأمر التالي. كان ثمة في هذا المقهى، وكذلك عرفت في الحياة، العديد من الغرباء من مثقفين ورسامين من كل نوع يسلّمون بالضحك الذي يثيره معطفهم المغرور وربطات عنقهم التي تعود إلى عام ١٨٣٠ بل وأكثر من ذلك حركاتهم الخرقاء، ويبلغ بهم أن يستثيروه ليعربوا عن أنّهم لا يأبهون له، وهم جماعة يتمتعون بقيمة عقلية وأدبية حقيقية وبعميق المشاعر. كانوا لايروقون – اليهود بخاصّة، اليهود غير المنصهرين بالطبع، إذ لايمكن أن يكون الآخرون موضوع بحث – الأشخاص الذين لايطيقون احتمال مظهر مستغرب عجيب (مثلما «بلوك» «ألبيرتين») بيد أنّهم كانوا يعترفون بعامة بعد ذلك أنّه من الصبياني، إن اتفق لهم لغير صالحهم شعور بالغة الطول وأنف وعينان زائدة الاتساع وحركات مسرحية متقطعة، أن نحكم عليهم بناء على ذلك، وأنّهم يتمتعون بكثير من الذكاء والعاطفة وأنّهم لدى التعامل معهم أناس يمكن أن نحبهّم حبّاً عميقاً. وفيما يتعلق باليهود على وجه الخصوص كان القليل منهم من لايتمتع ذووهم بنبل في النفس واتساع في الفكر وصراحة تبدو إزاءها واللدة «سان لو» والدوق «دو غير مانت» في صورة خلقية هزيلة من جراء جفاف نفسيهما وتدينهما السطحي الذي لايندّد إلاّ بالفضائح ودفاعهما عن مسيحية تفضي حتماً (على دروب العقل اللا متوقعة، العقل الذي يحظى وحده بالتقدير) إلى زواج ثروات ضخم. أمّا لدى «سان لو» فأية كانت الطريقة التي ائتلفت بها معايب الأهل في إبداع جديد للمزايا، فقد كان يسود الساح أروع انفتاح للعقل والقلب. وإذ ذاك، ولابدّ أن نقولها لمجد فرنسه الخالد، حينما تجتمع تلك المزايا لفرنسيّ أصيل، أكان من الأرستقراطية أم من الشعب، فانّها تزهر – «تتفتّح» قد تبدو مبالغاً فيها، لأن الاعتدال يظلّ قائماً في تلك المزايا والقيود – برشاقة لايتحفنا بها الغريب

مهما يكن جديراً بالتقدير. صحيح أنّ الآخرين يملكون بدورهم المزايا العقلية والخلقية وليست أقل ثمناً إن انبغى بادئ الأمر أن نجتاز ما لا يروق وما يصدم وما يبعث الابتسامة بيد أنّ ذلك أمر حلو وربّما كان فرنسياً حصراً وقوامه أن يجيء ما كان جميلاً في حكم الإنصاف وما كان ذا قيمة بحسب العقل والقلب. أن يجيء قبل كلّ شيء فاتناً للأنظار وملوناً برشاقة ومنقوشاً بدقة وأن يحقق كذلك في مادته وفي شكله الكمال الداخليّ كنت أنظر إلى «سان لو» وأقول في نفسي إنّه لأمر جميل حين لايكون ثمة قبح جسماني يجيء بمثابة ردهة تقود إلى الألطاف الدخلية، وتكون فتحات الأنف دقيقة بديعة الخطوط كأجنحة الفراشات الصغيرة التي تحطّ على أزاهير المروج حول «كومبريه». وإنّ «الصنع الفرنسي» الحقيقي الذي لم يفقد سره منذ القرن الثالث عشر. ولعلّه لن يزول مع كنائسنا، ليس ملائكة الحجر في كنيسة «سانت آندريه دي شان» بقدر ماهم صغار الفرنسيين، النبلاء منهم أو البورجوازيون أو الفلاحون ممّن نقش وجههم بهذه الرقة وهذه الصراحة اللتين ظلتا تقليديتين كما هي الحال في البوابة الشهيرة ولكنهما لا تزالان خلاقتين.

بعد ما مضى صاحب المقهى لحظة ليسهر بنفسه على إغلاق الباب والإيصاء بالعشاء (وقد ألحّ كثيراً كي نأخذ من «لحوم الذبائح». إذ الطيور غير فاخرة دون شكّ)، عاد يقول لنا إن السيّد الأمير «دوفوا» ودّ لو يأذن له السيّد المركيز بالمجيء لتناول العشاء إلى طاولة بالقرب منه. وأجاب «روبير» إذ رأى الطاولات التي تحاصر طاولتي: «ولكنها مشغولة كلها».– «لا أهمية للأمر، وإن أمكن أن يحسن ذلك في عين السيد المركيز فسيكون من اليسير عليّ أن أرجو هؤلاء الناس بتبديل مكانهم تلك أمور يمكن أن نقوم بها من أجل السيّد المركيز!» وقال لي «سان لو»: «ولكن الأمر يعود إليك. إن «فوا» فتي طيب ولا ادري إن كان سيزعجك إنه أقل غباء من الكثيرين». وأجبت «روبير» أنّه سوف يروقني بالتأكيد ولكنّي وددت كثيراً لو نظل وحدنا مادمت أتناول مرة طعام العشاء معه وأحسني شديد السعادة بذلك. وقال لصاحب المقهى في أثناء مداولتنا: «آه! إن للسيّد الأمير معطفاً حلواً جداً». فأجاب «سان لو»: «أجل، إني أعرفه». وكنت أبغي أن أروي لـ«روبير» أنّ السيّد «دو شارلوس» كتم عن شقيقة زوجته أنّه يعرفني، وأن أسأله ما يمكن أن يكون سبب ذلك ولكنّما حال دون ان افعل وصول السيّد «دوفوا». لقد شاهدناه يقف على خطوتين وقد أقبل ليرى إن كان التماسه قد صادف قبولاً. وقدمنا «روبير» الواحد للآخر ولكنّه لم يكتم صديقه انّه يفضل أن نترك وشأننا إذ هو يبغي التحدّث إليّ. وابتعد الأمير وهو يضيف إلى تحية الوداع التي أدّاها لي ابتسامة تشير إلى «سان لو» وتبدو وكأنها تجد العذر في مشيئة هذا الأخير عن قصر تعارف لعلّه تمناه أكثر طولاً. بيد أنّ «روبير» بدا وكأنما استولت عليه فكرة مفاجئة فابتعد مع رفيقه بعد أن قال لي: «اجلس أنت وباشر تناول العشاء، فانّي قادم». واختفى في القاعة الصغيرة. وشقّ عليّ أن أسمع الشبان الأنيقين الذين ما كنت أعرفهم يروون أكثر الحكايات سخفاً وإساءة حول كبير الدوقة الشاب وريث «لو كسمبور» (الكونت «دوناساو» سابقاً) الذي سبق أن عرفته في «بالبيك» وقدمّ لي براهين رقيقة جداً من المودة في أثناء مرض جدّتي. وكان أحدهم يزعم أنه قد قال للدوقة «دو غير مانت»: «إنّي أطالب بأن يقف الجميع عندما تمرّ امرأتي» وأن الدوقة أجابت (ما لعله كان خلواً لا من الظرف فحسب بل من الصحة فقد كانت جدّة الأميرة الشابة على الدوام أشرف امرأة في العالم): «لابدّ أن يقف الناس حينما تمرّ زوجتك فسيغير ذلك من شأن جدّتها لأن الرجال فيما يخصها كانوا يتمددون». ثم رووا أنه جاء في ذاك العام للقاء عمته أميرة «لوكسمبور» وحلّ في الفندق الكبير واشتكى إلى المدير (صديقي) أنّه لم يرفع علم اللاكسمبور فوق السدّ وإذ كان هذا العلم أقلّ ذيوعاً وأقلّ استعمالاً من أعلام انكلترة أو

ايطاليه فقد انبغى عدّة أيام للحصول عليه الأمر الذي أثار أشدّ استياء كبير الدوقة الشاب . لم أصدق كلمة واحدة من هذه الرواية ولكنّي عزمت أن أسائل مدير الفندق حالما اذهب إلى «بالبيك» لأتأكد من أنّها محض اختلاق. وبانتظار «سان لو» طلبت من صاحب المطعم أن يأمر من يعطيني خبزاً.- «في الحال. ياسيدي البارون» . فأجبت بلهجة كئيبة بقصد الضحك: «لست بارون». -(آه! عفوك ياسيدي الكونت!» ولم يتسع لي الوقت لاسماعه احتجاجاً آخر كنت أضحيت بعده بالتأكيد «السيّد المركيز» وعاد «سان لو» بمثل ما سبق أن أعلن من سرعة فظهر من جديد في المدخل وهو يمسك بيده المعطف الصوفيّ الكبير العائد للأمير وقد أدركت أنّه قد طلبه منه كي يوفر لي الدفء وأشار إليّ من بعيد ألاّ أكلف نفسي عناء، وتقدم وكان لابدّ أيضاً من تحريك طاولتي أو من تبديل مكاني كيما يستطيع الجلوس وما أن دخل القاعة الكبرى حتى صعد بخفة على المقاعد ذات المحمل الأحمر التي صفت من حولها على طول الجدار والتي لم يكن يجلس عليها باستثنائي سوى ثلاثة فتيان أو أربعة من نادي السباق، وهم معارف له لم يستطيعوا أن يجدوا مكاناً لهم في القاعة الصغرى. وكانت أسلاك كهربائية قد مدّت بين الطاولات على ارتفاع معين ؛ وقفز «سان لو» من فوقها بمهارة ودون أن تربكه مثلما يفعل حصان سبق بحاجز. وقد أدهشتني تلك الثقة التي كان صديقي ينجز بها ذاك التمرين البهلواني، وأخجلني في الآن نفسه أن تتمّ من أجلي وحدي وبهدف تجنيبي حركة بسيطة جداً. ولم تكن تلك حالي فقط، فقد ظل صاحب المقهى والخدم مفتونين شأن خبراء في عملية وزن.على الرغم من أنّهم ما كانوا استساغوا الأمر كثيراً دونما شك من قبل زبون أدنى أرستقراطية وأقل أريحية. وقد لبث أحد الخدم لاحراك به، وكأنما أصابه الشلل، يحمل طبقاً كان متعشون بالقرب منه ينتظرونه ؛ وحينما صعد «سان لو» وقد اضطرّ أن يمرّ خلف أصدقائه، على حافة المسند وتقدّم عليها متوازن الخطو تعالى تصفيق خافت في أقصى القاعة. وإذ أصبح أخيراً بمحاذاتي أوقف على الفور اندفاعته بدقة قائد أمام منصة سلطان وانحنى ومدّ إليّ مدّة تأدب وخضوع المعطف الصوفيّ الناعم الذي رتبه في الحال، بعدما جلس بجانبي، على هيئة شال خفيف ودافئ على كتفيّ دون أن يقع عليّ القيام بأية حركة.

وقال لي «روبير»: «قل لي، ما دام الأمر في بالي، لدى عمي «شارلوس» مايقوله لك. لقد وعدته بأن أوفدك إلى منزله في مساء الغد».

- «كنت عازماً بالضبط على التحدّث إليك عنه. ولكنّي سأتعشّى في مساء الغد في منزل عمتّك «غير مانت»».

- «أجل، ستقام مأدبة كبرى غداً في منزل «أوريان». لستُ مدعواً. ولكنّ عمّي «بالاميد» يودّ ألا تذهب إليها. ألا يمكنك أن تلغي الدعوة؟ اذهب في جميع الأحوال إلى منزل عمّي «بالاميد» بعد ذلك، فاني أظنّه يصرّ على لقائك. هيّا، يمكنك أن تكون هناك حوالي الحادية عشرة. الحادية عشرة، لاتنسَ، وآخذ على عاتقي أن أخطره بالأمر. إنّه شديد الحساسيّة، فإن لم تذهب أو غرت صدره عليك. والأمور تنتهي أبداً في ساعة مبكرة لدى «أوريان». فإن لم تقدم على غير العشاء هناك أمكنك تماماً أن تكون في الحادية عشرة في منزل عمي، وأنا على أيّ حال كان ينبغي لي أن ألقي «أوريان» من أجل منصبي في المغرب الذي أودّ تبديله. إنّها لطيفة جداً بالنسبة إلى هذه الأمور وتستطيع كلّ شيء لدى اللواء «دو سان جوزيف» الذي يرتبط الأمر به.

ولكن لاتحدثها عن ذلك. لقد قلت كلمة للأميرة «دو بارما» وستسير الأمور وحدها. آه! المغرب، شيق جداً. ربما كان ثمة الكثير أحدثك به. إنّهم أناس مرهفو الذكاء هناك، وإنك لتشعر بالتماثل في الذكاء».

-«ألا تظنّ أن الألمان يستطيعون المضيّ حتّى الحرب بهذه المناسبة؟».

-«لا، الأمر يزعجهم، وهو صحيح تماماً في الأساس. ولكنّ الأمبراطور مسالم. إنّهم يحملوننا دوماً على الظن بأنهم يبدون الحرب ليرغمونا على التنازل. (عد إلى البوكر). يأتي أمير موناكو عميل غليوم الثاني ليقول لنا سرّاً إنّ ألمانية تنقضّ علينا إن لم نتنازل، فنتنازل حينئذاك، ولكننّا إن لم نتنازل لن يكون ثمة أي صنف من الحروب. عليك أن تفكر فقط في أي شيء كوني قد تكونه الحب في يومنا. سوف يكون ذلك أكثر جلباً للكوارث من «الطوفان» و«غروب الآلهة»، على أن الأمر قد يدوم فترة أقل».

وحدثني عن الصداقة والإيثار والأسف مع أنّه كان يزمع، شأن جميع المسافرين من نوعه، الرحيل في الغد لمدّة عدّة شهور كان ينبغي أن يقضيها في الريف وسوف يعود ثماني وأربعين ساعة فقط إلى باريس قبل أن يعود إلى المغرب (أو أيّ مكان آخر) ؛ ولكنّ الكلمات التي ألقى بها على هذا النحو في حرارة القلب التي كانت بي في ذلك المساء كانت تشب فيه أحلاماً عذبة. إن مقابلاتنا الانفرادية النادرة، وهذه على وجه الخصوص، قد خلفت مذ ذاك في ذاكرتي أثراً عميقاً. لقد كانت تلك في نظره وفي نظري على السواء أمسية الصداقة. بيد أن الصداقة التي كنت أحس بها في هذه اللحظة لم تكن (ولا أخلو من بعض تبكيت الضمير بسبب ذلك)، وهو ما كنت أخشاه، تلك التي ربما راقه أن يوحى بها إليّ. كنت أحسّ، ولا أزال يملؤني السرور الذي أصبته إذ رأيته يتقدّم خبباً ويبلغ الهدف برشاقة، كنت أحسّ أنّ ذلك السرور ناجم عن أن كلاً من الحركات المنفذة على امتداد الجدار وعلى المقعد كان يملك دلالته وسببه ربمّا في طبيعة «سان لو» الفردية، بل وأكثر من ذلك في الطبيعة التي ورثها عن جنسه عن طريق المولد والتنشئة.

فسلامة ذوق في نطاق السلوك لا الجمال تمكن الرجل الأنيق أن يدرك في الحال بمواجهة ظرف جديد- شأن موسيقي يطلب إليه عزف مقطوعة مجهولة- الشعور والحركة اللذين يتطلبهما وأن يوائم بينهما وبين الآلية والتقنية اللتين تناسبان أفضل ما يكون، ثم تسمح لهذا الذوق أن يعمل بمعزل عن ضغط أيّ اعتبار آخر ربما شلّ العديد من البورجوازيين الشباب مخافة أن يغدوا أضحوكة في نظر الآخرين بخروجهم على اللياقة وأن يبدوا مسرفين في التهذيب في نظر صديقهم في الآن نفسه، اعتبار كان يحلّ محلّه لدى «روبير» ازدراء لم يداخل بالتأكيد قلبه في يوم ولكنّما حلّ بالوراثة في جسده وكان قد طبع سلوك أسلافه بألفة يعتقدون أنّها لاتستطيع إلاّ أن تدغدغ مشاعر من توجه إليه وتفتنه «لمّ شهامة في سخاء لايضع في حسابه أيّ اعتبار لهذا العدد الكبير من الامتيازات المادية (فقد بلغ بفيض إنفاقه في هذا المطعم في النهاية أن جعل منه ههنا وفي أيّ مكان آخر على السواء الزبون الأكثر رواجاً والأكبر حظوة، وهي الحالة التي تبرزها العناية الفائقة التي تبديها له لا مجموعة الخدم فحسب بل سائر الشبيبة الأكثر شهرة) فيحمله على دوسها بالأقدام، شأن هذه المقاعد الأرجوانية التي تمّ دوسها فعلاً ورمزاً. وهي شبيهة بدرب فخم ما كان يروق صديقي إلاّ لتمكينه من المجيء إليّ بقسط أوفر من الرشاقة والسرعة ؛ تلكم كانت الصفات، وكلّها من جوهر الأرستقراطية، التي كانت تبرز من وراء هذا الجسم، لا الجسم الأغبش العاتم كما لعلّ جسمي كان، بل المعبّر الصافي مثلما تبرز من خلال

العمل الفنّي القدرة الحاذقة الفاعلة التي ابتدعته وتجعل حركات هذا الجري الرشيق الذي قام به «روبير» على طول الجدار بمثل وضوح وروعة حركات فرسان تمّ نقشهم على إفريز ولعلّ «روبير» فكّر قائلاً: «أكان من داعٍ، وآسفي، أن أكون قضيب شبابي في ازدراء كرم المتحد وفي تكريم العدل والفكر فحسب، وأن انتقي من خارج نطاق الأصدقاء الذين فرضوا عليّ رفاقاً قليلي اللباقة سيئي الملبس إن توافرت لهم البلاعة، كيما يكون الكائن الذي يظهر فيّ والذي يحفظون منه ذكرى غالية لا ذاك الذي صورته إرادتي بالجدّ والاستحقاق على شبهي بل كائن ليس من صنعي «ولا هو حتّى أنا وقد احتقرته دوماً وحاولت قهره؛ أكان من داعٍ أن أكون أحببت صديقي المفضل على نحو ما فعلت كيما تكون أعظم متعة يجدها فيّ أن يكتشف أمراً أكثر عمومية من ذاتي، متعة ليست على الإطلاق، حسبما يقوله وحسبما لا يستطيع بصدق أن يعتقده، متعة ناجمة عن الصداقة، بل متعة فكرية مجدة وضرب من متعة الفنّ؟» هذا ما أخشى اليوم أم يكون خطر لـ «سان لو» أحياناً. وقد أخطأ في هذه الحالة. فلو لم يحبّ، على نحو ما فعل، أمراً أكثر سمواً من مرونة جسمه الفطريّة، ولو لم يتجرّد فترة طويلة إلى هذا الحدّ عن استعلاء النبلاء لكان ثمة قدر أكبر من الاجتهاد والتثاقل في رشاقته نفسها وسوقية وافرة في مسلكه. ومثلما انبغى للسيّدة «دو فيلباريزيس» كثير من الجدية كي تولي في حديثها ومذكراتها شعوراً بالطيش، وهو فكريّ، كذلك كان لابدّ كيما يعمر جسم «سان لو» هذا القدر من الأرستقراطية أن تكون هذه الأخيرة قد هجرت فكره النازع إلى أغراض أسمى وأن تكون استقرت في جسمه، بعد ما غارت فيه، خطوطاً لا واعية ونبيلة. وبذلك لم تكن أناقته الفكرية غائبة عن أناقة جسمية لعلها لم تكن تامة لو غابت الأولى. فليس يحتاج فنان إلى التعبير عن فكره تعبيراً مباشراً في إنتاجه كيما يعكس هذا الانتاج جودته، بل أمكن أن يقال إن أرفع تسبيح لله كامن في نفي الملحد الذي يرى الخليقة على قدر من الكمال كاف لتكون في غنى عن خالق لها. وكنت أعلم كذلك تمام العلم أنني ما كنت أنظر باعجاب إلى محض عمل فني في هذا الفارس الشاب الذي ينشر على امتداد الجدار إفريز جريه. أفلم يكن الأمير الشاب (سليل «كاترين دو فوا» ملكة «نافار» وحفيدة شارل السابع) الذي فارقه منذ قليل لصالحي، والمكانة الناجمة عن المولد والثروة التي كان يحنيها أمامي، والأسلاف المتعالون المرنون الذين لم يبرحوا الثقة والرشاقة والتهذيب التي رتب بها منذ قليل حول جسمي المقرور المعطف الصوفي الناعم. ألم يكن كلّ ذلك بمثابة أصدقاء أعرق منّي في حياته ظننت أنّه لابدّ أن نظل من جرائهم منفصلين أبداً وكان على العكس يضحي لي بهم بخيار لايمكن أن نقوم به إلا في مرتفعات العقل وبتلك الحرية المطلقة التي كانت حركات «روبير» صورة لها والتي تتحقق فيها الصداقة الكاملة؟

وما لعلّ ألفة أمثال آل «غير مانت» كانت تكشف من عجرفة تافهة (بدلاً من الأناقة التي تتميز بها لدى «روبير» لأنّ الاستعلاء الوراثي لم يكن فيها سوى غطاء، أضحى ظرفاً لا واعياً، لانضاع خلقي حقيقي) إنما أمكنني أن أعيه، لا لدى السيد «دو شارلوس» الذي كانت عيوب طباعه، وقد اسأت فهمها حتّى ذاك، قد انضافت لديه إلى العادات الأرستقراطية، بل لدى الدوق «دو غير مانت». فقد كان يكشف بدوره، في المجمل العادي الذي سبق أن ساء إلى حدّ بعيد في عيني جدّتي حينما التقت به فيما مضى في منزل السيّدة «دو فيلباريزيس»، عن أجزاء من سموّ قديم أحسست بها عندما ذهبت لتناول طعام العشاء في منزله في غد الأمسية التي قضيتها برفقة «سان لو».

ولم تكن قد برزت لناظري لا لديه ولا لدى الدوقة، حينما رأيتهما بادئ الأمر لدى عمتهما، مثلما لم أبصر في اليوم الأوّل الفروق التي كانت تفصل بين «لابيرما» ورفاقها مع أن الخصائص لدى هذه الأخيرة أوقع في النفس بما لا يقاس ممّا هي لدى أرباب المجتمع بما أنّها تضحي أكثر بروزاً كلّما كانت الأشياء اكثر حقيقة وأسهل تصوراً بالعقل. ولكن مهما تكن الفروق الاجتماعية طفيفة (إلى حدّ تبدو معه المنتديات جميعها، عندما يودّ رسام صادق من أمثال «سانت بوف» أن يحدّد على التوالي الفروق التي وجدت بين منتدى السيّدة «جوفران» والسيّدة «ريكامييه» والسيدة «بوانيي»، متشابهة إلى حدّ أنّ الحقيقة الرئيسية التي تستخلص من دراسات المؤلف، على غير علم منه، قوامها «عدم» حياة المنتديات) فقد أمكنني مع ذلك، وبموجب السبب نفسه فيما يخص «لابيرما»، بعد ما أضحى آل «غير مانت» قليلي الأهمية في نظري ولم يعد خيالي يبخر قطرة غرابتهم، أمكنني التقاطها مهما دقّ حجمها.

ولمّا لم تكلمني الدوقة عن زوجها في أمسية عمتها فقد تساءلت في نطاق ما يسري من إشاعات طلاق إن كان سيحضر مأدبة العشاء. ولكن سرعان ما استقر رأيي، فقد رأيت بين صفوف الخدم الذين وقفوا في الردهة ولابدّ أنّهم (بما أنّهم لابدّ نظروا إليّ حتّى الآن مثل أولاد التجار تقريباً. يعني على نحو أكثر مودّة من سيّدهم، ولكن كمن لايمكن أن يستقبل في منزله) كانوا يبحثون عن سبب هذا الانقلاب، رأيت السيّد «دو غير مانت» ينسل، وكان يترقب وصولي ليستقبلني على عتبة الباب ويخلع بنفسه معطفي عنّي.

وقال لي بلهجة حاذقة في إقناعها: «السيّدة «دو غير مانت» ستكون في غاية السعادة. اسمح لي أن أخلصك من أحذامك (وكان يرى سذاجة وهزلاً على السواء في التحدّث بلغة العامة). لقد خشيت زوجتي بعض الشيء إحجاماً منك مع أنك سبق أن أعلنت عن يومك.كنّا نقول منذ هذا الصباح الواحد للآخر: «سوف ترى أنه لن يجيء». ولابدّ لي أن أقول إنّ السيّدة «دو غير مانت» كانت أصدق رؤية منّي. لست رجلاً يسهل استقدامه وكنت على يقين أنّك ستخلف الوعد».

كان الدوق زوجاً ديئاً بل شرساً فيما يقولون إلى حدّ أنّك كنت ممتناً له، مثلما تمتن للأشرار بلطفهم، بهذه الكلمات: «السيّدة دو غير مانت» التي كان يبدو وكأنه ينشر بها على الدوقة جناح الرعاية كي تؤلف وإياه شيئاً واحداً. بيد أنّه أخذ على نفسه وهو يمسك بيدي مسكة الألاف أن يرشدني إلى الصالات ويدخلني إليها. إن هذه العبارة أو تلك يمكن أن تروقك في فم فلاح إن أعربت عن تواتر تقليد محلي وعن بقايا حدث تاريخي ربما جهلها من يلمح إليها، كذلك فتنني لدى السيّد «دو غير مانت» هذا التهذيب الذي كان سيعرب لي عنه أثناء الأمسية كلّها وكأنه بقية عادات مضت عليها قرون عدة. عادات من القرن السابع عشر على وجه الخصوص. إن أقوام الأزمنة الغابرة يبدون لنا بعيدين عنّا بعداً لا حدود له. ولانجرؤ أن نفترض لهم مقاصد عميقة تتجاوز شكل ما يعبرون عنه.وإننا لنعجب حينما نصادف شعوراً لدى أحد أبطال هرميروس يماثل تقريباً ما نحس به أو خطة مخادعة حاذقة لدى هنيعل في أثناء معركة «كان» سمح فيها أن يخترق جناحه كي يطوق خصمه على حين غرة. لكأني بنا نتخيل هذا الشاعر الملحمي وهذا القائد بعيدين عنا بعد حيوان نشاهده في حديقة حيوان، بل إننا حين نجد لدى شخصيات من بلاط لويس الرابع عشر دلائل تأدب في رسائل سطروها لرجل من مرتبة أدنى ولايمكن أن يفيدهم في شيء فإنّها تخلف فينا الدهشة لأنّها تظهر لنا فجأة لدى

هؤلاء السادة العظام عالماً كاملاً من المعتقدات التي لايعبرون قطّ عنها تعبيراً مباشراً ولكنّها تحكمهم ولاسيما الاعتقاد الذي مفاده أنّه ينبغي بداعي التهذيب التظاهر ببعض المشاعر وممارسة بعض واجبات التودّد بأكبر قسط من الدقة.

وربما كان هذا البعد التخيلي في الماضي أحد الأسباب التي تسمح بأن ندرك أن يكون كتاب عظام قد وجدوا جمالاً عبقرياً في مؤلفات دجالين ضحلين من أمثال «أوسيان» وإننا لندهش أن يتأتى لشعراء قدامى أفكار عصرية دهشة تصل بنا حدّ الأفتتان إن نحن صادفنا، في ما نظنّه نشيداً «غائيلياً» قديماً، فكرة ما كنا لنراها لا بارعة لدى أحد المعاصرين. وما على مترجم موهوب إلا أن يضيف إلى مؤلف قديم بردّه بأمانة تقلّ أو تزيد مقطوعات قد تبدو لو ذيلت بتوقيع أحد المعاصرين أو نشرت على حدة ممتعة فحسب ؛ فاذا هو يضفي في الحال مهابة تهزّ المشاعر على شاعره الذي ينقل، وهذه حاله، أصابعه على مضارب قرون عدّة. وما كان هذا المترجم قادراً إلاّ على كتاب ضحل لو اتفق أن نشر هذا الكتاب بمثابة نتاج أصليّ له. فإن عدّ ترجمة بدا وكأنّه لرائعة فنية. ليس الماضي سريع الزوال، بل هو لايبرح مكانه. إن قوانين أقرّت دون استعجال يمكن أن تؤثّر في الحرب تأثيراً فعالاً لا على مدى شهور من بدايتها فحسب، وإنّ قاضياً ليستطيع أن يجد، لا خمسة عشر عاماً فحسب بعد جريمة ظلت غامضة، العناصر التي ستفيد في كشفها. وسيظل بامكان العالم الذي يدرس في منطقة بعيدة أسماء البلدان وعادات السكان أن يدرك فيها أسطورة سبق عهدها المسيحية بكثير وقد كانت غير مفهومة، إنّ لم نقل حتّى منسية، في عهد «هيرو دوتس» ولاتزال باقية في قلب الحاضر. من خلال التسمية المعطاة لإحدى الصخور، من خلال أحد الطقوس الدينية، وذلك بمثابة انبعاث أكثر كثافة ومغرق في القدم ومستقرّ. كان ثمة انبعاث آخر كذلك أقلّ قدماً بكثير، انبعثات من حياة البلاط إن لم يكن في تصرفات السيّد «دو غير مانت» العامية في كثير من الأحيان فعلى الأقلّ في الروح التي كانت توجهها. وكنت سأستمتع به مرة أخرى. وكأنما برائحة قديمة، حينما عدت فلقيته بعد قليل في الصالة. لأنني لم أذهب إليها في الحال.

وكنت قد قلت للسيّد «دو غير مانت» وأنا أغادر الردهة إنّي شديد الرغبة في مشاهدة ما يملك من لوحات «ايسلتير». «أنا رهن إشارتك، هل السيّد «إيلستير» من أصدقائك إذن؟ إنّي شديد الاغتمام أن لم أعلم أنّه يثير اهتمامك إلى هذا الحد، فإني أعرفه بعض الشيء، إنّه رجل لطيف وما كان يدعوه آباؤنا بالرجل النبيل، كان بامكاني أن أسأله التلطف بالمجيء وبدعوته للعشاء. ولعلّه كان بالتأكيد سيغتبط أشدّ الغبطة بقضاء الأمسية بصحبتك.» كان الدوق قليلاً مايبدو من طراز قديم حينما يجهد على هذا النحو في أن يكونه ثمّ يعود فيصبح من جديد كذلك دون أن يقصده. وبعدما سألني إن كنت أرغب في أن يريني تلك اللوحات اقتادني وهو يتنحى بلطف أمام كل باب ويعتذر حين يضطر أن يمر أمامي ليرشدني إلى الطريق. هذا المشهد الصغير الذي لابدّ أن آخرين عديدين من آل «غير مانت» (منذ الزمن الذي يروي فيه «سان سيمون» أنّ أحد جدود آل «غير مانت» قد رحبّ به في فندقه بصنوف الدقة نفسها في إتمام واجبات النبيل السطحية) قاموا به من أجل زائرين آخرين كثيرين قبل أن ينتقل إلينا. وبما أنني قلت لدوق إنّه سوف يسرني أن ألبث وحدي فترة أمام اللوحات فقد انسحب دون ضجة وهو يقول إنّه لم يبق عليّ سوى أن أمضي للحاق به في الصالة.

إلاّ أنني ما أن لبثت وحدي مع لوحات «إيلستير» حتّى نسيت تماماً ساعة العشاء. كان أمامي من جديد، شأن الحال في «بالبيك»، نتف من هذا العالم ذي الألوان المجهولة الذي لايعدو أن يكون إسقاط الرؤية الخاصة بهذا الرسام الكبير والذي لا تترجمه أقواله على الإطلاق. كانت أجزاء الجدار المغطّاة بلوحات بريشته، وكلها متجانسة فيما بينها، كانت كأنما الصور المضيئة لفانوس سحري نفترض أنّه في الحالة الراهنة رأس الفنان وأنّه ما كان يمكن أن نخمن غرابتها مادمنا لم نقم بأكثر من معرفة الرجل، يعني مادمنا لم نقم بأكثر من رؤية الفانوس الذي يغطي المصابيح قبل أن يتمّ وضع أيّة زجاجة ملوّنة. ومن بين تلك اللوحات عدد من تلك التي كانت تبدو من أكثرها سخفاً في نظر أرباب المجتمع وكان يثير اهتمامي أكثر من الأخريات من حيث أنّه يعيد صورة تلك الأوهام البصرية التي تثبت لنا أننا قد لا نتعرف الأشياء إن لم نلجأ إلى المحاكمة العقلية. فكم مرة اكتشفنا فيها ونحن في عربة جادة طويلة مضيئة تبدأ على بضعة أمتار منّا في حين ليس أمامنا سوى جانب من حائط شديد الإضاءة خلف فيناً وهم العمق! أفليس من المنطق إذ ذاك. لا من باب الخدعة الرمزيّة بل من باب الرجوع الصادق إلى جذر الانطباع نفسه، أن نمثل أمراً بالأمر الآخر الذي ظننّاه هو في بارق الوهم الأوّل؟ إن المساحات والأحجام مستقلة في الواقع عن أسماء الأشياء التي تفرضها ذاكرتنا عليها بعد ما تعرفناها. كان «إيلستير» يحاول أن ينتزع مما يحس به ما كان يعرفه وغالباً ما كان يقوم جهده في حل ركام المحاكمات العقلية هذه التي نسميها الرؤية.

كان أولئك الذين يمقتون هذه «القباحات» يدهشون أن يعجب «ايلستير» بـ«شاردان» و«بيرونو» وكثير من الرسامين الذين يحبونهم هم، أرباب المجتمع. وما كانوا يتبينون أن «إيلستير» قد عاد فبذل لحسابه الخاصّ أمام الواقع الجهد نفسه الذي بذله أمثال «شاردان» أو «بيرونو» (بالإضافة إلى العلامة الخاصّة الدالة على ميله إلى بعض التقصيات) وأنّه كان يعجب لديهم نتيجة لذلك. حينما يتوقف عن العمل لنفسه، بمحاولات من ذات القبيل، بما يشبه أجزاء مسبقة لأعمال له. ولكن أرباب المجتمع ما كانوا يضيفون بالفكر إلى أعمال «ايلستير» منظور الزمن هذا الذي كان يسمح لهم بأن يحبوا رسم «شاردان» أو «أن ينظروا إليه على الأقل دون حرج بيد أنّه كان يمكن أن يقول أكبرهم سناً في أنفسهم أنّهم شاهدوا في غضون حياتهم المسافة الشاسعة القائمة بين ما كانوا يحكمون أنّه رائعة فنية لـ«آنغر» وما يظنون أنّه لابدّ باقٍ «قباحةً» إلى الأبد (كلوحة الـ«أوليمبيا» لـ«مانيه» مثلاً) تتناقص كلما باعدت السنون بينهم وبينها، إلى حدّ تبدو معه اللوحتان وكأنهما توأمان، ولكنّ المرء لايفيد من أيّ درس لأنّه لايحسن الانحدار إلى العام وأنّه يتصوّر على الدوام أنّه أمام تجربة لاسابقة لها في الماضي.

وقد أثّر في نفسي أن ألقى في لوحتين (وهما أكثر واقعية ومن طريقة سابقة) الرجل نفسه، مرة باللباس الرسمي في صالته، وأخرى بالسترة والقبعة العالية المستديرة في احتفال شعبي على حافة الماء لايعنيه بالبداهه شيء فيه ويقيم البرهان على أنّه لم يكن في نظر «ايلستير» جليساً غادياً فحسب بل صديقاً وربما نصيراً كان يحب أن يكون موجوداً في لوحاته، شأن «كاربا تشيو» بالأمس وبعض الأسياد المشهورين في البندقية—والشبة تام بينهم—؛ كذلك «بيتهوفن» كان يجد متعة في تسجيل اسم الأرشيدوق «رودولف» المحبوب في مستهل عمل فنّي مفضل. كان ذلك الاحتفال على حافة الماء يتسم بشيء من السحر. فالنهر وفساطين النساء وأشرعة القوارب والإنعكاسات التي لاتحصى لهذه وتلك كانت تتجاور وسط مربع الرسم هذا الذي اقتطعه «ايلستير»

من ساعة عصر رائعة. وما كان يفتنك في فسطان امرأة كفت لحظة عن الرقص بسبب الحر وفقد الأنفاس كان يتلألأ كذلك وبالطريقة نفسها في قماش شراع ساكن وفي مياه المرفأ الصغير والجسر الخشبي الصغير وأوراق الشجر والسماء. ومثلما كان المشفى، وهو في مثل جمال الكاتدرائية نفسها تحت سمائه الزمرّدية، مثلما كان يبدو، وهو أكثر جرأة من «إيلستير» المنظر، من «إيلستير» الذواقة و عاشق العصر الوسيط، وكأنه ينشد: «ليس ثمة من طراز قوطي، ليس من رائعة فنية، إن المشفى الذي لا طراز له يساوي البوابة المجيدة»، كذلك كان يطرق أذني: «إن المرأة العادية إلى حدّ ما التي يتجنب هاو في نزهة أن ينظر إليها، ويستثنيها من اللوحة الشاعرية التي تؤلفها الطبيعة أمامه، هذه المرأة جميلة بدورها وينعم فسطانها بالضياء نفسه الذي ينعم به شراع المركب، وليس ثمة أشياء أكثر ثمناً أو أقل فالفسطان العادي والشراع الجميل في حدّ ذاته مرآتان لانعكاسة الضياء نفسها. القيمة كلّها تكمن في نظرات الرسام». وإن هذا الأخير قد أفلح في أن يوقف ويخلد حركة الساعات في هذه اللحظة المنيرة التي اشتد فيها الحر بالسيدة فتوقفت عن الرقص، والتي كانت الشجرة محاطة فيها بهالة عاتمة والأشرعة تبدو وكأنها تنزلق فيها على طلاء من ذهب. ولكن هذه اللوحة المثبتة إلى أبعد حدّ كانت تورثنا بالضبط، لأنّ اللحظة كانت تضغط علينا أعظم الضغط، الانطباع الأكثر زوالاً ويوافينا شعور بأن السيدة تزمع أن تعود عمّا قليل أدراجها، والمراكب أن تختفي والظلّ أن يبدّل مكانه والليل أن يحلّ وأن المتعة تنتهي والحياة تنقضي وأنّ اللحظات التي تبرزها في الآن نفسه كثرة من الأضواء تتجاور فيها لاتستعاد. كنت أتعرّف كذلك وجهاً مختلفاً تماماً بالحقيقة لما هي عليه «اللحظة» في بضع لوحات مائية ذات موضوعات ميثولوجية تعود إلى بدايات «إيلستير» وكانت هذه الصالة مزينة بها أيضاً. كان أرباب المجتمع «المتطورون» يذهبون«حتّى» هذه الطريقة ولكن لا إلى أبعد من ذلك. وما كان ذلك بالتأكيد خير ما فعل «إيلستير»، ولكن الصدق الذي عولج به الموضوع كان يقلل مذ ذاك من جفافه. من ذلك مثلاً أن ربات الشعر كانت ممثلة مثلما قد يتم تمثيل كائنات تنتمي إلى نوع مستحاثي ولكنّما قد لا يندر أن تراها في العصور الميثولوجية تمرّ في المساء مثنى أو ثلاث على امتداد درب جبليّ. وأحياناً كان شاعر من سلالة تنفرد كذلك بشخصية خاصة في نظر عالم الحيوان (وتتسم بشيء من اللاجنس) يتنزه برفقة إحدى ربات الشعر مثلما في الطبيعة مخلوقات من أجناس مختلفة ولكنّها صديقة ويمضي بعضها برفقة بعض. وكنت ترى في إحدى هذه اللوحات المائية شاعراً خائر القوى من جرّاء نزهة طويلة في الجبل يحمله رجل ثور التقاه، فهزه تعبه، على ظهره ويرجعه، وفي أكثر من واحدة أخرى كان يتم رد المنظر المترامي الأطراف، (حيث يشغل المشهد الأساطيري والأبطال الخرافيون مطرحاً صغير جداً ويخيل إليك أنهم ضائعون)، من القمم إلى البحر، بدقة تزوّدك بأكثر من الساعة، تزودك حتى بدقيقة الحدث بفضل الدرجة المحدّدة لانحدار الشمس وصدق الظلال العابر. وإنّما يزوّد الفنّان بذلك رمز الأسطورة، إذ يضفي الآنية عليه، بضرب من الواقع التاريخي المعاش ويصوره ويرويه في الماضي المحدد.

وفيما كنت أتأمل لوحات «إيلستير» كانت رنات جرس المدعوين الوافدين تطنّ غير منقطعة وتهدهدني برفق. ولكن الصمت الذي أعقبها والذي كان يخيم منذ فترة طويلة أيقظني في النهاية - بسرعة أقلّ بالحقيقة - من أحلامي، مثلما الصمت الذي يعقب موسيقى «ليندور» يوقظ «بارتولو» من نومه. وخشيت أن يكونوا قد نسوني وأنهم يجلسون إلى المائدة ومضيت مسرعاً إلى الصالة. وألفيت على باب حجرة لوحات «إيلستير» خادماً

ينتظر، وهو عجوز أو «مبوّدور» الشعر، لست أدري، وله مظهر وزير اسباني ولكنه يعرب لي عن الإجلال نفسه الذي ربما أبداه في حضرة أحد الملوك. وأحسست في هيئته أنّه ربما انتظرني ساعة بعد وفكرت بهلع في التأخير الذي ألحقته بالعشاء ولاسيما أنني وعدت بالحضور في الحادية عشرة إلى منزل السيّد «دو شارلوس» وقادني الوزير الإسباني (ناهيك أنّي التقيت في طريقي الخادم الخاص الذي يضايقه البواب والذي قال لي، وقد تألق من السعادة حينما سألته عن أخبار خطيبته، إن الغد كان بالضبط يوم خروجها وإياه وإنّه يمكنه قضاء النهار كله برفقتها وأشاد بفضل السيّدة الدوقة) إلى الصالة حيث كنت أخشى أن أجد السيّد «دو غير مانت» معكر المزاج. فاستقبلني على العكس بفرح مصطنع جزئياً بالطبع أملاه التهذيب، ولكنه صادق من ناحية أخرى، أوحت به على السواء معدته التي جوّعها مثل هذا التأخير والشعور بنفاد صبر مماثل لدى جميع المدعوين الذين كانوا يملؤون الصالة تماماً. وقد علمت بالفعل فيما بعد أنّهم انتظروني حوالي ثلاثة أرباع الساعة، وليس من شك بأن الدوق «دو غير مانت» قد ظنّ بأنّ تمديد العذاب العام دقيقتين لن يزيد منه وأن التهذيب، وقد دفعه إلى تأخير لحظة الجلوس إلى المائدة، قد يضحي أكثر اكتمالاً إن هو أفلح في إقناعي، إذ لا يأمر بتقديم العشاء في الحال، أنّني لم أكن متأخراً وأنّهم لم ينتظروا من أجلي. وقد سألني، وكأنما لاتزال لدينا ساعة قبل العشاء وأنّ بعض مدعويه لم يحضروا بعد، كيف كنت أرى لوحات «إيلستير». ولكنّه أخذ في الوقت نفسه يقوم بالتعريف تؤازره الدوقة في ذلك، كي لايضيع ثانية إضافية ودون أن يظهر اعتلاجات معدته. ولاحظت حينذاك فقط أنّه قد تمّ للتو من حولي، من حولي أنا الذي حتّى هذا اليوم – باستثناء الدورة التدريبية في صالة السيّدة «سوان»– قد عوّد في منزل والدته في «كومبريه» وباريس التصرفات الحانية أو المتمنعة لبورجوازيات متبرمات كنّ يعاملنني معاملة الطفل، تبدلاً في المظهر الخارجي شبيهاً بذاك الذي يجيء فجأة بـ«بارسيفال» وسط الفتيات الأزاهير. فاللواتي كن يحطن بي عاريات الكتفين تماماً (كانت بشرتهن المورّدة تبرز من جانبي غصن ميموزا متعرج أو تحت بتلات وردة عريضة) لم يقرئنني السلام إلا وهن يرمقنني بنظرات طويلة متحببة كما لو حال الخفر وحده دون أن يعانقنني. وليس يقلل ذلك من أنّ الكثيرات كنّ فاضلات جداً على صعيد الأخلاق، الكثيرات لا كلّهن، إذ أن أكثرهن عفة ما كن يبدين إزاء من كنّ طائشات ذاك النفور الذي ربما أحست به والدتي. فقد كانت نزوات المسلك التي تنكرها صديقات فاضلات على الرغم من جلاء الأمر، كانت تبدو في دنيا آل «غيرمانت» وكأنها أقلّ أهمية بكثير من العلاقات التي أفلح المرء في الحفاظ عليها. كانوا يتظاهرون بأنّهم يجهلون أنّ جسد واحدة من سيدات البيوت كان نهب من يشاء بشرط أن تكون «الصالة» قد لبثت لامساس بها.

ولمّا كان الدوق قليل التحرج إلى حدّ بعيد مع مدعويه (الذين لم يظلّ له منذ زمن بعيد ما يطلعه عنهم ويطلعهم عليه)، ولكنّه كثير التحرج معي أنا الذي كان نوع تفوقه. وهو مجهول لديه، يبعث في صدره نوع الاحترام نفسه الذي يبعثه الوزراء البورجوازيون في صدور السادة الكبار في بلاط لويس الرابع عشر، فقد كان يرى بالطبع أن أمر الجهل بمدعويه لا أهمية له على الإطلاق، إن لم يكن في نظرهم فعلى الأقل في نظري. وفيما كنت أهتم بسببه بالأثر الذي سأخلفه في نفوسهم كان يهتم فحسب بالأثر الذي سيخلفونه في نفسي.

وقد وقع بادئ الأمر على أية حال اختلاط طفيف مزدوج، ففي اللحظة نفسها التي دخلت فيها إلى الصالة اصطحبني السيّد «دو غير مانت» دون أن يدع لي حتّى متسعاً من الوقت لتحية الدوقة، إلى سيّدة على

شيء من قصر القامة وكأنما ليوفر مفاجأة سارة لتلك المرأة التي بدا وكأنه يقول لها: «هوذا صديقك: ترين، إنّي أجيئك به بعظم رقبته» ذلك أنّ تلك السيّدة لم تكن قد كفت، قبل أن أصل أمامها، يدفعني الدوق، بوقت طويل، عن أن توجّه إليّ فيض البسمات المقتضى الذي نوجهه إلى أحد المعارف القدامى الذي ربما لايتعرفنا، وذلك بعينيها السوداوين الوديعتين الواسعتين. ولما كانت تلك حالي بالضبط وأنني ما كنت أفلح في تذكر من تكون فقد كنت أشيح بعيني فيما أتقدم كي لايقع عليّ أن أجيب إلى أن يكون التعارف قد خلصني من ورطتي.

وقد ظلت السيّدة في تلك الأثناء توالي الاحتفاظ في توازن غير مستقر بابتسامتها الموجهة إليّ. وكانت تبدو وكأنها في عجلة من أمرها للتخلص منها وأن أقول أخيراً: «آه! ياسيدتي، ذلك ما أعتقده بالتمام. وكم سيسعد والدتي أن عدنا فالتقينا!»وكنت أبدي من نفاد الصبر لمعرفة اسمها بقدر ماتبدي لملاحظة أنّني أسلم عليها سلام العارف بالأمر تماماً وأن ابتسامتها، التي تطاولت تطاول «صول» مرفوعة ، يمكن أن تتوقف أخيراً. ولكنّ السيّد «دو غير مانت» لم يحسن التصرف، في نظري على الأقل، إلى حد بدا لي معه أنّه لم يسم غيري وأنني لا أزال غير عارف بالمجهولة الزائفة التي لم يتبادر إليها أن تذكر اسمها لفرط ما تبدو لها دواعي الفتنا، وهي غامضة لديّ، واضحة فلم تمد إليّ يدها حالما أصبحت بالقرب منها بل أخذت يدي أخذ الألآف وكلمتني بمثل اللهجة التي تكلمني بها لو كنت على مثل احاطتها بالذكريات الطيبة التي كانت تعود بالفكر إليها. وقالت لي إلى أي حدّ سيأسف «ألبير»، الذي أدركت أنّه ابنها، أن لم يسعه المجيء. وبحثت بين رفاقي القدامى من عساه يدعى «ألبير» فلم أجد غير «بلوك»، بيد أنه ما كان يمكن أن تكون تلك الماثلة أمامي السيّدة «بلوك» الوالدة بما أن هذه الأخيرة قد توفيت منذ سنوات طويلة. وعبثاً كنت أجهد في استشفاف هذا الماضي المشترك بيني وبينها والذي كانت تعود بالفكر إليه. ولكني ما كنت أبصره عبر السبج الشفاف في الحدقتين الوادعتين الواسعتين اللتين لا تسمحان بغير مرور الابتسامة أفضل مما نميز منظراً واقعاً خلف زجاج أسود وإن ألهبته الشمس. وسألتني إن كان والدي لايفرط في التعب وإن كنت لا أودّ الذهاب في يوم إلى المسرح برفقة «ألبير» وإن كنت أقل مرضاً، ولما لم تصبح إجاباتي، وهي تترنّح في عتمة الفكر التي كنت فيها، واضحة إلا لأقول إنّي لم أكن على مايرام في ذلك المساء، دفعت إليّ بنفسها كرسياً وهي تبذل جهوداً لاتحصى لم يعودني قطّ عليها أصدقاء والديّ الآخرون وأخيراً زودني الدوق بكلمة اللغز، فهمس في أذني التي قرعتها هذه الكلمات كما لو لم تكن مجهولة لديها، همس قائلاً: «إنّها تجدك ظريفاً» وكانت تلك التي سبق أن قالتها لنا السيّدة «دو فيلباريزيس» لي ولجدّتي عندما تعرفنا بأميرة «لوكسمبور» حينئذ أدركت كلّ شيء، فالسيّدة الحالية لايربطها بالسيّدة «دو لو كسمبور» رباط ولكنني ميزت صنف الطريدة لدى سماع من كان يقدمها لي. لقد كانت صاحبة سمّو. لم تكن تعرف أسرتي ولاتعرفني بدوري ولكنّها كانت ترغب، وهي تنحدر من أكرم سلالة وتملك أعظم ثروة في العالم (إذ هي ابنة الأمير «دوبارما» وقد تزوجت ابن عم هو الآخر من سلالة أمراء) ، كانت ترغب في امتنانها للخالق أن تعرب للقريب أنّها لاتحتقره مهما كان فقير المحتد أو متواضعه. وكان بوسع الابتسامات، والحق يقال، أن تكشف لي الأمر، فقد سبق أن رأيت أميرة «لوكسمبور» تبتاع شطائر خبز الشيلم على الشاطئ كي تقدم منها لجدتي وكأنما لأيلة في «حديقة الأقلمة». ولكنها لم تكن سوى ثاني أميرة من أسرة مالكة يتم تعريفها بي وكان يمكن التماس العذر لي لأنني لم

أستخلص الميزات العامة في تلطف الكبار. أفلم يكلفوا أنفسهم على أي حال عناء تنبيهي إلى الأ أبالغ في الاتكال على ذاك التلطف بما أن الدوقة «دو غير مانت» التي سبق أن حيتني كثيراً بيدها في مسرح الأوبرا الهازلة بدا أنّها حانقة من أن أحييها في الشارع شأن الذين يحسبون أنهم، بعدما أعطوا أحدهم ليرة ذهبية، قد أدوّا ما عليهم إزاءه إلى الأبد. أمّا السيّد «دو شارلوس» فقد كانت محاسنه ومساوئه أبرز تناقضاً. وقد عرفت أخيراً، كما سترى، صاحبات سمو وصاحبات جلالة من نوع آخر، من ملكات يمثلن دور الملكة ويتكلمن لا وفق عادات أبناء سلالتهن بل كما تفعل الملكات في مسرح «ساردو».

ولئن لجأ السيّد «دو غير مانت» إلى هذا الاستعجال في التعريف بي فلأنه لايمكن احتمال أن يكون في اجتماع شخص مجهول لدى صاحبة سمّو ملكية ولايمكن أن يدوم الأمر ثانية واحدة.كان ذلك هو الاستعجال نفسه الذي أبداه «سان لو» في طلب تعريف جدّتي به. كان الدوق والدوقة «دو غير مانت» يعتبران على أية حال، من جرّاء بقية موروثة من حياة البلاط تدعي التهذيب الاجتماعي وليست سطحية ولكنّما السطح فيها هو الذي يضحي، من جرّاء انقلاب من الخارج إلى الداخل جوهرياً وعميقاً، كانا يعتبران بمثابة واجب جوهري أكثر من تلك المتعلقة بالإحسان والعفة والشفقة والعدل، وهي في الغالب لايكترث بها على الأقل في نظر أحدهما، ذلك الواجب الأكثر صرامة وقوامه ألا تتحدث إلى أميرة «بارما» إلا بضمير الغائب.

ولئن كنت لم أذهب البتة بعد في حياتي إلى «بارما» (الأمر الذي كنت أتوق إليه منذ عطلة فصح بعيدة)، فإن معرفة أميرتها التي كانت تملك فيما أعلم أجمل قصر في تلك المدينة الفريدة حيث كان لابد أن يكون كل شيء متجانساً على أيّة حال إذ هي معزولة عن بقية العالم بين الجدران المصقولة وفي الجوّ الخانق كحاله في أمسية صيف لاهواء فيها على ساحة مدينة إيطالية صغيرة، جو اسمها الكثيف المفرط في عذوبته، إن تلك المعرفة كان ينبغي أن تحل فجأة محل ما كنت أحاول تمثله ما كان موجوداً بالحقيقة في «بارما»، وبضرب من الوصول الجزئي ودون أن أكون برحت مكاني. كان ذلك في جبر الرحلة إلى مدينة «جورجونه» بمثابة معادلة أولى بذاك المجهول. على أنّي إن كنت منذ سنوات قد أشبعت اسم أميرة «بارما» بعطر ألوف من زهر البنفسج– شأن ما يفعل عطار بكتلة متساوية من مادّة دسمة – فقد بدأت بالمقابل، ما أن رأيت الأميرة التي لعلني كنت متيقناً حتّى ذاك أنّها الـ«صانصفرينا» (*) على الأقل عملية ثانية لم تكتمل والحق يقال إلاّ بعد انقضاء ببضعة شهور على ذلك وقامت بواسطة جبلات كيماوية جديدة على طرد كل الزيوت الأساسية من زهر البنفسج وكلّ فوح «ستاندالي» من اسم الأميرة وأدخلت مكانها صورة امرأة قصيرة سوداء تشغلها المبرات ذات لطف عظيم الانضاع حتّى لتدرك في الحال في أيّ كبر واعتزاز اتخذ هذا اللطف منشأه. لقد كانت على أية حال، وهي شبيهة مع بعض الفوارق البسيطة بالأخريات من كبار السيّدات، قليلة الاتسام بـ«الستاندالية» قلة شارع «بارما» في حيّ أوروبا في باريس مثلاً الذي هو أقل شبهاً باسم «بارما» منه بجميع الشوارع المجاورة وأقل تذكيراً بدير الرهبان الذي يموت فيه «فابريس» منه بصالة «الخطى الضائعة» في محطة «سان لازار».

(*) من بطلات رواية ستاندال الشهيرة «محبس بارما»..

كان لطفها ناجماً عن سببين ؛ أحدهما، وهو عام، التربية التي توافرت لابنة الملوك هذه. فقد رسخت والدتها (ولم تكن ترتبط بعلاقة مصاهرة بجميع الأسر الملكية في أوروبا فحسب بل كانت، على نقيض الأسرة الدوقية في «بارما» أوفر ثراء من أيّة أميرة مالكة أخرى)، رسخت في نفسها، منذ نعومة أظفارها، تعاليم سنوبية انجيلية مستكبرة في اتضاعها. كان كل ملمح في وجه الفتاة، كانت استدارة كتفيها وحركات ذراعيها تبدو وكأنها تقول: «تذكري أنّه ينبغي لك، إن سمح الله بأن تولدي على سلالم العرش، ألا تستغلي ذلك لاحتقار أولئك الذين شاءت العناية الإلهية (سبحانها)! أن تفوقيهم مولداً وثروات. كوني على العكس رفيقة بالصغار لقد كان جدودك أمراء «كليف» و«جولييه» منذ عام ٦٤٨ ؛ وقد شاء الله في طيبته أن تملكي جميع أسهم قناة السويس تقريباً وثلاثة أمثال «أدمون دوروتشليد» في الشركة الهولندية الملكية، وأثبت علماء الأنساب خطّ بنوّتك المباشر منذ عام ٦٣ من العهد المسيحي، ولديك امبراطورتان بين شقيقات زوجك. فلا يبدون عليك البتة إذن وأنت تتحدثين أنّك تذكرين مثل هذه الامتيازات العظيمة، لا لأنّها صائرة إلى زوال (إذ لايمكن أن تغير شيئاً في قدم الأصل وسنظل أبداً بحاجة إلى البترول) ولكنّما لايجدي أن تعلني أنّك أفضل مولد من أيّ إنسان وأن توظيفاتك من الطراز الأوّل بما أنّ الجميع يعرفون ذلك. هبي إلى مساعدة المساكين، وزوّدي جميع الذين منت عليك الألطاف السماوية بوضعهم في مرتبة أدنى منك بما يمكن أن تعطيهم إيّاه دون أن تخطي من مقامك، وأعني مساعدات مالية وحتّى عناية تمريضية، ولكن دون دعوات إلى أمسياتك بالطبع، فالأمر قد لايعود عليهم بأي خير بل هو يقلص من فعالية أعمالك الخيرية فيما يقلل من مهابتك».

كانت الأميرة تحاول لذلك، حتّى في الفترات التي لاتستطيع فيها فعل الخير، أن تظهر أو بالأحرى أن توهم بجميع العلامات الخارجية التي تميز اللغة الصامتة أنّها لاتظنّ نفسها أرفع من الذين تعيش بينهم. كانت تبدي لكل منهم هذا التهذيب الرائع الذي يبديه أناس حسنو التربية لمن هم أدنى منهم مرتبة وتدفع في كل لحظة، كيما تؤدي خدمة ما، كرسيها من أجل أن توسع المكان وتحمل قفازيّ وتقدم لي كلّ هذه الخدمات الي لاتليق بالبورجوازيات المستكبرات والتي تؤديها بملء الخاطر الملكات أو يفعل بالغريزة ومن جراء عادة مهنية قدامى الخدم.

أما السبب الآخر لما أبدت لي الأميرة «دو بارما» من لطف فأكثر خصوصية ولكنّما لايمليه على الإطلاق ودّ خفيّ تكنه لي. ولكن الوقت لم يتسع لي لتعميق هذا السبب الثاني في تلك اللحظة. فقد دفعني الدوق مذ ذاك، وكان يبدو على عجلة من أمره لاتمام التعريف بي، إلى واحدة أخرى من الفتيات الأزاهير وإذ سمعت اسمها قلت لها إنّه سبق أن مررت أمام قصرها في مكان غير بعيد عن «بالبيك» فقالت: «آه! كم كان يسعدني أن أريك إيّاه»، قالت بصوت يكاد يكون خافتاً كأنما لتبدو أكثر اتضاعاً ولكنّما بلهجة صادقة التعبير مشبعة بالأسف لفرصة مفقودة في متعة فريدة وأضافت بنظرة موحية: «آمل أنّ كلّ شيء لم ينقض. ولابد أن أقول إن ما كان استهواك أكثر منه فقصر عمتي «برانكاس» فقد بناه «ما نصار» وهو درة الأقليم». ولعلّها ما كانت وحدها لتسعد بأن تريني قصرها، فتلك حال عمتها «برانكاس» التي ربما لم تكن لتهزّها نشوة أقل للترحيب بي في قصرها، فيما أكّدت لي هذه السيّدة التي كانت تحسب بالطبع أنّه لابدّ أن يحافظ الكبار، ولاسيما في زمن تميل فيه الأرض إلى الانتقال إلى أيدي رجال مال لايحسنون العيش، على التقاليد العريقة في ضيافة علية القوم بأقوال لاتلزم صاحبها في شيء أضف أنّها كانت تحاول، شأن جميع الناس في

وسطها، أن تقول من الأمور ما يمكن أن يدخل أعظم السرور في نفس من تحدثه وأن توليه أرفع فكرة عن ذاته وأن يعتقد أنه يروق من يكتب إليهم ويشرف مستضيفيه ويتحرق الناس إلى معرفته. وإنّ ابتغاء ايلاء الآخرين هذه الفكرة المفرحة عن ذواتهم موجودة أحياناً والحق يقال حتّى في صفوف البورجوازية. فانّك تصادف فيها هذه النزعة الخيرة، وذلك بمنزلة ميزة فردية تعرض عن عيب ما، لالدى أكثر من تثق بهم من الأصدقاء للأسف بل لدى أكثر من يروقك من الرفيقات على الأقل. وهي تزدهر على أية حال على نحو افرادي. أما لدى قسم هام من الأرستقراطية فقد كفت هذه الميزة في الطباع على العكس عن كونها فردية، وأضحت، وقد نمتها التربية وتعهدتها فكرة عظمة خاصة لايمكن أن تخشى التحقير ولا تعرف منافساً لها وتعلم أنها تستطيع بالوداعة أن تسعد البعض ويطيب لها أن تفعل، الطابع المميزّ لطبقة معينة، حتّى أولئك الذين تحول معايب شخصية مفرطة التناقض دون أن يحفظوها في قلوبهم يحملون أثرها اللاواعي في كلماتهم أو حركات أيديهم.

وقال لي السيّد «دو غير مانت» «عن الأميرة» «دو بارما»: «إنّها امرأة طيبة جداً وتعرف كيف تكون «سيّدة كبيرة» كما لايستطيع غيرها».

وفيما كان يتم تعريفي بالنساء كان ثمة رجل يطلق أمارات اضطراب كثيرة: وكان الكونت «هانيبال دو بريوتيه كونسالفي». فقد وصل متأخراً فلم يتسع له الوقت للاستعلام عن المدعوين وحينما دخلت إلى الصالة وإذ أبصر فيّ مدعواً لم يكن في عداد مجتمع الدوقة وكان لابد بالتالي أن يمتلك ألقاباً خارقة تماماً كي ينفذ إليه فقد وضع نظارته تحت قوس حاجبيه المستدير وفي اعتقاده أنّها ستعينه على تمييز نوع الرجل الذي كنته أكثر منه على رؤيتي كان يعلم أنّ السيّدة «دو غير مانت» تملك، والأمر امتياز ثمين للنساء المتفوقات حقاً، ما يدعى بـ«الصالة»، يعني أنّها تضيف أحياناً إلى جماعة محيطها رجلاً مرموقاً أبرزه منذ قليل اكتشاف دواء أو انتاج رائعة فنية. كان حي «سان جيرمان» لايزال تحت تأثير معرفته أنّ الدوقة لم تخش أن تدعو السيّد «دو تاي» إلى حفل الاستقبال على شرف ملك إنكلترا وملكتها. وكانت متظرفات «الحيّ» يسلين بصعوبة أنهن لم يدعين لشدّة ما لعلهّن كنّ استحلين الاقتراب من تلك العبقرية الغريبة. وكانت السيّدة «كورفوازييه» تدعي أنّ السيّد «ريبو» كان أيضاً حاضراً ولكنه كان اختلافاً معداً للحمل على الظنّ بأنّ «أوريان» كانت تحاول أن يتمّ تعيين زوجها سفيراً ثمّ إنّ السيّد «دو غير مانت»، زيادة في الفضيحة، كان قد ذهب إلى قاعة استراحة مسرح «الكوميدي فرانسيز» ورجا الآنسة «رايشنبرغ» بتأدب يليق بالمشير «دو ساكس» أن تجيء وتنشد الشعر أمام الملك، الأمر الذي تمّ وألف واقعة لا سابقة لها في حوليات اللقاءات المجتمعية. ولدى تذكر هذا القدر من اللامتوقع الذي كان يقره على أي حال تماماً. وعلى قدر ما كان السيّد «دو بريوتيه» نفسه زينة لأيّ صالة وتكريساً لها على نحوما كانت الدوقة «دو غير مانت» ولكن في فئة الذكور، أخذ يحسّ، وهو يسائل نفسه من كان يمكن أن أكون، بحقل فسيح جداً ينفتح أمام تحرياته. ومرّ اسم السيّد «ويدور» لحظة في خاطره ولكنّه حكم أنّي فتيّ جداً كيما أكون عازف أرغن وأن السيّد «ويدور» هيّن الشخصية إلى حدّ بعيد كيما يتّم استقباله. وبدا له أكثر احتمالاً أن يبصر فيّ فحسب الملحق الجديد في مفوضيّة السويد الذي سبق أن حدّثوه عنه، وأخذ يعدّ العدة ليسألني أخبار الملك «أوسكار» الذي استقبله أحسن استقبال مرّات عديدة. ولكن عندما قال الدوق اسمي للسيّد «دو بريوتيه» بغية التعريف بي وإذ رأى هذا الأخير أن الإسم مجهول لديه تماماً لم

يشك مذ ذاك بعد أنني لوجودي هناك من بعض المشاهير. ولم تكن «أوريان» بالتأكيد تفعل غير ذلك وهي تتقن فنّ اجتذاب الرجال المرموقين إلى صالتها بمعدّل واحد إلى مئة بالطبع وإلاّ لكانت سبقته. وشرع السيّد «دو بريوتيه» إذن يمرّر لسانه على شفتيه و«يشمشم» بأنفه النهم، وقد أهاج شهيته لا العشاء الطبيب الذي هو على يقين من الحصول عليه، بل طابع الاجتماع الذي لايمكن إلاّ أن يضفي عليه وجودي إثارة وسوف يوفر له موضوع حديث مثير في الغد أثناء غداء دوق «شارتر» ولم يكن بعد قد قرّ رأية على النقطة التي مفادها أن يعلم إن كنت أنا ذاك الذي جاؤوا على تجريب مصله ضدّ السرطان أو على اعتماد نصة للتمثيلية الجديدة في المسرح الفرنسيّ، ولكنه لم يكن يتوقف، وهو مثقف كبير وهاوٍ كبير «لقصص الأسفار»، عن مضاعفة الإنحناءات أمامي وعلامات التفاهم والابتسامات التي تسربها نظارته، إما انطلاقاً من الفكرة الزائفة القائلة بأن أيّ إنسان ذي شأن سوف يزيد من تقديره له إن هو أفلح في أن يدخل في روعه الوهم بأن امتيازات الفكر ليست في نظره، هو الكونت «دو بريوتيه كونسالفي»، أقلّ جدارة بالاحترام من امتيازات المولد، وإمّا لمحض حاجة إلى التعبير عن رضاه وصعوبة في التعبير عنه في جهله للغة التي ينبغي أن يحدّثني بها، كما لو اتفق له، باختصار القول، أن يكون في حضرة واحد من السكان الأصليين في أرض مجهولة وصل إليها طوفه ويحاول، أملاً في الربح، وفيما يلاحظ باستغراب عاداتهم ودون أن يوقف تظاهرات الصداقة أو يغفل عن إطلاق صيحات عالية مثلهم، أن يبادل ببيض نعامة وتوابل مصنوعات زجاجية صغيرة. وبعد أن استجبت جهد المستطاع لابتهاجه، شددت على يد الدوق «دو شاتيلرو» الذي سبق أن لقيته لدى السيّدة «دو فيلباريزيس» التي قال لي عنها إنّها داهية. كان من آل «غير مانت» إلى حدّ بعيد بشقرة الشعر وعقفة الأنف في منظره الجانبي والنقاط التي يمتقع فيها جلد الخدّ وكلّ ما تبصره العين مذ ذاك في رسوم هذه الأسرة التي خلفها لنا القرنان السادس عشر والسابع عشر. ولمّا لم أعد أحب الدوقة فإن عودتها في جسد شاب كانت خالية من أيّ جاذب في نظري وكنت أقرأ العقفة التي يشكلها أنف الدوق «دو شاتيلرو» بمثابة توقيع رسام درسته فترة طويلة ولكنّه لم يعد يهمني على الإطلاق ثمّ حييت كذلك الأميرة «دوفوا». وتركت سلامياتي لتعس حظها تدخل في الملزمة، ولاتبرحها إلاّ مرضوضة، والملزمة التي تؤلفها مصافحة على الطريقة الألمانية ترافقها ابتسامة ساخرة أو ساذجة يجود بها الأمير «دو فافنهايم» صديق السيّد «دو نوربوا» والذي كان يدعى، من جرّاء هوس الألقاب الذي يميزّ هذا الوسط، الأمير «فون» وذلك على نطاق شامل إلى حدّ أنّه أخذ يوقع بدوره «الأمير فون» أو «فون» إن هو راسل الألاّف والاختصار هنا تدركه عند اللزوم بسبب طول الإسم المركب ولكنّك أقل تبيناً للأسباب التي كانت تحمل على استبدال «اليزابيت» بـ«ليلي» طوراً وتراة بـ«بيبيت» مثلما تكثر في وسط آخر أسماء «كيكيم» وإنك لتدرك أنّ جماعة ربما اختاروا «كيو» كي لايضيعوا وقتهم بقولهم «مونتسكيو» مع أنّهم قليلو المشاغل ومستهترون بعامة. ولكنّك أقلّ تبيناً لما كانوا يكسبونه في تسمية أحد أبناء عمّهم «دينان» بدلاً من «فيردينان» وينبغي ألاّ نعتقد على أيّة حال أنّ آل«غير مانت» كانوا يلجؤون دوماً في إطلاق الأسماء إلى ترداد أحد المقاطع. فمن ذلك أنّ شقيقتين هما الكونتيسة «دو مونبيرو» والفيكونتيسة «دو فيلودر»، وكلتاهما على بدانة هائلة، لم تسمعا قطّ من يناديهما بغير «صغيرة» و«ظريفة» دون أن تغضبا لذلك أقلّ الغضب ودون أن يخطر لأحد أن يبتسم للأمر لفرط قدم العادة. ولعل السيّدة «دو غير مانت» التي كانت تعشق السيّدة «دو مونبيرو»، لعلّها لو أصيبت هذه الأخيرة إصابة خطيرة، سألت أختها دامعة العين: «يقولون إنّ «صغيرة» في أسوأ حال». أمّا السيّدة «دو ليكلان» التي كان تصفف شعرها شرائط تحجب أذنيها كلياً فما

كانوا يدعونها قط بغير «البطن الخاوي» ويكتفون أحياناً باضافة «ة» مربوطة إلى كنية الزوج أو اسمه للدلالة على الزوجة. ولما كان اسم الرجل الأشدّ بخلاً والأكثر خسة والأكثر قسوة في الحيّ «رافائيل» فإن فاتنته وزهرته التي نبتت كذلك في الصخر كانت توقع دوماً باسم «رافائيله» على أن تلك نماذج لقواعد لاتحصى يمكننا دوماً، إن سنحت الفرصة، أن نشرح بعضاً منها.

وسألت الدوق بعد ذلك أن يقدّمني للأمير «داغر بجانت»، فصاح السيّد «دو غير مانت» قائلاً: «عجباً، ألا تعرف هذا الصرار الرائع»، وذكر اسمي للسيّد «داغر بجانت». وقد سبق أن بدا لي اسم هذا الأخير على الدوام، وكثيراً ما ذكرته «فرانسواز» بمثابة زجاج شفاف كنت أبصر تحته المكعبات الوردية لمدينة قديمة تسقط فوقها على شاطئ البحر البنفسجي الأشعة المائلة لشمس ذهبية، وما كنت أشكّ أن الأمير –وقد مرّ في باريس بأعجوبة خاطفة– هو نفسه سلطانها الحقيقي الواضح إلى حدّ بعيد في طابعه الصقلي والذي اكتسى بالأمجاد. ولكنّ الخنفس التافه الذي عرفوني إليه والذي دار على نفسه ليسلّم عليّ بوقاحة متثاقلة يظنّها متأنقة كان بعيداً عن اسمه بعده عن عمل فني ربما حازه دون أن يحمل في نفسه أيّ انعكاس منه ودون أن يكون ربما نظر إليه في يوم. كان الأمير «داغر بجانت» خلواً تماماً من أي طابع أميريّ ويمكن أن يذكر بـ«أغريجانت» إلى حدّ تفترض معه أن اسمه، وهو مختلف أتمّ الاختلاف عنه ولايربطه بشخصه رباط، كان بمقدوره أن يجتذب إليه كلّ ما أمكن أن يكون ثمة من غامض الشعر لدى هذا الرجل، كما هي الحال لدى سواه، وأن يسجنه بعد هذه العملية داخل المقاطع المسحورة. ولئن تمت هذه العملية فقد أنجزت في جميع الأحوال على أحسن وجه إذ لم يظل ذرة واحدة من سحر يمكن استخلاصها من قريب آل «غيرمانت» هذا، حتى اتفق له أن يكون في الآن نفسه الرجل الوحيد في العالم الذي كان أمير «أغريجانت» وربّما أقل رجل في العالم يمكن أن يكونه. وقد أسعده جداً على أية حال أن يكونه، ولكن على نحو ما يسعد صاحب مصرف لأن يملك أسهماً كثيرة في منجم دون أن يهتّم من ناحية أخرى إن كان هذا المنجم يتفق وجمال أسماء منجم «إيفانهو» ومنجم «بريمروز» أو إن كان يدعى منجم «الأول» فحسب. وفي تلك الأثناء وفيما كانت تنجز أدوار التعريف الطويلة جداً إما رويتها ولكنّها لم تدم، وقد تمّ البدء بها منذ دخولي إلى الصالة، سوى بضع لحظات، وفيما كانت السيّدة «دو غير مانت» تقول بلهجة التوسل تقريباً: «إنّي متيقنة من أنّ «بازان» يتعبك باصطحابك على هذا النحو من هذا إلى ذاك، نحن نريد أن تعرف أصدقاءنا ولكنّنا نريد على وجه الخصوص ألاّ نتعبك كيما تعود مرّات كثيرة»، أشار الدوق بحركة غير حاذقة إلى حدّ ما ومتهيبة إلى أنّهم يستطيعون تقديم الطعام (الأمر الذي ودّ لو قام به منذ ساعة عبثت فيما يخصني بتأمل لوحات «ايلستير»).

وينبغي أن نضيف بأن أحد المدعوّين لم يكن حاضراً، وهو السيّد «دو غروشي» التي جاءت زوجته، وقد ولدت لآل «غير مانت». وحدها من جانبها، إذ يصل الزوج مباشرة من الصيد حيث قضى النهار. وكان السيّد «دو غروشي» هذا، وهو سليل «غروشي» في زمن الأمبراطورية الأولى الذي قيل زوراً إنّ غيابه في أوّل «واترلو» كان السبب الرئيسي لهزيمة نابليون، ينحدر من أسرة ممتازة ولكنّها غير كافية مع ذلك في نظر بعض المولعين بأمور النبلاء. من ذلك أنّ الأمير «دو غير مانت» الذي كان يزمع أن يكون بعد ذلك بسنوات كثيرة أقل تشدّداً فيما يخصة قد تعود أن يقول لبنات أخيه: «يالمصيبة السيّدة «دو غيرمانت» المسكينة هذه «وهي الفيكونتيسة «دو غيرمانت» والدة السيّدة «دو غروشي») أنها لم تستطع قطّ تزويج بناتها!».

– «ولكنّ البكر ياعمّي تزوجت السيّد «دو غروشي» .– لا أسمّي هذا زوجاً! على أنّهم يزعمون أنّ العم «فرنسوا» قد طلب الصغرى، الأمر الذي من شأنه ألا يكن كلهن قد لبثن بنات» .

وما أن صدر الأمر بتقديم الطعام حتّى انفتحت أبواب قاعة الطعام على مصراعيها في صرّة دائرية واسعة متعدّدة متواقتة. وانحنى رئيس خدم يبدو وكأنّه رئيس تشريفات أمام الأميرة «دو بارما» وأعلن الخبر: «طعام سيّدتي جاهز» «بلهجة شبيهة بتلك التي ربما قال بها: «سيّدتي تصارع الموت» ولكنّها لن تثر أي غمّ في الجماعة إذ تقدّم الأزواج بهيئة مرحة، وكما هو الصيف في «روبنسون، الواحد تلو الآخر إلى قاعة الطعام ينفصلون حينما يبلغون أماكنهم حيث يدفع خدم من الخلف مقعدهم. وتقدمت السيّدة «دو غير مانت» آخر المطاف صوبي كيما أصحبها إلى المائدة ودون أن يداخلني أي خجل كان يمكن أن أخشى منه، فقد دارت، فعلة الصيّادة التي أولت المهارة العضلية الكبيرة رشاقتها سهولة، وإذ أبصرتُ دون شكّ أنّني وقفت في الجانب الذي لاينبغي لي الوقوف فيه، دارت من حولي بقدر من الدقة ألقيت معه ذراعها على ذراعي ووجدتني أنغمس انغماساً طبيعياً في إيقاع حركات دقيقة ونبيلة. وانصعت لها بيسر تزايد بقدر ما كان آل «غير مانت» لا يولونها أهمية أكثر مما يولي المعرفة عالم حقيقي أنت في حضرته أقل تهيباً مما في حضرة جاهل. وانفتحت أبواب أخرى دخل منها الحساء الذي يتصاعد بخاره وكأنما أقيم العشاء في مسرح دمى أُعِدّ بمهارة وحرّك فيه وصول المدعو الشاب المتأخرّ جميع الأجهزة باشارة من القائم عليها.

وإنما كانت وجلة، لا عظيمة في جلالها. إشارةُ الدوق تلك التي استجاب لها انطلاق هذه المجموعة الآلية والبشرية الفسيحة المبتكرة الطيعّة الفخمة. ولم تضرّ حيرة الحركة في نظري بأثر المشهد الذي كان يرتبط بها. فقد كنت أحسّ بأنّ ماجعلها متردّدة مربكّة إنّما الخشية من أن أبصر أنّهم ما كانوا ينتظرون سواي للعشاء وأنّهم انتظروني فترة طويلة، مثلما كانت تخشي السيّدة «دو غير مانت» أن يرهقوني بعد ما شاهدت الكثير من اللوحات ويحولوا دون أن أرتاح بالتعريف بي على نحو مستمرّ. إلى حدّ أنّ غياب العظمة في الحركة هو الذي كان يبرز العظمة الحقيقيّة، لامبالاة الدوق تلك يبذخه الخاصّ ومراعاته على العكس لضيف غير ذي شأن في حدّ ذاته ولكنّه يودّ تكريمه.

وليس يعني ذلك أنّ السيّد «دو غير مانت» لم يكن عادياً جداً في بعض الجوانب ولم يبْدُ حتّى مهازل رجل مفرط الثراء واستعلاء وصوليٌ لم يكنْه. مثلما يصر الموظّف أو الكاهن موهبتهما الضحلة تتضاعف إلى ما لانهاية من جرّاء تلك القوى التي يستندان إليها. ونعني الإدارة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية، (كما الموجة من جرّاء كامل البحر الذي يتدافع خلفها) كذلك كان السيّد «دو غير مانت» تدفعه تلك القوّة الأخرى، أي التهذيب الأرستقراطيّ الأكثر صدقاً. ولكن هذا التهذيب يستبعد الكثير من الناس. فما كانت السيّدة «دو غير مانت» لتستقبل السيّدة «دو كامبرمير» أو السيّد «دو فورشفيل». فإن بدا أحدهم، وتلك كانت حالي، وكأنّما يمكن ضمّه إلى وسط آل «غير مانت» كشف ذاك التهذيب كنوزاً من بساطة الضيافة أكثر روعة بعد، إن أمكن ذلك، من تلك الصالات العتيقة وذلك الأثاث الرائع الذي لم يبرح مكانه.

وهكذا كان السيّد «دو غير مانت» يملك، إن شاء إشاعة السرور في صدر أحدهم، فنّاً يُحسن الإفادة من الظرف والمكان كي يجعل منه في ذلك اليوم الشخصية الأساسية. ولعلّ صنوف أناقته وظرفه كانت اتّخذت

في «غير مانت» دونما شكّ صيغة أخرى. فربّما أمر أن تسرج الخيول كي يصطحبني وأقوم وحدي بنزهة معه قبل العشاء.. كنت تحسّ أن سلوكه، بالشكل الذي هو عليه، كان يؤثّر فيك مثلما تؤثّر فيك، وأنت تقرأ ذكريات من العصر الغابر، ذكريات لويس الرابع عشر حينما يجيب بلطف وبلهجة ضاحكة وبنصف انحناءة واحداً جاء يلتمسه. على أنّه ينبغي أن ندرك في كلا الحالتين أن ذاك التهذيب ما كان يتجاوز حدود دلالة هذه اللفظة.

ولويس الرابع عشر (الذي ينعى عليه المولعون بطبقة النبلاء في عصره مع ذلك قليل اهتمامه باللياقة إلى حدّ أنّه لم يكن، فيما يقول «سان سيمون»، سوى ملك هيّن جداً من حيث المنزلة إذا ماقيس بـ«فيليب دو فالوا» و«شارل الخامس»، إلخ) يأمر بصياغة أكثر التعليمات دقّة كي يعلم أمراء الأسرة المالكة والسفراء أيّ ملوك ينبغي لهم أن يقدّموهم عليهم. وإزاء استحالة الوصول إلى وفاق في بعض الحالات يفضل الاتفاق على أنّ مولاي ابن لويس الرابع عشر لن يستقبل هذا العاهل الأجنبيّ أو ذاك في منزله إلاّ خارجاً وفي الهواء الطلق كي لايقال إنّ أحدهما قد سبق الآخر وهو يدخل إلى القصر. أمّا والي مقاطعة البالاتينا فيتظاهر، في استقبال الدوق «دو شوفروز»، كي لايدع له أن يتقدّمه، بأنّه مريض ويتناول عشاءه معه ولكنّه يفعل في سريره، الأمر الذي يحسم الصعوبة. وإذ يتجنب الدوق فرص تأدية خدمة «لسيادته» فإنّ هذا الأخير يتّخذ، بناء على مشورة الملك أخيه الذي يحبّه حباً رقيقاً، ذريعة ليحمل ابن عمّه على الحضور ساعة استيقاظه وأن يلبسه قميصه. ولكن حالما يدور الأمر حول عاطفة عميقة، حول أمور القلب، فإن الواجب الذي لايلين مادام الأمر يتعلق بالتهذيب إنّما يتغيّر تغيراً كلياً. فبعد بضع ساعات من وفاة الشقيق هذا، وهو أحد أكثر من أحبّ من الناس، وحين لايزال «سيادته»، حسب تعبير الدوق «دومونفور» «ساخناً بعد تماماً»، يغنّي لويس الرابع عشر ألحاناً أوبرالية ويدهش أن تبدو الدوقة «دو بورغونيي» التي تلاقي عنتاً في إخفاء ألمها حزينة إلى هذا الحدّ وإذ ينبغي أن يعود المرح ثانية في الحال وكيما يقرّر رجال البلاط العودة إلى اللعب فإنّه يأمر الدوق «دو بورغونيي» أن يباشر لعبة ورق سريعة. والحقيقة أنّك كنت تلقى التناقض نفسه، لا في أعمال السيّد «دو غير مانت» المجتمعيّة والمركّزة فحسب، بل في كلامه الأقلّ تعمداً وفي مشاغله وفي برنامج عمله: فما كان آل «غير مانت» يحسّون بغموم أكثر من باقي الفانين، ويمكن حتّى أن نقول إنّ حساسيّتهم الحقيقية كانت أقلّ. ولكنّك كنت تبصر بالمقابل اسمهم في كل يوم في باب أخبار المجتمع من صحيفة «الغالي» بسبب العدد الهائل من المآتم التي ربّما ألفوا أنفسهم مذنبين إن لم يسجلوا اسمهم فيها. ومثلما يلقى المسافر البيوت المغطّاة بالتراب والسطوح التي أمكن أن يعرفها «كزينوفون» أو القديس بولس، كذلك كنت ألقى في سلوك السيّد «دو غير مانت»، وهو رجل يهزّ باللطف مشاعرك ويثير بالقسوة اشمئزازك، وهو عبد لأصغر الالتزامات ومتحلّل من أقدس المواثيق، ذاك الانحراف الخاصّ بحياة البلاط في عهد لويس الرابع عشر، ولايزال على حاله بعد انقضاء أكثر من قرنين، الانحراف الذي ينقل وساوس الضمير من نطاق مشاعر الودّ والأخلاقية إلى مسائل شكلية بحتة.

أمّا السبب الآخر للطف الذي أبدته لي أميرة «بارما» فأكثر خصوصية. ذلك أنّها كانت توقن سلفاً أنّ كلّ ماتراه لدى الدوقة «دو غير مانت» من أشياء وأشخاص كان من نوعية أرفع من كلّ ما تملك لديها. كانت تتصرّف، والحقّ يقال، لدى جميع الناس الآخرين وكأن الأمر على هذه الشاكلة. فما كانت تكتفي، إزاء الطبق الأكثر بساطة والأزهار العاديّة كأكثر ما تكون، بالافتتان، بل كانت تستأذن في أن ترسل منذ الغد

في طلب الوصفة أو تأمر بتحرّي النوعية على يد طبّاخها أو بستانيّها الأول، وهما من ذوي الرواتب الضخمة وممن يملكون عربتهم الخاصة ولهم على وجه الخصوص ادّعاءاتهم المهنيّة، فكانا يجدان إذلالاً كبيراً في المجيء للاستعلام عن طبق مزدرى أو تقليد صنف من زهر القرنفل لم يكن على مثل نصف الجمال ونصف تعدد الألوان ونصف الحجم- قياساً على أحجام الأزهار- الذي بلغته الأزهار التي حصلوا عليها منذ فترة طويلة لدى الأميرة. ولئن كانت هذه الدهشة التي تعتري هذه الأخيرة لدى جميع الناس إزاء أقلّ الأمور، لئن كانت مصطنعة ترمي إلى إبراز أنّها لاتستمد من سمّو منزلتها ومن ثرواتها استعلاء يحظره مربّوها القدامى وتخفيه والدتها ولايطيق الله احتماله، فقد كانت في مقابل ذلك تنظر بكامل الصدق إلى صالة الدوقة «دو غير مانت» على أنّها مكان مفضل لاتستطيع أن تنتقل فيه إلاّ من مفاجأة إلى نشوة. لقد كان آل «غير مانت» على نحو عام على أيّة حال، ولكنّه قد لايكون البتّة كافياً لشرح هذه الحالة الذهنية، مختلفين إلى حدّ ما عن باقي المجتمع الأرستقراطي فقد كانوا أكثر تأنقاً وأكثر ندرة. لقد خلفّوا لديّ للوهلة الأولى الانطباع المعاكس، فقد سبق أن وجدتهم عاميّين يشبهون جميع الرجال وجميع النساء، ولكنّما ذلك لأنني رأيت مسبقاً فيهم أسماء كما رأيت في «بالبيك» و«فلورانسه» و«بارما». وفي هذه الصالة بالطبع كانت جميع النساء، اللواتي سبق لي أن تخيلتهن بمثابة تماثيل صغيرة، أكثر شبهاً مع ذلك بالكثرة الكاثرة من النساء. بيد أن آل «غير مانت»، شأنهم شأن «بالبيك» أو «فلورانسه»، كانوا يستطيعون، بعد ما خيبوا الخيال لما يشبهون أمثالهم أكثر من اسمهم، كانوا يستطيعون فيما بعد أن يزودوا العقل وإن بدرجة أقلّ ببعض الخصائص التي كانت تميزهم، فتكوينهم الجسماني ولون بشرتهم وهو من وردّي خاصّ يبلغ أحياناً حدّ البنفسجيّ وشقرة تكاد تكون منوّرة لشعر ناعم، حتّى لدى الرجال، يتراكم خصلاً مذهبة حلوة نصفها من الأشنة الجدارية والنصف من فروسنّوري (والبريق المضيء كان يقابله تألق في الذكاء، فلئن قيل لون عائلة «غيرمانت» وشعرهم فقد كانوا يقولون كذلك ظرف آل«غيرمانت» مثلما يقولون ظرف آل «مورتمار»)، وسمة اجتماعية أكثر رقة -منذ ما قبل لويس الرابع عشر- يزيد من إقرار الجميع بها أنّهم كانوا يعلنون عنها بأنفسهم، كلّ ذلك كان يؤدّي إلى أن يظلّ آل «غير مانت» في مادة المجتمع الأرستقراطي ذاتها، مهما غلت ثمناً، والتي تجدهم ينغرسون فيها ههنا وهناك، أن يظلّوا يسيري التعرّف سهلي التمييز والمتابعة شأن العروق التي تخطط شقرتها حجارة اليشب والعقيق أو بالأحرى شأن التموّج المرن لشعور الضياء هذه التي تجري أعرافها المشعثّة كأشعة طيعة في زوايا العقيق الرغويّ.

ولم يكن آل «غير مانت» - على الأقل من كانوا أهلاً لهذا الاسم- يتميزّون بنوعية بديعة من بشرة وشعور ونظرة صافية فحسب بل كانت لهم طريقة في الوقفة والمشية والتحية والنظرة قبل المصافحة، وكانوا بذلك مختلفين في مجموع هذه الأمور عن أيّ رجل من أرباب المجتمع اختلاف هذا الأخير عن مزارع بصدرية. كان المرء يقول في قرارة نفسه، على الرغم من لطفهم: أليس لهم بالحقيقة أن يفكّروا، مع أنهم يكتمون الأمر، حينما يبصروننا نمشي ونحيي ونخرج، كلّ هذه الأمور التي إمّا أنجزوها أصبحت بمثل رشاقة طيران السنونوة أو انحناءه الوردة: «إنّهم من سلالة غير سلالتنا وإنّنا، نحن، أمراء البسيطة» ؟ لقد أدركت فيما بعد أنّ آل«غير مانت» كانوا يظنونني بالفعل من سلالة أخرى، ولكنّما من سلالة تثير حسدهم لأنّني أملك مزايا كنت أجهلها وكانوا يجاهرون بأنّهم يعدّونهم وحدها مهمة. وشعرت فيما بعد كذلك أنّ هذه المجاهرة لم

تكن إلاّ نصف صادقة وأنّ الاستخفاف أو الدهشة يتعايشان لديهم والإعجاب والحسد. لقد كانت المرونة الجسمية المميزة لآل«غير مانت» مزدوجة، فبفضل الأولى، وهي دائمة النشاط، كان أحد آل «غير مانت» الذكور يحصل في كل لحظة، إن ذهب مثلاً لتحية سيّدة، على صورة لذاته يؤلفها التوازن اللا مستقرّ لحركات غير متناظرة ومستعاضة على نحو عصبيّ، فساق تجرّر قليلاً إمّا عمداً وإمّا لأنّها سبق أن كسرت كثيراً في الصيد فأخذت تتخلف في الجذع، للحاق بالساق الأخرى، انحرافاً يوازنه ارتفاع أحد الكتفين. فيما النظّارة الوحيدة تتمركز في العين وترفع حاجباً في الوقت الذي تنحدر فيه خصلة الشعر للتحية ؛ أمّا المرونة الثانية فكانت، على غرار شكل الموجة أو الريح أو الأخدود البحريّ الذي تحتفظ أبداً به المحارة أو المركب، قد اختصرت، إن جاز القول، في ضرب من الحركية المثبتة تقوّس الأنف المعقوف الذي كان يذكّر، تحت العينين الزرقاوين البارزتين وفوق شفتين رقتا بافراط ومنهما ينطلق لدى النساء صوت أجشّ، كان يذكّر بالمنشأ الأسطوري الذي خصّ به كرّم علماء أنساب طفيليين من دارسي اليونانية في القرن السادس عشر هذا العرق العتيق دونما شكّ ولكن ليس إلى الحدّ الذي كانوا يدّعونه حينما يردّون منشأة إلى الإخصاب الأسطوري الذي وقع بين طائر إلهيّ وحوريّة.

ولم يكن آل «غير مانت» أقلّ تفرّداً على الصعيد الفكريّ منهم على الصعيد الجسميّ. فباستثناء الأمير «جيلبير»، زوج «ماري جيلبير» ذي الأفكار البالية والذي كان يجلس زوجته، حينما يتنزّهان في عربتهم، عن يساره لأنّها أدنى منه مولداً، مع أنّ المولد ملكّي (ولكنّه كان يشذّ عن القاعدة ويؤلفّ في غيابه موضوع تهكم الأسرة ونوادر دائمة الجدّة)، كان آل «غير مانت» يتظاهرون بأنّهم لايقيمون أيّ وزن لطبقة النبلاء، مع أنّهم يعيشون في صلب النخبة المختارة من الأرستقراطية. وكانت نظريات الدوقة «دو غير مانت»، التي أضحت، والحق يقال، لفرط ماتبدي من مزايا آل «غير مانت»، أضحت إلى حدّ ما أمراً مغايراً وأشدّ إمتاعاً، تضع الذكاء فوق كلّ شيء وكانت في حقل السياسة اشتراكية إلى حدّ يتساءل المرء معه أين كان يختبىء في فندقها «العبقر» المكلف بالحفاظ على الحياة الأرستقراطية والذي كان، وهو متوارٍ أبداً عن الأبصار ولكنّه قابع بالطبع في الردهة تارة وفي الصالة أخرى وطوراً في حجرة الملابس، كان يذكّر خدّام هذه المرأة التي لاتؤمن بالألقاب بأن يقولوا لها «سيّدتي الدوقة»، وهذه الأمرأة التي لاتحبّ غير القراءة ولايهزّها الحياء البشري بأن تذهب للعشاء لدى شقيقة زوجها حينما تدقّ الثامنة وبأن تكشف لذلك عن عنقها وكتفيها.

وعبقرية الأسرة نفسها كانت تظهر للسيّدة «دو غير مانت» حالة الدوقات، الأوليات من بينهنّ على الأقلّ وصاحبات الملايين العديدة مثلها، والتضحية في سبيل حفلات شاي مملّة وأعشية في المدينة وحفلات راقصة بساعات ربّما أمكن أن تقرأ فيها أشياء مسليّة على أنّها ضرورات مزعجة شبيهة بالمطر تقبل بها السيّدة «دو غير مانت» وهي تعمل فيها قريحتها الساخرة ولكن دون أن يبلغ بها أن تبحث عن أسباب قبولها. وهذه الصدفة الغريبة التي قوامها أن يقول دوماً رئيس خدم السيّدة «دو غير مانت»: «سيّدتي الدوقة» لهذه المرأة التي لا تؤمن بغير العقل لم تكن تبدو وكأنّها تصدمها. فلم تفكّر في يوم أن ترجوه أن يقول لها «سيّدتي» فحسب. وربّما أمكن أن نظنّ، إن ذهبنا بسلامة الطويّة إلى أقصى حدودها، أنّها كانت تسمع، وهي شاردة، «سيّدتي» فحسب وأنّ الزائدة الكلامية الملحقة بها لم تكن تبلغ مسمعها. على أنّها لم تكن خرساء إن هي تظاهرت بالصمم. ففي كلّ مرّة تبغي أن تبلّغ زوجها رسالة كانت تقول لرئيس الخدم: «ذكّر السيّد الدوق...»

وكان لعبقرية الأسرة على أيّ حال مشاغل أخرى كأن تحمل على حديث الأخلاق. كان ثمة بالتأكيد «غرمانتيون» أذكياء على الأخص و«غرمانتيون» أخلاقيّون على الأخصّ، وما كانوا بالعادة الأفراد ذاتهم. ولكنّ أولئك- بمن فيهم من سبق من آل «غير مانت» أن زيف وكان يغشّ في اللعب وكان أروعهم جميعاً ومنفتحاً على جميع الأفكار الجديدة والصائبة – كانو يبحثون في الأخلاق أفضل من هؤلاء وبطريقة السيّدة «دو فيلباريزيس» ذاتها في الفترات التي كانت عبقرية الأسرة تتكلّم فيها بلسان السيّدة العجوز. لقد كنت ترى آل «غير مانت» يتخذون فجأة في لحظات متماثلة لهجة في مثل تقادم وسذاجة لهجة المركيزة تقريباً، بل وأكثر تأثيراً منها بسبب درجة من الفتنة أعظم لديهم، ليقولوا عن إحدى الخادمات: «نحسّ أنّ لها أساساً طيّباً، أنّها فتاة غير عادية ولابدّ أنّها ابنة ملاح وقد ظلتّ أبداً بالتأكيد في الصراط المستقيم». في تلك الفترات كانت عبقرية الأسرة تستحيل نبرة. ولكنّها كانت أحياناً كذلك طريقة وهيئة في الوجه هي واحدة لدى الدوقة ولدى جدّها المشير وهي ضرب من التقبض اللا مدرّك الشبيه بتقبضّ الحيّة، وهي العبقرية القرطاجية لاسرة «برقا»، والتي أصابني منها مرّات عديدة خفقان في القلب في نزهاتي الصباحية حينما كنت أحسنّي، قبل أن أكون تعرّفت السيّدة «دو غير مانت»، تنظر إليّ من أقصى محلّ ألبان صغير. وقد تدخلت هذه العبقرية في ظرف ما كان أبعده أن يجيء غير ذي بال لا في نظر آل «غير مانت» فحسب، بل في نظر آل «كورفوازييه» كذلك وهم القسم المناوئ من الأسرة ونقيضهم تماماً مع أنّهم يساوون آل «غير مانت» طيب محتد (فقد بلغ بآل «غير مانت» أن يفسّروا تقصّد الأمير «دو غير مانت» في التحدّث أبداً عن كرم المولد وطبقة الأشراف، وكأنما ذلك الشيء الوحيد ذو الأهمية، بجدتّه التي من آل «كورفوازييه»). فماكان آل «كورفوازييه» لايولون الذكاء المرتبة نفسها التي يوليه إيّاها آل «غير مانت» فحسب، بل كانوا لايحملون عنه الفكرة نفسها. فأن تكون ذكياً في نظر واحد من آل «غير مانت» (وإن يك غبياً) فانّما أن تكون هجّاءً قاسياً على التفوّه بأقوال مسيئة وأن تغنم الغنائم وأن تستطيع كذلك الصمود في موضوع الرسم والموسيقى وهندسة العمارة على حدّ سواء وأن تتكلّم الإنكليزية. أمّا آل «كورفوازييه» فكانوا يحملون عن الذكاء فكرة أقلّ إيجابية وما كان ببعيد، لأقلّ مالا تكون عن عالمهم. أن يعني الذكاء لهم «أن تكون على الأرجح قد قتلت أباك وأمّك». لقد كان الذكاء في نظرهم ضرباً من العتلة المسطحة التي يقتحم بها أناس لاتعرفهم من حوّاء أو آدم أبواب أكثر الصالات تقديراً وكانوا يعملون لدى آل «كورفوازييه» أنّك تكتوي دوماً في آخر الأمر لأنك استقبلت مثل هذه «الأصناف». كان آل «كورفوازييه» يقابلون أقل التوكيدات شأناً على لسان أناس أذكياء ليسوا من أرباب المجتمع بارتياب لايتبدلّ. فقد قال أحدهم ذات مرّة: «ولكنّ «سوان» أصغر سناً من «بالاميد». فأجابت السيّدة «دو غالاردون» قائلة: «إنه يقول لك ذلك على الأقلّ، وإن يقل ذلك فتيقّن أنّه إنّما يلقى مصلحته في ذلك». بل أكثر من ذلك، فقد سألت السيّدة «دو غالاردون»، فيما كانوا يقولون بشأن أجنبيتن بالغتيّ الأناقة كان آل «غير مانت» يستقبلونهما إنّهم جعلوا هذه تمرّ بادئ الأمر بما أنّها الكبرى، سألت قائلة: «ولكن أتراها حتّى هي الكبرى؟»، لا على نحو إيجابيّ كما لو لم يكن لهذا الصنف من الناس عمر، بل كما لو كانتا، وهما تفتقران على الأرجح إلى سجلّ مدنيّ ودينّي وإلى تقاليد أكيدة. أكبر أو أصغر سناً شأن القطط الصغيرة الموجودة في السلّة نفسها والتي لايستطيع غير الطبيب البيطريّ أن يتعرّف سبيله بينها. كان آل «كورفوازييه» بمعنى أو بآخر يحافظون أفضل من آل «غير مانت» على أيّة حال على صفاء طبقة النبلاء بفضل ضيق عقلهم وخبث فؤادهم في آن معاً. ومثلما كان آل «غير مانت» (الذين كان كلّ شيء أدنى من الأسر الملكية وبعض

الأسر الأخرى كأسرة «لينيي» و«لاتريمواي»، إلخ، يختلط في نظرهم في غمامة من الناس القليلي الشأن) وقحين مع أناس من سلالة عريقة كانوا يقطنون حول «غير مانت» لأنهم بالضبط ما كانوا يصرفون انتباههم إلى مزايا النسق الثاني هذه التي كان يهتّم لها آل «كورفوازييه» أعظم الاهتمام، فإن غياب هذه المزايا كان قليل الأهمية في نظرهم. فقد كانت بعض النساء اللواتي لايشغلن منزلة رفيعة جداً في إقليمهن ولكنّهن زوجنّ ألمع الأزواج، وهن غنيات جميلات تحبهّن الدوقات، يشكلن في نظر باريس حيث الناس قليلو الإحاطة بأمر «الأب والأمّ» سلعة مستوردة ممتازة وأنيقة. كان يمكن أن يتفق. وإن ندر الأمر، أن يتم استقبال مثل تلك النسوة لدى بعض سيّدات «غير مانت» عن طريق أميرة «بارما» و بفضل موافقتهنّ الخاصة. ولكن سخط آل «كورفوازييه» بشأنهنّ ما كان يلين في يوم. فقد كان لقاؤهم بين الخامسة والسادسة في منزل ابنة عمّهم بأناس ما كان ذووهم يحبون أن يخالطوا ذويهم في محلّة «بيرش» يضحي في نظرهم سبب حنق متنام وموضوع خطب لاتنتهي فمنذ اللحظة التي كانت الكونتيسة الفاتنة ج... تدخل فيها مثلاً إلى منزل آل «غير مانت» كان وجه السيّدة «دو فيلبون» يتخّذ بالضبط الهيئة التي كان لابدّ أن يتخذّها لو وقع عليها أن تنشد البيت التالي:

«فان لم يبق سوى واحد كنت ذاك الرجل».

والبيت مجهول لديها على أي حال. لقد سبق أن ازدردت هذه «الكورفوازية» كل يوم اثنين تقريباً قطع حلوى مثقلة بالكريما على بضع خطوات من الكونتيسة ج... ولكن دون جدوى. وكانت السيّدة «دو فيلبون» تعترف في الخفاء بأنّها لاتستطيع أن تتصورّ كيف تستقبل ابنة عمومتها «الغرمانتيّة» امرأة لم تكن حتّى من النسق الثاني في المجتمع في «شاتو دان». وكانت السيّدة «دو فيلبون» تخلص إلى القول: «لاداعي بالحقيقة لأن تكون ابنة عمّي متصعبة إلى هذا الحدّ في علاقاتها، فالأمر قد بلغ حدّ الهزء بالناس»، وتقولها بهيئة أخرى على وجهها، باسمة هذه وساخرة في يأسها، ولعلّ لعبة حزازير كانت وضعت فوقها بالأحرى بيتاً آخر ما كانت الكونتيسة بالطبع تعرفه أكثر من الأوّل:

«الشكر للآلهة! إن مصيبتي تجاوز مرتجاي».

ولنستبق الأحداث على أي حال بقولنا إن «مثابرة السيّدة» «دو فيلبون»، التي تماشي «المكابرة» على صعيد القافية في البيت التالي، مثابرتها على صبّ سنوبيتها على السيّدة ج...لم تكن غير ذات جدوى تماماً. فقد أولت السيّدة «دو فيلبون» في نظر السيّدة ج... مهابة عظيمة، وهي من فعل الخيال المحض على أيّة حال، إلى الحد الذي عجب معه الناس، حينما حان تزويج ابنة السيّدة ج... التي كانت أجمل وأغنى من شهد الحفلات الراقصة في تلك الحقبة، أن رأوها ترفض جميع الدوقة. ذلك أنّ والدتها ما كانت، إذ تذكر الإهانات الاسبوعية التي لحقت بها في شارع «غرونيل» استذكاراً لـ«شاتودان». ما كانت تتمنّى بالحقيقة سوى زوج واحد لابنتها: أحد أبناء أسرة «فيلبون».

نقطة واحدة كان يلتقي فيها آل غير مانت وآل «كورفوازييه»، وكانت تكمن في فنّ تحديد المسافات الفارقة، فنّ متنوّع إلى مالا حدود بأيّة حال. ولم تكن تصرّفات آل «غير مانت» متساوية كلياً لدى الجميع. ولكنّ سائر «الغرمانتيينّ» مثلاً، أولئك الذين كانوا حقاً من آل «غير مانت»، كانوا يلجؤون، حينما تُقدّم لهم،

إلى نوع من الاحتفال، تماماً كما لو أنّ مدّ يدهم كان جسيماً جسامته لو أن الأمر تعلّق بتكريسك فارساً. ففي اللحظة التي يسمع فيها أحد «الغرمانتيّين»، وإن يكن بعد في العشرين ولكنّه سائر مذ ذلك على خطى من يكبرونه سناً، اسمك ينطق به أحد المعرّفين كان يلقي عليك، كما لو لم يكن مصمماً البتّة أن يقرئك السلام، نظرة زرقاء بعامة وهي أبداً ببرودة شفرة فولاذيّة يبدو على استعداد لغرسها في أعماق شغاف فؤادك. ذلك على أية حال هو ما كان آل «غير مانت» يظنّون أنّهم فاعلوه فعلاً إذ يحكمون أنّهم جميعاً علماء نفس من الطراز الأوّل. وكانوا يحسبون علاوة على ذلك أنّهم يزيدون بهذا التفحصّ من لطف التحية التي تزمع أن تتبع ذلك والتي لن توجّه إليك إلاّ عن دراية تامة. كل ذلك كان يجري على مسافة منك صغيرة لو أن الأمر أمر تبادل ضربة سيف، لا أنّها تبدو ضخمة من أجل مصافحة وكانت تجمد الدم في عروقك في الحالة الثانية كما لعلّها كانت تفعل في الأولى بحيث أن يد «الغيرمانتي»، بعد ما يكون هذا الأخير قد حكم أنّك أهل مذ ذاك للتلاقي وإيّاه على إثر رجولة سريعة تمت في آخر مخابىء نفسك وكرامتك، يده الموجهّة إليك في آخر ذراع ممدودة على مدى طولها كانت تبدو وكأنّها تقدّم لك سيف مبارزة من أجل قتال غريب، وكانت تلك اليد باختصار القول بعيدة جدّاً عن «الغيرمانتي» في تلك اللحظة إلى حدّ يصعب معه، حينما كان يحني الرأس حينذاك، أن تميّز إن كنت أنت من يحييه أم يده. كان بعض آل «غير مانت»، ولا يملكون حسّ الاتزان أو هم عاجزون عن ألا يكرّروا أنفسهم دون انقطاع، يبالغون إذ يعيدون ذلك الحفل في كلّ مرّة يلتقونك فيها. ولمّا لم يعد ينبغي لهم أن يقوموا بالتحقيق السيكولوجي المسبق الذي من أجله فوّضتهم «عبقريّة الأسرة» بسلطاتها ولابدّ أنّهم كانوا يتذكّرون نتائجه، فلم يكن من الممكن تفسير النظرة الثاقبة التي تسبق المصافحة إلا بالآلية التي اكتسبتها نظرتهم أو بموهبة سحر يظنّون أنّهم يملكونها. أمّا آل «كوروفوازييه» الذين كانوا يختلفون عنهم بنية فعبثاً حاولوا تمثل هذه التحية المتفحصّة فانقلبوا إلى الجفاء المتعالي أو الإهمال السريع. ولكنّما كان يبدو بالمقابل أن عدداً قليلاً جداً من «الغيرمانتيّات» أخذن عن آل «كوروفوازييه» تحيّة السيّدات. فحينما كانوا يقدّمونك إلى واحدة من تلك «الغيرمانتيّات» كانت تحيّيك تحيّة واسعة تقرّب منك فيها وفق زاوية من خمس وأربعين درجة رأسها وجذعها فيما يظلّ أسفل الجسم (وهو مرتفع جداً لديها) إلى الزنار الذي يؤلف محور دوران ثابتاً لا حراك به. ولكنّها ما أن تقذف على هذا النحو باتّجاهك القسم العلوي من شخصها حتّى تردّه خلف الخطّ العمودي بانسحاب مفاجىء يبلغ طولاً مكافئاً على وجه التقريب. كان الانقلاب اللاحق يعطّل ما سبق أن بدا لك وكأنه مسلّم به، والأرض التي حسبت أنّك ربحتها لاتلبث حتّى في حيازتك كما هي الحال في ما يخصّ المبارزة فالمواقع الأوليّة كانت محفوظة. وكان هذا الإبطال نفسه للطف باستعادة المسافات (وكان من منشأ «كوروفوازي» ويرمي إلى إبراز أن محاولات التقرّب التي تمت في الوهلة الأولى لم تكن سوى تظاهر دام لحظة واحدة) يتجلّى بمثل ذلك الوضوح، لدى آل «كوروفوازييه» وآل «غيرمانت» سوا بسواء، في الرسائل التي كانت ترد منهنّ على الأقل في أثناء الفترات الأولى من التعرّف بهنّ. فقد كان يمكن أن يحوي «جسم» الرسالة جملاً قد لاتكتبها فيما يبدو إلا لصديق، ولكن عبثاً حسبت أنّك تستطيع المفاخرة بأنّك صديق السيّدة لأن الرسالة كانت تبدأ بعبارة: «سيدي» وتنتهي بعبارة: «وتفضّل» ياسيّدي بقبول أسمى المشاعر».

كان يمكن أن تتوالى مذ ذاك، بين هذه البداية الباردة وهذه النهاية القارسة، وكلاهما تبدّلان معنى كلّ ماتبقّى، (إن كان ذلك جواباً لرسالة تعزية منك) الصور الأشد تأثيراً للغمّ الذي ألمّ بـ«الغير مانتيّة» لفقدانها شقيقتها وللألفة التي كانت سائدة بينهما ولجمال المنطقة التي كانت تصطاف فيها ولصنوف العزاء التي

كانت تلقاها في روعة أحفادها، كل ذلك لم يعد سوى رسالة من مثل ما تجد في مجموعات مختارة ولايستتبع طابع الألفة فيها مع ذلك قدراً أكبر من الألفة بينك وبين كاتبة الرسالة ممّا لو كانت هذه الأخيرة «بلين» الأصغر أو السيّدة «دوسيميان».

صحيح أن بعض «الغيرمانتيّات» كنّ يكتبن إليك منذ المرّات الأولى «صديقي العزيز»، «صديقي»: وما كنّ على الدوام أكثرهنّ بساطة بل بالأحرى أولئك اللواتي لايعشن إلاّ في وسط الملوك وهنّ إلى ذلك «طائشات» فكنّ يوقنّ في كبريائهنّ أنّ كلّ ما يصدر عنهنّ يثير البهجة وتعودن في فسادهنّ ألاّ يساومن في أيّ من صنوف المسرّة التي يمكن أن يوفّرنها. ولمّا كان يكفي على أيّ حال أن يتوافر لك جدّة ثالثة مشتركة في عهد لويس الثالث عشر كيما يقول شابّ من آل «غيرمانت» في حديثه عن المركيزة «دو غيرمانت» «العمّة آدم»، فقد كان آل «غير مانت» عديدين إلى حدّ أنّه كان يوجد كثير من الأنواع حتّى بالنسبة إلى هذه الطقوس البسيطة كطقس تحية التعارف على سبيل المثال. فلكلّ جماعة فرعيّة على شيء من رهافة الذوق تحيّتها التي يورثها الأهل للأبناء كوصفة دواء خاص بالجروح وطريقة خاصّة بتحضير المربيات. وقد رأينا على هذا النحو يد «سان لو» تنطلق للمصافحة كأنّما غصباً عنه لحظة كان يسمع اسمك دون اشراك لنظر ودون إضافة لتحيّة. كان كلّ تعيس حظّ من العوام تمّ تعريفه لسبب خاص– وقلّما يتفق ذلك على أيّ حال– بواحد من مجموعة «سان لو» الفرعية يشحذ ذهنه، إزاء هذا الحدّ الأدنى الشديد الجفاء من التحيّة التي تتّخذ عمداً مظاهر اللامبالاة، كي يعلم ما يمكن أن يحمله «الغير مانتي» أو «الغير مانتيّة» من عداء له. وشدّ ما كان يدهشه أن يعلم أنّه رأى أو رأت من المناسب أن تكتب بوجه خاصّ إلى المعرّف لتقول له إلى أيّ حدّ رقتها أو رقته وأنّه أو أنّها تأمل تماماً في لقائك ثانية. وفي مثل تفردّ حركة «سان لو» الآلية كانت القفزات الراقصة المعقدة والسريعة (ويراها السيّد «دو شارلوس» مضحكة) التي يقوم بها المركيز «دو فيبريوا» وخطوات الأمير «دو غير مانت» الرصينة المنتظمة. ولكنما يستحيل ههنا أن نصف وفرة حركات آل «غير مانت» الراقصة هذه بسبب اتساع مجموعتهم الراقصة.

فإن عدنا إلى الكراهية التي كانت تعتمل في صدر آل «كورفوازييه» ضدّ الدوقة «دو غيرمانت» فقد كان يمكن أن يتعزّى هؤلاء بالرثاء لحالها طوال ما كانت فتاة إذ كانت هينّة الثروة آنذاك. بيد أنّ ضرباً من الانبعاثات السخاميّة الخاصّة كانت لسوء الحظّ تواري على الدوام وتحجب عن الأنظار ثراء آل «كورفوازييه» الذي كان يلبث مجهولاً مهما تعاظم. وعبثاً تتزوجّ «كورفوازييه» بلغة الثراء نصيباً دسماً فقد كان يتّفق دوماً ألا يكون للزوجين الشابيّن مسكن خاصّ في باريس فيحلاّن فيها في دار الحَموين ويقضيان باقي العام في الريف بين ظهراني مجتمع لا اختلاط فيه ولكنّه خلو من الرونق. وفيما كان «سان لو» الذي كاد لايملك من بعد سوى الديون يفتن «دونسيير» بجياده وعرباته لم يكن يستقل أيّ «كورفوازي» واسع الثروة سوى الحافلة. وعلى عكس ذلك (قبل سنوات عديدة على أيّ حال) كانت الآنسة «دو غير مانت» (أوريان (التي لا تملك الكثير تشغل الناس بالحديث عن ملبسها أكثر مما يتأتي لجميع نساء آل «كورفوازييه» مجتمعات عن ملبسهنّ. حتى الفضيحة الناجمة عن أقوالها كان توفّر نوعاً من الدعاية لطريقتها في الملبس وتصفيف الشعر. فقد تجرأت على أن تقول لدوق روسيا الكبير: «ويحك ياسيّدي، يبدو أنّك تبغي تدبير مقتل «تولستوي»؟ وذلك في عشاء لم يدع إليه آل «كورفوازييه» وهم على أيّ حال قليلو الاطلاّع على أحوال «تولستوي». وما كانوا

أكثر اطلاعاً بكثير على المؤلفين اليونانيين إن حكمنا في ذلك بناء على الدوقة الوريثة «دو غالاردون» (وهي حماة الأميرة «دوغالاردون» التي كانت بعد فتاة) التي إذ لم تظفر في غضون خمس سنوات بشرف زيارة واحدة من «أوريان» أجابت شخصاً كان يسألها عن سبب غيابها: «يبدو أنها تلقي أشعاراً لأرسطو طاليس (وتقصد أن تقول لأرسطو فانيس) في المجتمع الراقي، ولست أسمح بذلك في منزلي!».

ويمكن أن نتصوّر إلى أي حدّ كانت «فلتة» الآنسة «دو غير مانت» تلك حول «تولستوي»، إن هي أثارت سخط آل «كورفوازييه»، تثير دهشة آل «غير مانت» ومن ورائهم كل ما يرتبط بهم لا من قريب فحسب، بل من بعيد. والكونتيسة الوريثة «دار جنكور»، وهي من عائلة «سينبور»، التي كانت تستقبل جميع الناس تقريباً لأنّها من دعيّات الأدب وعلى الرغم من أن ابنها كان سنوبياً شديداً، كانت تروي النكتة أمام بعض أرباب الأدب قائلة: «إن «أوريان دو غيرمانت» وهي في رقّة العنبر وخبث القرد وتتمتع بمواهب في كلّ شيء وترسم رسوماً مائية جديرة برسّام كبير وتقرظ شعراً من مثل ما تفعل قلّة من الشعراء العظام، وهي على صعيد الأسرة، كما تدرون، من أرفع ماوجد فقد كانت جدّتها الآنسة «دو مونبا نسيبيه»، وهي «أوريان دو غير مانت» الثامنة عشرة دونما أي زواج غير متكافئ، إنّها السلالة الأكثر صفاء والأكثر عراقة في فرنسه». ولذلك فإن أرباب الأدب المزيفين وأنصاف المثقفين الذين كانت تستقبلهم السيّدة «دار جنكور» كانوا يتمثلون «أوريان دو غيرمانت» التي قد لاتتاح هم الفرصة في يوم لمعرفتها شخصياً بمثابة شيء مدهش وخارق أكثر من الأميرة بدر البدور فلا يحسون أنّهم على استعداد للموت من أجلها فحسب إذ يعلمون أن امرأة رفيعة المولد إلى هذا الحدّ كانت تمجّد «تولستوي» فوق كل شيء، بل يحسّون كذلك أن حبّهم الخاصّ لـ«تولستوي» ورغبتهم في مناهضة القيصرية كانا يستعيدان في أذهانهم قوة جديدة. لقد أمكن أن تهزل فيهم هذه الأفكار الليبرالية وأمكن أن يشككوا بروعتها فلا يجرؤون من بعد على المجاهرة بها حينما وافاهم فجأة مثل هذا العون من الآنسة «دو غير مانت» نفسها أي من فتاة ذات شأن وسلطان عظيمين بما لايقبل النقاش وشعر ترسله أملس على جبينها (وهو ما لم تكن «كورفوازيّة» لتقبل به في يوم) إن عدداً من الوقائع الجيدة أو السيئة تفيد كثيراً على هذا النحو من أن يتبنّاها قوم لهم سلطان علينا. مثال ذلك أن طقوس الملاطفة في الشارع لدى آل «كورفوازييه» كان قوامها تحيّة معينة شديدة القبح وقليلة اللطف في حدّ ذاتها ولكنّما يعلم الناس أنّها الطريقة المتأنّقة في إلقاء التحية حتّى إن الجميع كانوا يجهدون في محاكاة هذه الرياضة الجافية فيزيلون عنهم الابتسامة وحسن الوفادة. أمّا آل «غير مانت» بعامّة، ولاسيّما «أوريان»، فما كانوا يتردّدون، مع أنّهم يعرفون تلك الطقوس أفضل من سواهم، أن يحيّوك، إن هم لمحوك من عربة، باشارة لطيفة من يدهم، ويقومون في صالة بانحناءات حلوة، تاركين لآل «كورفوازييه» أن يؤدّوا تحيّاتهم المتكلّفة الجامدة، ويمدّون يدهم إليك وكأنّما إلى رفيق فيما تبتسم عيونهم الزرقاء حتى ليدخل فجأة بفضل آل «غير مانت» في صلب الأناقة، وهي حتّى ذاك خاوية بعض الشيء وجافّة، كل ماالعلك أحببت بالطبع وجهدت في أن تستبعده: حسن الوفادة ودفق اللطافة الحقة والعفويّة. وإنما يفلح بالطريقة نفسها، ولكن بردّ اعتبار قلّما نجد تبريراً له هذه المرّة، الأشخاص الذين يحملون أكثر ما يحملون في نفوسهم الميل الغريزي إلى الموسيقى الرديئة والألحان التي تتميّز بشيء من الرقة السهولة، مهما تكن تافهة، يفلحون بفضل الثقافة السمفونية في إماتة هذا الميل في صدورهم. ولكنّهم بعدما يبلغون هذه النقطة وحينما يرون، وقد فتنتهم بحق الألوان الأوركسترالية الرائعة لدى «ريشار شتراوس»، حينما

يرون هذا الموسيقي يحتضن أكثر الموضوعات عاميّة بتساهل يليق بـ «أوبير» فإن ما كان يحبّه هؤلاء الأشخاص يلقى فجأة لدى سلطة رفيعة إلى هذا الحدّ التبرير الذي يخلب ألبابهم فيفتتنون دونما وساوس وبامتنان مزدوج لدى سماع «صالومي»، بما كان محظوراً عليهم أن يحبّوه في «لآلئ التاج».

وسواء أكان انتهار الآنسة «دو غير مانت» للذوق الأكبر حقيقياً أم لا فقد كان، بانتقاله من بيت إلى أخر، مناسبة للرواية عن الأناقة المفرطة التي زوّقت بها «أوريان» نفسها في ذلك العشاء. ولئن كان البذخ لاينبع من الثراء (الأمر الذي كان يجعله بالضبط عزيز المنال على آل «كورفوازييه») بل من الإسراف فإن هذا الأخير يدوم فترة أطول إن اتفق له أخيراً أن يسانده الأوّل الذي يمكنّه آنذاك من التألق إلى أبعد حدوده. وحيث أن المبادئ التي تجاهر بها علناً لا «أوريان» فحسب بل السيّدة «دو فيلباريزيس» كذلك، ومفادها أن شرف النسب لايؤخذ في الحسبان وأنّه من المضحك أن تهتّم للمكانة وأن الثروة لاتعني السعادة وأنّ العقل والقلب والموهبة هي الهامّة وحدها فقد كان بامكان آل «كورفوازييه» أن يأملوا أن تتزوج «أوريان» بمقتضى هذه التربية التي قبستها عن المركيزة شخصاً لايكون من المجتمع الراقي، فنّاناً أو محكوماً سابقاً أو متسولاً أو ملحداً وأنّها ستضّم نهائياً إلى فئة من كان آل «كورفوازييه» يدعونهم «بالضالّين». كان يمكن أن يتزايد أملهم بمقدار ما كانت السيّدة «دو فيلباريزيس»، وهي تجتاز في هذه الفترة على الصعيد الاجتماعي أزمة صعبة (فلم يعد إليها بعد أيّ من الأشخاص اللامعين النادرين الذين لقيتهم في منزلها)، تجاهر بقرف عميق إزاء المجتمع الذي كان يضعها جانباً. حتى حينما كانت تتحدّث عن ابن أخيها الأمير «دو غيرمانت» لم تكن تملك مايكفي من عبارات الهزء تجاهه لأنّه كان شغوفاً بكرم مولده. ولكن حينما اقتضى الأمر أن يلقوا زوجاً لـ«أوريان» لم تعد المبادئ التي جاهرت بها العمّة وابنة الأخ هي التي تولت القضية، ولكنّما فعلت «عبقريّة الأسرة» الغامضة، وبمثل ما يتفق من حتمية لو أن السيّدة «دو فيلباريزيس» و«أوريان» ما تحدّثتا في يوم إلاّ في سندات الدخل والأنساب عوضاً عن القيمة الأدبية ومزايا القلب وكما لو أن المركيزة وافتها المنيّة ووضعت في تابوت بضعة أيّام – مثلما سوف يتّم لها ذلك فيما بعد – في كنيسة «كومبريه» حيث لم يعد أيّ فرد من الأسرة سوى واحد من آل «غيرمانت» وقد فقد فرديّته وأسماءه الأمر الذي يبرزه على الستائر السوداء الكبيرة حرف «غ» الأرجواني وحده يعلوه التاج الدوقيّ، فان عبقريّة الأسرة وجهّت اختيار السيّدة «دو فيلباريزيس» المثقفة المتهكمّة الملائكية إلى الرجل الأوفر ثراء والأكرم مولداً، إلى أعظم نصيب في حيّ «سان جيرمان»، إلى ابن دوق «غير مانت» البكر أمير «لوم». وعلى مدى ساعتين في يوم زواجها جمعت السيّدة «دو فيلباريزيس» في منزلها جميع النبلاء الذين كانت تسخر منهم، بل الذين كانت سخرت منهم، بل الذين سخرت منهم مع بعض البورجوازيّين الحميميين الذين كانت قد دعتهم والذين وضع لهم أمير «لوم» بطاقات حينئذ قبل أن «يقطع بهم الحبل» منذ العام التالي. وكيما تزداد الأمور سوءاً بآل «كورفوازييه» فإن الحكَم التي تجعل من الذكاء والموهبة وجوه التفوّق الاجتماعي الوحيدة عادت تلقى من جديد في منزل أميرة «لوم» عقب الزواج مباشرة. ولنقل عرضاً، إذ نحن بهذا الصدد، إن وجهة النظر التي كان «سان لو» يدافع عنها حينما كان يعيش مع «راحيل» ويتردد على أصدقاء «راحيل» ويودّ لو يقترن بـ«راحيل» كانت تتضمنّ – أيّا كان القرف الذي توحي به في الأسرة –قدراً من الكذب أقلّ ممّا تتضمنّه وجهة نظر آنسات «غيرمانت» عامّة وهنّ يشدن بالذكاء ويكدن لايقبلن بأن توضع المساواة بين الناس موضع شكّ فيما يؤول كلّ ذلك في الوقت المحدد إلى النتيجة نفسها التي يؤول إليها لو

أنهن جاهرن بحكم مناقضة، أي إلى الاقتران بدوق عظيم الثراء. أمّا «سان لو» فكان يعمل على العكس وفق نظرياته الأمر الذي كان يجعلهم يقولون إنّه في الطريق الخاطئة. صحيح أنّ «راحيل» كانت بالفعل لاترضي إلاّ قليلاً وجهة النظر الأخلاقية. ولكنّه ليس أكيداً أنّ السيّدة «دو مارسانت» ما كانت لتؤيد الزواج لو أن ثمة امرأة ليست أفضل منها ولكنّها دوقة أو هي تملك الكثير من الملايين.

ولكن إن عدنا بالحديث إلى السيّدة «دي لو م» (التي أضحت بعد ذلك بقليل دوقة «غيرمانت» بوفاة والد زوجها)، فممّا زاد في المصيبة التي حلّت بآل «كورفوازييه» أنْ لم توجه نظريات الأميرة الشابّة، وقد لبثت على هذا النحو في حديثها، لم توجّه في شيء سلوكها، وهكذا لم تسيء تلك الفلسفة (إن جاز القول) إطلاقاً إلى الأناقة الأرستقراطية في صالة آل «غيرمانت». وليس من شكّ أن جميع الأشخاص الذين ما كانت السيدة «دو غيرمانت» تستقبلهم إنما كانوا يتخيلون أن الأمر مردّه أنّهم لم يكونوا على قسط كاف من الذكاء، فهذه الأميريكية التي لم تملك في يوم كتاباً غير نسخة صغيرة قديمة لم تفتحها البتة من قصائد «بارني» موضوعة على قطعة أثاث في حجرة استقبالها لأنّها تعود إلى تلك الفترة كانت تبرهن عن مقدار إجلالها لمزايا الفكر بالنظرات اللاهبة التي تثبتها على الدوقة «دو غيرمانت» حينما كانت هذه الأخيرة تدخل إلى الأوبرا. وليس من شك كذلك أنّ السيّدة «دو غيرمانت» كانت صادقة حينما تختار شخصاً بسبب ذكائه. وما كانت تظنّ، حينما تقول عن امرأة: يبدو أنّها «رائعة»، وعن رجل إنّه غاية في الذكاء، أنّها تملك أسباباً أخرى للموافقة على استقبالها غير هذا السحر أو هذا الذكاء، إذ إن عبقرية «آل غيرمانت» لم تكن تتدخل في هذه الدقيقة الأخيرة: فقد كانت هذه العبقرية اليقظة، وهي أكثر عمقاً وقد اتّخذت موقعها في المدخل المظلم من المنطقة التي كان آل «غيرمانت» يطلقون منها أحكامهم، كانت تحول دون أن يجد آل «غيرمانت» أن هذا الرجل ذكيّ أو أن هذه المرأة ساحرة إن لم يمتلكا قيمة مجتمعية راهنة أو مقبلة. فكانوا يعلنون أنّ الرجل عالم ولكن على غرار معجم، أو أنّه على العكس عاميّ يتمتّع بفكر ممثل تجاري جوّال، وأنّ المرأة الجميلة تصرّف بطريقة مقيتة أو هي كثيرة الكلام. فأمّا الذين لا مركز لهم فقدكانوا متحذلقين، وباللقرف. كان السيّد «دو بريوتيه»، وقصره مجاور تماماً لأرض «غيرمانت»، لايتردّد إلاّ على أصحاب سمّو. ولكنّه كان يسخر منهم ولايحلم إلاّ بالعيش في المتاحف. ولذلك كانت تثور ثائرة السيّدة «دو غيرمانت» حينما ينعتون السيّد «دو بريوتيه» بالسنوبيّة «بابال» سنوبي! إنّك مجنون ياصديقي المسكين، فهو عكس ذلك تماماً، إنّه يكره الناس اللامعين ولست تستطيع حمله على التعرّف بأحدهم. حتّى إلى منزلي! هو لايجيء إلاّ متذمّراً إن أنا دعوته مع شخص جديد».

وليس يعني ذلك أن آل «غيرمانت» ما كانوا يقيمون للذكاء حتّى على صعيد التطبيق وزناً يختلف اختلافاً تامّاً عمّا يفعل آل «كورفوازييه». كان ذاك الفارق بين آل «غيرمانت» وآل«كورفوازييه» يعطي مذ ذاك على صعيد الإيجاب ثماراً طيبة إلى حدّ ما. من ذلك أنّه سبق للدوقة «دو غيرمانت»، ويلفها على أيّ حال سرّ كان العديد من الشعراء يحلمون من بعيد أمامه، إن أقامت ذاك الاحتفال الذي قد تحدّثنا عنه والذي سرّ به ملك انكلترة أفضل من أيّ مكان آخر لأنّه خطر لها مالعلّه لايخطر يوماً ببال وتجرأت على ما كان ردّ على أعقابها شجاعة آل «كورفوازييه» بأسرهم وهو أن تدعو إلى جانب الشخصيات التي جئنا على ذكرها الموسيقي «غاستون لومبر» والمؤلّف المسرحي «غرانموجان». ولكن الصبغة الفكريّة كانت تستبين بوجه الخصوص على

الصعيد السلبيّ. فان راح المعامل الضروري من الذكاء والفتنة في انخفاض كلّما ارتفعت مكانة الشخص الذي كان يتوق أن يدعى إلى منزل الدوقة «دو غيرمانت» إلى حدّ الاقتراب من الصفر إن تعلّق الأمر بالرؤوس المتوّجة البارزة، فكلّما كان يتّم الانحدار، في مقابل ذلك، دون هذا المستوى الملكي كان المعامل يرتفع. كان ثّمة على سبيل المثال لدى الأميرة «بارما» العديد من الأشخاص الذين كانت تستقبلهم لأنّها عرفتهم طفلة أو لأنّهم كانوا على علاقة نسب بهذه الدوقة أو تلك أو هم يرتبطون بشخص هذا العاهل أو ذاك وإن كان هؤلاء الأشخاص إلى ذلك قبيحي المنظر أو مملّين أو أغبياء. ولعلّ السبب التالي في نظر واحد من آل «كورفوازييه» «أنّ الأميرة دوبارما تحبّه» أو «هي شقيقة للدوقة «داراباجون» من أمّها» أو «هي تقضي ثلاثة شهور كلّ عام في منزل ملكة إسبانيه»، لعلّه كان كافياً ليحمله على دعوة مثل هؤلاء الناس، في حين لم تدع السيّدة «دو غيرمانت» التي كانت تقبّل بتأدب منذ عشر سنوات تحيّاتهم في منزل الأميرة «دو بارما»، لم تدع لهم في يوم أن يجتازوا عتبتها إذ ترى أن أمر الصالة على الصعيد الاجتماعي كأمرها على الصعيد الماديّ حيث تكفي قطع أثاث لاتجدها جميلة ولكنّنا نبقها بمثابة ملء للمكان وبرهان على الثراء كيما تجعلها قبيحة. فمثل تلك الصالة إنّما تشبه كتاباً لايحسن المرء فيه أن يمسك عن جمل تبرهن عن معرفة وبهرج وسهولة. أمر الكتاب كأمر البيت وجودة «الصالة»، فيما تظنّ السيّدة «دو غيرمانت»، وبحق تفعل، إنّما التضحية حجر الزاوية فيها.

كثيرات من صديقات الأميرة «دو بارما» من اللائي كانت الدوقة «دو غير مانت» تكتفي منهنّ منذ سنوات بالتحيّة المناسبة نفسها أو تقابل بطاقاتهن بأخرى دون أن تدعوهنّ في يوم أو تذهب إلى احتفالاتهنّ كنّ يشتكين سرّاً إلى صاحبة السمّو التي كانت في الأيّام التي يجيء فيها السيّد «دو غيرمانت» وحده لزيارتها تقول له كلمة في ذلك. بيد أنّ السيّد الماكر، وهو زوج سيءٌ للدوقة بما كان له من عشيقات ولكنّه صاحب يعتمد عليه فيما يتعلّق بسير صالتها الصحيح (وبظرف «أوريان» الذي كان يشكّل الجاذب الرئيسيّ فيها)، كان يجيب قائلاً: «ولكن هل تعرفها امرأتي؟ آه كان عليها الفعل أن تقدم على ذلك. ولكنّي سأقول الحقيقة لسيّدتي: «إن «أوريان» في الأساس لاتحبّ حديث النساء. وهي محاطة ببلاط من العقول المتفوقة- أما أنا فلست زوجها، لست سوى خادمها الخاص الأوّل. وإن النساء، باستثناء عدد هيّن جداً هنّ، فيما يخصهنّ، بالغات الظرف، يبعثن الملل في نفسها. هيّا ياسيّدتي، لن تقولي لي، سمّوك، وأنت على هذا القدر من الرهافة، إن المركيزة «دو سوفريه» تملك شيئاً من الذكاء. أجل،أدرك تماماً، إن الأميرة تستقبلها تكرّماً. ثمّ إنّها تعرفها. تقولين إنّ «أوريان» شاهدتها، هذا ممكن، ولكن أقلّ القليل، أؤكّد لك. ثم إني سأقول للأميرة، ثمة أيضاً بعض ذنب لي. إن زوجتي متعبة جداً وما أكثر ما تحبّ أن تكون لطيفة حتّى لتتوالى الزيارات إلى مالا نهاية إن تركتّها تفعل. ليس أبعد من مساء البارحة كان بها حمّى، وكانت تخشى أن تغمّ الدوقة «دو بوربون» بالاحجام عن الذهاب إلى بيتها. كان لابد أن أكشّر عن أسناني فمنعتّ أن يُسرجوا. هاك، تدرين ياسيدتي، إنّي شديد الرغبة حتّى في ألاّ أقول لـ«أوريان» إنّك حدّثتني عن السيّدة «دو سوفريه». إنّ «أوريان» تحبّ سمّوك إلى حدّ أنّها ستبادر في الحال إلى دعوة السيّدة «دو سوفريه» وسيكون ثمّة زيارة إضافيّة وسيضطرّنا الأمر إلى الاتّصال بالشقيقة التي أعرف زوجها تمام المعرفة. أظن أني لن أقول شيئاً البتّة لـ«أوريان» إن أذنت لي الأميرة بذلك. سوف نجنّبها على هذا النحو كثيراً من التعب والاضطراب. وإنّي أؤكّد لك أن الأمر لن يشكّل حرماناً للسيّدة «دو سوفريه». إنّها تذهب إلى كل مكان وتحلّ في أشهر المطارح. أمّا نحن فاننا حتّى لانستقبل، أعشية

صغيرة لا شأن لها، والسيّدة «دو سوفر يه» قد يصيبها ملل قاتل». أمّا الأميرة «دو بارما»، فإذا اقتنعت بسذاجة بأنّ الدوق «دو غير مانت» لن ينقل طلبها إلى الدوقة واغتمّت أنّها لم تستطع الحصول على الدعوة التي كانت ترغب فيها السيّدة «دو سوفريه»، فقد زاد ذلك من زهوها لأن تكون واحدة ممّن يتردّدن على صالة قلّما يمكن الوصول إليها. وليس من شكّ أن هذا الارتياح ما كان يحصل دون إزعاجات. ففي كل مرّة كانت الأميرة «دو بارما» تدعو فيها السيّدة «دو غير مانت» كان ينبغي لها أن تجهد الفكر كي لايكون لديها من يستطيع أن يسوء في عيني الدوقة ويحول دون أن تعود.

في الأيّام المعتادة وبعد العشاء حيث يجتمع لديها على الدوام (من فترة مبكّرة جداً، إذ هي احتفظت بالعادات القديمة) بعض المدعوّين كانت صالة الأميرة «دو بارما» مفتوحة في وجه الروّاد وعلى نحو عام في وجه كبار الأرستقراطيّين الفرنسيّين والأجانب كافّة. وكان الاستقبال قوامه أن تجلس الأميرة لدى مغادرة قاعة الطعام على أريكة أمام طاولة كبيرة مستديرة وتتحدّث إلى اثنتين من أكثر النساء اللواتي تعشّين أهمية أو تلقي نظرة على مجلّة مصوّرة وتلعب بالورق (أو تتظاهر باللعب حسب عادة مستقاة من البلاط الألماني) إمّا بالقيام بترتيب الورق ترتيباً معيناً وإمّا باتّخاذ شخصية بارزة بمثابة شريك حقيقي أو مُفترَض. وفي حوالي الساعة التاسعة كان باب الصالة الكبرى لايكف من بعد عن أن ينفتح على مصراعيه وينغلق وينفتح من جديد كي يسمح بمرور الزائرين الذين سبق أن تناولوا عشاءهم أربعة أربعة (أو هم إن تناولوا عشاءهم في المدينة تحاشوا القهوة بقولهم إنّهم يزمعون العودة، وهم يتوقعون بالفعل «الدخول من باب والخروج من الآخر») كي يوافقوا ساعات الأميرة. إلا أنّ هذه الأخيرة كانت تتظاهر، وهي تصرف النفس إلى لعبها أو إلى الحديث، بأنّها لاتبصر الوافدات ولم تكن تقف بلطف وهي تبتسم ابتسامة رقيقة للنساء إلاّ لحظة يكنّ على خطوتين منها. بيد أنّهنّ كنّ يقمن أمام سموّها الواقفة بانحناءة تبلغ حدّ الجثو بحيث يضعن شفاههنّ بموازاة اليد الجميلة التي تتدلّى كثيراً ويقبّلنها. ولكنّ الأميرة في تلك اللحظة كانت تنهض الجاثية كما لو أنّها تدهش في كلّ مرّة من جرّاء مراسم كانت تعرفها مع ذلك حقّ المعرفة. تنهضها كأنّما عنوة برقّة وعذوبة لامثيل لهما وتقبلها على الوجنتين. والرقة والعذوبة شرطهما، يقول قائل، الاتّضاع الذي تثني به الوافدة ركبتها. لاشكّ في ذلك ؛ ويبدو أن التهذيب قد يزول في مجتمع ينادي بالمساواة لا من جرّاء غياب التربية، كما يظنّون، بل لأنّه قد يزول لدى بعضهم الإجلال الواجب للمهابة التي ينبغي أن تكون خياليّة كيما تكون فعّالة، ويزول على وجه الخصوص لدى الآخرين اللطف الذي يُبْذَل ويرق حين يتمّ الإحساس بأنّه يكتسب في نظر من يناله ثمناً لاحد له، ثمناً قد يتهاوى فجأة إلى لاشيء في عالم مبنيّ على المساواة على غرار كل مالم يكن يملك سوى قيمة ائتمانية. ولكنّ زوال التهذيب هذا في مجتمع جديد ليس أكيداً وإنّنا لنغالي أحياناً في استعدادنا للاعتقاد بأن الشروط الراهنة لحالة معيّنة إنّما هي الوحيدة الممكنة. لقد ظنّت عقول حصيفة أن الجمهورية لن تستطيع أن توفّر لنفسها ديبلوماسية وأحلافاً وأن طبقة الفلاحين لن تطيق الانفصال بين الكنيسة والدولة. والتهذيب في مجتمع ينادي المساواة قد لايكون في جميع الأحوال معجزة أعظم من نجاح السكك الحديدية واستخدام الطائرة عسكرياً. ثم إنه لاشيء يثبت، حتّى إذا التهذيب زال، أن الأمر يشكّل مصيبة. وأخيراً ألن يتراتب مجتمع في الخفاء كلّما أضحى في الواقع أكثر ديموقراطية؟ ذلك ممكن تماماً. لقد تعاظم سلطان البابوات السياسيّ كثيراً منذ أن لم يعد لديهم دول أو جيش ؛ والكاتدرائيات كانت تلقي المهابة في نفس متديّن من

القرن السابع عشر أقل منها بكثير في نفس ملحد من القرن العشرين، ولو أن الأميرة «دوبارما» كانت مليكة إحدى الدول لكان خطر لي دونما شكّ أن أتحدث عنها بمقدار ما أفعل تقريباً عن رئيس للجمهورية، يعني ألا أفعل على الإطلاق.

وما أن يتم إنهاض ذات اللقب وتقبيلها على يد الأميرة حتّى تعود هذه الأخيرة إلى الجلوس وتنصرف ثانية إلى ترتيب الورق، ولاتفعل، إن كانت الوافدة الجديدة ذات شأن، دون أن تكون تحدّثت إليها فترة وهي تجلسها على مقعد.

وعندما تمتليء الصالة بما يجاوز الحدّ كانت وصيفة الشرف المكلّفة بحفظ النظام تفسح المكان إذ تقود الروّاد إلى بهو فسيح كانت الصالة تطلّ عليه وكان مليئاً بالرسوم وبالتحف النادرة العائدة إلى بيت آل «بوربون». حينئذ كان مدعوّو الأميرة المعتادون يقومون راضين بدور الدليل ويقولون أموراً ذات بال لايملك الشبّان الصبر لسماعها وهم أكثر اهتماماً بالنظر إلى صاحبات السموّ اللواتي على قيد الحياة (وأن يطلبوا إلى وصيفة الشرف والفتيات التابعات أن يعرّفن بهم إن قضت الحاجة) منهم بتأمّل بقايا العاهلات المتوفيّات. وماكانوا، وهم شديدو الانصراف إلى المعارف التي يمكن أن تتوافر لهم والدعوات التي ربّما تصيّدوها، وما كانوا يعرفون شيئاً على الإطلاق حتّى بعد سنوات ممّا في هذا المتحف الثمين من محفوظات النظام الملكي ويتذكّرون فحسب على نحو غامض أنّه كان مزيّناً بأشجار الصبّار والنخيل العملاق التي تجعل مركز الأناقات هذا شبيهاً بمركز النخيل في حديقة الأقلمة.

لاشكّ أنّ الدوقة «دو غير مانت» كانت تجيء أحياناً لتقوم في تلك الأمسية، تقشّفاً، بزيارة هضم للأميرة التي كانت تحتفظ بها طوال الوقت إلى جانبها فيما تمازح الدوق. ولكن حينما كانت الدوقة تجيء للعشاء كانت الأميرة تتحاشى وجود روّاد بيتها وتغلق بابها لدى مغادرة المائدة مخافة أن يسوء زوّار غير مصطفين تماماً في عيني الدوقة المتشدّدة. فإن أقبل في تلك العشيّات خلّص لم يتم إعلامهم على باب صاحبة السموّ كان البوّاب يجيب: «إن صاحبة السمّو الملكّي لاتستقبل هذا المساء» فيعودون أدراجهم. كان كثيرون من أصدقاء الأميرة يعلمون سلفاً على أيّة حال أنّهم لن يدعوا في التاريخ. لقد كانت حلقة خاصّة، حلقة مغلقة دون العديد ممّن لعلّهم تمنّوا أن تضمّهم. كان بمقدور المستبعدين أن يسمّوا المختارين بما يشبه اليقين وكانوا يقولون فيما بينهم بلهجة يلوّنها الغضب: «تعلمون أنّ «أوريان دو غير مانت» لا تتنقّل البتّة دون كامل أركانها». كانت الأميرة «دو بارما» تحاول بوساطة هذه الأركان أن تحيط الدوقة كأنّما بسور يقيها الأشخاص الذين ربّما كان تجاحهم بالقرب منها أكثر مدعاة للشكّ. بيد أنّ الأميرة «دو بارما» كانت تضيق ذرعاً بملاطفة العديد من أصدقاء الدوقة المفضّلين، العديد من أعضاء هذه الأركان اللامعين إذ كانوا يبدون لها القليل من اللطف. وليس من شكّ أن الأميرة «دوبارما» كانت تسلّم تماماً بامكان الارتياح إلى مخالطة السيّدة «دو غيرمانت» أكثرممّا لمخالطتها هي. لقد كانت تلاحظ اضطراراً أن الناس يتدافعون إلى «أيّام» الدوقة وأنّها غالباً ما كانت تلتقي بنفسها هناك بثلاثة أو أربعة من أصحاب السموّ ممّن يكتفون بوضع بطاقاتهم في بيتها. وعبثاً تحاول حفظ عبارات «أوريان» وتقليد فساطينها وتقديم معجنّات توت الأرض نفسها في حفلات الشاي لديها فقد كان يتّفق لها مرّات أن تظلّ وحيدة طوال النهار برفقة وصيفة شرف ومستشار مفوّضية

أجنبيّة. ولذلك لم يكن يداخل الأميرة «دو بارما» رغبة كبيرة، حينما لم يكن أحدهم (كما سبق أن كانت تلك حال «سوان» فيما مضى على سبيل المثال) يختم نهاره قطّ دون أن يكون قد بادر إلى قضاء ساعتين في منزل الدوقة فيما يقوم مرّة واحدة في كلّ عامين بزيارة لها. في استدراج أيّ «سوان» من هذا القبيل لدعوته للعشاء. وقصارى القول إنّ دعوة الدوقة كانت بالنسبة إلى الأميرة «دو بارما» مدعاة لصنوف من الحيرة لشدّة ما تتأكلها خشية أن تجد «أوريان» كلّ شيء رديئاً. بيد أن الأميرة «دو بارما» في مقابل ذلك وللسبب نفسه كانت على يقين مسبق، حينما تجيء للعشاء في منزل السيّدة «دو غير مانت»، أن كلّ شيء سيكون حسناً ولذيذاً ولاتداخلها إلا خشية قوامها ألاّ تحسن الإدراك والحفظ والإمتاع، ألاتحسن تمثّل الأفكار والناس. كان وجودي يثير من هذه الزاوية اهتمامها وطمعها تماماً كما ربّما فعلتْ طريقة جديدة في تزيين المائدة بجبال من الفواكه وهي لاتدري إن كان هذا أم ذاك، تزيين الطاولة أم وجودي، الذي كان يشكّل على نحو أكثر خصوصية واحداً من صنوف الروعة تلك التي هي سرّ نجاح حفلات استقبال «أوريان»، وقد صمّمت أن تحاول الحصول على هذا وذاك في مأدبة عشائها المقبلة. وما كان يبرّر على أي حال أتمّ التبرير الفضول المفتون الذي تحمله الأميرة «دوبارما» إلى منزل الدوقة فإنّما هذا الجزء المضحك الخطر المثير الذي كانت الأميرة تغوص فيه بضرب من الخشية والدهشة والسعادة (كما هي الحال على شاطئ البحر في واحد من «حمامات الموج» التي يشير أدلاّء السباحة إلى خطرها لمحض أن ليس منهم من يحسن السباحة) والذي كانت تطلع منه منشطّة سعيدة مجدّدة الشباب وهو ما كان يدعى بظرف آل «غير مانت» كان ظرف آل «غير مانت» — وهو كيان لاوجود له شأن تربيع الدائرة، حسبما ترى الدوقة التي كانت تحكم أنها الوحيدة من آل «غير مانت» التي تملكه —صيتاً كـ«مفرومة» مدينة تور أو بسكويت مدينة رانس. وليس من شكّ (إذ لا تستخدم خاصيّة عقليّة من أجل انتشارها الطرق نفسها التي يستخدمها لون الشعر أو البشرة) أن بعض ألاف الدوقة ممّن لم يكونوا من سلالتها كانوا يملكون مع ذلك هذا الظرف الذي لم يستطع بالمقابل أن يغشى بعضاً من آل «غيرمانت» يستعصون بشدّة على أيّ من أنواع الظرف. وإن أصحاب ظرف آل «غير مانت» من غير أقرباء الدوقة كانوا يمتازون بعامّة بما سبق أن كانوا أفراداً لامعين ومهيئين لوظائف فضّلوا عليها، سواء في ذلك الفنون والديبلوماسية والبلاغة النيابية والجيش، حياة العشيرة المترابطة. وربما أمكن تفسير هذا التفضيل بشيء من النقص في الأصالة أو روح المبادرة أو الإرادة أو الصحّة أو الحظ أو بالتحذلق.

ولئن كانت صالة آل «غير مانت» بالنسبة إلى بعضهم (وينبغي الإقرار على أيّة حال بأنّ ذلك استثناء) حجر العثرة في وجه مستقبلهم فانّما كان ذلك على كره منهم. من ذلك أن طبيباً ورساماً وديبلوماسياً ذوي مستقبل عظيم لم يستطيعوا النجاح في مهنتهم، مع أنّهم كانوا ألمع مواهب من الكثيرين بالنسبة إليها، لأن ألفتهم لدى آل «غيرمانت» أفضت إلى أن يعدّ الأولان من رجال المجتمعات والثالث رجعياً، الأمر الذي حال دون ثلاثتهم أن يعترف بهم أقرانهم. إن الحلّة القديمة والقلنسوة الحمراء، ولاتزال هيئة الناخبين في الكلّيات ترتدي تلك وتعتمر هذه، ليستا أو ما كانتا على الأقلّ منذ فترة ليست ببعيدة محض استمرار خارجي بحت لماضٍ ضيق الأفكار أعمى في تشيعه. فقد كان الأساتذة بعد، تحت القلنسوة ذات الشراريب الذهبيّة شأن كبار الكهنة تحت قبعة اليهود المخروطية، لايزالون في الأعوام التي سبقت مسألة «دريفوس» سجناء داخل أفكار فرّيسية تماماً. كان «دي بولبون» فنّاناً في أساسه ولكنّما كان خلاصه في أنّه لم يكن يحبّ المجتمع الراقي.

وكان «كوتار» يتردّد على قوم الـ«فيردوران» ولكن السيّدة «فيردوران» كانت إحدى زبائنه، ثمّ إن سوقيّته كانت تحميه، وما كان أخيراً يستقبل في منزله سوى جماعة الكلّية في ولائم تفوح منها رائحة حمض الفينيك. ولكنّ الأستاذ، داخل الهيئات الشديدة التماسك حيث لاتعدو قسوة الأفكار المسبقة كونها الثمن لأجمل صنوف النزاهة ولأرفع الأفكار الأخلاقية التي تضعف في أوساط أكثر تسامحاً وأكثر حرّية وسرعان ما تضحي أكثر انحلالاً، إن الأستاذ بحلّته التي من الساتين القرمزي المبطنّ بفراء القاقوم كحلّة دوج (يعني دوقاً) من البندقيّة حبيس في القصر الدوقي كان يماثل في فضائله وتعلّقه بالمبادئ السامية، بل في قسوته التي لا ترحم إزاء كل عنصر غريب، ذلك الدوق الآخر الرائع والمخيف، عنينا السيّد «دو سان سيمون» كان التعيس الذي نتحدّث عنه هنا، بغية أن يحسن صنعاً وكي لايتهمه زملاؤه باحتقاره لهم (أيّة فكرة هذه لدى رجل مجتمعات راقية!) إنه هو خبّأ الدوقة «دو غير مانت» ، كان يأمل أن يهدّئ سخطهم بإقامة مآدب عشاء مختلطة يضيع فيه العنصر الطبي داخل عنصر المجتمعات. وما كان يعلم أنّه إنّما يحكم هكذا على نفسه بالهلاك، أو هو بالأحرى يُلْغَ الأمر حينما كان ينبغي أن يشغل مجلس العشَرَة (وهو أكبر عدداً بقليل) كرسيّاً شاغراً فلا يخرج من صندوق الاقتراع المشؤوم على الدوام سوى اسم طبيب أقرب إلى العاديّ، وإن يكن أكثر ضحالة، ويتردّد «الفيتو» في الكلّية القديمة رسميّاً مضحكاً مخيفاً شأن «القَسَم» الذي توفّي «موليير» في إبّانه. كذلك هو أمر الرسّام الذي صنّفَ أبد الدهر رجل مجتمعات حينما أفلح رجال مجتمعات يتعاطون الفنّ في أن يصنفّوا فنّانين ؛ وكذلك أمر الديبلوماسيّ الذي أفرط في ارتباطاته الرجعيّة.

ولكن هذه الحالة كانت من أكثرها ندرة. فإن نموذج الرجال البارزين الذين كانوا يؤلّفون خلفيّة صالة آل «غير مانت» كان نموذج الناس الذين تخلّوا طوعاً (أو ظنّوا ذلك على الأقلّ) عن الباقي، عن كلّ مالاينسجم وروح آل «غيرمانت»، وتهذيب آل «غير مانت»، وهذا السحر الخفيّ البغيض في نظر أيّة «هيئة شرعيّة التنظيم» إلى حدّ ما.

ولعلّه كان بمقدور الذين كانوا يعلمون أنّ أحد روّاد صالة الدوقة سبق له أن نال الميدالية الذهبية في المعرض، وأنّ الآخر، وهو أمين سرّ مؤتمر المحامين، كانت له بدايات مدوّية في المجلس، وأنّ ثالثاً خدم قضية فرنسه ببراعة كقائم بالأعمال، لعلّه كان بمقدورهم أن يضعوا موضع الفاشلين أناساً لم يأتوا من بعد بشيء منذ عشرين عاماً. ولكن هؤلاء «المطّلعين» كانوا قلّة وربّما كان المعنيّون أنفسهم آخر من يذكّر بالأمر إذ يرون تلك الألقاب القديمة عديمة القيمة بموجب روح آل «غير مانت» ذاتها: أفما كانت تصف وزراء بارزين، هذا الرسميّ بعض الشيء وذاك المغرم بالتلاعب اللفظيّ، من الذين تتغنّى الصحف بمدائحهم ولكنّما تتثاءب السيّدة «دو غير مانت» بجانبهم وتبدي نفاد صبر إن جاءتها قلة تبصر ربّة بيت بهذا أو ذاك جاراً لها، بالرجل المملّ أو المردّد أو على العكس بأجير المخازن؟ وبما أن كونك رجل دولة من الطراز الأوّل لم يكن على الإطلاق ليشفع لك لدى الدوقة فقد كان يحكم أولئك الذين سبق أن قدّموا استقالتهم من «السلك» أو الجيش ولم يرشحوا أنفسهم ثانية للمجلس، إذ يجيئون كلّ يوم لتناول الغداء أو التحدّث مع صديقتهم العظيمة، إذ يلقونها في منزل صاحبات سمّو لايقدرونهنّ إلاّ قليلاً على أية حال، أو هكذا يقولون» على الأقلّ، كانوا يحكمون أنّهم اختاروا أفضل حصة مع أنّ مظهرهم الحزين حتّى في صميم المرح كان يناقض بعض الشيء صحّة هذا الحكم.

أضف أنّه لابدّ من الإقرار بأنّ لطاقة الحياة الاجتماعية ونعومة الأحاديث في منازل آل «غير مانت» كان يطبعهما شيء من الحقيقة مهما دقّ الطابع. فليس من لقب رسمّي يساوي فيها متعة بعض المفضّلين لدى السيّدة «دو غيرمانت» الذين ربّما لم يستطع أكثر الوزراء اقتداراً أن يفلحوا في اجتذابهم إلى منازلهم. ولئن دُفنتْ إلى الأبد في تلك الضالة طموحات فكريّة ما أكثرها، بل جهود كريمة، فقد نبت فيها على الأقلّ أندر أزهار الكياسة من ترابها. صحيح أن رجال فكر من أمثال «سوان» كانوا يحكمون أنّهم يفوقون رجالاً ذوي قدر هم يحتقرونهم، ولكنّما ذلك لأنّما كانت الدوقة تضعه فوق كلّ شيء لم يكن العقل بل الظرف– وهو حسبما ترى صيغة رفيعة من العقل أكثر ندرة وأوفر روعة، العقل الذي سموا به حتى شكل كلامي من الموهبة. وحينما كان «سوان» فيما مضى يعدّ «بريشو» و«ايلستير»، في منزل آل «فيردوران»، الأوّل بمثابة متحذلق والآخر بمثابة فظّ على الرغم من كلّ علم الأوّل وكلّ عبقرية الآخر فانّما تسرّب ظرف آل «غيرمانت» هو الذي حمله على تصنيفهما على هذا النحو. وما كان ليجرؤ البتّة أن يقدم هذا أو ذاك للدوقة إذ يحس سلفاً بأيّة هيئة لعلّها استقبلت مقالات «بريشو» وهراء «ايلستير» إذ إنّ ظرف آل «غيرمانت» يضع الأقوال المتكلّفة المطوّلة من النوع الجدي أو النوع الهازل موضع أقلّ أنواع الغباء احتمالاً.

فأمّا ما يخصّ آل «غير مانت» بحسب اللحم والدم فإن لم تَغْشَهُمْ روح آل «غيرمانت» بمثل التمام الذي يقع على سبيل المثال في الندوات الأدبية حيث يتخذ جميع الناس طريقة واحدة في النطق، في التعبير، وبنتيجة ذلك في التفكير فليس يعني ذلك بالتأكيد أن الأصالة أشدّ زخماً في أوساط المجتمعات الراقية وتقيم فيها حاجزاً في وجه المحاكاة. ولكنّ للمحاكاة شروطاً ليس قوامها غياب أصالة لا يمكن ردّها إلى سواها فحسب بل رهافة نسبيّة في الأذن أيضاً تسمح بأن نميّز أولاً ما نحاكيه فيما بعد. ولكنّما ثمة من آل «غيرمانت» من كان ينقصهم هذا الحسّ الموسيقيّ تماماً كآل «كورفوازييه».

وكيما تتخذ على سبيل المثال التمرين الذي يدعونه، بمعنى آخر للفظة محاكاة، «المعارضة» (وما يدعونه لدى آل» «غيرمانت» بـ «التحميل»)، فعبثاً كانت السيّدة «دو غير مانت» تفلح فيه إلى حدّ خلب الألباب فقد كان آل «كورفوازييه» عاجزين عن تبيّن ذلك عجزهم لو كانوا جماعة من الأرانب بدلاً من رجال ونساء لأنّهم لم يفلحوا يوماً في ملاحظة العيب أو النبرة التي تحاول الدوقة ردّها. فحينما كانت «تعارض» الدوق «دو ليموج» كان آل «كورفوازييه» يحتجون قائلين: «لا، إنّه لايبلغ هذا المبلغ في حديثه، فانّي تعشيّت مساء البارحة معه في مطعم «بيبيت» وقد كلّمني طوال السهرة، وما كان يتكلّم على هذا النحو»، في حين يصرخ من كان من آل «غيرمانت» على شيء من الثقافة: «يالله كم هي مضحكة «أوريان»! وأغرب الأمر أنها فيما تقلّده تشبهه. أخالني اسمعه، هيّا، قليلاً من«الليموج» يا«أوريان»! وعبثاً يفتقر هؤلاء «الغير مانتيّون» (دون أن نذهب حتّى أولئك الذين كانوا يقولون باعجاب حينما تقلّد الدوقة الدوق «دوليموج»: «آه! يمكن أن نقول إنّك تمسكين بتلابيبه») إلى الظرف فقد توصّلوا، حسبما ترى السيّدة «دو غيرمانت» (وكانت مصيبة فيما ترى) لكثرة ما يسمعون كلمات الدوقة، أن يحاكوا كيفما تيسر الأمر طريقتها في التعبير وإبداء الرأى وما لعلّ «سوان» كان سمّاها، شأن الدوقة نفسها، طريقتها في «الصياغة» إلى حدّ يقدّمون فيه في حديثهم شيئاً كان يبدو في نظر آل «كورفوازييه» وكأنّما يشبه أفظع الشبه ظرافة «أوريان» وكانوا يعتبرونه بدورهم روح آل «غيرمانت». وبما أن هؤلاء «الغيرمانتيّين» لم يكونوا من أقرباء «أوريان» فحسب بل من المعجبين فانّها (هي

التي كانت تستبعد أشدَّ الاستبعاد باقي أسرتها فتثأر الآن بصنوف ازدرائها للاساءات التي ألحقتها بها هذه عندما كانت فتاة) كانت تذهب أحياناً لزيارتهم وتفعل عامّة بصحبة الدوق في الربيع حينما كانت تخرج برفقته. كانت تلك الزيارات تشكّل حدثاً. كان قلب الأميرة «دييينيه» يسرع قليلاً في خفقانه، وهي تستقبل في صالتها الكبرى في الطابق الأرضي، حينما تلمح من بعيد، وكأنما أوّل الأضواء تنبعث من حريق لا أذيّة فيه أو «استطلاعات» غزو غير متوقّع، الدوقة تجتاز الباحة على مهل مائلة المشية وهي تعتمر قبعة رائعة وتحني شمسية تنهمر منها رائحة صيفيّة. «ويحكم، هي أوريان»، تقول وكأنّما تلك عبارة «انتبه!» تحاول أن تخطر زائراتها بحذر وكيما يتّسع الوقت للخروج بانتظام ولإخلاء الصالات دونما ذعر، كان نصف الأشخاص الحاضرين لايجرؤ على البقاء فينهض. وكانت الأميرة تقول بلهجة طليقة مطمئنّة (لتظهر بمظهر السيّدة الكبيرة) ولكن بصوت أصبح متكلّفاً: «لا، ما الخبر؟ عودوا إلى مقاعدكم، فانّما يغبطني استبقاؤكم بعد قليلاً.– «قد تودّون التحدّث فيما بينكم». وتجيب سيّدة البيت اللواتي تودّ أن يمضين في سبيلهنّ: «أأنت حقّاً معجلة؟ إذاً أذهبُ إلى منزلك». كان الدوق والدوقة يحييان بأدب بالغ أناساً كانا يبصرانهم هناك منذ سنوات، دون أن يزيدهما الأمر معرفة بهم، وممّن لايقرئونهم السلام إلّا لماماً بداعي التحفظ. فما أن يمضوا حتّى يطلب الدوق بلهجة لطيفة معلومات حولهم كي يبدو وكأنّه يهتمّ بالصفة الذاتيّة لدى الأشخاص الذين ماكان يستقبلهم بسبب قسوة القدر أو بسبب حالة «أوريان» العصبية التي تؤذيها مخالطة النساء: «من تراها كانت تلك السيّدة الصغيرة ذات القبعة الورديّة؟»– «ولكنّك كثيراً ما رأيتها ياابن عمّي، إنها الفيكونتيسة «دو تور» من عائلة «لامارزيل»».– «ولكن هل تدرين أنّها جميلة، إنّها تبدو ظريفة. ولو لم يكن ثمة عيب صغير في الشفة العليا لكانت بكلّ بساطة رائعة. وإن كان ثمّة فيكونت «دوتور» فلا بدّ أنّه لايصيبه الملل. أتدرين يا «أوريان» بمن ذكّرني حاجباها وأغراس شعرها؟ بابنة عمّك «هيدويج دوليني»». أمّا الدوقة «دو غيرمانت» التي كانت تفتر ما أن يأخذوا في الحديث عن امرأة غيرها فتهمل الحديث. بيد أنّها لم تدخل في حسابها الميل الذي لدى زوجها إلى إبراز علمه التام بحال الأشخاص الذين لم يكن يستقبلهم، الأمر الذي يظنّ أنّه يبدي به «جدّيّة» أكثر من امرأته. ثم يقول فجأة بنبرة قويّة: «ولكنّك أتيت على اسم «لامارزيل». إنّي أذكر أن خطاباً ملفتاً تماماً قد ألقي حينما كنت في المجلس...»– «إنّه عمّ المرأة الشابّة التي التقيتها منذ قليل».– «آه! باللموهبة...»أو يضيف قوله للفيكونتيسة «ديغرمون» التي لاتطيق السيّدة «دو غيرمانت» احتمالها والتي ما كانت تبرح منزل الأميرة «دييينيه» حيث تتنازل طوعاً إلى دور خادمة (وإن هي ضربت خادمتها إذ تعود) وتظلّ، خجلة حزينة المظهر، ولكنّها تظلّ حينما يحضر الدوقان وتأخذ المعاطف وتجهد في أن تكون مفيدة وتعرض من باب التحفظ الانتقال إلى الغرفة المجاورة: «لا، ياصغيرتي، لاتحضري الشاي من أجلنا، ولنتحدث بهدوء إنّنا قوم بسطاء لانتكلّف الأمور». ويضيف وهو يلتفت إلى السيّدة «دييينيه» (ويدع «ديغرمون» خجلى متواضعة طامحة مندفعة): «لا نملك على أيّ حال سوى ربع ساعة نخصكم بها». وكان ربع الساعة يشغل بتمامه بما يشبه عرضاً للكلمات التي حضرت الدوقة في أثناء الأسبوع والتي ما كانت لتجيء بنفسها على ذكرها ولكنّ الدوق يدفعها بحذق كبير إلى تردادها وكأنّما غير متعمد إذ يبدو وكأنّه يؤنبها بشأن الحوادث التي استجرتها.

أمّا الأميرة «دييينيه» التي كانت تحبّ ابنه عمومتها وتعلم أنّها تهوى المديح فقد كانت تطرب أيّما

طرب لقبعتّها وشمسيتّها وظرفها. «حديثها ما شئت عن ملابسها وزينتها»، يقول الدوق بلهجة خشنة كان قد اعتمدها ولكنّما يلطفها بابتسامة ساخرة كي لايؤخذ استياؤه مأخذ الجدّ، «لاعن نباهتها، بحقّ السماء، فلعلّني في غنى تامّ عن أن يكون لي امرأة بمثل نباهتها. إنّك تشيرين على الأرجح إلى التلاعب اللفظيّ غير اللائق الذي ألفته على شقيقي «بالاميد»، يضيف قوله وهو يعلم تمام العلم أن الأميرة وباقي الأسرة لايزالون يجهلون هذا التلاعب ويغبطه أن يبرز مواهب زوجته. «فلست أرى بادئ الأمر أنّه يليق بامرئ قال أحياناً، إنّي مقرّ بذلك، أموراً على شيء من الحلاوة أن يؤلّف صنوفاً غير لائقة من التلاعب بالألفاظ ولاسيما بحقّ شقيقي الذي هو سريع التأثّر ؛ وإن كان لابدّ أن يفضي ذلك إلى خُلفي معه فما أجمل الداعي!».

– «ولكنّما لاندري! ثمة نكتة لـ «أوريان» ؟ ذلك لابدّ رائع، هيّا، أسمعنا!».

وعاد الدوق يقول، ولايزال حردان وإن تعاظمت بسمته: «لا،لا، إنّي شديد الاغتباط أنكم لم تبلغّوها. إنّي جادّ في أنّي أودّ شقيقي كثيراً».

وتقول الدوقة وقد آن الأوان لتردّ على زوجها: «اسمع يا «بازان»، لست أدري لماذا تقول إن الأمر يمكن أن يغضب «بالاميد» وأنت تعلم العكس تماماً. فإنّه أشدّ ذكاء بكثير من أن يجرحه ذلك المزاح السخيف وليس فيه مايسيء، أيّاً كان. سوف توحي بأنّي قلت قولاً مسيئاً وقد أجبت محض إجابة لاغرابة فيها، وإنّما أنت من يوليها أهمية من جرّاء استنكارك، لست أفهمك».

– «تثيرون أشدّ فضولنا، فما الأمر؟»

ويصرخ السيّد «دو غيرمانت» قائلاً: «ليس بالتأكيد ما كان هامّاً. ربما سمعتم من قال إن شقيقي كان يبغي أن يهب «بريزيه»، وهو قصر زوجته، لشقيقته «مارسانت»».

– «أجل، غير أنّه قيل لنا إنّها لا ترغب فيه وإنّها لاتحبّ المنطقة التي يقع فيها، وإن المناخ لايلائمها».

– «لقد قال قائل بالضبط كلّ ذلك لزوجتي وإنّ أخي إن كان يهب ذاك القصر لشقيقتنا فما ذلك لإدخال السرور على قلبها بل ليشاكسها. ذلك أنه مشاكس جدّاً، «شارلوس»، يقول ذاك الشخص. ولكنكم تعلمون أن «بريزيه» شيء ملوكي ويمكن أن يساوي عدّة ملايين، إنّها أرض قديمة للملك وثمة واحدة من أجمل غابات فرنسه. هنالك الكثيرون ممّن يرغبون أن تتم مشاكستهم على هذا النحو. ولذلك لم تستطع «أوريان»، وهي تسمع كلمة «مشاكس» هذه تُطلَق على «شارلوس» لأنّه يهب قصراً جميلاً إلى هذا الحدّ، أن تملك نفسها عن الصراخ، دون تعمّد، لابدّ لي من الإقرار بذلك، فانّها لم تحمّله ما يسيء والنكتة جاءت سريعة كالبرق: «مشاكس... مشاكس...إذن هو «مشاكس المتكبّر» (*) !– ثم يضيف الدوق وهو يستعيد لهجته المخشوشنة ولايغفل أن يلقي نظرة دائرية ليحكم على الأثر الذي خلفته ظرافة امرأته، يضيف وبه بعض

(*) لم أجد سبيلا إلى رد هذا التلاعب اللفظي القائم بين Tarquin, taquin والمقصود هو التذكير بـ«تركوينيوس المتكبر» وهو من ملوك روما واشتهر بصلفه واستبداده برأيه.

الشكوك على أيّة حال فيما يخصّ معرفة السيّدة «دييبنيه» بالتاريخ القديم: «تفهمين، ذلك بسبب «تركوينيوس المتكبّر» ملك روما. تلك سخافة وتلاعب بالألفاظ رديء ولايليق بـ«أوريان» ثم إنّي أنا أشدّ حذراً من امرأتي، وإن كنت أقلّ ظرفاً فاني أفكّر بالعواقب، فإن شاء سوء الطالع أن يردّدوا ذاك لشقيقي كان ثمة قصّة، أي قصّة». وأضاف يقول: «أضف أنّه لابدّ من الإقرار، بما أن «بالاميد» بالضبط شديد الاستعلاء وصعب المراس كذلك إلى حدّ بعيد وشغوف بالقيل والقال حتّى في غير مسألة القصر، بأن «مشاكس المتكبّر» يلائمة إلى حدّ ما. تلك منجاة نكات السيّدة وهي أنّها تلبث ظريفة على الرغم من كل شيء وتصف الناس وصفاً جيّداً إلى حدّ ما حتّى حينما تشاء النزول إلى مستوى التقريبات السخيفة».

وهكذا كانت زيارات الذوق والدوقة لأسرتهما، بفضل «مشاكس المتكبّر» مرّة وأخرى بفضل نكتة ثانية، إنّما تجدّد مؤونة الحكايات وكان الاضطراب الناجم عنها يدوم فترة طويلة جدّاً بعد رحيل المرأة النبيهة ومدير أعمالها الفنّيّة. كانوا يتلذّذون أوّل الأمر بالنكات التي قالتها «أوريان» مع أصحاب الحظّ الذين حضروا الاحتفال (أولئك الذين مكثوا هناك). كانت الأميرة «دييبنيه» تسأل قائلة: «أما كنت تعرفين «مشاكس المتكبّر؟» فتجيب المركيزة «دو بافينو» والحمرة تكسو محيّاها: «لقد سبق للأميرة «دو سارسينا لاروشفوكو» أن حدّثتني عن ذلك ولكنّما لم تفعل باللفظات نفسها. بيد أنّه لابدّ كان أكثر إثارة بكثير أن تسمع من يرويها في حضرة ابنة عمّي على هذا النحو» تضيف قولها كما لعلّها كانت تقول «أن تسمعها يرافقها المؤلّف فيها». وكانوا يقولون لزائرة كانت ستغتمّ لأنّها لم تجيء قبل ساعة: «كنّا نتحدّث عن آخر نكتة لـ«أوريان» التي كانت ههنا منذ قليل».

– «عجباً، هل كانت «أوريان» ههنا؟».

فتجيبها الأميرة «دييبنيه» غير لائمة ولكنّما توحي بكلّ مالم تصبه الطائشة: «بالطبع، ولو اتّفق أن جئت مبكّرة بعض الشيء...» فالذنب ذنبها أن لم تشهد خليقة العالم أو آخر عرض للسيّدة «كارفالهو». «ماقولك في نكتة «أوريان» الأخيرة؟ إني أقرّ بأنّي أقدّر كثيراً مشاكس المتكبّر». ويتم تناول «النكتة» باردة أيضاً في الغد على مائدة الغداء وتعود إلى الظهور بمختلف أنواع المرق في أثناء الأسبوع. حتى الأميرة تستغل أنّها تقوم في ذاك الأسبوع بزيارتها السنوية للأميرة «دو بارما» لتسأل صاحبة السمّو إن كانت تعرف النكتة وترويها لها. «آه! مشاكس المتكبّر»، تقول الأميرة «دو بارما» محملقة العينين من جرّاء إعجاب قَبْلي ولكنّه يلتمس شروحاً إضافية لا تمانع بها الأميرة «دييبنيه» فتخلص الأميرة إلى القول: «اعترف أن «مشاكس المتكبّر» تروقني كثيراً على صعيد الصياغة». وكلمة «صياغة» كانت بالحقيقة غير ملائمة البتّة بالنسبة إلى هذا التلاعب اللفظي، ولكن الأميرة «دييبنيه» التي كانت تدّعي أنّها تمثّلت روح آل «غيرمانت» قد أخذت من «أوريان» عبارتي «مصوغ وصياغة» وتقوم باستعمالها دونما تمييز كبير. بيد أن الأميرة «دو بارما» التي ما كانت تودّ كثيراً السيّدة «دييبنيه» إذ تجدها قبيحة وتعلم أنّها بخيلة وتظنّها شرّيرة، على ذمّة آل «كورفوازييه»، تعرّفت كلمة «الصياغة» هذه التي سبق أن سمعت السيّدة «دو غير مانت» تتفوّه بها وما كانت لتعرف وحدها كيفيّة تطبيقها. فقد خيّل إليها بالفعل أن «الصياغة» هي التي كانت تؤلف سحر «مشاكس المتكبّر» ولم تستطع، ودون أن تغفل تماماً نفورها من السيّدة القبيحة البخيلة، أن تتمالك عن شعور بالاعجاب عظيم بامرأة تملك

إلى هذا الحدّ روح آل «غير مانت» حتّى عزمت أن تدعو الأميرة «دييينيه» إلى الأوبرا. ولم يحل دون ذلك سوى أنّه ربّما كان من اللائق استشارة السيّدة «دو غيرمانت» بادئ الأمر. أمّا السيّدة «دييينيه» التي كانت، على اختلافها الشديد عن آل «كورفوازييه»، تبدي الكثير من صنوف اللطف لـ «أوريان» وتحبّها ولكنّها تغار من علاقاتها في حضرة جميع الناس بشأن بخلها فقد روت لدى عودتها إلى منزلها كم صادفت الأميرة «دو بارما» من المشقة لتفهم «مشاكس المتكبّر» وكم كان ينبغي أن تكون «أوريان» سنوبية كي تُدخل في ألفتها بلهاء على هذه الشاكلة. وقد قالت للأصدقاء الذين كانوا على مائدة عشائها: «لو شئت لما استطعت قطّ مخالطة الأميرة «دو بارما» لأن السيّد «دييينيه» ما كان البتّة ليصرّح لي بذلك بسبب فجورها»، قالت تشير بذلك إلى بعض تجاوزات محض وهميّة للأميرة: « ولكنّي اعترف أنّي ما كنت أستطيع حتّى لو اتّفق لي زوج أقلّ قسوة. ولست أدري كيف تفعل «أوريان» لتلقيها باستمرار. أمّا أنا فأذهب إليها مرّة كلّ عام وألاقي الكثير من المشقّة لأصل إلى نهاية الزيارة».

فأمّا من كانوا من آل «كورفوازييه» في منزل «فيكتور نيين» آن زيارة السيّدة «دو غير مانت» فإن وصول الدوقة كان يدفعهم عامّة إلى الهرب بسبب السخط الذي تسبّبه لهم السلامات المفرطة التي تُقابِلُ بها «أوريان». واحد منهم فقط ظلّ يوم «مشاكس المتكبّر». ولم يفهم المزحة تمام الفهم ولكنّه فهم نصفها مع ذلك لأنّه كان متعلماً. وراح آل «كورفوازييه» يردّدون أنّ «أوريان» دعت العمّ «بالاميد» «تركوينيوس المتكبّر»، الأمر الذي كان يصوّره، حسبما يرون، على نحو مقبول. ثم يضيفون قولهم: «ولكن لم يثار كل هذا الضجيج حول «أوريان، فما كانوا ليفعلوا أكثر منه للملكة. وماعسى تكون «أوريان» باختصار القول؟ لست أقول أنّ ليس آل «غيرمانت» من أصل عريق، ولكنّ آل «كورفوازييه» لايقلّون عنهم في شيء لا على صعيد الشهرة ولا على صعيد العراقة ولا على صعيد المصاهرة. وينبغي ألاننسى أنّه فيما كان ملك انكلتره في مخيّم الملاءة الذهبيّة يسأل «فرانسوا» الأوّل من كان أعرق الأسياد الحاضرين. أجاب ملك فرنسه قائلاً: «إنّه «كورفوازييه» ياسيّدي».

ولو مكث جميع آل «كورفوازييه» لتركتهم النكات في جمود متزايد بمقدار ما قد ينظرون إلى الحوادث التي أورثتها بعامّة من وجهة نظر مختلفة تماماً. فإن اتّفق على سبيل المثال لواحدة من آل «كورفوازييه» أن تعوزها المقاعد في حفل استقبال تقيمه أو أن تخطئ في الاسم وهي تتحدّث إلى زائرة لم تتعرّفها، أو إن وجّه إليها أحد خدمها جملة سخيفة كانت «الكورفوازيّة» تأسف وهي في أشدّ الأزعاج لمثل هذا الحادث الطارئ خجلى راعشة من اضطرابها. وحينما كان لديها زائر وتزمع «أوريان» المجيء كانت تقول بلهجة مستفهمة يشوبها الضيق والإلحاح: «هل تعرفها؟»مخافة أن يخلف وجود الزائر إن كان لايعرفها انطباعاً سيئاً في نفس «أوريان»، ولكنّ السيّدة «دو غير مانت» كان تستخلص على العكس من مثل هذه الحوادث مناسبة لحكايات تضحك آل «غير مانت» حتّى لتدمع عيونهم فيرى الناس لزاماً عليهم أن يحسدوها لأنّها أعوزتها المقاعد، لأنّها هفت أو سمحت أن يهفو خادمها هفوة، لأنّها استقبلت في منزلها شخصاً لايعرفه أحد مثلما يرون لزاماً عليهم أن يغتبطوا أن يكون الكتّاب العظام قد استبعدهم الرجال وخانتهم النساء حينما كان إذلالهم وعذابهم مادّة أعمالهم الفنّية على الأقل إن لم يكن حافزاً لعبقريتهم.

ولم يكن آل «كورفوازييه» أكثر قدرة على التسامي حتّى روح التجديد الذي كانت الدوقة «دو غير مانت» تدخله في حياة المجتمع والذي كانت تجعل منه، إذ تكيفّه بغريزة سليمة مع ضرورات الساعة، شيئاً فنياً

حيث كان التطبيق المعقلن لقواعد صارمة سوف يفضي إلى نتائج بمثل سوء مايجنيه من يتبغي نجاحاً في الحبّ أو السياسة فيكرّر في حياته الخاصّة مآثر «بوسّي دامبواز» بحذافيرها. وإن أقام آل «كورفوازييه» عشاء عائلياً أو تكريماً لأحد الأمراء بدا لهم أن أضافة رجل فكر أو أحد أصدقاء ابنهم أمر شاذ من شأنه أن يخلفّ أسوأ الأثر. فقد استنتجت «كورفوازية» مبق أن كان والدها وزيراً لدى الإمبراطور، وكان عليها أن تقيم حفلة بعد الظهر على شرف الأميرة «ماتيلد»، استنتجت بذهنيّة هندسيّة أنّها لاتستطيع أن تدعو غير «بونا برتيّين». لكنّها لم تكن تعرف أحداً منهم تقريباً. وقد تمّ استبعاد جميع النساء الأنيقات من معارفها وجميع الرجال الظرفاء دون رحمة إذ ربّما أمكن، وهم أصحاب رأي أو صلات مع المنادين بالشرعية، ربّما أمكن، حسب منطق آل «كورفوازييه» أن يسوءوا في عيني صاحبة السمّو الأمبراطوري. أمّا هذه الأخيرة التي كانت تستقبل في منزلها صفوة حيّ «سان چيرمان» فقد دهشت إلى حدّ ما حينما لم تجد في منزل السيّدة «دو كورفوازييه» سوى متطفلة شهيرة، وهي أرملة حاكم سابق في زمن الإمبراطوريّة، وأرملة مدير البريد وبعض الأشخاص المعروفين بولائهم لنابليون الثالث وغبائهم وثقالتهم. ولم يحل ذلك دون أن تنشر الأميرة «ماتيلد» لطفها الملكي الفيّاض الحلو على هؤلاء القبيحات المفجعات اللواتي تحاشت الدوقة «دو غير مانت». فيما يخصها أن تدعوهن حينما جاء دورها في استقبال الأميرة واللواتي استبدلت بهنّ، دون تفكير قبلّي بالبونبارتيّة، ألمس باقة مؤلفة من جميع ربّات الجمال وجميع ذوي الشأن وجميع المشاهير الذين يدفعها ضرب من الفطنة واللباقة والحذاقة إلى الإحساس بأنّهم لابدّ سيروقون ابنة شقيق الإمبراطور حتّى إن هم كانوا من أسرة الملك الخاصّة. حتى الدوق «دومال» لم يتغيّب عنها. وحينما قبلّت الأميرة، وهي تغادر المكان وتنهض السيّدة «دو غير مانت» التي كانت تنحني محييّة وتهمّ بتقبيل يدها، حينما قبلّت هذه الأخيرة على الوجنتين فانّما أمكنها أن تؤكد من صميم الفؤاد للدوقة أنّها لم تقض في يوم نهاراً أفضل ولم تشهد احتفالاً أوفر نجاحاً. كانت الأميرة «دو بارما» كورفوازيّة بعجزها عن التجديد على الصعيد الاجتماعي ولكنّما الدهشة التي تسببّها أبداً لها الدوقة «دو غير مانت» إنّما كانت تبعث في نفسها، بخلاف آل «كورفوازييه»، لا النفور، كما هي الحال لديهم، بل الانبهار. وكان يزيد من ذلك العجب أن ثقافة الأميرة كانت متخلفة إلى ما لا حدود. كانت السيّدة «دو غيرمانت» بدورها أقلّ تقدّماً بكثير مما تعتقد. بيد أنّه كان يكفي أن تكون أكثر تقدّماً من السيّدة «دو بارما» كيما تدهش هذه الأخيرة، ومثلما يكتفي كلّ جيل من النقاد باتّخاذ عكس الحقائق التي أقرّها أسلافهم، فقد كان يكفيها أن تقول إن «فلوبير» عدوّ البورجوازيّين هذاكان بورجوازياً قبل كلّ شيء أو إنّ ثمة الكثير من الموسيقي الإيطالية لدى «فاغنر» كيما توفّر للأميرة، مقابل إرهاق دائم الجدّة وكأنّما لشخص يسبح داخل العاصفة، آفاقاً تبدو لها خارقة وتظلّ غامضة لديها. والدهشة على إيّة حال إزاء المفارقات المعلنة لابصدد الأعمال الفنية فحسب، بل حتّى بصدد أشخاص من معارفهم والأعمال الاجتماعية كذلك. وليس من شكّ بأنّ العجز الذي كان لدى السيّدة «دو بارما» في تمييز روح آل «غيرمانت» الحقيقيّة عن أشكال هذه الروح التي تمّ تعلّمها على نحو بدائي (الأمر الذي كان يجعلها تؤمن بالقيمة الفكريّة الرفيعة التي تميزّ بعض «الغيرمانتيّين» وعلى، وجه الخصوص بعض «الغيرمانتيّات» اللواتي كان يذهلها فيما بعد أن تسمع الدوقة تقول عنهنّ والبسمة على شفتيها إنهنّ محض غبيّات) إنّما كان احداً من أسباب الدهشة التي تنتاب الأميرة على الدوام لدى سماعها السيّدة «دو غيرمانت» تطلق أحكامها على الناس. بيد أنّه كان ثّمة سبب آخر أوضحته لنفسي، أنا الذي كان يعرف في تلك الفترة من الكتب أكثر ممّا يعرف من الناس، والأدب أفضل من دنيا المجتمع، بتصوّري أنّ

الدوقة، إذ تحيا هذه الحياة الاجتماعية التي تشكّل البطالة والعقم فيها بالنسبة إلى أي نشاط اجتماعي حقيقي ما يشكله النقد في الفنّ بالنسبة إلى الإبداع، إنّما كانت تعمّم على من يحيطون بها تقلب وجهات النظر والعطش غير السليم الذي يبديه الحاجّ الذي يمضي في سبيل إرواء فكره المفرط في جفافه باحثاً عن أيّة مفارقة لاتزال على شيء من الندوّة ولايحجم عن مساندة الرأي المروّي القائل بأنّ أجمل «إيفيجيني» هي ماوضع «بيتشيني» لا ماوضع «غلوك» وأن «فيدر» الحقيقية لدى الاقتضاء ماكتب «برادون». فان تزّوجت امرأة ذكيّة متعلّمة نبيهة رجلاً فظاً خجولاً يندر أن يراه الناس ولايسمعونه البتّة استنبطت السيّدة «دو غير مانت» ذات يوم لنفسها متعة روحيّة لا في ذمّ الزوجة فحسب بل في «اكتشاف» الزوج. فلو أنّها، فيما يخصّ الزوجين «كامبرمير» على سبيل المثال، لو أنّها عاشت آنذاك في ذلك الوسط لقرّرت أنّ السيّدة «دو كامبرمير» بلهاء وأن الشخص الممتع المنتقص القدر الرائع الذي كُتب عليه الصمت على يد امرأة ثرثارة ولكنّه يساويها ألف مرّة إنّما هو المركيز على العكس ولأحسّت الدوقة في الإعراب عن ذلك بنوع البرودة نفسها التي يحسّ بها الناقد الذي يعترف، وقد مضى سبعون عاماً على إعجاب الناس بـ«هيرناني»، أنّه يفضلّ عليها «الأسد العاشق». وبسبب الحاجة المرضيّة نفسها إلى اللقيات الاعتباطيّة كانت السيّدة «دو غير مانت»، إن رثوا لحال امرأة نموذجية وقدّيسة حقيقيّة لأنّها منذ شبابها زوّجت وغداً، كانت تؤكدّ ذات يوم أنّ ذاك الوغد كان رجلاً طائشاً ولكنّه يفيض شهامة وقد دفعته قسوة زوجته التي لاترحم إلى أعمال طائشة حقيقيّة. كنت أعلم أنّ النقد يتلهىّ في أن يعيد إلى العتمة ما كان منذ فترة طويلة جداً متألقاً وأن يخرج منها ما كان يبدو وكأنّما كتب عليه ليل نهائيّ، وذلك لابين الأعمال الفنّية فحسب، في سلسلة القرون الطويلة، بل حتّى في صميم العمل الفنّي الواحد. ولم أر فحسب «بلليني» و«فنتر هالتر» والمهندسين المعماريّين اليسوعيّين وتجاراً من عهد عودة الملكية يحلّون محلّ عباقرة قيل إنّهم متعبون لمحض أنّ المثقفين العاطلين عن العمل تعبوا منهم مثلما مرضى الأعصاب هم على الدوام متعبون ومتقلّبون. فقد رأيت من يفضّل في «سانت بوف» الناقد طوراً والشاعر تارة، و«موسيّه» ينكرونه فيما يخصّ أشعاره، ما خلا مقطوعات صغيرة عديمة الشأن إلى حدّ بعيد، ويشيدون به قاصاً وليس من شكّ أنّ بعض كتّاب المقالة على غير حق أن يؤثروا على أشهر مشاهد مسرحيّة «السيّد» أو «بوليوكت» هذا المقطع أو ذاك من مسرحيّة «الكذّاب» الذي يزوّد، شأن خريطة قديمة، بمعلومات عن باريس في تلك الحقبة، ولكن إيثارهم الذي إن لم تبرّره دواعٍ جمالية فاهتمام وثائقي على الأقل لايزال مفرطاً في عقلانيته بالنسبة إلى النقد المجنون. فإنّه يستبدل بكلّ «موليير» بيت شعر من مسرحيّة «الطائش» وهو وإن عدّ أوبرا «تريستان» لـ«فاغنر» قاتلة فإنّما يستبقي منها «نغمة حلوة للبوق» لحظة مرور الصيّادين. ولقد أعانني هذا الفساد على إدراك ذاك الذي كانت تبديه السيّدة «دو غيرمانت» حينما تقرّر أن رجلاً من دنياهم مشهوداً له بطيبة القلب ولكنّه أحمق كان فظيع الأنانية وأكثر إرهاقاً ممّا يظنّون، وأن آخر معروفاً بكرمه يمكن أن يكون رمزاً للبخل، وأنّ والدة مخلصة لاتهتّم بأبنائها. وأن امرأة خيلت فاسقة تحمل أنبل المشاعر. كان عقل السيّدة «دو غيرمانت» وإحساسها شديدي التردّد، وكأنّما عبث بهما عدم الحياة الاجتماعية، كي لايعقب الاشمئزاز لديها الافتتان بسرعة (على أن تحسّ ثانية أنّها مجتذبة إلى نوع التفكير الذي سبق أن سعت إليه وهجرته على التوالي)، وكي لاينقلب السحر الذي لقيته لدى رجل عزيز النفس، إن كان يفرط في التردّد عليها ويكثر من البحث لديها عن اتجاهات كانت عاجزة عن تزويده بها، إلى تبرّم تظنّه من صنع المعجب بها وإنّما هو ناجم عن العجز الذي يلك أن تلقى المتعة حينما تكتفي بالبحث عنها.

وما كانت تقلبّات أحكام الدوقة ترحم أحداً باستثناء زوجها. فهو وحده لم يحبّها في يوم، وقد أحست دوماً لديه طبعاً حديدياً لايأبه لنزوات لديها غير عابئ بجمالها عنيفاً. وإرادة من النوع الذي لايلين البتّة والذي يعرف العصبيّون تحت حكمه وحده سبيلهم إلى الهدوء. ولم يكن لدى السيّد «دو غير مانت» من جهة ثانية، وهو يلاحق نمطاً واحداً من الجمال النسائي ولكنّه يبحث عنه لدى عشيقات كثيراً مايجدّدهن، لم يكن لديه بعدما يهجرهنّ وكيما يسخر منهنّ سوى شريكة دائمة لاتتبدّل وغالباً ماتثير حنقه بثرثرتها ولكنّه يعلم عنها أنّ الجميع يعدّونها الأكثر جمالاً والأوفر فضيلة والأشدّ ذكاء والأكثر علماً بين الأرستقراطيّين وامرأة أسعده جداً هو السيّد «دو غيرمانت» أن وجدها وكانت تستر سائر مفاسده وتستقبل كما لايفعل أحد وتحافظ لصالتهم على مكانتها كأوّل صالة في حيّ «سان جيرمان». ورأي الآخرين هذا إنّما كان يشاطره بدوره، فقدكان فخوراً بزوجته وهو غالباً ساخط عليها. ولئن كان يفضلها، وهو بخيل بمثل بذخه، أقلّ المال في سبيل أعمال خيريّة ومن أجل الخدم فقد كان يصرّ على أن تحوز أروع الملابس وأجمل الجياد والعربات. وكان يهمّه أخيراً إبراز ذكاء امرأته. ففي كلّ مرّة يتفق للسيّدة «دو غيرمانت» فيها أن تبتكر مفارقة جديدة وشهيّة بخصوص مزايا واحد من أصدقائهما ومعايبه، وقد جرى قلبها فجأة على يدها، كانت تتحرّق إلى تجريبها بحضرة أشخاص قادرين على تذوقّها، وأن تحمل على التلذّذ بتميزّها السيكولوجي وعلى إبراز أذاها السريع المقتضب، ولاشكّ أنّ هذه الآراء الجديدة لم تكن تتضمنّ عادة قدراً من الحقيقة أكبر من القديمة، بل أقل في الغالب. ولكن مابها من مظهر اعتباطيّ غير متوقّع كان يضفي عليها شيئاً من صيغة فكريّة تجعل إيصالها مؤثراً. بيد أن المريض الذي تناولته سيكولوجيه الدوقة كان بعامّة أحد الألاف وكان أولئك الذين ترغب إليهم نقل أكتشافها يجهلون أتمّ الجهل أنّه لم يعد في أعلى درجات الحظوة. ولذلك فإن السمعة التي عرفت بها السيّدة «دو غيرمانت» بأنّها صديقة لاتضاهي عاطفيّة رقيقة متفانية كانت تجعل من العسير بدء الهجوم ؛ وإن اقصى ماتستطيعه هو التدخّل فيما بعد وكأنها مجبرة ملزمة وذلك بالردّ كي تهدّيء، كي تكذّب في الظاهر وتساند في الواقع شريكاً أخذ على نفسه أن يستثيرها ؛ كان ذلك بالضبط الدور الذي يبرع فيه السيّد «دو غير مانت».

فأمّا الأعمال المجتمعيّة فقد كانت أيضاً متعة أخرى ممسرحة على نحو اعتباطيّ تحسّ بها السيّدة «دو غيرمانت» في إصدار أحكام عليها من تلك اللامتوقّعة التي تهزّ الأميرة «دو بارما» بمفاجآت لذيذة لاتنقطع. ولكنّ متعة الدوقة هذه إنّما حاولت إدراك ما يمكن أن تكون انطلاقاً من الحياة السياسيّة والأنباء البرلمانية أكثر منّي بوساطة النقد الأدبي. فلّما لم تعد الأوامر المتوالية والمتناقضة التي كانت السيّدة «دو غير مانت» تقلب بها دونما انقطاع ترتيب القيم لدى جماعة وسطها كافية لتسليتها كانت تحاول كذلك بالطريقة التي تنظّم بها سلوكها الاجتماعي وتعرض أقلّ قراراتها المجتمعيّة أن تتذوّق هذه الانفعالات المصطنعة وتخضع لهذه الواجبات المتكلّفة التي تثير مشاعر المجالس وتفرض نفسها على فكر السياسيّين. فإنّنا نعلم أنّه حينما يشرح وزير للمجلس النيابي اعتقاده بأنّه أحسن فعلاً في اتّباع خطّ سلوك معين يبدو بالفعل بسيطاً جداً في نظر الإنسان ذي الحسّ السليم الذي يقرأ في الغد محضر الجلسة في صحيفته، فإن هذا القارئ السليم الحسّ يشعر مع ذلك أن مشاعره تهتزّ فجأة ويشرع يشكّ أنّه كان على حقّ في تصديق الوزير إذ يرى أنّ خطاب هذا الأخير قد جرى الإصغاء إليه وسط بلبلة شديدة وأنّه قوطع بعبارات لوم من مثل: «ذلك خطير جداً» تتفوّه بها نائب يغطّي اسمه وألقابه مساحة كبيرة جداً وتعقبها حركات أبرزت إلى حدّ بعيد حتّى لتشغل الكلمات «ذلك خطير جداً»

داخل مقاطعة الخطاب كلّها مكاناً أقلّ من عجز بيت من البحر الطويل. مثال ذلك فيما مضى حينما كان السيّد «دو غيرمانت» أمير«لوم» يحتّل مقعداً في المجلس أنّك كنت تقرأ أحياناً في صحف باريس، مع أنّ ذلك موجّه خصوصاً إلى مقاطعة «ميز يكليز» وكيما يبيّن للناخبين أنّهم لم يمنحوا أصواتهم لمرشّح خامل أو أبكم:

«السيّد دو غير مانت– بويّون أمير لوم: «هذا خطير!» (عظيم! عظيم! في الوسط وعلى بعض مقاعد في اليمين، صيحات شديدة في أقصى اليسار).

والقارئ السليم الحسّ يحتفظ بعد بومضة إخلاص للوزير الحكيم ولكنّ فؤاده تزعزعه خفقات جديدة من جرّاء أولى كلمات الخطيب الجديد الذي يردّ على الوزير:

– «إن العجب والذهول، ولست أبالغ في ما أقول، (تأثير شديد في القسم اليميني من القاعة النصف دائرية) اللذين بعثهما في نفسي من لايزال، في افتراضي، عضواً في الحكومة... (عاصفة من التصفيق ؛ بعض النوّاب يسارعون إلى مقعد الوزراء ؛ السيّد أمين الدولة المساعد لشؤون البريد والبرق يشير برأسه من مكانه بالايجاب).

وتقضي «عاصفة التصفيق» هذه على آخر معاقل مقاومة القارئ ذي الحسّ السليم، ويجد من المهين للمجلس والفظيع طريقة في التصرّف هي في حدّ ذاتها غير ذات بال. وربّما بلغ به، إزاء أمر عاديّ ؛ كالعزم، مثلاً، على أن يدفع الأغنياء أكثر من الفقراء، والضوء يلقى على مظلمة، وتفضيل السلم على الحرب، أن يلقى ذلك فاضحاً ويرى فيه إهانة لمبادئ لم يكن قد فكّر فيها بالفعل وليست مسجلة في فؤاد الإنسان ولكنّها تهزّ المشاعر بقوّة بسبب الهتافات التي تطلقها والأغلبيّات المتراصّة التي تجمعها.

على أنّه لابدّ من الاعتراف بأنّ رهافة السياسيّين هذه التي أفدت منها في أن أوضح لنفسي الوسط «الغيرمانتّي» وأوساطاً غيره فيما بعد لاتعدو كونها انحراف دقّة معينّة في التفسير غالباً ما يطلقون عليها عبارة «القراءة ما بين السطور» فلئن كان في المجالس سخف صادر عن انحراف هذه الرهافة فثمّة غباء لانعدام تلك الرهافة في صفوف الجمهور الذي يأخذ كلّ شيء «حرفياً» ولا يفترض العزل حينما يقال صاحب رتبة عالية من وظيفته «بناء على طلبه» ويقول في نفسه: «إنّه لم يعزل بما أنّه هو من طلب ذلك»، ولا الهزيمة حينما يتراجع الروس بحركة استراتيجية أمام اليابانّيين إلى مواقع أكثر قوة وقد أُعدت سلفاً، ولا الرفض حينما تطلب مقاطعة استقلالها من إمبراطور ألمانيه فيمنحها هذا الأخير الاستقلال الذاتي الديني. ومن المحتمل من ناحية ثانية، كيما نعود إلى جلسات المجلس تلك، أن يكون النوّاب أنفسهم، لدى افتتاحها، مماثلين للرجل ذي الحسّ السليم الذي سوف يقرأ محضرها. فربّما تساءلوا بسذاجة إذ يعلمون أن عمّالاً مضربين قد أرسلوا مندوبيهم إلى أحد الوزراء: «هيّا، ماعساهم قالوا فيما بينهم؟ نرجو أن يكون كلّ شيء قد سويّ»، لحظة يصعد الوزير إلى المنصّة وسط صمت عميق يهيء النفس مذ ذاك للانفعالات المصطنعة وتجيء أولى كلمات الوزير: «لا حاجة بي أن أقول للمجلس إنّي أملك حساً بواجبات الحكومة أرفع من أن أكون استقبلت هذا الوفد الذي ليس من اختصاص السلطة التي أنا مكلّف بها». بمثابة انقلاب بفاجئ إذ تلك الفرضيّة الوحيدة التي ما كان حسّ النوّاب السليم ليفترضها. ولأنّه بالضبط انقلاب مفاجئ يستقبل بتصفيق يبلغ حدّاً لايستطيع الوزير معه أن

يُسْمعَ صوته إلأبعد انقضاء بضع دقائق، الوزير الذي سيتقبّل لدى عودته إلى مقعدة تهاني زملائه. ويبلغ الانفعال الحدّ الذي بلغه يوم أغفل أن يدعو رئيس المجلس البلدي الذي كان يعارضه إلى احتفال رسمي كبير، ويعلن الناس أنّه تصرّف في هذا الظرف وذاك على السواء تصرّف رجل دولة حقيقيّ.

وكثيراً ما كان السيّد «دو غيرمانت» في تلك الحقبة من حياته في عداد زملائه الذين يذهبون لتهنئة الوزير، مما يثير استنكار آل «كورفوازييه». وقد سمعت فيما بعد من يروي أنه، حتّى في الفترة التي مثّل فيها دوراً كبيراً إلى حدّما في المجلس وكانت الأنظار متّجهة إليه لوزارة أو سفارة، كان، حينما يجيئه صديق يسأله خدمة، أكثر بساطة بما لايقاس ويتصنّع الشخصية الكبيرة على صعيد السياسة أقلّ بكثير من آخر سواه لم يكن الدوق «دو غيرمانت» فلئن كان يقول إن طبقة النبلاء شيء يسير ولئن كان يعدّ زملاءه مساوين له فيما كان يفكّر في كلمة ممّا يقول. كان يسعى إلى المراكز السياسيّة ويتظاهر بتقديرها ولكنّه يحتقرها، ولمّا كان يلبث بالنسبة إلى ذاته السيّد «دو غيرمانت» فلم تكن تحيط شخصه بتصنّع الوظائف الكبرى الذي يجعل سواه عسيري المقابلة. وكانت كبرياؤه بذلك لاتحمي من أي سوء تصرّفاته التي تتصنّع الألفة فحسب بل ما كان يمكن أن يكون لديه من بساطة حقيقيّة.

لم تكن السيّدة «دو غير مانت»، إمّا عدنا إلى قراراتها المصطنعة والمؤثرة على غرار قرارات السياسيّين، أقلّ إذهالاً لآل «غيرمانت» وآل «كورفوازييه» وسائر «الحيّ» والأميرة «دو بارما» أكثر من سواها من جرّاء قرارات غير متوقّعة تحسّ من خلفها مبادئ تزيد من دهشتك بقدر ما قلّ توقّعك لها. فإن أقام وزير اليونان الجديد حفلة راقصة تنكّرية كان كلّ ينتقي حلّته ويتساءلون ماعسى أن تكون حلّة الدوقة. فتظنّ إحداهنّ أنّها تود أن تظهر بملابس الدوقة «دو بورغونيي». وتقول ثانية باحتمال تنكّرها بملابس أميرة من «دو جابار»، وثالثة بتنكّرها على هيئة «بسيشيه» (*) وإذ تسأل أخيراً واحدة من آل «كورفوازييه» قائلة: «ماذا تراك تختارين من لباس يا «أوريان»، يأتيها الجواب الوحيد الذي ما كانوا ليفكّروا فيه: «لاشيء على الإطلاق! «الأمر الذي كان يطلق الألسنة كثيراً على أنّه يكشف رأي «أوريان» حول موقع وزير اليونان الجديد الحقيقي في الوسط الراقي وحول السلوك الواجب اتّباعه إزاءه، يعني الرأي الذي كان ينبغي توقّعه وقوامه أنّه «لايقع على» دوقة أن تذهب إلى الحفلة الراقصة التنكّرية التي يقيمها هذا الوزير الجديد. «لست أرى ثمّة ضرورة للذهاب إلى منزل وزير اليونان الذي لاأعرفه، لست يونانيّة فلماذا أذهب إلى هناك؟ لا شغل لي لديه»، تقول الدوقة.

وتصيح السيّدة «دو غالاردون» قائلة: «ولكنّ الجميع ذاهبون ويبدو أنّها ستكون ممتعة».

فتجيب السيّدة «دو غيرمانت»: «ولكنّما من الممتع كذلك البقاء إلى جانب الموقد».

ويصاب آل «كورفوازييه» بدهشة أيّما دهشة أمّا آل «غير مانت» فكانوا يقرّون الموقف دون أن يقلّدوه: «ليس الجميع بالطبع في موقع يمكّنهم على غرار «أوريان» من مقاطعة كلّ العادات. ولكنّنا لا نستطيع أن نقول من جهة إنّها مخطئة في عزمها على إظهار أنّنا نبالغ في ارتمائنا أمام هؤلاء الغرباء الذين لانعلم على

(*) Psyché من الأساطير اليونانية، فتاة رائعة الجمال عشقها إله الحب.



الدوام من أين يجيئون».

وإذ كانت السيّدة «دو غيرمانت» تعلم التعليقات التي سيثيرها هذا الموقف أو ذاك فقد كان يغبطها أن تذهب إلى حفلة لايجرؤون على توقّعها فيها بقدر مايغبطها أن تمكث في المنزل أو أن تقضي الأمسية مع زوجها في المسرح عشيّة حفلة «يذهب إليها الجميع»، أو حينما يظنّون أنّها سوف تغطّي على أجمل الماسات بتاج تاريخي أن تدخل دون أيّة حلية وفي ملابس غير تلك التي كانوا يظنّون خطأ أنّها إلزامية. ومع أنّها كانت من مناهضي «دريفوس» (فيما تعتقد ببراءته تماماً كما كانت تقضي حياتها في دنيا المجتمعات وهي لاتعتقد إلاّ بالأفكار)، فقد خلفت إنطباعاً ضخماً في أمسية لدى الأميرة «دولينيي» حينما ظلّت بادئ الأمر جالسة في حين وقفت جميع السيّدات لدى دخول اللواء «ميرسييه»، ثم بوقوفها ومناداتها على خدمها على نحو بيّن حينما شرع خطيب وطنّي يحاضر مظهرة بذلك أنّها لاترى أن المجتمع الراقي جعل للتحدّث في السياسة. وقد اتجهت جميع الرؤوس إليها في حفلة موسيقيّة يوم الجمعة العظيمة لم تلبث فيها، مع أنّها من فكر «فولتير»، لأنّها رأت من غير اللائق تمثيل المسيح على المسرح. وإنّنا نعلم ما تمثّله، حتّى في نظر أعظم نساء المجتمعات الراقية، هذه الفترة من العام التي تبدأ فيها الحفلات: إلى حدّ أن المركيزة «دامونكور» التي كانت، لحاجة تحسّها للكلام وهوس سيكولوجي وانعدام للعاطفة كذلك، غالباً ما يبلغ بها أن تتفوّه بالحماقات، استطاعت أن تجيب واحداً جاء يعزّيها بموت والدها السيّد «دومونمو رانسي»: «ربّما جاءك بمزيد من الحزن أن يتفق لك مثل هذا الغمّ في فترة يتجمع لك فيها في مرآتك مئات من بطاقات الدعوة». ففي تلك الفترة من العام حينما كانوا يدعون الدوقة «دو غير مانت» إلى العشاء ويسرعون كي لا تكون قد حجزت بعد كانت ترفض للسبب الوحيد الذي ما كان ليخطر يوماً ببال رجل مجتمعات: لقدكانت تزمع الذهاب في حلة لزيارة خلجان النرويج التي تثير اهتمامها. لقد ذهل رجال المجتمع للأمر، ودون أن يهتموا بمحاكاة الدوقة أحسّوا مع ذلك تجاه فعلتها بنوع الارتياح الذي يداخلنا في قراءة «كانت» حينما نكتشف بعد إقامة البراهين الأكثر إحكاماً على الحتميّة أن ثمة فوق عالم الضرورة عالم الحريّة. إن أيّ اختراع لم يسبق أن انتبهنا له في يوم إنّما يستثير الفكر حتّى لدى أولئك الذي لايعلمون كيف يفيدون منه. لقد كان اختراع السفن البخارية أمراً يسيراً في مقابل استخدام السفن البخارية في الفترة غير المترحّلة من الـ «season»(*) . ولم تبدُ فكرة إمكان التخلّي طوعاً عن مئة عشاء أو غداء وعن ضعفها من حفلات الشاي وثلاثة أمثالها من الأمسيات وعن أجمل أيّام الإثنين في الأوبرا وأيّام الثلاثاء في مسرح «الفرنسيون» من أجل الذهاب لزيارة خلجان النرويج، لم تبدُ لآل «كورفوازييه» أكثر وضوحاً من كتاب «عشرون ألف فرسخ تحت البحار»، ولكنّها أشاعت فيهم الشعور نفسه بالاستقلال والظرف. ولذلك لم يكن ثمّة يوم لاتسمع من يقول فيه لا هذه العبارة فحسب «هل تعرف آخر نكتة لـ «أوريان» ؟بل هذه أيضاً «أتعرف الأخيرة لـ«أوريان» ؟ وعن «الأخيرة لأوريان» و«آخر نكتة لأوريان» كانوا يرددون على السواء: «إنّها بالضبط من أوريان»، «هذا أسلوب أوريان بالضبط»، «هذا أسلوب أوريان الخالص». وآخر ما جادت به «أوريان» كان على سبيل المثال، إذ وقع عليها أن تجيب باسم جمعية وطنّية الكاردنيال س... مطران مدينة «ماكون» (الذي كان السيّد «دو غير مانت» يدعوه حينما يتحدّث عنه «السيّد دو ماسكون» لأنّ الدوق كان

(*) أبقيناها بالإنكليزية لابراز تصنع بعض الأرستقراطيين وتعني فصل الشتاء هنا.

يرى ذلك من النمط الفرنسيّ القديم» وإذ كان كلّ يحاول أن يتخيّل كيف تصاغ الرسالة ويجد بالضبط أولى كلماتها: «صاحب النيافة» أو«صاحب السيادة» ولكنّما يحار إزاء الباقي، أنّ رسالة «أوريان» كانت، وبالدهشة الجميع، تبدأ بـ«سيّدي الكاردينال» بسبب عادة أكاديميّة قديمة أو بـ«ابن العمّ» إذ اللفظة مستخدمة بين أمراء الكنيسة وآل «غيرمانت» والملوك الذين كانوا يدعون الله أن يكلأ هؤلاء وأولئك «برعايته المقدّسة الكريمة». وكيما يجري الحديث عن «نكتة أخيرة لأوريان» كان يكفي، إبّان عرض تجد فيه كلّ باريس ويتّم فيه تمثيل مسرحيّة حلوة جداً، وفيما يبحثون عن السيّدة «دو غير مانت» في مقصورة الأميرة «دوبارما» والأميرة «دو غيرمانت» وأخريات كثيرات كنّ دعونها، كان يكفي أن يجدوها وحيدة بأثواب سوداء وقبّعة صغيرة جداً على مقعد وصلت إليه آن رفع الستارة. وكانت توضح قائلة: «السماع أفضل بالنسبة إلى مسرحية على جانب من الأهميّة» ، ممّا يثير استنكار آل «كورفوازييه» وانبهار آل «غيرمانت» والأميرة «دو بارما» إذ يكتشفون فجأة أنّ «طريقة» سماع بداية مسرحيّة ما كانت أكثرجدّة وتدلّ على قدر أعظم من الابتكار والذكاء (الأمر الذي ماكان ليدهش على لسان«أوريان») من الوصول ساعة الفصل الأخير عقب عشاء كبير وظهور في إحدى الأمسيات.. تلك كانت طرق الإدهاش المختلفة التي كانت الأميرة «دو بارما» تعلم أنّه يمكن أن تستعدّ لها إن هي طرحت سؤالاً أدبياً أو اجتماعياً على السيّدة «دو غيرمانت» والتي كانت تحمل صاحبة السمّو في أثناء هذه الأمسية لدى الدوقة على ألاّ تزجّ نفسها في أيّ موضوع إلاّ بالحذر الخائف المغتبط الذي تبديه السبّاحة إذ تطلع من بين موجتين.

ومن بين العناصر التي غابت عن الصالتين أو الثلاث الأخرى المتساوية تقريباً والتي كانت على قمّة حيّ «سان جيرمان»، من تلك العناصر التي كانت تميز صالة الدوقة «دو غير مانت» عنها، ومثلما يسلّم «لايبنتس» بأنّ كلّ مونادا تضيف إلى الكون، فيما تعكسه بكامله، شيئاً خاصاً، كان أقلّ ما يستحبّ من عناصر فيها إنّما توفره عادة امرأة أو امرأتان على جمال عظيم وليس ما يسوّغ حضورهما هنالك سوى جمالهما، سوى ما سبق أن فعل به السيّد «دو غيرمانت»، وكان وجودهما يكشف في الحال، مثلما هذه اللوحات أو تلك في صالات أخرى، عن أن الزوج في هذه الصالة كان محبّذاً متحمساً لمحاسن النساء. كنّ كلّهن متشابهات إلى حدّ ما لأنّ الدوق كان يميل إلى النساء ذوات القامات الطويلة المهيبات الطليقات في آن واحد ومن نوعيّة متوسطة بين «فينوس ميلو» وتمثال «نصر ساموتراس». كنّ في الغالب شقراوات وفيما ندر سمراوات وصهباوات أحياناً كاقربهنّ عهداً، وكانت في ذاك العشاء، وهي الفيكونتيسّة «دار باجون» التي سبق أن أحبّها حباً جمّاً إلى حدّ أنّه أرغمها مدّة طويلة على أن تبعث إليه قرابة عشر برقيّات في اليوم (الأمر الذي كان يزعج الدوقة بعض الشيء)، والتي كان يراسلها بوساطة الحمام الزاجل حينما يقيم في «غيرمانت» وقد لبث أخيراً فترة طويلة عاجزاً تماماً عن أن يكون في غنى عنها إلى حدّ أنّه كان ذات شتاء اضطرّ أن يقضيه في «بارما» يعود في كل أسبوع إلى باريس فيقوم برحلة تدوم يومين ليلتقيها.

لقد سبق أن كانت تلك الممثلات الصامتات الجميلات عشيقاته عادة وما عدن كذلك (كما هي الحال بالنسبة إلى السيّدة «دار باجون») أو كنّ على شفا أن يكففن عنه. إلاّ أنّ المهابة التي تخلفها الدوقة في نفوسهنّ وأمل أن يتّم استقبالهنّ في صالتها مع أنهنّ ينتمين إلى أوساط ارستقراطيّة جداً ولكن من مرتبة ثانية حملاهنّ على الإذعان لرغبات الدوق حتّى أكثر مما لجمال هذا الأخير وكرمه. وما كانت الدوقة على أيه حال

لتعارض دخولهنّ إلى بيتها معارضة مطلقة، فقد كانت تعلم أنّها لقيت لدى أكثر من واحدة من بينهن حليفة حصلت بفضلها على مالا يحصى من أمور كانت راغبة فيها وكان السيّد «دو غير مانت» يرفضها لزوجته دونما شفقة مادام لايعشق أخرى غيرها. ولذلك فإنّ ما يفسّر انتفاء استقبالهنّ لدى الدوقة مالم تكن علاقتهنّ قد قطعت شوطاً بعيداً إنّما كان بادئ الأمر ناجماً بالأحرى عن أن الدوق ظنّ في كل مرّة خاض فيها حبّاً جديداً أنّه محض نزوة عابرة يحسب من المغالاة أن يجيء في مقابلها الاستقبال لدى زوجته. ولكنّما كان يتفق أن يقدّمه لأقلّ من ذلك بكثير، من أجل قبلة أولى لأنّ صنوفاً من المقاومة لم يكن قد أخذها في الحسبان جرت، أو لأنّه لم يكن ثمّة على العكس مقاومة. ففي الحبّ غالباً مايحمل الامتنان والرغبة في الإبهاج على عطاء يجاوز حدود ماوعد به الأمل والمصلحة. ولكنّما كانت تعترض سبيل تحقيق ذاك العطاء حينئذ ظروف أخرى. فقد كانت تحتجز بادئ الأمر، كل بدورها على يد السيّد «دو غير مانت»، جميع النساء اللواتي استجبن لحبّه وأحياناً حتّى حينما لم يكنّ بعد قد استجبن. فما كان يسمح لهنّ من بعد بلقاء أحد وكان يقضي بالقرب منهنّ ساعاته كلّها تقريباً ويهتم بتربية أطفالهنّ الذين اتّفق له أحياناً، إن انبغى أن نحكم في الأمر فيما بعد بناء على وجه شبه صارخ، أن يوفّر لهم أخاً أو أختاً. ولئن كان للتعريف بالسيّدة «دو غير مانت» الذي لم تراود فكرته الدوق على الإطلاق، لئن كان له في أوّل العلاقة دور في ذهن العشيقة، فإن العلاقة نفسها قد حوّلت وجهات نظر تلك المرأة ؛ فلم يعد الدوق في نظرها زوج أكثر نساء باريس أناقة فحسب، بل رجل أخذت العشيقة الجديدة تحبّه، رجل غالباً ما وفّر لها إلى ذلك وسائل مزيد من البذخ وميل إليه وقد قلب الترتيب السابق على صعيد الأهمية بين مسائل السنوبية ومسائل المصلحة وأخيراً كانت ثمّة أحياناً غيرة من كلّ صوب تتحمل في صدور عشيقات الدوق ضدّ السيّدة «دو غير مانت». ولكنّ هذه الحالة كان من أندرها. وحينما كان يحلّ أخيراً على أيّ حال يوم التعريف (في فترة أضحى عادة فيها مذاك غير ذي بال في نظر الدوق الذي كانت تحكم أعماله، شأن أعمال كل الناس، الأعمال السابقة أكثر منها الدافع الأول الذي لم يعد موجوداً) غالباً ما كان يتّفق أن تكون السيّدة «دو غير مانت» هي التي سعت إلى استقبال العشيقة التي كانت تأمل أن تلقى فيها وهي بحاجة كبرى إلى أن تلقى فيها حليفة ثمينة تنصرها على زوجها المرهوب الجانب. وليس يعني ذلك أنّ السيّد «دو غير مانت» كان يخلّ إزاء زوجته بما يدعى بـ« الشكليّات» فيما عدا فترات نادرة في المنزل كان يطلق فيها، حينما تفرط الدوقة في الكلام، أقوالاً وعلى وجه الخصوص لحظات صمت صاعقة. أمّا أولئك الذين لايعرفونها فقد كان يمكن أن يخدعوا ففي الخريف أحياناً، بين فترتي سباقات «دوفيل» والحمّامات والرحيل إلى «غير مانت» وطلعات الصيد، وفي غضون بضعة أسابيع يقضونها في باريس، وإذ كانت الدوقة تحبّ المقاهي الغنائية، كان الدوق يمضي معها ليقضي أمسية فيها. كان الجمهور يلاحظ في الحال في واحدة من تلك المقصورات الصغيرة المكشوفة التي لا تتسّع إلا لاثنين ذاك الجبّار بلباس «السموكنغ» (بما أنهم في فرنسه يطلقون على كلّ شيء ذي طابع بريطاني في كثير أو قليل الإسم الذي لايحمله في انكلتره) وعلى العين نظارته وفي يده السمينة والجميلة مع ذلك التي تلتمع في بنصرها ياقوتة زرقاء سيكار ضخم ينفث منه بين الحين والحين دفعة دخان، ونظراته تتجه عادة إلى خشبة المسرح ولكنما بلطفها، حينما يخفضها على القاعة حيث لايعرف أحداً على الإطلاق على أية حال، بمظهر من العذوبة والتحفظ والتأدب والاحترام. وحينا يبدو له مقطع مضحكاً ولا يفرط في قلة الاحتشام كان الدوق يلتفت إلى زوجته باسماً ويشاطرها، بإشارة تعرف عن الإدراك والعطف، المرح البريء الذي توفره له الأغنية

الجديدة. وكان بوسع النظارة أن يحسبوا أن ليس من زوج أفضل منه وأن ليس من امرأة خليقة بأن تُحسد أكثر من الدوقة – هذه المرأة التي كانت كلّ اهتمامات الحياة في نظر الدوق خارج نطاقها، هذه المرأة التي ما كان يحبها ولم يكف في يوم عن خداعها. وحينما تحسّ الدوقة أنّها متعبة كانوا يبصرون السيّد «دو غير مانت» ينهض فيلبسها معطفها بنفسه وهو يرتبّ عقودها كي لا تعلق بالبطانة، ويشقّ لها درباً بصنوف من العناية تتّسم بالاهتمام والاحترام فتتقبّلها ببرود امرأة المجتمع التي لاترى في ذلك سوى شيء من محض آداب السلوك، بل تضيف أحياناً المرارة الساخرة قليلاً تبديها الزوجة المخيّبة التي لم يظلّ لها وهم تفقده من بعد. بيد أنّ حياة الدوقة كانت صعبة على الرغم من هذه المظاهر، وهي جزء من ذلك التهذيب الذي نقل الواجبات من الأعماق إلى السطح في فترة أضحت قديمة ولكنّها لاتزال مستمرّة للباقين منها على قيد الحياة. ولايعود السيّد «دو غير مانت» فيضحي كريماً وانسانياً إلاّ بالنسبة إلى عشيقة جديدة تتّخذ، مثلما كان يتّفق ذلك في الأغلب، جانب الدوقة وتناصرها. وترى هذه الأخيرة أنّ صنوفاً من السخاء إزاء مرؤوسيها وحسنات للفقراء وحتّى بالنسبة إليها فيما بعد سيارة جديدة رائعة تعود فتصبح في حيزّ الممكن بيد أنّ عشيقات الدوق ما كنّ مستثنيات من الغيظ الذي تبعثه بشيء من السرعة عادة في صدر السيّدة «دو غير مانت» نساء يفرطن في خضوعهنّ لها، فلا يمضي سوى القليل حتّى تملّهنّ الدوقة. والحقيقة أن علاقة الدوق بالسيّدة «دار باجون» أخذت تقرب في تلك الفترة أيضاً من نهايتها. ذلك أن عشيقة أخرى كانت تطلع في الأفق.

ليس من شكّ أن الحبّ الذي داخل السيّد «دو غير مانت» على التوالي إزاءهنّ كافّة كان يعود ذات يوم إلى الظهور: فقد كان ذلك الحبّ يخلفّهنّ إذ يتلاشى كتماثيل جميلة من المرمر–تماثيل من المرمر جميلة في نظر الدوق وقد أضحى على هذا النحو فنّاناً في جزء من ذاته لأنّه سبق أن أحبّها وأضحى الآن يقدّر خطوطاً ماكان لولا الحبّ ليقدّرها –تتقابل في صالة الدوقة أشكالها المتعادية فترة طويلة والتي تأكّلتها صنوف الغيرة والمشاجرات وتوافقت أخيراً في السلام الذي توليه الصداقة. ثمّ إن هذه الصداقة نفسها كانت من نتائج الحبّ الذي أبرز للسيّد «دوغير مانت» لدى أولئك اللائي كنّ عشيقاته فضائل موجودة لدى كلّ كائن بشري ولكنّما لاتدركها إلاّ اللذّة وحدها حتّى لتصبح العشيقة السابقة، وقد أضحت «رفيقاً ممتازاً» قد يقدم على أيّ أمر في سبيلنا، روسماً شأن الطبيب الوالد الذي ليس طبيباً أو والداً بل صديق. على أن المرأة التي كان السيّد «دو غير مانت» يشرع في هجرها كانت تشتكي في فترة أولى وتثور وتبدي تشدّداً وتبدو غير متحفظّة ومنكّدة.. ويشرع الدوق في النفور منها. حينئذ كان يتسنّى للسيّدة «دو غير مانت» أن تبرز المعايب الحقيقيّة أو المفترضة لدى امرأة كانت تزعجها. كانت السيّدة «دو غيرمانت» التي اشتهرت بطيبتها تستقبل هواتف المهجورة ونجاواها ودموعها ولاتشكو من الأمر. كانت تضحك من ذلك مع زوجها، ثمّ مع بعض الألآف. وما كانت السيّدة «دو غير مانت»، وهي تحسب أنّ لها الحقّ من جرّاء الإشفاق الذي تبديه لمنكودة الحظّ أن تضايقها في حضرتها هي وأيّاً كان ما تقول هذه الأخيرة بشرط أن يتسنّى حشر ذلك في إطار الطباع المضحكة التي صنعها لها الدوق والدوقة منذ عهد قريب، ما كانت ترى حرجاً في تبادل نظرات متواطئة ساخرة مع زوجها.

وفيما كانوا يجلسون إلى المائدة تذكّرت الأميرة «دو بارما» أنّها تبغي دعوة السيّدة «دو ديكور» إلى الأوبرا وإذا كانت راغبة أن تعلم إن كان الأمر لن يسوء في عيني السيّدة «دو غير مانت» حاولت أن تسبر أعماقها.

وفي تلك اللحظة دخل السيّد «دو غروشي» الذي تعطّل قطاره ساعة بسبب خروجه عن الخطّ، فاعتذر جهد المستطاع. ولو أن امرأته كانت من آل «كورفوازييه» لماتت خجلاً. ولكنّ السيّدة «دو غوشي» لم تكن من آل«غيرمانت» عبثاً. ففيما كان زوجها يعتذر عن تأخّره قالت مستهلّة كلامها: «أرى أنّ التاخّر حتّى في الأمور الصغيرة تقليد في أسرتكم».

وقال الدوق: «إجلس يا «غروشي» ولا تفقد رباطة جأشك».

– «أرى لزاماً عليّ أن اعترف، مع أنّي أماشي زماني، بأن لمعركة «واترلو» جوانب جيّدة بما أنّها سمحت باعادة حكم آل «بوربون»، وأفضل من ذلك أنّها فعلت بطريقة جعلتهم بعيدين عن نفوس الشعب. ولكنّي أرى أنّك «نمرود» حقيقي!».

– «لقد عدت بالحقيقة ببعض الطرائد الجميلة، وسوف أسمح لنفسي أن أبعث إلى الدوقة غداً بدزينة من التدارج».

وبدا كأنّما تلوح فكرة في عيني السيّدة «دو غير مانت»، فألحّت ألا يكلّف السيّد «دو غروشي» نفسه عناء إرسال التدارج، وقالت وهي تشير إلى الخادم الخطيّب الذي سبق أن تحدّثت إليه وأنا أغادر قاعة عائلة «ايلستير»:

–«بولان، إذهب لجلب تدارج السيّد الكونت وعدْ بها في الحال، أليس أنّك تسمح يا «غروشي» أن أقدم على بعض المجاملات؟ فلن نأكل أنا و«بازان» بمفردنا اثني عشر تدرج.

وقال السيّد «دو غروشي»: «لعلّ في بعد الغد ما يكفي من تبكير».

وتلحّ الدوقة: «لا، أفضّل الغد».

وشحب «بولان» أشدّ الشحوب، لقد فشل موعده مع خطيبته. وكان ذلك كافياً لتسلية الدوقة التي كانت تصرّ أن يحتفظ كلّ شيء بمظهر إنساني، فقالت لـ«بولان»:«أعلم أنّه يوم عطلتك، ماعليك إلاّ أن تبادل جورج فيخرج غداً ويمكث بعد غد).

ولكنّ خطيبة «بولان» قد لا تكون حرّة بعد الغد، وسيان لديه أن يخرج. وما أن غادر «بولان» القاعة حتّى هنّأ كل منهم الدوقة على رفقها بخدمها.

–«ولكنّي لاأفعل أكثر من أن أكن معهم كما أودّ أن يكون الناس معي».

– «بالضبط! بوسعهم أن يقولوا إن لهم لديك عملاً ممتازاً».

– «ليس خارقاً إلى هذا الحدّ. ولكنّي أعتقد أنّهم يودّونني. أمّا ذاك فمزعج إلى حدّ ما لأنّه عاشق ويحسب أنّه يجدر به اتّخاذ ملامح حزينة».

ودخل «بولان» في تلك اللحظة، فقال السيّد «دو غروشي».

- «بالفعل، فليس يبدو باسم الوجه. لابدّ أن نكون طيبيّن معهم، ولكن دون إفراط في الطيبة».

-«اعترفُ أنّي لست قاسية ؛ فلن يقع عليه في كامل نهاره سوى الذهاب لجلب تدارجك والمكوث ههنا لايفعل شيئاً وتناول حصتّه منها»

وقال السيّد «دو غروشي»: «كثيرون يودّون لو يحتلّون مكانه فالحسد أعمى».

وقالت الأميرة «دوبارما»: «أوريان، لقد حظيت ذاك اليوم بزيارة ابنة عمّك «دوديكور». هي بالطبع امرأة ذات ذكاء رفيع؛ إنّها «غيرمانتيّة» وذلك يختصر كلّ شيء. ولكنّما يقولون إنّها نمامة...».

وألقى الدوق على زوجته نظرة طويلة محمّلة بدهشة مقصودة. وأخذت السيّدة «دو غير مانت» في الضحك ؛ ولاحظت الأميرة ذلك في النهاية فسألت يساورها القلق:

- «ولكن... ألاتوافقيني... الرأي...».

-«ولكنّ سيّدتي بالغة الطيبة أن يشغلها مايبدي «بازان». هيّا يا«بازان»، لايوحيّن مظهرك أنّك تغتاب أقرباءنا».

وسألت الأميرة بحرارة: «أويجدها بالغة السوء؟».

فردّت الدوقة قائلة: «لا! على الإطلاق لست أدري من قال لسمّوك إنّها نمامة. إنّها على العكس مخلوقة ممتازة لم تغتب أحداً في يوم ولا أساءت إلى أحد».

وقالت السيّدة «دوبارما» وقد انزاح الهمّ عن صدرها: «آه! لم أكن قد لاحظت ذلك بدوري. ولكنّي لمّا كنت أعلم أنّه يصعب في الغالب ألاّ يداخل المرء شيء من الخبث حينما يتمتّع بكثير من الذكاء...».

- «آه! أمّا هذا مثلاً فنصيبها منه أقلّ».

وسألت الأميرة ذاهلة: «أقلّ ذكاء؟...»

وقاطع الدوق الحديث بلهجة شاكية وهو ينظر من حواليه يميناً وشمالا نظرات ساخرة: «ويحك يا«أوريان، أنت تسمعين أنّ الأميرة تقول لك إنّها امرأة متفوقة».

- «أفليست كذلك؟».

- «إنها على الأقل متفوقة ببدانتها».

- «لاتصغي إليه ياسيّدتي إنّه ليس صادقاً. إنّها غبيّة غباء (هم...) إوزّة»، تقول السيّد «دوغير مانت» بصوت قويّ أبحّ، وكانت، وهي أكثر إغراقاً في الماضي من الدوق حينما لاتجهد في الأمر، تحاول غالباً أن تبدو كذلك، ولكن على نحو مناقض لطريقة زوجها الأرستقراطية المتميّعة إلا أنّها في الواقع أشدّ إرهافاً بكثير،

بضرب من تلفّظ فلاّحيّ تقريباً له طعم الأرض القوي واللذيذ. «ولكنّها أفضل امرأة في الدنيا. ثم إنّي لاأدري إن كان يمكن في هذا الحدّ أن نسمّي ذلك غباء. ولا أظنّ إني عرفت في يوم مخلوقة شبيهة بها. إنّها حالة جديرة بطبيب وبها شيء من الحالة المرضيّة، إنّها من نوع «البريئة» البلهاء «المتخلفة» كما هي الحال في الميلو دراما أو في أوابر «الآرليزيين». وإنّي اتساءل على الدوام حينما تكون ههنا إن لم يحن الوقت الذي سيستفيق فيه عقلها، الأمر الذي يورث دوماً بعض الخشية». كانت الأميرة تعتريها الدهشة لتلك العبارات فيما تظلّ مذهولة من جرّاء الحكم، وتجيب: «لقد ذكرت لي، وكذلك فعلت السيّدة «دييبنيه»، نكتتك حول «مشاكس المتكبّر» ؛ إنّها رائعة».

وشرح لي السيّد «دو غير مانت» الطرفة. كنت راغباً أ أقول له إنّ شقيقه الذي كان يدّعي أنّه لايعرفني ينتظرني في المساء نفسه الساعة الحادية عشرة. بيد أنّي لم أكن سألت «روبير» إن كنت أستطيع التكلّم عن هذا الموعد، وبما أن كون السيّد «دو شارلوس» قد حدّده لي على وجه التقريب يناقض ما سبق أن قاله للدوقة فقد رأيت لياقة أكبر في أن أصمت.

وقال السيّد «دو غير مانت» : «مشاكس المتكبّر لابأس به.، ولكنّ السيّدة «دو ديكور» لم ترو لكم على الأرجح طرفة أجود بكثير قالتها لها «أوريان ذاك اليوم جواباً عن دعوة إلى الغداء؟»

— «لا، لا! قلها!»

— «اصمت، ويحك، يا «بازان»، فهذه الطرفة سخيفة بادئ الأمر وسوف تحمل الأميرة على الحكم بأنّي أدنى بعدُ من ابنة عمّي البلهاء ثم إني لا أدري لماذا أقول ابنة عمّي، فإنّها ابنة عمّ لـ«بازان»، ولكنّها مع ذلك على شيء من القرابة معي».

وصاحت الأميرة «دو بارما» لدى التفكير بأنّها قد تجد السيّدة «دو غيرمانت» غبيّة وهي تحتجّ بشدّة أنّه لايمكن لأمر أن ينتقص من المنزلة التي تشغلها الدوقة في اعجابها: «أوه!»

— «ثم إنّنا قد خلعنا عنها صفات الفكر، ولّما كانت الطرفة تنزع إلى انكار بعض صفات القلب لديها فيبدو لي أنّها في غير محلّها».

وقال الدوق بسخرية متصنعّة وكي يحمل على الإعجاب بالدوقة: «إنكار! في غير محلّها! كم تحسن التعبير!».

— «هيّا يابازان، لاتسخر من امرأتك».

وعاد الدوق يقول: «لابدّ أن أقول لسمّوك الملكي أن ابنة عمّ «أوريان» راقية طيّبة بدينة وما شئت لها أن تكون، ولكنّها ليست بالضبط، ماذا عساي أقول... مسرفة».

قاطعته الأميرة قائلة: «أجل، أدري، إنّها شديدة الشحّ».

— «ما كنت لأسمح لنفسي بالعبارة، ولكنّك لقيت الكلمة الصحيحة. إنّ ذلك بيّن في نمط معيشتها

البيتّية وعلى وجه الخصص في طعامها، فهو رائع ولكنّه مقنّن».

وقاطعه السيّد «دو بريوتيه» قائلاً: «بل إنَّ ذلك يفضي إلى مشاهد مضحكة إلى حد ما. من ذلك، ياعزيزي «بازان»، أنني مررت ذات يوم في «أوديكور» حيث كانوا في انتظاركما أنت و«أريان» وكانا قد أعدّوا أشياء فاخرة عندما حمل أحد الخدم الخاصيّن بعد الظهر برقية بأنكما لن تجيئا».

فقالت الدوقة التي لم يكن من العسير التقاؤها فحسب بل هي تحبّ أن يعرف الناس ذلك: «لست أستغرب الأمر!»

— «وتقرأ ابنة عمّك البرقيّة وتغتمّ ثم تعود في الحال، دون أن تفقد رباطة جأشها، فتستدعي الخادم قائلة في نفسها إنّه لاضرورة لنفقات لاطائل تحتها تجاه سيِّد لا أهمية له مثلي وتصيح به: «قل للطاهي أن يرفع الفرّوج». وفي المساء سمعها تسأل رئيس الخدم: «قل لي، وبقايا «بقر» البارحة؟ ألا تقدّمونها؟».

— «لابدّ أن نعترف على أيّ حال بأنّ المآكل لاغبار عليها»، يقول الدوق الذي يظنّ باستخدامه هذه العبارة أنّه يبدو من العهد السابق، «فلست أعرف داراً فيها الطعام أطيب».

— «وأقلّ»، تضيف الدوقة مقاطعة.

وأردف الدوق قائلاً: «إنّه صحّي جدّاً وكاف تماماً لما يدعونه بالرجل الفظّ السخيف مثلي، فهو لايشفي من جوع».

— «آه! إن كان بمثابة استشفاء فالأمر حينئذ مختلف تماماً. إنّه بالطبع صحّي أكثر منه فاخراً. على أنه ليس طيباً إلى هذا الحدّ»، تضيف السيّدة «دو غير مانت» التي ما كانت تحبّ كثيراً أن يمنح لقب أفضل مائدة في باريس لغير مائدتها. «وابنة عمّي إنّما يتّفق لها ما يتّفق لمؤلفين يعانون من الإمساك ويبيضون في كلّ خمسة عشر عاماً مسرحية من فصل واحد أو قصيدة قصيرة. ذلك مايدعونه بالروائع الصغيرة وبالهنات التي هي جواهر هو باختصار القول الأمر الذي أمقته أكثر ما أمقت. ليس الطعام لدى «زينائيد» رديئاً لكنّك قد تجده عادياً وأكثر من عادي لو كان أقلّ تقتيراً. ثمة أشياء يحسن طاهيها صنعها، وأشياء يفشل فيها. لقد تناولت لديها شأني في أي مكان آخر أعشية رديئة جدّاً لكنّها ألحقت بي ضرراً أقلّ من أي مكان آخر لأنّ المعدة أكثر تأثراً في الأساس بالكمية منها بالكيفيّة».

وخلص الدوق إلى القول: «وأخيراً وفي نهاية المطاف أخذت «زينائيد» تلحّ كي تأتي «أوريان» لتناول طعام الغداء، وبما أن امرأتي لاتحبّ كثيراً الخروج من منزلها فقد كانت تقاوم وتستعلم إن كانوا لايزجونها مخادعين، بحجة وليمة خاصّة، في احتفال كبير وتحاول دون جدوى أن تعلم أيّ مدعوّين سيحضرن إلى هناك كانت «زينائيد» تلحّ وهي تمتدح الطيبّات التي ستقدم في الغداء: «تعالي، تعالي. ستأكلين مهروس الكستناء، لن أقول لك غير ذلك، وسيقدم سبع قطع صغيرة من «لقم الملكة». وصاحت «أوريان» قائلة: «سبع لقم صغيرة. ذلك يعني إذاً أنّنا سنكون ثمانية على الأقلّ!».

وبعد بضع لحظات أطلقت الأميرة ضحكتها، بعدما فهمت. وكأنها هزيم الرعد. «آه! سنكون ثمانية

إذن، ذلك رائع! وما أحسن الصياغة!» تقول وقد عادت فلقيت في جهد أخير العبارة التي سبق أن استخدمتها السيّدة «دبيبنيه» والتي كانت أحسن موقعاً هذه المرّة.

- «أوريان، جميل جدّاً ما تقوله الأميرة، تقول إنّه «حسن الصياغة».

وأجابت السيّدة «دو غيرمانت» التي كانت تستسيغ بيسر طرفة حينما تنطق بها صاحبة سموّ وتمتدح نباهة فكرها في الآن نفسه: «ولكنّك لاتعلمنّي شيئاً ياصديقي. إنّي شديدة الاعتزاز أن تقدرّ سيّدتي صياغتي المتواضعة على أنّي لا أذكر أنّي قلت ذلك. وإن كنت فعلت فلأدغدغ مشاعر ابنة عمّي، ذلك لأنّه لو كان لديها سبع لقم فلابدّ أنّ الأفواه، إن توفّرت لي جرأة التعبير على هذا النحو، كانت تتجاوز الدزّينة».

وفي هذه الأثناء كانت الكونتيسة «دار باجون» التي سبق أن قالت لي قبل العشاء إنّ عمّتها كانت ستسعد أعظم السعادة أن تفرّجني على قصرها في النورماندي، كانت تقول لي من فوق رأس الأمير «داغريجانت» إن المكان الذي تودّ على وجه الخصوص أن تستقبلني فيه واقع في منطقة «الساحل الذهبي» لأنّها هناك، في «بون لودك»»، إنّما هي في دارها.

أكدّت لي الكونتيسة، التي سبق أن أخطرتني السيّدة «دو غير مانت» أنّها طويلة الباع في الآداب، قائلة: «قد تثير محفوظات القصر اهتمامك فثمة مراسلات غريبة إلى حد بعيد بين جميع أبرز الشخصيات في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. إنّي أقضي هناك ساعات رائعة وأعيش في الماضي».

وعادت الأميرة تقول، وهي تتحدّث عن السيّدة «دو ديكور»، وكانت تريد أن تجهد في إبراز الأسباب الوجيهة التي يمكن أن تكون لديها لإقامة علاقات صداقة معها: «إنّها تملك جميع مخطوطات السيّد «دو بورنبيه»».

فقالت الدوقة: «لابدّ أنّها حلمت بذلك وأظنّ أنّها ما كانت حتّى تعرفه».

وتابعت الكنتيسة «دار باجون» التي كانت تربطها بالبيوتات الدوقية في أوروبا، وحتّى الملكيّة منها، علاقات مصاهرة يسعدها أن تذكر بالأمر: «ماهو جدير بالاهتمام على وجه الخصوص أن تلك المراسلات صادرة عن شخصيّات من بلدان مختلفة».

وقال السيّد «دو غيرمانت» دون أن يكون خالي القصد: «بلى. يا أوريان، تتذكّرين تماماً ذاك العشاء الذي كان فيه السيد «دوبورنييه» جاراً لك!».

فقاطعته الدوقة قائلة: «إن كنت تقصد أن تقول يا «بازان» إنّي عرفت السيّد «دو بورنييه» فبالطبع، وهو حتّى جاء عدّة مرّات ليلقاني ولكنّي ما استطعت في يوم أن أعقد العزم على دعوته فقد كنت أضطر في كلّ مرّة إلى طلب التطهير بالفورمول. فأما عن ذلك العشاء فإنما اتذكّره تمام التذكّر ولم يكن على الإطلاق في منزل «زينائيد» التي لم تبصر «بورنييه» طوال حياتها ولابدّ أنّها تعتقد، إن حدثوها عن «ابنة رولان»، بأنّ الحديث عن أميرة من أسرة «بونابرت» يزعمون أنّها خطيبة ابن ملك اليونان. لا، كان ذلك في سفارة النمسا.

لقد ظنّ «هريوس» الظريف أنّه يسعدني وهو يطرح على كرسيّ إلى جانبي عضو الأكاديمية النتن هذا. لقد خلت سرية من رجال الدرك جيراناً لي، واضطررت أن أكم أنفي قدر المستطاع في أثناء العشاء كلّه ولم اجرؤ على التنفّس إلاّ حين تقديم جبنة «الغروير»!.

وتفحصّ السيّد «دو غيرمانت»، بعدما بلغ هدفه الخفيّ، تفحّص خلسة الأثر الذي خلفّته كلمة الدوقة على وجوه المدعوين.

وتابعت السيّدة «الطويلة الباع في الأدب والتي كانت تملك في قصرها رسائل غريبة إلى هذا الحدّ، وذلك على الرغم من اعتراض وجه الأمير «داغر يجانت»: «إنّي أجد للمرسلات على أيّ حال سحراً خاصاً. فهل لاحظتم أنّ رسائل الكاتب غالباً ما تفوق بقيّة آثاره؟ ماعساه يدعى ذاك الكاتب الذي ألفّ «سالمبو»؟

وددت ألاّ أجيب كي لاأطيل هذا الحديث، ولكنّي شعت أنّي سأكدّر الأمير «داغر يجانت» الذي تظاهر بأنّه يعرف أتمّ المعرفة مّمن كانت «سالمبو» وأنّه يدع لي لذّة الإعلان عنه محض مجامل، لكنّه كان في أشدّ الحيرة.

وقلت آخر الأمر: «فلوبير»، ولكنّ إشارة الموافقة التي رسمها رأس الأمير قضت على صدى إجابتي حتّى أنّ محدثّتي لم تعلم بالضبط إن كنت قلت «بول بير» أو «فوليير» وهما اسمان لم يخلفّا في نفسها رضى تامّاً.

فأردفت تقول: «وفي جميع الأحوال ما أغرب مراسلاته وكم تفوق كتبه! وإنّها لتفسّره على أيّ حال إذ إننا نبصر في كلّ ما يقال عن المشقّة التي يصادفها في وضع أيّ كتاب أنّه لم يكن كاتباً حقيقيّاً وإنساناً موهوباً».

– «تتحدثّين عن المراسلات، وإنّي أجد مراسلات «غامبيتّا» رائعة، تقول الدوقة «دو غير مانت» كي تبرز أنّها لاتخشى الاهتمام ببروليتاري وراديكالي. وأدرك السيّد «دو بريوتيه» كامل معنى هذه الجرأة ونظر من حوله بعين زائغة ورفيقة معاً، وبعد ذلك مسح نظّارته.

وقال السيّد «دو غير مانت»: «ياإلهي، ما أسأمها كانت ابنة رولان!»، وهو لايزال بعد في أمر السيّد «دو بورنييه»، وبالرضى الذي يخلفه لديه شعوره بالتفوق إزاء مؤلفّ قد أضجره إلى هذا الحدّ وربما أيضاً من جرّاء «يطيب لك، والبحر هائج» (*)، الذي تحسّ به، أثناء عشاء فاخر، في تذكّر أمسيات مريعة إلى هذا الحدّ. «على أنّه كان فيها بعض البيوت الجميلة وعاطفة وطنيّة».

وألمحت إلى أنّي لم يكن يداخلني أيّ إعجاب بالسيّد «دو بورنييه».

وسألني الدوق باستغراب: «ألديك ماتلومه عليه؟»، وكان يظنّ على الدوام، حينما يتناولون بالسوء أحدهم، أنّ الأمر ناجم عن استياء شخصي، وامرأة بالحسنى، أنّها بداية حبّ عابر. «أرى أنّك حاقد عليه، فما

(*) ورد في النص استشهاد بالشاعر الروماني «لوكريس»: Suave marimagno وهي بداية قصيدة تقول: «يطيب لك، والبحر هائج، أن تنظر من اليابسة إلى المخاطر المرهيبة التي يتعرض لها الغير».

الذي فعله بك؟ قصّ ذلك علينا! بلى، لابدّ أنّ بينكما جثّة بما أنك تذمّه. «ابنة رولان» مؤلّف طويل ولكنّه صادق الشعور إلى حدّ ما».

وقاطعته السيّدة «دو غيرمانت» قائلة: «صادق الشعور» كلمة صحيحة تماماً بالنسبة إلى كاتب ذكّي الرائحة إلى هذا الحدّ. فإن اتّفق أن كان هذا الصغير برفقته في يوم فمن المنطقي إلى حدّ ما أن يعلق في أنفه!».

وعاد الدوق يقول وهو يوجّه الحديث للأميرة «دوبارما»: «لابدّ لي على أيّ حال أن أعترف لسيّدتي أنّني في الأدب وحتّى في الموسيقى، باستثناء «ابنة رولان»، قديم الهوى فليس من هزار مهما شاخ إلاّ ويروقني. قد لاتصدّقيني ولكنّما يتّفق لي في المساء، أن جلست زوجتي إلى البيانو، أن أطلب منها لحناً قديماً لـ«أوبير»، لـ «بوالديو» وحتّى لـ«بيتهوفن»! ذلك ما أحب. أمّا بخصوص «فاغنر» في مقابل ذلك فانّه ينوّمني في الحال».

وقالت السيّدة «دو غيرمانت»: «لست على حقّ، فقد كان «فاغنر»، إلى جانب تطويل لايطاق، يملك العبقريّة. إن «لوهانغرين» رائعة فنّية. حتى في غنائيّة «تريستان» ثمة ههنا وهناك صفحة طريفة. أمّا كورس الغزّالات في «السفينة الشبح» فآية محضة.

وقال السيّد «دو غيرمانت» موجّهاً كلامه للسيّد «دو بريوتيه»: «أليس أنّنا نفضل يا «بابال».

«إنّ مواعيد الرفاقة الكريمة

تُضرب كلّها في هذا المقام الساحر»(*).

ذلك رائع. و«فرا ديافولو» و«المزمار المسحور» و«الشاليه» و«عرس فيغارو» و«ماسات التاج»، تلكم هي الموسيقى! والأمر واحد في الأدب. وهكذا فانّي أعشق «بلزاك» و«حفلة سو الراقصة» و«موهيكان باريس».

– «آه! ياعزيزي، إن أنت انطلقت في الحديث عن «بلزاك» فما أبعد أن ننتهي. احتفظ بذلك ليوم يكون فيه «ميميه» حاضراً هو في ذلك بعد أفضل، إنّه يعرفه عن ظهر القلب».

وسلّط الدوق، وقد غاظته مقاطعة زوجته، سلّط عليها بضع لحظات نيران صمت متوعدّ. وكانت عيناه الحادتان تبدوان وكأنّهما مسدّسان محشوان. وفي أثناء ذلك كانت السيّدة «دار باجون» قد تبادلت والأميرة «دو بارما»، حول الشعر المأساوي وغيره، أقوالاً لم تبلغ مسامعي على نحو واضح حينما سمعت هذا القول تجود به السيّدة «دار باجون»: «آه! كلّ ما تشاء سيّدتي إنّي أوافقها أنّه يرينا العالم قبيحاً لأنّه لايحسن التمييز بين القباحة والجمال أو بالأحرى لأن غروره الذي لايطاق يحمله على الاعتقاد بأن كلّ مايقوله جميل، وإنّي أقرّ مع سموّك أنّ في المقطوعة المعنية أموراً مضحكة ومتعذرّة الفهم وأخطاء ضدّ الذوق وأنّها عسيرة الإدراك وهي توليك في قراءتها مشقة بقدر ما لو كانت مكتوبة بالروسية الصينية، فهي كلّ شيء بالطبع باستثناء

(*) هي بداية الثنائي «جيرو» و«نيسيت» في غنائية لـ«هيرولد» (١٨٣٢).

الفرنسيّة. ولكننا، بعد ما ننفق هذه المشقة، أيّة مكافأة ننال، فما أكثر ما فيها من خيال!؟ لم أكن قد سمعت بداية هذا الخطاب الصغير. وأدركت في النهاية أنّ الشاعر العاجز عن التمييز بين الجمال والقباحة هو «فيكتور هوغو»، وليس ذلك فحسب بل إن القصيدة التي كانت تقتضيك لفهمها قدراً من المشقّة يساوي ما تقتضيه الروسيّة الصينيّة هي:

«عندما يطلع الطفل

يضجّ مجلس العائلة بالصياح والتصفيق...»

وهي مقطوعة من فترة الشاعر الأولى وربّما كانت حتّى أكثر قرباً من «مدام ديزولبير» منها من أسلوب فيكتور هوغو في «أسطورة القرون». وعوضاً عن أن أجد السيّدة «دار باجون» سخيفة رأيتها «وهي الأولى على هذه المائدة الحقيقية إلى حدّ بعيد، العاديّة إلى حدّ بعيد. التي جلست إليها بهذا القدر من خيبة الأمل)، رأيتها بعيني الفكر في قلنسوة الدانتيلا تلك التي تفلت منها قصيبات مستديرة لذوائب طويلة والتي اعتمرتها السيّدة «دوريموزا» والسيّدة «دو بروي» والسيّدة «دو سانت أولير» وسائر النساء العظيمات الأناقة اللواتي يستشهدن في رسائلهنّ الرائعة وبالكثير من العلم وحضور البديهة بسوفوكليس وشيلر وكتاب «المضاهاة» واللواتي كانت أولى قصائد الرومانتيكيّين تبعث في نفوسهنّ هذا الرعب وهذا التعب اللذين لاينفصلان في نظر جدّتي عن آخر أشعار «ستيفان مالارميه».

وقالت الأميرة «دو بارما» للسيّدة «دو غيرمانت» وقد أثّرت فيها اللهجة الحماسيّة التي قيل بها الخطاب: «إن السيّدة «دار باجون» تحبّ الشعر كثيراً».

وأجابت السيّدة «دو غيرمانت» بصوت خافت: «لا، إنّها لاتفهم شيئاً منه على الإطلاق»، مستغلّة أنْ كانت السيّدة «دارباجون» فيما تردّ على اعتراض للواء «دو بوتريي» أكثر انصرافاً إلى أقوالها الخاصّة من أن تسمع تلك التي همست بها الدوقة. «لقد أضحت أدبيّة النزعة منذ أن هُجِرَتْ. سوف أقول لسموّك إنّي إنّما أحمل أنا وزر كلّ هذا لأنّها إنّما تجيء إليّ شاكية في كلّ مرّة لم يذهب فيها «بازان» للقائها، يعني كلّ يوم تقريباً. على أنّ الذنب ليس ذنبي إن كانت تشيع الملل في نفسه ولا أستطيع إجباره على الذهاب إلى منزلها مع أنّني ربّما فضّلت أن يكون بعض الشيء أكثر إخلاصاً لها لأنّني أراها بذلك أقلّ بعض الشيء. لكنّها «تزهقه» وليس ذلك بغريب. ماهي بالمرأة السيئة ولكنّها مزعجة إلى درجة لاتستطيعين تخيلها. وإنّها تورثني في كلّ يوم أوجاعاً في الرأس شديدة إلى حدّ اضطر معه أن أتناول في كلّ مّرة قرصاً من البيراميدون. كلّ ذلك لأنّه طاب لـ«بازان» طوال عام أن يخدعني معها. وليكن لك فوق ذلك خادماً خاصاً يعشق بلهاء صغيرة ويحرد إن لم أطلب إلى هذه المرأة الشابّة أن تغادر رصيفها المربيح فترة لتأتي وتتناول الشاي معي!» واختتمت الدوقة الحديث بلهجة فاترة: «آه! إنّ الحياة قاتلة».

كانت السيّدة «دار باجون» تزهق السيّد «دو غيرمانت» بوجه خاص لأنّه كان منذ وقت وجيز عشيقاً لأخرى علمتُ أنها المركيزة «دو سورجي لو دوك». وكان الخادم الخاصّ الذي حرم يوم عطلته يقوم بالضبط بتقديم الطعام. وحسبته يفعل ذلك، ولايزال حزيناً، بكثير من الاضطراب إذ لاحظت وهو يقدمّ الأطباق للسيّد

«دوشاتيلرو» أنّه يودّي مهمتّه برعونة كبيرة إلى حدّ أن اتفق أن يصدم مرفق الدوق عدّة مرّات مرفق الخادم. ولم يغضب الدوق على الطلاق من الخادم الذي كست وجهه الحمرة بل نظر إليه على العكس وهو يضحك بعينه الزرقاء الصافية. وبدا لي أنّ البشاشة فيما يخصّ المدعوّ كانت برهاناً على الطيبة. ولكنّ الإلحاح في الضحك حملني على الاعتقاد بأنه على علم بخيبة الخادم وأنّه ربما داخله على العكس فرح ماكر.

وتابعت الدوقة تقول وهي توجّه الحديث هذه المرّة إلى السيّدة «دار باجون» التي أبصرتها منذ قليل تدير رأسها بادية القلق: «ولكنّك تعلمين ياعزيزتي أنّك لاتقومين باكتشاف وأنت تحدّثيننا عن «فيكتور هوغو». لا تأملي أن تروجّي لهذا المبتدئ، فالكلّ يعلم أنّه صاحب موهبة. إنّ ماهو مقيت هو «فيكتور هوغو» الفترة الأخيرة. فترة «اسطورة القرون»، لم أعد أعرف العناوين. ولكنّ «أوراق الخريف» و«أناشيد الغروب» هما في الغالب من عمل شاعر حقيقي». وأضافت الدوقة التي لم يجرؤ محدثوها على مخالفتها، والسبب وجيه: «حتّى في «التأمّلات» لايزال هناك أشياء حلوة. ولكنّي أقرّ أنّي أفضلّ ألا أغامر بعد «الغروب»! ثم إنّك غالباً ما تلقي في قصائد «فيكتور هوغو» الجميلة، وهي موجودة، فكرة، بل فكرة عميقة».

ثمّ قالت الدوقة على مهل وباحساس صحيح وهي تستخلص الفكرة الحزينة بكامل قوى نبرتها وتضعها خلف حدود صوتها وتحدّق أمامها بنظرة حالمة رائعة:

— «خذي مثلاً:

«إن الألم ثمرة ليس ينميها الله على غصن لايزال شديد الضعف كيما يحملها».

أو هذا أيضاً:

«ما أقلّ مايدوم الأموات...

وإنّهم وأأسفي لينقلبون في التابوت تراباً

بأقلّ سرعة ممّا يفعلون في قلوبنا!»

وفيما كانت ابتسامة مخيبة تغضّن فمها الذي ينضح ألماً بالتواءة ناعمة ثبتت الدوقة على السيّدة «دارباجون» نظرة حالمة من عينيها الصافيتين الساحرتين. لقد أخذت أعرفهما كما أعرف صوتها المتمهلّ المتثاقل المستملح كأشدّ ما يكون. وكنت ألقى في هاتين العينين وهذا الصوت الكثير من طبيعة «كومبريه». كان ثّمة بالتأكيد أشياء كثيرة في التصنّع الذي كان يبرز به ذاك الصوت بين الحين والحين خشونة تفوح منها رائحة الأرض: فالمنشأ الريفي تماماً لفرع من أسرة «غير مانت» ظلّ محدد المكان فترة أطول، وأكثر إقداماً وأشد انعزالاً وأكثر تحدّياً ؛ ثمّ تعوّد جماعة من أهل الأناقة الحقّة وجماعة فكر يعلمون أنّ الأناقة ليست في التحدّث من طرف الشفتين وكذلك نبلاء يرتضون التآخي مع فلاحيهم أكثر منهم مع جماعة من البورجوازيين ؛ كلّ هذه الخصائص التي سمح وضع السيّدة «دو غير مانت» ملكةً أن يبرزها بسهولة أكبر وأن ينشرها على الملأ. ويبدو أنّ هذا الصوت نفسه كان يميّز شقيقات لها تكرههّن وكنّ. وهنّ أقلّ ذكاء وقد

زُوِّجْنَ زواجاً يكاد يكون بورجوازياً تقريباً، إن أمكن استخدام هذه الصفة حينما يتناول الأمر زيجات من نبلاء مغمورين يقبعون في مقاطعتهم أو في باريس في زاوية من حيّ «سان جيرمان» لا ألق فيها، كنّ يمتلكن ذاك الصوت لكنّهن كبحنه وأصلحن منه ولطّفنه جهد المستطاع مثلما يندر أن تتوافر لأحد منّا جرأة الأخذ بتفرّده وألاّ يصرف جهده إلى محاكاة النماذج الأكثر تحبيذاً. ولكنّ «أوريان» كانت أكثر ذكاء بما لا يقاس وأوفر ثراء وأقرب إلى الموضة على وجه الخصوص من شقيقاتها ولقد كان تأثيرها، بوصفها أميرة «لوم»، عظيماً جداً على أمير «غال» إلى حد أدركت معه أنّ ذاك الصوت الناشز كان من السحر وأنّها جعلت منه، على صعيد المجتمع الراقي، بالجرأة التي يوفّرها التفردّ والنجاح، ماصنعت على صعيد المسرح مثيلات «ريجان» و«جان غرانييه» (دون مقارنة بالطبع وعلى أيّ حال بين قدر هاتين الفنّانتين وموهبتهما) من صوتهما، أي شيئاً رائعاً ومتميّزاً ربما حاولت شقيقات يدعين «ريجان» و«غرانييه» ولم يعرفهن أحد في يوم أن يطمسنه على أنّه عيب من العيوب.

وقد جاء الكتّاب المفضلون لدى السيّدة «دو غيرمانت»: «ميريميه» و«ميلاك» و«هاليفي» يضيفون إلى هذا العدد من الأسباب الداعية إلى إبراز تفرّدها المحلّي، يضيفون، إلى جانب احترام «الفطريّ» من الأمور، ميلاً إلى العبارة العادية تبلغ به حدّ الشعر وظرفاً مجمعياً صرفاً كان يوقظ مساحات أمام عينّي. وكانت الدوقة قادرة تماماً على أيّ حال، إذ تضيف إلى هذه التأثيرات سعياً فنياً، أن تكون اختارت لمعظم المفردات النطق الذي يبدو لها أقرب ما يكون إلى منطقة «إيل دو فرانس» وأكثر ما يكون من محلّة «الشامبانيي» لأنّها، وإن لم تبلغ تماماً مبلغ شقيقة زوجها «مارسانت»، قلما كانت تلجأ إلى غير المفردات الصرفة التي ربّما أمكن أن يستخدمها كاتب فرنسيّ قديم. وحينما كنت تملّ اللغة الحديثة المخلطة المرقّشة كان الإصغاء إلى حديث السيّدة «دو غيرمانت» راحة عظيمة، مع علمك التامّ أنّها تعبر عن أشياء أقل بكثير – الراحة نفسها التي تحسّ بها، إن اتّفق أن تكون وحدك معها وحدت من غزارة القول ووضّحته، في الاستماع إلى أغنية قديمة. وفيما كنت أنظر إلى السيّدة «دو غيرمانت» وأصغي إليها كنت أبصر حينذاك، وأنا سجين عصر عينيها الدائم المطمئن، سماء من مقاطعة «إيل دو فرانس» أو «الشامبانيي» تمتد زرقاء مائلة وبها زاوية الميل نفسها التي كانت تتخذها لدى «سان لو».

هكذا، وبفضل هذه الثقافات المختلفة، كانت السيّدة «دو غيرمانت» تعبر في الآن نفسه عن أعرق الأرستقراطية الفرنسية، وبعد ذلك بكثير عن الطريقة التي ربّما استطاعت الدوقة «دو بروي» بها أن تتذوق «فيكتور هوغو» وتذمه في عهد ملكية تموز، وأخيراً عن ميل قوي إلى الأدب صادر عن «ميريميه» و«ميلاك». كانت أولى هذه الثقافات تروقني أفضل من الثانية وتعينني أكثر منها على تعويض خيبة الرحلة والوصول إلى حيّ «سان جيرمان» هذا، وما أكثر اختلافه عمّا كنت قد ظننت، ولكنّي كنت أفضلّ الثانية على الثالثة. فقيما كانت السيّدة «دو غيرمانت» غير مانتيّة عن غير قصد تقريباً كانت نزعتها «البايرونية»(*). وحبّها لـ«دوماس» الإبن صادرين عن ترو وقصد ولمّا كان هذا الحب نقيض حبّي، فقد كانت توفر لفكري الأدب حينما تحدثني عن حيّ «سان جيرمان» ولاتبدو لي البتّة بمثل التصاقها الغبي بحيّ «سان جيرمان» إلا حينما

(*) نسبة إلى الكاتب المسرحي الفرنسي Pailleron

تحدّثني في الأدب.

صاحت السيّدة «داريباجون» وقد هزّتها الأبيات الأخيرة:

«إن لبقايا القلب هذه ترابها أيضاً!».

وقالت للسيّد «دو غيرمانت»:

«ينبغي أن تكتب لي ذلك على مروحتي ياسيّدي».

فقالت الأميرة «دو بارما» للسيّدة «دو غيرمانت»: «ياللمرأة المسكينة، إنّها تبعث الأسى في نفسي».

– «لا، لايرقّ قلب سيّدتي، فليست تنال إلاّ ما تستحق».

– «ولكن.... عفوك أن أقول ذلك لك أنت... ولكنّها محبّة حقاً!».

– «لا، على الإطلاق، إنّها عاجزة عن ذلك، تظن أنّها محبّة كما تظنّ في هذه اللحظة أنّها تروي لـ«فيكتور هوغو» لأنّها تذكر بيتاً لـ«موسيّه». وأضافت الدوقة بلهجة حزينة: «خذي، ليس من قد يهزه شعور صادق أكثر منّي: ولكنّي سأقدم لكِ مثالاً. البارحة أقامت الدنيا وأقعدتها على رأس «بازان»، وربّما ظننت، سموّك، أنّها فعلت لأنّه يحبُّ أخريات غيرها، لأنّه لم يعد يحبّها. لا على الإطلاق. لقد فعلت لأنّه لايريد أن يقدّم أبناءها في نادي الفروسيّة! أفترى سيّدتي أنّ تلك فعلة عاشقة؟» وأضافت السيّدة «دو غيرمانت» تتوخّى الدقّة «لا! سوف أقول لك أكثر من ذلك، إنّها امرأة نادرة في قلّة إحساسها».

كان السيّد «دو غيرمانت» أثناء ذلك قد أصغى، والعين يلتمع فيها الرضى، إلى زوجته وهي تتحدّث عن «فيكتور هوغو» دون سابق استعداد وتروي له بضعة أبيات. وعبثاً يتفق له أن تزعجه الدوقة فقد كان فخوراً بها في مثل هذه اللحظات. «أوريان» رائعة حقاً. تستطيع التحدّث في كلّ شيء وقد قرأت كلّ شيء لم يكن بوسعها أن تحزر أنّ الحديث سيتناول «فيكتور هوغو» في هذا المساء. إنّها على استعداد أيّاً كان الموضوع الذي يطرح عليها وتستطيع مجابهة أكثرهم علماً. لابدّ أنها خلبت لبّ هذا الشابّ».

وأضافت السيّدة «دو غيرمانت» تقول: «لكن هيّا نغيّر الحديث لأنّها سريعة الغضب». وأردفت قائلة وهي تلتفت إليّ: «لابدّ أنّك تجدني من طراز قديم جدّاً، فانّي أعلم أن حبّ الأفكار في الشعر يعتبر اليوم ضعفاً شأن الشعر الذي يحوي فكراً».

– «من طراز قديم؟» تقول الأميرة «دو بارما» بالدهشة الخفيفة التي كانت تسبّبها لها هذه الموجة الجديدة التي لم تكن تتوقعها، مع أنّها تعلم أن حديث الدوقة «دو غيرمانت» يخبئ لها دوماً هذه الصدمات المتلاحقة اللذيذة وهذا الرعب الذي يقطع الأنفاس وهذا التعب الصحّي الذي كانت تفكرّ بعده على نحو غريزي بضرورة غسل قدميها في حجرة حمّام والسير بسرعة للحصول على ردّة الفعل».

وقالت السيّدة «دو بريّساك»: «لا يا أوريان فيما يخصني، فلست غاضبة من «فيكتور هوغو» لأنّه يملك

أفكاراً، بل على العكس تماماً، وإنّما للبحث عنها في كلّ ما كان فظيعاً. فهو الذي عوّدنا في الأساس على القباحة في الأدب. إنّ في الحياة ما يكفي من قباحات، فلماذا لا ننساها على الأقلّ حينما نقرأ؟ إن المشهد المؤلم الذي ربّما أشحنا بوجهنا عنه في الحياة، ذلك مايجتذب «فيكتور هوغو».

وسألت الأميرة «دو بارما» قائلة: «ليس فيكتور هوغو بقدر واقعية «زولا» مع ذلك؟».

ولم يحرّك اسم «زولا» عضلة في وجه السيّد «دو بوتر يّي». لقد كان عداء اللواء لـ«دريفوس» أعمق من أن يحاول التعبير عنه. كان سكوته اللطيف حينما يطرقون تلك الموضوعات يهزّ مشاعر غير العارفين بالأمور بالرقة نفسها التي يبديها كاهن إذ يتجنّب التحدّث إليك عن واجباتك الدينية، ورجل مال إذ يجهد ألاّ يوصي المشروعات التي يديرها، وجبار حين يبدي اللطف ولا يوجّه إليك اللكمات.

وقالت لي السيّدة «دو فارامبون» بلهجة العارف، وكانت وصيفة شرف للأميرة «دو بارما» وامرأة ممتازة ولكنّها محدودة الأفق وقد وفرّتها للأميرة «دو باما» فيما مضى والدة الدوق: «أعلم أنّك قريب أمير البحر «جوريان دو لاغرافيير» ولم تكن بعد قد وجهّت إليّ الحديث ولم أستطع البتّة فيما بعد، على الرغم من تعنيفات الأميرة «دوبارما» واحتجاجاتي الخاصّة، أن أنزع من ذهنها فكرة أنّ لي صلة أيّة كانت بأمير البحر عضو الأكاديمية الذي كان مجهولاً تماماً عندي لقد كان في إصرار شرف الأميرة «دو بارما» أن تبصر في شخصي ابن أخ لأمير البحر «جوريان دو لاغرافيير» ما يثير الضحك إلى حدّ الابتذال. ولكن الخطأ الذي كانت ترتكبه لم يكن سوى النموذج اليابس المبالغ فيه لأخطاء ما أكثرها أقلّ وزناً وأفضل تنوعاً غير مقصودة أو متعمدة ترافق اسمنا في البطاقة التي يخطها المجتمع فيما يتعلق بنا. وإني أذكر أنّ صديقاً لآل «غيرمانت» أبدى رغبته الشديدة في التعرف بي» وقدّم لي بمنزلة السبب أني كنت أعرف أتمّ المعرفة ابنة عمّه السيّدة «دو شوسغرو» «إنّها فاتنة وتحبّك حبّاً جماً» وتوخيتّ الدقّة، دونما جدوى، في الإلحاح على أن ثمّة خطأ وأنّي ما كنت أعرف السيّدة «دو شوسغرو»: «أنت تعرف أختها إذاً، والأمر واحد. لقد التقت بك في سكوتلندا». ولم أكن ذهبت قط إلى سكوتلندا وتكلفت عبثاً عناء تنبيه محدّثي إلى الأمر بداعي النزاهة. كانت السيّدة «دو شوسغرو» نفسها هي التي قالت إنّها تعرفني وكانت تعتقد ذلك دونما شكّ عن حسن نيّة من جرّاء التباس سابق لأنها لم تنفك تمد لي يدها بعد ذلك حينما كانت تشاهدني. وقصارى القول إنه لما كان الوسط الذي أرتاده هو بالضبط وسط السيّدة «دو شو سغرو» فإنّ تواضعي ما كان ليعني شيئاً أمّا أن أكون من ألاف عائلة «شو سغرو» فضلالة بالمعنى الحرفي للكلمة ولكنّه على الصعيد الاجتماعي مكافيء لمكانتي، إن أمكن التحدّث عن مكانة بالنسبة إلى من كان بمثل شبابي. فعبثاً لا ينقل إليّ صديق آل «غير مانت» سوى أمور خاطئة عنّي فإنّه لم يخفض ولا رفع من قدري (على الصعيد الإجتماعي) في الفكرة التي لم ينفك يحملها عنّي. ومجمل القول أن سأم العيش الدائم داخل الشخصية نفسها إنّما يتبدّد برهة، بالنسبة إلى الذين لايتصنّعون أدورهم، كما لو يعتلي المرء خشبة المسرح حينما يكوّن شخص آخر فكرة زائفة عنك ويظنّ أنّنا على علاقة صداقة بسيّدة لانعرفها ويسجّل علينا أنّنا عرفناها في أثناء رحلة بديعة لم نقم بها البتّة. إنّها أخطاء مكثّرة ولطيفة حينما لا تّتسم بالتصلب الذي لايلين والذي يميز ذاك الذي كانت ترتكبه وارتكبته طوال حياتها كلّها، على الرغم من صنوف إنكاري، وصيفة الشرف البلهاء لدى السيّدة «دو بارما»، الوصيفة التي ترسخ أبداً في اعتقادها أنّي

كنت قريب أمير البحر المملّ «جوريان دو لاغرافيير». وقال لي الدوق: «ليست قوية جداً، ثم إنّه لايلزمها الكثير من الشراب المراق وأظنّها قليلاً تحت وطأة «باخوس» (*). ولم تكن السيّدة «دو فارامبون» شربت بالحقيقة غير الماء ولكنّ الدوق كان يعشق استخدام عباراته المفضّلة.

– «ولكن «زولا» ليس واقعياً ياسيّدتي! إنه شاعر! تقول السيّدة «دو غيرمانت» مستلهمة الدراسات النقدية التي سبق أن قرأتها في هذه السنوات الأخيرة وموائمة بينها وبين موهبتها الخاصّة. أمّا الأميرة «دو بارما» التي طاب لها مازحمها من أمور حتّى الآن خلال الجوّ الفكريّ الذي لفّها هذا المساء، وهو جوّ مضطرب فيما يخصّها، والذي حكمت أنّه لابدّ سيفيدها على نحو خاصّ، وإذ استسلمت تتقاذفها المفارقات التي كانت تتدفق الواحدة تلو الأخرى، فقد قفزت إزاء هذه الأخيرة، وهي أكثر حسامة من الأخرى، مخافة أن تسقط أرضاً وقالت بصوت متقطع وكأنّما تفقد أنفاسها:

– «زولا» شاعر! فأجابت الدوقة ضاحكة وقد أبهجها أثر الاختناق هذا: «أجل، ولتلاحظي سموّك كيف يُعلي قدر كلّ ما يلمسه. سوف تقولين لي إنّه لايلمس بالضبط إلاّ ما.... يجلب السعد! ولكنّه يجعل منه شيئاً مترامي الحدود. إن في زبالته طابع الملحمة! إنّه هوميروس الأقذار! وليس يملك ما يكفي من حروف كبيرة ليخطّ بها كلمة «كامبرون» (**).

كانت الأميرة مغتبطة على الرغم من التعب العظيم الذي أخذت تحسّ به، فلم يسبق لها قطّ أن ألفت نفسها أفضل حالاً. وما كانت لتستبدل إقامة في «شون برون»، مع أنّها الأمر الوحيد الذي يدغدغ مشاعرها، بهذه الأعشية الرائعة لدى السيّدة «دو غير مانت» والتي توليها نشاطاً من جرّاء ما يداخلها من ظرف كبير.

وصاحت السيّدة «دار باجون» قائلة: «إنّه يكتبها بحرف C كبير» وتجيب السيّدة «دو غير مانت»: «بل بحرف M كبير فيما أعتقد ياصغيرتي»، ولايفوتها أن تبادل زوجها نظرة مرحة تقول بها: «ما أشدّ غباءها!» ثمّ قالت لي السيّدة «دو غير مانت»: «إليك بالضبط مثلاً»، وهي تثبت عليّ نظرة مشرقة عذبة ولأنّها كانت تبغي كربّة بيت كاملة أن تظهر لي علمها حول الفنّان الذي كان يهمني على نحو خاص وتوفر لي فرصة إظهار علمي إن دعت الحاجة، قالت لي وهي تحرك قليلاً مروحتها التي من ريش لشدّة ماتعي في تلك اللحظة أنّها تؤدي على أتمّ وجه واجبات الضيافة وتومئ كذلك، كي لاتخل بأي منها، ليقدّموا لي مرّة أخرى هليوناً بالمرق الهلاميّ، «إليك مثلاً، إنّي أعتقد بالضبط أنّ «زولا» كتب دراسة حول «إيلستير» هذا الرسّام الذي رحت منذ قليل تتأمل لوحاته»، وتضيف قولها: «وهي الوحيدة التي أحبّها له على أي حال».

كان في الواقع تكره رسم «إيلستير» ولكنّها ترى في كلّ ما تملك في بيتها ميزة فريدة. وسألت السيّد «دو غير مانت» إن كان يعرف اسم السيّد الذي يظهر بقبعة رسمية في اللوحة الشعبية والذي عرفت أنّه هو

(*) إله الخمر لدى قدماء الرومان.

(**) Cambronne جنرال فرنسي من القرن التاسع عشر عرف بإكثاره من استخدام كلمة merde بالفرنسية وتقابلها بالعربية كلمة ط... حتى درج الناس على استخدام اسمه بدلا من الكلمة تلك وهو ما يفسر قول الدوقة فيما بعد.

نفسه الذي كانت عائلة «غير مانت» تملك رسمه بلباسه الرسمي إلى جانب تلك تماماً ويعود تاريخه تقريباً إلى تلك الفترة نفسها التي لم تكن شخصيّة «إيلستير» قد برزت بعد فيها بروزاً تاماً وتستلهم «مانيه» قليلاً. فأجابني: «يالهي، أعلم أنّه ليس بالرجل المجهول ولا هو معتوه في اختصاصه، ولكنّي على خصام مع الأسماء. إنّه ههنا، على رأس لساني، إنّه السيّد... السيّد... لا أهمية لذلك على أية حال، فلم أعد أعرف. قد ينبئك «سوان» عن الأمر فهو الذي حمل السيّدة «دو غير مانت» على شراء هذه البضاعة، وهي أبداً بالغة اللطف وبها أبداً فرط خشية تكدير الناس إن هي رفضت أمراً ما. وإنّي أظنّ، وأقولها فيما بيننا، أنّنا ابتلينا بالرديء من اللوحات. ما يمكنني أن أقوله لك أنّ هذا الرجل كان بالنسبة إلي «إيلستير» بمثابة مناصر لفنّه وقد روّج له وغالباً ماجنّبه خطر الضائقة المالية بأن أوصاه على لوحات. وقد رسمه بداعي الامتنان– إن كنت تسمّي ذلك امتناناً، إذ الأمر رهن بالأذواق – في ذلك المكان حيث يخلّف فيك أثراً غريباً. قد يكون حبراً طويل الباع ولكنّه يجهل بالبداهة في أيّة مناسبات يعتمر المرء قبعّة رسميّة. وإنّه ليبدو بقبعتّه، وسط البنات الحاسرات وكأنّه كاتب عدل صغير من الريف لعبت الخمرة برأسه. ولكن، قل لي، تبدو لي مغرماً تماماً بهذه اللوحات. فلو أنّي عرفت ذلك لجمعت المعلومات لأجيبك. ولا ضرورة بأيّة حال أن تهتّم كثيراً للغوص في رسم «إيلستير» كما لو تناول الأمر لوحة «النبع» لـ«أنغر» أو لوحة «أولاد إدوار» لـ«بول دولاروش». إن ما تقدره فيها أن الأمور نمت ملاحظتها على نحو دقيق وهي مسليّة وعليها مسحة باريزية، ثمّ تمرّ مرور الكرام. ولاحاجة بك أن تكون واسع الاطّلاع لتشاهد ذلك. أعرف تماماً أنّها محض رسوم بسيطة وسريعة ولكنّي لا أرى أنّه صرف فيها ما يكفي من جهد. وقد بلغت الجرأة بـ«سوان» أن ابتغى حملنا على شراء لوحة «حزمة هليون» ؛ بل هي ظلّت ههنا بضعة أيّام. لم يكن في اللوحة سوى ذلك، حزمة هليون شبيه تماماً بهذا الذي تبتلعه. ولكنّي أنا رفضت ابتلاع هليون السيّد «إيلستير». كان يطالب بثلاث مئة فرنك. ثلاث مئة فرنك لحزمة هليون! عشرون فرنكاً، هذا كلّ ما تساوية، حتى البواكير منها! لقد وجدت ذلك صعب التصديق. فما أن يضيف شخصيّات إلى هذه الأشياء حتّى يضحي لها جانب مبتذل تشاؤمي لايروقني. وإني أعجب لرؤية فكر مرهف وعقل متميزّ على نحو ما أنت عليه بحبّ ذلك».

وقالت الدوقة التي لم تكن تحبّ أن ينتقص ما تحويه صالاتها: «ولكنّي لا أدري لماذا تقول ذلك يا «بازان» ما أبعدني أن أقبل كلّ شيء دون تمييز في لوحات «ايلستير»، ففيها الغثّ والسمين، ولكنّها على الدوام لاتخلو من موهبة. وينبغي الإقرار بأنّ اللوحات التى ابتعتها نادرة الجمال».

– «أوريان»، إنّي أفضّل ألف مرّة، في ما كان من هذا القبيل، دراسة السيّد «فيبير» الصغيرة التي شاهدناها في معرض الرسّامين المائيّين. إنّها لاشيء إن شئت وربّما وسعتها قبضة اليد، ولكنّ فيها ذكاء حتّى أصغر خطّ فيها: إن هذا المرسل المهزول الوسخ في حضرة هذا الحبر الناعم الذي يلاعب كلبه الصغر، إن ذلك لقصيدة صغيرة صيغت من رهافة وحتّى من عمق».

وقالت لي الدوقة: «أظنّك تعرف السيّد «إيلستير». إن الرجل ممتع».

وقال الدوق: «إنّه ذكيّ ويدهشك حينما تتحدّث إليه أن يكون رسمه عادياً إلى هذا الحدّ».

– «إنّه أكثر من ذكيّ، بل هو ظريف إلى حدّ ما»، تقل الدوقة بلهجة العارف الذوّاقة المطلّع على

بواطن الأمور.

وسألت الأميرة «دو بارما» قائلة: «ألم يكن قد باشر رسماً لك يا «أوريان»؟

فأجابت السيّدة «دو غير مانت»: «بلى، باللون الأحمر السرطاني. وما ذلك ما سيحمل اسمه إلى الأجيال القادمة. إنّه شيء مقيت وكان «بازان» ينوي إتلافه».

كانت السيّدة «دو غير مانت» كثيراً ما تقول هذه الجملة، ولكنّ تقييمها كان مغايراً في مرّات أخرى: «لست أحب فنّه في الرسم ولكنّه أنجز فيما مضى رسماً جميلاً لي». كان أحد هذين الرأيين يوجّه عادة إلى الأشخاص الذين يحدثون الدوقة عن صورتها والآخر لمن لايحدثونها عنها وهي راغبة أن تطلعهم على وجودها. فالأوّل كانت تستوحيه من غنجها والثاني من غرورها.

وقالت الأميرة «دو بارما» بسذاجة: «ينجز شيئاً مقيتاً في رسم لك! إنّه ليس إذ ذاك رسماً، إنّه كذبة؛ فأنا التي تكاد لاتدري كيف تمسك ريشة إنّما يبدو لي أنّني لو رسمتك لأنجزت رائعة فنّية بمحض تمثيل ما أرى».

وقالت السيّدة «دو غير مانت»: «إنّه يراني على الأرجح كما أرى نفسي، أعني خلواً من الجاذبيّة»، قالت بالنظرة الحزينة والمتواضعة والمغناجة في آن واحد والتي بدت لها أكثر ما يكون من شأنها أن تظهرها على غير ما أظهرها «إيلستير».

وقال الدوق: «لابدّ أن هذا الرسم لايسوء في عيني السيّدة «دو غالاردون»».

وسألت الأميرة «دو بارما» التي كانت تعلم أن السيّدة «دو غير مانت» تحتقر ابنة عمّها إلى مالاحدود: «ألأنّها غير عارفة بأمور الرسم؟ ولكنّها امرأة طيبة جداً، أليس كذلك؟» قالت. فعلت وجه الدوق دهشة عميقة.

— «ويحك يا «بازان»، ألا ترى أنّ الأميرة تسخر منك؟» (ولم يكن ذلك يخطر على بال الأميرة.) وأردفت السيّدة «دو غير مانت» تقول: «إنّها تعلم مثلما تعلم تماماً أن «غالاردون» الصغيرة عجوز مشاكسة»، وكانت مفرداتها، وقد اقتصرت عادة على سائر هذه العبارات القديمة، لذيذة كتلك الأطباق التي يمكن اكتشافها في كتب «بامبيي» الرائعة ولكنّها أضحت في الواقع شديدة الندرة والتي تكون المجمّدات فيها والزبدة والعصير والفطائر حقيقيّة ولاتحوي أيّ خليط آخر بل التي جيء لها بالملح من ملاّحات بريتانيه: فقد كنت تحسّ في النبرة واختيار المفردات أنّ أساس حديث الدوقة يصدر مباشرة عن «غير مانت». بذلك كانت الدوقة تختلف اختلافاً عميقاً عن ابن أختها «سان لو» الذي ازدحم رأسه بالكثير من الأفكار والعبارات الجديدة. فمن الصعب حينما تقلقك أفكار «كنت» وحنين «بودلير» أن تكتب الفرنسية الحلوة التي استخدمها «هنري الرابع»، حتّى إنّ صفاء لغة الدوقة نفسه إنّما كان علامة حصر وأن العقل والعاطفة قد ظلاّ لديها مغلقين دون جميع صنوف التجديد. في هذه النقطة أيضاً كان فكر السيّدة «دو غير مانت» يروقني بالضبط بما يستبعده (وما يشكّل بالدقّة مادّة تفكيري الخاص) وبكلّ ما استطاع من جراء ذلك نفسه أن يحافظ عليه، هذه الحيوية

الجذّابة في الأجسام المرنة التي لم يفسدها أيّ تفكر مرهق أو همّ خلقي أو اضطراب عصبيّ. كان فكرها الذي تشكّل قبل فكري بكثير، كان في نظري المرادف لما سبق أن قدّمته لي مشية فتيات الزمرة الصغيرة على شاطئ البحر. كانت السيّدة «دو غير مانت» تعرض لناظريّ، وقد روّضتها وأخضعتها الدماثة والاحترام الذي تبديه إزاء القيم الروحية، القوّة والفتنة لدى فتاة صغيرة قاسية القلب من ارستقراطييّ ضواحي «كومبريه» كانت، منذ طفولتها، تمتطي الجياد وتقصم ظهور الهررة وتنزع عيون الأرانب، ولعلّها كانت استطاعت، تماماً مثلما لبثت زهرة فاضلة، أن تكون قبل سنوات ليست بالقليلة، ولشدّة ما تمتاز بصنوف الأناقة نفسها، ألمع عشيقة للأمير «دو ساغان». بيد أنّها كانت عاجزة عن إدراك ما بحثت عنه في شخصها - السحر الكامن في اسم «غيرمانت»- والقليل الذي لقيته فيه، بقية قرويّة من آل «غير مانت». كانت علاقاتنا قائمة على أساس سوء تفاهم لايمكن إلاّ أن يبرز ما أن تذهب صنوف تقديره، بدلاً من أن تتّخذ طريقها إلى المرأة المتفوّقة نسبياً التي تظنّ أنّها تمثّلها، باتّجاه أيّة امرأة أخرى بمثل ضحالتها وينبعث منها السحر اللا متعمدّ نفسه. وسوء التفاهم هذا طبيعيّ جدّاً وسوف يظلّ قائماً أبداً بين شاب حالم وامرأة من دنيا المجتمعات ولكنّه يبعث في نفسه اضطراباً عميقاً مادام لم يتعرّف بعد طبيعة قدراته التخيّلية ولم يسلّم بخيبات الأمل المحتّمة التي لابدّ سيعانيها بالقرب من الناس، شأنه في المسرح والسفر وحتّى في الحبّ.

حينما أعلن السيّد «دو غير مانت» (بنتيجة هليون «إيلستر» والهليون الذي قُدّمَ لي منذ قليل بعد الفروج المعدّ بمرق العجل والدجاج) أن الهليون الأخضر الذي ينبت في الهواء الطلق والذي «لايملك صلابة شقيقه المذهلة»، على حدّ غريب القول الذي ينقله إلينا المؤلف الظريف الذي يوقّع باسم «أ. دو كليرمون تونّير»، يجدر أن يؤكل مع البيض أجاب السيّد «دو بريوتيه» قائلاً: «الأمر الذي يروق بعضهم ويسوء البعض الآخر والعكس بالعكس. ففي مقاطعة «كانتون» في الصين لايمكن أن يقدّموا لك طبقاً أطيب مذاقاً من بيض الأرطلاق الفاسد تماماً». ولم يكن السيّد «دو بريوتيه»، وهو مؤلّف دراسة على قوم المورمون ظهرت في «مجلة العالَميّن»، لم يكن يخالط غير أكثر الأوساط ارستقراطيّة، ومن بينها فحسب تلك التي تتمتّع ببعض الشهرة في دنيا الذكاء، حتّى ليعرف الناس من جرّاء حضوره، المتواصل منه على الأقلّ، إلى منزل امرأة إن كانت هذه الأخيرة تملك صالة. كان يدّعي أنّه يكره دنيا المجتمعات ويؤكّد لكلّ دوقة على حدة أنّه إنّما يسعى إليها نظراً لظرفها. وكنّ جميعهنّ واثقات من ذلك. وفي كلّ مرّة كان يسلّم، والأسى يعتصر فؤاده، بالذهاب إلى أمسية كبرى لدى الأميرة «دوبارما» كان يستدعيهنّ جميعهنّ كي يشجّعنه ولايظهر هكذا إلاّ وسط مجموعة أليفة. وكيما يظل صيته كمثقفٍ في منجى من واجباته المجتمعيّة كان يمضي، مطبقاً بذلك بعض قواعد مأثورة من روح آل «غيرمانت»، بصحبة سيّدات أنيقات ليقوم برحلات علميّة طويلة في فترة الحفلات الراقصة وحينما يأخذ شخص متحذلق، وبالتالي لامركز له بعد، في التردّد على كلّ مكان، كان يصرّ إصراراً عنيفاً على رفض التعرّف به وألاّ يسمح بأن يُقَدّم له. كان كرهه للمتحذلقين نابعاً من سنوبيتّه ولكنّه يحمل السذّج، يعني سائر الناس، على الاعتقاد بأنّه خلو منها.

وصاحت الدوقة «دو غير مانت» قائلة: «بابال» يعرف دوماً كلّ شيء. إنّ بلداً تودّ فيه التأكد من أنّ بائع الألبان يبيعك بيضاً فاسداً تماماً، بيضاً من عام المذنّب، إنّما أجده رائعاً. وأراني من هنا أغمس فيه كعكتي المطلية بالزبدة. وينبغي أن أقل إنّه يتفق لدى العمة «مادلين» (السيّدة «دو فيلباريزيس») أن يقدموا أشياء

متفسخة وحتّى بيضاً (وإذ أخذت السيّدة «دارجون» تحتجّ): ولكن عجباً يا «فيلي» إنّك تعرفين ذلك تماماً كما أعرفه. الصوص مذ ذاك في البيضة. ولست حتّى أعلم كيف يقودهم العقل إلى المكوث هناك. فليست عجّة، إنّها خمّ دجاج ولكنّما لم يشر إلى ذلك على الأقلّ في لائحة الطعام. حسناً فعلت أن لم تجيئي للعشاء قبل البارحة فقد كان ثمّة سمكة شبّوط بحمض الفينيك! ولم تكن تبدو مائدة ممدودة بل دائرة أمراض سارية. حقاً إن «نوربوا» يبلغ بالإخلاص حدّ البطولة: لقد عاد فصبّ منها!».

– «أظنّ أنّي رأيتك في منزلها يوم حملتْ على السيّد «بلوك» (ولم يلفظ السيّد «دو غير مانت» اسم «بلوك» بالكاف بل بالخاء كما هي الحال في الألمانية ربّما ليضفي على اسم يهوديّ كهذا سمة أجنبية أكبر) الذي قال عن شاعر لم أعد أدري من كان إنّه رائع. وعبثاً كان «شاتيلرو» يضرب على عظم ساق «بلوك» فلم يكن هذا الأخير يفهم وفي ظنّه أنّ همزات ركبة ابن أخي موجّهة لامرأة شابّة كانت تلاصقه تماماً» (وهنا كست حمرة طفيفة وجه السيّد «دو غير مانت»). ولم يتبيّن انّه يزعج عمتنا «بروائعه» التي يوزّعها ذات اليمين وذات الشمال. وقصارى القول إنّ العمّة «مادلين»، وليست قصيرة لسان، ردّت عليه قائلة: «ويحك ياسيد ماذا عساك تبقي إذن للسيّد «دو بوسّويه»؟ «وكان السيّد «دو غير مانت» يحسب أن لفظة السيّد والأداة قبل اسم مشهور كانا بالضرورة مطبوعين بطابع العهد السابق) (*). «كان ذلك في غاية الامتاع».

– «فبم أجاب السيد «بلوخ» هذا؟ «تقول السيّدة «دو غير مانت» ساهية وقد ظنّت من واجبها، إذ تضب معين تفرّدها في تلك اللحظة، أن تقلّد لفظ زوجها الألمانيّ.

– «آه! أؤكدّ لك أنّ السيّد «بلوك» لم ينتظر، ولايزال يجري».

وقالت لي السيدة «دو غير مانت» بلهجة واضحة: «أجل، إنّي أذكر تماماً أنّي رأيتك في ذلك اليوم»، وكأنّما كان في تلك الذكرى فيما يخصها أمر ينبغي أن تغتبط له نفسي كثيراً. «الأمور على الدوام مسلّية جدّاً في منزل عمتّي. كان بودّي في الأمسية الأخيرة التي التقيت بك بالضبط فيها أن أسألك إن لم يكن ذاك السيّد العجوز الذي مر بالقرب منّا «فرانسوا كوبيه». لابدّ أنّك تعرف جميع الأسماء»، تقول وهي تحسدني صادقة علاقاتي الشعرية وكذلك بداعي التلطف إزائي وكيما تزيد في نظر مدعويها من قدر شاب طويل الباع إلى هذا الحدّ في الأدب. وأكدت للدوقة أنّي لم أر أيّاً من الوجوه المشهورة في أمسية السيّدة «دو فيلباريزيس». فقالت السيّدة «دو غير مانت» بلهجة طائشة: «عجباً! عجباً! لم يكن ثمة كتّاب كبار! إنّك تذهلني مع أنّ كان ثمة هيئات لاتطاق!» تقول فتقرّ بذلك أن إجلالها لأهل الأدب وازدراءها لدنيا المجتمعات كانا أكثر سطحية مما تقول بل ربّما مما تعتقد.

كنت أتذكّر بوضوح تام ذلك المساء بسبب حادثة غير ذات شأن البتة. فقد قدّمت السيّدة «دو فيلباريزيس» «بلوك» للسيدّة «ألفونس دو روتشيلد» لكنّ رفيقي لم يسمع الإسم ولم يجب، وقد ظنّ الأمر أمر

(*) Bossuet مطران ذائع الصيت من القرن السابع عشر، ويحسب السيد «دو غير مانت» أنه يزيده مكانة باستخدام كلمة السيد بالإضافة إلى الأداة «دو de» التي تميز أسماء النبلاء.

إنكليزية عجوز مجنونة بعض الشيء، إلاّ بكلمات متقطعة على الأقوال المسهبة التي جادت بها جميلة الجميلات السابقة حينما قالت السيّدة «دو فيلباريزيس»، وهي تقدّمها لآخر غيره، بوضوح شديد هذه المرّة: «البارونة ألفونس دو روتشيلد». حينئذ انصبّ في شرايين «بلوك» فجأة ودفعة واحدة عدد كبير من أفكار الملايين والمهابة التي كان ينبغي أن يقوم بتفريعها بحذر إلى حدّ أنّه أصيب وكأنّما بطعنة في القلب وحمّى في الدماغ وصاح في حضرة السيّدة العجوز اللطيفة: «لو أني عرفت!» صيحة حال غباؤها دون أن ينام على مدى ثمانية أيّام. كانت كلمة «بلوك» تلك قليلة الشأن ولكنّي أتذكرها بمثابة البرهان على أننا نقول أحياناً في حياتنا ما نفكرّ فيه وذلك تحت وطأة انفعال غير عاديّ..

وقالت الأميرة «دو بارما»: «أعتقد أنّ السيّدة «دو فيلباريزيس» ليست... أخلاقيّة تماماً»، وكانت تعلم أنّهم لايرتادون منزل عمّة الدوقة وترى، انطلاقاً ممّا أقدمت هذه على قوله، أنّه يمكن التحدث بحرية عن ذلك. ولكنّها أضافت تقول، وقد بدا أنّ السيّدة «دو غير مانت» لاتوافقها:

– «ولكن الذكاء كفيل بتمرير كلّ شيء على هذا المستوى».

فأجابت الدوقة: «إنّك تحملين عن عمّتي الفكرة التي يحملها الناس بعامّة وهي باختصار القول مغلوطة تماماً. ذلك بالضبط ما كان يقوله لي «ميميه» وليس بأبعد من البارحة». (وكست الحمرة وجهها وغامت عيناها من جرّاء ذكرى مجهولة لديّ. وافترضت أن السيّد «دو شارلوس» طلب إليها أن تحجم عن دعوتي مثلما سبق أن رجاني بوساطة «روبير» ألا أذهب إلى بيتها. وخيل إليّ أنّ الحمرة – وسرها خافٍ عليّ بأية حال– التي كست وجه الدوق وهو يتحدث عن شقيقه لايمكن ردّها إلى السبب نفسه.) «مسكينة عمّتي! سوف تلازمها سمعة امرأة من العهد السابق ذات فكر خلاّب، وتهتّك لا ضابط له، وليس من عقل أكثر برجوازيّة وأوفر جديّة وأقلّ رونقاً. سوف تعد حامية للفنون، الأمر الذي يعني أنّها كانت عشيقة رسّام كبير ولكنّه لم يستطع في يوم أن يفهمها ماعسى تكون اللوحة. أمّا فيما يخصّ حياتها فلم تكن امرأة فاسدة، وما أبعد أن تكون، بل كانت معدّة للزواج وقد ولدت تطبعها الزوجيّة إلى حدّ أنّها إذ لم تستطع الحفاظ على الزوج لم تقدم على علاقة إلا أخذتها مأخذ الجدّ كما لو كانت قراناً شرعياً تصحبه صنوف الانفعال نفسها وصنوف الغضب نفسها والإخلاص نفسه. ولاحظي أنّها أحياناً من أكثرها صدقاً، فثمة باختصار القول عدد بأيي العزاء أكبر بين العشاق منه بين الأزواج».

– «ومع ذلك فهيّا انظري يا «أوريان» إلى سلفك «بالاميد» الذي تتحدّثين عنه، فليس من عشيقة يمكن أن تحلم بمن يبكيها على غرار ماتمّ للسيّدة « دو شارلوس» المسكينة».

فأجابت الدوقة: «فلتسمحي سموّك ألاّ أكون تماماً من رأيك. ليس يحبّ الجميع أن يُبكَوْا بالطريقة نفسها فلكلّ ميوله».

– «ولكنّه خصّها بتكريم حقيقيّ منذ وفاتها. صحيح أنّ المرء يقدم أحياناً في سبيل الأموات على أمور ما كان ليقدم عليها في سبيل الأحياء».

فأجابت السيّدة «دو غيرمانت» بلهجة حالمة كانت تناقض مقصدها المستهزئ: «أولاً نذهب إلى مأتمهم

وهو مالا نفعله البتّة من أجل الأحياء!» (ونظر السيّد «دو غيرمانت» إلى السّيد «دو بريوتيه» على نحو ماكر وكأنّما ليستثير ضحكه إزاء تظرّف الدوقة). وأردفت السيّدة «دو غيرمانت» تقول: «بيد أنّي اعترف بصراحة أنّ الطريقة التي أتمنّى أن يبكيني بها رجل أحبّه ليست طريقه سلفي».

وتجهّم وجه الدوق، فما كان يحبّ أن تطلق امرأته أحكاماً كيفما تيسّر ولاسيّما بحقّ السيّد «دو شارلوس»، وقال بلهجة خشنة متعالية: «أنت صعبه الإرضاء، فإن أسفه كان له أحسن الأثر لدى الجميع». لكنّ الدوقة كانت تبدي مع زوجها نوع الجسارة الذي يميّز المروّحنين أو أولئك الذين يعيشون مع مجنون ولايخشون إغضابه:

– «بالطبع لا، ماذا عساك تريد، إنّه له أحسن الأثر، لست أقول العكس، فهو يمضي كلّ يوم إلى المقبرة ليروي لها عن عدد الذين دعاهم إلى مائدة الغداء، وهو يأسف عليها أعظم الأسف، ولكن أسفه على ابنة عمّ، أسفه على جدّة، أسفه على شقيقة ليس ذلك حداد زوج. صحيح أنّهما كانا قدّيسين، الأمر الذي يجعل الحداد غير عاديّ بعض الشيء.» (كان السيّد «دو غيرمانت»، وقد ضاق بثرثرة زوجته، يثبت عليها بجمود مخيف حدقتين مشحونتين تماماً). وعادت الدوقة تقول: «وماذلك لأتناول بسوء «ميميه» المسكين الذي لم يكن، وأقولها بين قوسين، حرّاً هذا المساء، فانّي أعترف بأنّه طيب مثلما لايتفق لأحد، إنّه رائع ويمتاز بلطافة ويملك قلباً لايملك الرجال بعامّة مثله، إنّه قلب امرأة «ميميه» هذا!».

فقاطعها السيّد «دو غيرمانت» بلهجة حادّة: «ما تقولين محال، «ميميه» ليس على شيء من التخنّث وليس من هو أكثر رجولة منه». وعادت الدوقة تقول: «ولكنّي لا أقول لك إنّه مخنثّ أقلّ ما يكون التخنّث. إفهم على الأقلّ ما أقوله. آه! هذا الأخير، ما أن يظنّ أنّهم يعنون المساس بشقيقه...»، تضيف قولها وهي تلتفت إلى الأميرة «دو بارما».

فقالت الأميرة «دو بارما»: «ذلك لطيف جدّاً ويلذّ الأذن سماعه. فليس ما كان أجمل من أخوين متحابين، على نحو ماقد يفعل الكثيرون من طبقة الشعب، لأنّك يمكن أن تنتمي بالدم إلى أسرة أمراء، وبالفكر إلى أسرة عاميّة جدّاً».

وقالت الأميرة: «بما أنّنا كنّا نتحدّث عن أسرتك يا «أوريان» فقد رأيت البارحة ابن اختك «سان لو»، وأظنّ أنّه يودّ أن يسألك خدمة».

وقطّب الدوق «دو غير مانت» حاجبه «الجوبيتريّ» (*)، فلم يكن يودّ حينما لايحبّ أن يؤدّي خدمة أن تتكفل بها زوجته إذ يعلم أنّ الأمر واحد وأنّ الأشخاص الذين ربّما اضطرّت أن تسألهم إيّاها سوف يدوّنونها على حساب الزوجين المشترك كما لو طلبها الزوج بمفرده.

وقالت الدوقة: «لماذا لم يطلبها منّي بنفسه؟ فقد ظلّ البارحة ساعتين ههنا ويعلم الله إلى أي حدّ كان

(*) نسبة إلى جوبيتر كبير آلهة الرومان.

مملاً. قد لايكون أكثر غباءً من غيره لو عرف مثل العديد من رجال المجتمعات كيف يظلّ أبله. ولكنّما قشرة العلم هذه هي المريعة. إنّه يودّ أن يكون مفتوح العقل... مفتوح العقل على جميع الأمور التي لايدركها. إنّه يحدّثك عن المغرب وذلك أمر فظيع».

فقال الأمير «دوفوا»: «لايريد الرجوع إلى هناك بسبب «راحيل»».

فقاطعه السيّد «دوبريونيه» قائلاً: «ولكنّ القطيعة وقعت بينهما».

وأجاب الأمير «دوفوا» الذي كان يحبّ نشر جميع الشائعات التي من شأنها أن تعطّل زواج «روبير» والذي كان يمكن أن تضلّله جميع المعاودات المتقطعّة لعلاقة قضي عليها بالحقيقة: «إن القطيعة بينهما يسيرة إلى حدّ أنّي لقيتها منذ يومين في شقّة «روبير» الخاصّة وأؤكّد لك أنّهما لم يظهرا بمظهر المتخاصمين».

– «راحيل هذه حدثّتني عنك، إنّي أراها هكذا عرضاً في الصباح في محلّة الشانزيليزيه، وهي نوع من الفتاة الطائشة العقل مثلما تقول، وما تدعوة بالمتظرّفة وضرب من «غادة الكاميليا»، بالمعنى المجازيّ طبعاً. كانت تلك المقالة تردني على لسان الأمير «فون» الذي كان يهمّه الظهور بمظهر المحيط بالأدب الفرنسي وبالظرافات الباريزيّة».

وصاحت الأميرة منتهزة على عجل هذه القرينة: «بالضبط، كان ذلك بصدد المغرب...؟».

فسأل السيّد «در غيرمانت» بلهجة صارمة: «وماذا عساه يبغي بالنسبة إلى المغرب؟ إن «أوريان» لا تستطيع شيئاً على الإطلاق في هذا المجال، وهو يعرف ذلك تماماً».

وتابعت السيّدة «دو غيرمانت» تقول: «يظنّ أنه اخترع الإستراتيجية، ثم إنّه يستخدم كلمات مستحيلة لأدنى الأمور، الأمر الذي لايحول دون زرعه لطخات الحبر في رسائلة. فقد قال ذاك اليوم إنّه أكل بطاطا «فائقة» ووجد مقصورة «فائقة» للإيجار».

وزاد الدوقة فقال: «ويتكلّم اللاتينيّة».

فسألت الأميرة: «كيف ذلك، اللاتينيّة؟».

– «بشرفي! فلتسأل سيّدتي «أوريان» إن كنت مبالغاً».

– «كيف ذلك ياسيّدتي، لقد قال في ذلك اليوم في جملة واحدة ودفعةً واحدة: «لست أعرف مثالاً على «Sic transit gloria» (هكذا يزول مجد العالم) أوقع في النفس» ؛ وإنّي أقول الجملة لسموّك لأنّنا توصلّنا بعد عشرين سؤالاً وباللجوء إلى اللسانيّين إلى استعادتها، ولكنّ «روبير» قذف بذلك دون أن يلتقط أنفاسه وكاد المرء لايستطيع أن يميّز أنّ ثمة جملة لاتينيّة، وكان يبدو وكأنّه شخصيّة من مسرحية «المريض بالوهم»! وكلّ ذلك كان ينطبق على موت امبراطورة النمسا!».

وصاحت الأميرة قائلة: «يالَلمرأة المسكينة! ما أروعها مخلوقة كانت!».

فأجابت الدوقة: «أجل، مع ذرّة من الجنون وذرّة من الحمق، ولكنّها كانت امرأة بالغة الطيبة ومجنونة محبّبة بالغة اللطف، على أنّي لم أفهم قطّ لماذا لم تشتر في يوم طقم أسنان ثابت، فقد كان طقمها يفلت دوماً قبل نهاية جملها فتضطرّ أن تقطعها كي لاتبتلعه».

وقال الأمير «فون»: «راحيل هذه حدثتني عنك وقالت لي إنّ «سان لو» العزيز يعشقك ويفضلك حتّى عليها»، قال، وهو يأكل كالغول، قرمزيّ اللون وضحكته الدائمة تكشف عن سائر أسنانه.

فأجبت قائلاً: «هي لابدّ منّي إذن وتكرهني».

– «لا على الإطلاق، لقد أثنت عليك كثيراً أمامي ؛ ربّما غارت عشيقة الأمير «دوفوا» لو فضّلك عليها. أما فهمت؟ عد معي وسوف أشرح لك كلّ هذا».

– «لست أستطيع فانّي ذاهب إلى منزل السيّد «دو شارلوس» في الحادية عشرة».

– «عجباً، لقد أرسل يطلب إليّ البارحة المجيء لتناول العشاء هذا المساء، على ألا أجيء بعد الحادية عشرة إلاّ ربعاً. فإن أصررت على الذهاب إلى منزله فهلمّ معي على الأقل حتّى المسرح الفرنسيّ وستكون في «الدوائر»، يقول الأمير الذي كان يعتقد دونما شكّ أنّ الأمر يعني «على مقربة من» أو ربما «في المركز».

ولكنّ عينيه الموسعّتين في وجهه الأحمر السمين والجميل أثارتا مخاوفي فرفضت قائلاً إن أحد الأصدقاء سوف يجيء ليصحبني. ولم تبد لي هذه الإجابة مهينة. وقد خلفّت دونما شكّ في صدر الأمير انطباعاً مغايراً إذ لم يوجّه قطّ إليّ الحديث من بعد.

– «ينبغي لي بالضبط أن أذهب للقاء ملكة «نابولي»، فما أعظم مابها من غمّ»، تقول الأميرة «دوبارما» أو بدا على الأقلّ أنّها قالت. ذلك لأنّ أقوالها لم تبلغ مسامعي إلاّ مبهمة من خلال تلك الأقرب التي وجهها إليّ الأمير «فون»، مع أنه قالها بصوت منخفض جداً.

وقد خشي دون شكّ، إن هو تحدّث بصوت أعلى، أن يسمعه السيّد «دو فوا».

فأجابت الدوق: «لا، أعتقد فيما يخصّ ذلك أن ليس بها غم البتّة».

– «لاغمّ البتّة؟ إنّك على الدوام يا«أوريان» متطرّفة»، يقول السيّد «دو غيرمانت» وقد استعاد دوره كصخرة تضطرّ الموجةً فيما تقاومها إلى أن تقذف خصل زبدها إلى نقطة أعلى.

فأجابت الدوقة: «بازان يعرف خيراً منّي أنّي أقول الحقيقة، ولكنّه يظنّ أنّه ملزم باتّخاذ مظاهر صارمة من جرّاء وجودك ويخشى أن أصدمك».

وصاحت الأميرة «دو بارما»: «لا، أرجوك»، وقد خشيت أن يفسدوا شيئاً بسببها في أيّام الأربعاء الرائعة التي تقيمها الدوقة «دو غيرمانت»، هذه الثمرة المحرّمة التي لم تستحق بعد ملكة السويد نفسها أن تذوق طعمها.

- «ولكنّها أجابته هو فيما كان يقول لها بلهجة مبتذل حزنها: «لكنّ الملكة في حداد ؛ على من ياترى؟ أفيه مايغمّ جلالتك؟- لا، ليس حداداً عظيماً، إنّه حداد طفيف، حداد طفيف جداً، إنّها شقيقتي». والحقيقة أنّها مغتبطة بذلك، و«بازان» يعرف الأمر تمام المعرفة، فقد دعتنا إلى حفلة في اليوم نفسه ووهبتني لؤلؤتين. وددت لو تفقد في كلّ يوم شقيقة! إنّها لاتبكي موت شقيقتها بل «تقهقه» عالياً. وإنّها على الأرجح تقول في نفسها، شأن «روبير»، أنْ «Sic transit» (هكذا يزول). ولكنّي ماعدت أعرف»، تضيف قولها بداعي الاتّضاع مع أنّها تعرف أتمّ المعرفة.

كانت السيّدة «دو غيرمانت» على أيّة حال تبدي بذلك ظرفاً فحسب، ظرفاً من أشدّها زيفاً لأن ملكة «نابولي»، شأن الدوقة «دالانسون» التي وافتها بدورها منيّة مفجعة، كانت كبيرة القلب وقد بكت ذويها بصدق. لقد كانت السيّدة «دو غيرمانت» تعرف الشقيقات البافاريّات الكريمات بنات عمومتها إلى حدّ لاتجهل معه ذلك.

وقالت الأميرة «دو بارما» وهي تنتهز ثانية اسم «روبير» هذا الذي كانت السيدة «دو غيرمانت» تقدمّه لها بمثابة عون غير مقصود: «كان بودّه ألا يعود إلى المغرب. واعتقد أنّك تعرفين اللواء «دو مونسيرفوي»».

فأجابت الدوقة: «معرفة يسيرة جدّاً»، كانت وثيقة العلاقة بذاك الضابط. وشرحت الأميرة مايبغيه «سان لو».

- «ياإلهي، إن رأيته... فقد يتّفق أن أصادفه»، تجيب الدوقة كي لايبد أنها ترفض، وقد بدا أن علاقاتها باللواء «دو نسير فوي» أخذت تتباعد بسرعة منذ أن اقتضى أن تطالبه بأمر ما. على أنّ هذا الشكّ لم يكن كافياً في نظر الدوق الذي قاطع امرأته قائلاً:

- «تعلمين تماماً أنّك لن تلتقيه يا «أوريان»، ثم إنّك قد سألته أمرين لم يبر بهما». وأردف يقول متزايد الحنق كي يرغم الأميرة على سحب طلبها دون أن يقود ذلك إلى التشكيك بلطف الدوقة وكي تردّ السيّدة «دو بارما» الأمر إلى طباعه الشخصية المتقلّبة في جوهرها: «إن زوجتي شغوفة بأن تكون لطيفة. وإن «روبير» لقادر على نيل ما يبتغيه من «مونسيرفوي». ولكنّه إذ لايدري مايريد فانّه يحملنا نحن على طلبه لأنه يعلم أن ليس من طريقة أفضل لإفشال الأمر. لقد طلبت «أوريان» من «مونسيرفوي» أكثر من الكثير. وإن طلباً يصدر عنها الآن لسبب كافٍ كي يرفضه».

فقالت السيّدة «دو بارما»: «من الأفضل إذن في هذه الظروف ألا تفعل الدوقة شيئاً».

وقال الدوق في ختام حديثه: «بالطبع».

فقالت الأميرة «دو بارما» بغية تغيير الحديث: «ياللواء المسكين، لقد هُزِمَ مرة أخرى في الانتخابات».

- «أوه، الأمر ليس بالخطير فما هي إلاّ المرّة السابعة»، يقول الدوق الذي كان يحبّ إلى حدّ ما خيبات الآخرين الانتخابيّة وقد اضطرّ هو نفسه أن يتخلّى عن السياسة.

- «وقد تعزّى بعزمه على أن تنجب امرأته ولداً جديداً».

فصاحت الأميرة قائلة: «عجباً! أهي حامل بعد هذه المسكينة «دو مونسيرفوي»؟

وأجابت الدوقة: «تماماً، وإنّها «الدائرة» الوحيدة التي لم يفشل فيها اللواء المسكين قطّ».

لم ينفكّ القوم بعد ذلك طالك يدعونني باستمرار، حتّى مع بضعة أشخاص فحسب، إلى تلك المآدب التي سبق أن تمثلت مدعوبها بالأمس وكأنهم رسل «الكنيسة الصغيرة المقدّسة». فقد كانوا يجتمعون هناك على غرار المسيحيّين الأوائل لا ليقتسموا غذاء مادياً فحسب، غذاء لذيذاً على أيّ حال، بل في ضرب من العشاء السريّ الإجتماعي، حتّى انّي بعد عدد قليل من الأعشية تمثلت معارف جميع أصدقاء مضيفيّ، هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يقدّمونني لهم بمسحة من العطف بارزة (كمن لعلّهم فضّلوه أبداً تفضيل الآباء) إلى حدّ أن ليس من بينهم من كان لايظنّ أنّه يسيء إلى الدوق والدوقة إن هو أقام حفلة راقصة دون أن يدّون اسمي على اللائحة، وكنت اتذّوق في الوقت نفسه، فيما اتناول واحداً من الخمور التي تحتويها أقبية آل «غيرمانت»، طيور أورطولان محضرّة وفق الوصفات المختلفة التي كان الدوق يضعها ويبدّل فيها بحذر. بيد أنّ تناول هذه الأخيرة لم يكن محتّماً على من سبق أن جلس أكثر من مرّة إلى المائدة السريّة. وكان يجيء أصدقاء قدامى للسيّد «دو غيرمانت» وعقيلته للقائهما بعد العشاء «وكأنّما تلك على حدّ ما تقول السيّدة سوان «خطرة المساويك» على غير موعد ويتناولون في الشتاء كوباً من مغلي الزيزفون تحت أضواء الصالة الكبيرة وفي الصيف كأساً من عصير البرتقال في ظلام الحديقة المستطيلة الصغيرة. ولم يعرف أحد قطّ، عن آل «غير مانت»، في عشيّات الحديقة تلك، سوى عصير البرتقال. لقد كان يتّسم بما يشبه الطابع الطقسيّ. ولعلّ إضافة مرطّبات أخرى إليه، لعلّها كانت بدت إفساداً للتقليد مثلما لاتلبث حفلة راقصة كبرى في حيّ «سان جيرمان» حفلة راقصة من بعد إن كان ثمّة مسرحية هزليّة أو موسيقى. فلا بدّ أن يفترض أنّك تجيء- وإن حضر خمس مئة شخص- لمحض زيارة الأميرة «دو غيرمانت» مثلاً. وقد أعجب القوم بنفوذي لأنّني استطعت حملهم على أن يضيفوا إلى عصير البرتقال زجاجة تحوي عصير كرز مطبوخ أو إجّاص مطبوخ. وقد داخلني من جرّاء ذلك عداء للأمير «داغريجانت» الذي كان شأنه شأن جميع الناس الذين يفتقرون إلى الخيال لا إلى البخل والذين يعجبون بما تشرب ويستأذنونك في تناول شيء منه، حتّى أنّ السيّد «داغيرجانت» كان في كلّ مرة يفسد سروري بانقاص حصّتي. ذلك لأنّ عصير الفواكه هذه لايتوافر البتّة بكميّة كبيرة إلى حدّ ما كيما يروي. فليس ما يقلل مللك مثل انقلاب لون الثمرة طعماً، هذه الثمرة التي تبدو مطبوخة وكأنها تعود القهقرى إلى فصل الأزهار. فالعصير الذي اكتسى حمرة مثل بستان في الربيع أو كان فاقد اللون ندياً كالنسيم في ظلّ الأشجار المثمرة إنّما يستسلم للشمّ والنظر قطرة فقطرة ويحول السيّد «داغر يجانت» بانتظام دون أن أرتوي منه. وعلى الرغم من هذه الفواكه المطبوخة فقد ظلّ عصير البرتقال التقليدي موجوداً شأن مغليّ الزيزفون. وظلت المشاركة الاجتماعية تحت هذه الأعراض المتواضعة على أنّ أصدقاء السيّد والسيّدة «دو غيرمانت» لبثوا في ذلك دونما شكّ، على نحو ما سبق أن تمثّلتهم باديء الأمر، أكثر اختلافاً ممّا ربّما حملني على الاعتقاد به مظهرهم المخيّب. فقد كان العديد من الشيوخ يجيئون إلى منزل الدوقة لينعموا، إلى جانب الشراب الذي لايتبدلّ، باستقبال قليل الودّ في الغالب. وما كان يمكن أن يكون ذلك بداعي السنوبيّة إذ هم

في مكانة لايسمو عليهم فيها أحد، ولابداعي حبّ البذخ: فربّما كانوا يحبّونه لكن ربّما كان بمقدورهم، في شروط اجتماعية أدنى، أن ينعموا بالرائع منه إذ ربّما فعلت الزوجة الفاتنة لأحد رجال المال الطائلي الثراء، ربّما فعلت في تلك الأمسيات نفسها كلّ شيء في سبيل دعوتهم إلى حفلات صيد بديعة تقيمها طوال يومين من أجل ملك اسبانيه. ولكنّهم رفضوا مع ذلك وجاؤوا على سبيل الاحتياط ليروا إن كانت السيّدة «دو غيرمانت» في منزلها. وما كانوا حتّى على يقين أنّهم واجدون هناك آراء مطابقة تماماً لآرائهم أو مشاعر تتسم بحرارة خاصّة فقد كانت السيّدة «دو غيرمانت» ترسل أحياناً حول مسألة «دريفوس» أو حول الجمهورية أو حول القوانين المناهضة للدين أو حتّى، وتخفض الصوت، حولهم وحول عاهاتهم والطابع المملّ لحديثهم ملاحظات كان ينبغي لهم أن يتظاهروا بأنّهم لاينتبهون لها. وليس من شكّ أنّهم إن كانوا يحتفظون بعاداتهم هناك فمن جرّاء تربية مرهفة تميّز ذواقة المجتمعات الراقية من جرّاء معرفة واضحة بميزة الكمال الأولى في الطبق الاجتماعي ذي الطعم المألوف المطمئن الحلو المذاق الذي لا اختلاط فيه ولاغشّ والذي يعرفون منشأة وتاريخه بقدر ما تعرف تلك التي تقدّمه لهم وقد ظلّوا أكثر «ارستقراطية» في ذلك ممّا يدرون هم أنفسهم. وفي عداد هؤلاء الزوّار الذين عرفت بهم بعد العشاء شاءت المصادفة أن يكون اللواء «دو مونسيرفوي» هذا الذي سبق أن تحدثت عنه الأميرة «دو بارما» والذي لم تكن السيّدة «دو غيرمانت» التي كان أحد روّاد صالتها تعلم أنّه يزمع المجيء في هذا المساء. وانحنى أمامي لدى سماع اسمي كما لو كنت رئيس المجلس الحربي الأعلى. كنت ظننت أنّ الدوقة رفضت أن توصي السيّد «دو مونسيرفوي» بابن اختها لمجرّد عزوف عن المعروف متأصّل كان الدوق فيه شريكاً لزوجته شأنه في أمر التظرّف الفكري إن لم يكن في أمر الحبّ. وكنت أرى هنا لا مبالاة يزيد من جرمها أنّه خيّل إليّ من جرّاء بضع كلمات أفلتت من الأميرة «دو بارما» أن مركز «روبير» كان محفوفاً بالمخاطر وأنّ من الحكمة العمل على إبداله. على أنّي إنّما ثارت ثائرتي من جرّاء قسوة السيّدة «دو غيرمانت» الحقيقيّة حينما اقترحت الأميرة «دوبارما» بلهجة وجلة أن تحدّث بنفسها ولحسابها هي، اللواء عن ذلك ففعلت الدوقة كلّ ما بوسعها كي تصرف صاحبة السمّو عن الأمر، وصاحت قائلة:

– «ولكن «مونسيرفوي» ياسيّدتي لانفوذ له من أيّ نوع ولاسلطة مع الحكومة الجديدة وسوف يكون ذلك ضربة في الهواء».

وهمست الأميرة وهي تدعو الدوقة إلى التكلّم بصوت أخفض: «أظنّ أنّه قد يستطيع سماعنا».

فقالت الدوقة دون أن تخفض الصوت وقد سمعه اللواء تماماً: «لاتخشي سّموك شيئاً فانّه اصمّ كالحجر».

وقالت الأميرة: «ذلك أنّي اعتقد أنّ السيّد «دو سان لو» ليس في مكان مطمئن جدّاً».

فأجابت الدوقة قائلة: «ماعساك تبغين، إنّ حاله حال جميع الناس مع فارق أنّه هو الذي طلب الذهاب إلى هناك، ثم إن المكان ليس خطراً، لا، وإلاّ لكنت اهتممت للأمر بالطبع، ولكنت حدّثت بذلك «سان جوزيف» في أثناء العشاء، فهو أشدّ نفوذاً وكم هو مثابر! ترين، ها إنّه قد ذهب. ولعل الأمر من جهة أخرى أقلّ إحراجاً منه مع هذا الأخير، فثلاثة بالضبط من أبنائه في المغرب ولم يشأ أن يطلب تغيير مكانهم. وربّما أثار

الأمر. وبما أن سموك تصرّ على ذلك فسأفاتح به «سان جوزيف»... إن التقيته، أو «بوتريي». أمّا إذا لم ألقهما فلا ترثي كثيراً لحال «روبير». لقد أوضحوا لنا في ذاك اليوم مكان إقامته، وفي اعتقادي أنّه لايمكن أن يكون في أيّ مكان أفضل حالاً من هناك».

وقالت الأميرة «دو بارما»: «ياللزهرة الجميلة، إنّي لم أشاهد البتّة مثيلتها، وليس سواك يا «أوريان» من يملك مثل هذه الروائع!»، قالت تحاول أن تغير الحديث مخافة أن يكون اللواء «دو مونسيرفوي» قد سمع الدوقة. فتعرفت نبتة من صنف تلك التي سبق أن رسمها «إيلستير» أمامي.

– «يغبطني أنّها تروقك. فهي رائعة، انظري إلى دائرة عنقها الصغيرة التي من مخمل ليلكي. بيد أن لها اسماً شنيعاً ورائحتها قبيحة مثلما يمكن أن يتفق ذلك لأشخاص شديدي الجمال وأنيقي الملبس إلى حدّ بعيد. ولكنّي أحبّها كثيراً على الرغم من ذلك. بيد أنّ مايغمني بعض الشيء أنّها ستموت عمّا قريب».

فقالت الأميرة: «ولكنّها في الآنية وليست أزهاراً مقطوعة».

وأجابت الدوقة ضاحكة: «لا، ولكن الأمر واحد بما أنّها من صنف السيّدات. إنّها ضرب من النباتات لاتوجد فيها السيّدات والسادة على النبتة نفسها. مثلي مثل الجماعة الذين يملكون كلبة. لابدّ لي من زوج لأزهاري، وبدون ذلك لن أحصل على صغار».

– «ياللغرابة ؛ ففي الطبيعة إذن...»

– «أجل، ثمة بعض الحشرات التي تتولى إتمام الزواج بالتفويض، شأن الحال بالنسبة إلى الملوك، دون أن يكون الخطيب والخطيبة قد التقيا في يوم. ولذلك فانّي أقسم لك أنّني أوصي خادمي بوضع نبتتي في النافذة قدر المستطاع تارة من جانب الباحة وطوراً من جانب الحديقة عسى أن تجيء الحشرة التي لاغنى عنها. ولكنّ الأمر قد يتطلب مصادفة وأيّة مصادفة فكّري، ينبغي بالضبط أن تكون مضت للقاء شخص من الصنف نفسه من جنس مختلف وأن يخطر لها المجيء لحمل بطاقات إلى البيت. ولكنّها لم تجيء إلى هنا وأظنّ أن نبتتي لاتزال أهلاً لأن تكون فتاة فاضلة وأقرّ أن قليلاً من التهتّك ربّما سرّني أكثر من ذلك. خذي، إنّها حال هذه الشجرة الجميلة التي في الباحة فسوف تموت دون أطفال لأنّها صنف نادر جدّاً في بلادنا. الريح هي المكلّفة، فيما يخصّها، بعقد القران، ولكنّ الجدار عال قليلاً».

وقال السيّد «دو بريوتيه»: «بالفعل كان عليك أن تهدمي بضعة سنتميترات فحسب فربّما كان ذلك كافياً. تلك عمليّات ينبغي أن نحسن القيام بها. إن عطر الفانيليا الكائن في المثلجة الرائعة التي قدّمتها لنا منذ قليل أيّتها الدوقة مصدره نبات يدعى شجرة الفانيليا. وصحيح أن هذه الشجرة تنتج أزهاراً مذكّرة ومؤنثة في الآن نفسه ولكنّ نوعاً من الحاجز الصلب القائم بينها يمنع الاتصال أيّا كان. ولم يكن قطّ ممكناً لذلك الحصول على ثمار إلى أن خطر ذات يوم لزنجي شاب من مواليد جزيرة «الريونيون» يدعى «ألبان»، الأمر الذي يثير الضحك إلى حدّ ما بالنسبة إلى أحد السود، ونقولها بين قوسين، بما أن الاسم يعني «الأبيض»، أن يصل ما بين الأعضاء المفصولة بوساطة رأس صغير فصاحت الدوقة قائلة: «أنت رائع يا «بابال»، إنّك عالم بكلّ

شيء».

وقالت الأميرة: «وأنت أيضاً يا «أوريان» علّمتني أموراً كنت أشكّ بوجودها».

- «سوف أقول لسموّك إنّ «سوان» هو الذي حدثني كثيراً على الدوام عن علم النبات، فقد كنّا نمضي أحياناً إلى الريف، حينما كان يزعجنا أشدّ الإزعاج أن نذهب إلى حفلة شاي أو إلى «عصريّة»، وكان يدلّني على تزاوجات غريبة للأزهار، والأمر أبعث على السلوة من زيجات الناس دون حفل غداء ودون سكرستيّا(*). وما كان يتّسع لنا الوقت البتّة للذهاب بعيداً جداً. أمّا الآن وقد وجدت السيّارة فربّما كان ذلك رائعاً. ولكنّه أقدم في هذه الأثناء لسوء الحظّ على زواج أشد إدهاشاً بكثير ويجعل كلّ شيء عسيراً. آه! ياسيّدتي، إن الحياة لأمر فظيع، فإنك تقضين الوقت في القيام بأمور تبعث الملل في نفسك فإن عرفت مصادفة من يمكنك الذهاب برفقته لرؤية أشياء جديرة بالاهتمام لانبغى أن يتزوج زواج «سوان» وإذ لقيتني بين التخلّي عن النزهات النباتية وواجب مخالطة امرأة تلحق بي العار فقد اخترت أولى هاتين البليتين. قد لا تدعو الحاجة على أيّ الحال إلى المضيّ بعيداً جداً. ذلك إنه يجري فيما يبدو، في حديقتي الصغيرة وحدها، وفي وضح النهار أمور غير محتشمة أكثر مما يجري ليلاً... في «غابة بولونيا»! ولكنّنا لا ننتبه للأموز لأنّ ذلك يتّم بأبسط حال بين الأزهار إذ ترى رذاذاً برتقاليّ اللون أو ذبابة مثقلة بالغبار تقبل لتمسح قدميها أو تغتسل قبل الدخول في زهرة. وينقضي كل شيء!».

قالت الأميرة: «الصوان الذي وضعت فوقه النبتة بديع هو الآخر، إنّه من الطراز الأمبراطوري فيما أعتقد»، وكانت لاتدرك تماماً دلالة دعابات الدوقة إذ لا عهد لها بأعمال «داروين» وخلفائه.

فأجابت الدوقة: «أليس أنّه جميل. يغبطني أن تحبّه سيّدتي. إنها قطعة رائعة. سأقول لك إنّني عشقت على الدوام الطراز الأمبراطوري حتّى في حين لم يكن شائعاً. وإني أذكر أنّ حماتي شنّعت عليّ في «غيرمانت» أنّني قلت بأن ينزلوا من السّقيفة جميع الأثاث الرائع الإمبراطوري الطراز الذي سبق أن ورثه «بازان» عن آل «مونتسكيو» وأنّني أثّثت به الجناح الذي كنت أسكنه».

ابتسم السيّد «دو غيرمانت». على أنّه كان لابدّ يتذكّر أنّ الأمور جرت على نحو مغاير تماماً. ولكن مزحات الأميرة «دي لوم» حول رداءة ذوق حماتها إذ ظلّت عادة أثناء الزمن القليل الذي كان فيه الأمير مولعاً بزوجته فقد أعقب حبّه للثانية شيء من الإزدراء لقلّة نباهة الأولى، ازدراء كان يقترن على أيّ حال بالكثير من التعلّق والاحترام.

- «لدى أسرة «إيينا» المقعد نفسه بتطعيم من يد «ودجوود»، إنّه جميل ولكنّي أفضّل مقعدي»، تقول الدوقة باللهجة المتجرّدة نفسها التي تتّخذها لو أنّها لم تملك أيّة من قطعتي الأثاث. «وإنّي أقرّ من جهة أخرى أنّ لديهم أشياء بديعة لا أملكها».

(*): مكان ملحق بالكنيسة يحوي ملابس الكهنة وأشياء أخرى تستخدم في الطقوس الدينية ؛ المقصود بالعبارة: دون أخذ بالمستلزمات الاجتماعية.

وظلّت الأميرة «دو بارما» صامتة.

-« ولكن صحيح، إن معاليك لاتعرف مجموعتهم. وينبغي لها بالتأكيد أن تجيء برفقتي إلى هناك. إنّها من أروع الأمور في باريس، إنّها متحف تدبّ فيه الحياة».

ولمّا كان هذا المقترح أحد صنوف القحة الأكثر اتساماً «بالغرمانتية» لدى الدوقة لأن آل «إيينا» كانوا في نظر الأميرة «دو بارما» محض متنحلين إذ يحمل ابنهم، شأن ابنها، لقب دوق «غاستالا»، فإنّ السيّدة «دو غيرمانت» لم تملك وهي تلقي به على هذا النحو «لشدّة ما يغلب الحبّ الذي تكنّه لتفردها على إجلالها للأميرة «دو بارما») أن ترمق المدعوّين الآخرين بنظرات هازئة مشرقة. هم كذلك كانوا يجهدن في التبسم وبهم فزع وذهول وافتتان على وجه الخصوص إذ يفكّرن أنّهم شهود «آخر نكتة» لـ«أوريان» وسوف يستطيعون نقلها «ساخنة تماماً». كانوا نصف ذاهلين فحسب إذ يعلمون أنّ الدوقة تملك فنّ اللامبالاة بجميع آراء آل «كورفوازييه» مقابل عمل ناجح في الحياة أكثر إثارة وأشدّ إمتاعاً. أفلم تجمع في غضون هذه السنوات الأخيرة بالأميرة «ماتيلد» الدوق «دومال» الذي سبق أن كتب لشقيق الأميرة نفسه الرسالة الشهيرة: «جميع الرجال في أسرتي شجعان وجميع النساء عفيفات»؟ ولّما كان الأمراء على هذا حتّى حينما يبدو أنّهم يودّون تناسي أنّهم كذلك، فقد طاب المقام للدوق «دومال» والأميرة «ماتيلد» في منزل السيّدة «دو غيرمانت» إلى حدّ أن ذهب كلّ منهما فيما بعد إلى منزل الآخر وبهما تلك القدرة على تناسي الماضي التي أبداها لويس الثامن عشر حينما اتّخذ بمثابة وزير له «فوشيه» الذي سبق أن صوّت على موت شقيقه. كانت السيّدة «دو غيرمانت» تفكّر في مشروع التقارب نفسه بين الأميرة «مورا» وملكة «نابلي». وفي أثناء ذلك كانت الأميرة «دو بارما» تبدو بمثل الحيرة التي يمكن أن تنتاب وريثي عرش هولندا وبلجيكا، وهما، كلّ فيما يخصّه، أمير «أورانج» ودوق «برابان»، لو اعتزموا أن يقدّموا لهما السيّد «دو ماتي نيل» أمير «أورانج» والسيّد «دو شارلوس» دوق «برابان». ولكنّ الدوقة التي توصّل «سوان» والسيّد «دو شارلوس» (على الرغم من تصميم هذا الأخير على تجاهل آل «إيينا») بجهد عظيم إلى تحبيبها بالطراز الأمبراطوري، صاحت بادئ الأمر قائلة:

- «صدقاً ياسيّدتي، لا أستطيع أن أقول لك إلى أيّ حدّ ستجدين ذلك جميلاً! أنّي أقرّ أن الطراز الإمبراطوري قد أثّر فيّ على الدوام. أمّا في منزل آل «إيينا» فالأمر هناك بالحقيقة أشبه بالاستيهام. إن هذا النوع، ماذا عساي أقول لك، من... تراجع حملة مصر وكذلك عودة العصور القديمة إلينا وكلّ ذلك الذي يجتاح منازلنا وتماثيل أبي الهول التي تجيء لتقف على أقدام المقاعد والحيات تلتف على الشمعدانات وربّة شعر ضخمة تمدّ إليك مشعلاً صغيراً لتعلب الورق أو هي اعتلت مطمئنّة موقدك واسندت ذراعها إلى ساعة جدارك، وجميع المصابيح التي من طراز «بومبيّ» والأسرة الصغيرة المراكبية الشكل التي تبدو وكأنما عثر عليها في النيل ونتوقع رؤية «موسى» خارجاً منها، وهذه العربات القديمة التي تجري على أطراف طاولات الأسرة.».

وتجرّأت الأميرة فقالت: «لايجلس المرء مرتاحاً على الأثاث الذي من الطراز الإمبراطوري».

فأجابت الدوقة: «لا»، وأردفت تلحّ بابتسامة: «ولكنّي أحبّ أن أجلس جلسة غير مريحة على مقاعد الأكاجو هذه المغطّاة بالمخمل الرمّاني أو الحرير الأخضر. إنّي أحبّ شظف المحاربين الذين لايفهمون سوى

الكرسيّ العسكري البسيط والذين كانوا يشبّكون الأسلحة ويكوّمون أكاليل الغار وسط الصالة الكبرى. وإنّي أؤكّد أنّهم لايفكّرون لحظة واحدة لدى آل «إيينا» في الطريقة التي يجلسون بها حينما يبصر المرء أمامه تمثال «نصر» كبير لعين رسم على الجدار بطريقة الرسم المائي. سوف يجدني زوجي ملكيّة رديئة جداً ولكنّي غير سديدة الرأي إلى حدّ بعيد، تدرين، على أنّي أؤكّد لك أن الأمر يبلغ بك لدى هؤلاء القوم أن تحيّي كلّ حروف «النون» تلك وجميع تلك النحلات(*). ولمّا كنّا لم نَحْظَ في عهد الملوك، منذ زمن ليس باليسير، بنصيب من الدلال عظيم في زاوية الأمجاد فإنّ هؤلاء المحاربين الذين كانوا يجلبون معهم الكثير من التيجان إلى حدّ أن يخلفوا بعضاً منها حتّى على سواعد المقاعد، إنّي أجدُ في ذلك شيئاً من الأناقة! يجدر بسموّك أن تفعلي».

وقالت الأميرة: «ياإلهي، إن كنت ترين ذلك، ولكنّما يبدو لي أن الأمر لن يكون سهلاً».

– «لكن سيّدتي سترى أنّ كلّ شيء سيسوّى على أحسن حال. إنّهم جماعة طيّبون جداً وليسوا بالأغبياء». وتضيف الدوقة قولها، وهي عالمة بقوّة المثال: «لقد اصطحبنا إلى هناك السيّدة «دو شوفروز» فاغتبطتْ بذلك أيّما اغتباط. بل إنّ الابن محبّب جداً...» وأردفت تقول: «إنّ ما سأقوله ليس لائقاً جداً، ولكن لديه غرفة وسريراً على وجه الخصوص يودّ المرء لو ينام فيه– بدونه! وما كان أقلّ لياقه بعد أنّي ذهبت مرّة لزيارته فيما كان مريضاً يلازم سريره. كان إلى جانبه على حافّة السرير حفر لعروس بحر طويلة مستلقية فاتنة لها ذيل صدفي وتمسك في يدها مايشبه أزهار اللوتس». أضافت السيّدة «دو غيرمانت» وهي تتمهل في إلقائها كي تحسن أكثر فأكثر إبراز الكلمات التي بدت وكأنّها تقولبها في التواء شفتيها الجميلتين وانطلاقة يديها الطويلتين المعبّرتين وفيما ترمق الأميرة بنظرة عذبة ثابتة عميقة: «وإنّي أؤكّد لك أن المشهد كان مؤثراً مع وريقات النخيل والتاج الذهبي الذي كان إلى جانبه، كان ذلك عين الترتيب الذي في لوحة «الشاب والموت» لـ«غوستاف مورو» (وسموّك تعرف بالتأكيد هذه الرائعة).

أمّا الأميرة «دو بارماه» التي كانت تجهل حتّى اسم الرسّام فقد هزّت رأسها هزّاً عنيفاً وابتسمت بحماسة كي تعرب عن إعجابها بتلك اللوحة. ولكن شدّة إيمائها لم تفلح في النيابة عن ذلك الضوء الذي يظلّ غائباً عن عينينا مادمنا لانعرف عمّا يودّون أن يحدّثونا».

وتسأل قائلة: «هو شابّ جميل فيما اعتقد؟».

– «لا، فإن له هيئة تابير هندي. فالعينان إلى حدّ ما عينا «هورتانس» الملكة المستخدمة كحامل مصابيح. ولكنّه ظنّ على الأرجح أنّ تعزيز هذا الشبه قد يكون فيما يخصّ الرجال مدعاة للسخرية إلى حدّ ما، فيضيع الأمر في وجنتين ملمّعتين تضفيان عليه نوعاً من مظهر المماليك. ويوافيك احساس بأن الملمّع لابدّ يمرّ كلّ صباح». ثمّ تضيف قولها: «لقد ذهل «سوان» في عودته إلى سرير الدوق الشاب من الشبه بين عروس البحر هذه ولوحة «الموت» لـ«غوستاف مورو». وأردفتا تقول بلهجة أكثر سرعة ولكنّها جديّة مع ذلك بغية الزيادة في

(*) إشارة إلى الحرف الأول من اسم نابليون والنحل الذهبي الذي كان يزين رداء الإمبراطور.

الإضحاك: «ليس لنا أن نعجب على أيّ حال إذ الأمر رشحاً كان وصحّة الشاب كأنّها من خشب السنديان».

وسأل السيّد «دو بريوتيه»: «يقولون إنّه سنوبّي؟» سأل بلهجة تبطنّها الأذيّة مستثارة تنتظر في الجواب ما ينتظر من دقّة لو أنّه قال: «قيل لي أن ليس في يده اليمنى سوى أربعة أصابع، أصحيح ذلك؟».

فأجابت السيّدة «دو غيرمانت» بابتسامة عذبة في تسامحها: «لـ... لا يـ... ياربّي ؛ ربّما كان على قليل من السنوبية في الظاهر لأنّه حديث السنّ جداً ولكنّما قد يدهشني أن يكون كذلك في الواقع لأنّه ذكيّ»، تضيف قولها كما لو كان ثمة فيما ترى تعارض مطلق بين السنوبيّة والذكاء. وأضافت تقول: «إنّه مرهف الذكاء وقد وجدته غريب الأطوار»، تقول وهي تضحك ضحكة الذوّاقة العارف بالأمور وكأنّما يستوجب الحكم بغرابة الأطوار على أحدهم مظاهر المرح أو كأنّما تعود إلى ذهنها في هذه اللحظة نوادر الدوق «دوغاستالا». وأردفت قائلة: «ولمّا كان لايرحب به على أيّ حال فلن يتسنّى لهذه السنوبيّة أن تلقى صيغتها العملية»، دون أن تفطن إلى أنّها لم تكن تشجعّ كثيراً على هذا النحو الأميرة «دو بارما».

— «أتساءل ماعسى أن تقول الأمير «دو غير مانت» الذي يدعوها السيّدة «إيينا» إن علم أنّني ذهبت إلى منزلها».

وصاحت الدوقة بحدّة غريبة: «ولكن عجباً، تعلمين أنّنا إنّما تخلّينا نحن لـ«جيلبير» (وهي اليوم نادمة ندماً مريراً) ! عن قاعة لعب كاملة من الطراز الإمبراطوي ورثناها عن «كيوكيو» وهي آية في الجمال! لم يكن يتّسع المكان ههنا مع أنّي أرى أنّها أكثر ملائمة هنا منها في منزله. إنّها حاجة في غاية الجمال نصفها «اتروسكّي» والنصف مصري».

فسألت الأميرة التي كانت لفظة «اتروسكي» لاتعني لها إلاّ القليل: «مصري؟»

— «ياربّي، الإثنان إلى حدّ ما، كان «سوان» يقول لنا ذلك وقد أوضحه لي ولكنّي، تدرين، جاهلة مسكينة، ثمّ إن ما ينبغي أن نقوله في الأساس ياسيّدتي إنّ مصر الطراز الإمبراطوري لاصلة لها البتّة بمصر الحقيقيّة، ولا رومانييهم بالرومانيين، ولا ما يقولون عن «اترويا»...

فقالت الأميرة: «حقاً!»

— «لا، بالطبع، فذلك من قبيل ما كان يدعى بلباس لويس الخامس عشر في فترة الإمبراطورية الثانية وفي شباب «آنا دو موشي» أو والدة «بريغود» العزيز. منذ قليل كان «بازان» يحدّثكم عن بيتهوفن. لقد عزفوا لنا في ذاك اليوم حاجة منه جميلة جداً على أيّ حال وعلى شيء من البرودة وفيها فكرة روسيّة.

ويوقّر في نفسك أن تفكّر أنّه كان يحسب ذلك روسياً. كذلك ظنّ الرسامون الصينيّون أنّهم يقلّدون «بلليني». أضف أن أربعة أرباع الناس حتّى في البلد الواحد لايرون، في كل مرّة ينظر فيها أحدهم إلى الأشياء نظرة على شيء من الجدّة، لايرون شيئاً لبتّة فيما يعرضه عليهم. ولابدّ من أربعين عاماً على الأقل كي يفلحوا في التمييز».

وصاحت الأميرة مذعورة: «أربعون عاماً!».

فأردفت الدوقة: «أجل»، وهي تضيف أكثر فأكثر إلى الكلمات (التي كانت كلمات لي تقريباً، إذ سبق لي بالضبط أن أعربت أمامها عن فكرة مشابهة)، بفضل نطقها، المقابل لما يسمّى بالنسبة إلى حروف الطباعة «الحرف المائل»، «إنّه ضرب من الرجل الأوّل المعزول عن جنس لايزال غير موجود وسوف يتكاثر، رجل يتمتّع بنوع من «الحسّ» لايملكه الجنس البشري في عصره. ليس باستطاعتي الاستشهاد بنفسي لأنّني أنا أحببت دوماً على العكس ومنذ البداية جميع ما يبرز من أمور مثيرة مهما ارتدت من جدّة. ولكنّي رحت في ذاك اليوم إلى متحف اللوفر برفقة الدوقة الكبرى فمررنا أمام لوحة «أولمبيا» من أعمال «مانيه». والآن لايدهش أحد من ذلك بعد، إنّها تبدو وكأنّها من أعمال «أنغر»! والله يعلم مع ذلك كم حربة انبغى لي أن أكسر في سبيل هذه اللوحة التي لا أحبّذ فيها كل شيء ولكنّها بالتأكيد من صنع شخص ذي شأن. وربّما لم يكن اللوفر مطرحها بالضبط.

وتسأل الأميرة «دو بارما» قائلة: «أهي على مايرام الدوقة الكبرى؟» وكانت عمّة القيصر أقرب إليها بما لايقاس من مثال «مانيه».

– «أجل، وقد تكلّمنا عنك». وأردفت الدوقة قول، وبها إصرار على فكرتها: «الحقيقة في الأساس، كما يقول سلفي «بالاميد»، أنّ بيننا وبين أيّ إنسان جدار لغة أجنبيّة. وإني أقرّ من ناحية أخرى أن الأمر لايصح عن أحد بقدر ما يصحّ عن «جيلبير». وإن طاب لك الذهاب إلى منزل آل «إيينا» فأنت أكثر نباهة من أن تربطي أفعالك بما يمكن أن يخطر لهذا الرجل المسكين، وهو مخلوق عزيز بريء، ولكنّ له على كلّ حال أفكاراً من غير عالمنا. وأحسنّي أكثر قرباً وأقرب، عصباً من حوذيّي وجيادي منّي من هذا الرجل الذي يرجعك باستمرار إلى مالعلّهم كانوا يفكّرون في عهد «فيليب الجسور» أو في عهد «لويس الثخين». تصوّري أنّه حينما يتنزّه في الريف يبعد الفلاّحين بعصاه بهيئة ساذجة وهو يقول: «تنحّوا أيّها الحقراء!» وإنّي في الأساس، حينما يكلّمني بمثل الاستغراب الذي ينتابني لو كنت أسمع تماثيل «رقّد» القبور القوطية القديمة تحدثني وعبثاً يكون هذا الحجر الحيّ ابن عمّ لي فإنّه يخيفني ولاتراودني سوى فكرة واحدة وهي أن أدعه في عصره الوسيط. على أنّي اعترف فيما عدا ذلك أنّه لم يقتل أحداً في يوم».

وقال اللواء: «لقد تعشّيت بالضبط وإيّاه منذ قليل في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» ولكن دون أن يبتسم ودون أن يتبنّى مزحات الدوقة.

وسأل الأمير «فون»، وكان دائم التفكير بأكاديمية العلوم الأخلاقية: «هل كان السيّد «دو نوربوا» حاضراً؟».

فقال اللواء: «أجل، وقد جاوز فتحدّث عن امبراطوركم».

– «يبدو أن الأمبراطور «غليوم» ذكيّ جداً ولكنّه لايحبّ رسم «ايلستير». ولست أقول ذلك على آية حال ضدّة فانّي أشاطره نظرته إلى الأمور»، تجيب الدوقة. «مع أنّ ايلستير صنع رسماً جميلاً لي. عجباً! ألا

تعرفه؟ ليس فيه من شبه ولكنّه غريب. إنّه مثير في أثناء جلسات الرسم. لقد جعل منّي ما يشبه العجوز، وفي ذلك تقليد للوحة «المشرفات على المشفى» من أعمال «هالز». ثم قالت الدوقة وهي تلتفت إليّ وتحرك ببطء مروحتها التي من ريش أسود: «في اعتقادي أنّك تعرف هذه الروعات كيما ألجأ إلى تعبير عزيز على قلب ابن أختي». كانت الدوقة منتصبة على كرسيّها، بل أكثر من ذلك، وكانت تردّ رأسها إلى الوراء بإباء، ذلك أنّها كانت تمثّل بعض الشيء دور السيّدة الكبيرة مع أنّها ظلّت على الدوام سيّدة كبيرة. وقلت إني ذهبت فيما مضى إلى امستردام ولاهاي، ولكنّي بغية ألاّ أخلط الحابل بالنابل تركت «هارلم» جانباً إذ كان وقتي محدوداً.

وصاح السيّد «دو غير مانت» قائلاً: «آه! لاهاي، أيّ متحف ذاك!» فقلت له إنّه أعجب فيه ولاشكّ بلوحة «منظر ديلفت» من أعمال «فيرمير». ولكن الدوق كان أقلّ علماً منه كبرياء، لذلك اكتفى بأن يجيبني بلهجة متغطرسة شأنه في كلّ مرّة يحدّثونه فيها عن عمل فنّي في أحد المتاحف أو عن «الصالون» ولا يتذكّر: «إن كان لابدّ من رؤيته فقد رأيته!».

وصاحت الدوقة بدورها: «عجباً! قمت برحلة إلى هولندا ولم تذهب إلى «هارلم»؟ فأن تكون شاهدت لوحات «هالز» أمر غير عاديّ حتّى لو لم يتّسع لك سوى ربع ساعة. وربّما طاب لي أن أقول إنّه ينبغي لمن قد لا يستطيع رؤيتها إلاّ من أعالي عربة حافلة كهربائية دون أن يتوقف، إن اتّفق عرضها في الهواء الطلق، أن يفتح عينيه وسعهما».

وصدمني هذا القول من جرّاء أنّه يتجاهل كيفيّة تشكّل الانطباعات الفنيّة في داخلنا وأنّه يبدو وكأنّه يفترض أن عيننا في هذه الحالة محض آلة مسجّلة تأخذ لقطات آنيّة.

كان السيّد «دو غير مانت» ينظر إلى مهابة زوجته المشهورة، وهو سعيد أن تحدّثني بمثل تلك الكفاءة عن موضوعات تستأثر باهتمامي، ويصغي إلى ما تقوله عن «فرانس هالز» ويفكّر في نفسه قائلاً: «إنّها طويلة الباع في — كل شيء، ويستطيع ضيفي الشاب أن يقول بينه وبين نفسه إنّ في حضرته سيّدة كبيرة من الأمس بكلّ ما للكلمة من معنى وكما لايتفقّ لها من مثيلة في يومنا». هكذا كنت أبصرهما كليهما وقد أخرجا من اسم «غيرمانت» هذا الذي كنت بالأمس أتخيّلهما فيه يعيشان حياة يتعذر تصوّرها، وهما اليوم شبيهان بالرجال الآخرين والنساء الأخريات، بيد أنّهما يتخلفّان قليلاً عن معاصريهما ولكن على نحو غير متساوٍ شأن العديد من الأسر في حيّ «سان جيرمان» حيث أفلحت المرأة في التوقّف في العصر الذهبي وساء حظّ الرجل فانحدر إلى عهد الفظاظة من الماضي، فلا تزال الأولى من عهد لويس الخامس عشر في حين يحيط بالزوج فخامة عصر «لويس فيليب». فأمّا أن تكون السيدة «دو غيرمانت» شبيهة بالنساء الأخريات فقد كان الأمر بالنسبة إليّ بادئ الأمر مخيباً للآمال ويكاد يبدو الآن من جرّاء ردّة الفعل وبفضل الكثير من طيبّ الخمور اندهاشاً. إن أمثال «دون جوان» النمسوي و«إيزابيل ديسته» الواقعين بالنسبة إلينا في دنيا الأسماء إنّما تكون صلتهم بالتاريخ الحقيقيّ قليلة بقدر الصلة التي تجمع بين جانب «ميزيكليز» وجانب «غيرمانت» لقد كان «إيزابيل ديسته» دونما شكّ أميرة صغيرة جداً في الواقع شبيهة باللواتي ما كنّ يبلغن في عهد لويس الرابع عشر أيّة مكانة خاصّة في البلاط. ولكنّنا لانستطيع، إذ تبدو لنا من ماهيّة فريدة ولاتضاهي بالتالي، أن نتصوّرها أقلّ عظمة منه حتّى أنّ عشاء مع لويس الرابع عشر ربّما بدا يحمل في نظرنا بعض الأهميّة فحسب

في حين نجدنا نبصر بأمّ العين، بفضل مصادفة خارقة، بطلة روائية في شخص «إيزابيل ديسته» وإنّنا، بعدما نلاحظ، بدراسة «ايزابيل ديسته» ونقلها من هذا العالم الخرافي إلى عالم التاريخ، أنّ حياتها وتفكيرها لايحويان شيئاً من تلك الغرابة الزاخرة بالأسرار التي سبق أن أوحى لنا بها اسمها، وبعد ما تبلغ هذه الخيبة تمامها، إنّما نبدي امتناناً لاحدّ له لهذه الأميرة أنْ تجمعَ لديها حول رسم «مانتينيا» معلومات مساوية لما تجمعّ من معلومات احتقرناها حتّى ذاك ووضعناها، على حدّ قول «فرانسواز» «في أسفل السافلين»، لدى السيّد «لافنيتر» لقد كنت أحسّ، بعد ما تسلّقت مرتفعات اسم «غيرمانت» المنيعة وانحدرت على السفح الداخلي من حياة الدوقة، كنت أحسّ إذ أجد فيه أسماءً، هي مألوفة في أمكنة أخرى، أسماء «فيكتور هوغو» و«فرانس هالز» و«فيبير» للأسف، بالاستغراب نفسه الذي يحسّ به مسافر، بعدما أخذ في اعتباره، كيما يتخيل تميزّ العادات في واد موحش من أميركا الوسطى أو أفريقيا الشمالية، البعد الجغرافي وغرابة التسميات والنباتات، إذ يكتشف بعد اجتياز ستار من السولع أو شجر المنسيلاً سكاناً يقرؤون «ميروب» أو «ألزير» (وربّما اتّفق ذلك أحياناً أمام خرائب مسرح روماني أو عمود مكّرس لـ«فينوس»). وكان للثقافة المماثلة التي جهدت السيّدة «دو غيرمانت» دون مصلحة ودون علّة طموح أن تنحدر بها إلى سويّة اللائي لن تعرفهنّ في يوم، كان لتلك الثقافة البعيدة جدّاً المنعزلة جدّاً والتي تفوق كثيراً البورجوازيات المتعلمات اللواتي عرفتهنّ الطابع الحميد، المؤثر تقريباً لشدّة مايبدو غير ذي جدوى، طابع التبحّر في مادّة الآثار الفينيقيّة لدى أحد رجال السياسة أو أحد الأطباء.

قالت لي السيّدة «دو غيرمانت» بلهجة لطيفة وهي تحدّثني عن «هالز»: «كان بمقدوري أن أريك لوحة جميلة جدّاً، بل أجملها فيما يزعم بعض الناس، ورثتها عن ابن عمّ ألمانّي. ولكنّما اتّفق لسوء الحظّ أنّها «أُقْطِعَتْ» للقصر. ألا تعرف هذه العبارة؟ ولا أنا بدوري»، تضيف قولها من جرّاء هذا الميل الذي بها في إطلاق المزاح (الذي تخال أنّها عصريّة به) حول العادات القديمة التي كانت مع ذلك شديدة التعلّق بها على نحو غير واع. «يسرّني أنّك شاهدت لوحاتي التي من أعمال «ايلستير» ولكنّي أقرّ أنّني كنت سأسرّ أكثر بكثير لو استطعت أن أرحبّ بك أمام لوحة «هالز»، أمام تلك اللوحة «المُقْطَعَة».

وقال الأمير «فون»: «أعرفها، إنّها لوحة دوق «هيسّ» الأكبر».

فقالت السيّدة «دو غيرمانت»: «بالضبط، لقد سبق أن تزوّج أخوه أختي، وكانت والدته على أيّة حال ابنة عمّ والدة «أوريان»».

وأضاف الأمير يقول: «أمّا فيما يخصّ السيّد «ايلستير» فسوف أسمح لنفسي أن أقول، دون أن يكون لي رأي في أعماله الفنّية التي لا أعرفها، إنّ الكراهية التي يكنّها له الإمبراطور لايبدو لي أنّه ينبغي اتّخاذها حجّة ضدّه. إنّ الأمبراطور رائع الذكاء».

— «أجل، لقد تعشّيت مرتّين معه، مرّة في منزل عمتي «ساغان» ومرّة في منزل عمتّي «رادزيفيل» ويجدر بي» أن أقول إنّي وجدته غريباً. لم أجده بسيطاً! ولكنّ لديه شيئاً مسليّاً، شيئاً «صنعيّاً» (تقول وهي تبرز الكلمة) مثل قرنفلة خضراء، أعني شيئاً يدهشني ولا يروقني إلى مالاحدود، شيئاً يدهشك أنّهم استطاعوا أن يفعلوه، ولكنّي أرى أنهم كانوا أحسنوا فعلاً كذلك لو انّهم لايستطيعون. آمل أنّي لا أصدم مشاعرك؟»

وأردف الأمير: «يتمتّع الإمبراطور بذكاء لايصدّق، وهو يحبّ الفنون إلى حدّ التولّه. وإنّ له في الأعمال الفنّية ذوقاً منزّهاً من الخطأ إلى حدّ ما، إنّه لايخطئ البتّة. فإن اتّفق ما كان جميلاً تعرّفه في الحال وأضمر له الكراهية، وإن كره شيئاً فهو، ما من شكّ في ذلك، ممتاز».

وابتسم الجميع.

وقالت الدوقة: «تطمئني».

وعاد الأمير يقول (وما كان يحسن لفظ كلمة «أركيولوغ» (Archéologue)(*) – كما لو أنّها كتبت بالكاف– ولايضيّع قطّ فرصة يستخدمها فيها): «يطيب لي أن أشبّه الإمبراطور بأركيولوغ عجوز (ويقول الأمير أرشيولوغ) من برلين. إن الأرشيولوغ العجوز يبكي أمام الاثار الآشورية القديمة. فإن كانت من الحديث المزيّف، وإن لم تكن قديمة حقاً، فانّه لايبكي. فإن ودّوا أن يعلموا إن كانت هذه القطعة الإرشيولوغية أو تلك قديمة حقاً حملوها إلى الأرشيولوغ العجوز. فإن بكى ابتاعوا القطعة للمتحف. وإن ظلّت عيناه ناشفتين ردّوها إلى التاجر ولوحق بتهمة التزييف. وإنّي في كل مرّة أتناول فيها عشائي في «بوتسدام» أدوّن جميع القطع التي يقول لي الإمبراطور بشأنها: «أيّها الأمير، عليك برؤية ذلك فانّه يفيض عبقريّة» وذلك كي احترز من الذهاب إليها، وحينما أسمعه يصبّ جام غضبه ضدّ معرض فإنّي أجري إليه حالما يمكنني ذلك».

وقال السيّد «دو غير مانت»: «أليس «نوربوا» إلى جانب تقارب انكليزي – فرنسي؟».

فسأل الأمير «فون» بلهجة غاضبة ماكرة، وكان لايطيق احتمال الإنكليز: «وما عساكم تفيدون من ذلك؟ فما أعظم غباءهم. أعرف تماماً أنّهم لن يكونوا عوناً لكم على الصعيد العسكري. على أنّه يمكن الحكم عليهم بناء على غباء جنرالاتهم. لقد تحدّث أحد أصدقائي مؤخراً إلى «بوتا»، تدري، القائد البويري. كان يقول له: «جيش كهذا شيء مخيف. غير أنّي لي على حال أحبّ بالأحرى الإنكليز، ولكن فكّر أنّي أنا، ولست سوى فلاّح، قد نلت منهم في جميع المعارك. وفي المعركة الأخيرة وفيما كنت أتهاوى تحت عدد من الأعداد يفوقني عشرين مرّة لقيت الوسيلة، وأنا أستسلم لأنّني أرغمت على ذلك، أن آخذ ألفي أسير! وحسناً كان ذلك لأنني كنت محض رئيس فلاحين، ولكن لو اتّفق لهؤلاء المعوهين في يوم أن يجابهوا جيشاً أوروبيّاً حقيقاً فانّي ارتجف خوفاً عليهم لدى التفكير فيما قد يحدث!» وما عليك على أيه حال إلا أن ترى أنّ ملكهم الذي تعرفه كما أعرفه يعد رجلاً عظيماً في انكلترة».

كنت لا أكاد أصغير إلى هذه القصص وهي من نمط التي كان السيّد «دو نوربوا» يرويها لو الدي، فما كانت توفّر أيّ غذاء للأحلام التي أعشقها. وحتّى لو ملكت على أيه حال تلك الأغذية التي كانت خلواً منها فكم كان ينبغي أن تتسم بميزة الإثارة الشديدة كي يمكن لحياتي الداخلية أن تستيقظ في أثناء هذه الساعات الإجتماعية التي كنت أسكن فيها جلدي وشعري الحسن التصفيف وصدار قميصي يعني تلك التي ما كنت أستطيع فيها الاحساس بأيّ شيء ممّا كان يشكّل المتعة في الحياة بالنسبة إليّ.

(*) عالم آثار وقد عربنا اللفظ فحسب لنستطيع رد الخطأ الذي غالباً ما يقع فيه الألمان في لفظ.. arché (وتقال «أركيه» بالفرنسية) أرشيه...

وقالت السيّدة «دو غيرمانت» التي كانت ترى أنّ الأمير الألماني يخلّ باللياقة: «آه! لست من رأيك، فانّي أجد الملك «ادوار» رائعاً وبسيطاً جدّاً وأكثر رهافة ممّا يظنّون. والملكة لاتزال حتّى الآن أجمل ما أعرف في العالم».

– «لكن ياسيّدتي الدوقة»، يقول الأمير غاضباً وهو لاينتبه إلى أنّه يسوء في عيون الناس، «ولكن لو كان أمير «غال» فرداً بسيطاً لما كان ثمة منتدى إلا ويشطب اسمه ولما رضى أحد أن يشدّ على يده. إن الملكة رائعة باللغة العذوبة محدودة الأفق. بيد أنّ ثمة ما يصدم في هذه الأسرة الملكيّة التي ينفق عليها رعاياها بالمعنى الحرفي للكلمة والتي تحمل كبار رجال المال من اليهود على دفع جميع نفقاتها، التي كان جديراً به هو أن يدفعها، فيعيّنهم من صغار البارونات في مقابل ذلك. كما هي حال أمير «بلغاريه» ...

قالت الدوقة: «هو ابن عمنّا وهو على ظرف».

فقال الأمير: «وهو ابن عمّي أيضاً، ولكنّنا لا نعتقد لذلك أنّه طيّب القلب. لا، إنّما يجدر بكم أن تتقاربوا وإيّانا، تلك أعظم رغبة لدى الإمبراطور، ولكنّه يودّ أن يأتي ذلك من القلب، ويقول: «ما أبغيه أن تصافحني يدهم لاتحيّة إجلال! هكذا يتعذّر قهركم. ولعلّ الأمر عمليّ أكثر من التقارب الإنكليزي – الفرنسي الذي يكرز به السيد «دو نوربوا».

وقالت الدوقة «دو غيرمانت» كي لاتدعني خارج دائرة الحديث: «أنت تعرفه، أدري». وإذ تذكّرت أنّه سبق للسيّد «دو نوربوا» أن قال إنّه بدا عليّ وكأنّي أبغي تقبيل يده وإذ حسبت أنّه لابدّ روى تلك الحكاية للسيّدة «دو غيرمانت» وأنّه ما كان يمكن في جميع الأحوال إلاّ أن يحدّثها عنّي حديث الأذيّة بما أنّه لم يتردّد على الرغم من صداقته لوالدي في أن يهزئني إلى حدّ بعيد، فانّي لم أفعل مالعل رجل مجتمعات كان فعل. كان قال إنّه يكره السيد «دو نوربوا» وأشعره بذلك، كان قال ذلك كي يبدو وكأنّه السبب المتعمّد لنميمة السفير التي لاتضحي من بعد سوى عمليّة انتقامية كاذبة ومغرضة. وقد قلت على العكس إنّني أظنّ، وبي أسف شديد، أنّ السيّد «دو نوربوا» لايحبّني فأجابت السيّدة «دو غيرمانت»: «أنت مخطئ، إنّه يحبّك كثيراً. تستطيع مساءلة «بازان». فإن عُرِفَ عنّي أنّني لطيفة أكثر ممّا ينبغي فانّه ليس كذلك. سوف يقول لك إنّنا لم نسمع السيد «دو نوربوا» في يوم يتحدّث عن أحد بمثل اللطف الذي يتحدّث به عنك. وقد عزم مؤخّراً أن يسند إليك في الوزارة مركزاً عظيماً. ولمّا علم أنّك تعاني من مرض وقد لايمكنك القبول به أبدى لباقة حتّى في ألاّ يحدّث بجميل قصده والدك الذي يقدّره لي مالا حدود». كان السيّد «دونوربوا» بالتأكيد آخر من لعلّني توقعت منه خدمة طيبة. ولمّا كان بالحقيقة متهكمّا بل سيء الطويّة إلى حدّ فإن الذين خُدعوا مثلي بما يبدي من مظاهر القدّيس «لويس» يقيم العدالة في ظلّ سنديانة وبنغمات صوته السريعة الإشفاق التي كانت تخرج من فمه الرخيم يجاوز قليلاً الحد اللازم كانوا يظنّونها خيانة حقيقيّة حينما يطلّعون على قدح بحقّهم صادر عن رجل بدا بالأمس وكأنّه يضع قلبه في أقواله. كانت صنوف القدح تلك كثيرة إلى حدّ لديه. ولكنّما لايحول ذلك دون أن يبدي ضروباً من الودّ وأن يمتدح من يحبّهم ويسرهّ أن يبدو صاحب معروف إزاءهم.

وقالت لي السيّدة «دو غيرمانت»: «ليس يدهشني على أيّ حال أن يقدّرك، فإنه ذكّي». وأضافت من أجل الآخرين وهي تشير إلى مشروع زواج كنت أجهله: «وإنّي أدرك تماماً أن تبدو له عمتّي، وهي لاتسره كثيراً كعشيقة قديمة، عديمة النفع كزوجة جديدة، ولاسيّما أنّها لم تعد تلك حالها، حتّى كعشيقة، منذ زمن طويل فهي تفيض من حلاوة التقوى. ويستطيع «بوعز - نوربوا»(*) أن يقول كما ورد في أبيات فيكتور هوغو:

«هو ذا قد انقضى زمن طويل منذ أن هجرت فراشي إليك،

يارب، تلك التي اضطجعت معها».

حقاً إن عمتّي لشبيهة بهؤلاء الفنّانين الطليعيين الذين هاجموا الأكاديميّة طوال حياتهم ثم هم يؤسّسون في أواخر سنيهم أكاديميتهم الخاصّة ؛ أو هولاء الذين خلعوا ثوب الرهبان ويصنعون لنفسهم ديناً شخصياً. لقد كان من الأجدى إذ ذاك الاحتفاظ بالثوب أو الامتناع عن الزواج». وأضافت الدوقة بهيئة حالمة: «ومن ذا يدري، ربّما كان ذلك استشفافاً لترمّل آت. وليس أبعث على الغمّ من حداد لاتستطيع أن تلبسه».

فقال اللواء «دو سان جوزيف»: «آه! إن أضحت السيّدة «دو فيلباريزيس» السيّدة «دو نوربوا» فأظنّ أن ابن عمنّا «جيلبير» سوف يصاب بمرض من جرّاء ذلك».

وقالت الأميرة «دو بارما»: «إن الأمير» «دو غيرمانت» ظريف ولكنّه بالفعل شديد الحرص على مسائل المولد واللياقة. لقد ذهبت لقضاء يومين في منزله الريف في أثناء ما كانت الأميرة مريضة لسوء الحظّ. كانت «الصغيرة» ترافقني (وكان ذلك لقباً يطلقونه على السيّدة «دو نولشتاين» لأنها كانت ضخمة). لقد جاء الأمير ينتظرني في أسفل الدرج وقدّم لي ذراعه وتظاهر بأنّه لايرى الصغيرة. وصعدنا إلى الطابق الأول حتّى مدخل الصالات وحينئذ قال وهو يتنحّى ليفسح لي الطريق: «آه! صباح الخير سيّدة «دو نو لشتاين» (فهو لايناديها البتّة إلاّ هكذا منذ افتراقه)، متظاهراً بأنّه يلمح الصغيرة آنذاك فقط كي يبرهن أنّه لايقع عليه الذهاب لتحيتّها في الأسفل».

- «ذلك لايدهشني إطلاقاً، ولا حاجة بي أن أقول لك»، يقول الدوق الذي كان يخال أنّه عصري جداً وأنّه يزدري أكثر من أيّ سواه كرم المولد، بل أنّه جمهوري، «إنّي لا أشاطر ابن عمّي الكثير من الأفكار. تستطيع سيّدتي أن تخمنّ أنّنا نكاد نتفق حول جميع الأمور مثلما النهار والليل، بيد أنّه ينبغي أن أقول إنّي سوف انحاز هذه المرّة إلى رأيي «جيلبير» إن تزوجّت عمتّي «نوربوا» فأن تكون ابنة «فلوريمون دو غيز» وتقدم على زاوج كهذا إنّما يضحك منّا الدجاج على حدّ قولهم، ماذا عساك تريدني أن أقول؟» (كانت هذه الكلمات الأخيرة التي ينطق بها الدوق عامّة في سط الجملة لاجدوى منها ههنا. ولكنّما كانت به حاجة مستمرة إلى قولها تحمله على دفعها إلى آخر المقطع إن لم تجد مكاناً في محلّ آخر. كان ذلك بالنسبة إليه، من بين ما كان، أشبه بمسألة أوزان شعريّة). وأضاف يقول: «لاحظي أنّ آل «نوربوا» نبلاء طيبّون من بيت

(*) بوعز: هو في الكتاب المقدس زوج راعوث وقد خصه فيكتور هوغو بفصل في ملحمته «أساطير القرون».

كريم وأصل عريق».

وقالت السيّدة «دو غيرمانت»: «اسمع يا «بازان»، لاداعي للسخرية من «جيلبير» والتحدّث على غراره، وكانت عراقة المولد في نظرها، ولاتقلّ عن عراقة أحد الخمور، إنّما تقوم بالضبط، شأنها في نظر الأمير ونظر الدوق «دو غيرمانت» في قدمها. ولكنّها كانت تصرّ، وهي أقلّ صراحة من ابن عمّها وأكثر رهافة من زوجها، على ألاّ تكذّب في حديثها روح آل «غيرمانت» فكانت تزدري المكانة في أقوالها على أن تجلّها بأفعالها.

وسأل اللواء «دو سان جوزيف»: «أليس أنّكما حتّى على بعض قرابة خؤولة؟ يبدو لي أنّ «نوربوا» سبق أن تزوّج واحدة من آل «لا روشفوكو».

فأجاب الدوق:

– ولكن لم تكن القرابة بتاتاً بالطريقة تلك. فقد كانت من فرع دوقة «دولاروشفوكو»، وجدّتي من دوقة «دودوفيل»، إنّها جدّة «ادوار كوكو» الرجل الأكثر حكمة في الأسرة»، يجيب الدوق الذي يحمل آراء بشأن الحكمة سطحية بعض الشيء، «ولم يلتق الفرعان منذ لويس الرابع عشر، وقد يكون ذلك بعيداً إلى حدّ ما».

وقال اللواء: «عجباً، هذا أمر مثير وما كنت أعرفه».

فأردف السيّد «دو غيرمانت» قائلاً: «كانت أمّه على أيّ حال باعتقادي شقيقة الدوق «دو مونمورانسي» وسبق أن تزوّجت بادئ الأمر واحداً من أسرة «لاتور دوفيرنيي». ولكن لمّا كاد هؤلاء «المونمورانسيون» لايكونون من آل «مونمورانسي» وأنّ جماعة «لاتور دو فيرنيي» ليسوا بتاتاً «لتوردوفيرنيي» فلست أرى أنّ ذلك يوفّر له مركزاً كبيراً. يقول، وقد يرتدي الأمر أهميّة أكبر، إنّه ينحدر من «سانتراي»، وبما أنّنا ننحدر منهم على نحو مباشر...»

كان ثمّة في «كومبريه» شارع باسم «دو سانتراي» لم أكن قد عدت بالفكر إليه البتّة. وكان يقود من شارع «لابروتونّري» إلى شارع «لوازو». ولمّا كان «سانتراي» رفيق «جان دارك» هذا قد أدخل في هذه الأسرة، بزاوجه من «غيرمانتيّة»، دوقيّة «كومبريه» فقد كان شعاره يتوسّط شعار آل «غيرمانت» في أسفل زجاج ملوّن من كنيسة «سانت إيلير». وعدت فرأيت أدراجاً من حجر رملّي ضارب إلى السواد فيما يعيد تموّج اسم «غيرمانت» هذا إلى النغمة المنسيّة التي كنت أسمعه فيها بالأمس وهي مختلفة جداً عن تلك التي يعني فيها المضيفين اللطيفين اللذين كنت أتعشّى هذا المساء في منزلهما. ولئن كان اسم الدوقة «دو غيرمانت» في نظري اسم جماعة فما كان ذلك في التاريخ فحسب باضافة جميع النساء اللواتي حملنه، بل على امتداد صباي القصير أيضاً الذي سبق أن رأى في الدوقة «دو غيرمانت» هذه وحدها العديد من النساء المختلفات يتناضدن، تزول الواحدة منهنّ بعدما يتّفق للتالية ما يكفي من تماسك. إن الكلمات لاتغيّر من مدلولها على مدى قرون بقدر ما تغير الأسماء بالنسبة إلينا على مدى بضع سنين. وليست ذاكرتنا وقلبنا على اتّساع كافٍ ليمكن أن يكونا أمينين. وليس لدينا في فكرنا الراهن ما يكفي من مكان لنحتفظ فيهما بالأموات إلى جانب

الأحياء. وإنّنا لنضطرّ أن نبني فوق ما سبق ومالا نعود فنعثر عليه إلاّ اتّفاقاً في عملية تنقيب من طراز تلك التي قام بها اسم «سانتراي» منذ قليل. ورأيت من غير المفيد أن أوضح كلّ ذلك بل إنّي كذبت ضمنياً قبل قليل حين لم أحر جواباً عندما قال لي السيّد «دو غيرمانت»: «ألا تعرف ضيعتنا؟» وربّما كان حتّى على علم بأنّي أعرفها ولم يلحّ بداعي حسن التهذيب على الأقلّ. وقطعت عليّ السيّدة «دو غيرمانت» تأمّلاتي.

– إنّي أنا أجد كل ذلك قاتلاً. اسمع، ليست الأمور دوماً مملّة إلى هذا الحدّ في منزلي، وأملي أنّك ستعود بسرعة لتناول العشاء للتعويض عليك، ودون أنساب هذه المرّة» وتقول لي الدوقة بصوت خافت، وهي عاجزة أن تدرك نوع الروعة التي يمكن أن ألقاها في منزلها وأن تتواضع في ألاّ تروقني إلاّ بمثابة معشبة مليئة بالنباتات القديمة العهد.

لقد كان ما تظنّه السيّدة «دو غيرمانت» مخيباً لآمالي، كان على العكس ما ينقذ أمسيتي في أواخرها – لأنّ الدوق واللواء لم يكفّا من بعد عن حديث الأنساب – من خيبة تامّة. وكيف لي ألاّ أشعر بخيبة حتّى ذاك؟ فكلّ واحد من المدعوّين إلى العشاء إذ كان يُلبِس الاسمَ الزاخر بالأسرار الذي سبق أن عرفته به وحلمت به عن بعد فحسب جسماً وعقلاً مساويين لما يتّفق منهما لجميع الناس الذين كنت أعرفهم أو هما أدنى إنّما خلفَ لديّ انطباعاً بالتفاهة السخيفة التي يمكن أن يورثها الدخول في مرفأ «ايلسنور» الدانمركي لكلّ قارئ محموم لـ«هملت». وليس من شكّ أن تلك المناطق الجغرافية وذلك الماضي القديم التي كانت تضع أدواحاً وقباب أجراس قوطيّة في أسمائهم إنّما ألفّت إلى حدّ ما وجههم وعقلهم وآراءهم ولكنّها لاتظلّ فيها إلاّ كالسبب في النتيجة، يعني أنّه يمكن استخلاصها بالعقل لكنّها غير محسوسة بالخيال.

وقد أعادت آراء الأمس هذه فجأة إلى أصدقاء السيّد «دو غيرمانت» وعقليته شاعريتهم المفقودة. صحيح أنّ المفاهيم التي يملكها النبلاء تجعل منهم المثقفين وعلماء أصول اللسان، لافيما يخصّ الكلمات بل الأسماء (وبالنسبة إلى الوسطيّ الجاهل في البورجوازية فحسب، ذلك لأنّه إن كان متديّن، في تساوي الضحالة، أقدرَ من ملحد على إجابتك عن الطقوس الدينيّة فإنّ عالم آثار مناهض لرجال الدين غالباً ما يتمكّن في المقابل أن يبزّ كاهن رعيّته في كلّ ما يتعلّق حتّى بكنيسة هذا الأخير)، تلك المفاهيم، إن شئنا البقاء في دائرة الصواب، أي في دائرة العقل، لم تكن تملك حتّى في نظر هؤلاء السادة العظام الروعة التي ربّما ملكتها في نظر أحد البورجوازيّين. ربّما علموا خيراً منّي أنّ الدوقة «دو غيز» كانت أميرة «كليف» و«أورليان» و«بورسيان» إلخ، ولكنّهم كانوا قد عرفوا حتّى قبل هذه الأسماء جميعاً وجه الدوقة «دو غيز» الذي كان هذا الاسم يعكسه مذ ذاك لناظريهم. لقد بدأت بالجنّية وإن انبغى أن تزل بعد حين؛ أمّا هم فبالمرأة.

إنّنا نبصر أحياناً ضروباً من الغيرة تنشأ في الأسر البورجوازية إن تزوجّت الشقيقة الصغرى قبل الكبرى. كذلك كان عالم الأرستقراطيّين، ولاسيّما آل «كورفوازييه»، بل آل «غيرمانت» أيضاً، يقلّص عظمته الأرستقراطيّة إلى حدّ محض تفوّق في دنيا الخدم بموجب سخافة سبق أن عرفتها بادئ الأمر (وتلك كانت في نظري فتنتها الوحيدة) في بطون الكتب. أليس يبدو أنّ «تالمان دي ريو» إنّما يتحدّث عن آل «غيرمانت» بدلاً من آل «روهان» حينما يروي بارتياح جليّ أن السيّد «دو غيمينيه» كان يصرخ قائلاً لأخيه: «تستطيع الدخول هنا، فليس هذا متحف اللوفر!» ويقول عن الفارس «دو روهان» (لأنّه كان ابناً غير شرعي للدوق «دو

كليرمون») «أما هو فأمير على الأقلّ!» أمّا الأمر الوحيد الذي غمّني في ذاك الحديث فأن ألاحظ أن الحكايات اللامنطقيّة المتعلّقة بالدوق الأكبر الظريف وريث عرش «لوكسمبور» كانت تجد آذاناً صاغية في هذه الصالة شأنها لدى رفقاء «سان لو». حقاً لقد كان ذلك وباءً لعلّه لن يدوم سوى سنتين ولكنّه يمتدّ إلى الجميع. وأعادوا الحكايات الكاذبة نفسها وأضافوا أخرى إليها. وأدركت أن أميرة «دو كسمبور» نفسها كانت توفّر، فيما تبدو وكأنّها تدافع عن ابن اختها، أسلحة لمهاجمته. وقال لي السيّد «دو غيرمانت» مثلما سبق أن فعل «سان لو»: «إنّك مخطئ في الدفاع عنه. إليك مثلاً، فلندع جانباً حتّى رأي أهلنا الإجماعي، حدّث عنه خدمه، فهم في الأساس خير من يعرفنا. كانت السيّدة «دو لو كسمبور» قد أعطت زنجيّها الصغير لابن اختها. فعاد الزنجيّ باكياً يقول: «دوق أكبر يضرب أنا، أنا غير سافل، دوق أكبر شرّير، يااللروعة!» وأستطيع التكلّم عن ذلك كلام العارف فإنّه ابن عم لـ«أوريان»».

ولايمكنني على أي حال أن أقول كم مرّة سمعت في هذه الأمسية لفظي ابن عم وابنة عم. فقد كان السيّد «دو غيرمانت» من جهة يصرخ تقريباً لدى كلّ اسم ينطقون به: «ولكنّه ابن عم لـ«أوريان»!» بالابتهاج نفسه الذي يبديه رجل ضلّ سبيله في غابة ويقرأ على طرف سهمين رُبّما بالتعاكس فوق لوحة اتّجاه ويليهما عدد صغير جداً من الكيلو مترات: «منظرة كازيمير بيربيه» و«صليب كبير الصيادين» فيدرك ذلك أنّه على الدروب الصحيح. ومن جهة أخرى كانت لفظتا ابن عم وابنة عم تستخدمان بمقصد مغاير تماماً (وكان شاذاً ههنا) على لسان عقيلة سفير تركيا التي كانت قد جاءت بعد العشاء. كان يتأكّلها الطموح الاجتماعي وقد وهبت ذكاء حقيقياً سريع التمثّل وكانت تتعلّم بالسهولة نفسها حكاية «تقهقر العشرة آلاف»(*) أو الانحراف الجنسي لدى الطيور. ولعلّه كان يستحيل أن تخطئها حول أحدث الدراسات الألمانية، أبحثت في الاقتصاد السياسيّ أم الأمراض العقليّة أم مختلف أشكال الأونانيّة أم فلسفة «ابيقور». وكانت إلى ذلك امرأة عاقبة الإصغاء إليها وخيمة فقد كانت، وهي أبداً على ضلال، تعدّ بمثابة نساء طائشات تماماً من يتحلّين بفضائل لايدانيها شكّ وتحذّرك من رجل تحرّكه أشرف المقاصد وتروي ضروباً من الحكايات تبدو وكأنّها تخرج من بطون الكتب لامن جرّاء جدّيتها بل من جرّاء لامعقوليتّها.

كانوا قليلاً ما يستقبلونها في تلك الفترة. كانت تتردّد بضعة أسابيع على نساء لامعات تماماً كالدوقة «دو غيرمانت» لكنّها اقتصرت بعامّة وعلى الرغم منها، فيما يخصّ أكثر الأسر ارستقراطية، على فروع مغمورة لم يعد آل «غيرمانت» يتردّدون عليها. وكانت تأمل أن تبدو تماماً من دنيا المجتمعات الراقية بذكر أعظم الأسماء لأناس قليلاً ما يتمّ استقبالهم وكانوا أصدقاء لها. ويهتزّ السيّد «دو غيرمانت» في الحال فرحاً أن يلقى نفسه في بلاد يعرفها ويطلق صيحة تجمّع ظنّاً منه أن الأمر يتعلّق بأناس كثيراً ما يتناولون عشاءهم في منزله: «لكنّه ابن عمّ لـ«أوريان»! إنّي أعرفه كما أعرف حبيبي، إنّه يسكن في شارع «فانو» وكانت والدته الآنسة «دوزيس». وتضطرّ عقيلة السفير أن تقرّ بأن مثالها مأخوذ من حيوانات أدنى قدراً. وكانت تحاول أن تربط بين أصدقائها وأصدقاء السيّد «دو غيرمانت» باللحاق به مواربةً: «أعلم تماماً من تعني. لا، ليسوا هؤلاء، إنّهم ابناء عمّ لهم». لكنّ هذه الجملة المرتدّة التي تطلع بها السفيرة المسكينة سرعان ماتتلاشى. فقد كان السيّد «دو

(*) للمؤرخ اليوناني «كزينوفون» Xénophon

غيرمانت» يجيب خائب الآمال: «آه! أنا لا أرى إذ ذاك من تقصدين». ولا تنبس السفيرة ببنت شفة لأنّها إن لم تعرف في يوم سوى «ابناء عمّ» من كان ينبغي، فكثيراً مالم يكن أبناء العم هؤلاء حتّى من ذوي القربى. ثم ينطلق، فيما يخصّ السيّد «دو غيرمانت» مدّ جديد من عبارات «ولكنّما هي ابنة عمّ لـ«أوريان»، وهي كلمات تبدو وكأنّها توفّر للسيّد «دو غيرمانت» في كلّ من جمله الفائدة نفسها التي توفّرها بعض النعوت المريحة لشعراء الرومان لأنّها تزوّد أبياتهم السداسية المقاطع بتفعلية مناسبة»(*).

على أن انطلاقة «ولكنّما هي ابنة عمّ لـ«أوريان» بدت على الأقلّ طبيعيّة تماماً في انطباقها على الأميرة «دو غيرمانت» التي كانت بالفعل شديدة القربى من الدوقة. ولم يكن يبدو أنّ السفيرة تحبّ تلك الأميرة، فقد قالت لي بصوت خافت تماماً: «إنّها غبيّة. لا، ليست جميلة إلى هذا الحدّ، وتلك شهرة مغتصبة». وأضافت بلهجة يطبعها التروّي والاشمئزاز والتصميم: «وإنّها لتوحي إليّ على أيّ حال بنفور شديد». ولكنّ العمومة غالباً ما كانت تمتدّ إلى أبعد من ذلك بكثير إذ ترى السيّدة «دو غيرمانت» من واجبها أن تقول «عمتّي» لنسوة ما كنت لتلقى لهنّ جدّاً مشتركاً معهم دون الرجوع أقلّه حتّى لويس الخامس عشر، تماماً كما هي الحال في كل مرّة كانت مصائب الدهر تقضي أن تتزوّج ميليارديرة أميراً، أيّ أمير، سبق أن تزوّج جدّة الثالث، شأن جدّ السيّدة «دو غيرمانت» ، إحدى بنات «لوفوا» فتقوم إحدى مسرّات الأميرة على استطاعتها، منذ أوّل زيارة لفندق آل «غيرمانت»، حيث يسيئون على أيّ حال استقبالها في كثير أو قليل ويجرحّون في سلوكها في كثير أو قليل، أن تقول «ياعمتّي» للسيدة «دو غيرمانت» التي تدعها تفعل بابتسامة أموميّة. ولكن قليلاً ما كان يهمني ماعسى أن يكون «المولد» في نظر السيّد «دو غيرمانت» والسيّد «دو بوسيرفوي»، فما كنت أبحث في الأحاديث التي يتبادلانها بهذا الشأن إلاّ عن متعة شعريّة. كانا يوفرّانها لي، دون أن يعرفاها، كما ربّما فعل فلاّحون أو بحّارة يتكلّمون عن الزراعة وظاهرات المدّ والجزر، وهي حقائق قليلاً ما تنفصل عن ذواتهم حتّى بمكنهم أن يتذوّقوا فيها الجمال الذي كنت أقوم شخصياً باستخلاصه منها.

كان الاسم يذكّر أحياناً بواقعة خاصّة، بتاريخ أكثر منه بسلالة. فحينما سمعت السيّد «دو غيرمانت» يذكّر بأنّ والدة السيّد «دو بريوتيه» كانت من أسرة «شوازول» وجدّته من أسرة «لوساغ» خلتني أبصر تحت القميص العادي ذي الأزرار اللؤلؤيّة البسيطة هاتين الذخيرتين الرفيعتين تقطران دماً داخل كرتيّن من الكريستال: قلب السيّدة «دوبرالان» وقلب الدوق «دو بيرّي». كان ثمّة أخرى أكثر إمتاعاً: الشعور الطويلة الناعمة للسيّدة «تاليّان» أو السيّدة «دو سابران».

وأحياناً لم يكن ما أرى محض ذخيرة. فقد كان السيّد «دو غيرمانت» ، وهو أكثر اطلاعاً من زوجته على ما كان عليه أجداده، يحمل ذكريات تضفي على حديثه مظهراً جميلاً لمسكن قديم خال من الروائع الفنيّة الحقيقيّة ولكنّه مليء بلوحات أصيلة المستوى فخمة يخلّف مجملها مظهراً جليلاً. فحينما سأل الأمير «داغريجانت» لماذا قال الأمير س... في حديثه عن الدوق دومال «عمّي» أجاب السيّد «دو غيرمانت» قائلاً:

(*) بدا من العسير تقريب ماورد في النص من إشارة إلى الشعر اليوناني واللاتيني حيث جاءت لفظتا dactyle (وتعني مقطعاً يضم طويلة وقصيرتين) و spondée و (وتعني مقطعاً يضم طويلتين) فاستبدلنا بهما التفعيلات.

«لأن شقيق والدته والدوق«دو فو تنبيرغ» سبق أن تزوّج إحدى بنات «لويس فيليب» حينذاك تأمّلت مذخرة كاملة شبيهة بالتي كان يرسمها «كارباتشيو» أو «ميملنغ» من الخانة الأولى حيث تظهر الأميرة في احتفالات عرس شقيقها الدوق «دورليان» وهي تلبس فسطان نزهة بسيط لتعرب عن استيائها إذ رأت مبعوثيها يردون على أعقابهم، وكانوا قد ذهبوا يطلبون من أجلها يد الأمير «دو سيراكوز»، إلى الأخيرة التي تقوم فيها من ولادة صبّي، هو الدوق «دو فورتنبرغ» (عمّ الأمير الذي تعشّيت وإيّاه منذ قليل)، في قصر «فانتيزي» هذا، وهو أحد الأمكنة الأرستقراطية، ارستقراطيّة بعض الأسر: فهي بدورها ترى على مدى أكثر من جيل أكثرَ من شخصية تاريخية ترتبط بها ؛ ففي هذا الأخير على وجه الخصوص تعيش جنباً إلى جنب ذكريات دوقة «بايروث»، وهذه الأميرة الأخرى الغريبة الأطوار بعض الشيء «شقيقة الدوق «دورليان») التي كانوا يقولون لها إنَّ اسم قصر زوجها يروق الأسماع، وملك «البافيير»، وأخيراً الأمير س.، وكان يشكلّ بالضبط العنوان الذي طلب منذ برهة إلى الدوق «دو غيرمانت» أن يراسله إليه، إذ كان قد ورثه ولم يكن يؤجرّه إلاّ في أثناء عروض «فاغنر» للأمير «دو بولينياك»، وهو متظرّف آخر ارئع. وكان الأمر واحداً كذلك حينما كان السيّد «دو غيرمانت» يضطر في سبيل أن يوضح كيف أنّه قريب للسيّدة «دار باجون» أن يعود بعيداً جداً إلى الوراء وببساطة عظيمة، عن طريق سلسلة ثلاث أو خمس جدّات وأيديهنّ المتشابكة، إلى «ماري لويز» أو «كولبير»: فلا يظهر الحدث التاريخي الكبير عرضاً في جميع تلك الحالات إلاّ من خلف قناع مشوّهاً مقلّصاً في اسم عقار وفي أسماء امرأة اختيرت على نحو ماهي عليه لأنّها حفيدة «لويس فيليب» و«ماري أميلي» لابوصفهما ملك فرنسه وملكتها بل بمقدار ماخلفا ميراثاً بوصفهما جدّين. (نشاهد لأسباب أخرى في قاموس لآثار «بلزاك» لاتظهر فيه أكثر الشخصيّات شهرة إلاّ بحسب صلاتهمّ بـ«الكوميديا البشريّة»، نشاهد نابليون يحتّل مكاناً أقلّ بكثير من «راستينياك» ولايحتلّه إلاّ لأنّه تحدّث إلى الآنسات «دو سان سيني»). كذلك الأرستقراطية، ببنائها الثقيل الذي تنفتح فيه نوافذ قليلة تجلب اليسير من الضوء، وإذ تبرز القصور نفسه في الإنطلاقة ولكنّما إلى ذلك القوّة الكثيفة المعمّاة التي تطبع الهندسة الرومانية، إنّما تحتبس التاريخ كلّه وتسدّ عليه المنافذ وتوليه عبوساً.

وهكذا أخذت مساحات ذاكرتي تغطيّها شيئاً فشيئاً الأسماء التي تتراتب وبتشكّل بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر وتترابط فيما بينها بصلات أكثر فأكثر تعدّداً فتحاكي تلك الأعمال الفنيّة الكاملة حيث ليس من ضربة ريشة معزولة عن غيرها وحيث يأخذ كل جزء من الأجزاء الأخرى علّة وجوده مثلما يفرض عليها علّة وجوده.

وقد روت عقلية سفير تركيا، إذ عاد اسم السيّد «دو لوكسمبور» على بساط البحث، أنّ جدّ المرأة الشابّة (ذاك الذي كان يملك تلك الثروة الضخمة التي جاءته من الطحين والعجائن) دعا إلى مأدبة غداء السيّد «دو لوكسمبور» فرفض هذا الأخير طالباً أن يوضع على المغلف: «السيّد...، طحّان»، الأمر الذي أجاب عليه الجدّ بما يلي: «إنّما يزيد من اغتمامي أن لم تتمكّن من المجيء، ياصديقي العزيز، أنّني كنت أستطيع الابتهاج بك في جوّ حميم، فقد كنّا شلّة صغيرة وما كان ليحضر المأدبة سوى الطحّان وابنه وأنت»(*) . ولم تكن تلك الرواية شنيعة فحسب في نظري أنا الذي كان يعلم الاستحالة الخلقيّة في أن يكتب عزيزي السيّد «دو

(*) إشارة إلى أحد أمثال الشاعر الفرنسي «لافونتين» وهو بعنوان: «الطحان وابنه والحمار».

ناسوّ» إلى جدّ زوجته (وهو يعلم أنّه سوف يرث منه) ناعتاً إيّاه بـ«الطحّان»، ولكنّ الغباء كان يبرز واضحاً منذ الكلمات الأولى إذ إن تسمية الطحّان قد وضعت على نحو جليّ جداً لاستدراج عنوان مثل «لافونتين». ولكنّ في حيّ «سان جيرمان» من الغباوة ما يجد كلّ بها، حينما يزيد منها سوء الطويّة، أنّها كانت «ضربة معلّم» وأنّ الجدّ الذي أعلن الجميع في الحال عن مصدر ثقة أنه رجل مرموق قد أبدى نباهة أكبر من صهر ابنه. وشاء الدوق «دو شاتيلّرو» أن يستغلّ هذه الحكاية ليروي تلك التي سبق أن سمعتها في المقهى: «كان الجميع يأوون إلى أسرّتهم».، ولكنّ الدوق أوقفته منذ الكلمات الأولى وبعدما نقل عن مطالبة السيّد «دو لوكسمبور» بأن ينهض السيّد «دو غيرمانت» قدّام زوجته واحتجتّ قائلة: «لا، إنّه سخيف جداً ولكن ليس إلى هذا الحدّ». كنت مقتنعاً في الصميم أن جميع الروايات المتعلّقة بالسيّد «دولو كسمبور» كانت كاذبة على حدّ سواء وأنّني سوف أسمع التكذيب نفسه في كل مرّة أجدني فيها في حضرة أحد الممثّلين أو الشهود. هلى أنّي تساءلت إن كان تكذيب السيّدة «دو غيرمانت» ناجماً عن حرصها على الحقيقة أو عن اعتزازها بنفسها. ولكنّ هذا الأخير تراجع أمام سوء الطويّة لأنها أضافت تقول ضاحكة: «لقد مُنيت على أي حال بإهانتي الصغيرة أيضاً فإنّه دعاني إلى العصرونية وهو راغب في أن يعرّفني بالدوقة الكبرى «دو لوكسمبور»، إذ هكذا يطيب له أن يدعو زوجته وهو يكتب إلى عمّته. وقد أجبته بأسفي وأضفت: «أمّا بشأن «الدوقة الكبرى دو لوكسمبور»، بين قوسين، فقل لها إن جاءت لزيارتي إنّي في منزلي بعد الساعة الخامسة من كل يوم خميس». بل لقد لحقت بي إهانة ثانية. فقد هتفت إليه وأنا في «اللوكسمبور» أن يجيء ويكلّمني على الهاتف. ولكن سموّه يزمع أن يتناول غداءه، قد انتهى من تناول غدائه، وانقضت ساعتان دونما نتيجة فلجأت حينذاك إلى وسيلة أخرى: «هل تكرّمت بأن تقول للكونت «دو ناسوّ» أن يجيء ويكلّمني؟» وأسرع في الدقيقة نفسها وقد استثرته في الصميم». وضحك الجميع من حكاية الدوقة ومن أخرى مشابهة، يعني من أكاذيب، إني مقتنع بذلك، لأنّني لم التق يوماً رجلاً أشدّ ذكاء وأفضل وأوفر رهافة، ولنقل الكلمة الفصل، أكثر روعة من هذا المدعّو «لوكسمبور – ناسوّ». وسوف نرى ممّا يلي أنني أنا من كان على حقّ. على أنّه يجدر بي الاعتراف بأن السيّدة «دو غيرمانت» قد جادت بجملة لطيفة وسط كلّ «غلاظاتها».

قالت: «لم يكن دوماً على هذه الشاكلة. فقبل أن يفقد رشده، وأن يكون، كما هي الحال في الكتب، الرجل الذي يظنّ أنّه أصبح ملكاً لم يكن غبياً بل كان يتحدّث في بدايات خطوبته». كان يتحدّث عنها حديثاً قريباً إلى القلب إلى حدّ ما وكأنّما عن سعادة غير متوقعّة: «إنّها حكاية جنيّات حقيقيّة وينبغي أن أدخل إلى اللوكسمبور في عربة جنيّات»، يقول لعمّه «دونيسّان» الذي أجابه، لأنّ اللوكسمبور كما تعلم ليس كبيراً: «عربة جنيّات، إنّي أخشى ألاّ تستطيع الدخول، وإنّي أنصحك بالأحرى بعربة الماعز». فلم يغضب الأمر «ناسوّ»، وليس ذلك فحسب بل كان أوّل من روى لنا الكلمة وضحك منها».

– «أو رنيسان» يفيض ظرافة، ولديه من يورثه إيّاها فإنّ والدته من آل «موتجو» إنّه على غير مايرام هذا المسكين «أورنيسان».

وقد كان لهذا الاسم فضل قطع دابر الأذيّات التي كانت ستتوالى إلى مالانهاية. فقد أوضح السيّد «دو غيرمانت» بالفعل أن جدّة السيّد «دورنيسّان» الثانية كانت شقيقة «ماري دو كاستيي موتجو» زوجة «تيموليون

دو لورين» وعمّة «أوريان» بالنتيجة. وبذلك ارتدّ الحديث إلى الانساب فيما كانت سفيرة تركيا المعتوهة تهمس في أذني: «يبدو لي أنّك على أحسن اعتبار في أوراق الدوق «دو غيرمانت» فحذار»، وإذ سألتها إيضاح ذلك قالت: «أقصد، وستفهمني بالتلميح، أنّه رجل يمكنك ائتمانه دونما خطر على ابنتك لاعلى ابنك». وبعد، لئن كان ثمّة رجل شغف يوماً، على العكس، بحبّ النساء حصراً فقد كان بالتأكيد الدوق «دو غيرمانت». ولكنّ الضلالة وعكس الحقيقة الذي يؤخذ بسذاجة إنّما كان بالنسبة إلى السفيرة بمثابة الوسط الحيوي الذي لايمكنها التحرّك خارجه. «إن شقيقه «ميميه» الذي ينفرّني في الصميم لأسباب أخرى «ما كان يحبّها) قد أورثه سلوك الدوق غمّاً حقيقياً. كذلك هو شأن عمّتهما «فيلباريزيس». آه! إنّي أعشقها. تلكم امرأة قديسة والنموذج الحقيقي لسيّدات الأمس العظيمات. فليست الفضيلة بعينها فحسب بل الاحتشام. إنّه لاتزال تقول: «ياسيّدي» للسفير «نوربوا» الذي تلقاه كلّ يوم والذي خلّف في تركيا، بين قوسين، ذكراً طيّباً».

ولكنّي لم أجب السفيرة بغية سماع الأنساب. ولم تكن كلّها ذات شأن بل لقد اتّفق في أثناء الحديث أنّ إحدى المصاهرات اللامتوقّعة التي اطلعني عليها السيّد «دو غيرمانت» كانت زواجاً غير متكافئ لكنّه لايخلو من روعة إذ قرن في العهد الملكّي الذي بدأ في تموّز الدوق «دو غيرمانت» والدوق «دوفزنزاك» بالابنتين الفاتنتين لأحد رجال البحر المرموقين فأضفى على هذا النحو على الدوقتين الإثارة اللامتوقّعة المنبعثة من ظرافة غريبة في طابعها البورجوازي من عصر لويس فيليب في طابعها الهندي. أو أنّ أحد آل «نوربوا» سبق أن تزوّج في عهد لويس الرابع عشر ابنة الدوق «دو مورتمار» الذي كان لقبه الشهير ينعكس، في أقاصي ذلك العهد، على اسم «نوربوا» الذي كنت أجده كامداً ويخيل إليّ أنّه حديث العهد وينحت فيه بعمق جمال ميدالية. ولم يكن أقلّ الأسماء شهرة، في تلك الحالات، هو الذي يكسب فحسب من جرّاء التقارب، فقد كان الآخر، وقد أضحى عادياً من كثرة الألق، يدهشني أكثر فأكثر خلف هذا المظهر الجديد والأقلّ ذيوعاً مثلما يتّفق أحياناً أن يكون الأكثر روعة من بين لوحات رسّام خلاّب الألوان رسم خطّ كلّه باللون الأسود. وما كان مردّ سرعة الحركة الجديدة الي يبدو لي أن تلك الأسماء تتسم بها إذ تقبل فتتخذ مكانها إلى جانب أخرى كنت ظننتها شديدة البعد عنها، ما كان مردّها جهلي فحسب ؛ فهذه التنقّلات التي كانت تقوم بها في ذهني لم تفعلها بأقلّ يسراً في تلك العهود حيث كان اللقب دائم الارتباط بالأرض فيتبعها من أسرة إلى أخرى حتّى إنّي كنت أستطيع على سبيل المثال، داخل البناء الإقطاعي الجميل الذي يؤلفه لقب دوق «نومور» و دوق «شوفروز»، أن اكتشف على التوالي أفراداً من آل «غيز» وأميراً من ال «سافوا»، وآخرين من آل «أورليان» و«لوين» يقبعون وكأنّما في دار مضيافة لأمثال «بيرنار» الناسك. وأحياناً يظلّ العديد منهم يتنافسون على قوقعة واحدة: فعلى أمارة «أورانج» الأسرة المالكة في البلاد المنخفضة والسادة «دو مايّي – نيل»، وعلى دوقيّة «برابان» البارون «دو شارلوس» والأسرة المالكة في بلجيكا، وآخرون غيرهم ما أكثرهم على ألقاب أمارة «نابولي» ودوقيّة «بارما» ودوقيّة «ريجّيو» ويتّفق العكس أحياناً، فالقوقعة قد خلت منذ زمن بعيد جداً من ملاكها الذين طواهم الموت منذ عهد بعيد إلى حدّ أني لم أنتبه في يوم أن اسم القصر هذا أو ذاك كان يمكن أن يؤلّف في فترة هي بإجمال القول غير بعيدة جداً اسم إحدى الأسر. من ذلك أنّي، فيما كان السيّد «دو غيرمانت» يجيب عن سؤال للسيّد «دو مونسيرفوي»: «لا، لقد كانت ابنة عمّي ملكيّة مهووسة، فهي ابنة المركيز «دو فيتيرن» الذي قام بدور لايستهان به في حرب الشوان»، حلّ بي لدى رؤية اسم «فيتيرن»، هذا الذي كان في نظري اسم قصر

منذ إقامتي في «بالبيك»، يضحي مالم يخطر لي البتّة أنّه يمكن أن يكون، أي اسماً لأسرة، حلّ بي مايحلّ من دهشة في مشهد خرافي تدبّ فيه الحركة في أبراج صغيرة وفسحة درج فتضحي أشخاصاً. ويمكننا أن نقول بهذا المعنى إن التاريخ، وحتّى تاريخ الأنساب حصراً، إنّما يعيد الحياة إلى الأحجار العتيقة. لقد كان في المجتمع الباريسيّ أناس لعبوا فيه دوراً مرموقاً ولاقوا فيه بداعي أناقتهم أونباهتهم وداً أكثر من الدوق «دو غيرمانت» أو الدوق «دولاتريموأي» وكانوا بمثل كريم محتدهما. واليوم لفّهم النسيان لأن اسمهم الذي لم يعد يسمع البتّة بما أنّهم لم يخلفوا ذرية إنّما يتردّد بمثابة اسم مجهول، ويظلّ على الأكثر اسم شيء لا يخطر لنا أن نكتشف خلفه اسم بشر ويطلق على قصر، أيّ قصر، على قرية بعيدة، وفي يوم قريب سوف يجهل المسافر الذي سيتوقّف في أقاصي مقاطعة «بورغونيا» في قرية «شارلوس» الصغيرة بغية زيارة كنيستها أن اسم «شارلوس» هذا كان اسم رجل ماشى أعظم الرجال. وذكّرتني هذه الفكرة بأنّه ينبغي لي أن أرحل وأن ساعة موعدي مع شقيق السيّد «دو غيرمانت» كانت تقترب فيما أنا أصغي إلى حديثه عن الأنساب. وتابعت التفكير في نفسي قائلاً: من ذا يعلم إن كان «غيرمانت» سوف يبدو ذات يوم بدوره شيئاً مختلفاً عن اسم المكان، إلاّ في نظر علماء الآثار الذين توقّفوا صدفة في «كومبريه» وسوف يتوافر لهم أمام زجاج «جيلبير لو موفيه» الصبر للاستماع إلى خطابات خلف «تيودور» أو قراءة دليل الخوري. ولكن الاسم العظيم إنّما يستبقي الذين حملوه، مادام بعد لم ينطفئ، في دائرة الضياء. وليس من شكّ أنّ الأهميّة التي كانت توفّرها لناظريّ، في قسم منها، شهرة تلك الأسر أنّك تستطيع انطلاقاً من يومنا هذا أن تتابعها بالارتفاع درجة فدرجة حتّى مابعد القرن الرابع عشر وأن تعثر على مذكرات سائر جدود السيّد «دو شارلوس» والأمير «داغريجانت» والأميرة «دو بارما» ومراسلاتهم في ماضٍ ربّما حجب فيه ليل دامس أصول أسرة بورجوازية وفيه تميزّ خلف الارتسام المضيء الراجع لأحد الأسماء منشأ بعض السمات العصبيّة وبعض العيوب وفساد هذه الفئة أو تلك من آل «غيرمانت» واستمرارها جميعها. وإنّهم ليثيرون، وهم يشبهون تقريباً على نحو مرضيّ جماعة اليوم، يثيرون من قرن إلى قرن اهتمام مراسليهم الحاذر سواء أكانوا سابقين للأميرة البالاتينية والسيّدة «دو موتّفيل» أو جاؤوا بعد الأمير «دولينيي».

كان فضولي التاريخي ضعيفاً على أيّ حال إذا ماقورن بالمتعة الجماليّة. فقد كان من شأن الأسماء المذكورة أن تعرّي مدعوّي الدوقة الذين أحالهم قناع الجسد والغباء أو الذكاء العاديّ أناساً، مطلق أناس عاديّين، فلكأنّي حططت على حصيرة الردهة في أقاصي عالم الأسماء المسحور لا على عتبته كما سبق وخيّل إليّ. فقد تخلّص الأمير «داغر يجانت»، ما أن سمعت أنّ والدته كانت من أسرة «داماس» وحفيدة الدوق «دو مودين»، من الهيئة والأقوال التي كانت تحول دون أن أتعرّفه، وكأنّما من رفيق كيميائي غير مستقرّ، وراح يؤلف مع لفظتي «داماس» و«مودين» اللتين كانتا من محض الألقاب مركباً أكثر روعة بما لايقاس. كان كل اسم تحرّك من جرّاء اجتذاب آخر له ما ارتبتُ أن أيّ قارية تجمعه إليه يهجر المكان الثابت الذي كان يشغله في دماغي حيث كسته العادة لوناً كامداً ويروح يلحق بآل «مورتمار» أو آل «ستيوار» أو آل «بوربون» ويرسم معهم فروعاً رشيقة الأشكال متغيّرة الألوان. واسم «غيرمانت» نفسه كان يكتسب من جميع الأسماء الجميلة التي انطفأت وعادت فاشتعلت متزايدة اللهب لذلك والتي كان يبلغني فحسب أنّه مرتبط بها تحديداً جديداً شاعرياً صرفاً. كنت أستطيع على الأكثر أن أبصرها على طرف كلّ انتفاخ في الساق الشامخة تتفتّح على هيئة ملك

حكيم أو أميرة مشهورة كوالد هنري الرابع أو الدوقة «دو لو تنفيل». ولمّا لم تكن أيّة بقيّة من خبرة ماديّة وضحالة مجتمعية تضخّم في نظري تلك الوجوه، وهي مختلفة في ذلك عن وجوه المدعوّين، فقد كانت تلبث بخطوطها الجميلة وألوانها المتغيّرة مجانسة لتلك الأسماء التي كانت تنفصل على فترات منتظمة، كلّ بلون مختلف، عن شجرة عائلة «غيرمانت» ولاتعكّر بأيّة مادّة غريبة وعاتمة البراعم الشفّافة المتعاقبة المتعدّدة الألوان التي كانت تزهر على كلا جانبي الشجرة الزجاجية مثلما جدود يسوع على زجاج» «جيسيّه» الملوّن العتيق.

كنت قد وددت مراراً وتكراراً أن انسحب وذلك، أكثر منّي لأيّ سبب آخر، من جرّاء التفاهة التي يفرض حضوري طابعها على هذا الاجتماع، مع أنّه واحد من تلك التي كثيراً ما تصوّرتها بالغة الجمال، ولعلّه كان دونما شكّ كذلك لو لم يكن ثمّة شاهد مزعج. كان رحيلي سوف يمكّن المدعوّين على الأقلّ، بعدما يغادر الغريب المكان، من أن يؤلفّوا أخيراً لجنة سريّة. سوف يستطيعون الاحتفال بالأسرار التي اجتمعوا من أجل إقامة طقوسها لأنّهم لم يفعلوا بالطبع للتحدّث عن «فرانس هالز» أو عن البخل وللتحدّث عنهما على نحو ما يفعل جماعة البورجوازيّين. ما كانوا يقولون سوى التوافه لأنّني كنت حاضراً، لاشكّ في ذلك، فيؤنّبني ضميري، إذ أرى كلّ هاتيك النساء الجميلات المتفرّقات، أن أحول بحضوري دون أن يحيين حياة حيّ «سان جيرمان» الخفيّة في أبهى صالاتها. على أن ذلك الرحيل الذي كنت أبغي تنفيذه في كلّ لحظة إنّما كان السيّد «دو غيرمانت» والسيّدة عقليته يبلغان بروح التضحية حدّ تأخيره بالاحتفاظ بي. والأمر الأكثر غرابة بعد أنّ العديد من السيدات اللائي جئن مسارعات مغتبطات مزينّات مرصّعات بالأحجار الكريمة كي لايشهدن بسببي سوى احتفال ما كان يختلف اختلافاً أكثر جوهريّة من تلك التي تقام في غير حيّ «سان جيرمان» أكثر ممّا يحسّ المرء في «بالبيك» أنّه في مدينة تختلف عمّا تعوّدت عيوننا رؤيته — أن العديد من هؤلاء السيّدات انسحبن لاخائبات الآمال كما كان ينبغي أن يكنّ بل شاكرات بحرارة للسيّدة «دو غيرمانت» الأمسية البديعة التي قضينها كما لو لم يكن يجري أمر آخر في الأيّام الأخرى التي لم أكن فيها هنالك.

أفحقاً لمثل أعشية من نمط هذا الأخير كانت تتزيّن كلّ هذه النساء ويرفضن السماح لبورجوازيّات بالدخول إلى صالاتهنّ المغلقة إلى هذا الحدّ؟ لأعشية من نمط هذا الأخير؟ وهي واحدة لو كنت غائباً؟ وداخلني لحظةً من ذلك ارتياب ولكنّه كان مستحيلاً إلى أبعد الحدود وكان محض الحسّ السليم يمكّنني من استبعاده. ثم إنّي لو أخذت به فما الذي كان بقي من اسم «غيرمانت» وقد دبّ فيه البلى منذ «كومبريه» ؟

كان من اليسير إلى درجة غريبة على أيّ حال إرضاء تلك الفتيات الزهرات على يد شخص آخر بل كنّ هن راغبات في إرضائه، ذلك أنّ أكثر من واحدة من اللواتي لم أوجّه إليهنّ في كامل الأمسية إلاّ جملتين أو ثلاثاً أخجلني غباؤها أصررن قبل مغادرة الصالة على المجيء ليقلن لي، وهنّ يحدّقن إليّ بعيونهنّ الجميلة الناعمة فيما يرفعن شريط زهور الأوركيدا الذي يلفّ صدورهنّ، أيّة متعة شديدة أصبن من تعرفهنّ بي ويحدّثنني عن رغبتهنّ «في ترتيب شيء ما» بعدما يكنّ قد «حدّدن يومهن» مع السيّدة «دو غيرمانت» وذلك تلميح من خلف ستار إلى دعوة عشاء.

لم ترحل أي من تلك السيدات الزهرات قبل الأميرة «دوبارما». فقد كان وجود هذه الأخيرة — إذ ينبغي ألاّ يمضي أحد قبل إحدى صاحبات السمّو — واحداً من السببين اللذين لم أفطن لهما واللذين ألحت

الدوقة من أجلهما كلّ هذا الإلحاح لكي أبقى. وما أن نهضت السيّدة «دو بارما» حتّى كان مايشبه الخلاص. فبعد ما ثنت كلّ السيدات ركبتهنّ أمام الأميرة التي أنهضتهنّ، نلن منها عبر قلبة، وكأنّما تلك بركة طلبنها جاثيات، الإذن في طلب معطفهنّ وخدمهنّ، وكان من جرّاء ذلك أمام الباب ما يشبه تلاوة مهتوفة لأسماء كبيرة في تاريخ فرنسه. وكانت الأميرة «دو بارما» قد منعت السيّدة «دو غيرمانت» من النزول لمرافقتها حتّى الردهة مخافة أن تصاب بالبرد فكان أن أضاف الدوق يقول: «هيّا يا «أوريان»، بما أن سيّدتي تأذن بذلك، وتذكّري ما قاله لك الدكتور».

«اعتقد أن الأميرة «دو بارما» قد سعدت جداً بتناول العشاء معنا». كنت أعرف العبارة، وقد اجتاز الدوق كامل الصالة كي يأتي وينطق بها في حضرتي بلهجة لطيفة مشبعة بما يقول، وكأنّما يسلّمني شهادة أو يقدّم لي معجنات محمصّة. وشعرت من المسرّة التي كان يبدو وكأنّه يحسّ بها في تلك اللحظة والتي كانت تضفي على وجهه تعبيراً مؤقتاً من العذوبة الشديدة أن نوع الاهتمامات التي يمثّلها ذلك في نظره كان من تلك التي قد يفي بها حتى آخر لحظة في حياته شأن تلك الوظائف الفخريّة السهلة التي يظلّ المرء يحتفظ بها حتّى في خرفه.

وفي اللحظة التي كنت أزمع فيها الذهاب عادت إلى الصالة وصيفة شرف الأميرة وقد نسيت أن تحمل معها أزهار قرنفل بديعة وردت من «غيرمانت»، وكانت الدوقة قد أعطتها للسيّدة «دو بارما» كانت وصيفة الشرف محمرّة الوجه إلى حدّ ما وكنت تحسّ أنّها استُعجِلَتْ في ذلك لأن الأميرة التي كانت لطيفة جداً إزاء الجميع ما كانت تستطيع تمالك نفاد صبرها إزاء حماقة وصيفتها. ولذلك فقد كانت هذه الأخيرة تجري بسرعة حاملة أزهار القرنفل، ولكنّها، بغية الاحتفاظ بمظهر الارتياح والممازحة لديها، ألقت هذه الكلمات وهي تمرّ أمامي: «ترى الأميرة أنّني متأخّرة وتودّ أن نكون ذهبنا ومعنا أزهار القرنفل مع ذلك. أنا لست بالطبع عصفوراً صغيراً ولايمكنني أن أكون في أمكنة عدّة في آن واحد».

لم يكن سبب الإحجام عن القيام قبل إحدى صاحبات السمّو السبب الوحيد للأسف. فلم استطع الذهاب في الحال إذ كان ثمّة سبب آخر قوامه أن ذلك البذخ المشهور والمجهول لدى آل «كورفوازييه» والذي كان آل «غيرمانت» المنعمون أو نصف المفلسين يجيدون إمتاع أصحابهم به لم يكن محض بذخ ماديّ ولكنّه إلى ذلك، كما سبق لي أن اختبرته مرّات عديدة لدى «روبير دو سان لو» ترف أقوال رائعة وأعمال لطيفة ومجمل أناقة كلاميّة يغذوها ثراء داخليّ حقيقيّ. ولكن بما أنّ هذا الثراء يظلّ دون استعمال في بطالة المجتمعات الراقية فقد كان أحياناً ينساب باحثاً عن تصريف في ضرب من الحنان العابر المتزايد قلقاً لذلك ولعلهّ كان يمكن أن يوهم بالمودّة إن جاء على يد السيّدة «دو غيرمانت». كانت تحسّ بها على أيّة حال لحظة تدع لها أن تفيض إذ كانت تجد إذ ذاك في عشرة الصديق أو الصديقة التي تكون معها ضرباً من نشوة غير شهوانية على الإطلاق شبيهة بتلك التي تهبها الموسيقى بعض الناس. فقد كان يتفق لها أن تنزع زهرة من صدارها، ميدالية كبيرة، وأن تعطيهما لمن لعلّها تمنتّ أن تطيل السهرة معه فيما تشعر بمرارة بأنّ مثل هذا التطويل ما كان يمكن أن يقود إلى غير أحاديث لا طائل تحتها ولن يتخلّلها شيء من المتعة العصبيّة والانفعال العابر، وهي شبيهة في ذلك بأوّل دفء الربيع بما يخلّف من إحساس بالإرهاق والحزن. أمّا بشأن الصديق فما كان

ينبغي أن تضلّله الوعود كثيراً، وهي أبعث نشوة في النفس من أيّ وعد سمعه في يوم، تنطق بها تلك النسوة اللواتي يشعرن شعوراً ما أشدّه بعذوبة إحدى اللحظات فيجعلهن منها بنعومة ونبل تجهلهما المخلوفات العاديّة رائعة مؤثّرة من الظرافة والطيبة ولايظلّ لديهنّ شيء يهبنه من ذواتهنّ بعدما تحلّ لحظة أخرى. فودادهن لايبقى بعد الحماسة التي تمليه، وإنّ رهافة الفكر التي قادتهنّ آنذاك إلى استشفاف جميع الأمور التي كنت راغباً في سماعها وإلى اسماعك إيّاها سوف تمكّنهنّ كذلك بعد بضعة أيّام من الوقوف على مواطن الهزء فيك فيضحكن منها آخر من زوّارهن يتذوّقن بصحبته إحدى تلك «اللحظات الموسيقيّة» التي تتّسم بالقصر الشديد.

وفي الردهة التي طلبت فيها إلى الحجّاب حذائي الثلجي الذي كنت قد أخذته بدافع الحيطة من الثلج، وقد سبق أن تساقطت منه بعض رقع سرعان ما استحالت أوحالاً، دون أن انتبه إلى أن في الأمر قلّة لياقة، شعرت من جرّاء ابتسامة متعالية صدرت عن الجميع بخجل بلغ أعلى درجاته حينما تبيّنت أنّ السيّدة «دو بارما» لم ترحل وكانت تراني انتعل حذائي المطّاطيّ الأميركي. وعادت الأميرة إليّ وصاحت قائلة: «أوه! بالفكرة الجميلة، وكم هي عمليّة! إليكم رجلاً ذكيّاً». وقالت لوصيفتها: «سيّدتي، ينبغي أن نبتاع ذلك»، فيما كانت سخرية الخدم تنقلب إجلالاً ويسارع المدعوّون من حولي كي يستفسروا منّي أين أمكن أن أعثر على مثل هذه الغرائب. وقالت لي الأميرة: «بفضل هذا لن يصيبك ما تخشاه حتّى وإن عادت إلى الإثلاج وذهبت أنت بعيداً».

وقاطعتها وصيفة الشرف بلبهجة حاذقة: «يمكن لسمّوك الملكّي أن يطمئنّ بهذا الشأن فلن يعود الثلج إلى التساقط».

وسألت الأميرة «دو بارما» الرائعة بلهجة حادّة، وكان غباء وصيفتها يفلح وحده في أزعاجها: «وما عساك تدرين عن ذلك ياسيّدتي؟»

– «أستطيع أن أؤكّد الأمر لسمّوك الملكي، لايمكن أن تعود إلى الإثلاج ففي ذلك استحالة ماديّة».

– «ولماذا؟».

– «لايمكن أن تعود إلى الإثلاج فقد قاموا باللازم لذلك: لقد رشوا الملح على الأرض».

ولم تلاحظ السيّدة الساذجة غضب الأميرة وابتهاج الآخرين لأنّها قالت لي بابتسامة وديعة دون أن تأخذ في حسابها انكاري فيما يتّصل بأمير البحر «دولا غرافيير»: «وماهمّ على أيّة حال؟ لابدّ أنّ للسيّد قدماً بحّارة، والأصيل يعمل بأصله».

بعدما صحب السيّد «دو غيرمانت» الأميرة «دو بارما» قال لي وهو يأخذ معطفي: «سأساعدك على دخول قشرتك». وما كان حتّى يتبسّم وهو يستخدم هذا التعبير لأنّ أكثرها عاميّة قد أصبح من جرّاء ذلك، وبسبب تكلّف آل «غيرمانت» البساطة، ارستقراطياً.

ولمّا كانت الحماسة لاتفضي إلاّ إلى الحزن لأنّها كانت متصنّعة فإن ذلك هو ما أحسست به، وإن على نحو يغاير تماماً حال السيّدة «دو غيرمانت»، بعدما خرجت في نهاية المطاف من منزلها، داخل العربة التي

كانت تزمع نقلي إلى فندق السيّد «دو شارلوس». ذلك أنّنا نستطيع باختيارنا أن ننصرف إلى إحدى قوّتين، أولاهما ترتفع من ذاتنا وتصدر عن انطباعاتنا العميقة، والثانية تجيئنا من الخارج. فالأولى تحمل بالطبع معها فرحاً، ذاك الذي تبعثه حياة المبدعين. أمّا التّيار الثاني الذي يحاول أن يدخل فينا الاضطراب الذي يهزّ الأشخاص الخارجيّين فلا ترافقه المتعة. ولكنّنا نستطيع أن نضيف إليه متعة عن طريق الارتداد وبنشوة متكلّفة إلى حدّ أنّها سرعان ما تنقلب مللاً وحزناً. ومن هنا ذاك الوجه المتجهّم الذي يميّز الكثيرين من رجال المجتمعات وماليديهم من الحالات العصبيّة الكثيرة التي يمكن أن تبلغ حدّ الانتحار. وقد كنت داخل العربة التي تقودني إلى منزل السيّد «دو شارلوس» فريسة هذا النوع الثاني من الحماسة وهي مختلفة تماماً عن تلك التي يخلّفها فينا انطباع شخصي كذاك الذي وافاني داخل عربات أخرى: فمرّة في «كومبريه» داخل عربة الدكتور «بيرسبييه» التي أبصرت منها قبتّي أجراس «مارتنفيل» ترتسمات في الغروب ؛ وذات يوم في «بالبيك» داخل عربة السيّدة «دو فيلباريزيس» وأنا أحاول تمييز الذكرى التي يحملها إليّ ممرّ مشجّر. فأمّا ما كان قبالة عيني فكري في هذه العربة الثالثة فالأحاديث التي سبق أن بدت لي مملّة إلى هذا الحدّ في عشاء السيّدة «دو غيرمانت»، كقصص الأمير «فون» مثلاً عن امبراطور ألمانيه واللواء «بوتا» والجيش الإنكليزي. لقد قمت بوضعها في المنظار المجسّم الداخليّ الذي نضفي بروزاً عبره، منذ اللحظة التي لم نعد فيها ذواتنا، ومنذ اللحظة التي نتخذ فيها نفساً مجتمعيّة فلا نبغي أن تجيئنا حياتنا من بعد إلاّ على يد الآخرين، نضفي بروزاً على ما قالوا وعلى ما فعلوا. وكمثل رجل ثمل بفيض رقّة مشاعر إزاء نادل المقهى الذي قام على خدمته أخذت أذهل لسعادتي التي لم أشعر بها بالحقيقة في اللحظة ذاتها، سعادتي أن تناولت عشائي مع رجل كان يعرف حقّ المعرفة «غليوم الثاني» وقد روى عنه نوادر تتّسم صدقاً بالظرف. وإذ تذكّرت، بالإضافة إلى نبرة الأمير الألمانية، قصّة اللواء «بوتا» أخذت أضحك بصوت عال كما لو كانت هذه الضحكة ضروريّة لتلك القصّة من أجل تدعيم مواطن الهزل فيها شأن بعض ضروب التصفيق التي تزيد من الأعجاب الداخليّ. حتّى ما سبق أن بدا لي من أحكام السيّدة «دو غيرمانت» متّسماً بالغباء (حول «فرانس هالز» مثلاً الذي ينبغي أن تراه من حافلة ترام) أخذ يكتسب حياة وعمقاً خارقين. ولابدّ لي أن أقول إنّ هذه الحماسة لم تكن مطلقة الحماقة وإن تهاوت بسرعة. ومثلما يمكن أن تسعدنا ذات يوم معرفة المرأة التي كنّا نزدريها أكثر ما نزدري إذ يتّفق أن تكون على صلة بفتاة تحبّها ويمكن أن تعرّف بنا وتيسّر لنا على هذا النحو الفائدة والمتعة، وهما أمران لعلّنا ظنّناها خلت منهما إلى الأبد، فليس من أقوال ولا من علاقات يمكن أن نوقن أنّنا لن نستخلص منهما يوماً شيئاً ما. إنّ ما قالته لي السيّدة «دو غيرمانت» حول اللوحات التي ربّما بدا مفيداً أن نراها حتّى من حافلة ترام كان خطأً ولكنّما يحتوي جزءاً من حقيقة كان بالنسبة إليّ كبير الأهمية فيما بعد.

وكذلك كانت أبيات «فيكتور هوغو» التي ذكرتها لي، ولابدّ من الإقرار بذلك، من فترة سابقة لتلك التي أضحى فيها أكثر من رجل جديد وأبرز فيها عبر التطوّر نوعاً أدبياً مجهولاً بعد يمتاز بأدوات أكثر تعقيداً. ففي هذه القصائد الأولى لا زال «فيكتور هوغو» يفكّر عوضاً عن أن يكتفي، شأن الطبيعة، بالدفع إلى التفكير. «فالفكر» إنّما كان يعبّر عنها حينذاك بأكثر الصيغ مباشرة وبما يقارب المعنى الذي كان يطلقه الدوق على اللفظة حينما كان يجد من قديم الطراز والإزعاج أن يقوم المدعوّون إلى حفلاته الكبرى في «غيرمانت» باتباع توقيعهم على دفتر صور القصر بفكرة فلسفيّة شعريّة فينبه الوافدين الجدد بلهجة متوسّلة: «اسمك، ياعزيزي،

ولكن بدون فكرة!» وكانت «فكر» فيكتور هوغو تلك (وهي غائبة تقريباً في «أسطورة القرون» غياب «الأنغام»، غياب «الألحان» في طريقة «فاغنر» الثانية) هي التي كانت السيّدة «دو غيرمانت» تحبّها في طريقة «هوغو» الأولى، وما كانت على ضلال مطلق. فقد كانت مؤثّرة، وكان تدفّق الكلمات الكثيرة والقوافي الغنيّة المخارج من حولها، ودون أن يكون الشكل قد اكتسب بعد العمق الذي لن يبلغه إلاّ فيما بعد، يجعلها غير شبيهة بتلك الأبيات التي يمكن اكتشافها لدى أمثال «كورنيي» على سبيل المثال حيث لم تنفذ رومانتيكيّة متقطعّة مكتومة، وهي لذلك أكثر تأثيراً فينا، لم تنفذ مع ذلك إلى منابع الحياة المادّية ولم تغيّر الجسم اللاواعي القابل للتعميم الذي تقبع فيه الفكرة. وقد كنت لذلك غير محقّ في الاقتصار حتّى ذاك على مجموعات «هوغو» الأخيرة. كان حديث السيّدة «دو غيرمانت» لايزدان بالحقيقة إلاّ بجزء زهيد من الأولى. ولكنّك إذا ذكرت على هذا النحو بيتاً معزولاً فإنّما تضاعف بالضبط عشر مرّات قوّة الجذب فيه. وإنّ الذي ولج منها ذاكرتي أو عاد فولجها في أثناء ذلك العشاء إنّما كان يمغنط بدوره ويستدعي إليه بقوّة عظيمة المقطوعات التي تعوّد أن تضمّه إلى حدّ لم تستطع معه يداي المكهربتان أن تقاوم أكثر من ثمان وأربعين ساعة القوّة التي كانت تقودهما إلى المجلّد الذي جمعت فيه «الشرقيّات» و«أناشيد الشفق». ولعنت خادم «فرانسواز» الخاصّ أن أهدى مسقط رأسه نسختي من «أوراق الخريف» وأرسلته ليبتاع أخرى دون إضاعة لحظة واحدة. وقرأت هذه المجلّدات من أوّلها إلى آخرها وماعدت فوجدت الطمأنينة إلاّ حينما أبصرت فجأة الأبيات التي ذكرتها لي السيّدة «دو غيرمانت» وهي تنتظرني في الضياء الذي غمرتها بها. كانت المحادثات مع الدوقة تشبه، من جرّاء كامل تلك الأسباب، تلك المعلومات التي نستقيها من مكتبة قصر متقادمة العهد ناقصة عاجزة عن تكوين العقل ومجرّدة تقريباً عن كلّ مانحبّ ولكنّها تقدّم لنا أحياناً إحدى المعلومات الغريبة وحتّى استذكاراً لصفحة جميلة ما كنّا نعرفها ويسعدنا فيما بعد أن نتذكّر أنّنا مدينون في معرفتها لمسكن سيّدي رائع. ويغرينا إذ ذاك، لأنّنا وجدنا مقدّمة «بلزاك» لكتاب «الشارتروز»[*] أو رسائل لم تنشر بعد لـ«جوبير»، أن نبالغ في تقدير الحياة التي قضيناها فيه والتي ننسى طيشها العقيم مقابل هذا الحظّ الذي أصبناه ذات مساء.

ولئن لم يستطع هذا العالم، من وجهة النظر هذه، أن يستجيب في الوهلة الأولى لما كان ينتظره خيالي وكان سيدهشني بالتالي في أوّل الأمر بما له من أسس تجمعه إلى جميع العوالم أكثر منه بما يختلف عنها فقد تكشّف مع ذلك لناظريّ شيئاً فشيئاً على أنّه متميّز تماماً. إن الأسياد العظام هم الجماعة الوحيدة تقريباً التي يمكن أن نتعلّم منها بقدر ما نعلّم من الفلاّحين، فحديثهم يزدان بكلّ ما يتعلّق بالأرض وبالمنازل وكيفيّة سكناها بالأمس وبالعادات القديمة وبكلّ مايجهله عالم المال جهلاً عميقاً. فإنْ بلغ بأكثر الأرستقراطيّين اعتدالاً في مطامحه أن يلحق بالعصر الذي يعيش فيه فإنّ أمّه وأعمامه وجدّات عمّاته يصلون بينه، حينما يتذكّر طفولته، وبين ما كان يمكن أن تكون عليه حياة مجهولة تقريباً في يومنا. ولعلّ السيّدة «دو غيرمانت» ما كانت لتشير في غرفة أموات سجّي فيها ميت اليوم إلى جميع مواطن الإخلال بالعادات بل كانت أدركتها في الحال. فقد كان يصدمها أن تبصر النساء في جنازة يختلطن بالرجال في الوقت الذي ينبغي أن يقام فيه للنساء طقس خاصّ. أمّا الجلالة التي ربّما حسب «بلوك» دونما شكّ أن استخدامها كان وقفاً على الجنازات

(*) La chartreuse: هو دير محبس وعنوان رواية مشهورة! «ستندال».

بسبب أشرطة الجلالة التي يتحدّثون عنها في محاضر المآتم فقد كان السيّد «دو غيرمانت» لايزال يستطيع أن يذكر الزمن الذي شاهدها فيه، وهو طفل بعد، مستخدمة في زفاف السيّد «دومانّي – نيل». وفيما كان «سان لو» قد باع «شجرة نسبه» الثمينة ورسوماً قديمة لآل «بويّون» ورسائل للويس الثالث عشر لشراء لوحات لـ«كاريير» وأثاثاً من طراز عصري، احتفظ السيّد «دو غيرمانت» والسيّدة عقيلته، يدفعهما شعور ربّما كان فيه لحبّ الفنّ المتقّد دور أدنى وجعلهما في صورة أكثر ضحالة، بأثاثهما الرائع الذي من طراز «دو بول» والذي يوفّر مجموعة أكثر إغراء لعين الفنّان. ولعلّ الأديب كذلك كان وجد فتنة في حديثهم الذي ربّما ألفّ في نظره – إذ الجائع لا حاجة به إلى جائع آخر – قاموساً حيّاً لكلّ تلك العبارات التي يزداد كلّ يوم نسيانها: فربطات عنق من طراز «سان جوزيف» وأطفال حكم عليهم باللون الأزرق، ممّا لاتجده من بعد إلاّ لدى أولئك الذين جعلوا من أنفسهم الحافظين اللطفاء المتطوّعين على الماضي. وإنّ المتعة التي يحسّ بها كاتب فيما بينهم أكثر ممّا بين كتّاب آخرين، إن هذه المتعة ليست بمعزل عن الخطر إذ يحتمل أن يحسب أن أمور الماضي ترتدي روعة في حدّ ذاتها، وأن ينقلها على حالها إلى كتبه التي تموت في هذه الحالة منذ ولادتها وتبعث مللاً يتأسّى عنه بقوله: «هذا جميل لأنّه صحيح ويؤدّى على هذا النحو». كانت تلك الأحاديث الأرستقراطية تتّسم على أيّ حال في منزل السيّدة «دو غيرمانت» بروعة أدائها بفرنسيّة ممتازة. وكانت بذلك تضفي، من جانب الدوقة، شرعيّة على ضحكها إزاء كلمات «نبوءاتي، كونّي، «بيثي»[*]، فائق» التي كان يستخدمها «سان لو» وكذلك إزاء أثاثه الذي من عند «بينغ».

كانت الحكايات التي سبق أن سمعتها في منزل السيّدة «دو غيرمانت»، وهي مختلفة في ذلك تمام الاختلاف عمّا أمكن أن أحسّ به أمام أزاهير الزعرور أو لدى تذوّقي إحدى الكعكات، كانت على الرغم من كلّ شيء غريبة عنّي. لكأنّها، وقد داخلتني لحظة، أنا الذي لم تمتلكه إلاّ جسدياً، لكأنّها (وهي من طبيعة اجتماعيّة وليس فرديّة) كانت في عجلة للخروج منّي. وكنت أضطرب في العربة شأن إحدى العرّافات. كنت انتظر مأدبة عشاء جديدة أستطيع أن أضحي فيها بدوري من أمثال الأمير س... والسيّدة «دو غيرمانت» وأن أرويها. وبانتظار ذلك كانت ترجّف شفتيّ اللتين تتمتمانها، وعبثاً أحاول أن أردّ فكري إليّ وقد جرفته على نحو مدوّخ قوّة نابذة. فكان أن قرعت لذلك جرس السيّد «دو شارلوس» بتلهفّ محموم إلى ألاّ أحمل عبئها وحدي فترة أطول في عربة كنت أشاغل النفس فيها على أيّ حال عن قلّة الحديث بالكلام بصوت عال، وأن قضيت، في حوار طويل بيني وبين ذاتي كنت أردّد فيه لنفسي كلّ ما أزمع أن أقصّه عليه وأكاد لا أفكّر من بعد بما يمكن أن يقوله لي، كامل الوقت الذي مكثت فيه في صالة أدخلني إليها خادم خاص وكنت على أي حال أكثر اضطراباً من أن أتفحصّها. وكانت بي حاجة عظيمة إلى أن يصغي السيّد «دو شارلوس» إلى القصص التي كنت أتحرّق إلى روايتها له إلى حدّ أنّي أصبت بخيبة قاسية إذ حسبت أنّ سيّد البيت ربّما كان نائماً وأنّه لابدّ لي من العودة إلى منزلي أدفن فيه سكري الكلاميّ. فلقد تمّ لي أن ألاحظ بالفعل أنّه انقضى خمس وعشرون دقيقة على وجودي هناك وأنّهم ربّما نسوني في هذه الصالة التي ربّما أمكنني على الأكثر أن أقول على الرغم من ذاك الانتظار الطويل إنّها كانت شاسعة ضاربة إلى الخضرة، إلى جانب بعض الرسوم. إن

(*) نسبة إلى «بيثيا» التي كانت تتنبأ في معبد «أبولو» في «دلفي».

الحاجة إلى الكلام لاتحول دون الإصغاء فحسب، بل دون الرؤية، وإنّ غياب أيّ وصف للوسط الخارجيّ في هذه الحالة إنّما يؤلّف مذ ذاك وصفاً لحالة داخليّة. وكنت أوشك الخروج من الصالة لأحاول استدعاء أحدهم، فإن لم ألق أحداً فلاستدلال طريقي إلى الردهات والرجاء بأن يفتحوا لي حينما دخل خادم خاصّ، وهو بادي الاهتمام، في هذه اللحظة نفسها التي أقدمت فيها على النهوض والقيام بيضع خطوات على الأرض الخشبيّة المقطعّة قطعاً صغيرة، وقال لي: «لقد شغل السيّد البارون بمواعيد حتّى الآن، ولايزال ثمّة عدّة أشخاص ينتظرونه. سأبذل كلّ ما بوسعي كي يستقبل سيّدي وقد أرسلت من هتف مرّتين للسكرتير».

– «لا، لاتزعج نفسك، لقد كنت على موعد مع السيّد البارون ولكنّ الوقت تأخرّ كثيراً وبما أنّه مشغول في هذا المساء فسوف أعود في يوم آخر».

فصاح الخادم يقول:

– «لا، لايذهبن سيّدي، فقد يستاء السيّد البارون ؛ سأحاول مرّة ثانية».

وتذكّرت ما سبق أن سمعته عن خدم السيّد «دو شارلوس» وعن تفانيهم في سبيل سيّدهم. لم يكن يمكن أن يُقال عنه تماماً، شأن الأمير «دو كونتي»، إنّه كان يحاول أن يروق الخادم والوزير على حدّ سواء ولكنّه أحسن في أن يجعل من أقلّ الأمور التي يطلبها ضرباً من المنّة إلى حد أنّه حينما كان يقول، وقد تحلّق حوله خدّامه على مسافة يفرضها الاحترام وبعدما ينقّل فيهم نظراته: «الشمعدان ياكوانييه!» أو «القميص يادوكريه!» فإنّما كان الآخرون ينسحبون وهم يدمدمون غيرة ويحسدون هذا الذي ميزّه المعلّم. بل كان ثمة اثنان، وكانا متكارهين، يحاول كلّ منهما أن يخطف الحظوة من الآخر بالمبادرة لأتفه حجّة إلى إبلاغ البارون بالأمر، إن كان صعد قبل ذلك، عسى أن يكلف في هذا المساء مهمة الشمعدان أو القميص. فإن وجّه الحديث مباشرة إلى واحد منهم لأمر لايدخل في نطاق الخدمة، بل أكثر من ذلك إن هو قال في فصل الشتاء وفي الحديقة، وهو يعلم أنّ أحد حوذيّيه يعاني من رشح، إن قال له بعد انقضاء عشر دقائق: «ضع قبعّتك»، لم يعد الآخرون يكلّمونه على مدى خمسة عشر يوماً من باب الغيرة وبسبب المنّة التي نالها.

وانتظرت عشر دقائق أخرى ثم أدخلت بالقرب منه بعدما طلب إليّ ألا أمكث طويلاً جداً لأنّ السيّد البارون قد اضطرّ، من تعب، أن يصرف عدّة أشخاص من أكثرهم أهمية سبق أن حصلوا على موعد منذ أيام طويلة. كان ذلك الإخراج من حول السيّد «دو شارلوس» يبدو وكأنّه يتّسم بعظمة تقلّ كثيراً عن بساطة أخيه «غيرمانت»، ولكنّ الباب كان قد فتح وأبصرت البارون بمبذل صينّي مكشوف العنق مستلقياً على أريكة. وقد أدهشني في اللحظة نفسها رؤية قبعّة رسميّة بـ«ثماني لمعات» على كرسي إلى جانب فراء وكأنّما عاد البارون منذ قليل. وانسحب الخادم الخاصّ. وظننت أنّ السيّد «دوشارلوس» سيتقدمّ نحوي. فحدّق إلي بعينين قاسيتين دون أن يقوم بحركة واحدة. واقتربت منه وحيّيته فلم يمدّ إليّ يداً ولم يجبني ولم يسألني أن اتّخذ لنفسي كرسياً. وسألته بعد فترة، كما قد تفعل بطبيب سيء التهذيب، إن كان من الضرورة أن ألبث واقفاً. وقد فعلت ذلك دون نيّة سوء ولكنّما بدا أن مظهر الغضب الهادئ الذي كان يداخل السيد «دوشارلوس» ازداد. وكنت أجهل على أيّ حال أنّه تعودّ في بيته في الريف وفي قصر «شارلوس» أن يستلقي بعد العشاء، لشدّة ما يحبّ

أن يلعب دور الملوك، على مقعد في حجرة التدخين تاركاً مدعوّيه وقوفاً من حوله. كان يسأل أحدهم ناراً ويقدّم لآخر سيكاراً ثم يقول بعد بضع لحظات: «ولكن هيّا اجلس يا «أرجنكور»، خذ كرسياً ياعزيزي، إلخ»، وقد أصرّ على إطالة وقفتهم لمحض أن يبرهن لهم أنّ الإذن بالجلوس إنّما يجيئهم منه. وأجابني بلهجة آمرة وبغية أن يرغمني على الابتعاد عنه أكثر منه ليدعوني إلى الجلوس: «اجلس في المقعد الذي من طراز لويس الرابع عشر». فأخذت مقعداً لم يكن ببعيد. وصاح مستهزئاً: «آه! هذا ما تسميّه مقعداً من طراز لويس الرابع عشر! أرى أنّك شاب متعلّم». وأصابني من الذهول مالم أبرح معه مكاني، لا لأنصرف كما كان يجدر بي أن أفعل، ولا لأبدّل مقعدي مثلما كان يبغي. فقال لي وهو يزن جميع الألفاظ التي كان يضع في مقدّمة أكثرها وقاحة زوجاً مضاعفاً من السواكن: «ياسيّد، إن الحديث الذي تنازلت فمنحتك إيّاه تلبية لرجاء شخص يرغب ألاّ أسمّيه يشير إلى النقطة النهائية في علاقاتنا. ولن أكتمك أنّني أمّلت أفضل من ذلك. وربّما تحاملت قليلاً على معنى الكلمات، وهو مالا يجدر أن نفعل حتّى مع من يجهل قيمتها ولمحض احترام ذواتنا، إن قلت لك إنّه سبق أن داخلني بعض الودّ لك. على أنّي اعتقد أنّ «العطف» بما يتضمنّ من معنى الرفق الأكثر فعاليّة قد لايجاوز لا ما كنت أحس به ولا ما كنت عازماً على الإعراب عنه. لقد سبق أن أبلغتك منذ عودتي إلى باريس وفي «بالبيك» بالذات أنّك تستطيع الإعتماد عليّ». أمّا أنا الذي كان يذكر بأيّ فلتة لسان فارقه السيد «دو شارلوس» في «بالبيك» فقد هممت بحركة تفيد الإنكار. فصرخ غاضباً: «ويحك!» وكان وجهه المتشنّج الشاحب يختلف بالفعل عن وجهه العاديّ بمقدار ما يختلف البحر حينما تبصر في صبيحة عاصفة بدلاً من الصفحة المشرقة المعتادة ألف أفعى من رغوة وزبد، «تزعم أنّك لم تتبلّغ رسالتي – وهي تقارب البوح – في وجوب أن تتذكّرني؟ فما الذي كان بمثابة تزويق حول الكتاب الذي بعثت به إليك؟».

فقلت له: «مشبّكات منمّقة في غاية الجمال».

فأجاب بازدراء: «آه! معرفة الشبّان الفرنسيّين بروائع بلدنا يسيرة. ما عسى أن نقول عن برلينّي شابّ لايعرف الـ«فالكيري»(*)؟ ولابد على أيه حال أنّك تملك عينين لاتبصر بهما بما أنّك قلت لي إنّك أمضيت ساعتين أمام هذه الرائعة الفنّية. وأرى أنّك لست أفضل خبرة في الأزهار منك في «الطرز». وصاح بلهجة حانقة حادّة: «لاتحتجّ فيما يخصّ الطرز فانّك حتّى لاتعرف ما أنت جالس فوقه وتقدّم لعجزك كرسياً من طراز عصر المديرين بمثابة كرسيّ من طراز لويس الرابع عشر. وسوف يخيّل إليك في يوم أنّ ركبتي السيّدة «دو فيلباريزيس» هما المغسلة ولاندري ما عساك تفعل بها. وأنت كذلك حتّى لم تتعرّف في جلدة كتاب «بيرغوت» إفريز أزهار آذان الفار في كنيسة «بالبيك» فهل كان ثمّة طريقة أكثر صفاء في أن أقول لك: «لا تنسني»؟. (**)

كنت أتأمّل السيّد «دوشارلوس». صحيح أن رأسه البديع، والذي كان يبعث الاشمئزاز في النفس، كان يرجح على رأس جميع ذويه ؛ لكأنّه «أبولون» هرم، ولكنّ زبداً بلون الزيتون صفراوياً كان يبدو وكأنّه يوشك أن يطفر من فمه الشرير. فأمّا الذكاء فما كان بمقدور أحد أن ينكر أنّ ذكاءه كان يشرف بخطّة فرجار واسعة

(*) La Walkyrie هي اليوم الثاني لرباعية «فاغنر» مستوحاة من قصص «نيبلونغن».
(**) «لاتنسني» هو الاسم الآخر لزهر آذان الفار.

على أمور كثيرة ربّما ظلّت على الدوام مجهولة لدى الدوق «دو غيرمانت». ولكن أيّة كانت الكلمات المعسولة التي يلوّن بها صنوف حقده فقد كنت تحسّ. وإن كان فيها شيء من الكبرياء المجروحة تارة، ومن الحبّ المخيّب أخرى أو ضغينة أو ساديّة أو مشاكسة أو فكرة ثابتة، كنت تحسّ أن هذا الرجل قادر أن يقتل وأن يقيم البرهان لفرط المنطق والكلام المنّمق أنّه كان محقاً في أن يفعل ولا يقلّل ذلك من تفوّقه مئة باع على شقيقه وزوجة شقيقه، إلخ. إلخ.

وأضاف يقول: «وكما هي الحال في «حراب» الرسّام «فيلاسكيز» فإن الغالب يتقدّم باتّجاه من كان الأكثر اتّضاعاً، ومثلما يجدر بكل بشر نبيل، بما أنّي كنت كلّ شيء ولم تكن شيئاً، فقد قمت أنا بالخطوات الأولى باتّجاهك. وقد استجبت استجابة حمقاء لما لايقع عليّ أنا أن أسميّة رفعة النفس. ولكنّي لم أدع لعزيمتي أن تنهار. إن ديننا يدعو إلى طول الأناة، وأملي أنّ ما أبديته أزاءك من طول أناة سوف يحسب لي وأني لم أقابل بغير الابتسامة ما يمكن أن يوصف بالوقاحة لو كان في متناولك أن تبدي شيئاً منها تجاه من يفوقك بهذا القدر من الباعات. على أيّ حال لم يعد ذلك مسألة بحث. لقد أخضعتك للاختبار الذي يدعوه الرجل البارز الوحيد في عالمنا، يدعوه بذكاء اختبار اللطف المفرط والذي يعلن بحقّ أنّه من أكثرها قسوة والوحيد الذي يستطيع أن يفصل الحنطة عن الزؤان. وأكاد لا ألومك على أنّك لم تجتزه بنجاح لأنّ الذين يفلحون فيه قليلون جداً. ولكنّما مرادي على الأقلّ، وتلك هي النتيجة التي أبغي استخلاصها من الكلمات الأخيرة التي سنتبادلها على هذه الأرض، أن أكون بمأمن من اختلاقاتك وافتراآتك».

لم يكن قد خطر لي حتّى ذاك أن يكون سبب غضب السيّد «دو شارلوس» مقالة مسيئة نقلوها إليه. وساءلت الذاكرة ؛ ولم أكن قد كلّمت أحداً عنه. لقد لفّقها أحد الأشرار جملة وتفصيلاً. وأكدّت محتجاً لدى السيد «دو شارلوس» أنّني لم أقل شيئاً على الإطلاق. «لا أحسب أنّه يمكن أن أكون أغظتك بقولي للسيّدة «دو غيرمانت» أنّني على صلة صداقة بك». وابتسم بتعال وارتفع بصوته إلى أقصى درجاته وهنا أخذ بلطف على أكثر النغمات ارتفاعاً وأشدّها وقاحة وقال وهو يعود ببطء شديد إلى النبرة الطبيعيّة وكأنّما به افتتان عارض لغرابة هذا السلّم الموسيقي النازل:

«أوه! ياسيّد، في اعتقادي أنّك تلحق الأذى بنفسك حينما تقرّ بأنّك قلت إنّنا نرتبط بصلة صداقة. لست أتوقّع صحّة لفظيّة كبيرة جداً ممّن قد يتّخذ بسهولة قطعة أثاث من طراز «شيبندال» بمثابة كرسيّ من طراز «الروكوكو». وأضاف يقول بتنغيمات صوتية متزايدة السخرية يطفو منها على شفتيه ما يبلغ حدّ الإبتسامة الرائعة: «على أنّي لا أحسبك قلت أو صدّقت أنّنا نرتبط بصلة صداقة! فأمّا أن تكون باهيت بأنّك عرفت بي وأنّك تحدثت إليّ وأنّك على معرفة قليلة بي وأنّك نلت دونما سعي تقريباً إمكان أن تكون يوماً في حمايتي فانّي أرى على العكس من الطبيعي جداً ومن قبيل الذكاء أن تكون فعلته. إن فارق السنّ العظيم الذي بيننا يخوّلني أن اعترف دونما سخرية تصيبني أن هذا التعريف وهذه الأحاديث ووهم بداية العلاقات هذا كانت بالنسبة إليك، ليس يجدر بي أنا أن أقول شرفاً، وإنّما أقلّه مكسباً أرى أنّ غباوتك قامت لا على اذاعته بل على أنّك لم تحسن الحفاظ عليه». وقال وهو ينتقل فجأة وللحظة من الغضب المتعالي إلى نعومة تلوّنها كآبة عظيمة إلى حدّ أنّني ظننته يزمع أن يأخذ في البكاء: «بل سوف أضيف أنّي، حينما تركتَ عرضي لك في باريس

دون جواب، إنّما بدا لي الأمر لايصدّق فيما يخصّك أنت الذي سبق أن تراءى لي حسن التهذيب ومن أسرة بورجوازية طيّبة» (وكان لصوته أزّة وقاحة على هذه الصفة وحدها)، «حتّى بلغت بي السذاجة أن أصدّق جميع المزحات التي لا تقع في يوم والرسائل المفقودة والعناوين الخاطئة. وإنّي أقر بأنّها كانت سذاجة عظيمة فيما يخصني، ولكنّ القدّيس «بونفانتور» كان يفضلّ أن يصدّق أنّ ثوراً يمكن أن يطير على إمكان أن يكذب أخوه. كلّ ذلك قد انقضى على أيّ حال والأمر لم يحسن في عينك ولم يعد موضع بحث غير أنّه يبدو لي أنّه كان بامكانك»، (وحقاً كانت الدموع تبلّل صوته) «إجلالاً لسني على الأقل، أن تكتب إلي. وكنت قد صمّمت بشأنك أموراً مغرية إلى مالاحدود حاذرت تماماً أن أقولها لك. وقد فضّلت أن ترفض دون أن تعلم، وذلك شأنك أنت. ولكن، مثلما أقول لك، الكتابة ممكنة دوماً. ولعلّني في موقعك، وحتّى في موقعي، كنت فعلت ذلك. وإنّي أفضل بسبب ذلك موقعي على موقعك، وأقول بسبب ذلك لأنّي اعتقد أن جميع المواقع متساوية وإني لأودّ عاملا ذكيّاً أكثر من العديد من الدوقة. ولكنّ بمقدوري أن أقول إنّي أفضل موقعي لأن مافعلتّه أعلم أني ما فعلته قطّ في حياتي كلّها التي أخذت تبدو طويلة إلى حد ما». (كان يدير رأسه في الظلام فلا أستطيع أن أبصر إن كانت عيناه تفيضان بالدمع مثلما يوحي بذلك صوته). «كنت أقول لك إنّي قمت بمئة خطوة في ملاقاتك، الأمر الذي كان من شأنه أن دفعك إلى القيام بمئتي خطوة إلى الوراء. والآن جاء دوري في الإبتعاد ولن يعرف أحدنا الآخر من بعد. لن أحفظ اسمك، بل حالتك كي أتذكّر في الأيّام التي ربّما أغراني فيها الاعتقاد بأن الناس يملكون قلباً ويتّسمون بالتهذيب، أو يملكون الفطنة فحسب في تجنّب السماح لفرصة لاثانية لها بالإفلات منهم، أنّي أضعهم أعلى موقعاً ممّا ينبغي. لا، أن تكون قلت إنّك تعرفني حينما كان ذلك صحيحاً – إذ سيكفّ الأمر الآن عن كونه صحيحاً – فليس بمقدوري إلاّ أن أرى ذلك طبيعياً وإنّي أعدّه بمثابة تكريم أي على أنّه يشرح الصدر. ولكنّك لسوء الحظّ تفوّهت بأقوال مختلفة جداً في مكان آخر وظروف أخرى».

– «أقسم لك ياسيّد أنني لم أقل شيئاً من شأنه إلحاق الإهانة بك».

فصاح بحنق وهو ينتصب بعنف على الكرسيّ الطويل الذي كان قد مكث فيه حتّى ذاك لايبدي حراكاً في حين كان صوته يضحي على التوالي حاداً وخفيضاً كعاصفة هائجة تصمّ الآذان، فيما تتلوّى حيّات وجهه الشاحبة المزبدة: «ومن ذا يقول إني أحسّ في ذلك إهانة؟» (كانت الشدّة التي يتحدّث بها عادة والتي كانت تضطّر الغرباء في الخارج إلى الالتفات تتضاعف مئة مرّة مثلما هي إشارة «بقوّة» إن عزفتها الأوركسترا بدلاً من أن يعزفها البيانو وإن هي انقلبت فوق ذلك إلى إشارة «بقوّة كبيرة». لقد كان السيّد «دو شارلوس» يزعق بأعلى صوته)، «أتحسب أنّ من شأنك إهانتي؟ أفلا تعلم إذن إلى من تتحدّث؟ أو تظنّ أن الزبد المسموم يطلقه خمس مئة من الصبية أصدقائك الذين تكدّس بعضهم فوق بعض قد يفلح حتّى في بلّ أصابع قدميّ؟».

كان قد أعقب منذ هنيهة رغبتي في إقناع السيّد «دو شارلوس» أنّني لم أسيء مرّة إليه ولاسمعت من يسيء إليه حنق مجنون مبعثة الأقوال التي كانت تمليها عليه، فيما أرى، كبرياؤه اللا محدودة. وربّما كانت في جزء منها على أيّ حال نتيجة تلك الكبرياء. وكان الباقي بأسره تقريباً ينجم عن شعور كنت أجهله وما

كان ذنبي إذن أنّني لم أفرد له حصتّه. لعلّني كنت أستطيع على الأقلّ، في تعذّر وجود الشعور المجهول، أن أمزج بالكبرياء، لو أنّني تذكّرت أقوال السيدة «دو غيرمانت»، قليلاً من الجنون. ولكنّ فكرة الكبرياء لم تخطر حتّى على بالي في تلك اللحظة. فلم يكن في صدره حسبما أرى سوى الكبرياء، وفي صدري سوى الحنق. ولم يقف هذا الحنق (لحظة كان يكفّ السيد «دو شارلوس» عن الصياح كي يتحدّث عن أصابع قدمه السامية بجلال ترافقه تكشيرة وإقياءة اشمئزاز تجاه لاعنيه المغمورين)، لم يقف عند حدّ من بعد. وودِدت بحركة نزقة أن أضرب شيئاً ما وإذ دفعتني بقية من روِيّة إلى احترام رجل يكبرني بكثير وحتّى أواني الخزف الألمانية الموضوعة من حوله بسبب رتبتها الفنية انقضضت على قبعة البارون الرسميّة الجديدة وألقيت بها أرضاً ودستها بقدمَيّ وانكببت عليها تقطيعاً ونزعت العمرة ومزّقت التاج قسمين دون أن أصغي إلى زعاق السيّد «دو شارلوس» المتوالي واجتزت الغرفة لأمضي في سبيلي ففتحت الباب. كان على جانبيه ما أثار كبير دهشتي، كان يقف خادمان خاصّان ابتعدا ببطء كي يبدو وكأنّهما وُجدا هنا لمحض مرورهما من أجل أمور وظيفتهما (وقد علمت مذ ذاك اسميهما، فالأوّل كان يدعى «بورنييه» والآخر «شارميل»). ولم ينطل عليّ لحظة واحدة ذلك التفسير الذي كانت تبدو مشيتهما الكسولة وكأنّها تقدّمه لي. فقد كان مستحيلاً. وبدت ثلاثة أخرى أقلّ استحالة: أحدها أنّ البارون كان يستقبل أحياناً ضيوفاً كان يحكم من الضروريّ، إذ يمكن أن يحتاج إلى عون ضدّهم (ولكن لماذا؟)، أن يتوافر له مركز نجدة قريب ؛ والآخر أنّ الفضول قد اجتذبهما فأخذا يتنصتّان دون أن يخطر لهما أنّني قد أخرج بهذه السرعة ؛ وثالثها أنّ كامل الحنق الذي أبداه لي السيد «دو شالوس» كان مهيّأ سلفاً ومتكلفاً وقد طلب إليهما بنفسه أن يتنصتّا حبّاً بالعروض التي ربّما اقترنت بـ Nunc eru di-mii»[*] يفيد كلّ منه بدوره.

لم يكن غضبي قد هدّأ غضب البارون، أمّا خروجي من الغرفة فقد بدا أنّه يورثه ألماً شديداً فاستدعاني، وأمر من يستدعيني وفاته أخيراً أنّه ظنّ قبل لحظة، وهو يتحدّث عن «أصابع قدميه الساميه»، أنّه سيجعل منّي شاهداً على تأليهه فجرى بأقصى سرعته ولحق بي في الردهة واعترض سبيلي إلى الباب وقال لي: «هيّا، لا تكن طفلاً، عد دقيقة واحدة، فخير المحبّة في خير العقاب ولئن كنت عاقبتك فلأنّما أحبّك». وزال غضبي وتغاضيت عن كلمة «عقاب» وتبعت البارون الذي نادى خادماً خاصّاً وأمره دون أي اعتزاز بالنفس أن يحمل نتف القبّعة المتلفة التي استبدلت بها أخرى.

وقلت للسيّد «دو شارلوس»: «إن تكرّمت ياسيّدي وقلت لي من الذي غدربي وافترى عليّ فأظلّ لأعلم ذلك وألحق الخزي بالمنافق».

– «من؟ ألست تعرفه؟ أفلا تتذكّر ما تقول؟ أو تحسب أنّ الذين يؤدّون لي معروفاً باطلاعي على هذه الأمور لايبدؤون بمطالبتي بالسرّ؟ وتظنّ أنّي سأخلف بما وعدت؟».

وسألت وأنا أبحث للمرّة الأخيرة في رأسي (حيث لا أجد أحداً) إلى من أمكن أن اتحدّث عن السيّد «دو شارلوس»: «أيستحيل أن تقول لي ذلك ياسيّد؟».

(*) اثبتنا العبارة اللاتينية في النص عمداً لاتصالها بلغة الأرستقراطيين وتعني: «الآن اعظتم علماً».

فقال لي بصوت داوٍ: «ألم تسمع أنّي وعدت مبلّغي بالسرّ؟ وإنّي أرى أنّك تجمع إلى ميلك إلى الأقوال الممجوجة ميلاً إلى الإلحاح اللامجدي. وحريّ بك على الأقلّ أن تحسن الإفادة من محادثة أخيرة وأن تتكلّم لتقول شيئاً لايكون بالضبط لاشيء».

فأجبت وأنا ابتعد عنه: «إنّك تشتمني ياسيّد، وأرى أنّي أعزل من السلاح بما أنّ عمرك أضعاف عمري فلا تكافؤ بيننا. وإنّي عاجز من جهة أخرى عن إقناعك وقد أقسمت لك أنّني لم أقل شيئاً».

فصاح بصوت مخيف ووثب وثبة حطّت به على خطوتين منّي: «فانّي أكذب إذاً!» – «لقد خدعوك».

حينئذ قال لي بصوت ناعم حنون كئيب كما هي الحال في هذه السمفونيات التي تُعزف دونما انقطاع بين مختلف المقطوعات حيث تعقب حركة سريعة رشيقة لطيفة شاعرية صواعق المقطوعة الأولى: «ذلك ممكن تماماً، فنادراً ما يصدق قول منقول من حيث المبدأ. والحقّ عليك إن كنت لم تستغلّ الفرص التي وفّرتها لك لزيارتي فلم تزوّدني» عبر تلك الكلمات الصريحة اليومية الي تصنع الثقة، بالواقي الوحيد والمطلق في وجه قول كان يصوّرك بمثابة الخائن. وإن يكن صحيحاً أو باطلاً فقد فعل القول في جميع الأحوال فعلته. ولست أستطيع من بعد التخلّص من الإنطباع الذي خلّفه في نفسي. لست حتّى أستطيع القول بأنّ خير المحبّة في خير العقاب لأنّني عاقبتك خير عقاب ولكنّي لا أحبّك من بعد». وفيما كان يقول هذه الكلمات أجبرني على الجلوس ثانية وقرع الجرس. ودخل خادم خاصّ جديد. «جيئونا بشراب وبلّغوا باسراج جياد العربة». وقلت إني لم أكن عطشاً وان الساعة تقدّمت بي كثيراً وإنّ لي عربة في جميع الأحوال». فقال لي: «لابدّ أنّهم نقدوها وردّوها فلا تهتمّ بها. لقد أمرت بالإسراج كي يعيدوك... وإن خشيت أن يكون الوقت قد تقدم... فلعلّني استطيع أن أقدم لك غرفة ههنا...» فقلت إن والدتي قد تقلق. «أجل، لقد فعل القول فعلته إن يكن صحيحاً أو كاذباً. لقد أزهر ودّي المبكّر بعض الشيء قبل أوانه بكثير، وكمثل أشجار التفاح التي كنت تتحدّث عنها في «بالبيك» لم يقوَ على مقاومة أوّل جمدة». ولو أن ودّ السيّد «دو شارلوس» لم يتهدّم لما استطاع مع ذلك أن يفعل غير ما يفعل إذ هو يحملني على البقاء والشرب، فيما هو يقول لي إنّنا على خلاف، ويسألني أن أنام ويزمع أن يطلب اعادتي إلى المنزل. بل كان يبدو أنّه يخشى لحظة فراقي وأن يعود فيلقى نفسه وحيداً، من نوع الخشية تلك التي يشوبها بعض القلق والتي سبق أن بدا لي لساعة خلت أن زوجة أخيه وابنة عمّه «الغيرمانتيّة» أحسّت بها حينما خطر لها أن ترغمني على البقاء قليلاً بعد بنوع من الميل العابر نفسه إليّ والجهد نفسه للإطالة دقيقة واحدة.

وعاد يقول: «ومن سوء الطالع أنّي لا أملك موهبة أن أعيد الزهر إلى ما سبق أن ولّى. لقد مات ودّي لك موته الأخير وليس ما يقوى على بعثه من جديد. ولا أظنّ أنّ من غير اللائق بي الاعتراف بأنّي آسف لذلك. فانّي أحسني على الدوام مثل «بوعز» فيكتور هوغو إلى حدّ ما:

«إنّي أرمل وأنا وحيد وحولي يحلّ الظلام».

وعدت فاجتزت برفقته الصالة الكبيرة الخضراء. وقلت له على نحو عارض تماماً إلى أي حدّ كنت أراها جميلة. فأجاب: «أليس كذلك؟ لابدّ لنا أن نحبّ شيئاً ما. إنّ الخشبيّات من يد «باغار» وما هو لطيف إلى

حدّ ما، كما ترى، أنّها صنعت من أجل المقاعد التي من طراز «بوفيه» وطاولات الجدارن. تلاحظ أنّها تكرّر موضوعها التزينيّ نفسه. ولم يظلّ ثمّة غير دارين بقي فيهما الأمر على هذا النحو: اللوفر ومنزل السيّد «دينيسدال» ولكن ما أن عزمت على المجيء للسكني في هذا الشارع حتّى اتّفق لي بالطبع فندق قديم يدعى «شيميه» لم يكن قد رآه أحد بما أنّه لم يجئ ههنا إلاّ من أجلي. ذلك حسن باختصار القول. ربّما أمكن أن يكون أفضل، ولكن لا بأس على أيّ حال. أليس أنّ ثمّة أشياء حلوة، رسم أعمامي، ملك بولونيا وملك انكلترا بريشة «مينيار» ولكن ما هذا الذي أقوله لك، إنّك تعرفه بقدر ما أعرفه بما أنّك انتظرت في هذه الصالة. لا؟ فهم وضعوك إذاً في الصالة الزرقاء»، يقول بلهجة تنّم عن وقاحة إزاء خلوّي من الفضول وإمّا عن تفوّق شخصي وأنّه لم يسأل عن المكان الذي طلب إليّ الانتظار فيه. «خذ مثلاً، في هذه الحجرة جميع القبّعات التي اعتمرتها السيّدة «اليزابيت» والأميرة «دو لامبال» والملكة. ذلك لايثير اهتمامك، لكأنك لاتبصر. ربما عانيت من إصابة في العصب البصري. فان كنت أكثر حبّاً لهذا النوع من الجمال فهوذا قوس قزح بريشة «تورنر» أخذ يلمع بين هاتين اللوحتين لـ«رامبرنت» وذلك كعنوان لمصالحتنا. أتسمع: إن بيتهوفن ينضمّ إليه». وكنّا نميزّ بالفعل التناغمات الأولى من القسم الثالث في «السمفونية الرعويّة»، «الحبّ بعد العاصفة»، يعزفها موسيقيون غير بعيد عنّا، في الطابق الأول دون شك. وسألت بسذاجة بأي مصادفة يعزفون ذلك ومن كان الموسيقيّون فقال لي بلهجة تشوبها بعض الوقاحة ولكنّها تذكّر قليلاً مع ذلك بتأثير «سوان» ونبرته: «إيه! لاندري، لسنا ندري البتّة. إنّها من نوع الموسيقى الخفيّة. ولكنّك لاتعبأ بها، شأن سمكة بتفّاحة. إنّك تودّ العودة وإن قصّرت في واجب احترامك لبيتهوفن ولشخصي». وأضاف بلهجة وديّة حزينة حينما آن أوان رحيلي: «إنّك تصدر على نفسك الحكم وتدينها». وقال لي: «أعذر لي أنّي لا أصحبك مثلما يقضي عليّ حسن السلوك أن أفعل. فليس يهمنّي كثيراً، وأنا راغب ألاّ أراك من بعد، أن أقضي خمس دقائق إضافيّة وإيّاك. ولكنّي متعب ولدي عمل كثير». وإذ لا حظ أن الطقس جميل جدّاً: «ولكن بلى، سأستقل العربة. ثمة ضياء قمر رائع وسأمضي لأتأمله في الغابة بعدما أكون صحبتك». وقال لي وهو يمسك بذقني بين اصبعين ممغنطين، إن جاز القول، صعداً، بعد مقاومة دامت لحظة، حتّى أذنّي كأصابع الحلاّقين: «عجباً! إنّك لاتعرف كيف تحلق، وتحتفظ ببضع شعرات حتّى في مساء تتناول فيه عشاءك في المدينة». ثم قال لي بعذوبة مفاجئة وكأنّما لا أراديّة: «آه! إنّها لمتعة أن أتأمل «ضياء القمر الأزرق هذا» في الغابة برفقة رجل مثلك»، ثمّ أضاف بهيئة حزينة: «لأنّك مع ذلك لطيف» ؛ وأردف يقول وهو يربت أبويّاً على كتفي: «وربّما استطعت أن تكون أكثر لطفاً من سواك. وينبغي لي أن أقول إنّي كنت أراك بالأمس غير ذي شأن إلى أبعد حدّ». ولعلّه كان يجدر بي الظنّ بأنّه لايزال يراني على مثل ذلك وما عليّ سوى أن اتذكّر الحنق الذي حدّثني به لنصف ساعة خلت أولاتكاد. وكان يخيّل إليّ مع ذلك أنّه صادق في هذه اللحظة وأن قلبه الطيبّ فاق ما كنت اعدّه بمثابة حالة تكاد تكون هذيانية من فرط الحساسية والكبرياء. كانت العربة أمامنا وهو لايزال يطيل الحديث. وقال لي فجأة: «هيّا، اصعد، بعد خمس دقائق ستكون في منزلك وسوف احييك تحيّة تضع إلى الابد حدّاً لعلاقاتنا. وخيرلنا، بما أنّنا سنفترق إلى الأبد، أن نفعل ذلك كما هي الحال في الموسيقى بتناغم تامّ». ولعلّني كنت أقسم، على الرغم من هذه التوكيدات الرسميّة بأنّنا لن نلتقي ثانية بعد اليوم، أنّ السيّد «دو شارلوس» ما كان ليغضبه أن نتلاقى مرّة أخرى، وقد أزعجه أن يكون نسي نفسه قبل قليل وهو يخشى أن يكون غمّني لم أكن مخطئاً إذ قال لي بعد لحظة: «ويحك! ها إنّي نسيت الأمر الرئيسي. فقد أمرت، تذكاراً للسيّدة جدّتك، بتجليد طبعة غريبة للسيدة «دو سيفينييه» من أجلك. وهو ذا ما سيحول دون أن يكون هذا اللقاء هو الأخير. ولابدّ أن يعزّينا

عن ذلك قولنا إنّا نادراً ما ماننهي في يوم واحد مسائل معقّدة. فانظر كم امتدّ مؤتمر فيينّا».

فقلت بلطف: «ولكنّي استطيع أن أبحث في جلبها دون أن أكلّفك هذا العناء».

فأجاب بغيظ: «تفضّل واصمت، أيها الغبيّ الصغير، ولاتبدُ مضحكاً في اعتبار شرف استقبالك المحتمل على يدي (ولست أقول الأكيد فربّما كان خادماً خاصاً من سيحمل إليك المؤلفات) أمراً قليل الشأن».

وتمالك نفسه وقال: «لا أودّ أن أفارقك على هذه الكلمات. فلا نغم شاذّ، وقبل الصمت الأبدي تناغم على العلامة الرئيسيّة!» وإنّما بدا أنّه يخشى على أعصابه هو من العودة حالاً، بعد أقوال خلاف جافية، فقال لي بلهجة التأكيد لا الأستفهام، وليس ذلك فيما بدا لي لأنّه لايريد أن يوفّر لي ما يقول بل لأنّه يخشى أن تمنى عزّة نفسه بالرفض: «لا تريد أن تأتي حتّى الغابة» ؛ ثمّ قال لي وهو يتباطأ أيضاً: «هيا انتبه، إنها الفترة التي يحود فيها، حسبما يقول «ويستلر»، البورجوازيون»(ربّما كان يودّ ارضاء اعتزازي بنفسي) «والتي يجدر بنا فيها أن نشرع في التأمل. ولكنّك لا تعرف حتّى من عساه يكون «ويستلر».

وغيّرت موضوع الحديث وسألته إن كانت أميرة «إيينا» امرأة ذكيّة. فاستوقفني السيد «دو شالوس» وقال وهو يتّخذ أكثر للهجات التي عرفتها لديه احتقاراً:

- «آه! ياسيّد، إنّك تلمح ههنا إلى رتبة من التسميات لاتعنيني على الإطلاق. ربّما كان ثمّة طبقة ارستقراطيه لدى سكّان «تاهيتي» ولكنّي أقرّ بأنّي لا أعرفها. والغريب مع ذلك أن الاسم الذي نطقت به منذ قليل قد دوى في مسمعي لبضعة أيام خلت. كانوا يسألونني إن كنت أتكرّم بالموافقة على تقديم الدوق الشاب «دو غواستالا» لي. وقد أدهشني الطلب لأنّ الدوق «دو غواستالا» لاحاجة به البتّة لأن يعرّف بي والسبب أنّه ابن عمّي وقد عرفني على الدوام. إنّه ابن الأميرة «دو بارما» ولا يفوته البتّة بوصفه قريباً حسن التهذيب أن يجيء ليفي بواجباته تجاهي في يوم رأس السنة. ولكنّما الأمر، بعد حصولي على معلومات بهذا الشأن، لم يكن أمر قريبي بل أمر ابن المرأة التي تعنيك. وإذ ليس من أميرة بهذا الاسم فقد افترضت أنّ الأمر يدور حول متسوّلة تنام تحت جسر «إيينا» واتّخذت على نحو مثير لقب أميرة «إيينا»، كمثل قولهم فهد «باتينيول» و«ملك الفولاذ». والحقيقة أن لا، فقد كان ذلك شأن امرأة غنيّة أُعجِبْتُ في أحد المعارض بأثاث لها جميل جدّاً يسمو على اسم صاحبه بأنّه غير مزيّف. فأما دوق «غواستالا» المزعوم فلابدّ أنّه مأمور صرافة أمين سرّي، إذ يوفّر المال الكثير من الأمور. والحقيقة أن لا، فانّه الإمبراطور فيما يبدو الذي تلهّى بتزويد هؤلاء الناس بلقب ليس بالضبط في المتناول. ربّما دلّ على السلطان أو الجهل أو الخبث، ولكني أرى على وجه الخصوص أنّه شرك ماكر نصبه على هذا النحو لهؤلاء المغتصبين رغماً عنهم. ولكنّي لا أستطيع على أيّ حال تزويدك بايضاحات حول كل ذلك، فإن صلاحيّتي تتوقّف حتى عند حيّ «سان چيرمان» حيث أنت واحد بين جميع آل «كورفوازييه» وآل «غالاردون»، إن أفلحت في اكتشاف من يوصلك إليهم، عجائز شرّيرات تمّ استخراجهنّ عمداً من «بلزاك» وسوف يشعن السرور في نفسك. كلّ ذلك بالطبع لايعني في شيء مهابة الأميرة «دو غيرمانت» ولكن مسكن هذه الأخيرة لايبلغ إليه بمعزل عنّي وعن «افتح ياسمسم» الذي أملكه».

- «حقاً إنّه لجميل جدّاً، ياسيّدي، فندق الأميرة «دو غيرمانت».

- «آه! ماهو بالجميل جدّاً، إنّه ما كان الأكثر جمالاً، بعد الأميرة بالطبع».

- «أتتفوق الأميرة «دو غيرمانت» الدوقة «دو غيرمانت»؟

- «أوه! ليس ثمة من نسبة». (ينبغي أن نلاحظ أنّ جماعة المجتمعات الراقية ما أن يكونوا على شيء من الخيال حتّى يتوّجوا أو يخلعوا من كانت تبدو حالهم أكثر ما تكون صلابة وأوفر ثباتاً وذلك على هوى ضروب ودّهم أو خلافهم.) «إنّ الدوقة «دو غيرمانت» (وربّما أراد، إذ لا يسميّها «أوريان»، أن يزيد من المسافة بيني وبينها)، «رائعة وتفوق إلى حدّ بعيد ما أمكن أن تخمنّه. ولكنّما لا يمكن بأية حال أن تقاس بابنة عمّها. وهذه بالضبط ما يمكن أن يتصوّر جماعة «الهال» ما كانت عليه الأميرة «دو ميترنيخ» ولكنّ «ميتيرنيخ» هذه كانت تعتقد أنّها شهرت «فاغنر» لأنها تعرف «فيكتور موريل». إنّ الأميرة «دو غيرمانت»، أو بالأحرى والدتها، قد عرفت الحقيقي ؛ وذلك جاء، ناهيك عن جمال هذه المرأة الذي لايصدّق. تكفي حدائق «ايستير» وحدها!».

- «ألا تمكن زيارتها؟».

- «لا، لابدّ من دعوة، ولكن لادعوة البتّة لأحد إلاّ أن أتدخّل.»

ولكنّه سحب في الحال طُعم هذا العرض بعدما ألقاه ومدّ إليّ يده لأنّنا كنّا قد بلغنا منزلي.

- «لقد انتهى دوري ياسيّد، وإنّي أضيف إليه بضع الكلمات هذه فحسب. ربّما عرض آخر عليك ودّه ذات يوم مثلما فعلت. فليكن المثال الحاليّ عظة لك. لاتهمله. إن الوداد ثمين على الدوام، وما لانستطيع القيام به وحدنا في الحياة لأنّ ثمة أموراً لايمكننا أن نطلبها أو نفعلها أو نبتغيها أو نتعلّمها بأنفسنا، فاننا نستطيعه جماعة ودونما حاجة لأن نكون ثلاثة عشر كما في رواية «بلزاك» ولا أربعة كما في «الفرسان الثلاثة». إلى اللقاء.

لابدّ أنه كان متعباً وقد تخلّى عن فكرة الذهاب لرؤية ضياء القمر إذ سألني أن أقول للحوذيّ أن يعود. وقام في الحال بحركة مفاجئة وكأنما يبغي التراجع، ولكنّي كنت مذ ذاك قد أصدرت الأمر، وكي لا أتأخر أكثر من ذلك مضيت أقرع بابي دون أن أكون فكّرت من بعد أنّه كان عليّ أن أروي للسيّد «دو شارلوس»، فيما يخصّ امبراطور ألمانيه واللواء «بوتا»، روايات كانت للتوّ تستحوذ عليّ إلى حدّ كبير ولكنّ استقباله اللا متوقعّ الصاعق قد جعلها تفرّ بعيداً جداً عنّي.

ورأيت على مكتبي، وأنا أعود، رسالة كان قد كتبها خادم «فرانسواز» الشابّ إلى أحد أصدقائه ونسيها هناك. فمنذ أن غابت والدتي لم يكن يتراجع أمام أيّ فعلة لامبالية ؛ وكنت أقبح ذنباً منه في أنّي قرأت غير مبال الكتاب الذي لم يوضع في مغلّف، وكان مبسوطاً في كامل عرضه ويبدو، وذلك كان عذري الوحيد، وكأنّه يقدّم ذاته إليّ.

«صديقي وابن عمّي العزيز،

آمل أنّ صحتّك دوماً على مايرام وأن الأمر كذلك بالنسبة إلى كامل الأسرة الصغيرة وبشكل خاصّ فليوني الصغير جوزيف الذي لم أفرح بعد بمعرفته ولكن أفضّله عليكم كلكّم لأنّه فليوني، إن بقايى القلب»(*) هذه لها هي الأخرى ترابها، فلا نرفع الأيدي على بقاياها المقدّسة. وعلى أيّ حال ياصديقي العزيز وابن عمّي ومن يقول لك إنّك لن تقذف غدن أنت وزوجتك العزيزة ابنة عمّنا «ماري» إلى اعماق البحر مثل البحّار المربوط في أعلا الصاري الكبير لأنو هذه الحياة ليس سوى وادي مظلم. صديقي العزيز، وجب أقول لك أن انشغالي الرئيسي وأنا متأكّد من تعجّبك هو الآن الشعر الذي احبّه بابتهاج لأنو يجب تمضية الوقت. ولذلك ياصديقي العزيز لا تكون مدهوشاً إن كنت لم أجاوب بعد على رسالتك الأخيرة فدع النسيان يفعل إن لم يكن ثمت عفو. كما تعلم والدة سيّدتي توفّاها الله في عذابات لا توصف أتعبتها قليلاً لأنّها زارت حتّى ثلاث أطبّاء. ويوم جنازتها كان يوم عظيم لأن جميع معارف سيّدي جاؤوا جماعة وكذلك ثلاث وزراء. وقد قضينا أكثر من ساعتين للذهاب إلى المقبرة الأمر الذي سيجعلكم تفتحوا عيونكم واسعة في قريتكم لأنو لن يفعلوا بالتأكيد كذلك للعمّة «ميشو». ولذلك لن تكون حياتي من بعد سوى زفرة طويلة. إنّي أتسلّى كثيراً بالدرّاجة النارية التي تعلمتّ عليها مؤخراً وماذا تقولوا يا اصدقائي الأعزاء لو وصلت هكذا بأقصى السرعة إلى «ايكور»، ولكنّي لن أسكت أكثر عن ذلك لأنّي أحسّ أنّ نشوة المصيبة تذهب بعقله. إنّي أخالط الدوقة «دو غيرمانت» وشخصيات ما سمعت قطّ حتّى باسمها في مناطقنا الجاهلة. ولذلك سأرسل بكلّ سرور كتباً لـ«راسين» و«فيكتور هوغو» وصفحات مختارة لـ«شيندوليه» و«ألفريد دو موسيّه» لأنّي أحبّ أشفي البلد الذي رأيت فيه النور من الجهل الذي يقود حتماً إلى الجريمة. لا أرى شيء أقوله لك بعد وأبعث لك مثل البجعة التي أرهقتها رحلة طويلة تحيّاتي الطيبّة وكذلك لزوجتك وفيلوني وأختك «وردة». رجائي أن لايقولوا عنها: «ووردة لم تعش إلاّ ما تعيش الورود» مثلما قالها «فيكتور هوغو» ومقطوعة «دارفير» و«ألفريد دو موسيّه» وكلّ هؤلاء العباقرة العظيمين الذين موّتوهم على نار المحرقة مثل «جان دارك». فالي رسالتك القريبة وتقبّل قبلاتي كقبلات أخ». «بيريغو جوزيف».

إنّنا إنّما تجتذبنا كلّ حياة تمثّل في نظرنا شيئاً مجهولاً من جرّاء وهم أخير ينبغي القضاء عليه. وان الكثير من الأمور التي قالها لي السيد «دو شالوس» قد حفزت خيالي حفزاً شديداً، وبعدما أنسته إلى أيّ حدّ خيبّ الواقع ظنّه في منزل الدوقة «دو غيرمانت» (فأمر الأشخاص ما كان من أمر أسماء البلدان) وجهتّه إلى ابنة عمّ «أوريان». ولم يخدعني السيد «دو شارلوس» بعض الوقت على أيّ حال حول قيمة رجال المجتمع الراقي وتنوّعهم الوهميّين إلاّ لأنّه كان بدوره مضلّلاً. وربّما كان ذلك لأنّه ما كان يفعل شيئاً، لا يكتب ولايرسم وهو حتّى لايقرأ أي شيء قراءة جديّة عميقة. ولكنّه إذ كان يفوق جماعة المجتمع الراقي عدّة درجات فإنه وإن كان يستخلص مادّة حديثه منهم ومن مشهدهم ما كان لذاك السبب مفهوماً لديهم. وإذ كان يتحدّث حديث الفنانين فقد كان يستطيع على الأكثر استخلاص الروعة الخدّاعة لدى رجال المجتمعات الراقية، ولكنّما الاستخلاص من أجل الفنّانين فحسب الذين كان يمكن أن يؤدي فيما يخصّهم الدور نفسه الذي يؤديّه الأيّل لجماعة الأسكيمو: فإن هذا الحيوان الثمين ينتزع من أجلهم عن صفحة الصخور المقفرة أشنيات وطحالب

(*) النص الفرنسي الأصلي زاخر بالاخطاء الاملائية والقواعدية الفاحشة وقد وضعنا في النص العربي شيئاً من هذا القبيل على أن ذلك من لغة الخادم صاحب الرسالة.

لايفلحون لا في اكتشافها ولا في استخدامها ولكنّها تضحي، بعدما يهضمها الأيّل غذاء يمكن تمثله بالنسبة إلى سكان الشمال الأقصى.

وأضيف إلى ذلك أنّ تلك اللوحات التي كان السيد «دو شارلوس» يرسمها عن المجتمع الراقي إنّما كان يداخلها الكثير من الحيويّة من جراء اختلاط صنوف حقده الضاري بصنوف وداده المتبعد – والحقد موجّه خصوصاً ضدّ الشبّان والتعبّد تستثيره بصورة رئيسية بعض النسوة.

ولئن كانت الأميرة «دو غيرمانت» من بينهن قد وضعت على يد السيد «دو شارلوس» على أرفع عرش فإن أقواله الخفية حول «قصر علاء الدين لايمكن بلوغه» والذي كانت تسكنه ابنة عمّه لاتكفي لتوضح دهشتي التي سرعان ما أعقبتها خشية أن أكون ضحية خدعة شريره دبّرها من ربّما ابتغى طردي من مسكن قد أذهب إليه دونما دعوة حينما قرأت، بعد قرابة شهرين عقب عشائي في منزل الدوقة وبينما كانت هذه الأخيرة في كان» وبعدما فضضت مغلقاً لم ينبئني مظهره بأي أمر غريب، قرأت هذه الكلمات المطبوعة على بطاقة: «الأميرة «دو غيرمانت»، دوقة منطقة «بافيير» بالمولد، ستكون في منزلها في...». ليس من شكّ أن الدعوة إلى منزل الأميرة «دو غيرمانت» ربّما لم تكن، على الصعيد المجتمعيّ، أمراً أكثر عسراً من تناول العشاء في منزل الدوقة وقد علمتني معلوماتي الضعيفة في دنيا الشعارات أن لقب أمير ليس أرفع من لقب دوق ثم إني كنت أقول في نفسي إنّه لايمكن أن يكون ذكاء امرأة من المجتمع الراقي من ماهيّة تختلف عن ذكاء مثيلاتها بقدر مايدّعي السيّد «دو شارلوس» ولكنّ خيالي، شأنه شأن «ايلستير» إذ يمضي في ترجمة بعض مايوحي به المنظور دون أن يأخذ في اعتباره مفاهيم فيزيائية يمكن من جهة ثانية أن يكون محيطاً بها، كان يرسم لي لا ما كنت أعرفه بل ما كان يراه، ما كان يراه، يعني ما كان يبرزه الاسم له. وإن اسم «غيرمانت» المسبوق بلقب أميرة قد ذكّرني دوماً، حتّى حين لم أكن أعرف الدوقة، على نحو علامة موسيقيّة أو لون أو كميّة تتبدّل تبدلاً عميقاً من جراء قيم محيطة ومن جراء الإشارة الرياضية أو الجمالية التي تؤثّر فيها، بشيء مختلف تماماً. وإنّنا لنجده مقروناً بهذا اللقب في مذكّرات عصر لويس الثالث عشر. ولويس الرابع عشر على وجه الخصوص. وكنت أتمثّل فندق الأميرة «دو غيرمانت» وكأنّما تتردّد عليه، كثر أو قلّ التردّد، الدوقة «دو لو نغفيل» و«كونديه» الكبير اللذان كان وجودهما يقلّل إلى حدّ بعيد احتمال أن ألجة في يوم.

وعلى الرغم من كلّ ما يتعلّق بمختلف وجهات النظر الذاتية التي سأتحدّث عنها في ضروب التضخيم المصطنعة فإنّما يبقى شيء من الحقيقة الموضوعية في جميع تلك الكائنات، وبالتالي يظلّ فارق فيما بينها.

بل كيف يمكن أن تكون الأمور بخلاف ذلك؟ إنّ الإنسانية التي نخالطها والتي تشبه أقلّ الشبه أحلامنا هي مع ذلك الإنسانية نفسها التي شهدنا، في مذكّرات رجال مرموقين وفي رسائلهم، وصفاً لها وتمنينا أن نعرفها. إن أقلّ الشيوخ شأناً من الذين نتناول عشاءنا وإيّاهم هو ذاك الذي قرأنا بانفعال، في كتاب حول حرب السبعين، رسالته المستكبرة إلى الأمير «فريديريك شارل» يداخلك الضجر في عشاء لأنّ الخيال غائب عنه وتلهو بصحبة كتاب لأنّ الخيال يصحبنا فيه. ولكن الأمر يدور حول الأشخاص عينهم نودّ لو اننا عرفنا السيّدة «دو بومبادور» التي ناصرت الفنون إلى حدّ بعيد وربّما أصابنا بالقرب منها ما يصيبنا من ملل بالقرب من ربّات الإلهام المعاصرات اللواتي لانستطيع التصميم على العودة إليهنّ لشدّة ضحالتهنّ. على أنّ

تلك الفوارق تظلّ قائمة مع ذلك. لايشبه الناس تماماً بعضهم بعضاً وإن تصرّفهم إزاءنا، بمقدار متساو من الصداقة إن جاز القول، إنّما يكشف عن فوارق تتولّى التعويض في نهاية المطاف. لقد حلا للسيّدة «دو مونمورانسي» حينما عرفتها أن تسمعني أشياء مكّدرة ولكنّها، إن كانت بي حاجة إلى خدمة، كانت تلقي في سبيل الحصول عليها، وعلى نحو فعّال، كامل ما تملك من نفوذ ولا توفّر شيئاً في هذا السبيل في حين أنّ أخرى غيرها، كالسيّدة «دو غيرمانت»، ما كانت لتبتغي في يوم أن تغمّني ولا تقول عنّي إلاّ ما يمكن أن يبهجني وتغدق عليّ جميع صنوف اللطف التي تؤلّف نمط العيش الأدبيّ الغني لآل «غيرمانت»، ولكنّها ما كانت، لو أنّي سألتها أقلّ الأشياء فيما عدا ذلك، لتقوم بخطوة واحدة لتوفّره لي، كما هي الحال في تلك القصور التي يضعون بتصرّفك فيها سيّارة ووصيفاً ولكنّما يستحيل الحصول فيها على كوب من عصير التفّاح لم يلحظ في ترتيب الاحتفالات. فمن كانت الصديقة الحقيقية بالنسبة إليّ، السيّدة «دو مونمورانسي» السعيدة جدّاً بجرح مشاعري والمستعدة أبداً لتخدمني أم السيّدة «دو غيرمانت» التي تعاني من أقلّ تكدير ربّما ألحق بي وتعجز عن أقلّ جهد في سبيل إفادتي؟ كانوا يقولون من جهة أخرى إنّ الدوقة «دو غيرمانت» تتحدث عن أمور طائشة فحسب وابنة عمّها عن أمور مهمّة أبداً بالفكر الأكثر ضحالة. إن صيغ الفكر متنوّعة ومتعارضة لافي الأدب فحسب بل في الدنيا كذلك إلى حدّ أن ليس لـ«بودلير» و«ميريميه» وحدهما الحقّ في أن يحتقر أحدهما الآخر. وهذه الخصائص إنّما تؤلف لدى جميع الناس منظومة نظرات وأقوال وأفعال متماسكة مستبدة إلى حد أنها تبدو لنا، حينما يكون في حضرتها، فوق كل ماعداها أمّا لدى السيّدة «دو غيرمانت» فإن أقوالها كانت تبدو لي، وهي مستنتجة شأن نظرية من نوعيّة تفكيرها، وكأنّها بالوحيدة التي كان ينبغي أن تقال. وقد كنت أساساً من رأيها حينما كانت تقول لي إن السيدة «دو مونمورانسي» بلهاء ومفتوحة الذهن لجميع الأمور التي لا تدركها، أو حينما كانت تقول لي الدوقة وقد بلغها إساءة منها: «هذا ماتدعوه امرأة طيّبة وما أدعوه أنا مسخاً». ولكنّ استبداد الواقع هذا الذي يمثل أمامنا ووضوح ضوء المصباح هذا الذي يتضاءل به الفجر وقد تباعد مذ ذاك كأنّه محض ذكرى كانا يتلاشيان حينما أضحي بعيداً عن السيّدة «دو غيرمانت» وتقول لي سيّدة مختلفة وهي تضع نفسها على قدم المساواة معي وتحكم أنّ الدوقة واقعة دوننا بكثير: «أوريان لاتهتّم في الأساس بشيء ولابأحد»، بل «هي متحذلقة» (وهو ما لعلّه بدا في حضرة السيّدة «دو غيرمانت» مستحيل التصديق لشدّة ما تعلن العكس بنفسها). وإذ ليس من علوم رياضية تسمح لنا بتحويل السيّدة «دار باجون» والسيّدة «دو مونبانسييه» إلى كمّيات متجانسة فقد كان يستحيل عليّ أن أجيب إن سئلت في أيهما تبدو لي متفوّقة على الأخرى.

فلقد كانت الميزة التي يذكرونها أكثر مايذكرونها من بين الميزات الخاصة بصالة الأميرة «دو غيرمانت» استبداداً بالرأي ناجماً في جزء منه عن محتد الأميرة الملكّي، وبخاصّة التشدد المتحجّر تقريباً لآراء الأمير الأرستقراطية المسبقة (آراء لم يفت الدوق والدوقة على أيّ حال أن يسخرا منها في حضرتي) والذي كان لابدّ سيحملني بالطبع على أن اعتبر من قبيل اللامعقول أن يكون هذا الرجل قد دعاني وهو من كان لايعد سوى أصحاب السمّو والدوقة ويستشيط غيظاً في كلّ مأدبة عشاء لأنّه لم يخص على المائدة بالمكان الذي كان من حقّه في عهد لويس الرابع عشر، مكان كان يعرفه وحده بفضل تبحّره الواسع في مادّة التاريخ وعلم الأنساب. وكان الكثيرون بسبب ذلك يفصلون لصالح الدوق والدوقة في الفوارق التي تفصل بينهما وبين ابني

عمومتهما. «إنّ الدوق والدوقة أكثر عصرية بكثير وأشدّ ذكاء ولايهتمان شأن الآخرين بمحض عدد مراتب النبالة، إن صالتهما تتقدّم صالة ابن عمّهما بثلاث مئة عام»، تلك التي كانت الجمل المعتادة التي كان ذكرها يبعث الرعدة في الآن وأنا أنظر إلى بطاقة الدعوة التي كانت توليها عدداً أكبر من احتمالات أن يكون بعث بها إليّ مضلل.

ولو أن الدوق والدوقة «دو غيرمانت» ما كانا في «كان» لتسنّى لي أن أحاول أن أعلم بوساطتهما إن كانت الدعوة التي وردتني حقيقيّة. وليس هذا الشكّ الذي كنت فيه، ليس حتّى على الإطلاق، مثلما تبادر إليّ حيناً، شعوراً لايحسّ به رجل المجتمعات الراقية وينبغي للكاتب بنتيجة ذلك، وأن انتمى فيما عدا ذلك إلى طبقة رجال المجتمع الراقي، أن ينقله كي يبدو «موضوعياً» تماماً ويصورّ كل طبقة على نحو مختلف. فقد وجدت مؤخراً بالفعل في كتاب مذكّرات رائع تسجيلاً لشكوك مماثلة لتلك التي كانت تزجّني فيها بطاقة دعوة الأميرة. «أنا وجورج (أو أنا وهيلي فليس الكتاب في متناول يدي للتحقّق) كنّا نتحرّق أشدّ التحرّق إلى قبولنا في صالة السيّدة «دولوسير» وقد رأينا من باب الحذر، بعدما وصلتنا دعوة منها، أن نتأكد كلّ من جهته أنّنا لم نكن ضحيّة إحدى كذبات نيسان وليس الراوي سوى الكونت «دوسّو نفيل» (الذي تزوّج ابنة الدوق «دو بروي»)، أمّا الرجل الآخر الذي يمضي، «فيما يخصّه»، للتأكيد من أنّه لم يقع ضحيّة الخداع فهو، حسبما يدعى «جورج» أو «هيلي»، أحد صديقين لاينفصلان عن السيّد «دو سونفيل»: السيّد «داركور» أو الأمير «دو شاليه».

وفي اليوم الذي كانت تزمع أن تُقام فيه الأمسية في منزل الأميرة «دو غيرمانت» بلغني أن الدوق والدوقة قد عادا إلى باريس منذ الليلة السابقة وعزمت أن أذهب لزيارتهما في الصباح. ولكنّهما لم يكونا بعد قد عادا بعدما خرجا في ساعة مبكرة. فترقّبت بادئ الأمر، من حجرة صغيرة كنت أحسبها مركز مراقبة ممتاز، وصول العربة. ولكنّي كنت في الواقع قد اخترت مرصدي أسوأ اختيار إذ كدت لا أميزّ منه باحتنا ولكنّي رأيت منه عدّة باحات أخرى، الأمر الذي ألهاني فترة دونما فائدة تذكر. وليس يتوافر لنا في البندقيّة وحدها مشارف كهذه على عدّة بيوت معاً أغرت الرسّامين، بل في باريس أيضاً على السواء. ولست أقول البندقيّة اعتباطاً. فانّما تذكّرنا بعض أحياء باريس الفقيرة في الصباح بأحيائها الفقيرة بمداخنها العالية الموسّعة الفوّهات التي تضفي عليها الشمس الألوان الورديّة الأكثر زهواً والحمراء الأكثر إشراقاً ؛ إنّها حديقة كاملة تزهو فوق البيوت، تزهر ألواناً متنوّعة حتّى لكأنّها حديقة هاوي خزامى من «ديلفت» أو «هارلم» غرست فوق المدينة. وإن تقارب البيوت الشديد من جهة أخرى بنوافذها المتقابلة المطلّة على باحة واحدة إنّما يجعل من كلّ نافذة الإطار الذي تحلم فيه طاهية وهي تنظر إلى الأرض، والذي تدع فيه فتاة أبعد منها شعرها تسرّحه عجوز لها وجه ساحرة تكاد لا تميّزه في الظلام ؛ وهكذا تؤلّف كلّ باحة بالنسبة إلى جار المنزل، إذ تلغي الضجّة بمسافتها الفاصلة وتبرز الحركات الصامتة ضمن مربّع وضع تحت الزجاج من جرّاء إقفال النوافذ، معرضاً من مئة لوحة هولنديّة متقابلة. صحيح أنّه ما كان يتوافر من فندق «غيرمانت» نوع المناظر نفسه، ولكنّما كان ثمّة مناظر طريفة ولاسيّما من النقطة المثّلثية الغريبة التي كنت قد اتّخذت مكاني فيها والتي ما كان يستوقف النظر فيها أيّ شيء حتّى المرتفعات البعيدة التي كان يؤلّفها، إذ الأراضي المقفرة نسبياً التي تسبقها شديدة الانحدار، فندق الأميرة «دو سيليستري والمركيزة «دوبلاسّاك»، وهما ابنتا عم ارستقراطيّتان جداً للسيّد «دو غيرمانت» وما كنت

أعرفهما. وحتى هذا الفندق (الذي كان فندق والدهما السيّد «دو بريكيني»)، لاشيء سوى كتل أبنية قليلة الارتفاع موجهة بأكثر الطرق اختلافاً وكانت تزيد من طول المسافة بمستوياتها المائلة ودون أن تستوقف النظر. وكان برج المرآب الذي يوقف فيها المركيز «دو فريكور» عرباته، وهو من قرميد أحمر، كان ينتهي بمسلّة أكثر ارتفاعاً ولكنّها دقيقة حتّى إنّها لاتحجب شيئاً وتذكّر بهذه الأبنية السويسرية القديمة الجميلة التي تندفع وحيدة على حضيض أحد الجبال. وكانت جميع هذه النقاط المبهمة المختلفة التي ترتاح فوقها العيون تبرز فندق السيّدة «دو باسّاك» أكثر بعداً ممّا لو تفصله عنّا عدّة شوارع أو عدّة سلاسل جبليّة، وهو في الواقع على شيء من القرب ولكنّما يتّخذ بعداً وهميّاً كمنظر في جبال الألب. وحينما كانت نوافذة المربّعة العريضة الملتمعة بالشمس كوريقات بلّور صخري مفتوحة من أجل تدبير المنزل كنت تصيب في متابعة الخدام الذين يستحيل تمييزهم تمييزاً دقيقاً ولكنّهم يقومون بطرق السجاد، كنت تصيب في متابعتهم في مختلف الطوابق المتعة نفسها التي تصيبها إذ تشاهد في منظر من أعمال «تورنر» أو «ايلستير» مسافراً في عربة أو دليلاً على ارتفاعات مختلفة من جبل «سان غوتار». بيد أنّي ربّما أمكن ألا أرى من المكان المشرف الذي وقفت فيه السيّد أو السيّدة «دو غيرمانت» في عودتهما، حتّى إنّي حينما اتيح لي بعد الظهر أن أعاود رصدي اتخذت مكاني ببساطة على الدرج حيث لايمكن أن يخفى عليّ فتح البوّابة، فكان أن وقفت في الدرج مع أنّه لاتظهر منه مواطن الجمال «الألبي» في فندق «دو بريكيني» وهي رائعة إلى حدّ بعيد بخدّامها الذين جعلهم البعد صغاراً جدّاً وهم آخذون في التنظيف. وسوف يسفر هذا الانتظار على الدرج بالنسبة إليّ عن نتائج بالغة الأهمية ويكشف لي عن منظر ليس «تورنريّاً» من بعد بل أخلاقيّ على جانب كبير من الأهمية يبدو من الأفضل معه تأجيل روايته بعض الوقت مسبقاً عليها بادئ الأمر قصّة زيارتي لأسرة «غيرمانت» حينما علمت أنّهم رجعوا.

كان الدوق وحده هو الذي استقبلني في مكتبته. وفي اللحظة التي دخلت فيها خرج رجل قصير أبيض الشعر تماماً فقير المظهر وله ربطة عنق سوداء كالتي كان يلبسها الكاتب العدل في «كومبريه» وعدّة أصدقاء لجدّي ولكن مظهره أكثر استحياء ولم يشأ البتّة، فيما كان يحيّيني تحيّات كبيرة، أن ينحدر قبل أن أكون مررت. وقد صرخ الدوق من المكتبة يطلب إليه أمراً لم أفهمه وردّ الآخر بتحيّات جديدة وجهها إلى الحائط، لأنّ الدوق لا يستطيع أن يراه، ولكنّما ردّدها إلى مالا نهاية على الرغم من ذلك، شأن هذه الابتسامات النافلة لأولئك الذين يتحدّثون إليك بالهاتف. كان له صوت رأسيّ وقد حياني مرة ثانية بتواضع رجل الأعمال. وكان يمكن على أيّ حال أن يكون رجل أعمال في «كومبريه» لفرط ما يتّصف بالطراز الريفيّ المتقادم العذب الذي يميّز فقراء القوم والشيوخ المتواضعين هناك.

وقال لي الدوق بعدما دخلت: «سوف تلتقي «أوريان» بعد قليل. فقد فضّلتْ، بما أنّ «سوان» يزمع المجيء عمّا قليل ليجلب لها مسوّدات دراسته حول عملات جمعيّة مالطا، بل ماهو أسوأ من ذلك، صورة شمسية ضخمة نسخ عليها وجهي تلك العملات، فضلّت «أوريان» أن ترتدي ملابسها أوّلاً كي تستطيع المكوث معه إلى حين الذهاب إلى العشاء. إن بيتنا يزدحم بالحاجات حتّى لانعلم أين نضعها وأتساءل أين ستحشر هذه الصورة. ولكنّ لديّ زوجة مفرطة اللطف تبالغ في حبّها إبهاج الغير. وقد ظنّت من قبيل اللطف أن تسأل «سوان» إمكانية تأمّل جميع أرباب هذه الجماعة العظام الذين لقي صورهم في «رودس» الواحد بجانب الآخر. كنت أقول مالطا، إنّها رودس ولكنّها جماعة القديس يوحنا الأورشليمي نفسها. وهي في

الأساس لاتهتم بذلك إلاّ لأنّ «سوان» يهتّم به. إن لأسرتنا ضلعاً كبيراً في كلّ هذه القصّة. فشقيقي الذي تعرفه هو حتّى في يومنا هذا أحد أعلى أصحاب المراتب في جماعة مالطا. على أنّي لو تحدثت عن كل ذلك لـ«أوريان» لما كانت حتّى أصغت إليّ. ولقد كان كافياً، في مقابل ذلك، أن تكون بحوث «سوان» حول الداويّة (فإن اندفاع اتباع دين معيّن إلى دراسة دين الآخرين من أغرب الغريب) قد قادته إلى تاريخ فرسان رودس ورثة الداويّة حتّى تبغي «أوريان» في الحال مشاهدة وجوه هؤلاء الفرسان. لقد كانوا قوماً صغاراً جداً إذا ما قيسوا بآل «لوزينيان» ملوك قبرص الذين تنحدر منهم على نحو مباشر. ولكنّ «سوان» لم يتهّم بهم حتّى الآن ولذلك لاتريد «أوريان» أن تعرف شيئاً عن آل «لوزينيان».

لم يسعني أن أقول للدوق في الحال لأيّ سبب جئت. فقد جاءت بالفعل بضع صديقات أو قريبات، كالسيّدة «دو سيليستري» والدوقة «دو مونروز» للقيام بزيارة للدوقة التي كثيراً ما كانت تستقبل قبل العشاء ولّما لم يجدنها مكثن برهة مع الدوق. كانت أولى تلك السيّدات (وهي الأميرة «دو سيليستري») بسيطة الملبس جافّة ولكنّما تبدو لطيفة وتمسك في يدها عصا. وخشيت بادئ الأمر أن تكون مصابة بجرح أو عاجزة. ولكنّها كانت على العكس رشيقة جداً. وحدّثت الدوق بكآبة عن ابن عم له – لامن جانب آل «غيرمانت» بل من جانب أكثر شهرة بعد إن كان ذلك ممكناً– تدهورت حالته الصحيّة فجأة بعد أن كان مرضه شديداً منذ بعض الوقت. وكان واضحاً أنّ الدوق فيما كان يرثي لمصير ابن عمّه ويردّد: «مسكين «ماما»! إنّه فتى شديد الطيبة» كان يشخصّ تشخصياً مشجعاً. فقد كان العشاء الذي يزمع الدوق حضوره يبهجه بالفعل ولاتزعجه الأمسية الكبرى في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ولكنّ كان على وجه الخصوص يزمع الذهاب في الواحدة صباحاً برفقة زوجته إلى عشاء كبير وحفلة راقصة تنكّرية تمّ من أجلها تجهيز حلّه له من طراز لويس الحادي عشر وللدوقة من طراز «إيزابو دو بافيير». وكان الدوق عازماً على ألاّ يلقى إزعاجاً في صنوف اللهو المتعدّدة هذه من جرّاء آلام «آمانيان دوسمون» الطيبّ القلب. وجاءت بعد ذلك سيّدتان من حاملات العصا، السيدة «دو بلاسّاك» والسيّدة «دو تريم»، وكلتاهما ابنتا الكونت «دوبريكيني»، لزيارة «بازان» وأعلنتا أن حالة «ماما» لم يظلّ فيها أمل. وبعدما ارتفع الدوق بمنكبيه سألهما كيما يبدّل سياق الحديث إن كانتا ستذهبان في المساء إلى منزل «ماري جيلبير». فأجابتا أن لا بسبب حالة «دامانيان» التي كانت تداني الرمق الأخير، بل هما اعتذرتا عن مأدبة العشاء التي يذهب إليها الدوق والتي عدّدتا له مدعويّها، كشقيق الملك «تيودوز» وسليلة العرش «ماري كونييسيون» إلخ. ولّما كان المركيز «دوسمون» على درجة أقلّ من القربي بالنسبة إليهما منه بالنسبة إلى «بازان» فقد بدا «نكوصهما عن الحضور» في نظر الدوق بمثابة لوم غير مباشر لسلوكه فبدا قليل الأنس. ولذلك لم تمكثا طويلاً مع أنّهما انحدرتا من مرتفعات فندق «بريكينيي» للقاء الدوقة (أو بالأحرى لإخبارها بالطابع المقلق والذي لاينسجم بالنسبة إلى الأقرباء واللقاءات المجتمعيّة، طابع مرض ابن عمومتهما)، وعادت «والبورج» و«دوروتيه» (وهما اسماء الشقيقتين) أدراجهما في طريق قممهما الوعرة تحملان عصا متسلّقي الجبال. لم يخطر لي البتّة أن أسأل آل «غيرمانت» ما الذي كانت تعنيه تلك العصيّ وهي كثيرة جداً في بعض أجزاء حيّ «سان جيرمان». ربّما عدّتا كامل الرعيّة بمثابة ملك لهما وكانتا تقومان، وهمالاتحبّان استقلال العربات، بمشاوير طويلة. جعَل العصا ضرورية فيها كسر قديم ناجم عن الافراط في مزاولة الصيد وما تتضمّنه في الغالب من سقوط عن صهوة الجياد أو محض إصابات بالرئية تتأتى من رطوبة الضفة اليسرى

والقصور القديمة وربّما لم تذهبا في الحيّ في حملة بعيدة إلى هذا الحدّ بل انحدرتا فقط إلى حديقتهما (وهي على مسافة غير بعيدة عن حديقة الدوقة) لقطاف الفواكه اللازمة للثمار المغليّة وجاءتا قبل العودة إلى منزلهما لتحيه السيّدة «دو غيرمانت»، وما كان ليبلغ الأمر بهما مع ذلك أن يحملا معهما مقراضاً أو رشّاشة.

بدا الدوق متأثراً أن أكون جئت إلى منزلهما في يوم عودته نفسه. ولكنّ وجهه اكفهرّ بعدما قلت له إنّي آت لأسأل زوجته أن تستعلم إن كانت ابنة عمّها قد دعتني بالفعل. وكنت قد لامست بذلك واحداً من أنواع الخدمات التي ما كان السيّد «دو غيرمانت» والسيّدة عقليته يرغبان في تأديتها. وقال لي الدوق إنّ الوقت تأخر بي وإنّه سوف يبدو، إن كانت الأميرة لم تبعث لي بدعوة، وكأنّه يلتمس واحدة، وانّ ابناء عمّه قد سبق ورفضوا له واحدة منها ذات مرّة وإنّه لايريد من بعد لا من قريب ولا من بعيد أن يبدو وكأنّه يتدخّل في شؤون لوائحهم، كأنّه «يقحم نفسه فيها» وأنه حتّى لايعلم في النهاية إن كان هو وزوجته، وهما يتناولان عشاءهما خارج المنزل، لن يعودا بعده في الحال إلى المنزل، وأنّ أفضل عذر لديهما في هذه الحالة لأنّهما لم يذهبا إلى أمسية الأميرة أن يخفيا عليها عودتهما إلى باريس، وأنّهما لولا ذاك بالتأكيد كانا على العكس سارعا إلى إعلامها بارسال كلمة أو هاتف بشأني متأخرّ جداً بالتأكيد لأن لوائح الأميرة قد أقفلت بالتأكيد في جميع الاحتمالات. وقال لي بلهجة متريّة، لأنّ آل «غيرمانت» يخشون دوماً ألا يكونوا على علم بآخر الخلافات وأن تتمّ محاولة الصلح على ظهورهم: «لابأس بحالك معها». ثم قال لي الدوق فجأة، وقد تعوّد أن يأخذ على عاتقه جميع القرارات التي يمكن أن تبدو قليلة الوداد، وكأنّما تمرّ الفكرة فجأة في خاطره: «إليك، ياصغيري، إنّي حتّى راغب ألا أقول البتّة لـ«أوريان» إنّك حدّثتني عن ذلك. فأنت تعلم مدى لطفها، وهي إلى ذلك تحبّك حبّاً جمّاً، وسترغب في إبلاغ ابنة عمّها على الرغم من كلّ ما يمكن أن أقوله لها وإن كانت متعبة بعد العشاء فلن يظلّ ثمة عذر لها وستضطر أن تذهب إلى الأمسية. لا، بالتأكيد لن أقول لها شيئاً عن ذلك. سوف تراها عمّا قليل على أيّة حال، فلا تنبس ببنت شفة، رجوتك. وإن قررتَ الذهاب إلى الأمسية فلا أرى حاجة بي إلى أن أقول لك أية فرحة ستداخلنا لقضاء السهرة برفقتك». إنّ الدوافع الإنسانية أكثر قدسيّة من ألاّ ينحني أمامها ذاك الذي يتّم التذرّع بها أمامه، سواء أظنّها صادقة أم لا. ولم أشأ أن أبدو وكأني أوازن لحظة واحدة بين دعوتي وتعب السيّدة «دو غيرمانت» المحتمل ووعدت بألاّ أحدّثها عن غرض زيارتي كما لو انطلت بالضبط عليّ المهزلة الصغيرة التي مثّلها عليّ السيّد «دو غيرمانت». وسألت الدوق إن كان يظنّ لي حظاً أن ألقى في منزل الأميرة السيّدة «دو ستير ماريا».

فقال لي بلهجة العارف: «لا، أعرف الإسم الذي» تقوله لمشاهدتي إيّاه في دليل المنتديات، وليس على الإطلاق من نوعيّة المجتمعات التي تذهب إلى منزل «جيلبير». إنّك لن تجد هناك سوى أناس مهذّبين أشدّ التهذيب ومملين إلى أبعد حدّ، من دوقات يحملن ألقاباً ظنّوها اندثرت ثم استعيدت بالمناسبة، وجميع السفراء والعديد من آل «كوبور» ومن أصحاب السمّو الأجانب ولكن لا تأمل أدنى أثر لـ«ستيرماريا»، فقد يمرض «جيلبير» حتّى من جرّاء افتراضك، اسمع، أنت الذي يحبّ الرسم، ينبغي أن أطلعكَ على لوحة رائعة اشتريتها من ابن عمّي مقابل لوحات «إيلستير» جزئياً وما كنّا نحبّها. لقد باعوني إيّاها بمثابة لوحة لـ«فيليب دو شامبانيي»، ولكنّي أعتقد أنا أنّها بعد أعظم. أتريد رأيي في ذلك؟ أظنّ أنها لوحة لـ«فيلاسكيز» ومن أبهى فترة له». يقول لي الدوق وهو يحدّق في عينيّ إما ليعرف انطباعي، وإمّا ليزيد منه. ودخلَ أحد الخدّام.

– «السيّدة الدوقة تبعث في سؤال الدوق إن كان السيّد الدوق سيتلطّف باستقبال السيّد «سوان» لأنّ السيّدة الدوقة ليست جاهز بعد».

فقال الدوق بعد أن تبيّن في ساعته أنّه لايزال لديه بضع دقائق قبل أن يمضي لارتداء ملابسه: «أدخل السيّد «سوان» زوجتي بالطبع غير جاهزة وهي التي قالت له أن يجيء» وقال لي الدوق: «لاداعي للتحدّث أمام «سوان» عن أمسية «ماري جيلبير»، فلست أعلم إن كان مدعواً. إن «جيلبير» يحبّه كثيراً لأنّه يظنّه حفيداً غير شرعيّ للدوق «دو بيّري»، إنّها قصّة، أيّة قصّة. (فكّر، لولا ذاك! ابن عمّي الذي يصاب بنوبة حينما يبصر يهودياً على بعد مئة متر). ولكن الأمور تتفاقم الآن من جرّاء مسألة «دريفوس» وكان جديراً بـ«سوان» أن يدرك أنّه ينبغي له أكثر من آخر سواه أن يقطع كلّ علاقة بهؤلاء الناس، وهو على العكس يتفوّه بأقوال مغيظة».

واستدعى الدوق الخادم الخاصّ من جديد ليعلم إن كان الذي سبق أن أرسله إلى منزل ابن العم «دوسمون» قد عاد. فقد كانت خطّة الدوق بالفعل هي التالية: كان يهمّه، إذ يظنّ بحقّ أن ابن عمّه على شفا الموت، أن يوافى بأخبار قبل الوفاة، يعني قبل الحداد الاضطراريّ. وما أن يحتمي خلف اليقين الرسميّ بأنّ «آمانيان» لايزال حيّاً حتّى ينطلق إلى مأدبة عشائه وأمسية الأمير والحفلة الراقصة التي سيرتدي فيها لباس لويس الحادي عشر ويتوافر له فيها الموعد الأشدّ إثارة بعشيقة جديدة ولايسعى من بعد إلى أن يوافى بأخبار جديدة قبل الغد بعد أن تكون المسرّات قد انتهت. حينذاك يتّم لبس الحداد إن توفّي في المساء. «لا ياسيّدي الدوق، لم يعد بعد» – «يالعنة الله! إنّ الأمور لاتتّم ههنا إلاّ في الدقيقة الأخيرة»، يقول الدوق وفي ظنّه أنّ «آمانيان» قد وسعه الوقت «لأن يرحل» على صفحات جريدة مسائيّة وأن يفوّت عليه حفلته الراقصة. وأرسل في طلب صحيفة «الزمان» التي لم يجد فيها شيئاً.

لم أكن قد التقيت «سوان» منذ زمن طويل جدّاً وتساءلت لحظة إن كان بالأمس يقصّ شاربه أو لم يكن قصير الشعر لأنّني ألفيته على غير حاله بعض الشيء. وكان ذلك فقط لكونه بالفعل قد «تغيّر» كثيراً لأنّه كان مريضاً جدّاً والمرض يخلّف في الوجه تبدلات عميقة عمقها لو أنشأت تطيل لحيتك أو تبدّل مطرح مفرقك. (كان مرض «سوان» ذاك الذي سبق أن أودى بوالدته والذي أصيب به بالضبط في السنّ الذي كان فيه. وإن حياتنا في الواقع لمليئة من جرّاء الوراثة بالأرقام الخفيّة وصنوف السحر كما لو كان ثمّة بالحقيقة ساحرات. وكما أن ثمّة مدّة معينّة للعمر بالنسبة إلى البشريّة عامّة، هنالك كذلك مدّة بالنسبة إلى الأسر خاصّة، يعني، داخل هذه الأسر، بالنسبة إلى الأعضاء الذين يتشابهون.) كان «سوان» أنيق اللباس أناقة تجمع، شأن أناقة زوجته، إلى ما كان ما سبق أن كان. كان يشدّ جسمه داخل سترة رسميّة رماديّة بلون اللؤلؤ تبرز قامته المديدة، وكان رشيق القوام يلبس قفازين أبيضين بخطوط سوداء ويعتمر قبعة رسمية رمادية موسّعة في أعلاها لايصنعها «دو ليون» من بعد إلاّ له وللأمير «دو ساغان» والسيّد «دو شارلوس» والمركيز «دو مودين» والسيّد «شارل هاز» والكونت «لويس دو تورين». وأدهشتني الابتسامة الفاتنة وشدّة اليد الودّية التي ردّ بها على تحيّتي، لأنّني كنت أظنّ أنّه ما كان ليعرفني في الحال بعد زمن طويل إلى هذا الحدّ. وأعربت له عن دهشتي، فتلقاها بقهقهة عالية وشيء من الاستنكار وشدّ من جديد على يدي كما لو أن الأمر من باب التشكيك

بسلامة دماغه وصدق مودّته في افتراض أنّه لايتعرفني وهو مع ذلك ما كان، فإنه لم يعرفني، وقد علمت ذلك بعد زمن طويل، إلاّ بعد بضع دقائق إذ سمع من يذكّر باسمي. بيد أنّه لم ينبئ بالاكتشاف الذي يسّرته له كلمة قالها السيّد «دو غيرمانت» أيُّ تبدّل في وجهه وفي أقواله وفي الأمور التي أفضى إليّ بها لفرط ما كان يتمتع به من رباطة جأش وثقة في ممارسة الحياة المجتمعيّة. وكان يبرز فيها على أيّة حال تلك العفوية في التصرّف وتلك المبادرات الشخصيّة، حتّى فيما يخصّ اللباس، التي كانت تطبع طراز آل «دو غيرمانت». من ذلك أن التحيّة التي حيّاني بها، دون أن يتعرّفني، رجل المنتديات العتيق لم تكن التحيّة الباردة الجافية التي لرجل المجتمعات الشكّلي المحض، بل تحيّة تفيض باللطف الحقيقيّ والظرف الأكيد على غرار ماتبدي الدوقة «دو غيرمانت» مثلاً (التي يبلغ بها أن تبتسم أوّل من يبتسم قبل أن تكون حيّيتها حينما كانت تلتقي بك)، على عكس التحيّات الأكثر آلية والمألوفة لدى سيّدات حيّ «سان جيرمان». ومن ذلك أيضاً أنّ قبعتّه التي وضعها على الأرض بالقرب منه حسب عادة آخذة في الزوال كانت مبطنّة بالجلد الأخضر، الأمر الذي لم يكن مرعيٍّ الاجراء ولكنما كان لأنه (فيما يقول) أقل توسيخاً وفي الواقع (وهو مالا يقوله) لأنّ الأمر لائق جداً.

– «هيّا يا «شارل»، أنت الخبير الكبير، تعال وشاهد شيئاً ما. وبعد ذلك ياصغيريّ سأستأذنكما وأدعكما حيناً معاً فيما أمضي لارتداء بدلة. وأحسب على أيّ حال أنّ «أوريان» لن تتأخّر». وعرض لوحة «فيلاسكيز» على «سوان»، فقال بتقطيب المرضى الذين يشكّل الكلام بالنسبة اليهم إرهاقاً: «ولكنما يبدو لي أني أعرف هذا».

وقال الدوق وقد أولاه التأخير الذي يبديه الخبير في الإعراب عن إعجابة جديّة: «أجل، لابدُّ أنّك رأيتها في منزل «جيلبير».

– «آه! إنّي أتذكّر، بالفعل».

– «وما عساك تظنّ ذلك؟».

فقال «سوان» بمزيج من السخرية والإجلال إزاء صاحب سمّو لعلّه يجد من قبيل سوء التهذيب وإثارة الهزء أن يتجاهله ولكنّه لايريد بداعي حسن الذوق أن يتحدُّث عنه إلاّ كمن يلهو: «إذاً، إن كان ذلك في منزل «جيلبير» فلابدّ أنّه أحد أجدادك».

وقال الدوق بخشونة: «بالتأكيد. إنّه «بوزون»، ولا أدري أي رقم يحمل بين آل «غيرمانت». ولكنّي لا آبة لذلك، فأنت تعلم أنّي لست قطاعيّ النزعة شأن ابن عمّي. لقد سمعت من يلفظ اسم «ريغو» و«مينيار» وحتّى «فيلاسكيز»! يقول الدوق وهو يحدّق إلى «سوان» بنظرة المحقّق والجلاّد كي يحاول في الآن نفسه أن يقرأ أفكاره ويؤثرّ في جوابه. واختتم قائلاً (إذ كان قادراً، حينما يحملونه على استجرار مصطنع لرأي هو راغب فيه، أن يعتقد بعد بضع لحظات أنّه قد صدر تلقائياً): «هيّا على كلّ حال، وبدون تملّق. أتظنّ أنّها لأحد الأساطين العظام الذين أتيت على ذكرهم؟

فقال «سوان»: «لـ... لـ... لا».

- «ولكن، على أيّ حال أنا لا أدري شيئاً من ذلك وليس لي أن أقرّر لمن تكون هذه اللوحة. ولكن أنت الهاوي والمعلّم في الموضوع إلى من عساك تنسبها؟».

وتردّد «سوان» لحظة أمام هذه اللوحة التي كان من الواضح أنّه يجدها قبيحة وقال: «إلى سوء الطويّة»! قال وهو يجيب الدوق ضاحكاً ولم يَسَعْ هذا الأخير أن يدع المجال لحركة غاضبة تصدر عنه. وبعدما هدأت: «كلاكما بالغ اللطف، فانتظر «أوريان» برهة، سوف أرتدي بدلتي الرسميّة وأعود. وسأبعث من يقول لقرينتي انكما تنتظرانها كلاكما».

وكلّمت «سوان» برهة عن قضيّة «دريفوس» وسألته كيف يتّفق أن يكون جميع آل «غيرمانت» مناهضين لـ«دريفوس». فأجاب «سوان»: «لأن هؤلاء القوم بادئ الأمر مناهضون للساميّة جميعهم في الأساس»، يقول وهو يعلم مع ذلك تمام العلم بالتجربة أن بعضهم على غير ذلك ولكنّه، شأن جميع الناس الذين يحملون رأياً حماسيّاً، كان يفضل كيما يفسّر أن بعض الناس لايشاطرونه إيّاه، أن يفرض لديهم سبباً سابق التصوّر وتحيزًا لايمكن أن تفعل شيئاً إزاءه أكثر منه أسباباً يمكن مناقشتها. لقد كان يمقت على أي حال، وقد بلغ نهاية حياته قبل الأوان، كان يمقت كحيوان متعب يمعنون في مطاردته تلك الاضطهادات ويعود إلى حظيرة آبائه الدينيّة.

وقلت: «فيما يخص الأمير «دو غيرمانت» صحيح، لقد قيل لي إنّه من أعداء الساميّة».

- «أوه: هذا الأخير، إنّي حتّى لا أجيء على ذكره.. فقد بلغ به، حينما كان ضابطاً وأصيب بألم أسنان مريع، أن فضّل البقاء في عذابه على أن يستشير طبيب الأسنان الوحيد في المنطقة وكان يهوديّاً، وأن ترك فيما بعد للنيران جناحاً من قصره شبت النار فيه لأنّه كان ينبغي أن يطلب الإطفاء في القصر المجاور الذي يخص آل «روتشيلد».

- وهل أنت ذاهب هذا المساء إلى منزله؟».

فأجابني قائلاً: «أجل، مع أنّي أجدني متعباً جدّاً. ولكنّه بعث إليّ بعجالة ينبئني فيها أنّ لديه ما يقوله لي. وإنّي أحسّ أنّي سأكون شديد المرض في هذه الأيام كيما أذهب إلى هناك أو استقبله فسوف يهزني ذلك وأفضل التخلّص منه في الحال».

- ولكن الدوق «دو غرمانت» ليس مناهضاً للسامية».

- «ولكنك ترى تماماً أن بلى بما أنّه مناهض لـ«دريفوس» يجيبني «سوان» دون أن ينتبه أنّه يقوم بمصادرة على المطلوب. «وليس يحول ذلك دون اغتمامي لأنّي خيبت أمل هذا الرجل- ماذا أقول! هذه الدوق - إذ لم أعجب بلوحته المزعومة لـ «مينيار» ومالست أدري». وأردفت أقول وأنا أعود إلى قضيّة «دريفوس»: «ولكنّما الدوقة ذكيّة فيما يخصّها».

- «أجل، إنّها رائعة، وقد كانت على أيّ حال أكثر من ذلك، فيما أرى، حينما كانت لاتزال تدعى

الأميرة «دي لوم». لقد اتّخذ فكرها طابعاً أكثر نتوءاً، وكان كلّ ذلك أكثر رقّة في السيّدة الكبيرة الفتيّة. ولكن ما عساك تريد، جميع هؤلاء الناس، أكانوا أكثر شباباً أم أقلّ وسواء في ذلك الرجال أو النساء، هم من سلالة أخرى، فليس يمرّ ألف عام من الإقطاع في الدم بسلام. وهم يظنّون بالطبع أن لا أثر لذلك البتّة في رأيهم».

– «ولكنّ «روبير دو سان لو» مع ذلك مناصر لـ«دريفوس» ؟

– «لحسن الحظّ لاسيّما أنّ والدته كما تعلم مناهضة شديدة له.

لقد سبق أن قيل لي إنّه على ذلك ولكنّي لم أكن متيقناً. إن ذلك يسرّني كثيراً. وليس يدهشني الأمر فإنّه شديد الذكاء. وهذا شيء عظيم».

كانت الدريفوسية قد أولت «سوان» سذاجة غريبة وأضفت على نظرته إلى الأمور اندفاعاً وانحرافاً أكثر بروزاً ممّا فعل بالأمس زواجه بـ«أوديت». على أنّه من الخير أن يسمّى هذا الانحطاط إعادة اعتبار فما كان إلاّ مشرّفاً بالنسبة إليه بما أنّه كان يرده إلى الطريق التي جاء منها ذووه والتي حرفته عنها مخالطاته الأرستقراطية. على أنّ «سوان» كان يبدي في اللحظة نفسها التي قدر له فيها، وهو واضح الرؤية إلى حدّ بفضل المعطيات التي ورثها عن أجداده، أن يبصر حقيقة لاتزال خافية على جماعة المجتمعات الراقية، كان يبدي مع ذلك غباوة مضحكة. فقد أعاد جميع صنوف إعجابه وازدرائه على محكّ معيار جديد هو الدريفوسيّة. فأن تكون نزعة السيّدة «برنتان» المناهضة للدريفوسيّة قد جعلته يراها غبيّة لم يكن أكثر إدهاشاً من أن يكون رآها ذكيّة بعدما تزوّج. ولم يكن من الخطورة بمكان كذلك أن تصيب الموجة الجديدة فيه كذلك أحكامه السياسيّة وأن تنسيه أنّه نعت «كليمانصو» برجل المال وبجاسوس لإنكلترة (وكانت تلك إحدى سخافات وسط آل «غيرمانت»)، «كليمانصو» الذي يعلن الآن أنّه عدّه على الدوام بمثابة الوجدان الحيّ والرجل الحديديّ شأن «كورنيلي». «لا، لم أقل لك قطّ غير ذلك. إنّك تخلط». ولكنّ الموجة كانت تتجاوز الأحكام السياسيّة وتقلب لدى «سوان» الأحكام الأدبيّة وحتّى صيغة التعبير عنها فـ«بار يّس» قد افتقد كلّ موهبة، بل إن مؤلّفات شبابه ضعيفة وتكاد لاتستطيع إعادة قراءتها. «حاول، ولن تستطيع المضي حتّى النهاية. وأيّ فارق بينه وبين «كليمانصو»! لست شخصياً مناهضاً للإكليروس، ولكن كم تتبيّن أنّ «باريس» لاتماسك لديه إلى جانبه! إنّه لرجل عظيم هذا العمّ «كليمانصو» وكم يحيط بلغته!» وما كان لمناهضي «دريفوس» على أيّ حال الحقّ في انتقاد هذه الحماقات. فقد كانوا يفسرون انتصارك لـ«دريفوس» أنّك من أصل يهوديّ. فإن أصر كاثوليكيّ ممارس من أمثال «سانييت» على إعادة النظر في الدعوى فلأنّه كان سجين السيّدة «فيردوران» التي كانت تتصرّف تصرف راديكالية شرسة. فقد كانت قبل كلّ شيء ضدّ لابسي القلنسوات. لقد كان «سانييت» غبيّاً أكثر منه شريراً وما كان يعلم الضرر الذي تلحقه به «ربّة المنزل». فإن قال قائل إن «بريشو» كان صديق السيّدة «فيردوران» بالمقدار نفسه وهو عضو في جماعة «الوطن الفرنسيّ» فذلك لأنّه أشدّ ذكاء.

وقلت لـ«سوان» وأنا أتكلّم عن «سان لو»: «هل تراه أحياناً؟»

– «لا، إطلاقاً. لقد كتب إليّ ذاك اليوم كي أسأل الدوق «دو موشي» وآخرين غيره أن يصوتّوا إلى جانبه في نادي الفروسية حيث سارت أموره على أيّ حال سير رسالة في البريد».

– «على الرغم من القضيّة!».

– «لم تُثر المسألة. وسوف أقول لك على أيّ حال إنّي منذ ذلك كلّه لا أطأ بقدمي ذلك المكان».

وعاد السيّد «دو غيرمانت»، وعادت بعد قليل زوجته وهي جاهزة تماماً مديدة القامة رائعة في فسطان من الساتين الأحمر زركشت حاشية تنّورته بالبروق. وكانت تضع في شعرها ريشة نعامة كبيرة صبغت باللون الأرجواني وعلى كتفيها شال من التول باللون الأحمر نفسه. قالت الدوقة التي لم يكن يفوتها شيء: «ما أحسن أن يبطّن المرء قبعتّه بالأخضر. وعلى أيّ حال كل شيء فيك جميل يا «شارل»، سواء في ذلك ما تلبس وما تقول، ما تقرأ وما تفعل.» أمّا «سوان» فكان يتأمّل الدوقة، دون أن يبدو أنّه يسمع، كما لعلّه كان فعل بلوحة معلّم، وبحث بعد ذلك عن عينيها وهو يقوم بالتواءة في الفم تعني: «ياويحي»! وانفجرت السيّدة «دو غيرمانت» ضاحكة: «إن لباسي يروقك وإنّي مغتبطة بذلك. ولكنّما يجدر بي أن أقول إنّه لايروقني كثيراً» تضيف قولها بهيئة متجهمّة. «ياإلهي، ما أزعج أن يرتدي المرء ملابسه وأن يخرج فيما يودّ إلى أبعد حدّ أن يظلّ في بيته!»

– «ما أروع هذه الياقوتات الحمراء!».

– «آه! يا «شارلي» الصغير، إنّ المرء ليبصر على الأقلّ أنّك خبير بها ولست كهذا الحيوان «دو مونسير فوي» الذي كان يسألني إن كانت حقيقيّة. لابدّ لي أن أقول إنّي ما رأيت قطّ بمثل جمالها. إنّها هديّة من الدوقة الكبرى. وهي ضخمة قليلاً بالنسبة إلى ما أشتهي وتشبه إلى حدّ ما كأس خمور مليء حتّى الحفاف ولكنّي وضعتها لأنّنا سوف نلقى في هذا المساء الدوقة الكبرى في منزل «ماري جيلبير»، تضيف السيّدة «دو غيرمانت» دون أن ترتاب بأنّ هذا التوكيد إنّما يقضي على توكيدات الدوق.

وسأل «سوان» قائلاً: «وماذا لدى الأميرة؟»

فسارع الدوق إلى الإجابة وقد حمله سؤال «سوان» على الظنّ بأنّه لم يكن مدعوّاً: «لاشيء تقريباً».

– «كيف ذلك يا «بازان»؟ أعني أنّ جميع الأنصار والمؤيّدين مستدعون. ستكون ثمّة مجزرة، وما يكفي لتودي بحياتك». وأضافت وهي تنظر إلى «سوان» نظرة رقيقة: «الجميل، إن لم تعبّ العاصفة الكامنة في الجوّ، سيكون تلك الحدائق الرائعة. إنّك تعرفها. لقد كنت هنالك قبل شهر مضى آن كان الليلك مزهراً، ولايمكن تكوين فكرة عمّا أمكن أن تكون عليه من جمال. ثمّ هنالك نافورة الماء، وخلاصة القول إنّها حقاً «فيرساي» في باريس».

وسألت: «أيّ نوع من النساء هي الأميرة؟».

– «ولكنّك تعلم، بما أنّك التقيتها ههنا، أنّها جميلة كالنهار وأنّها كذلك على قليل من الغباء وهي شديدة اللطف على الرغم من كلّ تعاليها الجرمانيّ، تفيض طيبة وهفوات».

كان «سوان» أكثر رهافة من ألاّ يتبيّن أنّ السيّدة «دو غيرمانت» كانت تحاول في تلك اللحظة أن «تبرز

الظرف الغيرمانتي» ودون كبير عناء لأنها إنما كانت تعيد فحسب طُرفاً لها قديمة في صيغة أقلّ كمالاً. ولكنّه بغية أن يبرهن للدوقة أنّه يدرك مقصدها في أن تبدو مستهجنة وكما لو كانت بالحقيقة كذلك ابتسم ابتسامة متكّلفة فبعث في نفسي من جرّاء هذا النوع الخاصّ من قلّة الصدق الضيق نفسه الذي كان ينتابني بالأمس لدى سماعي ذويّ يتحدّثون إلى السيّد «فانتوي» عن فساد بعض الأوساط (فيما يعلمون تمام العلم أنّ ما يسود «مونجو فان» أكبر منه) أو لمحض سماعي السيّد «لوغراندان» في المجتمعات الراقية ينّوع في إلقائه من أجل أغبياء وينتقي نعوتاً رقيقة يعلم تماماً أنّها لايمكن أن تُدرك في جمهور ثريّ أنيق ولكنّه جاهل.

وقال السيد «دو غيرمانت»: «ويحك يا «أوريان»، ماذا تقولين؟ ماري غبيّة؟ لقد قرأت كلّ شيء وهي موسيقيّة كالكمان».

– «ولكن ياصغيري المسكين «بازان»، إنّك طفل وُلد لتوّه. كما لو أنّها لاتستطيع أن تكون كلّ ذلك وعلى شيء من الغباء! والغباء مبالغ فيه على أيّ حال، لا إنّها غائمة، إنّها من أسرة «هيسّه – دار مشتات» وتحمل طابع الإمبراطورية المقدّسة و«البلادة». إن محض تلفّظها يثير أعصابي. ولكنّي أعترف على أية حال أنّها رائعة في غرابة أطوارها. وأول الأمر محض فكرة أن تكون انحدرت من عرشها الألماني لتأتي وتتزوّج فرداً بسيطاً زواجاً بورجوازياً تماماً. صحيح أنّها انتقته!» وقالت وهي تلتفت صوبي: «ولكن، صحيح، أنت لاتعرف «چيلبير»! سأزوّدك في الحال بفكرة عنه: لقد لزم الفراش فيما مضى لأنّي بعثت ببطاقة للسيّدة «كارنو»... ثمّ قالت الدوقة بغية تغيير الحديث وإذ رأت أنّ حكاية بطاقتها بدت وكأنّها تثير غضب السيّد «دو غيرمانت»: «ولكن يا «شارلي» الصغير تدري أنّك لم ترسل صورة فرسان «رودس» الذين أحبّهم بفضلك والذين أرغب أشدّ الرغبة في التعرّف بهم».

ولم يكن الدوق قد كفّ مع ذلك عن التحديق إلى زوجته:

– «أوريان، يجدر بك على الأقلّ أن تنقلي الحقيقة وألاّ تبلعي نصفها». وقال مصحّحا وهو يلتفت إلى «سوان»: «ينبغي أن نقول إن سفيرة انكلترة في تلك الفترة، وكانت امرأة بالغة الطيبة ولكنّها تعيش بعض الشيء في القمر وقد تعوّدت هذا النوع من الهفوات، خطر لها هذا الخاطر الغريب إلى حد ما بأن تدعونا والرئيس وزوجته. وقد دهشنا، وحتّى «أوريان»، بعض الدهشة، يزيد منها أنّ السفيرة كانت تعرف معرفة كافية من نعرف من أشخاص كي لاتدعونا بالضبط إلى اجتماع غريب إلى هذا الحدّ. كان ثمّة وزير قام باختلاس، وأتغاضى عن ذلك على أيّ حال، ولم نكن قد أخطرنا بذلك ووقعنا في الشرك، على أنّه لابدّ من الإقرار بأنّ جميع هؤلاء الناس كانوا مهذّبين أبعد التهذيب. كانت الأمور كافية إلى هذا الحدّ. ولكنّما بدا للسيّدة «دو غيرمانت» التي لاتوليني كثيراً شرف استشارتي أنّ من واجبها المبادرة إلى وضع بطاقة في غضون الأسبوع نفسه في قصر «الإيليزيه». ربّما بالغ «چيلبير» إذ رأى في الأمر كانّما لطخة تلطخ اسمنا. ولكنّما ينبغي ألاّ ننسى، إن وضعنا السياسة جانباً، أن «كارنو» الذي كان يشغل منصبه، من ناحية أخرى، على نحوٍ مرضٍ جداً، هو حفيد أحد أعضاء المحكمة الثوريّة التي أهلكت في يوم واحد أحد عشر من جماعتنا».

– «فلماذا كنت تذهب إذاً يا «بازان» لتناول طعام العشاء في «شانتيي» كلّ أسبوع؟ لقد كان الدوق

«دومال» بدوره حفيد أحد أعضاء المحكمة الثرية بفارق أنّ «كارنو» كان رجلاً طيبّ القلب و«فيليب- المساواة» نذلاً مريعاً».

وقال «سوان»: «اعتذر للمقاطعة كي أقول لك إنّي بعثت بالصورة ولست أفهم أنّهم لم يعطوك إيّاها».

فقالت الدوقة: «لا يدهشني الأمر إلاّ جزئياً. فإن خدّامي لايقولون لي إلاّ ما يلقونه مناسباً. إنّهم لابدّ لايحبّون جمعيّة القدّيس يوحنّا». وقرعت الجرس.

- «تعلمين يا «أوريان» أنّي حينما كنت أتناول العشاء في «شانتيي» إنّما كنت أفعل دونما حماسة».

- «دونما حماسة ولكن بقميص نوم كي تظلّ وتنام إن سألك الأمير ذلك، وقليلاً ما كان يفعل على أيّ حال بوصفه إنساناً فظّاً شأن جميع آل «أورليان».. وسألت السيّدة «دو غيرمانت» زوجها قائلة: «أتعلم مع من نتناول العشاء في منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت»؟»

- «فيما عدا الجلساء الذين تعرفينهم سيكون ثمّة شقيق الملك «تيودوز»، وهو مدعوّ الساعة الأخيرة».

واكتست، لدى هذا الخبر، ملامح الدوقة بالرضى، وأقوالها بالسأم»: «آه! يا إلهي. يزيدوننا أمراء».

وقال «سوان»: «ولكنّ هذا الأخير لطيف وذكّي».

فأجابت الدوقة وهي تبدو كمن يبحث عن كلماته كي تضفي جدّة أكبر على فكرتها: «ليس تماماً على أيّ حال. فهل لاحظت، بين الأمراء، أن أكثرهم لطفاً ليسوا لطفاء تماماً؟ بلى، أؤكّد لك ذلك! ينبغي أبداً أن يكون لهم رأي في كل شيء. وإذهم لايملكون أيّ رأي فانّهم يقضون الجزء الأول من حياتهم في طلب آرائنا منا، والجزء الثاني في تقديمها ثانية لنا. لابدّ لهم حتماً أن يقولوا إن هذا الأمر قد تمّ القيام به خير قيام وإنّ ذاك أقلّ منه. وليس من فارق مطلقاً. خذ مثلاً شقيق «تيووز» الأصغر هذا (لست أذكر اسمه) الذي سألني أيّ اسم يطلقون على اللحن المميّز للأوركسترا». وقالت الدوقة وقد التمعت عيناها وأطلقت ضحكة عالية من شفتيها الحمراوين الجميلتين: «فأجبته إنهم يطلقون عليه اسم اللحن المميّز للأوركسترا». ولكنّه في أساس الأمر لم يكن مسروراً». وأردفت السيّدة «دو غيرمانت» تقول بصوت واهن: «آه! يا «شارلي» الصغير، ما أكثر ما يبعث على السأم أن تتناول عشاءك في المدينة! ثمّة أمسيات نفضّل فيها الموت! صحيح أنّ الموت ربّما كان مزعجاً بالمقدار نفسه إذ لانعلم ماعسى أن يكون».

وأقبل أحد الخدم. وكان الخطيب الشاب الذي سبق أن تخاصم مع البوّاب إلى أن أقامت الدوقة فيما بينهما بطيبة نفسها سلاماً ظاهراً.

وسأل قائلاً: «هل ينبغي لي أن استعلم في هذا المساء أخبار السيّد المركيز «دوسمون»؟

- «لا، على الإطلاق، لاشيء قبل صباح الغد! إنّي لا أريد حتّى أن تمكث ههنا هذا المساء. فعلى خادمه الخاصّ الذي تعرفه أن يجيء ويزوّدك بالأخبار ويقول لك أن تذهب وتأتي بنا. أخرج واذهب حيثما

تشاء افعل الموبقات وثم خارج المنزل، ولكنّي لا أريدك ههنا قبل صباح الغد».

وفاض وجه الخادم الخاص بفرح لاحدّ له. هاهو يستطيع أخيراً أن يقضي ساعات طويلة برفقة خطيبته التي كان لايستطيع أن يلقاها من بعد مذ أوضحت له الدوقة بلطف، على إثر شجار جديد مع البوّاب، أنّه من الخير له ألاّ يخرج من بعد ليتجنّب منازعات جديدة. كان يسبح،. لدى التفكير بأنّه ينال أخيراً أمسيته الحرّة، في لجّة سعادة لاحظتها الدقة وفهمتها. وأحسّت بانقباض في الصدر وأكال في جميع الأعضاء لدى رؤية هذه السعادة التي يأخذونها على غير علم منها وبالخفية عنها والتي تبعث في صدرها الغيظ والغيرة. «لا، يا«بازان»، فليمكث ههنا ولايبرحنّ، على العكس، المنزل».

— «ولكن يا «أوريان»، ذلك غير معقول فخدمك كلّهم حاضرون وسيجيئك بالإضافة إليهم في منتصف الليل الكاسية وصانع الملابس التنكّرية من أجل حفلتنا الراقصة. إنّه لايمكن أن يفيد البتّة في شيء، وبما أنّه وحده صديق لخادم «ماما» الخاص فإنّي أفضّل ألف مرّة أن أرسله بعيداً عن هنا».

— «اسمع، دعني يا «بابال»، إنّ لديّ بالضبط أمراً أريد أن يُنقل إليه في السهرة ولست أدري تماماً في أيّ ساعة». وقالت للخادم اليائس: «خصوصاً لاتبرح المكان دقيقة واحدة».

لئن كان ثمّة على الدوام مشاجرات ولئن مكثوا قليلاً في منزل الدوقة فإن الشخص الذي كان ينبغي أن تُعزى إليه هذه الحرب الدائمة كان بالتأكيد غير قابل للعزل، على أنّه لم يكن البوّاب. لاشكّ أنّ الدوقة، بالنسبة إلى الأعمال الشاقّة وصنوف التعذيب التي يتطلّب إنزالها مشقّة أكبرو المشاجرات التي تنتهي بالضرب، كانت تعهد بآلاتها الثقيلة إليه، وكان يقوم بدوره على أيّ حال دون أن يرتاب أن يكونوا عهدوا به إليه. كان ينظر باعجاب إلى طيبة الدوقة شأن الخدم. وكان الخُدام القليلو التبصّر يجيئون كثيراً بعد رحليهم للقاء «فرانسواز» قائلين بأن منزل الدوق ربّما كان أفضل مكان في باريس لو لم يكن ثمّة المحفل. وكانت الدوقة تستخدم المحفل مثلما استخدمت على مدى فترة طويلة الإكليروسيّة والماسونية والخطر اليهودي، إلخ. ودخل أحد الخدم الخاصّين.

— «لماذا لم يأتوني إلى فوق بالرزمة التي بعث بها السيّد «سوان» إليّ؟ ولكن، مادمنا بهذا الصدد «تدري يا «شارل» أنّ «ماما» مريض جداً»، «جول» هذا الذي ذهب يستعلم أخبار السيّد المركيز «دو سمون» هل عاد؟».

— «لقد وصل لتوّه ياسيّدي لدوق. إنّهم ينتظرون بين لحظة وأخرى أن يفارق السيد المركيز».

فصاح الدوق بزفرة ارتياح: «آه! إنّه على قيد الحياة. إنّهم ينتظرون، إنّهم ينتظرون! يالك من شيطان أنت». قال لنا الدوق بهيئة مبتهجة: «مادام ثمة حياة فثمة أمل. لقد صوّروه لي وكأنّه قضى ووري تحت الثرى. في ثمانية أيّام يكون أفضل عافية منّي».

— «الأطبّاء هم الذين قالوا إنّه لن يُمضي السهرة. وكان أحدهم يبغي العودة في الليل، ولكن رئيسهم قال إنّ الأمر لايجدي. كان لابدّ أن يكون المركيز قد مات، ولم يبق على قيد الحياة إلاّ بفضل حقن شرجيّة

من الزيت الممزوج بالكافور».

وصاح الدوق وهو في سورة الغضب: «اخرس، يالك من غبيّ! فمن ذا يطلب منك كلّ ذلك؟ إنّك لم تفهم شيئاً ممّا قيل لك».

- «ماقيل لي، بل لـ«جول».

فزعق الدوق عالياً: «ألن تخرس؟» والتفت إلى «سوان»: «أيّة سعادة أن يكون حيّاً. سوف يستعيد قواه شيئاً فشيئاً. إنّه على قيد الحياة بعد نوبة كهذه، والأمر مذ ذاك رائع، فلا يمكننا أن نطلب كلّ شيء دفعة واحدة.» وقال الدوق وهو يفرك يديه: «لابدّ أنّ حقنة طفيفة بالزيت الممزوج بالكافور ليست مزعجة. إنّه على قيد الحياة، فماذا يودّون أكثر من ذلك؟ إنّها لنتيجة طيبّة جدّاً بعد أن قاسى ماقاسى. بل إنّي أحسده أن يكون بمثل هذا المزاج. آه! المرضى، إنّهم يحيطونهم بعناية لايحيطوننا بها. لقد حضّر لي طاه في الصباح فخذ خروف بالمرق الكثيف الحارّ ناجح أروع النجاح، إنّي مقرّ بذلك، ولكنّي لهذا السبب بالضبط أخذت منه إلى الحدّ الذي لايزال يثقل معدتي. لكنّ ذلك لايحول دون امتناعهم عن استعلام أخباري على نحو مافعلوا إزاء العزيز «آمانيان» إنّهم حتّى يجاوزون الحدّ، والأمر يرهقه. لابدّ أن يدعوا له أن يرتاح. إنّهم يقتلون هذا الرجل إذ يوفدون دوماً من يسأل عنه».

وقالت الدوقة للخادم الذي كان خارجاً: «ويحك! سبق أن طلبت أن تحملوا إليّ إلى فوق، الصورة المغلّفة التي بعث بها إليّ السيّد «سوان».

- «سيّدتي الدوقة، إنّها ضخمة إلى حدّ أنّي ما كنت أعلم إن هي ستعبر من الباب. لقد تركناها في الردهة. فهل تودّ سيّدتي الدوقة أن أحملها إلى فوق؟».

- «لا، في هذه الحال. وكان يجدر أن أُبلّغ ذلك، ولكن إن كانت كبيرة إلى هذا الحدّ فسوف أشاهدها عمّا قليل لدى نزولي».

- «نسيت كذلك أن أقول لسيّدتي الدوقة إن السيّدة الكونتيسة «موليه» قد تركت في هذا الصباح بطاقة لسيّدتي الدوقة».

فقالت الدوقة بلهجة الاستياء ومن ترى أنّ امرأة شابّة مثلها لايمكن أن تسمح لنفسها بأن تترك بطاقات في الصباح: «كيف ذلك، في هذا الصباح؟».

- «نحو الساعة العاشرة ياسيّدتي الدوقة».

- «أرني هذه البطاقات».

وأردف الدوق يقول، وقد عاد إلى حديثه الأوّل: «على أيّ حال، حينما تقولين يا «أوريان» إنّ ماري قد راودتها فكرة غريبة في زواجها من «جيلبير» فأنت التي تنهج طريقة فريدة في كتابة التاريخ فإن كان ثمة غبيّ

في هذا الزواج فإنّما «جيلبير» في زواجه من قريبة وثيقة القربى إلى هذا الحدّ بملك البلجيكيّين الذي اغتصب اسم «برابان» الذي نملكه. إنّنا باختصار القول من سلالة آل «هيسّه» نفسها ومن فرع البكوريّة. ثم قال وهو يوجّه الحديث إليّ: «إنّه من قبيل الغباء دوماً أن يتحدّث المرء عن نفسه، ولكنّنا حين ذهبنا لا إلى «دار مشتات» فحسب بل حتّى إلى «كاسيّل» وفي سائر أنحاء أمارة «هيسّه» فقد تلطّف الأعيان جميعهم وتظاهروا على الدوام بتقديمنا عليهم وبإيلائنا مكان الصدارة بوصفنا من فرع البكوريّة».

– «ولكنّما لن تقول لي يا «بازان» إنّ تلك المرأة التي كانت قائدة لجميع فيالق بلدها والتي خطبوها لملك «السويد»....

– «أوه! تبالغين يا «أوريان»، لكأنّك لاتعلمين أن جدّ ملك «السويد» كان يزرع الأرض في مدينة «بو» حينما كنّا نحتّل على مدى تسع مئة سنة خلت مكان الصدارة في أوروبا بأسرها».

– «ذلك لايمنع أنّه لو قيل في الشارع: «ويحك، إنّه ملك السويد» فسوف يجري الجميع لرؤيته حتّى إلى ساحة «الكونكورد»، فإن قيل: «هو ذا السيّد «دو غيرمانت»، فلن يعلم أحد من عساه يكون».

– «ياله من سبب!».

– «ولايمكن أن أفهم على أيّة حال كيف تستطيع، بما أنّ لقب دوق «باربان» قد انتقل إلى الأسرة المالكة البلجيكيّة، أن تدّعيه لنفسك».

وعاد الخادم الخاصّ ببطاقة الكونتيسّة «موليه»، أو بالأحرى بما تركته بمثابة بطاقة. فقد تذرّعت بأنّها لاتحمل بطاقات معها وأخرجت من جيبها رسالة سبق أن وردتها فاحتفظت بالمضمون واقتطعت زاوية المغلّف التي تحمل اسم: الكونتيسّة «موليه». ولمّا كان المغلّف كبير الحجم إلى حدّ ما حسب قياس ورق الرسائل الذي كان شائعاً في ذلك العام فإن هذه «البطاقة» التي سطّرت بخطّ اليد قد بلغت تقريباً ضعف حجم بطاقة الزيارة العاديّة.

فقالت الدوقة هازئة: «هذا ما يدعونه بساطة السيّدة «موليه». تريدنا أن نعتقد أنّها لم تكن تحمل بطاقات وأن تعرب عن تفرّدها. ولكنّا نعرف كلّ ذلك، أليس أنّنا نعرفه ياعزيزي «شارل»؟ لقد بلغنا من السنّ وقدراً من التفرّد أكثر من أن نتعلّم التظرّف على يد سيّدة صغيرة خرجت إلى الدنيا منذ أربع سنوات. إنّها فاتنة ولكنّما لايبدو لي أنّها بلغت مع ذلك حجماً كافياً لتتصوّر أنّها تستطيع إدهاش الناس بكلفة زهيدة إلى الحد الذي تترك فيه مغلّفاً بمثابة بطاقة وترميها في العاشرة صباحاً. سوف تبرهن لها الفأرة العجوز أنّها عارفة بهذا الشأن بمقدار ما تعرف».

ولم يتمالك «سوان» أن ضحك وهو يفكّر أنّ الدوقة التي كانت غيرى بعض الشيء من نجاح السيدة «موليه» سوف تجد بالتأكيد في «ظرف آل غير مانت» جواباً وقحاً بحقّ هذه الزائرة.

وعاد الدوق يقول: «أمّا بخصوص لقب الدوق «دوبرابان»، فقد قلت لك مئة مرّة يا «أوريان»... ولكنّ

الدقة قطعت عليه الكلام دون أن تصغي.

- «ولكنّني توّاقة إلى صورتك ياعزيزي «شارل».

فقال «سوان»: «آه! Extinctor draconis Iatrator Anubis».

- «أجل، جميل جداً ماقلته لي بهذا الشأن بالمقارنة مع القديس جاروجيوس في البندقيّة. ولكنّي لا أفهم لماذا تقول «أنوبيس»(*).

وسأل السيّد «دو غيرمانت» قائلاً: «كيف هو من كان جدّ «بابال»؟

فقالت السيّدة «دو غيرمانت» بلهجة جافّة لتعرب أنّها كانت تزدري هذا التلاعب اللفظيّ: «بودّك أن ترى الجدّة «بابال». وأضافت قولها: «أودّ لو أراهم جميعاً».

وقال الدوق: «اسمع يا «شارل»، هيّا ننزل بانتظار أن يتمّ تقديم العربة وستقوم بزيارتك لنا في الردهة لأنّ زوجتي لن تدعنا بسلام مادامت لم تشاهد صورتك». وأضاف بلهجة الراضي عن نفسه: «إني والحق يقال أطول بالاً، إنّي رجل هادئ أنا، ولكنّها قد توردنا حتفنا».

وقالت الدوقة: «إنّي أوافقك الرأي تماماً يا «بازان»، هيّا إلى الردهة، فإنّنا نعلم على الأقلّ لماذا ننحدر من حجرتك فيما لن ندري في يوم لماذا ننحدر من كونتات آل «برابان».

فقال الدوق «فيما كنّا نمضي لمشاهدة الصورة وكنت أفكّر في تلك التي كان يحملها «سوان» إليّ في «كومبريه»: «لقد كرّرت لك مئة مرة كيف دخل اللقب بيت آل «هيسّه» بزواج أحد آل «برابان» في عام ١٢٤١ بابنة آخر أمير لمقاطعتي «تورانغ» و«هيسّه» حتّى إنّ لقب أمير «هيسّه» هو بالأحرى الذي دخل بيت «برابان» أكثر منه لقب دوق «برابان» بيت «هيسّه» وتذكرين على أيّ حال أنّ شعارنا الحربي كان شعار دوقة «برابان»: «ليمبور لمن احتلّها»، إلى أن استبدلنا بشعار آل «برابان» شعار آل «غيرمانت»، الأمر الذي أجد أنّنا كنّا فيه على غير حقّ، وإن مَثَلَ آل «غرامون» ليس من شأنه أن يحملني على تغيير رأيي».

وأجابت السيّدة «دو غير مانت»: «ولكن، بما أنّ ملك البلجيكيّين هو الذي احتلّه... وعلى أيّ حال فوريث بلجيكا يدعى دوق «برابان».

- «ولكنّ ما تقولين ياصغيرتي لايقوم على أساس وهو خاطئ منذ البداية. فإنّك تعلمين مثلما أعلم أنّ ثمة ألقاباً مدّعاة تبقى بكلّ تأكيد إن اتّفق احتلال المنطقة على يد مغتصب. فملك إسبانيه مثلاً يسمّي نفسه دوق «برابان» متذرّعاً في ذلك بملكية أقلّ قدماً من ملكيّة أقلّ قدماً من ملكيّتنا ولكنّها أكثر قدماً من ملكيّة

(*) باللاتينية في النص: «أنوبيس النباح يا مجندل التنين»، والاستشهاد من ملحمة «الانيادة» لفيرجيليوس» وهو غير دقيق، وقد عدت إلى الأصل اللاتيني فإذا هو كالآتي: «آلهة من جميع الأصناف الخرافية وفي عدادهم النباح أنوبيس يوجهون سهامهم إلى نبتون وفينوس ومينيرفا».

ملك البلجيكيّين. ويقول كذلك إنّه دوق «بورغونيي» وملك الهند الغربيّة والشرقيّة ودوق «ميلانو». ولكنه لايملك «برغونيي» ولا الهند لا «برابان» أكثر ممّا أملك أنا هذا الأخير أو يملكه أمير «هيسّه» ولايحول ذلك دون أن يعلن ملك اسبانيه أنّه ملك أورشليم، وكذلك يفعل ملك النمسا وليس يملك أورشليم هذا ولاذاك.»

وتوقف لحظة وبه ضيق أن يكون استطاع اسم أورشليم أن يزعج «سوان» بسبب «المسائل القائمة»، ولكنّه عاد يتابع بسرعة أكبر: -- «ماتقولينه ههنا يمكن أن تقوليه عن كلّ شيء. فقد كنّا دوقة «أومال»، هذه الدوقة التي انتقلت إلى أسرة «فرنسه» بمثل انتظام «جوانفيل» و«شوفروز» إلى أسرة «ألبير» وانّنا لانطالب بهذه الألقاب أكثر ممّا نطالب بلقب المركيز «دو نوار موتييه» الذي كان ملك أيدينا والذي أصبح على نحو نظاميّ تام وقفاً على أسرة «لاتريموايْ»، ولكنّما لاينتج عن كون بعض التنازلات مقبولة أنّها جميعها كذلك». وقال وهو يلتفت صوبي: «إن ابن اخت زوجتي مثلاً يحمل لقب أمير «أغريجانت» الذي آل إلينا عن «جانّ المجنونة» مثلما آل إلى أسرة «لاتريموايْ» لقب أمير «تارانت». ولكنّ نابليون قد منح لقب «تارانت» هذا أحد الجنود الذي ربّما كان على أيه حال جندياً ممتازاً، ولكنّ الإمبراطور قد تصرّف في ذلك بما كان حتّى أقلّ مآلا إليه من نابليون الثالث يوم نَصَّبَ دوقاً على «مونمورانسي» بما أن والدة الأمير «بيريغور» كانت على الأقلّ من آل «مونمورانسي»، فيما لم يكن في «تارانت» نابليون الأوّل من أثر لـ«تارانت» سوى مشيئة نابليون أن يكون كذلك. ولم يثن ذلك «شيه ديستانغ»، وهو يلمح إلى عمّك «كونديه»، عن سؤال المدّعي الإمبراطوري إن هو الملم لقب دوق «مونمورانسي» في حفر «فانسين».

-- «اسمع يا «بازان»، لست أطلب خيراً من أن أتبعك في حفر «فانسين» وحتّى إلى «تارانت». وبهذه المناسبة، ياعزيزي «شارل، ذلك بالضبط ما كنت أنوي قوله لك حينما كنت تحدّثني عن القدّيس جاورجيوس. الذي في البندقيّة، ذلك أنّ في نيّتنا أنا و«بازان» قضاء الربيع القادم في ايطاليه وصقليّه. فلو تجيء معنا، فكّر كم سيكون الأمر مختلفاً! إنّي لا أتحدّث عن سروري بلقائك فحسب، ولكن تصوّر تصوّر ما الذي تضحي عليه رحلة كهذه نقضيها برفقتك بالإضافة إلى كلّ ماورويته لي في العديد من المرّات عن ذكريات الاحتلال النورمانديّ والذكريات القديمة! أعني أنّ «بازان» نفسه، ماذا أقول، و«جيلبير» قد يفيدان من ذلك لأنّني أحس أنّه ربّما أثارت اهتمامي حتّى مطالباتنا بعرش «نابولي» وسائر تلك الأمور إن شرحتها لي أنت في كنائس رومانية قديمة أو في قرى صغيرة جاثمة شأنها في لوحات الأوائل. ولكنّنا سنشاهد صورتك». وقالت الدوقة لأحد الخدم الخاصّين: «انزع الغلاف».

وتوسّل إليها الدوق الذي سبق أن توجّه إليّ باشارات مذعورة وهو يبصر ضخامة الصورة: «ولكن لايكن الأمر في هذا المساء يا «أوريان».

-- «ولكنّما يسرّني أن أشاهد ذلك برفقة «شارل»، تقول الدوقة بابتسامة متكلّفة في رغبتها مرهفة في عمقها النفسيّ، فقد كانت تتحدّث، وسط رغبتها في التحبب لـ«سوان»، عن المتعة التي ستصيبها من مشاهدة هذه الصورة وكأنّما عن المتعة التي يحسّ مريض أنّه سيصيبها من أكل برتقالة أو كما لو أنّها دبّرت في الآن نفسه طلعة برفقة أصدقاء وأطلعت كاتب سيرة على ميول لها تشرّفها.

وأعلن الدوق، فاضطرّت زوجته إلى موافقته، أعلن قائلاً: «سوف يجيء إذاً خصيّصاً ليراك». وأضاف بسخرية: «وتقضيان ثلاث ساعات معاً أمامها إن حلا لك. ولكن أين تضعين لعبة بهذا الحجم؟»

-«في غرفتي بالطبع، فاني أود الاحتفاظ بها أمام عيني».

- «آه! على قدر ما تشائين إن كانت في غرفتك، فمن المحتمل ألا أشاهدها في يوم»، يقول الدوق دون أن يفطن إلى التصريح الذي يعلن به على هذا النحو الطائش عن الطابع السلبيّ لعلاقاته الزوجيّة.

وأمرت السيّدة «دو غيرمانت» الخادم قائلة (وكانت تضاعف التوصيات بداعي التودّد لـِ«سوان»): «انزع هذا إذن باهتمام بالغ، ولا تتلف الغلاف كذلك».

وهمس الدوق في أذني وهو يرفع ذراعيه إلى السماء: «ينبغي لنا حتّى أن نحترم الغلاف!» ثم أضاف قوله: «ولكن يا «سوان»! أنا الذي لايعدو كونه زوجاً مسكيناً وعاديّاً جداً إنّما يثير اعجابي في ذلك أنّك استطعت العثور على غلاف بمثل هذا الحجم. فأين اكتشفت ذلك؟»

- «إنّها دار حفر الرواسم التي كثيراً ما تقوم بهذا النوع من الإرساليّات. ولكنّه رجل فظّ، فاني أرى أنّه كتب عليها: «الدوقة «دو غيرمانت» وأغفل «السيّدة»».

وقالت الدوقة ساهية: «إنّي أصفح عنه»، ثمّ بدا فجأة وكأنّما أدهشتها فكرة أشاعت السرور في نفسها فكتمت ابتسامة خفيفة وسرعان ماعادت تقول لـِ«سوان»: «عجباً! لاتقول إن كنت ستجيء معنا إلى ايطاليه؟».

- «أظنّ ياسيّدتي أنّ الأمر لن يكون ممكناً».

- «إذاً فالسيّدة «دو مونمورانسي» أوفر حظاً. لقد ذهبت برفقتها إلى البندقية و«فيسانس». وقد قالت لي إنّ المرء يشاهد معك أشياء ما كان ليراها في يوم لولا ذاك ولم يتحدث أحد عنها قطّ، وإنّك أريتها أموراً لاتصدّق وأنّها استطاعت حتّى في الأمور المعروفة أن تدرك تفاصيل لعلّها لولاك كانت مرّت عشرين مرّة أمامها دون أن تلاحظها البتّة. لقد كانت بالتأكيد أكثر حظوة منّا...» وقالت للخادم: «خذ غلاف صور «سوان» الضخم واذهب وضعها، بعدما أطوي أنا زاويتها، في منزل السيّدة الكونتيسّة «موليه» في العاشرة والنصف من هذا المساء».

وانفجر «سوان» بالضحك.

وسألته السيّدة «دو غيرمانت»: «أودّ مع ذلك أن أعلم كيف تستطيع قبل عشرة أشهر أن تعلم أنّ الأمر سيكون مستحيلاً».

- «سوف أقول لك ذلك يادوقتي العزيزة إن كنت تصرّين عليه، ولكنّك ترين، بادئ الأمر، أنّي مريض جداً»

– «أجل، ياعزيزي «شارل»، إنّي أرى أنّك لست البتّة على مايرام ولستُ مسرورة من لون وجهك، ولكنّي لا أسألك ذلك إلى ما بعد ثمانية أيّام، إنّي أسالك ذلك إلى مابعد عشرة أشهر. وفي عشرة شهور، تدري، يتّسع الوقت للمعالجة».

وجاء خادم خاصّ يعلن في تلك الحظة أن العربة قد جيء بها. فقال الدوق الذي كان قد أخذ منذ فترة يضرب الأرض بقدمه من نفاد صبر كما لو كان هو نفسه أحد الأحصنة التي تنتظر: «هيّا يا «أوريان»، إلى الجياد».

وسألت الدوقة وهي تنهض لتستأذننا: حسن! والسبب بمختصر القول؟ الذي سيحول دون مجيئك إلى ايطاليه؟».

فأجاب «سوان» وهو يبتسم، فيما كان الخادم يفتح باب الردهة المزجّج ليسمح للدوقة بالمرور: «ذلك لأنّي، ياصديقتي العزيزة، أكون قد فارقت منذ عدّة شهور. ففي رأي الأطباء الذين استشرتهم لن يدع لي المرض الذي بي، والذي يمكن على أيّ حال أن يقضي عليّ في الحال، أكثر من ثلاثة شهور أو أربعة وذلك كحد أقصى».

وصاحت الدوقة وهي تتوقّف ثانية في سيرها إلى العربة وترفع عينيها الزرقاوين الجميلتين الحزينتين اللتين امتلأتا حيرة. فإذ ألفت نفسها لأوّل مرة في حياتها واقعة بين واجبين مختلفين اختلاف استقلال عربتها للمبادرة إلى تناول العشاء في المدينة والإعراب عن اشفاقها لرجل تدنو منّيته لم تكن ترى شيئاً في مرمزّة اللياقات يشير إلى الاجتهاد الواجب اتّباعه، ولّما لم تعلم أيّهما تفضّل ظنّت من واجبها أن تتظاهر بأنها لاتصدّق امكانيّة طرح الخيار الثاني كيما تنصاع للأوّل الذي كان يقتضيها في هذه اللحظة جهداً أقلّ وحسبت أن خير طريقة لحلّ النزاع تكمن في إنكاره: «ماهذا الذي تقوله لي؟» ثم قالت لـ«سوان»: «مرادك أن تمزح؟».

فأجاب «سوان» بلهجة ساخرة: «قد يكون ذلك مزاحاً رائع الذوق. لست أدري لماذا أقول لك ذلك فلم أحدّثك عن مرضي حتّى الآن. ولكن مادمت سألتني عن ذلك وأنّه يمكن الآن أن أموت بين يوم وآخر... ولكنّي فوق كلّ شيء لا أودّ أن تتأخّري فإنّك تتعشّين في المدينة»، يضيف قوله لأنّه كان يعلم أن الالتزامات المجتمعيّة في نظر الآخرين تسمو على موت أحد الأصدقاء وأنّه كان بفضل تهذيبه يضع نفسه في مكانهم. على أن تهذيب الدوقة كان يمكنّها بدورها أن تتبيّن على نحو مبهم أن العشاء الذي تمضي إليه هو لابدّ أقلّ وزناً في نظر «سوان» من موته. ولذلك فقد خفضت منكبيها فيما توالي طريقها إلى العربة وقالت: «لاتشغل بالك بهذا العشاء فلا أهميّة له البتّة» ولكن هذه الكلمات عكّرت مزاج الدوق الذي صاح قائلاً: «هيّا يا «أوريان»، لا توالي الثرثرة هكذا وتبادل المرائي مع «سوان»، مع أنّك تعلمين تماماً أن السيّدة «دو سانت أوفيرت» تحرص أن تجلس إلى المائدة في الساعة الثامنة تماماً. لابدّ أن تعلمي أيّ أمر تريدين فقد انقضت خمس دقائق وجيادك تنتظر». ثمّ قال وهو يلتفت إلى «سوان»: «إنّي استميحك عذراً يا «شارل» ولكنّ الساعة بلغت الثامنة إلاّ عشراً ؛ إنّ «أوريان» متأخرة على الدوام ويقتضينا الأمر أكثر من خمس دقائق للذهاب إلى

منزل العمّة «دو سانت أوفيرت».

وتقدّمت السيّدة «دو غيرمانت» بثبات إلى العربة واستودعت «سوان» مرّة أخيرة. «تدري، سوف نعاود الحديث عن ذلك، إنّي لا أصدّق كلمة واحدة مما تقول، ولكن لابدّ أن نتحدّث عن ذلك سويّة. فربّما أشاعوا الرعب في نفسك بغباء، تعال للغداء وفي اليوم الذي تريد» (كان كلّ شيء يلقى حلّه على الدوام في حفلات غداء)، «وتبلّغني باليوم والساعة»، ورفعت تنّورتها الحمراء ووضعت قدمها على المرقاة. كانت على وشك أن تدخل العربة حينما صرخ الدوق بصوت مخيف إذ أبصر هذه القدم: «أوزيان، ما الذي كنت تزمعين الإقدام عليه أيتها التعيسة. لقد احتفظت بحذائك الأسود! مع ملابس حمراء! هيا اصعدي ثانية لانتعال حذائك الأحمر، أو قل في الحال لوصيفة السيّدة الدوقة»، يقول للخادم الخاصّ، «أن تجيء بالحذاء الأحمر».

وأجابت الدوقة بلطف وقد أربكها أن تلاحظ أنّ «سوان» الذي كان يخرج برفقتي ولكنّه شاء أن يسمح للعربة بالمرور أمامنا قد سمع: «ولكن ياصديقي مادمنا تأخّرنا...».

– «لا، الوقت كلّه يتّسع لنا. فلم تتجاوز الساعة الثامنة إلاّ عشراً ولن نقضي عشر دقائق للذهاب إلى حديقة «مونسو»، ثمّ ماعساك تبغين، سوف ينتظرون وإن بلغت الساعة الثامنة والنصف فلا يمكنك الذهاب بفسطان أحمر وحذاء أسود. ومهما يكن من أمر فلن نكون آخر القوم، اطمئنّي، هنالك أسرة «ساسناج»، فأنت تعلمين أنّهم لايحضرون قبل التاسعة إلاّ ثلثاً».

وعادت الدوقة إلى غرفتها.

وقال لنا السيّد «دو غيرمانت»: «يا للأزواج المساكين، يسخرون منهم ولكنّما فيهم بعض الخير مع ذلك. كانت «أوريان» تزمع تناول عشائها بحذاء أسود».

وقال «سوان»: «ليس ذلك قبيحاً، فقد سبق أن لاحظت الحذاء الأسود الذي لم يصدمني على الإطلاق».

فقال الدوق: «لست أقول العكس، ولكنّما يبدو أكثر أناقة أن يكون من لون الفسطان. اطمئنّ على أيه حال، فلو أنّها وصلت قبل الأوان للاحظتْ ذلك في الحال واضطرتْ أنا أن آتي لجلب الحذاء، وكنت تعشيت في التاسعة». وقال لنا وهو يدفعنا بلطف: «إلى اللقاء يا أبنائي الصغار، هيّا اذهبا قبل أن تنزل «أوريان». وليس يعني ذلك أنّها لاتحبّ لقاءكما كليكما. إنّها على العكس تحبّ لقاءكما كثيراً. فإن وجدتكما بعد ههنا فسوف تعود إلى الحديث، إنّها متعبة جداً وستصل إلى العشاء فاقدة الأنفاس. ثمّ إنّي سأقرّ لكما بصراحة أنّني أنا أموت جوعاً. فقد تغدّيت أسوأ غداء هذا الصباح وأنا أغادر القطار. صحيح أنّه كان ثمّة مرق كثيف حارّ مشؤوم، ولكنّي على الرغم من ذلك لن يغضبني البتّة، أقول البتّة، أن أجلس إلى المائدة، الثامنة إلاّ خمساً! آه! ياللنساء! سوف تلحق الأذى بمعدتنا كلينا. إنّها أقلّ عافية ممّا يعتقدون».

لم يكن الدوق يحسّ أيّ حرج في التحدّث عن متاعب زوجته ومتاعبه إلى مشرف على الموت لأنّ الأولى التي تثير اهتمامه بقدر أكبر كانت تبدو له أكثر أهميّة. ولذلك فقد صاح بداعي حسن التهذيب

والعافية فحسب وبعدما صرفنا بلطف، صاح كأنّما في الفراغ وبصوت جهوري من الباب إلى «سوان» الذي كان مذ ذاك في الباحة:

– «وأنت لاتسمح بأن تؤثّر فيك سخافات الأطبّاء، باللعنة! إنّهم حمير هؤلاء. صحتك أمتن من «الجسر الجديد» وسوف تدفننا جميعاً!».

❖



المحتويات

❖



مطابع انترناشيونال برس ت : ٣٤٧٤٢٥٩

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

• عبدة الصفر

الان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

• مدام بوفاري

جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد مندور

• الكلمات

چان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

• الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

• المكان

اني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد
وسيد البحراوي

• الآثار الشعرية الكاملة

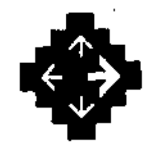
إديث سودرجران

ترجمة : محمد عفيفي مطر
ومحمد عيد إبراهيم

• چاز

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم



دار شرقيات للنشر والتوزيع

de fixer l'image du visage … multiplie …

… d'y décrire les hommes

comme

… avec occupant

une place prolongée

… comme

celle si restreinte qui leur est réservée

une place au contraire prolongée sans

… puisqu'ils touchent

… comme des géants plongés dans les années, à des époques si distantes, entre lesquelles tant de jours sont venus se placer – dans le Temps.

Fin.